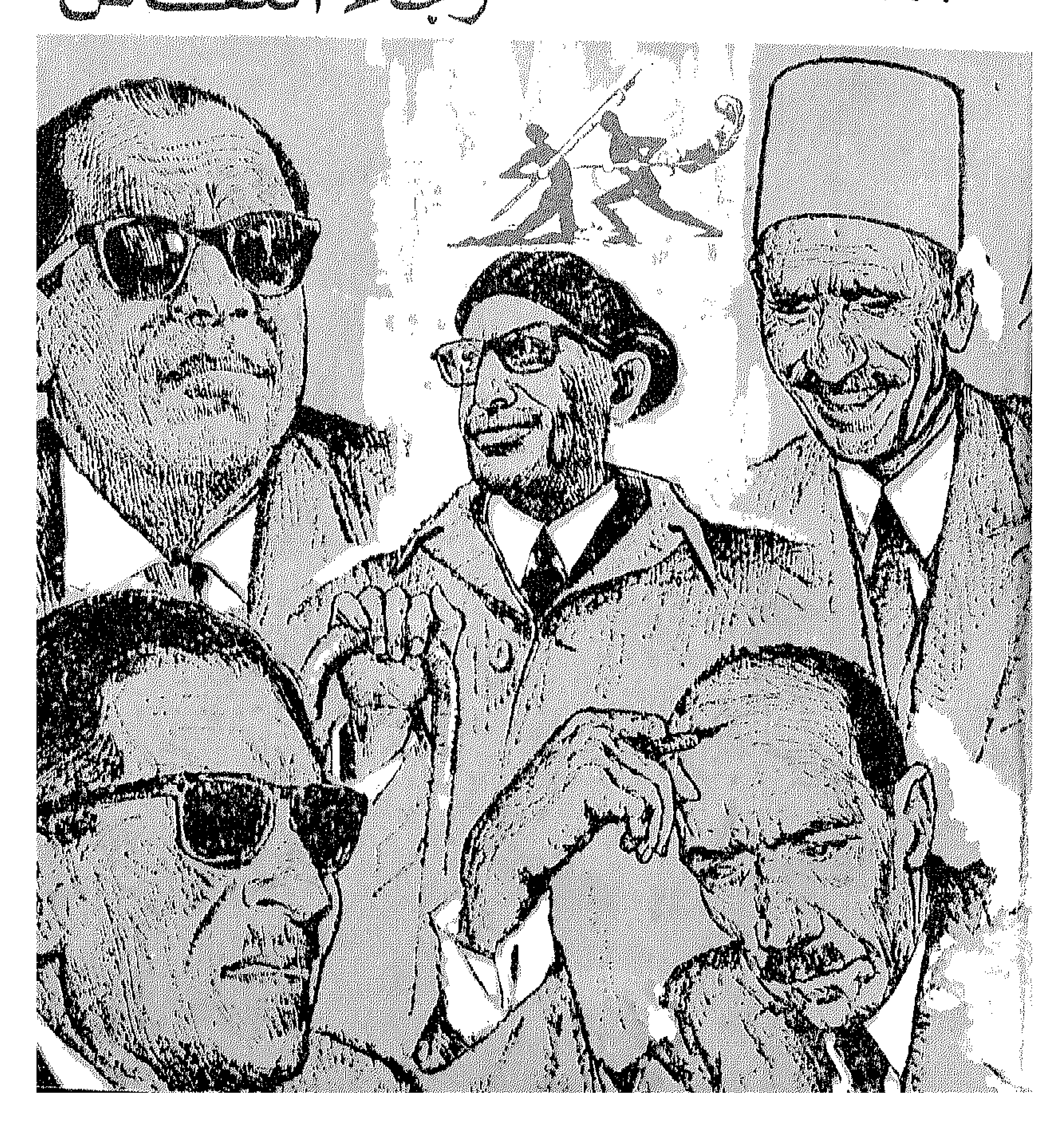

Bibliotheca Alexandrina
0136273

كتاب الهلال

أدباء معاصرون

رجاء النقاش

سلسلة ثقافية شهرية



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٤١ ذو الحجة ١٣٩٠ - فبراير ١٩٧١

No. 241 — Février 1971

مركز الادارة

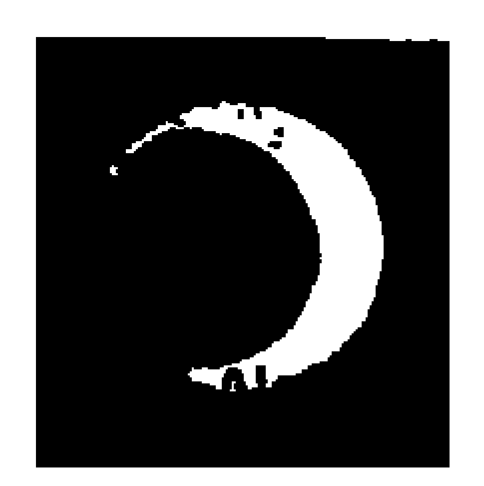
دار الهلال ١٦ محمد عز العـرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شـلنا - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

رجاء النقاش

أدباء ... معاصرون

دار الهلال

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات حول عدد من ادبائنا المعاصرين ، واحب هنا أن أسجل بعض الملاحظات السريعة التى تتصل بهـــذه الدراســات وبالمنهج الذى التزمت به .

فالادباء الذين تحدثت عنهم فى هذا الكتاب ليسوا من جيل واحد ولا من مدرسة واحدة ، ففى الكتاب حديث عن طه حسين الذى يقترب من الثمانين (مد الله فى عمره)، وفى الكتاب حديث عن محمود درويش الذى لم يصل الى الثلاثين بعد ، وهناك حديث عن رامى وهو من كبــار الشعراء التقليديين وحديث عن بدر شاكر السياب وهو أحد رواد المدرسة الجديدة فى الشعر العربى المعاصر .

وكما أن الادباء الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب لم يجمعهم جيل واحد ولم تجمعهم مدرسة فنية أو فكرية واحدة ، فان الكتاب يتحدث أيضا عن جوانب مختلفة من حياة هؤلاء الادباء ، فهناك دراسة عن طه حسين ومواقفه السياسية ، ودراسة عن رامى من الجانب الفنى فقط ، وهناك بحوث أخــرى تجمع بين الدراســة السياسية والدراسة الفنية والدراسة النفسية مثــل البحث الذى يضمه الكتاب عن نجيب محفوظ بفصوله المختلفة .

وأول بحث فى هذاالكتاب يتناول شخصية لطفى السيد

وهو مفكر وسياسى كان له تأثيره الكبير على الحياة الثقافية فى مصر ، ولكنه معذلك لم يكن شخصية أدبية بالمعنى الاصطلاحى المحدود لهذه الكلمة ، والذى دفعنى الى الاحتفاظ بدراستى لشخصية لطفى السيد فى كتاب عنوانه « أدباء معاصرون » هو ما تركه لطفى السيد من أثر واسع وعريض على الحياة الادبية فى بلادنا فلقد كان لطفى السيد بأفكاره ودعواته المختلفة موضوعا لبعض الروايات التى صدرت فى أوائل هذا القرن ، وهى الروايات التى اشرت اليها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ، وبالاضافة الى ذلك كان لطفى السيد ذا أثر كبير متعدد الجوانب فى الحياة الادبية ، فهو استاذ طه حسين ، وهو الاب الروحى للجامعة المصرية ، وهو صاحب أعلى الاصوات فى الدعوة التى كان شعارها « مصر للمصريين » ، وهى دعوة أثرت فى عدد من الادباء ودفعتهم الى كتابة بعض الاعمال الفنية المعروفة مثل رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل ، ورواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم . ومن أجل هذا كله كانت الصلة بين لطفى السيد وبين حياتنا الادبية وثيقة وكان تأثيره كبيرا على الشخصيات والتيارات الأدبية المختلفة فى بلادنا خلال النصف الاول من هذا القرن .

ومن ناحية أخرى فان هذا الكتاب لايقدم معلومات عامة عن الادباء الذين تعرضت لهم بالبحث والدراسة الا فى حالات قليلة . والقارىء الذى يريد أن يبحث عن تاريخ الكاتب ومراحل حياته المختلفة لن يجد فى هذا الكتاب مايغنيه ، فالكتاب يهتم بدراسة الاعمال الادبية ، والمواقف الفكرية والسياسية اكثر مما يهتم بدراسة حياة الادباء وتطور مراحلها . وسوف يجد القارىء مثل هذا النوع من المعلومات بين الحين والحين فى بعض الفصول ، ولكن هذه المعلومات ليست أساسية فى الكتاب ، لان الكتاب

لم يهدف ـ أساسا ـ الى تقديم مثل هذا النوع من المعلومات التى يمكن للقارىء أن يجدها فى كتب ومراجع أخرى ·

وقد حرصت على أن يضم الكتاب دراسات عن بعض الادباء العرب خارج مصر ، وذلك تأكيدا لايمانى بوحـدة الادب العربى فى الأجزاء المختلفة من الوطن العربى الكبير ، وتأكيدا لايمانى من ناحية أخرى بما يتم بين آداب الامة العربية فى كل أقطارها من تأثير متبادل وقوى .

ولعل الكتاب بعد ذلك كله لايخلو من خطوط عامة تحدد نظرة المؤلف الى الادب والثقافة ، وهذا هـو الذى يفسر تكرار عدد من الآراء والافكار فى بعض فصول الكتاب ، خاصة وأن هذه الفصول قد تمت كتابتها فى أوقات مختلفة مما ساعد على تكرار بعض الافكار هنا وهناك .

واخيرا فاننى أرجو أن يكون فى هذا الكتاب مايساهم ولو بنصيب ضئيل فى القاء الضوء على حياتنا الادبية المعاصرة ؛ وعلى الشخصيات التى شاركت فى صياغتها والتأثير عليها

« ر · ن »

رأى فى لطفى السيد

من حق لطفى السيد (١) علينا الا نذرف فوق قبره كثيرا من الدموع ، بل أن نقف أمام حياته الخصبة الغنية طويلا باحثين عن مغزى « شخصيته » ومعنى موقفه من الحياة ومعاركه المختلفة فى المجتمع ، ونحن عندما نبذل جهدا فى سبيل فهم لطفى السيد نكون بذلك قد أدينا بعض واجبنا نحوه بالاسلوب الذى يرضاه . فلطفى السيد لم يكن فى يوم من الايام رجلا من رجال العاطفة أو الخيال بل كان دائما رجلا من رجال العمل والتفكير الواقعى الواضح الدقيق . ولذلك فاننى أتخيله من وراء القبر يطالبنا بأن نفهمه بعقولنا قبل أن نفهمه بعواطفنا .. فعن طريق العقل الهادىء يمكننا أن نعرف الكثير من جوانب هذه الشخصية البارزة التى كان لها فى حياتنا الفكرية والسياسية أثر كبير.

وشخصية لطفى السيد تذكرنى باللوحة التى رسمها الفنان العالمى المعروف رافاييل وجمع فيها بين فيلسوفين عظيمين من فلاسفة اليونان هما أفلاطون وأرسطو ، وقد اختار رافاييل أن يرسم أفلاطون فى هذه اللوحة وهو يشير باصبعه الى السماء . أما أرسطو فقد رسمه رافاييل وهو يشير باصبعه الى الارض ، وكان رافاييل يريد أن يقول بذلك أن أفلاطون هو فيلسوف العاطفة والخيال وأنه أقرب

(١) كتب المؤلف هذا المقال بمناسبة وفاة لطفى السيد سنة ١٩٦٣ .

الى الشعراء ورجال الفن منه الى الفلاسفة والعلماء والمفكرين ، أما أرسطو فهو فيلسوف العقل والحكمة والتفكير الواقعي الذي ينبعث من الارض وما عليها من اشياء وكائنات وتجارب .

وصورة أرسطو هي نفسها صورة لطفي السيد ، فلطفي السيد كان هو الآخر يشير باصبعه الى الارض لا الى السماء ، فهو لايتخيل ، ولا يعتمد على الوهم ويزن أمور الفكر والحياة وزنا دقيقا شديد الاحكام .

وقد ظلت « النزعة العقلية » هي الصفة الرئيسية لشخصية لطفي السيد منذ أن خرج الى الحياة العامة قبل بداية هذا القرن بست سنوات أي في سنة ١٨٩٤ عندما تخرج من مدرسة الحقوق وكان آنذاك في الثانية والعشرين من عمره اذ أنه ولد سنة ١٨٧٢ ، « فالنزعة العقلية » الخالصة هي مفتاح شخصية لطفي السيد ، وهي التي تفسر لنا كثيرا من مواقفه وآرائه .

لقد ظهر لطفي السيد في حياتنا بعد مرور اثنى عشر عاما على فشل الثورة العرابية واحتلال الانجليز لمصر وكانت « النفسية المصرية » في ذلك الحين نفسية يائسة مهزومة . وكانت هذه النفسية بحاجة الى من يوقظها ويبعث اليها بنوع من الامل والتفاؤل ، حتى يمكن لها أن تقوم بأي عمل ايجابي في الحياة بدلا من الركود المطلق ، واليأس المطلق . كانت مصر في أزمة عنيفة تحتاج الى حل .

وفي قلب هذه الازمة ظهر حلان رئيسيان . كان الحل الاول يمثله مصطفى كامل ، وكان الحل الثاني هو اتجاه ينادي به البعض ثم تجسد أخيرا في شخصية لطفي السيد ، لانه كان أعظم المنادين بهذا الاتجاه والمعبرين عنه .

كان مصطفى كامل يمثل الدعوة الى الخروج من الازمة

بالثورة السياسية الشاملة التى تقلب كل شىء وتغير كل شىء .

وكان لطفى السيد يدعو الى الخروج من الازمة بالتفكير العقلى المتزن الذى لايقوم على عاطفة جامحة ولا على خيال بعيد ، وكان يدعو الى الاصلاح الهادىء ، والعمل المرحلى المتدرج من أجل تحقيق الاستقلال وغيره من الاهداف الوطنية .

كان مصطفى كامل يدعو الى تحقيق مايجب أن يتحقق ، أما لطفى السيد فكان يدعو الى تحقيق مايمكن أن يتحقق وكان مصطفى كامل يرى « رؤية » شاعرية بعيدة جميلة ، هى أن تتحرر مصر فورا ، وأن يخرج الانجليز منها بين يوم وليلة ، وأن يتم جلاؤهم عنها فى ساعات ، وكان لايقيم حسابا أو وزنا لاى نوع من الصعوبات ، لم يكن يملك سلاحا أو حزبا ثوريا منظما تنظيما دقيقا ومستعدا لخوض معركة مسلحة تكون استمرارا لمعركة عرابى وتنتهى بالنصر ... لم يكن يملك شيئا من هذا ، ولكنه كان يعتمد على شحن النفسية المصرية ضد الانجليز كل يوم ، وكان يحاول الى جانب ذلك أن يستغل التناقض القائم بين فرنسا وبريطانيا فى ذلك الحين ليثير الرأى العام الاوروبى والفرنسى بوجه خاص ضد الانجليز ، ومن هنا وثق صلته بالصحف الفرنسية وساعدته فى ذلك كاتبة مشهورة هى مدام « جولييت آدم » حتى أصبح صوته فى باريس مسموعا مدويا له خطره وأهميته .

كذلك كان مصطفى كامل شديد الامل فى تركيا حيث كان يتصور دائما أن مصر يمكن أن تعتمد على تركيا لكى تساعدها فى القضاء على الاحتلال الانجليزى ، وكانت تركيا فى ذلك الوقت مازالت محتفظة ببعض مظاهر قوتها كدولة كبرى ولذلك دعا مصطفى كامل دعوته المشهورة فى الربط بين

مصر وتركيا تحت راية « الوحدة الاسلامية » . ولم يلتفت مصطفى كامل الى أن تركيا كانت فى ذلك الوقت تحتل أجزاء أخرى من البلاد العربية مثل الشام والعراق والحجاز ، وتعتمد فى حكمها لهذه البلاد على الارهاب العنيف وسفك الدماء .

وكان لطفى السيد يعترض على هذا الموقف كله ، ويرى فيه نوعا من العاطفة الساخنة والخيال الجامح الذى يسبح فى الفضاء ولا يستطيع أن يقف بقدميه على الارض لحظة واحدة .

ان مصطفى كامل فى نظر لطفى السيد والمثقفين الذين يمثلهم ينادى بالمستحيلات ، فمصر بلد فقير يعيش فى ظلام كثيف من الجهل ، ولذلك فان فكرة « الثورة الشاملة » لا تناسب مصر . بل أن هذه الثورة فى ذلك الحين ، اى فى أوائل هذا القرن كانت مجرد حلم من الاحلام لا يمكن تحقيقه، لان أداته معدومة عند الشعب ، حيث كان لا بد أن ينتشر الوعى بين صفوف الجماهير قبل أن تقوم بالثورة والطريق الصحيح فى نظر لطفى السيد هو المطالبة بالاصلاح الهادىء ، وأخذ ما يمكن أخذه فى ظل الاوضاع الصعبة القائمة • ثم اعداد الشعب يوما بعد يوم اعدادا صحيحا من النواحى العلمية والسياسية والاقتصادية ، حتى يستطيع أن يقف فى وجه الانجليز موقفا حاسما ويحقق الاستقلال التام ولو بعد وقت طويل .

اى أن الاستقلال التام ــ حسب هذه النظرة ــ هو نتيجة وليس مقدمة وعلى أساس هذه النظرة العقلية بدأ لطفى السيد يوجه ضرباته الهادئة الى الواقع الاجتماعى ويكشف عن أفكاره الجوهرية فكرة بعد فكرة .

فهو يرفض فكرة الوطن فى صورتها الشعرية الرومانسية كما يتخيلها مصطفى كامل • ويرى أن الوطن هو المكان

الذى تلتقى فيه مجموعة من « المصالح المشتركة » التى تجمع بين الافراد . كذلك كان لا يؤمن باقامة هذا الوطن على أساس من الفكرة الدينية ، وبالتالى فهو لا يؤمن بالربط بين مصر وتركيا كما كان مصطفى كامل ينادى بقوة وحرارة .

فالوطن فى تعريف لطفى السيد هو الذى يمكن أن يجمع بين الاديان المختلفة ... أما اقامة الوطنية على أساس دينى فسوف يحرم الشعب من الذوبان فى وحدة وطنية صحيحة خالية من كل عناصر التفرقة .. لان الوطن للجميع مهما اختلفت الاديان .

هذه هى الفكرة « المدنية العقلية » للوطن والتى كان لطفى السيد يتبناها ويؤمن بها أشد الايمان ... وهى الفكرة التى كانت وحيا لكثير من دعواته الاصلاحية بعد ذلك .

وقد قادته هذه الفكرة الى الايمان بأن الحل الاساسى لمشكلة مصر هو الاخذ بجوهر الحضارة الغربية وما فيها من علم وصناعة وألوان مختلفة من الحضارة المادية ولا بأس أن يكون هذا كله سابقا للاستقلال نفسه . والحقيقة أنه كان من الصعب أن تتطور البلاد فى ظل الاحتلال . ولكن لطفى السيد كان على العكس يرى أن التطور فى ظل الاحتلال أمر ممكن .

وقد يساعدنا على توضيح هذا الخلاف الذى نشأ بين مصطفى كامل ولطفى السيد فى اوائل هذا القرن(١) أن نعود

---

(١) انعكس هذا الخلاف الحاد على الانتاج الادبى فى ذلك الحين فظهرت بعض القصص تؤيد مصطفى كامل وظهرت قصص أخرى تعارض القصص السابقة وتؤيد لطفى السيد وترى خلاص مصر على يديه كما ترى انه لا جدوى من حماس مصطفى كامل وانفعاله وقد اشرت الى هذه القصص فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ...

الى خلاف مشابه نشأ بعد هذه الفترة بقليل فى الهند .

لقد واجهت الهند فى أوائل هذا القرن نفس المشكلة التى واجهتها مصر ، فالاستعمار الانجليزى الذى يسيطر على الهند هو نفسه الذى يسيطر على مصر والظروف متقاربة الى أبعد الحدود ، وفى الهند ظهر أيضا طريقان لحل هذه المشكلة هما طريق غاندى وطريق طاغور .

وكان طريق غاندى شبيهـا فى جوهره بطريق مصطفى كامل من حيث دعوته الى الثورة الشاملة بأساوب غاندى السلمى ضد انجلترا ، بينما كان طريق طاغور شبيها بطريق لطفى السيد . كل ذلك مع اختلاف الظروف العملية والتفاصيل الواقعية ووسائل التعبير المختلفة ونوعية الشخصيات ومواهبها وقدرتها على التأثير .

كان غاندى ينادى بالثورة الشاملة ضد الانجليز فى كل شيء . وتطورت هذه الدعوة على يد بعض أنصار غاندى الى حد الدعوة الى مقاطعة البضائع الانجليزية والثقافة الانجليزية ، بل وكل شيء له علاقة بانجلترا وبأوروبا عموما وكان على الهنود فى ظل المقاطعة الشاملة أن يكتفوا بشعار غاندى المشهور « اغزلوا وانسجوا » . وكان غاندى يرى فى هذه المقاطعة السلمية الحاسمة أفضل طريقة لتحقيق الثورة الشاملة ضد انجلترا من أجل استقلال الهند .

وهنا وقف طاغور فى الهند ، كما وقف لطفى السيد فى مصر ... ليعترض على هذا الانقطاع عن حضارة الغرب المتقدمة لان هذا الانقطاع سوف يؤدى الى البقاء فى أسوار من الجهل ظلت الهند تعانى منها مئات السنين . فمن الضرورى فى رأى طاغور أن تخرج الهند من هذه الاسوار وتحطمها اذا كانت تريد أن تلعب دورا فى مستقبل الحضارة الانسانية ، واذا كانت تريد أن تحرر نفسها من

قيود التخلف الثقيلة .

وأخذ طاغور يقول « أنا مؤمن بالاتحاد الحقيقي بين الشرق والغرب » وكان يقول أيضا : علينا نحن أبنـاء الشرق أن نتعلم من الغرب ، وقد روى طاغور هذه القصة التى وقعت أثناء حركة المقاطعة الشاملة للانجليز وللغربيين عموما فى الهند حيث قال :

« أذكر أن نفرا من الطلاب أثناء حركة المقاطعـة دخلوا على وقالوا لى : اذا أوصيتنا بترك مدارسنا وكلياتنـا عملنا بنصحك دون تردد . فرفضت ذلك بشدة ، وكانت النتيجة أنهم ذهبوا ساخطين وهم فى ريب من صدق محبتى لوطنى » .

ذلك هو نموذج من المحاورة الايجابية العميقة بين غاندى وطاغور .

وقد انتهت المشكلة فى الهند بأن تبنى نهرو خليفة غاندى اتجاه طاغور تقريبا وذلك بعد أن تحقق للهند الاستقلال الوطنى ، فدعا الى الاستفادة من الحضارة الغربية العصرية على أوسع نطاق .

وهذه المشكلة التى نشأت بين غاندى وطاغور كانت تشبه الخـلاف بين مصطفى كامل ولطفى السيد شبها كبيرا . مما يدل على أن الشرق كله فيما يبدو كان يعانى من نفس الصراع فى البحث عن طريق للتحرر والخلاص .

ويجب أن نلاحظ أن هذا التشابه كان تشابها عاما ولم يكن تشابها فى التفاصيل فعلى سبيل المثال كان مصطفى كامل يمزج دعوته الثورية بالدين فيلح ويؤكد على الوحدة الاسـلامية . بينما كان غاندى يستبعد العنصر الدينى الذى يفـرق بين الهنود ويدعو بحرارة الى اقامة هند واحدة للجميع .

نعود بعد ذلك الى لطفى السيد لنجد أنه اتجه الى الغرب . وكان رسولا للحضارة الغربية فى مصر : يدعو اليها ويتحمس لأساليبها فى الفكر والحياة ويكاد يقول اننا لن نتحرر من السيطرة الغربيه الا بفهم الحضارة الغربية وهضمها أولا .

ولذلك لجأ لطفى السيد الى أرسطو فترجم بعض أعماله الرئيسية مثل كتاب « السياسة » وكتاب « الكون والفساد » ، فلطفى السيد لم يفهم الحضارة الغربية فهما سطحيا يقف عند مظاهرها الخارجية . بل فهمها فهما عميقا واتجه الى حقائقها الجوهرية الكبرى ، والى جذورها العميقة ، وما أرسطو الا حقيقة كبرى من حقائق الحضارة الغربية وجذر من جذورها الفكرية الرئيسية ، بل انه فى الواقع هو مركز العقلية الغربية والمنهج الغربى فى التفكير وقد ظل أرسطو بالنسبة للغرب هو المعلم الاول الذى لا ينافسه أحد فى مركزه وأهميته وتأثيره، حتى قامت النظريات الفلسفية الحديثة ، وخاصة فلسفة هيجل وما تبعها ونبع منها من فلسفات اشتراكية معاصرة ، كان من نتيجتها أن عارضت منطق أرسطو وأنزلته من عليائه .. ولكن قبل قيام هذه النظريات وعلى الأصح قبل انتشارها كان الفكر الغربى كله يستمد أصوله من فلسفة أرسطو . وما زال كثير من الجامعات الاوربية يعيش فى ظل هذا الفيلسوف وخاصة فى أوربا الغربية .

والشىء الأعظم الذى استفاده لطفى السيد من فلسفة أرسطو هو الاعتماد على « العقل » أو ما يمكن أن نعتبره نوعا من « التفكير الواقعى » ... وكانت هذه فائدة كبرى استطاع لطفى السيد أن يحدث بها حركة فكرية واسعة فى بيئة غارقة فى الخرافات والأفكار الغيبية والاتجاهات العاطفية التى لا تقوم على رؤية الواقع بطريقة علمية أو

دراسته دراسة عقلية عميقة .

واستقرت فلسفة لطفى السيد أخيرا على محورين رئيسيين : المحور الاول هو دعوته الى شعار « مصر للمصريين » ، والمحور الثانى هو الدعوة الى الاستفادة من نموذج الحضارة الغربية استفادة كاملة .

وكان لهذه الدعوة نتائج ايجابية خصبة متعددة . فمن خلال هذه الفلسفة تخلصت مصر نهائيا من الولاء للاستعمار التركى والتفكير فيه كبديل للاستعمار الانجليزى .

ومن خلال هذه الفلسفة نمت الفكرة الديمقراطية نموا كبيرا . وهى الفكرة التى تؤمن بالدستور والبرلمان وانتخاب الشعب انتخابا مباشرا لمن يمثلونه .. صحيح أن مفهوم الديمقراطية عند لطفى السيد كان مفهوما غربيا .. وصحيح أننا اليوم نعترض على قصور المفهوم الغربى للديمقراطية ونرى فى هذا المفهوم ألوانا عديدة من النقص .. لان الديمقراطية لا قيمة لها اذا لم تكن هناك مساواة اقتصادية ،أو بمعنى آخر لاقيمة للديمقراطية السياسية التى كان لطفى السيد يدعو اليها بدون الديمقراطية الاقتصادية التى تؤمن الاشتراكية بها والتى لم يفكر فيها لطفى السيد قط .ولكن هذا العيب فى الديمقراطية الغربية والذى يتضح لنا الآن ونحن نبنى ثورتنا الاشتراكية لم يكن واضحا فى تلك المرحلة الاولى من تطورنا . بل كانت الدعوة الى الديمقراطية حتى بمعناها البرلمانى الغربى — تعتبر خطوة متقدمة فى الحياة المصرية فى أول هذا القرن . وكانت هى نفسها المنبع الأساسى لكثير من التطورات الكبرى التى حدثت بعد ذلك فى الاقتصاد والتعليم وحرية المراة .

وكان من النتائج الايجابية الاخرى لدعوة لطفى السيد

أنه ساهم فى القضاء على المشكلة الطائفية فى مصر عن طريق شعار « مصر للمصريين » ... بعد ان جعل الوطنية رابطة عملية مدنية لا علاقة لها بالدين ، وحول هذه النقطة يقول سلامه موسى فى كتابه « اليوم والغد » :

« ان لطفى السيد هو صاحب الفضل فى بناء الوطنية المصرية . وهو الذى أخذ يفشى بيننا المبادىء الاوروبية عن العائلة وحرية المرأة واللغة والادب والسياسة . ورأى الأقباط أن وطنية لطفى السيد لا شائبة فيها فصاروا يؤمنون بالوطنية ، حتى اذا كانت ثورة ١٩١٩ هبوا مع اخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر . فالاتحاد الذى نراه الآن بين الأقباط والمسلمين ، يرجع الى لطفى السيد لا الى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا » .

أما فى التعليم فقد كانت دعوة لطفى السيد بمثابة انقلاب أدى الى تدعيم التعليم المدنى وانتشاره . ولم يكن من المصادفات ان لطفى السيد نفسه كان أول مدير للجامعة المصرية الرسمية عند انشائها سنة ١٩٢٥ ، وهو الذى دعم فيها عن طريق تلاميذه الكبار من أمثال طه حسين تلك الدراسات المستمدة من الثقافة الغربية والفكر الغربى ..

ولم يكن تأثير لطفى السيد مقتصرا على التعليم بل كان يمتد الى الثقافة والادب والصحافة ، وتحت تأثير أفكاره ظهر ذلك الميل الادبى الكبير الى الكتابة عن مصر والتعبير عنها . وأبرز ما صدر من الاعمال الادبية على أثر هذه الدعوة قصتان على جانب كبير من الاهمية فى تاريخنا الادبى هما : قصة « زينب » لمحمد حسين هيكل ، وهو تلميذ لطفى السيد وقريبه ، وقد تم طبع هذه القصة فى مطبعة جريدة « الجريدة » التى كان لطفى السيد يرأس تحريرها ويوجه سياستها وينشر فيها أفكاره الرئيسية

المختلفة . وفي مقدمة هذه الرواية يقول « هيكل » ان هذه الرواية هي « ثمرة حنين للوطن وما فيه ، صورها قلم مقيم في باريس » ... نعم لقد كانت هذه الروايه حنينا الى مصر واستجابه واضحة لدعوة « مصر للمصريين » التى ترددت على لسان لطفى السيد وقلمه بقوة ووضوح .

ومن الأعمال الفنية الهامة التى ظهرت ايضا فى هذه المرحله رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم . وقد كانت هذه الرواية ولا شـــك متأثرة بدعوة لطفى السيد التى أصبحت فيما بعد شعاراً لثورة ١٩١٩ ودعوة عامة يتبناها جميع المصريين ، وهى دعوة « مصر للمصريين » .

بقيت قضية أخرى لعب فيها لطفى السيد دورا بارزا هى دعوة تحرير المراة .. وكانت هذه الدعوة تتردد بعنف وقوة على لسان قاسم أمين .. ولكن لطفى السيد اخذها بطريقته الاصلاحية الهادئة ونادى بها .. وظل يرعاها حتى تمكنت المرأة المصرية بفضله من دخول الجامعة ، وقد استقال من الجامعة فى عهد حكومة صدقى سنة ١٩٣٢وذلك إحتجاجا على وزير المعارف في ذلك الحين «حلمي عيسى» فقد أصر هذا الوزير الرجعى على محـاربة المرأة فى ميـــدان التعليم الجامعى ، واصر طه حسين عميد كلية الآداب آنذاك بتأييد من مدير الجامعة لطفى السيد على أن ندخل المرأة الجامعة وأن تتعلم على نفس المستوى الذى أتيح للرجل وكانت النتيجـة أن أصــدر حلمى عيسى قرارا بفصل طه حسين من الجامعة .

وهكذا دخــل لطفى السيد معــارك عديدة ، وان لم يتخل ابدا عن منهجـــه الواقعى العقلى الذى يمكن أن نسميه فى النهاية بأنه منهج « اصلاحى » وليس منهجا « ثوريا » ولكن هذا المنهج استطاع دائما أن يؤدى الى تطوير ايجابى فى جوانب كثيرة من حياتنا ، لقد ساعد

مساعدة كبيرة على خلق مرحلة التنوير العام فى الحياة والثقافة والتعليم .

واذا كنا نفخر الآن بتطور التعليم والجامعات وتطور الصحافة وتطور عقليتنا فى معالجة أمور الحياة المختلفة والنظر اليها نظرة عصرية ، فنحن مدينون فى كل هذا لبعض كبار مفكرينا وعلى رأسهم لطفى السيد .

ومع ذلك كله فقد وقع لطفى السيد فى عدد من الأخطاء الفكرية والسياسية البارزة ولم تكن نزعته الاصلاحية الهادئة هى فقط السبب فى أخطائه بل كانت هناك عوامل اخرى ، منها نشأته فى بيئة اقطاعية معروفة ، وارتباطه الدائم بالاقطاعيين فى مختلف مراحل العمل السياسى .

وفى أول قائمة أخطائه التى لابد أن يحسبها عليه تاريخنا المعاصر موقفه من الزعيم الثائر أحمد عرابى . فلقد هاجمه لطفى السيد بقسوة ، لا تتفق مع طريقته العقلية الهادئة فى تحليل الأمور ومعالجتها . وهذه القسوة فى الهجوم على عرابى تؤكد أيضا أن لطفى السيد كان باستمرار على استعداد لمهادنة الانجليز والقصر والتعاون معهما . فلا تبرير لقسوته على عرابى الا صلته بالانجليز والقصر ، لان عرابى كان ينادى بالكثير مما نادى به لطفى السيد من بعده ، فالتخلص من سيطرة الاجانب والمتمصرين على البلاد كان من أهم أهداف عرابى ، وهذا ما جاء لطفى السيد بعد ذلك ونادى به تحت شعار « مصر للمصريين » ، وكان عرابى ينادى بالديمقراطية واقامة برلمان يمثل الشعب ويعبر عنه ، وهو ما كان يدعو اليه لطفى السيد أيضا .

وهكذا لانجد فى عرابى عيبا من وجهة نظر لطفى السيد الا أنه كان عدوا صريحا لأسرة محمد على وعدوا صريحا للانجليز ، ثم ان عرابى كان ثوريا لا اصلاحيا فى العمل

على تحقيق الأهداف الشعبية التى آمن بها .

كما يؤخذ على لطفى السيد ، ولاشك، أنه كان يدعو الى مبادىء معينة ثم ينحرف عن هذه المبادىء فى التطبيق .. فمثلا كان لطفى السيد دائما من دعاة الديمقراطية . ومع ذلك فقد اشترك فى كثير من الوزارات التى عطلت الدستور ووقفت ضد الديمقراطية موقفا عنيفا . مما يدل على انه كان حريصا فى نهاية الأمر على أن يتحرك فى اطار مصالحه الأساسية كواحد من أبناء أسرة اقطاعية كبيرة ... لقد اشترك فى حكومة محمد محمود سنة ١٩٣٨ وهى التى كانت تسمى بحكومة اليد الحديدية لشدة ضغطها على الشعب وارهابها للجماهير ، كما اشترك فى وزارة صدقى سنة ١٩٤٦ وهى الوزارة التى حاربها الشعب ووقف ضدها بعنف .

ومن اخطاء لطفى السيد أيضا ، أو من جوانب النقص فى شخصيته ولا شك ، أن انتاجه الفكرى الخاص كان ضئيلا الى حد بعيد فليس له فى حياته الطويلة سوى عدد قليل من الكتابات هى مجموعة خطب أو مقالات نشرت فى بعض الصحف التى كان يشرف عليها . وذلك بالاضافة الى ترجمته لبعض كتب ارسطو ، وهذا النقص فى شخصية لطفى السيد يدل على أنه لم يكن غزير الفكر ويدل على أن الذى ساعده على أن يحتل مكانه فى حياتنا الفكرية والثقافية هو أنه كان من أسرة كبيرة ومن طبقة اجتماعية عالية . ولو كانت كفاءاته الفكرية هذه هى كل كفاءاته لما احتل هذا المكان الضخم من الحياة المصرية قبل الثورة . وبالتالى لما استطاع أن يترك تأثيره الواسع الذى تركه فى مجالات متعددة بعد وصوله الى كثير من المراكز القيادية بفضل مكانته العائلية والاجتماعية .

وأخيرا فان مما يجب أن نأخذه على لطفى السيد أنه

جعل شعاره المعروف « مصر للمصريين » عازلا له عن أى احساس عربى ، سواء كان ذلك فى الميدان السياسى أو الميدان الثقافى ، ومن الطبيعي أن تكون شخصية مصر العربية فى أوائل هذا القرن غير واضحة بما فيه الكفاية عند معظم المفكرين والسياسيين ٠ولعلنا نذكر تلك القصة الشهيرة عن سعد زغلول عندما سأله عبد الرحمن عزام عن رأيه فى الوحدة العربية ، فاعترض عليها وقال أنها بلا جدوى لان اضافة الاصفار الى بعضها البعض لن يساوى فى نهاية الامر الا صفرا ، ولكن ابتعاد لطفي السيدعن الاحساس العربى وصل به الى درجة متطرفة من تجاهل الروابط العربية بين مصر والأجزاء الأخرى من البلاد العربية ، ويذكر الدكتور عبد الرحمن ياغى فى كتاب له عن « الأدب الفلسطيني المعاصر » ، أن لطفى السيد دعى فى سنة ١٩٢٥ لحضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس ، وكان مديرا لجامعة القاهرة فى ذلك الحين (جامعة فؤاد كما كانت تسمى آنذاك) ، وذهب لطفى السيد بالفعل الى حفلة افتتاح تلك الجامعة ، وكان من بين الحضور اللورد « بلفور » صاحب وعد بلفور المشهور والذى يعلن التزام بريطانيا بالمساعدة على اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وقد سجل الشاعر الفلسطينى اسكندر الخورى هذا الموقف من جانب لطفى السيد فى قصيدة قال فيها :

الله أكبر كل هذا فى سبيل الجامعة
ان السياسة أوجدتها والسياسة خادعة
يالورد مالومى عليك فأنت أصل الفاجعة
لومى على مصر تمد لنا أكفا صافعة
نشكو لكم منكم بنى مصر ظروف الواقعة
أوهمتم الأعداء أنا أمة متقاطعة

لا تشمتوا أمما غدت فينا وفيكم طامعة

***

هذه الحادثة التى وقعت سنة ١٩٢٥ ، لا بد أن نفهمها فى اطار الظروف العامة فى تلك الفترة ، فلم يكن الخطر الصهيونى واضحا آنذاك وضوحا كافيا، وكان اليهود فى مصر يعاملون فى تلك الفترة على قدم المساواة مع بقية طوائف الشعب ، وقد عمل أحد اليهود المصريين وهو يوسف أصلان قطـاوى وزيرا للمواصلات والمالية وكان عضوا فى اللجنة التى أعدت دستور ١٩٢٣ ... أى أن دور اليهود وخطط الصهيونية لم تكن أمورا واضحة فى ذلك الحين أمام العرب خارج فلسطين ، ولذلك لا يمكن اعتبار موقف لطفى السيد عملا من أعمال الخروج على الوطنية ولكنه فى حقيقته قصور ملموس فى الاحساس العربى ، وفهم محدود لقضية العلم ، فقد كان اشتراك لطفى السيد فى افتتاح الجامعة العبرية مبنيا على ما قاله آنذاك : من أنه يشترك فى عمل علمى خالص لا علاقة له بالسياسة . ولو كان لطفى السيد على وعى ولو بسيط بارتباط مصر العربى لما اتخذ هذا الموقف ولا لجأ الى هذا التفسير الذى يجرد فيه العلم ويفصله عن العمل السياسى والوطنى والانسانى ، خاصة أنه كان يضع نفسه فى طبقة المفكرين الذين تنتظر منهم أمتهم دائما أن ينظروا الى أمام ويروا أبعد من حاضرهم ، ورغم كل هذه الاعتبارات فمن المؤكد أنه ليس من الانصاف أن ننظر الى مثل هـذه المواقف القديمة بمقاييسنا الراهنة وخاصة بعد أن أكدت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عمليا ونظريا انتماءنا العربى بصورة نهائية وقاطعة . فلقد كانت هذه القضـايا التى تبـدو واضحة أمامنا اليوم غير واضحة بما فيه الكفاية للأجيال السابقة . وكل ما يمكن أن نقوله عن لطفى السيد فى هذا

الموقف أنه أخطأ فى فصل المصير المصرى عن المصير العربى دون أن يكون فى موقفه اى نوع من التآمر أو الخيانة .

***

لقد كان لطفى السيد فى آخر الأمر شخصية اصلاحية، ساعدته الظروف الاجتماعية والظروف الشخصية على أن يحتل مكانا بارزا فى مجتمع مصر قبل الثورة ، وهو مكان كان لطفى السيد يملك منه القدرة على التأثير ولقد أثر لطفى السيد على الفكر والمجتمع تأثيرا ممتازا فى بعض جوانبه سيئا فى جوانبه الأخرى ، ولكن جوانبه الايجابية ولا شك أكثر وضوحا من جوانبه السلبية وأبقى للناس . فلقد استغل لطفى السيد مكانته ومناصبه القيادية استغلالا سليما فى معظم الأحوال ، ولا يمكننا أن ننظر الى التطورات الضخمة التى حدثت فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين ، وخاصة فى ميدان الفكر والتعليم والتطور الاجتماعى ، دون أن نرى بصمات لطفى السيد على هذا كله . وهذا يكفيه ولا شك لكى يجعل منه شخصية بارزة فى تاريخنا المعاصر مهما كانت اعتراضاتنا ومآخذنا عليه ومهما كانت أخطاؤه وانحرافاته السياسية.

طه حسين ...
والأحزاب السياسية

كان طه حسين منذ بداية حياته الفكرية فى سنة ١٩٠٨ تقريبا رجلا من رجال الأدب والفكر ، قبل أن يكون رجلا من رجال السياسة .. ولذلك فنحن اذا بحثنا فى كتبه التى تحدث فيها عن تاريخ حياته وتجاربه ، وأهمها كتاب « الايام » فاننا لن نجد فيها شيئا عن طه حسين السياسى ، ولن نجد فيها شيئا عن علاقاته بالأحزاب المختلفة ورجال هذه الأحزاب ، وانما كان طه حسين حريصا فى « الايام » وفى كتبه التى تناول فيها سيرة حياته على أن يحدثنا عن تطوره الوجدانى والعقلى ، وعن التجارب النفسية المختلفة التى صنعت منه هذا الشخص العظيم الذى نسميه طه حسين .

ولذلك كان كتاب الايام ، خاصة الجزء الاول ، أقرب الى الشعر منه الى النثر ، انه تاريخ شعرى عاطفى لطه حسين ، وليس فيه من تاريخ تجاربه العملية ، ومعاركه الواقعية الا القليل اليسير ..

والسبب الأكبر فى هذا كله ، كما قلت ، هو أن طه حسين كان أديبا ومفكرا بالدرجة الاولى ، وهو عندما دخل ميدان السياسة (منذ كان فى العشرين من عمره أو حتى قبل ذلك)لم ينس أبدا أنه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب ومفكر ولم يدخله كسياسى محترف للسياسة .

ومن هنا لم تستطع القوى السياسية التى ارتبط بها طه حسين أن تفرض عليه طابعها الخاص ، بقدر ما ترك هو طابعه على هذه القوى واستفاد منها لخدمة أفكاره وقضاياه التى كان يؤمن بها بطـريقته العنيفة الحـارة المتطرفة فى الايمان بالاشياء •

وهذا الحرص على الجانب الأدبى والفكرى خلال حياة طه حسين وكفاحه الطويل ، هو الذى جعل لطه حسين شخصية مستقلة حتى فى أشد أيام ارتباطاته بالأحزاب ، وفى أعمق لحظات اتصاله بها .

ولنترك هذا الحديث النظرى ، ولنبحث ـ مباشرة ـ فى قضية طه حسين والأحزاب السياسية .. لقد حدث أول ارتباط بين طه حسين وبين الأحزاب السياسية فى أوائل هذا القرن • وكان الحـــزب الذى ارتبط به طه حسين فى هــذه التجـربة السياسية الأولى هــو حزب « الأمة » .

وكان الذى جذبه الى هذا الحزب هو شخصية لطفى السيد ، أكبر رأس مفكر فى الحزب ، ومحـرر صحيفة « الجريدة » التى تنطق بلسـان الحـزب والتى أسسها الحزب فى سنة ١٩٠٧ برأسمال قدره عشرون ألف جنيه، ومن هنا لم يكن ارتبـاط طه حسين بهذا الحزب الرجعى، الذى يمثل كبار الاقطاعيين والاغنياء راجعا الى التكوين « الاجتماعى » للحزب ... فلم يكن طه حسين منحدرا من أسرة غنية ، ولم يكن بعيـدا عن مشـاعر الطبقـات الشعبية ، فقد خرج من أسرة متوسطة أقرب الى الفقر منها الى الغنى ، ولـكن طه حسين ارتبط بحزب الأمة لسبب فكرى واضح ، فقد كان طه حسين فى ذلك الحين طالبا فى الأزهر ، وكان ميالا ـ نتيجة لتفتحـه الذهنى

المبكر ـ الى الآراء المتحررة المجددة في الادب والحياة ..

لقد كان يعيش فى بيئة الأزهر الدينية المتحفظة ، وهو اقرب ما يكون الى التيار الذى خلقه محمد عبده ، ولم يكن هذا التيار المتحرر المتفتح هو التيار الغالب فى ذلك الحين ، بل كان تيارا مغلوبا يكافح ويناضل من أجل الانتصار وكسب المواقع المختلفة ، وكانت أقرب بيئة خارج الازهر الى عقلية طه حسين المتفتحة الثائرة البعيدة عن الجمود والتزمت ، هى تلك البيئة التى خلقها لطفى السيد فى مصر عن طريق « الجريدة » لسان حال حزب الأمة ، وهى بيئة قريبة جدا الى مدرسة محمد عبده وعقليته .

وكان لطفى السيد أكبر عقل مثقف ثقافة غربية فى مصر فى ذلك الحين ، فقد تعلم فى أوروبا ، وعاد منها مقتنعا بالثقافة الغربية اقتناعا عميقا ، وأراد أن ينقل هذه الثقافة الى مصر ، او بالاحرى اراد أن يجعل مصر تتجه وجهة غربية عصرية فى ثقافتها الجديدة ، فى العلم والسياسة والمجتمع .

ولم تكن طريقة لطفى السيد فى الدعوة الى آرائه طريقة عنيفة ملتهبة ، بل كانت طريقة هادئة ، تهدف الى الايضاح والتنوير وانتهاز الفرص المناسبة ، أكثر مما تهدف الى توجيه « صدمة » فكرية وروحية الى الجماهير بشكل أو بآخر . واستطاع لطفى السيد بأسلوبه المعتدل المطمئن الى نفسه المتمكن من أساسه الثقافى أن يخلق جزيرة فكرية فى مصر ، وهى جزيرة ترحب بالتجديد الفكرى والاجتماعى والسياسى . وكانت هذه الجزيرة الفكرية التى خلقها لطفى السيد هى تقريبا الجزيرة الوحيدة الموجودة فى البيئة المصرية والتى تنبع من البيئة

المصرية نفسها ، فلقد كان هناك جزيرة أخرى متحررة. تدعو الى الثقافة الغربية وتؤمن بها وكانت هذه الجزيرة تتمثل فى المثقفين الشوام أمثال يعقــوب صروف وشبلى شميل وفرح أنطــون وغيرهم ، ولــكن هؤلاء لم يكونوا محتكين بالبيئة المصرية احتكاكا عميقا ، ولذلك ظلوا غرباء عنها ضعفاء فى التأثير عليها رغم ثقافتهم الواسعة وتفوقهم الفكرى .

أما لطفى السيد فقد كان له تأثيره الفكرى الواسع ، لأنه ابن البيئة المصرية النابع منها العارف بمشاكلها معرفة دقيقة !

ووجد طه حسين فى لطفى السيد ، وفى التيار الفكرى المتحرر الذى خلقه لطفى السيد بيئة ملائمة تماما لفكره ، ملائمــة لعقله الذى يضيق بالبيئة المحــــافظة فى الأزهر ويصطدم بها كل يوم .

لم يكن هناك أحد يمكن أن يقبل آراء طه حسين المجددة، ورغبته فى تطور الادب والفكر ، أفضل من لطفى السيد . ولم يكن لطفى السيد يكتفى بقبول آراء طه حسين وافساح صدره لها بل كان يشجعه على هذه الآراء تشجيعا حارا وعميقا !

ولابد أن نقف هنا لحظة لنسجل نوعا من التناقض الغريب فى داخل حزب الأمة ، فلقد كان الحزب كجهــاز سياسى حزبا رجعيا شديد الرجعية يميل الى مهادنة الانجليز والتعاون الهــادىء معهم ، وكان من النــاحية الفكرية حزبا مغلقــا لا تكاد تكون له مبادىء واضحة ، ولا يكاد يكون له منهــج ذو قيمة أو أهمية : ومع ذلك (وهنا التناقض) استطاع لطفى السيد وحده من بين أعضاء هذا الحزب أن يخلق تيارا فكريا واسعا ، كان من الواضح أن حزب الامة نفسه لا علاقة له بهذا التيار .

وهكذا كان هناك انفصال بين السياسيين الذين يكونون الجسم الأساسى للحزب ، وبين هذا المفكر النشيط الذى يكون وحده تيارا خاصا به وهو لطفى السيد .. ويجمع حوله عددا كبيرا من المثقفين .

كان هناك تيار سياسى خافت فى حزب الامة ، لاأثر له ولا شعبية ، بينما كان هناك تيار آخر هو تيار فكرى منتسب بالدرجة الأولى الى لطفى السيد .. ربما لا يحس به أعضاء حزب الأمة أنفسهم ، هؤلاء الذين لا يعنيهم إلا أن يحافظوا على مصالحهم ، حيث سماهم لطفى السيد (وقد كان واحدا منهم فى النهاية) باسم : أصحاب المصالح الحقيقية .

فطه حسين اذن قد ارتبط بحزب الأمة من خلال التيار الفكرى لا من خلال الفكر السياسى . لقد ارتبط بالفكر الحر المتفتح على الثقافة الغربية .. وكان طه حسين ثائرا على الفكر المحافظ فى الازهر وخارج الازهر ، وكان يبحث عن مأوى لأفكاره المتحررة الثائرة ووجد هذا المأوى بوضوح فى التيار الثقافى لحزب الأمة .

وفى اعتقادى أنه لولا لطفى السيد واتجاهه الفكرى المجدد المتحرر لما ارتبط طه حسين بحزب الأمة ، فلقد كان الدافع الأساسى لهذا الارتباط دافعا فكريا ولم يكن دافعا سياسيا بحال من الأحوال ، ومما يؤكد هذا الاستنتاج أننا لا نجد فى انتاج طه حسين الفكرى فى هذه الفترة المبكرة من حياته أى ميل الى تأييد الاقطاعيين أو النظام الاقطاعى الذى كان يمثله حزب الأمة من الناحية السياسية والاجتماعية ... لم يكن طه حسين مؤيدا للاقطاع والرجعية ، بل كان « لاجئا » الى جزيرة الفكر المتحرر الجديد فى شخصية لطفى السيد الذى كان من أعضاء حزب الامة البارزين ، انه يرتبط

مع الحزب بمصالحه (فهو من كبار الاقطاعيين) وان كان ينفصل عنه بفكره وعقله لأنه من كبار المثقفين المجددين .

ولم ينتسب طه حسين فى هذه الفترة (حوالى سنة ١٩٠٨) الى الحزب الوطنى ، فقد كان الحزب الوطنى حزبا للشعب حقا ، ولم يكن حزبا للأغنياء والاقطاعيين مثل حزب الأمة ، ولكن شعبية الحـزب الوطنى كانت تتمثل فى جانبه السياسى . أما فى الجانب الفكرى فقد كان حزبا محافظا متعصبا فى كثـير من القضايا الفكرية الرئيسية ، لذلك لم يكن طه حسين (الذى يقلقه الفكر أولا وقبل كل شيء) يستطيع أن يجد هدفه وغايته فى فكر الحزب الوطنى .

فالحزب الوطنى يقوم فى دعوته الوطنية على أساس دينى ، والتطبيق العملى لهذا الاساس الدينى هو أن ترتبط مصر وتركيا فى ظل الخلافة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية .

وتركيا فى ذلك الحين هى رمز للتخلف الشرقى ، حيث كانت الحكومة التركية حكومة سلاطين مستبدين طغاة رجعيين ، لا يعترفون بالديمقراطية التى كانت حلم كثير من المثقفين فى مصر وفى كثير من دول الشرق العربى فى ذلك الحين ، وان اعترفوا بها فهو اعتراف ظاهرى لا قيمة له . ولقد كان الايمان بالارتبـاط مع تركيا (كمـا كان الحزب الوطنى ينادى) له ترجمـة فكرية واحـدة هى الايمان بالتقاليد القديمة الجامدة ورفض مظاهر الحياة الحديثة العصرية المرتبطة كل الارتباط بالغرب وثقافته .

وفى هذه الفترة بالذات قامت بين طه حسين وبين أحد أعلام الحـزب الوطنى وهو الشيخ عبد العزيز جاويش معركة حول موضوع (السفور والحجاب) .

وهذه المعركة تكشف لنا الاختلاف الواسع بين التفكير

العصرى المتحرر الذى آمن به طه حسين ، وبين التفكير المحافظ الذى كان يعيش فى ظل الحزب الوطنى .

لقد كان طه حسين يدافع عن سفور المرأة وتحريرها من الحجاب وهى فكرة عصرية ، أخذها من تفتحه على الثقافة الغربية والحضارة الغربية ، وكتب سنة ١٩١١ سلسلة من المقالات يدعو فيها الى هذا الرأى ، وهو يلخص مقالاته فى هذه الكلمات فيقول :

« لا فرق بين المرأة أو الرجل فى الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق منهى عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه ، فالمرأة لا تخلو بالأجنبى ولا تسافر وحدها ، ولاتتبرج تبرج الجاهلية الاولى . ولهابعد ذلكأن تفعل ما تشاء فى غير اثم ولا لغو . لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل . وليس عليها الا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانسانى كافة . هذا هو حكم الاسلام وهو رأينا لا نحيد عنه . ولا نعدل به رأيا آخر » .

وقد كان هذا الرأى الذى قال به طه حسين منذ أكثر من نصف قرن ، يعتبر رأيا تقدميا ، مفرطا فى تقدميته ، يمكن حسابه ضمن آراء المدرسة المتطرفة آنذاك فى الدعوة الى تحرير المرأة — وعلى رأسها قاسم أمين .

وقد رد على هذا الرأى الشيخ عبد العزيز جاويش (أحد زعماء الحزب الوطنى) وقال فى هذا الرد الذى دافع فيه عن الحجاب : « ان رأى الأستاذ طه حسين يعتمد على أصلين أوليين :

الأول : ظنه أن الحجاب انما اصطنع ليكون عقوبة على المرأة .

والثانى : قوله أن المرأة أو الرجل اذا نشأ على قواعد الدين وأصوله وهذبت أخلاقهما أمنا عادية الشر ولم

نحتج الى حجاب ونقاب .

أما الأصل الأول فنحن نخالف الأستاذ فيه ، نقول ان الحجاب لم يتخذ عقوبة للمرأة ولا حجرا عليها ، وانما اتخذ تكريما لقدرها وتعظيما لأمرها ، ودفعا للأذاة عنها . فاننا لا نخاف المرأة على نفسها فقط . بل نخافها ونخاف معها الشبان وما يتصفون به من سوء الخلال وكواذب الأخلاق .

وأما الاصل الثانى فنحن نوافق الكاتب عليه ،نقول ان تهذيب الأخلاق وتربية النفوس على أصول الدين يغنيان أكثر من غناء الحجاب والنقاب .

ولكن أين السبيل الى ذلك ؟

تلك هى المسألة التى لا يستطيع أحد أن يجيب عليها إلا بالقول حتى اذا آن له أوان العمل وحان حينه وقف منه موقف الحائر ، لا يدرى أيقدم أم يحجم ولا يعرف الى أين يذهب ولا من أين يجىء » .

هذا مثال من أمثلة الخلافات بين طه حسين ومفكرى الحزب الوطنى ولقد كانت هناك خلافات أعمق وأعقد ، ومن بين هذه الخلافات الرئيسية ما أشرنا اليه منذ قليل من أن رأى طه حسين هو اقامة دولة عصرية على أساس « قومى » لا على أساس دينى فالوطن فى مفهومه شىء آخر غير الدين ، ويجب فصل الدين عن الدولة ، وما كان الحزب الوطنى يوافق على مثل هذا الرأى الذى أخذ به طه حسين من الثقافة الغربية والنظام السياسى الغربى .

وعلى العكس كان الحزب الوطنى ينادى باقامة الدولة على أساس دينى ومن هنا كان الحزب يؤمن بالعمل على استمرار الخلافة العثمانية ، باعتبار ذلك استمرارا للخلافة الاسلامية ، وهى هدف الحزب الوطنى وأساس دعواه .

على الجانب الآخر ، فى حزب الأمة ، كانت آراء لطفى السيد ، هى الآراء القريبة الى قلب طه حسين وعقله . فلقد كان ينادى بفصل الدين عن الدولة والاخذ بفكرة الدولة المدنية العصرية ، كان ينادى بتحرير المرأة ، وسفورها ويتبنى« الكاتبات » اللائى كن يكتبن فىالدعوة الى تحرير المرأة ، فقد نشر فى صحيفة الجريدة مقالات لاحدى رائدات الحركة النسائية وهى « ملك حنفى ناصف » التى كانت توقع باسم « باحثة البادية » ثم نشر كتابها المشهور « النسائيات » وقدمه تقديما حارا متحمسا ، وفى النهاية كان لطفى السيد مؤمنا بالعقل أكثر من ايمانه بالعاطفة ولقد كان طه حسين أقرب الى الايمان بالعقل فى النظر الى أمور الحياة والمجتمع منه الى الايمان بالعواطف . ومن هنا وجد فى لطفى السيد ، ومن معه من مثقفى حزب الأمة جاذبية ، لم يجدها فى الحزب الوطنى الذى يؤمن بالتقاليد والعواطف العنيفة الملتهبة ، ولا يكاد يقترب من الأسلوب العقلى فى معالجة أمور الحياة والفكر والسياسة ! .

ومما يساعد على نفى تهمة الرجعية السياسية عن طه حسين فى هذه المرحلة ــ رغم ارتباطه بحزب الأمة الرجعى ــ أنه فى ذلك الحين ، حوالى سنة ١٩٠٨ ، كان هناك حزب ثالث فى مصر اسمه « الحزب الوطنى الحر »، وكان هذا الحزب يلتف حول جريدة المقطم وصاحبها فارس نمر ، وكان زعيم الحزب رجلا اسمه محمد وحيد، وكان يميل ميلا واضحا الى التعاون مع الانجليز ويقول هذا الحزب على لسان مؤسسه محمد وحيد ، « أن سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » .

لقد كان هذا الحزب يناصر الانجليز ، فى وقاحة لا حد لها ، وكان يتبنى نفس آراء حزب الامة ، ولكن بطريقة

أكثر صراحة وتطرفا وابتذالا ، ولم يقترب طه حسين من هذا الحزب اطلاقا ، ولو فى لحظة واحدة من لحظات بدايته الفكرية ، ذلك لأن هذا الحزب كان خاليا تماما من جناح المثقفين الذى يملأ حزب الأمة ويجعل له وجها آخر غير وجهه السياسى ٠٠ هذا الوجه الآخر هو الوجه الفكرى المتحرر ٠

فطه حسين اذن لم يرتبط سياسيا بحزب الامة ، والا لكان قد ناصر أيضا الحزب الوطنى الحر ، أو عطف عليه ، أو كتب فى صحفه أو نادى ببعض الافكار الرجعية ، ولكنه فى الحقيقة كان مرتبطا أساسا بالحركة الفكرية لحزب الامة هذه الحركة المجددة المؤمنة بالثقافة الغربية العصرية .

لقد كانت هذه الحركة هى أنسب بيئة لهذا الازهرى الشاب الذى كان ثائرا أشد الثورة على الازهر ، والذى فصل بالفعل من الازهر نتيجة لتطـرفه ولآرائه التى لم تعجب علماء الازهر .

على أن حزب الامة بدأ يمر حوالى ١٩٠٩ أى بعد سنتين من انشائه ، بأزمة عنيفة ، فلقد نشأ هذا الحزب ـ كما يسجل الباحثون والدارسون لهذه المرحلة من تاريخنا ـ بايحاء من اللورد كرومر الذى كان يعادى الخديو عباس عداء عنيفا ، بينما كان الحزب الوطنى يناصر الخديوى ، ويمثل قوة سياسية شعبية لها خطرها وتأثيرها الكبير وقد أراد كرومر أن ينشىء حزبا آخر يناصر الانجليز ويقف ضد الحزب الوطنى فأوصى بعض أنصاره بانشاء حزب الامة ولكن اللورد كرومر ترك مصر سنة ١٩٠٧ ، وجاء بعـده السير « الدون جورست » واتبع سيـــاسة الوفاق مع الخديوى عباس وذلك عكس سياسة كرومر ٠٠ هنا بدأ حزب الامة يفقد دوره ، وبدأ يذوى ويذبل ٠٠ الى أن انتهى الى الجمود وفقدان القدرةعلى أى حركة سياسية ، واخيرا

مات الحزب وتلاشى من الوجود السياسى المصرى .

لقد كان هذا الحزب يتوقع ان يستولى على الحكم عن طريق ثقة اللورد كرومر .. ولكن اللورد كرومر رحل عن مصر ، ورحلت سياسته ورحلت معه أيضا أحلام حزب الامة .

وفى فترة الازمة التى مر بها حزب الامة وأثرت على كل نشاطه بما فيه الجانب الفكرى والثقافى ، اقترب طه حسين من الحزب الوطنى اقترابا محدودا ، بعد أن ظل بعيدا عنه مختلفا معه فترة طويلة ، وكانت بداية التقائه بهذا الحزب عندما انشأ الشيخ عبد العزيز جاويش ـ أحد زعماء الحزب ـ مدرسة ليلية لتعليم اللغة الفرنسية لمن يريد ذلك من الطلاب ، وقد كان الحزب الوطنى يؤمن بضرورة تعاون المصريين مع فرنسا كقوة أوربية للضغط على انجلترا ، ولاشك أن هذه الفكرة كانت وراء انشاء مدرسة الشيخ جاويش لتعليم الفرنسية للطلاب المصريين، كما كانت وراء كثير من مواقف الحزب الوطنى وتصرفاته المختلفة .

وقد انضم طه حسين الى هذه المدرسة ، وتعلم فيها مبادىء اللغة الفرنسية . ثم أخذ ينشر فى صحف الحزب الوطنى مقالات وقصائد مختلفة .

على أننا نلاحظ فى هذه المرحلة من حياة طه حسين أن ارتباطاته بالحزب الوطنى كانت تتركز فى ايمانه بمبدأ واحد من مبادىء هذا الحزب وهو مبدأ الدعوة الى الجلاء والاستقلال التام ، فقد ظل طه حسين محتفظا بخلافاته الفكرية الاخرى التى أشرت اليها منذ قليل مع الحزب الوطنى ، وقد كتب طه حسين كثيرا من « قصائده » يدافع فيها عن استقلال مصر فى هذه الفترة ، ونشر معظمها فى صحف الحزب الوطنى ، ومن نماذج هذا الشعر قوله فى

احدى قصائده مخاطبا الانجليز سنة ١٩٠٩ :

تيمموا غير وادى النيــل وانتجعوا
فليس فى مصر للأطمــاع متســـع
كفوا مطامعكم عنا ، أليس لـكم
مما جنيتم وما تجنــــونه شبـع ؟

وفى قصيدة أخرى قالها يخاطب العام الهجرى الجديد:

كن أنت بعــد أخيك خير هلال
وأضيء لمصر سبيل الاستقلال
أشرق وحدث مصر عن آمالهـــا
ماذا صــنعت بهــذه الآمال
أمصدق فيــك الظنون وناظر
للنيل نظــــرة مانح وصال ؟
ومبدد عن مصر بعض همومهــا
فلقد أضربهـــا أخوك الخالى
أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها
من ريبهـــن بوابل هطـــــال

وقال غير ذلك من النماذج الشعرية التى تعتبر الآن اثرا طريفا من آثار طه حسين والتى جمع الكثير منهـــا الاستاذ محمد سيد كيلانى فى كتابه القيم « طه حسين الشاعر والاديب » .

وكل هذه النماذج وغيرها من كتابات طه حسين تدلنا على شيء واحد هو أن ارتباط طه حسين بالحزب الوطنى كان هذه المرة ارتباطا سياسيا ولم يكن ارتباطا فكريا ، فما زال طه حسين مؤمنا بآرائه التى تشده الى لطفى السيد ومثقفى حزب الامة مثل الدعوة الى فصل الدين عن الدولة ، والى تحرير المرأة ، وما الى ذلك من آراء لايوافق عليها الحزب الوطنى ، ولا ينادى بها ، كما أنه استمر على رفضه للارتباط بتركيا أو للدعوة للخلافة الاسلامية

أما من الناحية السياسية فطه حسين يؤيد مبدأ هاما من مبادىء الحزب الوطنى وهو مبدأ الجلاء التام والاستقلال الكامل .

وقد ظل طه حسين على هذا القدر من الارتباط المحدود بالحزب الوطنى حتى سافر الى فرنسا فى بعثة دراسية سنة ١٩١٤ بعد أن نال الدكتوراه من الجامعة المصرية .

وعاد طه حسين بعد انتهاء بعثته فارتبط من جديد ارتباطا عميقا بلطفى السيد وجماعة المثقفين الذين كانوا أعضاء فى حزب الامة القديم أو كانوا أصدقاء لهذا الحزب ولم يعد طه حسين بعد رجوعه من فرنسا الى الاتصال بالحزب الوطنى على الاطلاق .

ويمكننا أن نجد فى هذه المرحلة من حياة طه حسين عنصرا جديدا يفسر لنا زيادة ارتباطه بهذه المجموعة من المثقفين ، لقد كان طه حسين يحس بعد أن تمكن من تعليم نفسه وتدعيم ثقافته ، انه قد عاد من باريس وهو يحمل آراء جديدة سوف تصدم الرأى العام صدمة عنيفة . وأن مثل هذه الاراء الجديدة تخالف التقاليد والافكار التى تعود عليها الرأى العام ، ولقد كان طه حسين يتوقع — وهو محق فى ذلك — أن يثور الرأى العام ضده خاصة ان الامية كانت منتشرة فى صفوف الشعب ، وأن التقاليد الفكرية المحافظة كانت معششة فى العقول بصورة قاسية .

ومن هنا تصور طه حسين انه لن يجد مأمنا لفكره الجديد المتمرد الا بين نخبة من المثقفين ولو كانت هذه النخبة قليلة ، ولكنها على أى حال سوف تفهمه وتقدره بل وسوف تقدم له الحماية وتدافع عنه .

ولذلك لم يفكر طه حسين بعد عودته من أوربا فى أن يرتبط بحزب شعبى ، فالحزب الشعبى عادة يمتد الى قاعدة جماهيرية كبيرة وهو يحرص على ارضاء هذه القاعدة

وعدم استفزازها ومثل هذا الحزب الشعبى لا يمكن أن يتبنى آراء لا توافق عليها الجماهير . ولقد كان الحزب الشعبى الذى بدأ يظهر ويستولى على قيادة الحيـــــاة السياسية فى ذلك الحين هو حزب الوفد .

لم يرتبط طه حسين بالوفد بعد عودته من باريس ، ولم يقف الى جانبه ، بل ظل مرتبطا ببقايا حزب الامة ، وأصدقاء هذا الحزب ، من أمثال عدلى ، وثروت . وفى سنة ١٩٢٢ تم انشاء حزب « الاحرار الدستوريين » من بين أعضاء حزب الامة القديم ، وقد أنشىء هذا الحزب لمعارضة الوفد ، وللوقوف الى جانب السراى فى حربهـــا ضد الوفد .

انضم طه حسين الى هذا الحزب واشترك فى تحـــرير صحيفته « السياسية » التى كان يرأس تحريرها أحــــد كبار المثقفين فى حزب الاحرار الدستوريين بل فى مصر كلها وهو الدكتور محمد حسين هيكل ، قريب لطفى الســـيد وتلميذه . وكان طه حسين فى ذلك الحين مدرســـا فى كلية الاداب بالجامعة المصرية . ووقف طه حسين فى هذه الفترة ضد الوفد وضد سعد زغلول .

ولاشك أن هذا الموقف من جانب طه حسين ــ وفى التقييم السياسى السليم كان موقفا خاطئا ولابد من النظر اليه على انه نقطة ضعف فى تاريخ طه حسين مهما كان تبرير هذا الموقف ، فالوفد فى ذلك الحين كان أكثر الاحزاب المصرية قربا من الشعب ، بينما كان الاحرار الدستوريون بعيدين عن الشعب ومصالحه لانهم مجموعة من الاعيان والاقطاعيين والمثقفين المنعزلين عن الحركة الشعبية .

ومع ذلك فقد كان وراء موقف طه حسين فى ذلك الحين أكثر من مبرر فكما أشرت كان حزب الاحرار الدستوريين « وقد احتوى حزب الامة القديم وأضاف اليه » يضـــم

جناحا من كبار المثقفين المتحررين وكان على راسهم أيضا لطفي السيد نفسه ، والذى كان من قبل على رأس الجناح المثقف فى حزب الامة القديم أيضا .

وهذه البيئة من المثقفين كانت تتقبل طه حسين وتساعده بكل مافيه من تمرد فكرى وثورة عقلية ولم تكن تنفر منه أو تضيق به ، ولو أن طه حسين انضم الى حزب الوفد فى تلك الفترة ، فان الوفد بالتأكيد ، لم يكن يستطيع ـ بسبب قاعدته الشعبية ـ أن يتقبل مثل هذه الآراء الفكرية الجديدة العاصفة التى جاء بها طه حسين ، والتى كان من المؤكد أن تصدم الجماهير وتثير سخطها .

ومن ناحية أخرى لم يكن حزب الوفد ولا قيادة سعد زغلول فوق النقد ، فلقد بدأ الوفد بعد ثورة ١٩١٩ يفكر بعقلية البحث عن السلطة ، أى أنه بدأ يتخفف من ثوريته الحارة العنيفة التى مكنته من قيادة ثورة ١٩١٩ ، وبدأت المآخذ تظهر ضد سعد زغلول من جماعات متعددة وبين المثقفين على وجه الخصوص . فكانوا يأخذون عليه نوعا من « المكيافيللية » السياسية ، ويأخذون عليه استبداده واصراره على قيادة الحركة السياسية المصرية ، التى اشترك معه فى قيادتها كثيرون من زملائه الاكفاء ، بطريقة فردية متسلطة لا تعطى فرصة العمل للاخرين ، وسواء صحت هذه المآخذ على سعد زغلول أو لم تصح ، فمن المؤكد انه كان قد فقد لمسة الاجماع على زعامته الى حد يقرب من التقديس خلال ثورة ١٩١٩ .. لقد فقد هذه اللمسة فى سنة ١٩٢٢ « عندما انشىء حزب الاحرار الدستوريين » وما بعدها الى سنة وفاته « ١٩٢٧ » ومن هنا لم يعد سعد فوق النقد .. ولم يعد حائزا على الولاء المطلق لقيادته وزعامته . وان ظل محتفظا حتى النهاية بولاء غالبية الجماهير

ومما لاشك فيه أيضا أن العلاقة الشخصية كان لها دور في هذا الموقف الذى اتخذه طه حسين ضد الوفد وضد سعد زغلول ، فلقد كان طه حسين على علاقة عميقة بلطفي السيد منذ بداية هذا القرن ، كما كان على علاقة وثيقة بأسرة عبد الرازق « حسن عبد الرازق ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق » وكانت هذه الاسرة من دعائم حركة الاحرار الدستوريين ، كما كانت من قبل من دعائم حزب الامة ، وكانت هذه الاسرة بالذات قريبة الى قلب طه حسين لان من بين أفرادها عالمين كبيرين تعلما فى الازهر مثلما تعلم طه حسين ولكنهما كانا من أكثر المنادين بالتجديد والتحرر فى الفكر العربى الاسلامى عموما ، وقد خاضا كثيرا من المعارك فى سبيل هذا التجديد ، وهذان العالمان الكبيران هما مصطفى عبد الرازق وعلى عبدالرازق ولعل مما يساعدنا على تفسير موقف طه حسين أيضا ، أن الفوارق الفكرية الدقيقة بين الاحزاب المصرية بعد ثورة ١٩١٩ لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، لقد كانت هذه الاحزاب متشابهة فى برامجها الفكرية والسياسية مما يعطى للعلاقات الشخصية فرصة كبيرة للتأثير .

تجمعت هذه العوامل كلها فربطت بين طه حسين وبين الاحرار الدستوريين وأبعدته عن الوفد . وفى هذه الفترة نفسها كان هناك على مسرح الحياة الفكرية زميل آخر لطه حسين .. ابن من ابناء جيله ، وواحد من المع مفكرى هذا الجيل هو عباس العقاد ، وكان العقاد يقف فى الطرف المقابل لطه حسين .. كان يرتبط بالوفد وبسعد زغلول أشد الارتباط .

ولعل المقارنة بين الكاتبين تساعدنا على الوصول الى مزيد من الوضوح فى فهم موقف طه حسين .

لقد خرج العقاد من أسرة فقيرة ، مما أضناه وارهقه

وجعله فى بداية حياته قريبا من واقع الشعب وجماهيره المختلفة ، اما طه حسين فلم يعان كل هذه القسوة فى بداية حياته ، بل وجد من أسرته المتوسطه ما يعينه على مواصلة تعليمه . بينما نجد العقاد لا يستطيع مواصله تعليمه بعد المرحلة الابتدائية ، وكانت المعركه الفكرية الاولى فى حياة العقاد ضد شوقى ، وهو شاعر كبير وأرستقراطى كبير ، وقد تجسدت فى هذه المعركة العنيفة بين العقاد وشوقى كل معانى الصراع الاجتماعى بين الطبقة الوسطى الصغيرة ، طبقة الافندية ، وبين الطبقة الارستقراطية ، طبقة الباشوات والبكوات التى يمثلها شوقى ، وكانت هذه الطبقة الارستقراطية تملأ حزب الامة ، وحزب الاحرار الدستوريين من بعده ، بينما كانت معركة طه حسين الاولى مع الازهر أى مع الرأى العام الذى كان من الطبيعى الايقبل أى هجوم على الازهر ولا يقره ، لان الهجوم على الازهر فى حساب الرأى العام هو هجوم على الدين .

وباستثناء هجوم العقاد على شوقى ، فانه لم يظهر بأى آراء أخرى ـ فى القضايا الكبرى ـ تصدم الرأى العام وتثيره .. بينما كانت كل آراء طه حسين فى بداية حياته الفكرية صدمة مستمرة متواصلة للرأى العام . ومن هنا كان العقاد قادرا على أن يقف بلا خوف فى صف الرأى العام بينما كان طه حسين يجد صعوبة فى التزام هذا الموقف ، وكان عليه أن يبحث عن أعوان وأنصار وحماة له ، حتى ولو كان ذلك بين صفوف المثقفين الارستقراطيين

على كل حال لم يمض وقت طويل حتى جاءت المعركة الحاسمة الاولى فى حياة طه حسين وهى معركة كتابه « فى الشعر الجاهلى » فقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٦ وأثار زوبعة ضخمة فى صفوف الرأى العام انعكست على مجلس النواب الذى كانت أغلبيته وفدية وكان سعد

زغلول رئيسا له ، بينما كان رئيس الوزراء هو عبدالخالق ثروت المتعاطف مع الاحرار الدستوريين والمعادى للوفد والمتحالف معه مؤقتا فى تلك السنة ، ومن الاشياء الدالة على موقف طه حسين أنه أهدى كتابه فى طبعته الاولى الى عبد الخالق ثروت وكان نص هذا الاهداء الذى لم يظهر فى الطبعات التالية هو :

« الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا .. سيدى صاحب الدولة ... كنت قبل اليوم أكتب فى السياسة وكنت أجد فى ذكرك والاشادة بفضلك راحة نفس تحب الحق ، ورضاء ضمير يحب الوفاء . وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة ، واذا أنا أراك فى مجلسها كما كنت أراك من قبل ، قوى الروح ، ذكى القلب ، بعيد النظرة ، موفقا فى تأييد المصالح العلمية توفيقك فى تأييد المصالح السياسية . فهل تأذن لى فى أن أقدم اليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والاجلال العظيم » .

وهكذا أهدى طه حسين كتابه ، أو قنبلته الفكرية الى عبد الخالق ثروت ، صديق الاحرار الدستوريين ، وصديق جناحهم المثقف على وجه الخصوص .

ولاشك أن طه حسين كان يعرف أن كتابه سوف يثير زوبعة فكرية ضخمة ، ولم يتوقع الحماية من الرأى العام ، وانما توقع هذه الحماية من النخبة المثقفة التى كانت ترتبط ارتباطا حزبيا بالاحرار الدستوريين أو تربطهم بهذا الحزب روابط صداقة ومودة من أمثال : لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وعبد الخالق ثروت ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق .

وقامت الزوبعة بالفعل ... ووقف البرلمان الوفدى برئاسة سعد زغلول ضد طه حسين وطالب البرلمان بمحاكمة طه حسين ، وتقدم النائب الوفدى عبد الحميد البنان

ببلاغ الى النيابة ضد طه حسين ، والقى سعد زغلول نفسه خطابا فى احدى المظاهرات التى قامت تطالب برأس طه حسين بسبب كتابه ، وقال سعد زغلول فى هـذا الخطاب :

« أن مسالة كهذه لا يمكن ان تؤثر فى هذه الامة المتمسكة بدينها ، هبوا أن رجلا مجنونا يهذى فى الطريق ، فهـل يضير العقلاء شىء من ذلك ، ان هذا الدين متين ، وليس الذى شك فيه زعيما ، ولا اماما حتى نخشى من شكه على العامة ، فليشك ما شـــاء ، وماذا علينا اذا لم تفهم البقر ... »

والسؤال الذى يهمنا هنا هو :

من الذى دافع عن طه حسين عندما اتهمه الوفـديون وزعيمهم الكبير بأنه فى كتابه عن الشعر الجاهلى ملحـد ومارق وخارج على الدين ؟

ان الذين دافعوا عنه ووقفوا الى جانبه هم :

اولا : لطفى السيد مدير الجامعة وهو أحد أعـلام الاحرار الدستوريين وأحد مؤسسى الحزب ، وهو الذى كتب أول بيان خرج به الحزب على الناس والقاه عدلى باشا فى أول اجتماع للحزب « فى فندق شبرد القديم » . وكان لطفى السيد قد انفصل عن الاحرار الدستوريين ــ شكليا ــ بعد أن أصبح مديرا للجامعة ، باعتبار أن منصب مدير الجامعة يجب الا يكون منصبا حزبيا .

ثانيا : على الشمسى وزير المعارف آنذاك ... وكان فى ذلك الوقت وفديا ولكنه كان ضعيف « الوفدية » وأقرب عقليا الى الاحرار الدستوريين ... وقد دافع « على الشمسى » فى البرلمان عن طه حسين دفاعا صريحا وقال للنواب فى دفاعه « اننا نطمع فى أن تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمى الصحيح » .

ثالثا : وهذا هو الاهم · عبد الخالق ثروت نفسه ، وقد أصبح بعد قليل من صدور كتاب طـــــه حسين رئيسا للوزراء وهو الذى اهدى له طه حسين ـ كما أشرنا ـ كتابه الذى أثار كل هذه العاصفة العنيفة .

وعبد الخالق ثروت ـ كما أشرت أيضا من قبل ـ هو أحد كبار أصدقاء الاحرار الدستوريين ، وان كان من الناحية الشكلية يبدو مستقلا · وقد هدد ثروت بالاستقالة اذا أصيب طه حسين بأى ضرر ، وهكذا وقف حزب الاحرار الدستوريين الى جانب طه حسين ·· بينما وقف الوفد ابتداء من زعيمه سعد زغلول ضد طه حسين .. وقف حزب الاقلية مع حرية الرأى ·· ووقف حزب الاغلبية ضد حرية الرأى ·· وقفت النخبة المثقفة التى تلتف حول الاحرار الدستوريين مع طه حسين .. ووقفت الجماهير العريضة ، بأفكارها المحافظة ضد طه حسين ، وتابعت قيادة الوفد هذا الموقف ، بل وغذته بعنف وقسوة .

وكان طه حسين فى هذه الفترة حريصا على استقلاله السياسى من الناحية الشكلية ، أى أنه لم ينضم بصـــورة علنية الى أى هيئة حزبية ، ومع ذلك فقد كان يميـــل بالتأكيد الى الاحرار الدستوريين ، بسبب موقفهم من حرية الرأى ، ومساندة مثقفيهم للتجديد الفكرى مساندة واضحة وللاسباب الكثيرة الاخرى التى تعرضنا لها فى هذا الفصل .

وقد اضطر طه حسين فى هذه المعركة الى ســحب كتابه « فى الشعر الجاهلى » من الاسواق وحذف بعض الفقرات التى أثارت هذه الحملة العنيفة ضده . ثم أعاد اصداره باسم جديد هو « فى الادب الجاهلى » وان كان طه حسين قد أعلن أكثر من مرة أنه متمسك بما جاء فى الطبعة الاولى من كتاب الشعر الجاهلى . وأنه لو وجد

فرصة لاعادة نشر هذه الآراء لفعل ذلك بلا تردد .

ويكفى أن ننقل هنا فقرة من الفقرات التى حذفها طه حسين فى الطبعة الثانية لكتابه ، حتى نعرف لماذا ثار عليه الرأى العام ولماذا أحدث كتابه تلك الضجة الكبرى العنيفة فى ذلك الوقت .

يقول طه حسين فى صفحة ٢٦ من الطبعة الاولى لكتاب « الشعر الجاهلى » :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لايكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى » .

هذه الفقرة هى مجرد نموذج من الآراء الكثيرة المتفجرة التى امتلأ بها كتاب « فى الشعر الجاهلى » وقد تسببت هذه الآراء كلها فى اثارة تلك العاصفة العنيفة ضد طه حسين .

وقد هدأت العاصفة بعد أن حذف طه حسين من الكتاب ماتسبب فى اثارة هذه العاصفة .

واستمر طه حسين مرتبطا بالاحرار الدستوريين وأستاذا فى الجامعة سنوات متعددة الى أن وصل الى منصب عميد لكلية الآداب .

وجاءت سنة ١٩٣٢ لتحمل معها مرحلة جديدة فى حياة طه حسين السياسية ففى هذا العام ومنذ عامين سابقين عليه ، كان على رأس الحكومة الطاغية الرجعى اسماعيل صدقى ، لقد جاء به الملك فؤاد الى الحكم ليضمن عن

طريقه أن تكون السلطة المطلقة فى يد السراى ، وجاء صدقى نفسه الى الحكم ليخدم بمنتهى الصراحة والوضوح الراسمالية المصرية الناشئة ، التى تريد أن تشترك مع الاستعمار فى نهب البلاد واستغلالها .

وأراد صدقى أن يكتسب كل الصفات الشكلية التي تؤهله لرياسة الوزراء ولتحطيم الدستور ، وللقيام بدور البطولة فى ظل الديمقراطية الزائفة ولقد كانت الديمقراطية الزائفة تقتضي وجود حزب ، وصحيفة معبرة عن هذا الحزب ثم أغلبية برلمانية ، وألف صدقى باشا بالفعل حزبا جديدا هو «حزب الشعب» ، وعقد الحزب المفتعل اول اجتماعاته فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٠ ، وأصدر جريدة للحزب اسمها « الشعب » أيضا . وأجرى صدقى انتخابات زائفة قاطعها الشعب «الحقيقى» وسالت فيها دماء المواطنين وتمكن صدقى من تزييف برلمان يؤيده بأغلبية الاصوات .

وكان طه حسين فى هذا الوقت عميدا لكلية الآداب ، فطلب منه صدقى باشا أن يحرر جريدة « الشعب ». المدافعة عن الحكومة ورفض طه حسين هذا الطلب ، وكان اصدقاؤه ـ من الاحرار الدستوريين ـ متحالفين مع الوفد فى معارضة الحكومة القائمة معارضة حاسمة . وكانت الامة كلها غاضبة على هذه الحكومة .

ولكن السبب الاكبر ـ فيما أعتقد ـ لرفض طه حسين التعاون مع حكومة صدقى باشا هو الرجعية الفكرية الواضحة التى كانت تتميز بها هذه الحكومة . فقد أغلقت الحكومة « معهد التمثيل والرقص التوقيعى » بحجة أنه يمس الآداب العامة ، وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات فى الجامعة حربا قاسية شعواء . وخاضت عديدا من المعارك والحروب ضد حرية الفكر وضد التجديد الفكرى فكيف يقبل طه حسين المفكر المجدد المستنير أن

يتعاون مع حكومة تتصف بكل هذه الرجعية الفكرية ؟!

كيف يقبل أن يتعاون مع حكومة تغلق معهد التمثيل، وهو المؤمن بالفن المسرحي والذي كاد يطير فرحا عندما قرأ في ذلك الوقت تقريبا مسرحية « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم ... حيث اعتبر طه حسين هذه المسرحية بداية لفن جديد في الادب العربي هو فن المسرح (١) .

كيف يتعاون مع هذه الحكومة وهو المؤمن بحرية المرأة وضرورة تعليمها تعليما كاملا، وهو الذي يؤمن أن الاختلاط في الجامعة حق طبيعي للفتيات والشباب ؟ .

كان من الطبيعي اذن أن يرفض طه حسين التعاون مع هذه الحكومة الرجعية العنيدة في رجعيتها ، وكان من الطبيعي أيضا أن تقرر الحكومة من جانبها محاربة طه حسين فعزلته من منصبه كعميد لكلية الآداب ، وعينته مفتشا للغة العربية في وزارة المعارف ، وتقدم بعض النواب الى وزير المعارف باستجواب يفتح من جديد قضية طه حسين القديمة ، والتى أثيرت منذ ست سنوات عند صدور كتاب « في الشعر الجاهلي » وتساءل هؤلاء النواب في استجوابهم « كيف تسمح الحكومة لكاتب «ملحد» خارج على الدين مثل « طه حسين » أن يبقى في عمله »

وكانت الاتهامات في هذا الاستجواب ضد طه حسين مركزة فيما يلي : .

١ ــ « أنه ظهر في صورة نشرت في جريدة الاهرام ، تمثل طلبة كلية الآداب حول عميدهم ــ الدكتور طه حسين ــ وقد جلست كل شابة الى جانب شاب . »

---

(١) ظهرت اهل الكهف سنة ١٩٣٣ في طبعتها الاولى ، ورحب بها طه حسين ترحيبا حارا ، ولكن من بين المعلومات الادبية الشائعة ان توفيق الحكيم عرض المسرحية على طه حسين ليقرأها قبل نشرها ..

٢ ـ « ان الدكتور طه حسين المسئول المباشر عن جميع ذلك هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية وقد ظهر عداؤه للاسلام فى كثير من تعاليمه وآثاره ، منها كتاب « الشعر الجاهلى » الذى ضجت عند صدوره البلاد بأسرها . ولا يزال هذا الكتاب يدرس فى الجامعة بعنوان « فى الأدب الجاهلى » ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئا من روحه اللادينية ، كما وأنه قد زين للشباب وسائل المجون والفسوق فى مؤلفه « حديث الاربعاء » ولا يمكن للامة ان تطمئن الى دعواه المتكررة بالعدول عن هذا السبيل المعوج ، فسوابقه لا تشجع على تصديقه .

***

وينتهى هذا الاتهام بتحريض صريح ضد الدكتور طه حسين حيث يقول حضرات النواب فى ختام اتهامهم « .. فكيف سكتت وزارة المعارف عن ذلك كله ، ولم تحرك ساكنا ؟ وكيف تسمح أن يكون هذا الرجل عميدا لكلية الآداب بعد أن افتضح أمره وضجت الامة من خطر تعاليمه وآرائه »

ونص هذا الاتهام المثير الطريف الذى وجهه عدد من النواب الى البرلمان المصرى ضد طه حسين سنة ١٩٣٢ منشور فى كتاب « طه حسين الشاعر والكاتب » للاستاذ محمد سيد كيلانى ص ١٧٠ ، ومن بين الذين تقدموا بهذا الاستجواب عبدالحميد سعيد حافظ رمضان وعبدالعزيز الصوفانى .

وعوقب طه حسين من حكومة صدقى بنقله ـ كما أشرنا ـ الى وزارة المعارف وفى اليوم الاول لنقله من الجامعة أضرب طلاب الجامعة تحت قيادة الطلاب الوفديين ،

وخرجوا فى مظاهرة ضخمة الى بيت طه حسين حيث التقوا به وحملوه على الاعناق وهتفوا بحياته ... حياة المفكر الحر المضطهد ، ومن يومها رفض طه حسين الذهاب الى وزارة المعارف .

ومن يومها أيضا بدأ تحول جديد فى حياته .

لقد أحس أن الجماهير التى تخلت عنه فى الماضى تقف الى جانبه الآن وتؤيده ضد حكومة صدقى الرجعية ، وأحس أن الحكومات والاحزاب الرجعية لا يمكن أن تؤيد الفكر الحر الا اذا ضمنت أن لها من وراء هذا التأييد مصلحة كبيرة ضخمة ، فلقد كان الاحرار الدستوريون على سبيل المثال يحتضنون المثقفين ويسبغون عليهم الرعاية ، ليكسبوا تأييدهم تعويضا لهم عن انصراف الشعب عنهم ، ومحاولة من جانبهم لاكتساب شىء من الاحترام والتقدير

والأحزاب والحكومات الرجعية عموما لا يمكن إن تؤيد الفكر الحر أيضا الا عندما تحس أن هذا الفكر ليس له ترجمة فى الواقع العملى تمثل خطرا عليهم . فلو كانت ترجمة الفكر الحر عمليا هى الدعوة الى مجانية التعليم ونشر العدل بين المواطنين وتوزيع الثروة القومية على الشعب ، فالحرية الفكرية عند الرجعية — فى هذه الحالة — هى دعوة مرفوضة تستحق المقاومة العنيدة .

لقد اكتوى طه حسين بالرجعية فى صورة عملية مباشرة وكانت آراؤه النظرية قد بدأت تتبلور فى الدعوة الى نوع من التغيير الاجتماعى العميق بتوسيع قاعدة التعليم والعدل فى صفوف المجتمع ، وبدأ الرأى العام الذى انصرف عنه فى الماضى يقبل عليه الآن ويمنحه نوعا من التأييد والتقدير

ومن سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٦ كان طه حسين يتحول بسرعة الى الارتباط بالوفد وجماهيره وصحافته .

ومن غرائب المصادفات أن طه حسين كان يقترب فى

هذه الفترة من الجماهير ، بينما كان مفكر آخر كبير يبتعد عن الجماهير بعد أن تخلى عنها أو تخلت عنه ، وكأن القدر لم يرد لهذين المفكرين الكبيرين أن يلتقيا فى معسكر سياسى واحد . هذا المفكر الآخر هو عباس العقاد ، ففى هذه السنوات الحاسمة بالذات بدأ العقاد ينفصل عن الوفد بعد أن دخل معركة عنيفة ضد بعض زعمائه ، ثم انتهى به الامر فى سنة ١٩٣٦ الى الوقوف فى معسكر الاحرار الدستوريين ثم فى معسكر الاقليات الرجعية التى ينطوى تحت جناحها بعض المثقفين اللامعين .

أما طه حسين فقد أخذ يوثق صلته بالوفد منذ اصطدامه بحكومة صدقي ، حتى أصبح فى سنة ١٩٥٠ وزيرا للمعارف فى آخر وزارة وفدية .

وكالعادة لم يرتبط طه حسين بالوفد ارتباطا حزبيا مباشرا . أى أنه لم يصبح عضوا فى أى منظمة من منظمات الوفد ، ولكنه ارتبط به عن طريق الصحافة والعلاقات الشخصية المباشرة .

وفى هذه المرحلة التى امتدت من ١٩٣٢ الى ١٩٥٢ حدث تحول آخر فى موقف طه حسين الفكرى ، ولاشك أن التحول السياسى كان نتيجة من نتائجه .. وهذا التحول الفكرى هو أن طه حسين انتقل من الدعوة الى مجرد التجديد فى الفكر الى دعوة أخرى هى التجديد فى المجتمع نفسه .

لقد بدأ يطالب بتعميم التعليم ومجانيته ، وبدأ يطالب برفع الظلم الاجتماعى عن الطبقات الشعبية ، وأخذ يعود الى التاريخ الاسلامي ليستمد منه البراهين المختلفة على أن الاسلام كان ثورة اجتماعية ضد الظلم المادى ، وأثبت فى عديد من كتبه مثل كتاب « الوعد الحق » أن الدعوة الى العدل أساس من أسس الاسلام . ففى هذا الكتاب

يتحدث عن الأرقاء الذين ناضلوا وتعذبوا من أجل الاسلام.
وكان هذا الكتاب معناه أن العدل الاجتماعى مطلب أساسى من مطالب الاسلام .

هكذا أصبح طه حسين ، فى مرحلته الجديدة ، قائدا من قادة التغيير الاجتماعى ، وكان هذا التغيير يلتقى مع أعمق معانى التغيير الفكرى وأروعها واكثرها أصالة وجدية فلم يعد فى دعوته الى التجديد الفكرى يحس ـ كما كان يحس من قبل ـ بالرغبة فى العزلة عن الجماهير والتعالى عليها ، وبأن لا مكان له ، كمفكر مجدد الا بين النخبة والصفوة القليلة .. كلا انه يستطيع أن يصل الى أروع معانى التجديد الفكرى من خلال ارتباطه بالمصالح الاساسية للطبقات الشعبية .

ان حماية الرجعيين لبعض الافكار الحرة هى حماية متقلبة مترددة ، تخضع لمقياس المصالح المحددة، اما حماية الشعب كله فهى أفضل وأبقى وأكثر منطقا ووضوحا ، ولعله اكتشف فى هذه المرحلة من حياته أن الفكر المجدد الحر لا يستطيع أن يعيش مستريح الضمير بين شعب جاهل فقير متأخر . ومن هنا خاض طه حسين المعركة فى هذه المرحلة مع الشعب كله ومن أجله .

ولم يكن ارتباطه بالوفد ارتباطا حزبيا بالمعنى الضيق، بل كان بحثا عن وسيلة جديدة لتوصيل أفكاره الى الناس وتحقيقها فى الواقع . ولقد كان طه حسين داخل حزب الوفد خير مدافع عن « تأميم » التعليم ، سواء فى كتبه أو مقالاته ، أو مواقفه التعليمية المختلفة .

ولقد لقى من وراء موقفه عنتا شديدا وتشهيرا لا حد له من الاوساط الرجعية ، فقد كانت تلك الاوساط تعزو اليه انه افسد التعليم بسياسته التى كان شعارها « العلم كالماء والهواء حق للجميع » .

ومن الملاحظ أن طه حسين فى هذه الفترة من حياته أصبح أكثر ميلا الى التحفظ فى آرائه الفكرية ، بينما انتقل تطرفه الى مواقفه الاجتماعية ، بل لقد عاد الى دراسة الاسلام ، الذى أتهم فى بداية حياته بمهاجمته ، ولكنه استطاع من خلال دراساته الاسلامية أن يصل بمنهجه الجديد فى التفكير الى الجماهير الواسعة ، وذلك من خلال احترامه لعقائدها وأفكارها المختلفة .

فهو يغير من النظرة الشائعة للاسلام على أنه دين روحى فقط ، ويثبت انه دين يدعو الى الثورة الاجتماعية بغاية أساسية هى تحقيق العدل ، حتى لقد اتهم طه حسين بسبب كتبه التى ظهرت فى هذه المرحلة الاخيرة من حياته الفكرية اتهامات سياسية متعددة من بينها اتهامه بأنه يدعو الى الشيوعية ، وصودرت بعض كتبه نتيجة لهذه الاتهامات مثل كتاب « الوعد الحق » .

ويمكننا أخيرا أن نلخص الخصائص العامة التى ميزت حياة طه حسين فى رحلته بين الفكر والسياسة وفى مواقفه من الاحزاب السياسية فيما يلى :

أولا : كانت علاقاته السياسية فى خدمة أفكاره .. لقد كان على الدوام يبحث عن بيئة مناسبة لفكره الحر المتفتح ويرتبط بهذه البيئة أينما وجدها .

ثانيا : لم يدخل طه حسين أبدا ضمن تنظيمات حزبية محددة بل كان يرتبط بالاحزاب ارتباط الصداقة والتعاطف دون أن يكون عضوا فى التنظيمات المختلفة لهذه الاحزاب

ثالثا : فى أشد أيام ارتباط طه حسين بالاحزاب الرجعية لم يناصر فى كتاباته أى نوع من أنواع الرجعية الاجتماعية أو الفكرية وكل ما يؤخذ عليه فى فترة ارتباطه بأحزاب الأقليات أنه أمدها بتأييد معنوى راجع الى مكانته الفكرية كما أنه اشترك مع الاحزاب الرجعية فى بعض معاركها

السياسية اليومية .. حيث شن ــ على سبيل المثــال ــ حملة عنيفة لمصلحة الاحرار الدستوريين على الوفد وسعد زغلول ، ومهما كانت اعذار طه حسين آنذاك فانه لم يكن على حق فى هذه الحملة العنيفة ·

رابعا : ظل فكر طه حسين الاساسى بمعزل عن الضياع فى زحمة الحياة السياسية ولذلك احتفظ دائما بشخصيته الفكرية المستقلة .. رائدا مستنيرا وعندما سقطت الاحزاب بعد الثورة لم يسقط طه حسين ، بل واصل طريقتــــه المستقلة فى الفكر والحياة .

خامسا : خط اتجاه طه حسين فى السياسة تأثر بموقفه الفكرى الى حد بعيد .. فقد كان فى البداية يؤمن بالتجديد الفكرى ولا يلتفت الى التجديد الاجتماعى الا قليلا ، أما فى المرحلة الاخيرة التى بدأت منذ سنة ١٩٣٢ فقد آمن بالتجديد الاجتماعى وآمن بأنه لا قيمة لتغيير الفكر بدون تغيير المجتمع .

وهذا هو ما يجعل طه حسين بحق مقدمة كبيرة من مقدمات الثورة الشاملة على الاوضاع الرجعية التى انهارت بعد كفاح طويل سنة ١٩٥٢ ·

مصدر أدب
توفيق الحكيم

أول مسرحية لتوفيق الحكيم هي مسرحية « الضيف الثقيل » ، وقد كتبها توفيق الحكيم سنة ١٩١٩ ، والمسرحية مفقودة ، لم يعثر عليها أحد من الباحثين حتى ولا توفيق الحكيم نفسه ، ولكن الحكيم يذكر أن موضوع المسرحية كان يدور حول الاحتلال البريطاني ، ويبدو أن الحكيم قدمها لاحد المسارح التى كانت تملأ القاهرة فى ذلك الحين ، ولكن الرقابة التى فرضها الانجليز على كل الاعمال الفكرية والفنية، رفضت السماح بتمثيل المسرحية فاحتفظ بها توفيق الحكيم ثم ضاعت منه بعد ذلك .

وهكذا عندما فكر توفيق الحكيم فى الكتابة لاول مرة كانت « مصر » هى موضوعه الذى فرض نفسه على عقله ووجدانه ، ولم يسمح لموضوع آخر أن ينافسه ، ولعل مسرحية « الضيف الثقيل » وأن كانت لم تصل الينا أن تساهم فى حسم قضية « ثانوية » عليها بعض الخلاف عند مؤرخى توفيق الحكيم ، هذه القضية هى تاريخ ميلاده . فهناك رأيان أحدهما يقرر أنه ولد سنة ١٨٩٨ وهو ماتقوله الموسوعة العربية الميسرة وما يقوله توفيق الحكيم نفسه ، والثانى يقرر انه ولد سنة ١٩٠٣ ، وهو مايقول به اسماعيل أدهم فى كتابه عن توفيق الحكيم ، وفى ظنى أن التاريخ الاول هو التاريخ الصحيح . واذا

كان توفيق الحكيم قد كتب مسرحية الضيف الثقيل سنة ١٩١٩ وقدمها الى أحد المسارح وقبلها المسرح ثم اعترضت عليها الرقابة ، فلابد أن يكون توفيق الحكيم شابا على قدر من النضج والوعى ، ولابد أن يكون على قدر من المعرفة بالفن المسرحى والمعرفة بالحياة الفنية والحياة الاجتماعية معا ، بحيث يتمكن من كتابة مسرحية يقبلها مسرح من مسارح العاصمة ويستعد لتقديمها لولا اعتراض الرقابة .. ان هذا كله يناسب شابا فى الواحد والعشرين من عمره أكثر مما يناسب شابا أو قل صبيا فى عامه السادس عشر .

واذا تركنا هذه النقطة الثانوية التى نلتقى بها عرضا فى هذا البحث ، وتساءلنا : لماذا بدأ توفيق الحكيم حياته الفنية بالكتابة عن مصر ، واختار لعمله الاول المفقود موضوعا هو الاحتلال ، وكراهية مصر للاحتلال ؟ .. سوف نجد ، قبل الاجابة على هذا السؤال ، أن أول عمل فنى ناضج لتوفيق الحكيم كان عن مصر أيضا وأقصد به روايته « عودة الروح » ، ومعنى هذا كله أن الفكرة التى كانت متسلطة على توفيق الحكيم فى تلك الفترة كانت هى فكرة « مصر » وشخصيتها . فاذا كانت مسرحية « الضيف الثقيل » قد تمت كتابتها سنة ١٩١٩ ، فان « عودة الروح » قد تمت كتابتها سنة ١٩٢٧ وان لم تظهر فى كتاب الا سنة ١٩٣٣ . أى أن توفيق الحكيم ظل من سنة ١٩١٩ الى ١٩٢٧ وذهنه لا يدور حول موضوع أساسى آخر غير « مصر » . من هذا الموضوع بدأ بداية غير ناضجة فى « الضيف الثقيل » ثم بدأ بدايته الناضجة فى « عودة الروح » .

هذا التركيز على موضوع مصر فى بداية توفيق الحكيم الفنية له أكثر من سبب واحد ، وأول هذه الاسباب

ولاشك يعود الى العصر نفسه ، ان الربع الاول من القرن العشرين كان مليئا بالتفكير فى مصر والحديث عنها ، لقد كانت الروح القومية فى هذه الفترة مشتعلة بطريقة عنيفة قوية ، أشعلها منـذ بداية القرن مصـطفى كامل ، أو بالاحرى كان مصطفى كامل تعبيرا عن هـذا الاشتعال وتجسيدا له وعاملا مساعدا على استمراره وتوهجه .
وبصرف النظر عن الدور السياسى لمصطفى كامل ، فاننا نجد فى خطبه ومواقفه نوعا من الحب الرومانسى الملتهب نحو مصر ، فخطبه غناء لمصر ، وهو يتغزل فيها كما يتغزل عاشق فى معشـوقة له يعبدها عبادة عاطفيـة كاملة . انه يتحدث عن نيلها وأرضها وسمائها كما يصف العاشق عيون حبيبته ووجناتها وشعرها . ولذلك عندما كتب شوقى رثاءه لمصطفى كامل سماه : « صب مصر » و « شهيد غرامها » . وانه لعاشق حقيقى ذلك الذى يقول على سبيل المثال : « يقول الجهـلاء والفقراء فى الادراك انى متهور فى حب مصر ، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ انه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التى يدعوه اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها . ألا أيها اللائمون أنظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الارض : هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف مثل هذا الوطن العزيز » .

.. مثل هذه الروح « الغنائية الرومانسية » فى حب مصر ، كانت الروح السائدة فى تلك الفترة ، ولذلك فاننا نجد تعبيرا متنوعا عن هذه الروح .. نجده فى ألحان سيد درويش وأغانيه التى تتردد خلال ثورة ١٩١٩ ، وماقبلها ومابعدها أى فى هذه المرحلة نفسها التى بدأ

فيها وعى توفيق الحكيم يتفتح على الحياة والفن ، فمن الاغانى التى لحنها سيد درويش أغنية استمد مطلعها من خطاب لمصطفى كامل هى « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى » . وهناك أغنية أخرى لسيد درويش يمكن أن تلقى مزيدا من الضوء على الروح القومية التى سادت تلك المرحلة . تقول هذه الاغنية :

يامصر بعـــدك
مالنــاش سعاده
لولا أعتقـــادنا
بوجود الهنـــا
كنا عبدنا النيل عباده

ولقد كان من الدعوات الواضحة المؤثرة فى تلك الفترة دعوة مصر للمصريين التى تبناها لطفى السيد ، ورددها فى كثير من كتاباته ، وأشاعها فى الصحافة والادب على نطاق واسع .

وفى تلك المرحلة أيضا ، حوالى سنة ١٩١١ ، ظهرت رواية « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل ، وفيها نوع من التغنى بمصر ، والتمجيد لها وقد كتبها الدكتور هيكل وهو يدرس فى باريس ، كما كتب توفيق الحكيم روايته « عودة الروح » وهو يدرس فى باريس ، ويحدثنا « هيكل » عن دوافع كتابته لروايته « زينب » فيقول :لعل الحنين الى وطنى وحده هو الذى دفع بى الى كتابة هذه القصة ، ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفا ولا رأت هى نور الوجود ، فقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها وكنت ماأفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ماخلفت فى مصر مما تقع عينى هناك على مثله ، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة لا تخلو من حنان ولا تخلو من لوعة » .

وفى تلك الفترة أيضا كان محمد تيمور ينادى بحماس وحرارة بخلق أدب مصرى ، يهدف الى ابراز الشخصية المصرية والروح المصرية ، ويدعو من أجل تحقيق ذلك الى الكتابة بالعامية المصرية .

وهذه النماذج كلها تكشف لنا عن شيء واحد ، هو أن الحركة السائدة فى الربع الاول من القرن العشرين كانت تتركز فى بعث الروح القومية فى مصر ، بتمجيد مصر ، وتعميق الايمـان بها فى نفوس أهلها ، وابراز الشخصية المصرية وتحديد ملامحها بقوة ، لكى تواجه كل اعدائها الذين يريدون طمس هذه الشخصية والقضاء عليها ، وعلى رأس هؤلاء الاعداء يقف الاحتلال الانجليزى ، والذين يسـاعدونه ويناصرونه من المتمصرين الاتراك والشراكسة وما الى ذلك . ولقـد تجمعت كل هـذه الموجة القومية العالية العنيفة التى غذاها الكتاب والزعماء والفنانون فى ثورة ١٩١٩ . ولقد كانت هذه الثـورة ــ بصرف النظـر عن نتائجها ــ ثورة قوميـة حقيقية وشاملة ، فمن أجل الاستقلال وتمصير المجتمع وتحريره من السيادة الاجنبية التى تطمس معالم الشـخصية القومية ، والتى تبدأ من قصر الدوبارة حيث يقيم المندوب السامى الانجليزى الى مفتشى الرى فى الاقاليم والذين كانوا كلهم أو معظمهم من الانجليز .. من أجل هذا كله قامت ثورة ١٩١٩ وتحرك الشعب كله وراء قيادة هذه الثورة .

وتوفيق الحكيم ولد ميلادا فنيا فى هذه المرحلة ، فهو ابن الثورة القومية التى كانت تبحث عن شخصية مصر وتؤكد هذه الشخصية ، وتثبت للذين ينكرونها أنهـا موجودة وقوية وأنها لم تمت ولم تندثر ، ومن الطبيعى أن يتأثر الحكيم تأثرا كبيرا بهذه الموجة الثورية القومية .

ولو راجعنا حيــاة توفيق الحكيم الفنية فى مختلف مراحلها لوجدنا أنه صاحب طبيعة فنية وفكرية حساسة سريعة التأثر بما يدور حولها من أفكار وأحداث ، فما من دعوة فكرية أو فنية كبيرة ترددت فى مرحلة من المراحل التى امتدت من ١٩١٩ الى اليوم الا ووجــدت صداها فى أدب توفيق الحكيم ، حيث تعود أن يسارع دائما الى التعبير عنها والمشاركة فيها فينجح أحيانا ويتخلى عنه النجاح فى أحيان أخرى .. ولكنه ليس أبدا من هؤلاء الفنانين الذين يتأثرون ببطء أو يعيشون فى داخل أنفسهم دون أن يسمعوا ايقاع الحياة الخارجية ، كل ذلك رغم ما « أشيع » عن توفيق الحكيم ، وســاهم هو نفســه أحيانا فى اشاعته ، من أنه فنان يعيش فى برج عاجى منعزل عن الحياة . فلو أردنا أن نبحث عن فنان انعكست على أدبه كل التيارات الفكرية والفنية التى ظهرت فى حياتنا خلال الفترة الممتدة من ١٩١٩ الى اليوم ، لما وجدنا أقرب من توفيق الحكيم وانتاجه كنموذج للتأثر بهذه التيارات . لقد انعكست على أدبه الدعوات المختلفة التى تردد صداها فى بلادنا خلال هذه الفترة مثــل : الفرعونية ، والدعوة الاسلامية والاشتراكية ، واللامعقول ، والوجودية . ان توفيق الحكيم كان على الدوام من أسرع الفنانين والكتاب استجابة لكل هذه الدعوات ، وهذه طبيعة فنية وفكرية فى شخصية الحكيم لها أسبابها الكثيرة ونتائجها الكثيرة أيضــا لكنها ليست موضــوع هذه الدراسة على أى حال . والذى يهمنا هنا هو أن توفيق الحكيم تأثر تأثرا عميقا بجو الثورة القومية فى روايته « عودة الروح » فخرجت هذه الرواية تعبيرا فنيا وعاطفيا عن هذه الثورة .

على أننا لابد أن نضيف الى هذا الجو العام شــيئا

آخر له تأثيره الكبير ، ذلك هو تقدم علم الآثار المصرية ، وما تم الكشف عنه فى تلك الفترة من آثار على جانب كبير من الاهمية ، مثل آثار توت عنخ آمون ، والتى اكتشفها العلامة « كارتر » وبعض زملائه سنة ١٩٢٣ . وأثارت هذه الاكتشافات ضجة عالمية كبرى ، وكان اثرها فى المصريين بالذات هو ازدياد الايمان بمصر وتاريخها المجيد ، وبأنها كانت ذات يوم صانعة لحضارة عظيمة متألقة .

واذا كان توفيق الحكيم قد تأثر بالجو العام الذى ظهر فى مصر فى الربع الاول من القرن العشرين ، فانه تأثر بعامل آخر هو حياته الخاصة ، فقد نشأ فى أسرة تتكون من أب مصرى من سلالة فلاحين مصريين على شىء من الثراء ، وأم من أصل تركى « قريب » أى أن والدها كان ضابطا من الضباط الاتراك الذين جاءوا الى مصر وأقاموا فيها . واذا اعتمدنا على مايرويه لنا توفيق الحكيم نفسه فى عدد من كتبه وأعماله الفنية ، وعلى رأسها عودة الروح ، فاننا نحس أن المشكلة الوطنية القومية كانت « موجودة » فى بيته بصورة مصغرة ، وان كانت أكثر تأثيرا لانها ملتصقة بعواطف توفيق الحكيم وحياته اليومية المباشرة أكثر من أى شىء آخر . لقد تزوج والده من أمه طلبا « للوجاهة » التى كان يلجأ اليها بعض المصريين عندما يتقربون الى الطبقات ذات السيطرة والنفوذ ، والاتراك على رأس هذه الطبقات فالزواج من فتاة تركية يرفع من قيمة « الفلاح » اجتماعيا ، وينزل به فى منزلة اجتماعية أعلى من غيره . بينما كانت كلمة « فلاح » نفسها نوعا من التصغير لشأن الانسان والحط من قيمته الاجتماعية . كل ذلك تحت تأثير القيم التى فرضتها الطبقة المسيطرة فى المجتمع

المصرى ، وهى التى تتكـون من الاتراك . والمتمصرين من مختلف الشعوب ، وفوق هؤلاء جميعـا توجد سـلطة الاحتـلال الانجليزى التى تؤكد هـذه القيم وتناصرها وتغذيها ، فالانجليز يعلمون أن الفلاحين هم أصـحاب البلد الحقيقيين ، ويعلمون أن يقظة الفلاح المصرى سوف تكون عاصفة تقضى على كل الذين ظلموه ونهبوا حقوقه . ولعل استنكار الطبقات المسيطرة على المجتمع المصرى « للفلاح » ومصالحه هو الموقف المحرك للثورة العرابية ، وعندما فشلت هذه الثورة ، دخل الخديوى توفيق القاهرة مع الجنرال ولسلى قائد جيش الاحتلال ، وقال توفيق كلمته المشهورة : ان هذا كله قد تم لتأديب الفلاحين « أولاد الكلب » . والخديوى توفيق يمثل تمثيلا نموذجيا تلك الطبقة الاجنبية التى ظلت تتحكم فى القيم الاجتماعية بدرجات متفاوتة منذ ايام الاتراك والمماليك حتى قيام ثورة ١٩٥٢ .

لقد أحس توفيق الحـكيم فى بيتـه بذلك الصراع « المكتوم » بين والده الذى ينتمى فى نهـاية الامر الى الفلاحين ، وبين والدته التى كانت تنظر الى الفـلاح نظرتها الى طبقة دنيا يجب أن تتخلص الاسرة من آثارها تخلصا كاملا فالتخلص من أى ارتباط معنوى أو مادى بحياة الفلاح ، هو فى نظر هذه السيدة التركية الاصل ، الطريق الصحيح الى التمدن والارتفاع الى مسـتوى اجتماعى له قيمته واحترامه !

ومن الطبيعى أن يتأثر توفيق الحكيم بهذا الصراع « المكتوم » داخل العائلة ، ولقد انتهت به مراقبته لهذا الصراع الى أن يتخـذ موقفا دفاعيـا الى جانب والده « الفلاح » ، ثم ارتقى هذا الموقف عنده الى الحد الذى أصبح فيه يدافع عن الفلاح المصرى دفاعا كاملا ضد القيم

التى تنشرها الارستقراطية الاجنبية ، وبخاصة الارستقراطية التركية ، ولم يكن من المصادفات فى تلك الفترة أن يكون زعيم الثورة المصرية سنة ١٩١٩ واحدا من أبناء الفلاحين هو سعد زغلول ، الذى كان قريبا جدا فى ظروفه وتربيته من « اسماعيل الحكيم » والد توفيق الحكيم ، فلقد كانا فلاحين على جانب من الثراء ، ثم اشتغلا بالقانون ثم تزوجا من الارستقراطية ذات الاصل الاجنبى ، فقد تزوج والد الحكيم ـ كما سبق ـ فتاة من أصل تركى وتزوج سعد زغلول من فتاة ذات أصل تركى هى « صفية » بنت « مصطفى فهمى » الذى كان رئيسا للوزراء فى عهد كرومر ، ولعل سعد زغلول ان يكون بنشأته الريفية وقيادته للثورة تجسيدا لدور « الاب الروحى » عند توفيق الحكيم . كما كان تجسيدا لهذه الابوة الروحية عند الشعب كله .

لقد انحاز توفيق الحكيم بعواطفه كلها الى قضية الفلاح المصرى ، وبالتالى الى قضية مصر وخرج من الصراع الدائر فى عائلته وفى مجتمعه بالتعاطف الكامل مع ممثلى الفلاحين من أمثال والده وسعد زغلول .

ومن الظواهر التى تلفت النظر أن عددا من الادباء والمفكرين الذين تبنوا بحرارة وحماس الدعوة الى « المصرية » فى الفن والفكر والسياسة كانوا يحملون مزيجا من الدماء المصرية والاجنبية . وأذكر فى هذا المجال أسماء : محمد تيمور ، ومحمود تيمور ، وتوفيق الحكيم ، ويحيى حقى ، وغيرهم . ان هؤلاء جميعا تختلط بدمائهم دماء غير مصرية ، ومع ذلك فلقد كانوا دائما من أكثر المتحمسين الى الدعوة المصرية ، وكانوا من غلاة المنادين بها فى وجه العناصر الاجنبية الكثيرة التى كانت تملأ البلاد وتمد نفوذها وسلطتها الى كل جوانب

الحياة فى مصر . ويفسر الاستاذ يحيي حقى هذه الظاهرة فى كتابه فجر القصة المصرية فيقول فى حديثه عن محمد تيمور : « انك لتحس أن نزعة تيمور فى الادب مبعثها حب صادق لمصر وأهلها ، وليس من الغريب ، أن الذى يضمر هذا الحب كله ، ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى فى عروقه دماء مصرية بل دماؤه خليط من التركية والكردية والاغريقية ، فهذه ظاهرة طبيعية مألوفة عند الغير كما عندنا فى أن العرق الحديث أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضائله وجماله » .. وما ينطبق على محمد تيمور ينطبق على عدد آخر من الفنانين من بينهم توفيق الحكيم ويحيي حقى نفسه ، ويمكننا أن نضيف الى تفسير يحيى حقى أن هذه العناصر ذات الاصول غير المصرية ، كانت تحب عن طريق التطرف فى الدعوة الى المصرية ان تثبت انتماءها الجديد وتؤكده ، وهو الانتماء الى مصر والى شعب مصر ..

وهكذا .. وجد توفيق الحكيم نفسه فى جو عام ينتفض بالثورة القومية المصرية ووجد نفسه فى جو عائلى خاص تتعرض فيه الشخصية المصرية التى يجسدها والده لضغط معنوى من جانب والدته ذات الاصل التركى .. وقد قاده هذا كله الى أن يختار موضوعه الاول والاكبر ، ولم يكن هذا الموضوع سوى « مصر » والدفاع عنها والدعوة اليها والتعبير عن المحبة العميقة لشخصيتها بل والبحث عن هذه الشخصية ومحاولة اكتشافها اكتشافا فنيا وفكريا وروحيا .

ونتوقف أمام « عودة الروح » أنضج عمل فنى بدأ به توفيق الحكيم ، وعبر فيه عن اكتشافه لمصر .. ماهو « الكشف » الذى وصل الحكيم اليه فى هذه الرواية ؟

ان أى تحليل لعودة الروح يبين بوضوح أن توفيق الحكيم قد اكتشف مصر اكتشافا « دينيا وروحيا » قبل أى شيء آخر . هناك لمحات فى الرواية تصور لنا الواقع الاجتماعى والسياسى فى مصر فى الربع الاول من هذا القرن ، ولكن الرؤية الاساسية فى الرواية هى رؤية دينية روحية بالدرجة الاولى . ولست اعنى بذلك أنها رؤية بعيدة عن أى تفكير عقلى أو تفكير منطقى ، وانما أعنى أنها رؤية يسيطر عليها الايمان الشامل العميق ، واليقين الذى لايتردد والالتفات الى التفاصيل والجزئيات باعتبارها مجرد مظاهر لشيء آخر ، واحد ، شامل ، يسيطر على كل شيء ، والامور التى تبدو أمام العقل العادى على أنها مظاهر تخلف وتأخر ، تبدو لصاحب الايمان الدينى شيئا له عمق لاتدركه العين المجردة .

فعنوان الرواية نفسه مستمد من الافكار الدينية عند المصريين القدماء ، ومن كتاب الموتى على وجه الخصوص ، وكتاب الموتى هو مجموعة من الدعوات والتراتيل الدينية التى كانت معروفة عند قدماء المصريين ، ومن هذه التراتيل مايتصل بقصة الانسان فى هذا العالم .. قصة موته ، ثم بعثه بعد ذلك ، فالروح عند المصريين القدماء خالدة لاتموت ، بل لقد وضع توفيق الحكيم تحت عنوان الرواية جزءا من نشيد الموتى عند المصريين ، وهو الجزء الذى يقول : « عندما يصير الزمن الى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر الى هناك حيث الكل فى واحد » .. لقد استمد الحكيم من الواقع الذى يدور حوله احساسا قويا بأن مصر ستعود الى الحياة بعد أن أصابها نوع من الموت المؤقت على يد الاحتلال البريطانى ، ولكنه وجد التعبير عن هذه العودة الى الحياة ، والثقة فى ضرورة هذه العودة ثقة مطلقة ،

والايمان بخلود مصر .. وجد التعبير عن هـذا كله فى التجربة الدينية عند الفراعنة ، فى نظرتهم الروحية الى الحياة .. كانوا مؤمنين أن كل شىء فى هذا العالم يتجدد .. ان الفيضان يختفي ثم يعود ، وبعد الحصاد تعود الثمار الى الأرض ، وأوزوريس اله الخصب ، تمـزق جسده ثم تكامل من جديد وعاد الى الحياة ، الانسان اذا مات عاد مرة أخرى الى الحياة ، فعودة الروح اذن هى الفكرة الاساسية عند المصريين القدماء ، ومن قلب هـذه الفكرة خـرج توفيق الحـكيم برؤيته الدينيـة والروحية ، بأن مصر لايمكن أن تموت ، انها فى الحقيقة خالدة ، وسوف تعود الى الحياة ، رغم كل المظاهر التى كانت تبدو قبيل ثورة ١٩١٩ ، والتى كانت تقول لمن لايملكون تلك الرؤية الدينية التى يملكها الحكيم : ان مصر ميتة ، وتحتاج الى وقت طويل لكى تستيقظ بل وقد لاتستيقظ أبدا .

ومن خلال هذه الرؤية الدينية لتوفيق الحكيم ، تدفق ايمانه بمصر بين صفحات روايته عودة الروح ، وأصبحت عينه لاترى المظاهر المجردة ، وانما ترى مغزى هـذه المظاهر وترى ما وراءها . على أن هذه الرؤية الدينيـــة لم تكن مجرد رؤيا مبهمة خالية من الوضوح ، بل على العكس فانها رؤيا لها منطقها الخاص ، وهو المنطق الذى يطبقه توفيق الحكيم فى روايته عودة الروح .

فهذه الرؤية الدينية ـ التى يشترك فيها الحكيم مع المصريين القـدماء ويسـتمدها من معابدهم وتراتيلهم وفكرتهم عن الحياة ـ تؤمن بوحـدة المصير أو بالمصير المشترك .. انها تؤمن بذلك الشعار الدينى القديم الذى كان المصريون يرددونه فى صلواتهم .. «الكل فى واحد» . وهذا الايمـان بوحـدة المصير لايفرق بين الانســان

والحيوان . ولذلك يقول الحكيم فى الفصل التمهيدى القصير الذى كتبه لرواية « عودة الروح » ، وهو يصف الاسرة التى تسكن فى بيت بالسيدة زينب ، والتى جاءت أصلا من الريف ... فى هذا الفصل يقول الحكيم :

« لو استطاع أحد لقرأ على وجوههم الباهتة ، ضوء سعادة خفية بمرضهم معا ، خاضعين لحكم واحد ، يعطون عين الدواء ، ويطعمون عين الطعام ، ويكون لهم عين الحظ والنصيب » ثم يقول توفيق الحكيم على لسان الطبيب الذى يعالج الاسرة : « ليس غير الفلاح يستطيع هذه الحياة ، هو وحده ـ على الرغم من رحب داره ـ لابد له أن ينام هو وامرأته وعياله ، وعجله وجحشه فى قاعة واحدة ! ... » فتوفيق الحكيم لم ير فى هذا النوع من الوحدة بين أفراد الاسرة واصرارهم على أن يعيشوا فى حجرة واحدة ، واستبعادهم لفكرة الاستقلال الفردى ، ولم ير فى امتزاج حياة الفلاح بحياة الحيوان الذى يحتاج اليه .. لم ير فى هذا كله أى معنى اقتصادى مثل ضيق المسكن أو خوف الفلاح على حيواناته التى تعتبر ثروة هامة بالنسبة له ، بل ان الحكيم يرى أن المسكن الريفى ولو كان واسعا فانه لايمنع الفلاح من التصرف بنفس الطريقة .. ان الحكيم يرى فى ذلك كله معانى دينية ترفض أى تفسير اقتصادى أو سياسى يمكن أن يقول به أحد المفكرين اذا أراد أن يفسر وحدة هذا الشعب فى بعض المواقف الكبرى ، فالتفسير الصحيح عند الحكيم هو التفسير الذى تفرضه الرؤية الدينية .. فهو يقول مثلا فى « عودة الروح » عن بناء الهرم « اننا لانستطيع أن نتصور تلك العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب فردا واحدا يستطيع أن يحمل على أكتافه الاحجار الهائلة وهو باسم الثغر

مبتهج الفؤاد ، راض بالالم فى سبيل المعبود . انى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ما كانت تساق كرها كما يزعم هيرودوت عن حماقة وجهل ، وانما تسير الى العمل زرافات وهى تنشد نشيد المعبود كما يفعل احفادهم يوم جنى المحصول » .. هذه رؤية دينية تمتد عند توفيق الحكيم لتفسر الواقع المصرى الحديث ، عندما كانت مصر تتعرض لمحنة ساحقة هى محنةالاحتلال الانجليزى وتريد أن تتخلص من هذه المحنة وتعود الى الحياة . فتوفيق الحكيم فى « عودة الروح » يرى أن مصر سوف تنتصر ؛ وتحقق وجودها أو بعثها وخلودها ، بهذه القوى الروحية الكامنة فيها والتى ساعدتها دائما على التخلص من الازمات العاصفة كما ساعدتها على القيام بالانجازات الحضارية الكبيرة مثل تحويل مجرى النيل فى عهد مينا ، أو بناء الهرم فى عهد خوفو ، وغير ذلك من الانجازات العظيمة .

وفكرة المصير المشترك ، ترتبط أشد الارتباط ، بفكرة « التوحيد » ، وهى فكرة دينية أساسية فى الحضارات المصرية القديمة ، فالمصريون هم أول من نادى فى تاريخ الحضارة الانسانية بفكرة « التوحيد » الدينية ، أى عبادة اله واحد . لقد سبقوا اليهود فى ذلك ، وسبقوا سائر الاجناس والديانات فى هذه الدعوة ، وعبادة اله واحد تعكس صورا اخرى من التوحيد مثل التوحيد بين الانسان والانسان ، والتوحيد بين الانسان والطبيعة ، والتوحيد بين الانسان والحيوان . كما أن هذه الفكرة ، فكرة عبادة اله واحد ، هى التى تنعكس عمليا فى قدرة المصريين على الاشتراك معا فى عملهم ، وقدرتهم على الابداع الحضارى كما استطاعوا أن يتوحدوا تحت راية واحدة . ومعنى التوحيد هذا يصوره لنا توفيق الحكيم

فى « عودة الروح » تصويرا حارا جميلا ، فيرد اليه قدرة مصر على الحركة والابداع والخلاص من الازمات .

والرؤية الدينية عند توفيق الحكيم لم تقتصر على اكتشاف فكرة المصير المشترك ، وفكرة التوحيد عند المصريين .. بل اكتشفت أيضا فكرة الألم والقدرة على الاحتمال ، حيث يقول الحكيم فى « عودة الروح » : « هل وجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ؟ او أهول عملا ؟ .. عمل ليل نهار فى الشمس المحرقة ، والبرد القارس ، وكسرة من خبز الاذرة ، وقطعة من الجبن ، مع بعض من الأعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده .. تضحية مستمرة ، وصبر دائم ومع ذلك فهاهم أولاء يغنون » ..

ويقول الحكيم أيضا : « هذه العاطفة عاطفة السرور بالألم جماعة ... عاطفة الصبر الجميل والاحتمال الباسم للأهوال من أجل سبب واحد مشترك .. عاطفة الايمان بالمعبود والتضحية فى الألم بغير شكوى ولا أنين .. هذه هى قوتهم » ...

انها رؤية دينية ولا شك ، هذه الرؤية التى تبحث عن قوة المصريين وراء المظاهر الخارجية البسيطة وتكشف عن الافكار التى تحركهم خلال مراحل التاريخ المختلفةمنذ العصور القديمة حتى القرن العشرين . وهذه الرؤية عند توفيق الحكيم قريبة جدا من نظرة الفراعنة القدماء انفسهم الى فكرة « العذاب » فى سبيل « الخلاص » ، حيث نجد أوزوريس يتمزق فى سبيل خلاصه هو ، وفى سبيل خلاص ايزيس والمصريين جميعا ، ودموع ايزيس هى الفيضان ، أى أن أحزانها فى النهاية سبب الخصوبة وسبب الحياة . ولعل هذه النظرة نفسها هى اقرب ماتكون الى النظرة المسيحية التى تؤمن أيضا بأن العذاب هو طريق الخلاص من الخطيئة .

ومن عناصر الرؤية الدينية لتوفيق الحكيم فى « عودة الروح » فكرته عن نظـرة المصريين للزعيم ، فـكما كان المصريون فى الماضى يتجمعون فى المعبد للصلاة من أجل اله واحد ، فان المصريين يتجمعون بقوة وحرارة وقدرة على التحرك الحضارى الواسع حـول زعيم واحـد .. وهم لا يعجزون عن الحركة الا اذا عجزت الظروف عن تقديم مثل هذا الزعيم .. ولقد كان ذلك ما ينقص الشعب فى مصر قبيل ١٩١٩ .. « نعم ... ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمزاً لغاية .. عند ذلك لاتعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب المســتعد للتضحيــة » ... وجاءت ثورة ١٩١٩ ، ووجدت مصر ذلك الرجــل فى شخص ســعد زغلول ولذلك حدث الانفجار الثورى الكبير الذى استيقظت فيه مصر بصورة مدوية عنيفة ، وتجمعت تحت شعار « الكل فى واحد » يقودها رجل منهــا تتمثل فيه كل عواطف الشعب وأمانيه .

هــذه هى الرؤية الدينية الروحية التى يقدمهــا لنا توفيق الحكيم فى « عودة الروح » انها رؤية شاملة تملأ عقله ووجدانه ، ويمكننا أن نخضعها للعقل ولكنها أشمل من العقل وأكبر منه .

وبعد أن عبر الحكيم عن هذه الرؤية الدينية تعبيرا فنيا فى عودة الروح « التى انتهى من كتابتها سنة ١٩٢٧ » عاد الى هذا الموضوع فى السنة التى صدرت فيهــا « عــودة الــروح » وهى ســـنة ١٩٣٣ ، ذلك لان الحكيم لم يصـــدر روايته الا بعد ست ســـنوات من كتابتها ... لقد كتب فى ســـنة ١٩٣٣ مقـــالا على شكل رسالة الى طه حسين ، وفى هذا المقال يقول فى التفــرقة بين العقلية المصرية والعقـلية الاغريقيــة :

« ... ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الاغريق عارية الأجساد ، هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله . نعم كل شيء مستتر عند المصريين ، عار جلى عند الاغريق ، كل شيء فى مصر خفى كالروح وكل شيء عند الاغريق عار كالمادة . كل شيء عند المصريين مستتر كالنفس ، وكل شيء عند الاغريق جلى كالمنطق . فى مصر الروح والنفس ، وفى اليونان المادة والعقل » . ان الحكيم هنا يعبر بطريقة فكرية مباشرة عما عبر عنه من قبل بطريقة فنية روائية ، وذلك فى « عودة الروح » .

على أننا اذا حاولنا أن نستخرج من الرؤية الدينية عند توفيق الحكيم بعض المعانى الحضارية والعلمية لما وجدنا فى ذلك أى صعوبة ، ذلك لان فكرة توفيق الحكيم الدينية تبتعد تماما عن الطقوس والغيبيات وتعتمد على الايمان والنظرة الشاملة والحماس والثقة بالمستقبل ، ولكنها بالاضافة الى ذلك كله تخفى فى أعماقها أفكارا واضحة محددة ، وهى فى نفس الوقت أفكار صحيحة . فالمصريون شعب متجانس منذ قديم الزمان لم يعرفوا الانقسامات الطائفية أو القبلية العائلية والتى لا تزول مع الأيام بيسر وسهولة . وهم شعب شديد الصبر على احتمال المصاعب والأهوال ، بل ان قصة الحضارة المصرية فى مختلف المراحل هى قصة الاحتمال والصبر والارتباط بالأرض فى ظروف الجدب والرخاء على السواء . وفى المصريين أيضا قدرة كبيرة على أن يقدموا للحضارة الانسانية أشياء كثيرة اذا ما حاولوا أن يتخلصوا من الانقسامات العارضة فى حياتهم ، وتوحدوا مثل النيل نفسه ، ثم انطلقوا نحو غاية محددة واضحة أمامهم يتفقون عليها جميعا ...

هذه هى المدلولات العلمية والحضارية للرؤية الدينية

لمصر فى «عودة الروح» وهى « مدلولات » صحيحة لا تتغير مع تغير الظروف والأحوال ، ولا تتناقض مع النظرة العلمية نفسها .. فدائما كلما اتفق المصريون واتحدوا فى الايمان بشىء أو بشخص ، استطاعوا أن يخرجوا من هامش الحضارة الى قلب الحضارة وهذا هو المعنى الباقى لعودة الروح فى كل الظروف والأحوال .

على أن « عودة الروح » استطاعت أن تحمل فى صفحاتها نوعا من التنبؤ ، وهذا التنبؤ ليس غريبا على رواية تعتمد على الرؤية الدينية الشفافة ... ان توفيق الحكيم يقول فى عودة الروح عن المصريين « .. ما أعجبهم شعبا صناعيا غدا » .. فطبيعة المصريين كما تصورها توفيق الحكيم فى رؤيته الدينية الكبيرة تتلاءم مع المجتمع الصناعي، فالمجتمع الصناعى يحتاج الى التجمع والتعاون والقدرة على الاستمرار ، يحتاج الى شعار « الكل فى واحد » : وهذه كلها صفات كامنة فى طبيعة المصريين وفى حضارتهم . وقد أطلق توفيق الحكيم هذه الصيحة فى « عودة الروح » فى وقت لم تكن فيه مصر قد عرفت الحركة الصناعية على نطاق واسع ، ففى سنة ١٩١٩ كانت الصناعة المصرية محدودة ، وكانت الطبقة العاملة تمثل نسبة ضئيلة فى المجتمع المصرى ومع ذلك كله فلقد كانت الرؤية الصادقة والصحيحة لمستقبل المصريين هى أن من الضرورى أن يتجهوا للصناعة وأن ينجحوا فيها ، وهذه الفكرة ... فكرة التصنيع ، يمكن الوصول اليها من خلال دراسة اقتصادية أو اجتماعية ، ولكن الحكيم لم يصل اليها عن هذا الطريق ، وانما وصل اليها عن طريق آخر هو طريق الاحساس الوجدانى ، والرؤية الشاملة لأعماق الشعب المصرى والاحساس بأن القدرة على التجمع والاحتمال والانتظام والابتعاد عن الفردية والذوبان فى الآخرين ، كل

هذه الصفات الموجودة فعـلا عنـد المصريين هى صفات أساسية وهامة بالنسبة للمجتمع الصناعى .

بقيت هناك ملاحظـة على الرؤية الدينية لمصر والتى تصورها لنا عودة الروح ، فقد جاءت معظم هذه الأحاديث عن مصر على لسان عالم آثار فرنسى ، ويرى كثير من النقاد ان اختيار هذه الشخصية لتتحدث كل هذا الحديث عن المصريين هو نقطة ضعف فى الرواية ، فلقد كان من الطبيعى أن يكون الحديث عن مصر على لسان أحد أبنائها المتحمسين ، حتى يكون للحديث دلالة حقيقية ، وحتى يكون مقنعا كحـديث صـادر من قلب مصرى متحمس لوطنه ..

ولكننا لو فكرنا فى اختيار توفيق الحكيم لعـالم الآثار الفرنسى ، على ضوء « الرؤية الدينية » التى تسيطر على « الرواية » لوجدنا هذا الاختيار معقولا بل ورائعا من الناحية الفكرية والفنية على السواء ، فلا بد أن يكون مثل هذا الحديث صادرا من انسان يعرف تاريخ مصر معرفة عميقة ، ولابد أن يعرف بالذات تاريخها القديم الذى يدور حول معانى « البعث وعودة الروح » ... ومن الذى يعرف هذا كله أفضل من عالم الآثار ، وهو الذى يعيش مع التاريخ المصرى فى عظمته وقوته ، وهو الذى يقرأ على الأحجار والتماثيل وجه مصر الذى يغالب الأزمات والمحن والذى يبدع ويساهم فى الحضارة الانسانية بعمق وأصالة ، وعالم الآثار لابد أن يملك معرفة شاملة بالتاريخ المصرى ، وهذا ما يمكنه من الحديث عن المستقبل دون أن يكون فى ذلك افتعال .. انه يتحدث عن المستقبل على ضوء ما أدركه من معاشرته للانسان المصرى فى مختلف مراحل الحضارة .

وعندما نترك «عودة الروح» برؤيتها الدينية ، لنواصل

البحث بعد ذلك عن مصر فى أدب توفيق الحكيم ، فسوف يواجهنا العمل الثانى الهام الذي عبر فيه الحكيم عن مصر ، وهو « عصفور من الشرق » . وهذه الرواية فى حقيقتها جزء مكمل «لعودة الروح» ، فعودة الروح تعالج مشكلة مصر فى مواجهة العقم الذى أصابها بعد الاحتلال الانجليزى ، وفى مواجهة المحنة التى كانت تعانيها على يد هذا الاحتلال ، وعودة الروح تؤكد أن مصر سوف تتجاوز العقم الى الخصوبة وسوف تواجه المحنة ، وتستيقظ وتعود اليها الروح وتبعث من جديد قوية خالدة ، فالمشكلة فى عودة الروح بالنسبة لمصر هى « أن تكون أو لا تكون » « أن تعود الى الحياة أو تنتهى الى الابد » . أما فى عصفور من الشرق فهى مشكلة أخرى ، انها مشكلة الصراع بين الشرق والغرب ، وكيف تتصرف مصر ازاء هذه المشكلة ، وقد انتهى توفيق الحكيم فى « عصفور من الشرق » الى النتائج التى تبررها نظرته الدينية ، فأعلن أن هذا الصراع هو صراع بين النزعة الروحية والنزعة المادية ، وان الشرق يمثل الروح ، بينما يمثل الغرب المادة ، وأن الغرب نفسه بحاجة الى الشرق ونزعته الروحية . ان الأديان الجديدة فى الغرب كلها أديان مادية مثل : الماركسية ، والنازية ، والفاشية ، والعامل الروسي «الابيض» أيفان ، الهارب من الثورة الروسية ... هذا العامل هو أحد أبطال عصفور من الشرق ، وهو الذى يندد بالاديان الأوربية الجديدة . ويرى أن منبع الامل كله بالنسبة للانسان انما يكمن فى الشرق .

ولاشك ان « عصفور من الشرق » تناقش المذاهب السياسية والاقتصادية المعاصرة فى كثير من السذاجة والرومانسية الهشة السهلة ، ولا شك أنها لا تضع أى حل مقنع أو جديد لمشكلة الصراع الحضارى بين الشرق

والغرب ، ورغم ذلك نحس ببعض المعانى الأساسية وراء هذا العمل الفنى ، وعلى رأس هذه المعانى جميعا دعوة توفيق الحكيم الى التمسك بأصالة الشخصية المصرية ، حتى لا تفقد نفسها أمام التيارات الوافدة فتذوب فى هذه التيارات وتتلاشى . من الممكن أن تأخذ مصر من هذه التيارات المختلفة ، بل ومن الواجب أن تأخذ من هذه التيارات وأن تتأثر بها ، ولكن من الواجب أيضا أن تحتفظ بشخصيتها ، وأن تحتفظ بتراثها . أن رواية « عصفور من الشرق » رغم سذاجتها وطابعها الرومانسى الهش تعتبر صرخة فى وجه الذين يدعون الى الانفصال المطلق عن الشخصية القومية والذوبان الكامل فى الحضارة الغربية الوافدة . ولعل الجو الذى أملى على توفيق الحكيم هذه الرواية هو ما كانت تمتلىء به أوروبا فى ذلك الحين « ١٩٣٨ » من صور للقسوة والاعتداد بالنفس والتعسف ، فلقد عرف الشرق أوروبا الاستعمارية ممثلة فى انجلترا وفرنسا وغيرهما من بلاد أوروبا . وعندما بدأت الثورات الوطنية دورها فى التخلص من هذا الاستعمار وبدأ هذا الاستعمار ينحسر شيئا فشيئا ، اذا بأوروبا تطل على العالم بوجه جديد مخيف هو الوجه النازى الذى يمثله هتلر ، والوجه الفاشى الذى يمثله موسولينى أما روسيا فى ذلك الوقت فكانت تعيش فى ظل ستار حديدى رهيب ولم يكن أحد يعرف ماذا يدور فى داخلها بوضوح وكان كل ما يخرج من روسيا فى تلك الفترة يثير الفزع أكثر مما يثير الطمأنينة والأمل . كل ذلك بالاضافة الى أن أجهزة الاعلام الغربية قد ملأت العالم بالخوف والرهبة من النظام الروسى . ولذلك كله كان رد الفعل الطبيعى أن تكون « عصفور من الشرق » رفضا واستنكارا للغرب بوجوهه المختلفة ، وأن تكون

دعوة الى الاهتمام بالقيم الانسانية والروحية التى يمثلها تراث الشرق ·

هذا هو التبرير الوحيد لما فيها من سخط حاد عنيف على الغرب ، وعلى أديانه الجديدة جميعا ، بلا تفرقة دقيقة بين ما هو صالح منها وما هو زائف ، وبلا تعمق فى حقيقة المشاكل التى تثيرها الأديان الغربية الجديدة .. الماركسية والفاشية والنازية ، على أن « عصفور من الشرق » تحمل الينا شيئا جديدا فى رؤية توفيق الحكيم لمصر ، فهو فى عودة الروح يركز على رؤيته الدينية من خلال التاريخ المصرى القديم ، ولكنه فى عصفور من الشرق ، يلتفت الى التراث الشرقى كله ، فمصر هى جزء من حضارة روحية أشمل ، هى الحضارة الشرقية بأديانها الكبرى . أى أن نظرته الآن أصبحت أوسع من النظرة القومية المحدودة وذلك طبيعى جدا ، لأنه كان يفكر فى مشكلة الشرق أمام الغرب ، ولم يكن يفكر فى مشكلة عودة الروح ، وهى مشكلة مصر أمام الاحتلال الانجليزى ، وهكذا تبدو « عصفور من الشرق » امتدادا للرؤية الدينية الروحية فى « عودة الروح » ، وان كانت تصور التراث الروحى الذى تنبع منه نظرة الحكيم بصوره أوسع وأشمل من الديانة المصرية القديمة . والقيمة الأساسية التى تمثلها عصفور من الشرق ، هى الدعوة الى الأصالة والاصرار عليها ، كما كانت عودة الروح ، دعوة الى المقاومة والتفاؤل والثقة بأن روح مصر خالدة سوف تعود الى الحياة قوية كما كانت ، على أن « عصفور من الشرق » تعتبر من الناحية الفنية أضعف من عودة الروح وأقل قيمة من ناحية الشخصيات وعمق التفكير وتنوع المواقف الانسانية ، كما أنها لا تخلو من السذاجة بل ومن السطحية أحيانا .

ومن الملاحظ ان توفيق الحكيم أهدى « عصفور من الشرق » الى « حاميتى الطاهره السيده زينب » بينما كانت السيده زينب فى عودة الروح ، هى البيئة التى يعيش فيها أبطال القصة ويستظلون بظلها الروحى ، وكذلك فان « محسن » فى عصفور من الشرق يتذكر السيدة زينب فى باريس ، وهو يدخل احدى الكنائس .. ومن المعروف أن توفيق الحكيم اسمى ابنته الوحيدة باسم « زينب » استجابة لهذه المحبة العميقة فى نفسه للسيدة زينب ، ولما ترمز اليه من قوة روحية بالنسبة للحكيم وبالنسبة للشعب المصرى كله . ان المعبد المصرى القديم يتحول تدريجيا فى وجدان الحكيم الى مقام السيدة ويمتزجان معا لينسجا هذه الرؤية الدينية الصافية عند توفيق الحكيم فى نظرته الى مصر ، بل وفى نظرته للحياة والعالم من خلال مصر .

واحب ان أؤكد مرة أخرى قبل أن أنتقل الى النقطة الأخيرة فى هذا البحث أن معنى « الرؤية الدينية » هنا ليس هو المعنى التقليدى المحدود الذى يرتبط بالطقوس الدينية وما الى ذلك ، وانما الرؤية الدينية ـ كما أعنيها وكما أراها فى أدب توفيق الحكيم ـ هى ذلك الايمان العميق بشىء ، والثقة الكبيرة بأن هذا الشىء سوف يتحقق ، ثم استخدام جميع البراهين العقلية والعاطفية فى سبيل تأكيد هذا الايمان الذى يملأ نفس الانسان ... ان هذا النوع من الرؤية الدينية أشمل وأعمق وأكثر عصرية من الرؤية الدينية التقليدية ، لان هذه الرؤية الجديدة تهتم بجوهر الروح دون الاهتمام بالمظاهر والشكليات أو بالطقوس . وهذه الرؤية الدينية الجديدة هى التى كانت تسيطر على توفيق الحكيم فى نظرته لمصر فى « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » ، انه يؤمن

بها ، وبتراثها الروحي ، وبقدرتها على التجديد ، والعودة الى الحياة ، وايمانه بمصر هو ايمان عميق شفاف ، فيه نوع من الشمول يبعد عن أى تفكير فى التفاصيل الصغيره .

بقى بعد ذلك أن نتساءل : هل توقفت نظرة توفيق الحكيم الى مصر عند حدود الرؤية الدينية ؟

... لقد كان توفيق الحكيم ، بحاجة الى هذه الرؤية الدينية ، عندما كانت الظروف التى تحيط بمصر مظلمة لا تبدو فيها بارقة من الأمل . كان عليه أن يخترق بوجدانه هذا الظلام الكثيف ليرى المستقبل ، وينقل رؤيته الحادة الواثقة الى وجدان المصريين جميعا ، ولم يكن باستطاعته أن يرى هذا المستقبل بدون تلك الروح الدينية . روح الايمان الشامل العميق ، لأنه لم يكن هناك فى الواقع القائم أى أمل أو أى بشرى بأمل ... غير أن الحكيم استطاع من خلال رؤيته الدينية أن يجد أملا كبيرا فى المستقبل فى وقت كان من الصعب أن يرى فيه الانسان أى بصيص من النور ، ولكن بعد أن خرجت مصر من هذا الظلام خروجا نسبيا بعد ثورة ١٩١٩ ، وبعد أن بدأت تتقدم وتحقق بعض الانتصارات وتنال بعض الحقوق ، وبعد أن أصبح فيها جامعة وصحافة وحياة نشيطة ، وبعد أن عاد توفيق الحكيم من باريس ليذهب الى الريف ويعمل « وكيلا للنيابة » هناك ويحتك بالحياة ويكتسب فيها تجارب واسعة ... بعد هذا كله ... هل يتوقف الحكيم عند الرؤية الدينية ؟ هل يكتفى بأن يتغنى بحياة الفلاح وصبره على الألم واصراره على أن ينام هو ومواشيه فى مكان واحد ؟ ..

الحقيقة أن الرؤية الدينية لمصر قد تراجعت فى أدب توفيق الحكيم ، بعد أن أثبتت مصر خلال ١٩١٩ أنها

موجودة وأن قلبها ينبض بقوة وحرارة . صحيح أن الحكيم لم يتخلص أبدا من آثار هذه الرؤية الدينية فى بقية أعماله الفنية . ولكن الرؤية الدينية لا تظهر الا مع ازمة حاسمة ساحقة . أما بعد ١٩١٩ ، وبعد أن أصبح الحكيم جزءا من المجتمع المصرى الذى اخذ يتحرك نحو المستقبل، فاننا نجد أمامنا توفيق الحكيم صاحب « الرؤية الواقعية » ولقد ولدت الرؤية الواقعة عنده بصورة ناضجة بعد أن احتك بالحياة احتكاكا مباشرا فى تجربته بالأرياف كوكيل للنيابة؛ لقد عرف فى هذه التجربة كثيرا من الحقائق اليومية التى لم يتوصل اليها ، بالتأمل والتفكير والقراءة ... وانما توصل اليها هذه المرة بالعين المجردة والرؤية المباشرة . وتتجسد أمامنا هذه «الرؤية الواقعية» عند توفيق الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » .

والحقيقة أن الرؤية الواقعية لمصر عند الحكيم لم تولد فجأة ، فان عودة الروح نفسها مليئة بملامح غزيرة لهذه الرؤية الواقعية ، صحيح أن الوجه الرئيسى لعودة الروح هو الذى يتركز فى الرؤية الدينية لمصر ومستقبلها ، ولكن الرؤية الدينية نفسها تتحرك فى اطار واقعى خصب ، والاطار الواقعى فى عودة الروح يمثل وجها من وجوه عبقرية توفيق الحكيم وقدرته الفنية . لقد انطلق فى عودة الروح من الرؤية الدينية القديمة ، والتى تؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالخلود ، ولكنه من خلال هذه الرؤية ترك الحرية للشخصيات العصرية فى الرواية حتى تنطلق وتعيش حياتها الطبيعية الواقعية ، ومع ذلك لو تابعنا حركة الشخصيات فى عودة الروح ، فسوف نجد أن هذه الحركة تتلاءم تماما مع منطق الرؤية الدينية . فالأسرة تتعرض لأزمة هى أشبه بالموت ، وتدخل السجن الذى يشبه القبر ، ثم تعود الى الحياة من جديد .. تعود اليها

الروح ، وتبعث ، وتواجه الدنيا بأمل كبير . فعودة الروح اذن خطان متوازيان ، خط الرؤية الدينية ، وخط الرؤية الواقعية . ولكن الأساس ولا شك هو الرؤية الدينية . فهذه الرؤية هى التى تتحكم فى حركة الرواية وحركة الشخصيات .

ولكننا فى « يوميات نائب فى الأرياف » لا نجد سوى الرؤية الواقعية المباشرة ، لا مجال هنا للرؤية الدينية ، الا فى لمحات ثانوية غير أساسية . ان الفلاح الذى تحول الى قصيدة غنائية جميلة عن قوة مصر وقدرتها على الحياة والتجدد فى عودة الروح ، ليس هنا سوى فلاح حقيقى يعانى الألم والعذاب والمشاكل الاجتماعية والنفسية المعقدة . ونجد فى « يوميات نائب فى الأرياف » مواجهة صريحة وعاصفة بين الواقع الذى يعيش فيه الفلاح ، وبين القوانين التى تحكم هذا الواقع ، فالقانون ، جاهل ، وبعيد عن الصواب والفهم للحقيقة القائمة .. والعدالة التى يمثلها هذا القانون هى الظلم بعينه ، لأن القانون الذى يحاكم فلاحا سرق كوزا من الأذرة ليتغلب على جوعه ، هذا القانون لا يهتم أبدا بايجاد حل لأزمة الجوع عند الفلاحين . والقانون الذى يحاكم فلاحا آخر لأنه غسل ثيابه فى الترعة ويدينه ، هو أيضا قانون ظالم ، فأين يذهب الفلاح وماذا يفعل وليس فى القرية وسائل سليمة للحصول على المياه النقية ؟ .. وفى « يوميات نائب فى الأرياف » صور عديدة عنيفة تدين « القانون » ادانة حادة، وتعتبره قانونا زائفا لا يمثل العدالة بحال من الأحوال ، على أن ادانة القانون ليست هى الفكرة الوحيدة فى « يوميات نائب فى الأرياف » فهناك فكرة خطيرة أخرى هى ادانة الديموقراطية القديمة من خلال التطبيق العملى لها ، فالسلطات الادارية كانت مهمتها تزوير الانتخابات

والتفنن فى ذلك ، وهكذا يكشف توفيق الحكيم بقسوة « لعبة الحياة الديموقراطية » فى مجتمع يعانى من الجوع والجهل والتخلف الاقتصادى الرهيب . وفى « يوميات نائب فى الارياف » سخرية ورشاقة ودقة اختيار للوقائع التى تعبر عن الحقيقة الاجتماعية بقوة وعنف .

.. ان الرؤية الدينية الاولى لتوفيق الحكيم كان فيها كثير من الرومانسية المتفائلة لان عين الفنان كانت مركزة على المستقبل ، أما الان - فى يوميات نائب فى الارياف - فقد نزل الفنان من سماء الرومانسية والاحلام الى دنيا الواقع .. وكما كانت « عودة الروح » ايمانا بالثورة واليقظة والمستقبل بالنسبة لمصر ، فان يوميات نائب فى الارياف مليئة بالتحذير والنقد والغضب على الواقع ، انها تصوير قاس وجارح - رغم رشاقته وسهولته - لواقع الحياة فى المجتمع المصرى ، وهو واقع مرفوض كان من الضرورى أن يتغير .. بل كان من الضرورى أن يزول .

هذان فيما أعتقد هما الوجهان المتقابلان لنظرة توفيق الحكيم الى مصر .. الوجه الأول هو الرؤية الدينية القائمة على الايمان العميق بمصر وبقدرتها على الحركة والحياة مهما اشتد الظلام ، والوجه الثانى هو الرؤية الواقعية حيث نجد الحكيم ينقد المجتمع المصرى ويرفض صورته القديمة المليئة بالظلم والعفن .. وهو يرفض فى ذلك المجتمع ، على وجه الخصوص : القانون المفروض على هذا المجتمع ،ويرفض الديموقراطية التى لاتصور رأى الشعب وانما تزور هذا الرأى . أى أن المجتمع القديم كان مطحونا بين تزييف العدالة وتزييف الديموقراطية..

هما وجهان لرؤية توفيق الحكيم لمصر .. ولكنهما فى الحقيقة وجهان لعملة واحدة : الرؤية الدينية هى الوجه

الأول ، والرؤية الواقعية هى الوجه الثانى .. ومن خلال هذين الوجهين الأساسيين خرجت عشرات الروافد الصغيرة ، تصور لنا رأى توفيق الحكيم فى الأحزاب القديمة ، وفى المرأة ، وفى رسالة الفن ، وفى الدين ، والتعليم ، والقانون .. فى الطبقة الوسطى ، وفى العمال والفلاحين وفى قضايا كثيرة متعددة . ولا شك أن هذه الروافد الكثيرة ـ بما فيها من خطأ وصواب ـ تحتاج الى دراسات متعددة واسعة .

٨ من مصر ...
ثلاثة أدباء

فى بداية هذا القرن بدأ الناس فى مصر يستيقظون من الصدمة التى أصابتهم بهزيمة الثورة العرابية واحتلال الانجليز للبلاد . واشتد ساعد الحركة الوطنية التى أخذت تنادي بالاستقلال الكامل والحرية الكاملة لمصر .. غير أن الحركة الوطنية لم تكن ذات اتجاه واحد . فقد اختلفت هذه الحركة باختلاف الزعماء والمفكرين الذين يتولون قيادتها ووضع أصولها الفلسفية وتحديد أهدافها البعيدة . وكان أبرز تيارين فى الحركة الوطنية هما تيار مصطفى كامل ، وتيار لطفى السيد .

الأول يربط مصر واستقلالها بالخلافة العثمانية . فهو يريد أن تتخلص مصر من الاحتلال البريطانى لتصبح مستقلة مع الاحتفاظ بصلتها الروحية بتركيا فى ظل الراية الاسلامية .

أما لطفى السيد ـ صاحب الاتجاه الثانى ـ فكان يدعو الى استقلال مصر عن بريطانيا وتركيا على السواء . تحت شعاره المشهور « مصر للمصريين » .

وقد انقسم المثقفون فى مصر فى أوائل هذا القرن الى مدرستين ... مدرسة تؤيد مصطفى كامل وتناصره ومدرسة أخرى تؤيد لطفى السيد وتأخذ بمبادئه ؛ وانعكس هذا الصراع بين المدرستين على الأدب والصحافة

والدراسات الفكرية المختلفة ، على أن من أطرف ماوصل الينا من آثار هذا الصراع روايتين : احداهما تؤيد مصطفى كامل والثانية ترد عليهــا وتؤيد لطفى السيد . وكاتبـ الروايتين لم يكونا من كبار الأدباء المشهورين فى عصرهما . بل ان الرواية الأولى ظهرت وعليها الحروف الأولى من اسم صاحبها فقط .. فقد وقع عليها بالحرفين «ا . ف» ولم يذكر لنا تاريخ الادب على الاطلاق أن هذين الحرفــين يرمزان الى أحد الادباء اللامعين فى تلك الفترة أما الرواية الثانية فقد ألفها كاتب آخر صرح بأسمه وهو : عبدالحليم العسكرى .

والجديد فى الروايتين أنهما ترمزان الى مصر بشخصية نسائية . ففى الرواية الأولى التى دافع فيها المؤلف عن مصطفى كامل رمز المؤلف لمصر بشخصية الفتاة « عزيزة » وقد اختار المؤلف لروايته اسما طريفا هو « عشق المرحوم مصطفى كامل وأسماء عشيقاته » .

ويختار المؤلف كشعار لروايته حديثا نبويا شريفايقول « من عشق فعف ثم مات ، مات شهيدا » . ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن عشق مصطفى كامل لجــارة يتيمة له اسمها « عزيزة » ، وهو عشق بدأ منذ الطفولة ففى احــد الأيام ذهبت به أمى « بمصطفى كامل » المرحــومة والدته الى هذا المنزل ــ منزل عزيزة ــ كعادة الجيران من الزيارة والتواد ، فجرت بينه وبين الطفلة وهما فى المهد حادثة كانت حديث الاستغراب بين الوالدات والعائلات ذلك أن أمه تركته بجانبها . وكانت الطفلة نائمة بعيدا عنه . فاذا به قد تدحرج حتى وصل اليها فضمها اليه . ورقد مطمئنا بجانبها ، وفتحت الطفلة عينيها الضغيرتين وحملقت فى وجهه ثم ارتسمت على ثغرها ابتسامة له .

وعندما كبرت عزيزة ، الفتاة المعشوقة ، التى يموت

فى هواها مصطفى كامل حاول بعض أقاربها أن يزوجوها من رجل أجنبى اسمه « فيكتور » وهو رجل دبلوماسى يلعب بالأموال . ويلجأ الى الدس والرشوة للوصول الى هدفه ، ويحارب مصطفى كامل حربا عنيفة قاسية لكى يحصل منه على الفتاة .

وهكذا يرمز المؤلف الى مصر بالفتاة « اليتيمة » عزيزة، ويرمز الى الاستعمار الانجليزى بالخواجة الأجنبى « فيكتور » ... أما أقارب عزيزة فهم « عملاء » الانجليز الذين يريدون أن يبيعوا مصر ، أو الفتاة اليتيمة عزيزة ، الى الاستعمار مقابل الحصول على بعض الامتيازات المادية .

وبعد ظهور هذه الرواية الساذجة الطريفة بفترة قصيرة تظهر رواية أخرى بعنوان « سعاد » ومؤلفها ـ كما أشرت ـ هو عبد الحليم العسكرى ، ويصف المؤلف روايته بأنها « اجتماعية أخلاقية فى ثوب غرامى » ، ويهدى المؤلف روايته الى « الاستاذ الاديب والفيلسوف الخطير صاحب العزة أحمد بك لطفى السيد دلالة ولاء وعلامة اخلاص وتقدير » .

ورواية سعاد ، مثل الرواية السابقة ، ترمز الى مصر بشخصية نسائية ، فشخصية سعاد هى نفسها مصر ، وتدور أحداث الرواية حول قلب سعاد الحائر بين فيلسوف هو رمز للطفى السيد ، وبين شاب آخر متحمس هو رمز لمصطفى كامل .

ويحاول اهل سعاد أن يفصلوها نهائيا عن اى ارتباط بالفيلسوف كما أن الفيلسوف يتعرض لهجوم عنيف وخاصة من بين رجال الدين لأنهم لا يفهمون دعوته ولا يقدرونها . فيسافر الفيلسوف الى الخارج هربا من الهجوم عليه فهو رجل رفيع القدر لا يحب المعارك الصغيرة

وفى الخــارج يلتقى بحبيب ســعاد الآخر ، وهو الشاب المتحمس ويعود الشاب الى مصر وينتصر على الفيلسوف فيتزوج من سعاد ولكن سعاد لا تشعر فى ظله بالسعادة فتتركه الىالفيلسوف حيث تجد معه سعادتها وطمأنينتها الكاملة .

ومن خلال الرواية ندرك ان المؤلف ينكر على سعاد التى ترمز الى مصر أى ارتباط بينها وبين الشاب الذى يرمز الى مصطفى كامل ، لأنه « انانى متهور » كما تقول الرواية، ويدعو المؤلف فى نفس الوقت الىالارتباط بين سعاد وبين الفيلسوف الذى يرمز الى لطفى السيد . فهو متحرر ؛ متقدم يؤمن بالعقل ويحب سعاد حبا مخلصا لا يختلط بحبه لنفسه .

والروايتان محاولتان مليئتان بالبساطة والســذاجة الفنية وبين صفحاتهما الكــثير من الحــديث المباشر عن الأفكار والقضــايا التى يؤمن بها المؤلفــان فى السياسة والمجتمع والأدب .. ولكن أهم مافى الروايتين هومحاولتهما للرمز الى مصر بشخصية نسائية ، فقــد كانت هــذه الفكرة جديدة لم يسبقهما اليها أحد الا فى ميدان الأدب الشعبى . حيث كان الفنان الشعبى كثيرا ما يرمز الى مصر باسم « خضرة » وما الى ذلك من الأسماء .

وصاحب الفضل فى معرفتنا بهاتين الروايتين الطريفتين هو الدكتور عبــد المحسن بدر فى كتــابه القيم « تطور الرواية العربية الحديثة » .

وبعد تلك المحاولة الطريفة الساذجة للرمز الى مصر بشخصية نسائية ظهرت محاولات أخرى أكثــر عمقــا وأصالة . محاولات مليئة بالفن والفكر على صورة دقيقة رائعة .

ولم تكن هذه المحاولات الجديدة تتحدث عن صراع بين

اتجاهين ، أو حزبين ، أو ما الى ذلك من المواقف الجزئية المحدودة . بل كانت تتحدث فى شمول وعمق وفلسفة واضحة . كانت تدعو الى التغيير الكامل لواقع الحياة فى مصر ، وتشير بطريقة غير مباشرة الى اتجاه هذا التغيير .

وأولى هذه المحاولات الفنية الناضجة هى محاولة توفيق الحكيم فى روايته « عودة الروح » وبطلة هذه الرواية فتاة جميلة رقيقة اسمها « سنية » وتوفيق الحكيم لم يقل لنا انه يرمز بهذه الفتاة الى مصر ، لا فى الرواية نفسها ، ولا فى أحاديثه عن هذه الرواية . ويرجع هذا من ناحية الى النضج الفنى عند توفيق الحكيم . فالفنان الساذج وحده ، هو الذى يجعل الرمز صارخا مكشوفا ، وهو الذى يزعق فى كل لحظة ليقول لنا انه يرمز بهذه الشخصية أو بغيرها الى معنى معين ، فقيمة الرمز وعذوبته وجماله تكمن كلها فى خفائه واستتاره ، فى أننا لا يمكن أن نكتشفه بسهولة أو بلمسة سريعة ، بل أن علينا أن نكتشفه من خلال لمحات صغيرة بسيطة متناثرة ، نحس بعدها معنى الرمز وغايته .

فما هى اللمحات التى تساعدنا على أن نكتشف معنى « سنية » ونحس أن « سنية » انما ترمز الى مصر فى رواية عودة الروح ؟

هناك ولا شك كثير من هذه اللمحات .

فرواية عودة الروح تتحدث كثيراً عن مصر وشعب مصر فشعار الجزء الاول مأخوذ من نشيد الموتى : ذلك النص الادبى والدينى الذى وصل الينا من مصرالفرعونية . هذا الشعار هو « عندما يصير الزمن الى خلود سوف نراك من جديد لأنك صائر الى هناك حيث الكل فى واحد » ثم نجد شعار الجزء الثانى من الرواية مستمدا أيضا من كتاب الموتى نفسه . حيث يقول هذا الشعار « انهض ...

انهض يا أوزيريس أنا ولدك حورس ... جئت أعيد اليك الحياة ... لم يزل لك قلبك الحقيقى . قلبك الماضى » .

ومعنى عودة توفيق الحكيم الى الأدب الفرعونى ليستمد منه شعارا لروايته أنه كان وهو يكتبها يفكر فى مصر ، وأنه لم يكن يفكر فيها تفكيرا جزئيا محدودا ... لم يكن يفكر فى مرحلة من مراحل تاريخها ، أو عصر من عصور هذا التاريخ ، وانما كان يفكر فى مصر كلها ، فى نشاطها وحيويتها ومصيرها ، فى شخصيتها الأساسية الجوهرية فى قدرتها على مواجهة الاحداث ، فى أسلوب النهوض من المشاكل والتجارب الاليمة والعثرات .. ولذلك لم تكن رواية توفيق الحكيم مجرد معالجة للواقع الاجتماعى أثناء كتابة الرواية « سنة ١٩٢٧ » ولا فى الزمن الذى دارت فيه أحداثها « قبيل ثورة ١٩١٩ حتى قيام الثورة » ... ولو كان توفيق الحكيم يهدف الى معالجة هذه الامور المؤقتة وحسب ، لجاءت روايته مليئة بالتشاؤم لان الواقع فى مصر فى ذلك الوقت كان مليئا بالتخلف المثير . ولكن توفيق الحكيم اخترق هذا المظهر من مظاهر تخلف الشعب المصرى ليبحث عن جوهرهذا الشعب عن بذرته الاصلية. لم يكن يعنيه ذلك البؤس الخارجى الذى يسيطر على ملابس الفلاح ومسكنه وحياته كلها ... ولكنه كان يهتم أولا وأخيرا بعقل هذا الفلاح وقلبه . كان يهتم بقدرته على الاحتمال والصبر ، وقدرته على العمل والفناء ، ولذلك كان يحس أن هذا الشعب ليس بائسا كما يبدو من مظهره الخارجى ، ولكنه على العكس شعب قوى قادر .. انه تيار متدفق من الحياة ... وهو لا يتوقف أبدا كما قد يوحى مظهره الخارجى .

وكما أشرت فى الفصل السابق عن « مصر فى أدب

توفيق الحكيم » ، فان معنى الشعارين اللذين اختارهما الحكيم لرواية عودة الروح آن الحكيم كان ينظر الى حركة الشعب المصرى فى حدود مبدأين هامين : المبدأ الأول هو مبدأ الوحدة ، أو بعبارات النشيد المصرى القديم ، مبدأ « الكل فى واحد » . لقد كانت رؤية توفيق الحكيم الفلسفية والوجدانية للشعب المصرى هى أن هذا الشعب لا يبدع ولا يتألق ، الا فى اللحظات التى يتوحد فيها ويتخلص من الانقسام والتجزئة سياسيا أو طائفيا او اجتماعيا ، وكأن توفيق الحكيم كان باختياره لهذا الشعار يدعو الى العودة الى النبع ... نبع الوحدة ، نبع التجمع والخلاص من إى انقسام قد يعانيه الشعب . اما شعار الجزء الثانى من عودة الروح ، فهو دعوة الى النهوض وتأكيد من جانب الحكيم الى أن مصر لم تمت كما يبدو أمام النظرة الخارجية .. بل على العكس انها تستعد للتوثب والتيقظ ... انها لم تفقد نفسها ، لم تفقد قلبها ، لم تفقد نبضها الحى الحار « ... أنا ولدك حورس ... جئت أعيد اليك الحياة ... لم يزل لك قلبك الحقيقى ... قلبك الماضى » !

هذا الاحساس الشامل بمصر ، بالزمان فيها والمكان ، بالقديم والحديث بالانسان الخالد على أرضها والصابر على العمل العظيم منذ أيام الأهرام الى أيام السد الذى بدأت مصر تقيمه بعد صدور عودة الروح بحوالى ثلاثين سنة ، هذا الاحساس بمصر ، وهو الاحساس الذى يملأ رواية عودة الروح ، يوحى الينا بأن توفيق الحكيم ليس بعيدا عن جو الرمز الرقيق الشفاف فى شخصية بطلة الرواية « سنية » .

وهناك شىء آخر يجعلنا نميل الى اعتبار « سنية » فى عودة الروح هى حقا رمز لمصر .. ذلك أن سنية هى

الفتاة التى يحبها جميع أبطال الرواية بلا استثناء ، العامل والتلميذ والمدرس والتاجر ... كلهم يحبون سنية ، كل واحد يتمنى وصالها ، كل واحد يعمل من أجل أن ترضى عنه ، كل واحد ينتظر منها كلمة أو نظرة أو موعدا أو منديلا أو رسالة غرام .

وهذا ما يجعلنا قريبين جدا من الحقيقة الفنية اذا تصورنا سنية هذه هي مصر التى يحبها الجميع ويطلبون رضاها ويتمنون وصالها الجميل .

وقد كان أفراد الأسرة التى تتحدث عنها عودة الروح يحاولون أن يظهروا بأفضل ما لديهم أمام الحبيبة الجميلة سنية ، وعندما اكتشفوا أنهم جميعا يحبون فتاة واحدة ، واكتشفوا أن اي واحد منهم لم يصل معها الى شيء ، تجمعوا بعد فشلهم فى الحب ... تجمعوا من جديد ليندمجوا فى العمل وليعوضوا هذا الفشل وليثبتوا لأنفسهم أنهم جديرون بحب سنية الذى لم ينالوا منه شيئا ، ومن هذا الشعور بالرغبة فى عمل شيء كبير يعوض الفشل العاطفى ويسمو عليه ، اشترك الجميع فى ثورة ١٩١٩ عندما انفجرت هذه الثورة .

أما « سنية » فقد اختار قلبها شخصا آخر هو مصطفى ، التاجر الشاب الذى جاء من مدينة المحلة ليقيم فى القاهرة بعيدا عن تجارته حيث كان هناك « خواجة » أجنبى يريد أن يشترى منه متجرا ويستولى عليه .. ولكن « سنية » ظلت تحرض مصطفى وتدفعه بحرارة وعمق الى أن يخرج من كسله ، والى أن يعود الى تجارته، والى أن يمنع الأجنبى بأى ثمن من الاستيلاء على متجره .. وانتصرت سنية بالفعل واستجاب لها مصطفى وعاد الى متجره .. ومنع الأجنبى من الاستيلاء عليه وفاز أخيرا بسنية حبيبته وحبيبة الكل .

فكأن سنية هي الروح المحركة للجميع ، لقد دفعتهم الى العمل والثورة ، لأنها كانت تتحداهم أن يفعلوا شيئًا له قيمـة ، أن يثبتوا أنهم بشر لهم فاعليـة وتأثير على أحداث الحياة ، وبالنسبة لمصطفى على وجه الخصوص فقد أخرجتـه من خموله وكسله ودفعته دفعـا الى أن يتحدى الأجنبى تحـديا اقتصـاديا ... حتى لا تتم السيطرة الاقتصادية لهذا الاجنبى ، ولعلنا نجد فى ذلك رمزا لاختيار مصر للطبقة الوسطى كقيادة لها خلال ثورة ١٩١٩ ، فمصطفى هو نموذج حى للطبقة الوسطى ، نقد حركته سنية ودفعته الى العمـل والاجتهاد ... وهـذا ما حدث خلال الثورة ، فقد خرجت الطبقة الوسطى من خمولها واندفعت الى الحياة العملية بنشاط واسع بعد الثورة .

ان سنية اذن هى التى تحرك الرواية ، بالنسبة لمن فشلوا فى حبها ، وبالنسبة للوحيد الذى نجح ، انهـا تدفع الجميع الى العمل ، الى التحرك بدل الجمود ، إلى التحـدى بدلا من الاستسلام ، الى الدخـول فى معركة واسعة عامة بدلا من الاكتفاء بالمطالب الذاتية الشخصية ، بل لقدربطت « ذوات » الجميع بهدف عام كبير فأخرجتهم من مشاكلهم الخاصة وجعلت بين هذه المشاكل الخاصة وبين الوضع العام فى المجتمع كله رابطة أساسية واضحة ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنـا هو أن الدكتور على الراعى كان أسبق النقـاد المصريين جميعـا الى التفسير السياسى الواضح لشخصية سنية ، وذلك فى دراسته عن « عـودة الروح » فى كتـابه (دراسـات فى الرواية المصرية) .

على أن توفيق الحكيم لم يكن وحـده الذى حاول أن يجسد شخصية مصر فى صورة فتاة حلوة هى سنية ،

فقد حاول هذه المحاولة نجيب محفوظ ايضا .

ومحاولة نجيب محفوظ تقابلنـا فى روايته المعـروفة « زقاق المدق » ، ونجيب محفوظ لم يرمز الى مصر فى زقاق المدق رمزا مباشرا ، بل لقد كان مثل توفيق الحكيم ومثل أى فنان ناضج بعيدا كل البعد عن الاشارة المباشرة الى هذا الرمز ، ويمكننا أن نقرأ « زقاق المدق » على أنها رواية واقعية بعيدة تماما عن الرمز ، ولن تستعصى علينا زقاق المدق فى هذه الحالة ، كما أنها لن تستعصى علينا اذا قرأناها على أنها رواية ترمز لمصر كلها .

ولكننا مع ذلك نميل الى الاحساس بأن نجيب أراد أن يرمز الى مصر فى هذه الرواية ونعتمد فى هذا الاحساس على لمحات رقيقة ذكية يلقيها الينا نجيب محفوظ بين الحين والحين .

والشخصية التي ترمز لمصر فى زقاق المدق هى شخصية بنت البلد « حميدة » تلك الفتـاة الجـذابة التى يذوب الجنس فى جسدها مع الرقة وخفة الدم والحيوية العنيفة والغموض الساحر السهل ، وهى كلها صفات للنموذج الشـائع للمرأة المصرية الأصيلة ، بنت البلد ، فـلا هى روحانية ولا هى مادية ، انها فى أقرب صورها الى الحقيقة: انثى ملتهبة الجسد فى اطار من اللمسات والظلال الروحية الفاتنة .

لقـد أحسن نجيب محفوظ تصـوير هـذا النموذج الجميل ، وكأن نجيب نفسه كان يشتهى « حميدة » وهو يرسمها ويصورها بجسدها الفـائر وروحهـا المتوثبة ، ويخيل الى أن مصر نفسها ممتلئة بكل هذه الصفات التى نجدها فى شخصية حميدة .

ان مصر هى بلد العمل ، وبلد الأرض التى نعرق فوقها لنعيش مع نباتها الأخضر ... فهى بهذا المعنى بلد مادية

بنهرها ، وارضها الخصبة وصحرائها التى تتحداها بفقرها وخوائها على مر القرون ، انها امرأة مثيرة بمفاتن جسدها ... ولكن ليست هذه فقط هى مصر ... فالزارع القديم عندنا كان يزرع الأرض ويعبد الله فى وقت واحد . اى أن العمل المادى كان قد امتزج منذ القديم بلمسة روحية عميقة ، ان فتنة الجسد فى مصر تحيط بها ظلال عميقة من فتنة الروح ، هذه هى مصر منذ القديم ، وهذه هى حميدة أيضا كما صورها لنا نجيب محفوظ .

ولكن هل هذا فقط هو الذى يقنعنا بأن نجيب محفوظ كان يريد أن يصور لنا مصر فى شخص حميدة ؟ ..

كلا ... فهناك أسباب كثيرة أخرى تجعلنا نميل الى هذا الرأى ، لقد صدرت زقاق المدق سنة ١٩٤٧ ، وقد كتبها نجيب محفوظ أثناء الحرب العالمية الثانية « وان كانت قد نشرت بعد الحرب بسنتين » وفى هذه الفترة وصل انهيار مصر حدا أليما من القسوة والسوء والبؤس، كان جنود الاحتلال يهتكون أرضها وعرضها كل يوم ، وكانت بلدا يبيع نفسه بطريقة رخيصة ومؤسفة الى أقصى حد ، وعندما نقرأ زقاق المدق نحس بجميع القوى التى كانت تعمل بداخل مصر موجودة فى هذه الرواية .

هناك الانجليز الذين كانوا يملأون الشوارع والكباريهات، والانجليز فى الرواية أشبه بالكابوس الجاثم على أنفاس الحياة وفى الرواية أيضا رائحة الديمقراطية المصرية القديمة الزائفة فالانتخابات كانت فرصة لانتشار الرشاوى وشراء الأصوات والضحك على أبناء الشعب المساكين ، لقد كانت الديمقراطية قناعا للتجارة بالحكم والسلطة والنفوذ ... ولذلك نجد فى الرواية ذلك الشخص الذى يوزع الأموال على الناس ويدعوهم لانتخاب أحد السياسيين ، وهو نفسه الذى يعمل « قوادا » ويجر

« حميدة » جرا لكى تعمل فى أحد الكباريهات وتتحول من بنت بلد ذكية جميلة تنتظر خطيبها « عباس الحلو » الحلاق الفقير المكافح ، الى راقصة يجرى المال تحت قدميها ، ثمنا لجسدها الذى تبيعه كل ليلة للجنود الانجليز الذين انتشروا فى البلاد كما تنتشر الوحوش ، أطلقتهم الحرب فلا حرج عليهم ولا حدود ولا قيود .

وفى هذه الرواية تبدو أمامنا صورة الشعب البائس الذى تحللت قواه تحت تأثير الظروف القاسية القاهرة ..

من هذا كله نشعر أن زقاق المدق ما هى الا مصر كلها فى لحظة من لحظات التفسخ ، بل فى قمة هذا التفسخ الذى وصل اليه النظام القديم : بأحزابه وبجنود الاستعمار على أرض البلاد ، وبالشعب البائس الفقير . ورواية نجيب محفوظ ليست من روايات التنبؤ ، والارتفاع فوق الواقع بل هى من روايات التشريح والتحليل والغوص فى الواقع ، ولذلك فان الرواية تغوص بنا فى أعماق اللحظة التاريخية التى وصل فيها مجتمعنا القديم الى قمة الانهيار والانحلال أثناء الحرب العالمية الثانية .

وحميدة هى مصر فى هذه الفترة ..

انها جميلة وجذابة ولكنها فقيرة ..

وهى مليئة بالحيوية الكامنة ولكنها لا تعرف لنفسها اتجاها صحيحا تصب فيه هذه الحيوية ..

وقد أحبها عباس الحلو ، ابن البلد الفقير ، ولكنه عندما أراد أن يبنى مستقبله معها لم يجد أمامه طريقا الا أن يعمل فى « الأورنس » مع الانجليز ، حتى يستطيع أن يجمع قروشا تكفيه لبداية الحياة ، ولمهر الحبيبة .

لقد كانت الطرق مسدودة كلها أمام الجميع الا طريق الانجليز ، لان المجتمع نائم خامل مخدر مفقود الحيوية والحرية ..

وكانت حميـــدة نفسها ، تلك الحـلوة اليتيمة ، التى لا تجد رعاية أب ولا أم ، تئن تحت ضـــغط ضعفهـا الاقتصادى الفظيع ، ومن هنـا أسلمت حميـدة نفسها للرجل الأنيق الذى يغمز بعينيه وشاربه ويعدها بالمجـد والثراء ، وهــو نفسه الرجـل الذى يوزع الأموال على الشعب فى الانتخابات !

وأكاد أشعر أن هذا الرجل هو رمز لقوة السياسة المصرية فى ذلك الوقت فالســياسة المصرية لم تـكن فى عنـاصرها الرئيسية المتحكمة المسيطرة الا وسـيطا من وسطاء الشر بين مصر وبين الاستعمار البريطانى ..

وذهبت حميدة مع ذلك الرجل القواد لتصبح فريسة للانجليز ، تماما كما حدث لمصر ، لقد تحولت على يد السياسة المصرية المنحرفة ، التى كانت حسنة المظهر سيئة المخبر ، الى فريسة تهب جسدها كله للانجليز . ألم يكن هذا صحيحا أيام الحرب ، حيث كانت مصر تمنح كل شىء فيها للانجليز : قطنها ، وقمحها ... ارضها ، ورجالها ... كل شىء فيها كان فى خدمة المحتلين .

وجاء عباس الحلو من « الأورنس » ليجد حبيبته وقد تحولت الى راقصة يهتك جسدها الانجليز ، فثار وتمرد وأراد أن يهدم « المعبد » كله على رأس من فيه ، فجرح هو ثم مات وبقيت حميدة .

وأذكر أن فيلم « زقاق المدق » قد غير نهاية القصة ، وجعل حميدة نفسها تموت .. وهـــو تغيير خاطىء الى أقصى حد ، فلم تمت حميدة فى الرواية لأن مصر لا تموت، وانما كانت تمر بفترة انهيار وانحراف ، وكان يدافع عنها شاب فقير لم يوفق فى الدفاع ، مثل جميع هؤلاء الذين فجـروا القنـابل وقاموا بالاغتيالات الفـردية للانجليز وعملائهم ، لقد كانوا يمثلون محـاولات مؤقتة لا تحـل

المشكلة ، وكان لابد لانقاذ حميدة من عمل كبير ، أكبر من غضب عباس الحلو ..

وجاء هذا العمل الكبير الشامل فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . فأنقذ حميدة من « الكباريه » الذى كانت تعيش فيه ، وجعل منها فتاة حلوة فيها فتنة وجاذبية ، وفيها أيضا تعب الجهد والدفاع المستميت عن النفس .. والعرض .

أما الفنان الثالث الذى حاول أن يرمز الى مصر ويجسدها فى شخصية فتاة فهو يحيى حقى ، وذلك فى قصته البديعة « قنديل أم هاشم » ،ومصر فى هذه القصة هى الفتاة « فاطمة النبوية » . لقد كانت مخطوبة لقريبها اسماعيل ، وكان اسماعيل هذا شابا قويا وفلاحا متدينا؛ ساعدته الظروف على السفر الى أوروبا ، فدرس الطب هناك . وأحب فتاة اسمها مارى ، ثم عاد الى مصر .. وعندما عاد كان كيانه قد أصابه زلزال عظيم ، وأصبح الجانب الأكبر فيه مؤمنا بكل ما فى الغرب من قيم ، وخاصة بالعلم ، وكافرا بكل ما فى الشرق وخاصة بالروحانيات . ووصل اسماعيل الى مصر فوجد خطيبته القديمة «فاطمة النبوية» مريضة بمرض خطير فى عينيها ، وحاول أن يعالجها ويفتح عينيها بوسائله العلمية التى درسها فى الغرب ، ففشلت وسائله وحاول فى آخر الأمر أن يعالجها بالوسائل الشعبية المألوفة فنجح العلاج وفتحت فاطمة النبوية عينيها .

عندما عاد اسماعيل من اوروبا فصل نفسه عن بيئته، وذهب يوما الى مقام « الست أم هاشم » وكسر قنديل « المقام » وحطمه علنا أمام الناس ، لان هذا القنديل فى نظره كان رمزا للشرق القديم ، لمصر القديمة بكل ما فيها من روحانيات وغيبيات وخرافات .

ولكن ماذا جنى اسماعيل عندما اختار علم أوروبا

ورفض مصر بكل ما فيها ومن فيها ؟ وماذا كسب اسماعيل عندما أراد أن يفرض علمه بالقوة على بيئته وعلى مواطنيه ؟ لقد كانت النتيجة هى أنه أصبح وحيدا، وكانت النتيجة أيضا هى أنه أصبح فقيرا وأوشكت عيادته أن تفلس افلاسا تاما لأنها لا تعطى للناس شيئا يحتاجون اليه أو هى تعطيهم بعض ما يحتاجون اليه ولكن بطريقة خاطئة لا يمكن أن يوافقوا عليها أبدا ..

ان « فاطمة النبوية » لم تكن تؤمن بعلاجه ولذلك لم يفد هذا العلاج على الاطلاق وظلت فاطمة مغمضة العينين فى ظل هذا العلاج .

وعندما لجأ « الدكتور اسماعيل » الى العلاج الشعبى آمنت به « فاطمة النبوية » .. واستطاع هذا العلاج أن يفتح عينيها وأصبحتا — على رأى التشبيه الشعبى — كأنهما فنجانان رائعان .

ان « فاطمة النبوية » فى رواية « قنديل أم هاشم » هى مصر ، ويحيى حقى لا يخفى هذا المعنى الرمزى بل يعطيك احساسا واضحا خلال صفحات الرواية بأنه يقصد الرمز ويعنيه ، وليس فى « فاطمة » حيوية « سنيه » — فى عودة الروح — وذكاؤها وقدرتها على تحريك الآخرين ، وليس فيها جسد « حميدة » عند نجيب محفوظ ، وفتنتها ودمها الحار الفائر وخفة روحها وعذوبتها ..

كلا ، ان فاطمة النبوية شىء آخر غير سنية وحميدة ، انها مغمضة العينين رمزا لما كان فى مصر من تخلف وتأخر، وهى طيبة قليلة الكلام ، ولكن ميزتها الكبرى أو مميزاتها الكبرى هى أنها : عريقة توحى اليك بأنها تحمل فى صمتها أجيالا وأجيالا من الصبر والخبرة والتجربة والمعرفة الكاملة بالحياة والتقاليد القديمة ، وهى لا تهتز بسهولة ، بل أنها مستعصية تماما على من يتعالى ويترفع عليها أو

يحاول أن يفرض نفسه أو أفكاره بالعصا ، أو بالاحتقار .

انها لا تفتح عينيها أبدا ولا تبدو طيعة الا لمن أحبها واعترف بها ومزج معارفه العصرية بتقاليدها وتراثها وروحها العريقة ، أن اسماعيل لم يستطع أبدا أن يؤثر عليها عندما تعالى عليها وأراد أن يفرض عليها نفسه، ولكنه أثر عليها عندما اعترف بها وبتقاليدها ، ومزج علمه بروحها القديمة ، وهنا استطاع أن يشفيها من مرضها وأن يفتح عينيها .. وأن يتزوجها بعد ذلك وينجب منها الكثير من البنات والبنين ، وهنا فقط تصبح مصر أو فاطمة النبوية ، طيعة لينة ، وتصبح زوجة ولودا خصبة .

ما أحلى هذه القصة البديعة وما أعمق عذوبتها وصفاءها .

ما أكثر ما توحى به من لمحات ذكية أصيلة صادرة عن قلب عظيم . ولعل يحيى حقى كان يفكر وهو يكتب هذه القصة الرائعة أن يأتى ذلك الرجل يوما ما .. رجل يداوى عين فاطمة فتشفى ، وتصبح عينا جميلة رائعة ، رجل يداوى العين بالحب ولا يقتلع هذه العين بالعنف والقسوة ..

فالحب قبل كل شىء هو الطريق الى قلب مصر وعينيها ، وهو الطريق الى شفائها الحقيقى الكبير .

محمد مندور ...

من الإنسانية إلى اليسارية

عندما كان محمد مندور طالب بعثة فى باريس ما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٣٩ ، كانت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية من أهم الدراسات المقررة عليه فى برنامج بعثته الدراسية ، ولم يكن مندور يقبل على اللغة اليونانية والثقافة اليونانية اقبال الطالب الذى يريد أن يؤدى واجبه وحسب ، بل كان يقبل على اليونانيات اقبال العقل المفتوح والقلب المفتوح معا . فلقد كان يعرف أن الثقافة اليونانية منبع من أصفى منابع الثقافة الانسانية وأغناها على الاطلاق . ولعله كان يدرك فى تلك الفترة المبكرة من عمره أن الثقافة اليونانية لم تترك الأثر على العقل الغربى المعاصر فحسب ، وانما تركت أثرها أيضا على الثقافة العربية فى عصر ازدهارها ، وامتزجت بهذه الثقافة ، وأثمر الامتزاج بين الثقافتين ثمرات كثيرة رائعة .

ولم يكتف مندور بالدراسة النظرية التى كان يتلقاها فى السوربون ، ولكنه أصر على أن يقتصد من مرتبه البسيط كطالب بعثة ليسافر الى أرض اليونان ويدرس الثقافة اليونانية على الطبيعة ، فيرى الآثار اليونانية ويتأملها ويقارن بينها وبين ما يدرسه فى الجامعة . وقام مندور بهذه الرحلة ، وعاش مع الآثار اليونانية . ولم يعبأ

بغضب مدير البعثة فى باريس وتحذيره له بالا يقوم بهذه الرحلة ، فلما أصر مندور على رحلته قرر المدير ايقاف مرتبه والعمل على طرده من البعثة نهائيا ، ظنا منه أن رحلة مندور الى اليونان لم تكن الا نوعا من العبث الذى لا يليق بطالب ناضج ، واستطاع مندور بعد مجهود كبير أن يعيد تسجيل اسمه من جديد بين طلاب البعثة ، ويمكننا أن نقرأ هذه الحادثة كما رواها مندور نفسه للاستاذ فؤاد دواره فى حديث طويل منشور فى كتاب « عشرة أدباء يتحدثون » ، وهذه الحادثة بما فيها من تفاصيل صغيرة لها دلالات عديدة عامة تكشف لنا الكثير من الجوانب فى شخصية مندور .

يقول مندور :

« عدت من هذه الرحلة التى تفوق فى أهميتها قراءة ألف كتاب لأفاجأ بمدير البعثة وقد أوقف مرتبى لأننى خالفت رأيه ، وعلمت كذلك أنه كتب الى الجامعة يطلب فصلى من البعثة ... ولحسن الحظ كنت قد وفقت الى ما لفت نحوى نظر الحكومة القائمة وقتذاك ثم نظر مدير الجامعة المرحوم أحمد لطفى السيد ، فقد كتبت عدة مقالات نشرتها فى الصحف الفرنسية أنبه فيها الفرنسيين الى أن معارضة حكومتهم فى الغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر ستجعلهم يخسرون وضعهم فى مصر وحب أهلها لهم ، ورد على وكيل وزارة الخارجية الفرنسية وكان يرأس الوفد الفرنسى فى مفاوضات مونترو ، فعقبت على ما كتب واستمر الأمر بيننا سجالا حتى ثاب الفرنسيون الى رشدهم وسلموا بما لم يكن منه بد وهو الغاء الامتيازات الأجنبية وبالطبع تابعت السفارة المصرية هذه المساجلة الهامة وابلغتها الى وزارة الخارجية فى القاهرة . وحدث أن مر الوفد المصرى

للمفاوضات بباريس عائدا من لندن عقب توقيع معاهدة ١٩٣٦ . وكان يضم الرئيس السابق مصطفى النحاس ، والمرحوم مكرم عبيد ، وعلى الشمسى ، فذهبت الى الفندق الذى نزلوا فيه وقابلت الشمسى وشرحت له المأزق المالى الذى وجدت نفسى فيه دون مرتب . فدهش الرجل وقادنى الى مكرم عبيد وأخبره بما حدث وأبدى استهجانه لتصرف مدير البعثة فما كان من وزير المالية الا أن أخرج ورقة بيضاء من جيبه وكتب عليها أمرا بصرف مرتبى فورا . وبذلك انحلت الأزمة » .

ولو أن هذه الحادثة وقعت لأى طالب آخرلمااستوقفتنا كثيرا فهى حادثة بسيطة يمكن ان تكون شيئا عابرا فى نهاية الأمر ، ولكننا لو قرأنا هذه الحادثة الصغيرة على ضوء حياة مندور بعدذلك لوجدنا أنها تكشف لنا عنأكثر من جانب هام فى شخصية مندور ، والجوانب التى تكشفها لنا هذه الحادثة الصغيرة ظلت بالنسبة لمندور جوانب أساسية حتى آخر لحظة فى حياته .

فالطالب محمد مندور الذى ذهب الى باريس ليدرس الأدب واللغات لم ينس أنه مواطن فى بلد خاضع للاستعمار . ولذلك لم يتردد فى أن يثير بقلمه حملة عنيفة ضد الامتيازات الأجنبية . ولم يتردد فى أن يجادل ويجادل بلا ملل لعله يقنع الرأى العام الفرنسى بوجهة النظر الوطنية المصرية . ويشير هذا الموقف الى جانب أساسى فى شخصية مندور ظل مصاحبا له فى كل مراحل حياته ، ذلك الجانب هو « يقظة الضمير العام » عنده . أن أكوام الكتب المتخصصة فى الآداب واللغات لم تستطع أن تطمس هذا الضمير أو تحجبه ولو لفترات قليلة . لقد ظل هذا الضمير العام ينبض فى كتابات مندور ومواقفه حتى آخر حياته . وكان مندور قادرا على أن يجد

الأعذار المختلفة للبعد عن مسئولية المشاركة فى المشاكل العامة . فكان يستطيع أن يعتذر بدراساته « الأكاديمية » المتخصصة سواء كان ذلك أيام دراسته فى السوربون أو عندما أصبح أستاذا جامعيا بعد ذلك . وكان يمكن أن يعتذر أيضا بأنه ناقد أدبى يكفيه ميدان النقد ويعفيه من المشاركة فى غيره من ميادين الفكر والعمل .

ولكن مندور كان يندفع بصورة شبه « غريزية » الى المشاركة فى الحياة العامة والمشاكل العامة ، ولم يكن يرى فى هذه المشاركة واجبا ثانويا بل كان يراها واجبا أساسيا لم يتردد أبدا فى تحمله ، ولم يكن يحاول أن يبرر هذه المشاركة لانه كان يرى فيها نوعا من البديهيات التى لا تحتاج الى تبرير .

وتكشف لنا تلك الحادثة التى وقعت له أيام أن كان طالبا فى باريس عن جانب آخر من جوانب شخصيته بالاضافة الى هذا الضمير العام المتيقظ على الدوام .. هذا الجانب الآخر هو ما طبعت عليه شخصية مندور من صفاء واشراق وبعد عن السوداوية القاتمة : فمهما كانت المشاكل التى تواجهه صعبة وعسيرة فانه كان يحمل فى نفسه على الدوام أملا فى الحل واصرارا وعنادا فى البحث عن هذا الحل . فلو تعرض طالب آخر لمثل هذه المشكلة التى تعرض لها مندور فى باريس لكان من الممكن أن تمتلىء نفسه بالمرارة والتشاؤم واليأس . ولكن مندور ظل يكافح ويبحث لنفسه عن سبيل للخروج من أزمته حتى وجد ما أراد . كان مندور دائما على هذه الصورة . لا يستسلم ولا يعرف اليأس . ولقد واجه أزمات عديدة فى الجامعة وفى الصحافة وفى حياته الخاصة عندما تعرض لمرض خطير كاد يصيبه بالعمى . ولكى نعرف خطورة المرض الذى تعرض له مندور يكفى أن نقرأ هذه السطور التى

كتبها الدكتور يوسف ادريس عن مرض مندور من الناحية الطبية حيث قال :

« لقــد كشف لى المرحوم الدكتور مندور عن حقيقة مرضه والعملية التى أجراها له الجراح الانجليزى هارفى جاكسون ، واستأصل بها تقريبا الغدة النخامية الكائنة أسفل فصى المخ الأماميين حفاظا على نظره . وهى عملية خطيرة للغاية ولكن الأخطر منهــا أن استئصال الغــدة النخامية يعنى أن تتوقف جميع غدد الجسم «الأندوكرينية» عن الافراز . فالغدة النخامية هى « المايسترو » الذى على وقع عصاه فقط تعمل تلك الغدد والا توقفت . وكان معنى هذا أن أستاذنا الدكتور مندور ظل سنوات طويلة يحيا وهو يتناول خلاصات هذه الغدد جميعا . وهى كثيرة ومتشعبة ومتعارضة . ورغم هذا لا تستطيع أن تقوم بدور الغدد الطبيعية . وهذا هو السر فى حركته البطيئة التى كنا كثيرا ما نستغرب لها » .

ورغم ما تكشفه لنا كلمات الدكتور يوسف ادريس من خطورة المرض الذى تعرض له منــدور ، ورغم خطورة المشاكل الاخرى التى واجهته الا أنه صمد أمام هــذه المصاعب كلها واستمد القوة من نفسه المتفائلة البعيدة عن الســوداوية ، والواقع أن الانسان المناضل لابد أن تتوفر له هذه النفسية المشرقة القادرة على التفاؤل . لأنه لا نضال بدون تفاؤل . فالمتشائمون غالبا ما يجنحون الى السلبية والابتعاد عن المعارك المختلفة والمسارعة الى التسليم ورفــع الراية البيضاء كلمــا وجدوا صعابا أو عقبات . اما الايجابيون فهم بحاجة الى قدر كبير من التفاؤل والاشراق النفسى . ولقد كان مندور دائما من أصحاب النفوس المشرقة التى لا تعترف باليأس السريع أو اليأس البطىء . واذكــر أننى عرفت مندور خــلال

ما يزيد على اثنى عشر عاما متواصــلة ، وعرفت بعض أحزانه ومشاكله ، ولكـــننى لم أره قط مســـتغرقا فى التشاؤم أو مستسلما للهم ، كانت النظرة السوداوية بعيدة عن طبيعته . وكان المرح سلاحا من أســلحته فى مواجهة مصاعب الحياة ، وكان اشراقه النفسى ينير أمامه كثيرا من الظلمات ويفتح له الطريق فلا يركع على قدميه مهما كانت المشاكل التى تواجهه .

وهذه الحادثة التي وقعت لمندور فى أيام دراســته بباريس حيث أصر على أن يشــاهد آثار اليــونان على الطبيعة ويقارن بينها وبين الدراسات النظــرية تكشف لنا أيضا عن جانب ثالث من جوانب شخصيته لعله أهم هذه الجوانب وأكثرها خطورة ودلالة ، ذلك الجانب هو ايمان مندور المبكر بضرورة ربط الثقــافة بالحياة . فلم يكن يطمئن الى الثقافة كأوراق مكدسة وكتب كثيرة يبتلعها الذهن كتابا بعد كتاب . لقد أصر مندور على أن يربط بين الواقع وبين ما كان يدرسه من اليونانيات ما دام ذلك ممكنا . وكان منذ البداية يحس بأن انفصال الثقافة عن الحياة انما يؤدى بها الى العقم والذبول . وهذا التنبه المبكر لارتباط الثقــافة بالحياة كان احساسا عاما لدى مندور . وشعورا فطريا كامنا فى شخصيته ، لقد تغير معنى كلمة الثقافة عند مندور وتطور هذا المعنى كثيرا ، ولكن مندور ظل رغم اختلاف مفهوم الثقافة عنده من مرحلة الى أخـــرى يؤمن بشى واحـــد لا يتغير هو : أن الثقافة يجب أن ترتبط بالحياة .

ولقد قاده ايمانه بالعلاقة بين الثقافة والحياة فى سنواته الأخــيرة الى مواقف لم يفهمهــا البعض ولم يقــدرها الآخرون ، وكان عدد غير قليل من المثقفين ينظرون اليه فى هذه المرحلة من حياته نظرة فيها قدر كبير من القسوة

... كان مندور فى نظر هؤلاء مثل الأب ، الذى تقدم به السن وأصبح أولاده يضيقون به ، وكان هذا الضيق يبدو واضحا صريحا عند البعض ، وكان يختفى تحت ستار شفاف عند آخرين . ولكن الجميع لم يفهموا المغزى الحقيقي لموقف مندور الا بعد وفاته . وبعد أن ترك وراءه فراغا محسوسا واضحا .

لقد كان مندور فى سنواته الأخيرة يحاول أن يوجد فى كل ميدان • وأن يشترك في كل ألوان النشاط الثقافي • وأن يساهم فى أى تجمع ثقافى . وأن يحضر كل المؤتمرات وكل الندوات ان أمكنه ذلك وكان يحاول أن يكتب فى أى صحيفة سواء كانت من صحف الدرجة الاولى أو صحف الدرجة الثانية أو الثالثة • ولا تكاد توجد مجلة ظهرت فى السنوات العشر السابقة على وفاة مندور الا ونجد له فيها بعض المقالات • حتى لقد قال مرة « اننى تحملت الكثير من الاهانات الماسة بكرامتى حتى لا أتخلى عن المنبر الصحفى اليومى وأظل أؤدى واجبى فى الميدان الذى كرست له حياتى » •

وحرص مندور فى هذه السنوات على أن يتعامل مع أى انسان مهما كان قدره ومهما كانت قيمته ، بحيث أصبح مندور شيئا سهلا ميسورا فى نظر الجميع أينما تلفتوا وجدوه ... أصبح شيئا رخيصا كالماء والهواء ، ولكنه فى الحقيقة كان شيئا نفيسا كالماء والهواء أيضا .

ولا شك أن هذا كله كانت له بعض الأسباب الخاصة مثل القلق الاقتصادى الذى كان يعيش فيه مندور ، والخوف الذى كان يداهمه كثيرا على مستقبل أولاده الخمسة وخاصة وأنه مريض ومعرض للخطر فى كل لحظة .. هذه هى الأسباب الخاصة وراء موقف مندور العملى فى سنواته الأخيرة . ولكن هذه الأسباب الخاصة

تأتى فى الدرجة الثانية ، ولو لم يكن مندور قلقـــا من الناحية الاقتصادية وخائفا على مستقبل أولاده لفعل نفس الشيء فيما أظن ، لأن موقفه كانت له دوافع أخرى تنبع من ذات نفسه ، وتتركز فى ايمانه بالارتباط بين الثقافة والحياة ، وايمانه بأن الثقافة حركة وفعل واتصال بالناس ومحاولة للتأثير عليهم .. وبأنه لا يمكن للمثقف أن يعمل الا بين الناس والا فقدت الثقافة قيمتها وأصبحت نوعا من العبث . واذا تابعنا الوظائف التى اختارها مندور لنفسه وجدناها كلها وظائف تقتضيه الاحتكاك بالناس والتعامل معهم . فهـو معلم فى الجـامعة ، ليس كهؤلاء الأساتذة الذين يلقون دروسهم على الطلاب وينصرفون الى نوع من العزلة تساعدهم على تحضير بحوثهم الجديدة ، فلقد كان مندور ــ على العكس ــ يختلط بطلابه ، ويقضى معهم ساعات طويلة خارج حجرات الدرس . وكان يلتقى بهم فى بيته فاذا بهذا البيت يتحول الى ندوة مفتوحة ، أو مؤتمر دائم ، يلتقى فيه المتفتحون من الطلاب مع استاذهم الجديد عليهم فى كل شيء ، وعندما استقال من الجامعة سنة ١٩٤٤ ، عمل بالصحافة ، ولم يقبل العمل الصحفى الهادىء المحايد ، بل سرعان ما ارتبط بصحافة الرأى الحادة ، حيث كان يتعرض للسجن كثيرا بسبب مقالاته ، وفى الصحف الثلاث التى أشرف عليها ورأس تحريرها ما بين سنة ١٩٤٤ ، وسنة ١٩٥٢ وهى « الوفد المصرى » و « صوت الأمة » و « البعث » استطاع أن يجمع حوله شبانا متحررين ممتازين ، لأنه كان يحمل شخصية المعلم أينما ذهب والمعلم لا يمكن أن يعيش بلا تلاميذ . ان حياته مرتبطة أشد الارتباط بوجود الطلاب حوله .

ولعل مما ساعد على هذا كله فى شخصية مندور ، هو أنه احتفظ بطبيعة الفلاح المصرى فيه . فلقد كان

فلاحا فى جوهره ، لايعرف الانطواء ولا يؤمن بالعزلة . بل يحب العشرة والالتقاء بالناس . ويجد فى الاقتراب منهم دفئا حقيقيا ، وكان يستغل ذلك كله فى محاولة التأثير الفكرى على أوسع نطاق ... ماذا يعمل بالفكرة التى فى رأسه ، اذا لم يحملها الى الناس ويوصلها اليهم ويشرحها لهم مرة بعد مرة .

وكانت شخصيته بسيطة ، ليس فيها تعقيد : لا فى التعبير ولا فى التفكير ، وكثيرا ماكنت أنسى وأنا استمع اليه أننى مع دكتور جامعى متخرج من السربون ، وأحس على العكس أننى مع فلاح بسيط طيب وماكر معا وواسع الخبرة بالحياة . وقد كان هذا هو شعور جميع من يتصلون به .

هذا هو السبب الاساسي الذى كان يدفع مندور الى العمل والحركة على نطاق واسع فى داخل الحياة الثقافية . وهو سبب احسست به واضحا فى شخصية مندور منذ اتصالى به وتعرفى عليه سنة ١٩٥٣ . وذلك عندما التقيت به لأول مرة فى جريدة الجمهورية ، حيث كان مازال يلبس الطربوش الذى خلعه بعد ذلك بقليل . ولم تفتر صلتي به طيلة حياته بعد ذلك ، فكنت التقى به على الدوام فى فترات متفرقة . ولكنها شبه منتظمة ، ولم يكن بالامكان الا نلتقى بمندور ، طالما كنا نعيش فى الحياة الثقافية أو حولها ، فلقد كان يسعى الى الناس ان لم يسعوا اليه ، خاصة اذا كانوا من بين تلاميذه أو رفاقه .

وكل من اقترب من مندور عرف فيه هذا الايمان العميق بالصلة بين الثقافة والحياة ، وايمانه بأن الثقافة هى مزيد من الاندماج مع الواقع والناس .

ولقد كان مندور يتغنى دائما بقول « جورج ديهامل »

فى كتابه « دفاع عن الادب » الذى ترجمه مندور نفسه .

« عش أولا واكتب بعد ذلك ، عش ثلاثة شهور لتكتب ثلاثة أيام ، واكتب ثلاثة أيام لتملأ ثلاث صفحات » .

عاد مندور من باريس سنة ١٩٣٩ . ليقضى فى الجامعة حوالى خمس سنوات بين جامعة القاهرة « التى كان اسمها آنذاك جامعة فؤاد » وجامعة الاسكندرية التى كان اسمها « جامعة فاروق » .

وفى الجامعة وقعت له عدة أحداث هامة من الناحية الشخصية والناحية العامة على السواء . فلقد التقى مندور فى الجامعة بتلميذته الشاعرة ملك عبد العزيز وتزوجها سنة ١٩٤١ . وفى الجامعة أيضا اصطدم بأستاذه الدكتور طه حسين ، ومن الواضح أن الصدام بينه وبين طه حسين كان صداما شخصيا لا موضوعية فيه ، فلقد نقم عليه طه حسين ـ فيما يقول مندور نفسه ـ أنه عاد من باريس ليتجه الى أحمد أمين ويتخذ منه أستاذا ومشرفا على رسالته . وقد ظل طه حسين منذ ذلك الحين مستاء من مندور ، وكثيرا ما كان يقف فى وجه مصالحه المادية داخل الجامعة ، حتى اضطر مندور الى الاستقالة سنة ١٩٤٤ ، من جامعة الاسكندرية التى كان طه حسين مديرا لها ، ولم يحاول طه حسين أن يثنيه عن هذه الاستقالة . ومن المعروف أن طه حسين ـ باعتراف مندور أيضا ـ هو الذى ساعده على السفر الى باريس فى بعثته العلمية الطويلة ، فقد رسب فى الكشف الطبى لضعف نظره ، ولكن طه حسين ذهب الى وزير المعارف آنذاك « حلمى عيسى » وطلب اعفاء مندور من هذا الكشف ونجح فى تحقيق هدفه ، وسافر مندور بالفعل الى باريس ، بل أن مندور يعترف أكثر من ذلك بأن طه حسين هو الذى وجهه الى الدراسات الادبية أصلا

بعد أن كان فى نيته الاقتصار على القانون . وهكذا فان طه حسين صاحب الفضل الاكبر على مندور فى بداية حياته يتخلى عنه بعد ذلك لأسباب شخصية واضحة . وفى اعتقادى أن موقف طه حسين كان موقفا غير سليم . والواقع أنه لم يتح لى أن أتعامل مع الدكتور طه حسين ولكننى سمعت عددا كبيرا من تلاميذه يؤكد أنه كان فى معاملته لطلابه عاطفيا شديد الحساسية سريع التأثر .

فهو يقف بحرارة وراء الذين يحبهم . بل ومازال يقف وراءهم الى اليوم .. يزكيهم وسهل لهم فرص العلم والحياة ، بينما كان شديد العنف على الذين يثيرون كراهيته بين الطلاب . فيقف ضدهم مواقف حادة قاسية . وقصة مندور شاهد على ذلك . ولاشك أن هذا الموقف يمثل جانبا من جوانب الضعف فى شخصية ذلك الاستاذ العظيم : طه حسين . وهو ضعف انسانى طبيعى . ولكن مكانة طه حسين ، ودوره العميق الرائد فى حياتنا الثقافية خلال مايزيد على نصف قرن ... هذه الامور كلها تدفعنا الى أن ننظر الى مواقف الضعف عند طه حسين ، وخاصة فى الميدان العلمى ، نظرة دهشة واستنكار . على أن نفسية مندور لم يصبها أى نوع من الالتواء والتعقيد ازاء شخصية طه حسين . فظل على الدوام يعترف بفضله الكبير عليه ، والمسألة ــ هذه المرة ــ ليست مسالة شخصية ولكنها مسألة علمية واضحة ، فلاشك أن مندور قد استفاد من طه حسين كثيرا ، وأن طه حسين يعتبر أستاذا من الاساتذة الذين أثروا تأثيرا أساسيا فى نظرة مندور الى الادب والفكر . فمندور ناقد ومفكر متحرر ، وقد أشعل فيه طه حسين نزعته التحررية التجديدية منذ البداية . وهو من هذه الناحية من أكبر تلاميذ طه حسين وأكثرهم استفادة من

تجديدات طه حسين فى الفكر والادب ، رغم ما اشتعل بينهما من خلاف شخصى عنيف احتمله مندور بصبر كبير .

وفى الجامعة ايضا اصطدم مندور بالدكتور عبدالوهاب عزام .. وهذا الصدام لم يكن شخصيا ، بقدر ماكان صداما موضوعيا له قيمته ومغزاه . يقول مندور :

« ساءت العلاقة بينى وبين أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها بسبب تقرير كتبته عن منهج دراسة اللغة والآداب فى جامعاتنا ، وانتقدت فيه الاساليب البالية التى كانت مستخدمة عندئذ ، وقدمت نسخة من التقرير بانشاء معمل للأصوات وقلب مناهج التدريس رأسا على عقب الى عميد الكلية ، واحال العميد تقريرى الى رئيس قسم اللغة العربية وكان وقتها المرحوم عبد الوهاب عزام .. وذات يوم التقيت به فى الممر المؤدى للقسم وتجرأت وسألته عن رأيه فى التقرير فأجاب : تقرير ايه ياعم ، انت جاى تعلمنا ازاى ندرس . امال احنا هنا بنعمل ايه ؟ وكان هذا كل ماعرفته من ذلك التقرير ومصيره » .

وكان هذا الصدام مع عبد الوهاب عزام وأساتذة قسم اللغة العربية بكلية الاداب تعبيرا عن روح التجديد والتغيير التى جاء بها مندور الى الجامعة ، والتى لم تستطع الجامعة أن تهضمها بسهولة .. مما كان من الاسباب الرئيسية لخروج مندور من الجامعة .

أما الاثر الاخير الهام لحياة مندور الجامعية فهو لقاؤه مع أحمد أمين . لقد تعاطف معه هذا العالم الجليل الذى فتح له الكثير من أبواب الحياة العلمية والثقافية . وساعده على أن يعد رسالة الدكتوراه وهى « النقد المنهجى عند العرب » ووقف وراءه حتى نال

الدكتوراه بالفعل وبأعلى التقديرات العلمية ، والواقع أن مندور قد استفاد من احمد أمين شيئا اهم من ذلك كله .. لقد استفاد منه ذلك الوضوح الذى نجده فى تعبير أحمد امين وفكره معا. فأحمدامين يتميزبعقليةعلمية صافية لا غموض فيها ولا ضباب ، وهذا نفسه مانجده عند مندور ... وضوح فى التعبير والتفكير وصفاء فى الرؤية الشعورية والعقلية ، وبعد عن الغموض والضباب والتعقيد . وقد تأكدت هذه الصفات كلها عند مندور نتيجة اتصاله الوثيق بأحمد أمين .

ولا شك أن هذه الصفات كانت أصلا كامنة فىشخصية مندور الفكرية فظهرت على أجلى صورة ، بعد أن وجدت الاستاذ الذى يطلق هذه الامكانيات ويخرجها الى نور الحياة . على أن مندور كان يشترك مع أحمد أمين فى صفة أخرى تدعم تلك الصفات السابقة كلها هى التاثر « بالروح القانونية » ... لقد كان مندور ذا ثقافة قانونية واسعة حيث تخرج من كلية الحقوق بعد تخرجه من كلية الآداب بعام واحد . ودرس بعض الدراسات القانونية فى باريس . والعقلية القانونية فى حقيقتها تلتمس الاقناع فى البراهين الدقيقة الواضحة ، والقانون ليس سفسطة وتلاعبا بالالفاظ كما يرى بعض صغار المحامين . ولكنه هو الدقة والعمق والتقاط الفروق الحساسة بين الاشياء .

ولقد برزت هذه الصفات فى شخصية مندور حيث تأثر بثقافته القانونية الى ابعد مدى . ومن المعروف ان احمد أمين نفسه كان متخرجا من مدرسة « القضاء الشرعى » وهى مدرسة عليا لدراسة التشريع والقانون كان يدخلها طلاب الازهر . وأخيرا فقد اشترك مندور مع أستاذه أحمد أمين فى صفة هى « التسامح العقلى » ،

فليس فى طبيعة مندور ولا فى طبيعة أحمد أمين من التصلب والقسوة مانجده عند أدباء آخرين مثل العقاد « دائما » ، وطه حسين « أحيانا » .

على أن تسامح أحمد أمين قد دفعه الى موقف سلبى من الحياة العامة ، فلم يشترك فى قضاياها أو مشاكلها ، وآثر العزلة والانطواء والتفرغ للدراسات العلمية الخالصة . أما تسامح مندور فقد دفعه على العكس الى أن يكون ايجابيا يدخل معركة بعد معركة دون أن يعكف على جراحه . ودون أن ترتبك نفسيته أو تمتلىء بالاحقاد والعقد .

هذه هى حصيلة الجامعة فى حياة مندور . فماذا كانت حصيلة هذه الفترة وأثرها فى تفكيره ؟ يمكننا أن نسمى هذه الفترة من حياة مندور باسم المرحلة « الانسانية الجمالية » . وأعنى بهذا التعبير أنه كان ينظر الىالانسان نظرة عامة لا تحديد فيها . وهى نظرة أخلاقية راقية على الاغلب . انه يؤمن بالحرية والخير والحب والعدل ويؤمن بكل الفضائل الانسانية الكبرى ولكن دون أن يحدد المعانى الدقيقة لهذه الكلمات . فهو يراها فى اطار واسع فضفاض . ولعل أكثر مايمثل هذه النظرة الانسانية الاخلاقية عند مندور هو كتابه « نماذج بشرية » وفى هذا الكتاب نراه يعود الى روائع الادب العالمى ليستخرج منها نماذج انسانية تدل كل واحدة منها على فضيلة من الفضائل الكبرى . فدون كيشوت فى تفسير مندور وتحليله هو « البحث عن الخير بصرف النظر عن النتائج » وهو يرى فى « هاملت » الانسان المخلص العادل الذى يبحث عن اليقين لكى ينفذ انتقامه ضد الجريمة والاثم ويرى فى « جفروش » أحد أبطال البؤساء «لفيكتور هيجو» رمزا للبراءة الانسانيةالكاملة .

وهكذا ، ان النظرة الانسانية العــامة التى تنطلق من نقطة بدء أخلاقية هى نظرة محمد مندور الفكرية فى تلك الفترة التى تمتد من ١٩٣٩ الى ١٩٤٤ . ويكاد يكون موقفه الادبى جزءا من موقفه الفكرى . فهو فى الادب يدعو أيضا الى « الهمس » ، و « الهمس » هو نقيض الخطابة التى الفناها فى الادب العربى القديم وبخاصة فى الشعر ، ويحدثنا مندور عن « الهمس » فيقول :

« والهمس فى الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوى هو الذى يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفســه فى نغمات حارة . والهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع فى غير جهد ولا احكام صناعة ، وانما هو احساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر فى تحريك النفوس وشفائها مما تجــد ، وهذا فى الغالب لايكون من الشاعر عن وعى بما يفعل »

واذا حاولنا أن نترجم الهمس كدعوة أدبية الى صفات انسانية فماذا نجد ؟ سوف نجد بالطبع أن الهمس يعنى التهذيب والنفس المصقولة المتواضعة الخالية من الادعاء والحدة والغرور . الهمس هو الرقة والتسامح والمشى على أطراف الاصابع ، وكلها صفاتانسانية ، هى ولاشك التى دفعت مندور الى دعوته تلك للشـــعر المهموس والنثر المهموس . أما الخطابة فى النثر أو الشعر فهى علامة من علامات الامتلاء بالنفس والاعتداد والغرور . وهى أحيانا علامة من علامات الكذب والتعبير عن وجدان أجوف يرن كالطبل بصوت مرتفع ولكن هذا الصوت خال من رقة الناى أو البيانو أو الكمنجة .

وفى اعتقادى أن دعوة الهمس فى الادب لم تأخذ حقها كما يجب حتى الآن فى حياتنا الادبية وحياتنا العامة . فهى دعوة أصيلة ، وان كانت قديمــة والادب العربى

المعاصر بحاجة الى أن يعى هذه الدعوة وعيا صحيحا ويستفيد منها ، انها حقا دعوة بسيطة ولكنها أساسية الى أبعد الحدود ، ونحن محتاجون الى أن نأخذ بها في الآداب والفنون ، كما أننا محتاجون الى أن نأخذ بها فى أمور الحياة الاخرى .حيث أن الهمس أقرب من الخطابة الى الصدق والاصالة فى الفن والحياة ، وما زلت أذكر تلك القصة التى رواها الزعيم الهندى نهرو فى مذكراته حيث تحدث عن زملائه من الطلبة الهنود الذين كانوا يدرسون معه فى انجلترا فى أوائل هذا القرن . لقد كان هؤلاء الطلاب يعقدون مؤتمرات وطنية عديدة فى لندن . وفى هذه المؤتمرات كان هناك عدد من الذين احترفوا الخطابة والصخب والتطرف والعنف . وكان صوتهم أعلى الاصوات فى تلك المؤتمرات ، وكانت كلماتهم أكثر الكلمات جذبا للأنظار والاسماع بما فيها من ضجة ودعوة عالية الى محاربة الاستعمار . بينما كان هناك آخرون يقدمون الملاحظات الهادئة البسيطة الدقيقة ، وكان هؤلاء لايحظون بالاهتمام كالآخرين ولا يلفتون النظر ، ولكن نهرو لاحظ بعد عودة الطلاب جميعا الى الهند أن أكثر المتعاونين مع السلطات الانجليزية هم هؤلاء الخطباء الصاخبون ذوو الاصوات العالية المتحمسة المندفعة بينما كان الآخرون من ذوى الاصوات الهادئة الوديعة أقرب الى الصواب والوطنية الصادقة من غيرهم

ان الهمس فى النهاية أقرب الى الضمير والقلب والصدق من الصخب والعنف ، ولا شك أن مفاهيمنا النقدية قد اتسعت وتغيرت كثيرا بعد مرور ربع قرن على دعوة مندور الى « الهمس » ولكن هذه الدعوة فى اعتقادى تعتبر كشفا حقيقيا ، واضافة حية الى تراثنا فى النقد الادبى والفنى . وهى ولا شك دعوة جديرة

بأن نضعها فى وجداننا وضميرنا دائما . وأن نلتفت اليها التفاتا جادا ، لانها من العلامات المضيئة التى تكشف لنا طريق الفن الحقيقى بل وطريق الحياة والحضارة أيضا .

وقد طبق مندور دعوته الى « الهمس » على شعراء المهجر . وكان بذلك من أسبق النقاد الى اكتشاف شعراء المهجر اكتشافا فنيا دقيقا ، فبدأت الحياة الادبية فى مناقشة أدبهم على نطاق واسع .

وأدب المهجر لم يكن مجهولا قبل مندور بل كان معروفا ومقروءا . ولكنه كان بحاجة الى من يكتشف قيمته الفنية بشىء من العمق والدقة ، وقد استطاع مندور أن يقوم بهذا الدور . ومن الطبيعى الا تكون الدعوة الى « الهمس » مذهبا واضح المعالم فى فهم الادب ونقده . فالهمس كما يعبر مندور نفسه « ليس واضحا فى ذهنه تمام الوضوح ، لانه احساس أكثر منه معنى » ولكن هذا الاحساس على أى حال هو احساس صادق يمكن ادراكه ادراكا وجدانيا صحيحا وان لم نستطع ادراكه ادراكا عقليا كاملا .

ولقد كان من الطبيعى أن يكون مندور فى هذه المرحلة ناقدا « جماليا » تأثريا ، أى أنه كان يعتمد على الذوق وحده فى الكشف عن قيمة الادب ، وكان يعتبر فى نفس الوقت أن الجمال الادبى وحده هو الاساس فى التفرقة بين الادب الجيد والادب الردىء . على أنه وهو الناقد المثقف ، الذى التقت فى شخصيته ثلاثة تيارات ثقافية كبرى هى الثقافة اليونانية القديمة ، والثقافة الفرنسية المعاصرة ، والثقافة العربية القديمة .. مثل هذا الناقد لايمكن أن يفهم الذوق فهما محدودا ضيقا فهو يفهم الذوق فهما عميقا حيث يقول :

« ان الذوق الذى يعتد به هو الذوق المدرب المصقول

بطول الممارسة لقراءة النصوص الادبية وفهمها وتحليلها »
ثم يقول :
« ان الذوق يجب أن تبرره نظرات العقل القائمة على التفكير السليم والمعرفة الدقيقة ، حتى يصبح الذوق وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التى تصح لدى الفير »
والذوق فى النهاية وفى جانب كبير منه « ليس الا رواسب عقلية ولا شعورية نتيجة للثقافة والتجربة والاحتكاك بالحياة » .
وهكذا نجد عند مندور ذلك التوافق العميق بين نزعته الانسانية الاخلاقية وبين اتجاهه النقدى فى المرحلة الاولى من حياته الثقافية . فهو يبحث عن القيم الانسانية والفضائل الانسانية فى الحياة أو فى النماذج الادبية ، وهو يبحث فى الادب عن الجمال والتهذيب والروح المتواضعة السمحة ، وهذا كله انما يتجسد فى «الهمس» لا فى الخطابة .
ويخرج مندور من عمله كأستاذ بالجامعة سنة ١٩٤٤ ليعمل بالصحافة، فيرتبط مع جريدة «المصرى» ولكنه لا يلبث أن يصطدم بهذه الجريدة بعد شهور من العمل فيها ، فتقرر ادارة الجريدة فصله ، وفى اعتقادى أنه كان لابد أن يحدث هذا الصدام بين مندور وجريدة المصرى ، فالمصرى كانت جريدة هادئة أقرب الى المحافظة منها الى التطرف ، ولقد كانت هذه الجريدة تنتسب الى الوفد ، ولكنها لم تكن متطرفة فى هذا الانتساب الحزبى . بل كثيرا مانشأ بينها وبين الوفد صراع كاد يؤدى الى الانفصال بينها وبين الحزب ، لأن أصحاب الجريدة كانوا يحلمون بخلق مؤسسة صحفية تجارية ناجحة بعيدة عن المشاكل والتعقيدات ، ومثل هذه المؤسسة الصحفية الناجحة كان عليها أن تبتعد عن

التطرف والحماس والحرارة فى ابداء الرأى ، ولست اريد هنا أن اسجل حكما نهائيا على جريدة المصرى . ودورها فى السياسة المصرية بما كان لهذا الدور من جوانب ايجابية وجوانب سلبية . فهذا الحكم متروك للتاريخ ، وللمعلومات التى يمكن جمعها بدقة علمية كافية من خلال دراسة تطبيقية . ولكن من المؤكد أن المصرى كانت بيئة هادئة لاتميل الى الرأى الحاد ؛ ولا تميل الى خلق معارك عنيفة ضد القوى التى كانت مسيطرة على المجتمع المصرى قبل ١٩٥٢ ؛ مثل الاقطاعيين والرأسماليين ، والقصر الملكى ، ولقد كان مندور بطبيعته حارا عنيفا وصريحا فى آرائه ؛ وكان يحتاج الى جريدة متطرفة لتتحمل آراءه ، لا الى جريدة هادئة وديعة تميل الى المسالمة فى أغلب الاحوال . ولقد وقع الصدام بين أصحاب المصرى ومندور بالفعل . وترك العمل معهم . ثم قادته الظروف الى أن يعمل فى الصحف الوفدية فراس تحرير « الوفد المصرى » و « صوت الامة » و « البعث » .. وجعل من هذه الصحف على حد تعبيره منشورا ثوريا عنيفا . وكان عمله فى الصحافة السياسية اليومية فرصة لكى يزداد خبرة بالحياة . ولكى يزداد معرفة بالواقع الاجتماعى ومن هنا ، تفتحت النزعة الانسانية الجمالية عند مندور فاذا بها تتحول بالتدريج والتطور السريع الى نزعة يسارية وطنية واضحة . لقد تعرف فى تلك الفترة ــ بطريقة دقيقة ومباشرة ــ على مشاكل الطبقات الشعبية المختلفة ، وأدرك ما فى الواقع الاجتماعى من فساد رهيب ، حيث تقوم طبقة صغيرة باستغلال الجماهير الكبيرة ، وكان مندور مازال على صلة مستمرة بأهل قريته « كفر مندور » مما زاده معرفة بواقع الفلاحين وبؤسهم وضيق

الحياة بهم وضيقهم بالحياة فى نفس الوقت .

ولعل مما تجدر الاشـــارة اليه هنا أن مندور حاول أن يعمل فى جريدة الاهرام سنة ١٩٤٤ عن طريق اتصاله برئيس تحرير الاهرام آنذاك « أنطون الجميل » ، وكانت الاهرام فى تلك الايام جريدة هادئة محايدة بين التيارات السياسية المختلفة . فان مالت الى جانب ، فانها كانت تميل الى جانب السلطة القائمة ، ولذلك لم ينجح مندور فى الحصول على عمل بالاهرام ، فلقد بدأت الاوساط الصحفية والثقافية تعرفه ككاتب له آراؤه التجديدية التحريرية العنيفة . وكان الذى عارض أشد المعارضة فى تعيين مندور بالاهرام هو مصطفى أمين الذى كان عضوا فى مجلس تحرير الاهرام آنذاك . ولقد أصبح الآن معروفا بكل وضوح أن مصطفى أمين كان يمثل فى الصحافة المصرية اتجاها رجعيا يمينيا متعاونا مع القصر الملكى والسلطات الاجنبية ، انجليزية كانت أو أمريكية . وهكذا وقف مصطفى أمين فى وجه مندور حتى لايعمل فى الاهرام ، ولم يكن من المنتظر أن يتسامح مصـــطفى أمين ، فى ذلك الوقت بالذات وهو الوقت الذى يشعر فيه بمنتهى القوة نتيجة لعلاقاته بالقصر والســـلطات الاجنبية ، مع كاتب مثل مندور كان يبدو عليه أنه يحمل قلبا ثوريا قابلا لمزيد من التفتح والاشتعال والانطلاق والتمرد .

وفى هذه الفترة التى تمتد من سنة ١٩٤٤ الى ١٩٥١ توقف مندور تقريبا عن الانتاج الادبى ، وتفرغ للعمل السياسى وللفكر السياسى . اللهم الا فى بعض المقالات الثقافية المتفرقة هنا وهناك . وفى هذه المرحلة من حياة مندور نجده يتغير تغيرا أساسيا . فينطلق من البحث عن الفضيلة والقيم الانسانية العامة الى نوع من الدقة

والتحديد فى مطالبه ودعواته الاجتماعية . فلقد آمن الآن اشد الايمان بأن الانسان الفاضل يحتاج الى مجتمع فاضل تسوده العدالة بينما كان المجتمع المصرى فى ذلك الحين غارقا فى البؤس والتفاوت الطبقى ، وكانت القوة المسيطرة ترفض رفضا كاملا اى تغيير فى أساس هذا المجتمع الفاسد ، وانضم مندور الى المطالبين بالتغيير ، بل وأصبح على رأس المفكرين الذين يهاجمون النظام الاجتماعى الفاسد بلا هوادة .

وكتابات مندور فى هذه المرحلة تعتبر نموذجا ممتازا للفكر اليسارى الوطنى بل لعلها فى الحقيقة تعتبر أعظم وثائق الفكر اليسارى الوطنى السابق على الثورة والممهد لها . فلقد كان موقف مندور نابعا من دراسة عميقة للواقع الاجتماعى بظروفه الاقتصادية والسياسية . وكان موقفه أيضا معتمدا على العلم الذى امده بكثير من الحقائق . فلم تكن كتابته مجرد نوع من الاثارة الوطنية . أو اثارة طبقات ضد طبقات . بل كانت كتابته تشريحا وتحليلا للمجتمع المصرى بعد ان انفجرت فى داخله ازمة حادة فى أواخر الحرب العالمية وما بعدها ... وكان جوهر هذه الازمة أن المطالب الوطنية التى تدعو الى الحرية والاستقلال والجلاء عن البلاد امتزجت بافكار اجتماعية تدعو الى العدالة وتحقيق مطالب الطبقات الشعبية التى كانت تعانى بقسوة من سوء الاحوال الاقتصادية .

ولنقف أمام بعض النماذج من فكر مندور فى هذه الفترة المليئة بالوعى والنضال والتفتح والثورية . لقد كان مندور فى تلك المرحلة يشعر بجسامة المشكلة الاجتماعية . ويرى أن الحل هو التغيير الجذرى وليس الاصلاح ، وتعديل القوانين لمصلحة الغالبية من ابناء

الشعب وليس الاحسان الذى شاع أمره فى تلك الفترة ، فكان الكثيرون من الاقطاعيين وغيرهم من الاثرياء ، يحاولون توزيع بعض الاقمشة والاحذية على أبناء الشعب الفقراء .. وكأنهم بذلك يتخلصون من المسئولية عن آلام الجماهير الفقيرة . وكأنهم يتنصلون أيضا من أى مشاركة فى خلق مأساة المجتمع ... وقد وقف أحد الباشوات يوما ليقدم اقتراحا طريفا يرى فيه حلا لمشكلة الفلاح . ويحدثنا مندور عن اقتراح هذا الباشا فى مقال له فى ابريل سنة ١٩٤٥ فيقول :

« كتب سعادة مراد باشا وهبة مقالا يدعو فيه كبار الاغنياء الى التبرع لفتح مطاعم شعبية تقدم للفلاحين المعوزين وجبة من الطعام . وأثار هذا الاقتراح مناقشات استمرت أياما . ونحن لانحارب روح الخير ، ولكننا لانريد أن توضع مشاكل البلاد الكبيرة فى غير وضعها الصحيح الجدير بكرامة الانسان . فالمشكلة ليست مشكلة احسان ، وانما هى مشكلة اجتماعية لايجوز أن نصرفها عن وجهتها .. والاساس العام لحل مشكلة الفقر فى البلاد هو العدالة فى تمكين مختلف الافراد من وسائل الانتاج . وكسب كل رجل قوته اليومى بعرق جبينه » ..

ثم يقول مندور :

« أن دخل الامة العام لايقدر الا بقدرتها على خلق القيم الاقتصادية ومن الغريب أن نظل عندما كان يزعم قديما من أن الارض هى مصدر الثروة الوحيد مع أن من الواضح أن مصدر الثروة هو العمل بصرف النظر عن نوعه أو المادة التى ينصب عليها » وينتهى مندور الى القول :

«أن الانسان لايعيش بالاحسان ، ولا ينبغى أن يعيش

بالاحسان ، وانمـا الواجب أن نقرر له حقوقا ترتبها الدولة للأفراد . وأن يمكن من يستطيع العمل منهم من ذلك . وأن يكون من عمل كل فرد مايكفي لقوته وقوت عياله . على نحو جدير بكرامة الانسانية التى نشارك فيها جميعا » .

وفى دراسة جريئة وفذة كتب مندور سنة ١٩٤٥ مقالين بعنوان « حصن الاستعباد » وفى هذين المقالين شرح دقيق وتشريح عميق للبنك الاهلى ودوره فى تدعيم الاستعمار الاقتصادى للبلاد .

ويقول مندور فى المقال الاول :

« وليس هذا الحصن كما قد يتبادر الى الذهن بثكنات قصر النيل أو قصر الدوبارة ولكنه أخطر من هذين شأنا وأشد بأسا على حياتنا . وهو البنك الاهلى الذى يسمونه مصريا سخرية منا وعبثا بعقولنا » .

ثم يقول :

« البنك الاهلى هو حصن الاستعباد فى مصر ، وتلك حقيقة لابد من تبسيطها وشرحها وعرضها ، وتكرار القول فيها حتى يدركها رجل الشارع فيصحو الى حياته والى قوته وقوت عياله الذى يهدده هذا البنك بالفناء فى غير رحمة ولا حياء » .

ثم شرح المأساة الاقتصادية التى تسبب فيها هـذا البنك للبلاد ، فقد ظل هذا البنك على الدوام فرعا لبنك انجلترا ، حتى بعد تمصيره « حيث تم تعيين نفر من المصريين رئيسـا وأعضـاء لمجلس الادارة يتقاضون مكافآت ضخمة ولا يملكون من النفوذ شـيئا ، وأما السـلطة الحقيقية فقد بقيت فى يد محافظ البنك الانجليزى من جهة ، وفى يد الجمعية العمومية للبنك من جهة أخرى ، والجمعية العمومية لايمكن أن تتجه سياستها نحو مصلحة

مصر الا عندما تكون أغلبيتها مصرية » ثم فضح موقف البنك الذى سهل لانجلترا الحصول على ثلاثمائة وخمسين مليونا من الجنيهات المصرية اشترت بها انجلترا جميع ما اشترته من مصر أثناء الحرب ، أو أنفقها جنودها فى بلادنا ، ومن خلال الاعيب البنك ، ضاعت هذه الملايين ، كما ضاع غيرها من حقوقنا الاقتصادية » .

وفى آخر بحثه عن البنك الاهلى يقول مندور :

« والآن وقد اتضحت تلك الآثار البعيدة التى نتجت عن جراة البنك الاهلى وضعف الحكومات المصرية واصبح من البين أن حياتنا الاقتصادية كلها مهددة أكبر تهديد فى الداخل وفى الخارج بتلك الكارثة ، يحق لنا أن نتساءل: ماذا تنوى الحكومة المصرية أن تفعل ازاء هذا الحصن الاستعمارى الشنيع ؟!.. ثم متى يصبح لنا بنك مركزى مصرى ينقذنا من حصن الاستعمار الذى يسمونه البنك الاهلى المصرى ؟ » .

لقد تحققت أحلام مندور بانشاء بنك مركزى مصرى ، وتأميم البنوك الاخرى حتى تعمل لمصلحة الشعب وذلك بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وفى تلك الفترة ، سنة ١٩٤٦ ، تم انشاء « لجنة الطلبة والعمال » التى كان لها دور كبير فى النضال المصرى آنذاك ، فكتب مندور مقالا تحت عنوان « حدث خطير .. اتصال المثقفين بالعمال » وفى هذا المقال كتب مندور :

« لقد بدت بمصر فى هذه الايام ظاهرة تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخنا الحديث ويظهر هذا التحول من المقارنة بين الحركة الوطنية فى سنة ١٩١٩ ، اذ كانت الامة لاتتحرك الا اذا طلب اليها الزعماء الحركة ، وخطبوا فى جموع الشعب وساروا فى المظاهرات ، أما اليوم فقد نضج التفكير السياسى حتى رأينا جموع الشباب من

طلبة وعمال يقررون بأنفسهم خطوات الجهاد العملى وينفذونها وتستجيب الامة لنداءاتهم . وفى سنة ١٩١٩ كانت الحركة سياسية بحتة ، فليس لها الا هدف واحد هو الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال ، واما اليوم فقد أصبح من الواضح أن الحركة القائمة لاتعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التى يقف عندها الجهاد ، وذلك لان الفرد قد أصبح يدرك ادراكا واضحا انه لاخير فى الغاء الرق الخارجى اذا دام الرق الداخلى جاثما على صدره . وأنه لاجدوى من أن يصبح الوطن عزيزا ، اذا ظل الفرد ذليلا . وليس بكاف أن ندافع عن قوتنا وقوت ابنائنا ومواطنينا ضد المستغلين من المصريين والاثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس وتتاح الفرص لكافة المواهب ، ويفسح المجال لكل نشاط انسانى منتج» ثم يقول مندور فى نفس المقال « والشىء الذى يستحق التسجيل هو أن هذا التفكير قد خرج من حيز الفكر والاحساس الى حيز العمل والتنظيم ، وقد اتت الخطوة الاولى اليه من شباب الجامعة المثقفين القلقين على مستقبلهم قلقهم على مستقبل بلادهم ، فهم الذين سعوا الى العمال بدافع ذاتى يريد المغرضون الكاذبون أن يشوهوا جماله فيتحدثون عن ايد خفية فيه ، وهم لا يكذبون عندئذ وحسب بل ويأثمون » .

ولعل من أهم ماكتبه مندور فى تلك الفترة مقالا نشره فى مايو سنة ١٩٤٧ بعنوان « كيف تستغل الشركات نفوذ بعض الباشوات » وفى هذا المقال يقدم مندور وثيقة فاضحة تكشف عن الواقع الفاسد العفن للسياسيين الراسماليين فى مصر فى تلك الفترة .. يقول مندور فى هذا المقال الخطير :

جاء فى مذكرة المسيو « جيانوتى » فى معرض الحديث

عن صلة صدقى باشا بشركة الغاز المصرية ماياتى :

« حصل صدقى باشا عند تكوين الشركة على ٢٥٠ سهما يدفع ثمنها بالتقسيط من حصــــته فى الارباح المستقبلة » .

ومن هذا الاعتراف الخطير نستخلص مايلى :

١ ــ ان صدقى باشا قد أعطيت له ٢٥٠ سهما دون ان يدفع مليما واحدا من ثمنها بل يخصم هذا الثمن من أرباح الاسهم نفسها فى المستقبل .

٢ ــ أنه قد أعطى ٢٥٠ سهما بالذات ليكون مقدار اكتتابه الرسمى فى الشركة ١٠٠٠ جنيه « ألف جنيه » باعتبار أن ثمن السهم الواحد الاسمى هو ٤ جنيهات .

٣ ــ انه لما كان القانون يشترط لكى يكون الفرد عضو مجلس ادارة امتلاكه لاسهم تساوى على الاقل ١٠٠٠ جنيه فقد أصبح لصدقى « باشا » بموجب هذه الـ ٢٥٠ سهما أن يصبح عضوا فى مجلس الادارة .

٤ ــ أنه مادام لصدقى « باشا » الحق فى أن يصبح عضو مجلس ادارة ــ وقد أصبح بالفعل ــ فيكون له الحق فى أن يصبح أيضا رئيسا لمجلس الادارة وهــذا ماحدث بالفعل .

وهذه هى الطريقة التى تحتال بها الشركات لكى تضم اليها ذوى النفوذ من رجال السياسة عندنا لكى تستغل ذلك النفوذ ــ وهى طريقة تنافى بلا أدنى شك كل مبادىء الشرف .

والآن ، هل يعرف القراء مدى ماربحه صدقى «باشا» من هذه العملية ؟؟ لقد ربح صدقى ماياتى :

١ ــ ربح ثمن هذه الاسهم الذى ارتفع من ٤ جنيهات الى ١١٠ جنيها اليوم ... وبذلك صارت الالف جنيه التى لم يدفع منها شيئا ٢٧٥٠٠ جنيه «سبعة وعشرون

الفا وخمسمائة جنيه »
٢ ـ مكافأة رياسته لمجلس الادارة وهى مكافأة سنوية كبيرة .
٣ ـ ربح الـ ٢٥٠ سهما السنوى .
٤ ـ سيطرته على الشركة ، وتوصله الى محاولة شراء أسهم المسيو جيانوتى « صاحب الشركة الاصلى وعضو مجلس ادارتها المنتدب وهو ايطالى الجنسية » ومافى هذه الصفقة من ربح لايخطر على الخيال .

ولكى نزيد الامر وضوحا ونبين مدى هذا الاستغلال المعيب نقول : ان هذه الشركة تأسست بالقاهرة عندما كان صدقى باشا رئيسا للوزارة ووزيرا للمالية بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٣٢ لمدة ٥٠ سنة وكان رئيس مجلس ادارتها هو اسماعيل صدقى باشا نفسه »

وتتألق كتابات مندور فى تلك الفترة بالثورية والوطنية واليسارية والوعى الاشتراكى ويتحول الى أكبر مفكر يسارى وطنى فى الفترة مابين « ١٩٤٤ و ١٩٥٢ » وينادى بمساهمة العمال فى الارباح مناداة صريحة ، وباعتبار العمل مصدرا أساسيا ووحيدا للثروة ، ويكشف أساليب استغلال الباشوات ، وكيفية حصولهم على الثروات بطرق ملتوية كلها ضد مصالح الجماهير الشعبية العاملة .
وفى هذه الفترة يصبح مندور الكاتب الاول فى حزب الوفد ولكنه لا يذوب فى التكوين التقليدى للحزب ، بل يحاول أن يخلق تيارا جديدا داخل الحزب ، وقد استطاع بالفعل أن يجمع حوله ماعرف بعد ذلك باسم « الطليعة الوفدية » وهى مجموعة من الشباب اليساريين كان مندور أبرز قادتهم وأبرز مفكريهم . كما كان مركزا لحركتهم ، وكان يقف الى جانبه فى ذلك الحين زميله الدكتور عزيز فهمى وغيره من الشباب الثوريين ، وقد اصطدم مندور مع

القيادات التقليدية للحزب ، وهى قيادات اقطــاعية أو رأسمالية تسللت الى الحزب وارادت أن تبقى على تكوينه الفكرى الغامض الذى يدور حول أهداف وطنية عامة ، بعيدة عن أية دعوة اجتماعيــة واضــحة ، فالدعوات الاجتماعية التى كان مندور ينادى بها سوف تؤدى الى الاضرار بمصالحهم كاقطاعيين ورأسماليين .

والمعلومات التى لدينا قليلة عن تفاصيل الصراع فى داخل حزب الوفد وفى داخل الاحزاب الاخرى ذلك لان الاحزاب المصرية قبل الثورة لم تجد من يكتب تاريخهـا بتفصيل ودقة حتى الآن . وهو تقصـير واضح مـن الباحثين والمؤرخين فى بلادنا . ومن هنا فنحن لا نعرف تفاصيل الحرب التى شنها الباشوات الاقطاعيون ضـد مندور وضد الطليعة الوفدية . ولكن اتجاه منــدور والشبان الملتفين حوله كان واضحا كل الوضــوح فى كتاباته ، التى بقيت لدينا كوثيقة حية من وثائق الفكر اليسارى الوطنى فى تلك الفترة .. وهــو الفكر الذى يمثل أبرز وأصدق مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

ولقد اراد اسماعيل صدقى باشا عندما كان رئيســا للوزارة سنة ١٩٤٦ أن يربط بين هذا اليسـار الوطنى وبين الحركة الشيوعية ، فقرر اعتقال مندور فى يوليو سنة ١٩٤٦ ، مع مائتـين آخــرين من الكتاب والمفــكرين والسياسيين ، وكان بينهم عدد كبير من شــباب الطليعة الوفدية . ويحدثنا الاستاذ محمد زكى عبد القادر فى مذكراته التى جعل عنوانها « أقدام على الطريق » عن هذه القضية التى سماها صدقى باسم « قضية الشيوعية الكبرى » وهى التى كان مندور متهما فيها . وكان محمد زكى عبد القادر متهما فيها أيضا .. يقول زكى عبد القادر « لقد استمر التحقيق فى هذه القضية شهورا وشهورا

وأفرج عن كل المتهمين فيها بعد فترات قصيرة أو طويلة ، وفى مدى علمي لم يقدم أحد ممن اتهم الى المحاكمة ومعنى ذلك أن النيابة لم تجد أحدا يمكن أن يدان .. لماذا اذن كانت القضية !! قيل ان صدقى باشا رئيس الوزراء أراد بها أن يخدم المفاوضات التي كان يجريها لتحقيق الجلاء ووحدة مصر والسودان . أراد أن يقول للانجليز أن فى مصر حركة شيوعية ضخمة ، فاذا لم يتسامحوا ، فانها جديرة بأن تأكل الاخضر واليابس » .

هذا مايقوله محمد زكى عبد القادر ، أما مندور فيقول « انني لم يكن لى فى يوم من الايام اتصال بالحزب الشيوعي ومنظماته » .

ولقد كان مندور يكرر دائما فى أحاديثه الخاصة أنه لايمكن أن يرتبط مع تنظيمات الشيوعيين حتى لو آمن كل الايمان بأفكارهم النظرية وذلك لقوة ايمانه بالديموقراطية والحرية السياسية .

والواقع أن موقف صدقى لم يكن الا لونا من الارهاب دأب عليه هذا الرأسمالى العتيد كلما تولى السلطة وخاصة ضد أصحاب الفكر التقدمى التحررى المعادى للاقطاعيين والرأسماليين .

ومما لاشك فيه أن المخابرات الانجليزية عن طريق عملائها مثل جماعة « اخوان الحرية » وما الى ذلك كانت أعرف بالواقع السياسى المصرى من صدقى وقلمه السياسى ، ولم يكن من السهل خداع الانجليز بهذا الاسلوب الساذج وهو تهديدهم بوجود حركة شيوعية خطيرة فى مصر فى ذلك الحين .

وفى اعتقادى أنه لولا قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ ، حيث تحققت أحلام اليسار الوطنى سياسيا واقتصاديا ... لولا ذلك ، فان التطور الطبيعى لمندور وجماعته فى «الطليعة

الوفدية » هو أن ينفصلوا عن الوفد لانشـــاء حـــزب اشتراكي ديموقراطي جديد . ولعل هذا الانقسام كان من الممكن أن يصبح الاول من نوعه فى تاريخ الحزب . فقد كانت الانقسامات فى داخل هذا الحزب عادة تقوم على المصالح الشخصية . ودائما كان الذين ينفصلون عن الوفد هم أقل منه وطنية وثورية وأكثر ميلا الى الانتهـــازية السياسية ومهادنة القصر والاستعمار أما هذا الانقســام الجديد الذى كان من الممكن أن يمثله مندور وجماعته فهو انقسام الى مزيد من الثورية واليســارية والافكار التقدمية .

ولقد حدث فى الوفد ثلاثة انقسامات كبيرة ، الاول عند انشاء الاحرار الدستوريين بقيادة عدلى يكن ثم محمــد محمود من بعده ، وكان حزبا يهادن الانجليز والقصر الملكى ويمارس الضغط على الشعب كلما أتيحت له فرصة الى ذلك . ثم حدث انقسام آخر هو انقسام أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى لينشئا حزب السعديين ، وهو أيضا كان حزبا مهادنا للقصر الملكى وكانت سياسته هى الضغط على الشعب كذلك ، ثم حدث انقسام الكتلة الوفدية بقيادة مكرم عبيد ، وقد تحـــالفت الكتلة مع السعديين والاحرار الدستوريين ، فى مهـــادنة القصر والضغط على الشعب وفقد مكرم عبيد مكانته الضخمة كزعيم شعبى عندما كان سكرتيرا للوفد وشخصية لامعة فى قيادته .

أما انقسام مندور ــ الذى لم يتم بسبب قيام الثورة ــ فلقد كان من الواضح أنه انقسام من أجل أهداف ثورية ويسارية واضحة فى الميدان الوطنى والاجتماعى معا .

هذا هو حصاد مندور فى هذه الفترة الخصبة من حياته وقد تم تتويج هذه الفترة بانتخابه عضوا فى مجلس النواب

سنة ١٩٥٠ وفى نفس العام أصيب بمرضه الخطير الذى أشرنا اليه فى أول هذه الدراسة . وقد اضطره المرض للسفر الى لندن للعلاج . وتم علاجه بالفعل وشفى من المرض شفاء غير نهائى : أنقذ حياته ، ولكن بقيت آثار هذا المرض مصاحبة له حتى وفاته فى ١٩ مايو سنة ١٩٦٥ .

وبعد عودة مندور من لندن عاود نشاطه الادبى من جديد كمدرس فى معهد التمثيل . ثم قامت الثورة فأحدثت تغييرا كبيرا فى حياته . لقد أيد مندور الثورة منذ البداية ، لانه أحس بأحلامه تتحقق ، ورأى أن طريق العمل الحزبى التقليدى قد فقد الكثير من قيمته وجدواه وظل مندور على ولائه للثورة حتى آخر لحظة فى حياته ، وفى عهد الثورة لقى مندور متاعب كثيرة من بعض الاجهزة الثقافية والادارية ومع ذلك لم يتأثر ولاؤه للثورة ولا ايمانه بها على الاطلاق . وكان باستمرار يعتبر هذه المتاعب كلها خطأ من اخطاء الاجهزة البيروقراطية ، لاخطأ من أخطاء الثورة التى هى مبادىء سليمة وأهداف صحيحة وتمثيل حقيقى لآمال الطبقات الشعبية خلال كفاحها الطويل .

وأصبح مندور بعد الثورة أكثر ميلا الى العمل الثقافى منه الى أى نوع آخر من العمل . حيث أدرك أنه فى ظل الثورة يستطيع أن يتفرغ أكثر من أى مرحلة أخرى فى حياته للعمل الثقافى ، وفى هذه الفترة تبلور منهج مندور الجديد فى النقد والذى يختلف عن منهجه القديم ، المنهج « الجمالى التأثرى » . وهذا المنهج الجديد يسميه مندور « بالمنهج الايديولوجى » ولم يكن من الممكن الا يتطور مندور ويتغير فى نظرته للادب بعد أن قضى مايقرب من ثمانى سنوات فى كفاح سياسى واجتماعى واسع ،

عرف فيه كثيرا من الحقائق عن المأساة الاجتماعية للشعب والتزم في تفكيره اتجاها يساريا وطنيا واضحا ومن هنا تطور مفهومه للادب والنقد .

ومن الملاحظ في تاريخ مندور كله ، أنه لم يعرف الطفرة في كل مراحل حياته الفكرية . فهو يتطور ، ولا ينقلب على نفسه أو يتناقض مع نفسه على الاطلاق . . « فالتطور الواضح ، والنمو من مرحلة الى مرحلة ، همـــا المنطق الذى كان يسيطر دائما على حياة مندور الفكرية . . ولذلك كانت كل مرحلة جديدة يتطور اليها مندور تحمـل بعض خصائص المرحلة التالية ، فهو في مرحلته الثـانية ، مرحلة الكفاح السياسي والاجتماعي ، كان يحمل في قلبه وعقله كثيرا من قيم المرحلة الاولى وهى المرحلة التى كان يخضع فيها للفكرة « الانسانية الجماليـــة » في الادب والحياة . فقد ظل وهو يتحدث عن الاقتصاد والعدالة الاجتماعية وحقوق العمال والفلاحين ، يؤمن أن كل تعديل في النظم والقوانين انما يجب أن يهدف في النهاية الى تحقيق الكرامة الانسانية واتاحة الفرصة لوجود انسان يتحلى بالفضائل الانسانية المختلفة .

وهكذا نجد أن مندور بعد مرحلة طويلة من الـكفاح السياسي والاجتماعي ، يعود الى الحياة الادبية ، بفكرته الجديدة التى تحمل بعض ملامح المراحل السابقة .

فهو في ميدان « النقد الايديولوجى » يؤمن بالجمال الادبى ويحرص عليه : فلا أدب بغير جمال . والادب الذى ينقصه الجمال الفنى لن يترك على صفحة الحياة أى تأثير ولكن مندور يميل الآن الى تحديد وظيفة الادب بأنه يخدم الحياة ويعبر عنها ويغيرها الى ماهو أعمق وأفضـــل .

ويقول مندور عن هذا المنهج الجديد أو المنهج الايديولوجى « لقد دفعت الى اعتناق هذا المنهج نتيجة لاهتمامى

بالقضايا العامة وبالنواحي السياسية والاجتماعية فى حياتنا . ثم لايمانى بالفلسفة الاشتراكية وازدياد ايمانى بها كلما ازددت معرفة بواقع مجتمعنا أثناء عملى بالصحافة والبرلمان وبحكم نشأتى الريفية واستمرار صلتى الوثيقة بالريف وأهله وطبقات شعبنا الكادحة المظلومة » .

ولكن ماهو المنهج الايديولوجى ؟ يقول مندور :

« يرى المنهج الايديولوجى بحق أن ماكان يسمى فى أواخر القرن الماضى بالفن للفن ، لم يعد له مكان فى عصرنا الحاضر الذى تصطرع فيه معارك الحياة وفلسفتها المتناقضة . وأن الادب والفن قد أصبحا للحياة وتطويرها الدائم نحو ما هو أفضل وأجمل وأكثر اسعادا للبشر .

ويرى النقد الايديولوجى كذلك أنه لم يعد من الممكن أن يظل الادب والفن مجرد صدى للحياة . بل ينبغى أن يصبحا قائدين لها . فقد انقضى الزمن الذى كان ينظر فيه الى الادباء والفنانين على أنهم طائفة من الفرديين الأبقين لاحلامهم وآمالهم الخاصة أو الباكين لضياعهم وخيبة آمالهم فى الحياة . وحان الحين لكى يلتزم الادباء والفنانون بمعارك شعوبهم وقضايا عصرهم ومصير الانسانية كلها وبخاصة فى عصر تسير فيه الاكتشافات العالمية بخطى حثيثة . وقد يساء استخدام تلك الاكتشافات فتصبح وسيلة لتدمير البشر بدلامن اسعادهم وذلك مالم ينشط رجال الادب والفن الى تحمل مسئولياتهم فى تغذية الوجدان البشرى وتنمية الضمير الانسانى على النحو الذى يمكن البشر من السيطرة على العلم وتسخيره لخيرهم » .

هذا هو التعريف العام للمنهج الايديولوجى عند مندور

وهو تعريف يهتم بالخطوط العريضـــة دون التفصيـل .
وقد ظل الامر كذلك عند مندور حتى النهاية فهو لم يكتب دراسة عميقة تفصيلية عن منهجه الايديولوجى .

ولاشك أن مندور فى فترة ايمانه بالمنهج «الايديولوجى» فى النقد أصبح قريبا الى الانتاج الصحفى الفزير السهل المبسط ، منه الى الانتاج العلمى الدقيق ، كمـا انه كان يمثل دور « المبشر » بفكرته الجديدة ، لا دور الباحث الذى يضع الاسس الشاملة الواسعة لهذه الفكرة . ورغم ذلك كله فقد ترك لنا مندور مئات الملاحظات القيمـــة والاساسية فى مقالاته المختلفة والتى يمكن بتتبعهـا أن نصل الى العمق النظرى لهذا المنهج .

بقيت ملاحظة على تسمية منهج مندور باسم « المنهج الايديولوجى » فالتسمية فى اعتقادى غير دقيقة ، وان كان المعنى مفهوما واضحا ، لان كلمة « ايديولوجيا » تعنى المنهج النظرى او الاتجاه أو كما تقول المعاجم : ان الايديولوجيا « فن البحث فى الافكار والتصورات » .. ان معنى كلمة «ايديولوجيا» يدور حول تلك الالفاظ العربية جميعا وان لم يكن هناك لفظ واحد يدل عليها بدقة .فنحن نقول : ان ايديولوجيا « ســارتر » هى الايديولوجيـا الوجودية ، وايديولوجيا « جارودى » هى الايديولوجيا الماركسية .. وهكذا فكلمة ايديولوجيا لايمكن أن تكون وصفا لكلمة « منهج » ، فتحت كلمة الايديولوجيا يمكن أن نضع عشرات من النظريات والافكار الرئيسية ، بحيث نستطيع أن نقول : ان هناك « ايديولوجيات » كثيرة مثل الوجودية والماركسية والنازية والصهيونية وما الى ذلك من مناهج ونظريات صائبة أو خاطئة . فالتعبير اذن غير دقيق . ولقد كان من الافضل أن يسمى مندور منهجه باسم « المنهج الواقعى » .فهذا أقرب الى الصــواب

والدقة من عبارة « المنهج الايديولوجى » .

ولكن على كل حال فاذا كان مندور لم « يدقق » فى التسمية فان مضمون منهجه دقيق وواضح تماما . ومندور ولاشك هو اكثر المبشرين وأطولهم نفسا فى الدعوة الى منهجه « الايديولوجى » ، أو الواقعى ، وهو أيضا بعيد عن كثير من الشوائب التى علقت بهذا المنهج عند غيره ، مثل تجاهل الجانب الجمالى فى الادب ، وهو الجانب الذى لم يتجاهله مندور قط بل حرص عليه دائما .

لقد مات مندور فى مساء ١٩ مايو سنة ١٩٦٥ ، وكان قبل وفاته بيومين يدرك أنه يخوض معركة ضد عدو شديد العنف وهو الموت . وكان يستنهض همته ويستخرج من أعماقه كل مافيها من قوة وعزم . وكان يردد أمام بعض تلاميذه ، وهو يرفع قبضته فى الهواء بيت أبى القاسم الشابى :

سأعيش رغم الداء والاعداء
كالنسر فوق القمة الشماء

ولكن الموت هزم مندور .. فرحل عنا تاركا أثرا فى كل من أمسك بقلم من أبناء هذا الجيل من الكتاب والادباء والمفكرين والصحفيين .

واذا أردنا تلخيصا لحياة مندور ولمواقفه المختلفة لقلنا انه كان على الدوام ناقدا ومفكرا مؤمنا بالانسان سواء فى مرحلته الجمالية أو فى مرحلته الجديدة ، التى سماها باسم النقد الايديولوجى ، أو فى المرحلة التى كانت انتقالا بين المرحلتين .. كان مندور فى هذه المراحل كلها مؤمنا بالانسان أشد الايمان ، مؤمنا بأن الادب ينبغى بشكل من الاشكال أن يكون عاملا مساعدا للانسان على

الارتقاء والتقدم وأن الاديب ينبغى أن « يكتب فى سبيل الانسان وأن « يعمل » فى سبيل الانسان أيضا ، أما فى آرائه السياسية والاجتماعية فقد انتقل مندور فى مسيرته الطويلة من القضايا الانسانية العامة الى الفكر اليسارى الوطنى بعد خبرة واسعة ومعاناة حقيقية .

وستظل كتابات مندور فى حياتنا الفكرية نورا هادئا ودافئا لاينطفىء كما تنطفىء الانوار العابرة والمصابيح الصغيرة .

الطيب صالح ...
عبقرية روائية جديدة

لم اصدق عيني وأنا التهم سطور هذه الرواية وانتقل بين شخصياتها النارية العنيفة النابضة بالحياة ، وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة ، وبناءها الفنى الاصيل الجديد على الرواية العربية .. لم أتصور أننى اقرأ رواية كتبها فنان عربى شاب ، ولم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة ــ فكرا وفنا ــ هى عمله الاول . لقد اخذتنى الرواية بين سطورها فى دوامة من السحر الفنى والفكرى ، وصعدت بى الى مرتفعات عالية من الخيال الفنى الروائى العظيم ، وأطربتنى طربا حقيقيا بما فيها من غزارة شعرية رائعة .

ولم أكد أنتهى من قراءة الرواية ، حتى تيقنت أننى ــ بلا أدنى مبالغة ــ أمام عبقرية جديدة فى ميدان الرواية العربية .. تولد كما يولد الفجر الجديد المشرق ، وكما تولد الشمس الافريقية الصريحة الناصعة .

فمن هو هذا الفنان الشاب وماهي روايته ؟... انه كاتب سودانى لم أسمع عنه ولم اقرأ له شيئا قبل هذه الرواية ، واسمه الطيب صالح ، أما روايته فاسمها « موسم الهجرة الى الشمال » ... وكل ماعرفته عن هذا الفنان الشاب أنه من مواليد ١٩٢٩ . وأنه تخرج فى احدى الجامعات الانجليزية ، ولذلك فليس أمامنا الا

ان نواجه الرواية نفسها بدون أى مقدمة عن المؤلف ، فأثمن مالدينا عن المؤلف هو الرواية .

ان الرواية تعالج المشكلة الرئيسية التى عالجها من قبل عدد من كبار الكتاب العرب . انها نفس المشكلة التى عبر عنها توفيق الحكيم فى روايته « عصفور من الشرق» وعبر عنها بعد ذلك يحيى حقى فى روايته « قنديل أم هاشم » وعبر عنها الروائى اللبنانى سهيل ادريس فى روايته « الحي اللاتينى » .. وأقصد بهذه المشكلة : مشكلة الصراع بين « الشرق والغرب » وكيف تواجه الشعوب الجديدة هذه المشكلة .. كيف تعالجها وتتصرف فيها ؟.. هل تترك هذه الشعوب ماضيها كله وتستسلم للحضارة الغربية وتذوب فيها وتقلدها تقليدا كاملا ؟ هل تعود هذه الشعوب الى ماضيها وترفض الحضارة الغربية وتعطيها ظهرها وتنكرها انكارا لا رجعة فيه ؟ هل تتخذ موقفا ثالثا يختلف عن الموقفين السابقين ... وما هو هذا الموقف الجديد ؟... تلك هى المشكلة التى تعالجها رواية الطيب صالح .

وقبل أن نتعرض لمناقشة الرواية ، وماتقدمه الينا فكريا وفنيا ، لابد لنا أن نلاحظ ملاحظة أولية ، فهذه الملاحظة بالذات تفسر لنا مافى الرواية من عنف ليس موجودا فى الروايات السابقة التى تناولت نفس الموضوع، فمشكلة الشرق والغرب كما ظهرت فى الروايات السابقة لا ترتبط بتجربة مريرة مثل تلك التى يعبر عنها الطيب صالح ، ذلك أن الشرقي عند هذا الفنان الشاب هو شرقى افريقى « أسود اللون » ومشكلة البشرة السوداء هذه تعطى للتجربة الانسانية عمقا وعنفا ، بل وتمزجها بنوع خاص من المرارة . ان توفيق الحكيم أو يحيى حقى أو سهيل ادريس أو غيرهم من الادباء الذين عبروا عن

مشكلة الصراع بين الشرق والغرب ، كانوا جميعا من آسيا أو من شمال افريقيا . وهذا معناه ببساطــة أن مشكلة اللون لم تكن عندهم عنصرا من العناصر المشتركة فى الصراع الكبير . ولكن هاهو الطيب صالح يصور هذه المشكلة ويعبر عنها من خلال انسان افريقى ذى بشرة سوداء ، يذهب الى لندن ويصطدم بالحضارة الغربية اصطداما عنيفا مدويا من نوع غريب . وعنصر اللون هنا له أهميته الكبرى ، فالبشرة السوداء أكثر من غيرها هى التى انصب عليها غضب الغربيين وحقدهم المرير ، وهى التى تفنن الغرب فى تجريحها انسانيا قبل أن يكون هذا التجريح سياسيا أو اقتصاديا او ثقافيا . ان الانسان الاسود قد عاش قرونا من التعذيب والاهانة على يد الغرب، وتركت هذه القرون فى النفس الافريقية جروحا لاتندمل بسهولة . ومن هنا كانت حرارة المأساة كما رســـمها الطيب صالح فى روايته الفذة . انه يصور صدام أقدار متضادة الى أقصى حدود التضاد . فمصطفى سعيد بطل الرواية ، لا ينتقل من السيدة زينب الى لندن ، أو من السيدة الى باريس ، أو من بيروت الى باريس ، كمــا نجد فى الروايات العربية التى صورت نفس المشكلة . ان هذا البطل الروائى الجديد ينتقل من قلب افريقيــا السوداء الى لندن . والحوادث الرئيسية فى الروايةتجرى فى أوائل هذا القرن حيث كانت افريقيا تغوص فى ظلم وظلام لا حد لهما . على أن هذا كله لايعنى أن رواية « موسم الهجرة الى الشمال » قد ركزت تركيزا حادا على مشكلة اللون ... على العكس تماما نجد أن الطيب صالح يمس هذه المشكلة برقة وخفة ورشاقة ، وهو يمسها من بعيد جدا ، حتى لانكاد نلتقى بها الا بين السطور . ولكن هذا العنصر اللونى مع ذلك يفسر لنــا

عنف الرواية وحدتها بصورة لانجدها فى أى رواية عزبية أخرى عالجت نفس الموضوع .. ان الجرح الانسانى الذي ينزف في هذه الرواية العظيمة هو اكثر عمقا من اى جرح آخر .. إنه جرح الانسان الافريقى الاسود ..

وأول مايلفت النظر بعد ذلك فى هذه الرواية ، هو مايمكن أن نسميه بالموقف الحضارى للكاتب الفنان ، ولا يستطيع أن يصل الى هذا الموقف الا فنان ذو عقل كبير وقلب كبير ، لان صغار الفنانين ليس لهم موقف حضارى على الاطلاق .. ورواية « الطيب » تعكس موقفا محددا واضحا ، لقد سافر مصطفى سعيد بطل الرواية الى لندن ، ووصل هناك الى أعلى درجات العلم ، وأصبح دكتورا لامعا فى الاقتصاد ، وان كانت ثقافته قد امتدت واتسعت حتى شملت كثيرا من ألوان الادب والفن والفلسفة وأصبح مصطفى سعيد مدرسا فى احدى جامعات انجلترا ومؤلفا مرموقا . ولكنه فى حياته الخاصة ارتبط بعلاقات وثيقة مع أربع فتيات انجليزيات ، وانتهت هذه العلاقات جميعا نهايات حادة دامية . وهى نهايات تشبه طبيعة مصطفى سعيد نفسه ، وتشبه عواطفه الساخنة ومزاجه الحاد كالسكين .

ان هذا البطل الروائى الوافد من افريقيا ، يتعثر فى أزمات حادة مريرة ، ولا حل له فى آخر الأمر كما تقول رواية الطيب صالح الا بأن يعود الى قرية فى قلب السودان ، ليشترى بضعة أفدنة هناك ، ويعمل فيها بنفسه ويتزوج بنتا من بنات القرية السودانية ، ويواصل حياته الجديدة بطريقة منتجة هادئة ، لم يعرفها من قبل فى انجلترا حيث عاش هناك حياة عاصفة مؤلمة .

ان الحل الذى يراه الطيب صالح فى روايته أمام بطله المضطرب المعذب هو أن يعود الى أصله ومنبعه ليبدأ من

جديد هناك . فهذه هى البداية الصحيحة والسليمة .
لن يجد نفسه فى لندن مهما أخذ من علمها وثقافتها ، ومهما طاردته نساؤها وتعلقن به تعلقا جسديا شهوانيا عنيفا ، لن يجد الطمأنينة أبدا الا اذا عاد الى النبع ، والقى وراء ظهره بقشور الثقافة الغربية ، وابقى على جوهر هذه الثقافة ثم مزج هذا الجوهر بواقع بلاده ... هنا فقط سوف يصبح انسانا منتجا .. انسانا فعالا له دور حقيقى فى الحياة .

وهذا هو نفس الحل الذى ارتآه من قبل توفيق الحكيم لبطله محسن ، فقد عاد به الى الشرق ليبدأ البداية الصحيحة . وهذا ما رآه يحيى حقى فى « قنديل أم هاشم » لبطله « اسماعيل » .. ان اسماعيل بكل علمه لا يمكن أن يقدم لوطنه شيئا الا اذا بدأ من السيدة زينب وتزوج من فاطمة الزهراء ابنة هذا الحى الشعبى .. فالذين يتعالون على واقعهم الأصلى ، أو ينفصلون عنه ، لا يمكن لهم أبدا أن يؤثروا على هذا الواقع أو يغيروا فيه أى شىء ، ان مثل هذا الواقع لن يهضمهم ولن يعترف بهم ، بل سوف يرفضهم تماما مثلما يرفض أى جسم غريب وشاذ . لابد أن تكون البداية من الواقع ، من النبع الأصلى ، من القرية ، من السيدة زينب ، من الناس الذين بدأ بينهم الانسان وخرج منهم .

على أن هذه الرؤية الحضارية عند هذا الفنان الشاب ترتبط أشد الارتباط برؤية انسانية أخرى ، استطاع الطيب صالح أن يصورها ويجسدها لنا فى روايته بصورة عميقة تسمو الى درجة عالية من الشفافية والمقدرة الفنية الخلاقة المبدعة .

وهذه الرؤية الانسانية تتضح أمامنا بعد تحليل الرواية وتحليل علاقاتها المختلفة .

. فمصطفى سعيد بطل الرواية يرتبط فى انجلترا بأربع علاقات نسائية ، وتنتهى هذه العـــلاقات بانتحار ثلاث فتيات ، كما تنتهى العلاقة الرابعـــة بالزواج ثم بجريمة قتل قام بها مصطفى سعيد .. لقـــد قتل زوجتـــه فى سريرها ، وبعد محاكمته فى لنـــدن ، والنظر فى ظروف القضية ، ثم الحكم عليه بسبع سنوات ، قضاها فى احد السجون ، ثم عاد الى احدى القرى السودانية واشترى أرضا عمل فيها بنفسه وتزوج من احدى بنات القرية وهى حسنة بنت محمود وانجب منها ولدين .

والعلاقة بين مصطفى ســـعيد والفتيات الانجليزيات الثلاث لم تتجاوز العلاقة الجسدية ، لم يكن هناك بين هذه العلاقات علاقة حب حقيقية ، بل كانت كلها علاقة شهوة جامحة ، فالفتيات الانجليزيات يرين فى مصطفى سعيد مظهرا للقوة البدائية الوافدة من افريقيـــا . انه بالنسبة اليهن ليس انسانا يستحق علاقة عاطفية كاملة بكل جوانبها الروحية والمادية معا ، فهو كائن غريب ، يحمل رائحة الشرق النفـــاذة ، وهو حيـــوان افريقى يستحق أن تلهو به هؤلاء الفتيات ، ويستمتعن به فقط .

ان علاقة مصطفى سعيد بهؤلاء الفتيات ليست علاقة عاطفية انسانية صحيحة قائمة على التوازن والمساواة ، بل هى علاقات حسية قائمة على الاستغلال ، وهذا النوع من العلاقات يذكرنا ولا شك بالعلاقات بين الاستعمار والبلاد المحتلة ، فالاســـتعمار يستغل بلدا من البلدان ويستنزفها بقسوة لكى يستمتع بما فيهـــا من ثروات وامكانيات ، ولو أننا لاحظنا تمسك الاستعماريين ببلدان أفريقيا على سبيل المثال لوجدنا أن هذا التمسك فيه رائحة خارجية سطحية من المحبة والعشق بل والهوس العاطفى ، لقد كان الفرنسيون يتركون الجـزائر بعـــد

استقلالها وهم يذرفون الدموع الغـزيرة ، وفى جنـوب افريقيا نجد أن الأوربيين لا يريدون ان يتركوا الأرض الافريقية ، انهم يتمسكون بها كما يتمسك العشاق بشيء عزيز عليهم ... ولكنهم فى حقيقتهم ليسوا عشاقا ، وانما هم يستغلون ويستثمرون الأرض والناس .

هكذا كانت فتيات لنـدن يجدن فى مصطفى سـعيد صحة وقوة واثارة لخيالهن الجامح حول افريقيا وما فيها من عنف وحيوية ، ومن هنا اقبلت عليه الفتيـــات كالفراشات ، أو ان أردت صورة أقبح وأصدق : فانهن قد أقبلن عليه كما يقبل الذباب على قطعة من الحلوى .

أكان من الممكن أن يحب مصطفى سعيد مثـــل هؤلاء الفتيات ؟ كلا بالطبع . ولا واحدة منهن أثارت فيه عاطفة سليمة . وقد كان هو نفسه مشحونا ـ من الداخل ـ ضد أوربا ، وضد التشويه الانسانى الذى حملته أوروبا الى أفريقيا والافريقيين فى نفس الوقت . ولذا كانت نظرته الى الاوروبيات فيها نوع من الرغبة الانتقامية ، بينما كانت نظرة الاوروبيات اليه نظرة غير انسانية ، ومن هنا اقتصرت هذه العلاقات كلها على الجانب الجسدى ، ثم سئم منهن فى النهــــاية فتركهن وانتهى بهن الأمر الى الانتحار ، لا بسبب عاطفة صادقة ، ولكن بسبب عادة جسدية عنيفة ضاعت وضاع معها كل ما حولها من خيال جامح . ثم جاءت علاقة مصطفى سعيد بالفتاة الانجليزية التى تزوجها . ظل فى البداية يطاردها وترفضه رفضـا كاملا ، وأخـيرا طلبت منه أن يتزوجهـــا . وتم الزواج بالفعل ، ولكنها تعودت على أن تثيره بشتى الوســـائل والأساليب العنيفة دون أن تسمح له بالاقتراب منها ، انها تشتهيه وتحتقره فى نفس الوقت . تريده وتنكره بل وتنكر على نفسها أنها تريده . وظلت هكذا تعذبه وتعمل

على تهديم أعصابه بلا رحمة حتى هددها بالقتل فلم تعبأ بالتهديد • وجاء يوم قرر فيه ان يقتلها بالفعـــــل ، فاستسلمت للقتل كمـا تستسلم لأى علاقة جسـدية تريدها فى هوس مجنون . وكان مقتل هذه الفتاه عنيفا غريبا وكانت هى نفسها تشتهى هذا القتل وتطلبه وتتمناه، لأنها كانت تجد فى مصطفى سعيد مثالا مجسدا للعنف الأفريقى ، وكان لديها ولا شك الكثير من « السادية » أو الرغبة فى تعذيب الآخرين ، كما كان لديها أيضا الكثير من « الماسوشيه » اى الرغبة فى تعذيب النفس .

وهكذا كانت هذه الزوجه الانجليزيه هى الأخرى تحمل نموذجا معقدا للحب المريض الشاذ • لقد كان الجنس بشتى صـــوره فى علاقاته مع الأوروبيات مطلوبا لذاته فالجنس أولا واخيرا هو الهدف ، على شرط ان يتحقق الجنس فى اطاره الافريقى الجامح المثير للخيال ومن هنا كان الجنس فى تجـربه مصطفى سـعيد مع الفتيـات الانجليزيات مجردا من اى معنى انسانى ، فليس وراء هذه العلاقات كلها أى رغبة فى بناء اسره ولا اى رغبة فى انجاب أولاد ولا أى رغبة فى مواصلة حياة منتجة ... الجنس للجنس ، هذا هو شعار اولئك الفتيات الانجليزيات مع هـذا الفتى الافريقى ، كل ذلك رغم ما كانت بعض الفتيات تقمن به من محاولات لتغطية هذه الرغبةالمجنونه، بأساليب مكشوفة من الحديث عن الفن والشرق وافريقيا.

وهكذا فشلت علاقاته النسائية فى أوربا فشلا انسانيا وانتهت بالجريمة والسجن •

بقى فى حياة مصطفى سـعيد بطل الرواية حبـان ناجحان : أما الحب الاول فهو حب « اليزابيث » وهـو نوع من عاطفة الأمومة . ان هذه السيدة الانجليزية كانت تعيش فى القاهرة مع زوجها المستشرق الذى تعلم اللغة

العربية واعتنق الاسلام وقضى عمره كله فى البحث عن المخطوطات العربية ودراســـتها ... ثم مات ودفن فى القاهرة التى أحبها وقضى فيها أعظم سنوات عمره .
كانت اليزابيث ، زوجة المستشرق بمثابة الأم الروحية لبطل الرواية مصطفى سعيد . لقد أحبته كجزء من حبها للشرق وفهمها له ، وأحبته لأنها أحست بامتيازه وذكائه وصفاته الانسانية الأخرى ، ولم تفكر فيه أبدا على انه « لعبة افريقية » مثيرة . لذلك كان حبها ناجحا ، وظل مشتعلا حتى النهاية ، وان طغت عليه جوانب الأمومة بسبب فارق السن .

ومن الواضح أن اليزابيث قد تدربت كثـــيرا حتى استطاعت أن تصل الى هذا المستوى من العاطفة النقية الصافية ... لقد عاشت فى القاهرة طويلا مع زوجها ، وتعلمت العربية وعاشرت الناس فى الشرق وأحبتهم ، لقد اكتشفت الشرق من جانبه الانســانى لا من جانبــه الجسدى والمادى . ولذلك أحبت مصطفى سعيد ووجدت ســعادة غامرة فى هــذا الحب ، ولم تطلب من مصطفى شيئا ، بل كانت تساعده كلما احتاج الى المساعدة ، ان لذتها الكبرى هى فى هــذا الحب الصـــافى نفسه ، وفى اكتشافها لروح الشرق الجميل : بتراثه وتاريخه وشمسه وناسه ـ ولقد نظرت اليزابيث الى مصطفى سعيد فى ضوء رؤيتها للشرق كله .

أما الحب الثــانى الحقيقى الناجح ، فقـــد التقى به مصطفى سعيد بعد أن خرج من سجون لندن وعاد الى السودان واختار احدى القرى ليقيم فيها ، هناك تزوج فتاته السودانية « حســنة بنت محمود » وعاش معهــا سعيدا كل السعادة حتى مات غريقا فى أحد الفيضانات

التى التهمت بعض أهل القـــرية وكـان بينهم مصطفى سعيد .

وهذا الحب هو وحده الذى أنجب مصطفى سعيد - من خلاله - ولدين .. هنا «الجنس» له دور فى بناء الحياة ، والحب مبنى على الاقتناع والمساواة والرغبة الصادقة فى اقامة علاقة انسانية صحيحة .. ومصطفى سعيد فى تلك القرية السودانية معشوق حقيقى بسبب صفاته الأصيلة فيه ، مثل ذكائه وعمق شخصيته ، وحبه للقرية ، وقدرته على العمل والانتاج . انه ليس كما كان فى أوربا : حيوانا عنيفا متوحشا ، تجرى وراءه الفتيات لغرابته وشذوذه ، انه هنا انسان طبيعى ، والحب فى هذه القرية السودانية بسيط وصادق وأصيل . ومصطفى سعيد لم ينجب الا من زوجته السودانية ، وليست هذه الفكرة فى الرواية تعبيرا عن اى تعصب قومى ، ولـكنها فـكرة تكشف عن معنى انسانى بالدرجة الأولى فالزوجة السودانية هى الحب الوحيد الحقيقى ، ولذلك فهى ليست عقيما مثلما كان الأمر مع الفتيـــات الأوروبيات وعواطفهن الغـربية الشـاذة .

وبعد موت مصطفى سعيد ، رفضت زوجته السودانية « حسنة بنت محمود » أن تتزوج من « ود الريس » وهو عجوز سودانى من أبناء القرية ، لقد كانت « حسنة » تفضل الموت على أن تتزوج من « ود الريس » . لقد ذاقت عذوبة الحياة فى ظل مصطفى سعيد ذلك الافريقى الذى صقلته الحضارة والتجربة ثم عاد فى نهاية المطاف الى أرضه ، ليبدأ منها بداية حقيقية ، لقد وجدت فيه وهى البنت الافريقية البسيطة شيئا جديدا : فهو منها ولكنه غريب عنها وجديد عليها ... ولذلك كله أحبته

بعد ان تسد عينيها الى عالم أوسع وأعمـــق من عالمها البسيط .

وما أشبه حسنة بنت محمود بالسودان نفسه ، بل ما أشبهها بمصر وبكل بلد شرقية متطلعة الى الجديد .. تريد أن تخطـو الى الأمام دون أن تنتزع جذورها من الأرض .

وكانت « حسنة » ، بعد أن مات زوجها مصطفى سعيد تريد أن تتزوج شخصا آخر هو « الراوى » الذى يقدم لنا القصة بلسانه . وهـذا « الراوى » هو فى الحقيقة الامتداد الوحيد المقبول لمصطفى سعيد ... سافر الى أوروبا وعاد الى وطنه يحمل مشعلا هادئا وصـــادقا ، ولذلك جعله مصطفى وصيا على أولاده وثروته وزوجته وأسراره جميعا .

ولكنهم فرضوا على « حسنة » أن تتزوج من العجوز « ود الريس » فكانت النتيجة أن قتلته وقتلت نفسها . وبذلك تكون « حسنة » قد قتلت التقاليد القديمة التى تعودت أن تجعل من المرأة شيئا من المتاع المادى وليست « انسانة » ذات عاطفة خاصة مستقلة . انها قتلت رمزا من رموز الماضى بتقاليده ونظرته الخاطئة الى الحياة ، وأحدثت بهذه « الجريمة » صدمة مفجعة لمجتمع قريتها الافريقى الهـادىء البسيط ... لقـد استيقظ هـذا المجتمع فجاة على هذه الجريمة الحادة القـاسية . وفى هذه الجريمة سقطت حسنة شهيدة حبها ، وشهيدة حرصها على الا تتراجع عن العالم الجديد الجميل الذى خلقه لها زوجها الأول مصطفى سعيد .

وما اشبه جريمة « حسنة » بجريمة مصطفى نفسه فى لندن . « جريمة حسنة » هى ثورة ضد التقاليد التى تحول المرأة الى لعبة . وجريمة مصطفى سعيد هى تختل

للوجدان الأوروبي المعقد ، والذي يعلن كراهيته واحتقاره لافريقيا ثم يتمسك بها ويقبض عليها بأصابعه ، بل وينشب أظافره فيها حتى لا تضيع .. فموقف أوروبا من افريقيا هو تظاهر بالكره يقابله حرص على افريقيا وتمسك بها مستبد وعنيف . وهذا هو نفسه موقف الزوجة الانجليزية من زوجها الافريقي مصطفى سعيد ... كانت تبدي له كرها وتمنعا واحتقارا ، وهي في الحقيقة تريده لتعتصره وتحقق متعتها ثم تعاملة بعد ذلك كالكلب .

جريمة « حسنة » هي قتل للوجدان الافريقي بتقاليده القديمة بحثا عن وجدان افريقي جديد ، وجريمة مصطفى سعيد قتل للوجدان الأوروبي باستبداده وعنفه ورغبته في السيطرة بحثا عن وجدان أوروبي جديد خال من التعقيد والمرض .

كل شيء في هذه الرواية الكبيرة له معناه : الحب والجنس والجريمة . بقي أن نلاحظ كيف مات مصطفى سعيد في الرواية ، لقد مات غريقا في ماء النهر دون أن تطفو جثته أو تظهر بعد ذلك ، وهكذا اختارت أنامل الفنان الموهوب لبطله أن يذوب في النيل رمز الأرض والأصل وافريقيا .. رمز المنبع الكبير والبداية الصحيحة .

لقد مات مصطفى سعيد ميتة كبيرة لها مغزاها ، كما كان كل شيء في حياته له مغزاه ... ولعل النهر نفسه أن يتطهر بالنور الذي وصل اليه مصطفى سعيد بعد تجارب شاقة وبعد اصطدام حاد وامتزاج عنيف بالحضارة الاوربية . ولعل مصطفى سعيد أن يتطهر هو أيضا من آثامه الفكرية والجسدية في هذا النهر المقدس لانه مصدر الحياة التي تدب على شطآنه !

ولعل مصطفى سعيد أن يبعث ويعود الى الحياة بعد امتزاجه بالنهر ... ليكون نورا جديدا ينتشر في الأرض

الافريقية ويبدد الظلام ويهدى السائرين الحائرين الى الطريق ..

وأخيرا ماذا نجد فى هذه الرواية من القيم الفنية ؟ .. نجد فيها كل شىء يحتاج اليه الفن العظيم . فعبارتها الجميلة ، تعتمد على لغة عربية فى غاية الصفاء والأناقة والشاعرية . انها لغة ناصعة مصقولة مغسولة فى نهر من الفن المقدس . لغة غنية بالأضواء والظلال ، مليئة بالشحنات العاطفية ، بعيدة عن التبذير والثرثرة . وموقف الطيب صالح من الحوار فى هذه الرواية هو موقف نجيب محفوظ . انه يستعين بروح اللهجة العامية ويحافظ على الصياغة الفصيحة البسيطة ، لذلك تشعر وأنت تقرأ الرواية بالروح الشعبية الأصيلة ، دون أن تضيع فى غابات لهجة محلية صعبة معقدة .

ففى حديث على لسان محجوب أحد شخصيات الرواية يقول « للراوى » عندما حزن حزنا عميقا لانتحار حسنة بنت محمود :

« يا للعجب ، يابنى آدم أصح لنفسك ، عد لصوابك، أصبحت عاشقا آخر الزمن . جننت مثل ود الريس . المدارس والتعليم رهفت قلبك ، تبكى كالنساء ، أما والله عجايب . حب ومرض وبكاء ، انها لم تكن تساوى مليما، لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن ، كنا نرميها فى البحر، ونترك جثتها للصقور » .

وهذا نموذج للحوار الفصيح الذى يحمل الكثير من الروح الشعبية ، بل وحتى من الصياغات الشعبية بعد قليل من الصقل والتعديل . وفى هذه الرواية قدرة خارقة على الوصف ، فالقرية الافريقية مرسومة فى هذه الرواية بريشة عبقرية ، انك تحس بها لوحة حية نادرة

بكل ما فيها من بشر وحيـــوانات ونباتات وليال مقمرة وليال مظلمة ، أن هذا كله يتحــرك ويصرخ من فرط حيويته وحرارته

وفى الرواية شاعرية شاعر كبير ، أدواته الفنية في منتهي الطاعة لرؤاه الفنية الفياضة .

ولنقف أمام بعض النماذج والمقاطع المختلفة من هــذه الرواية ، فسوف نرى فيهــا قدرة الكاتب الفنــان على الوصف ، وسوف نلمس بين السطور شــاعرية أصيلة نادرة وصياغة فنية للأسلوب العربى ... لا شك أنها صياغة منفردة بشخصيتها الخاصة ... وهى صياغة قادرة على أن تمنح صاحبها مكانا بارزا بين كبار أصحاب الأساليب العربية اللامعين .

يقول الطيب فى وصفه للصحراء :

« هــذه الأرض لا تنبت الا الأنبياء . هــذا القحط لا تداويه الا السماء . هذه أرض اليأس والشعر » .

ويقول الطيب عن الصحراء أيضا :

« تحت هذه السماء الرحيمة الجميلة أحس أننا جميعا اخوة . الذى يسكر والذى يصلى والذى يسرق والذى يزنى والذى يقاتل والذى يقتل . الينبوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور فى خلد الاله . لعله لا يبالى . لعله ليس غاضبا . فى ليلة مثل هذه تحس أنك تستطيع أن ترقى الى السماء على سلم من الحبــال . هــذه أرض الشعر والممكن وابنتى اسمها آمال . سنهدم وسنبنى وستخضع الشمس ذاتهــا لارادتنا وســنهزم الفقــر بأى وسيلة . السواق الذى كان صامتا طول اليوم قد ارتفعت عقيرته بالغناء ، صوت عذب سلسبيل لا تحسب أنه صوته .. يغنى لسنيارته كما كان الشعراء فى الزمن القديم يغنون لجمالهم » .

وعندما كان مصطفى سعيد بطل الرواية يحاكم في لندن وقف يقول ، وما أروع ما يقوله الفنان على لسان بطله :

« انني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ، وقعقعة سنابك خيل « اللنبي » وهي تطأ ارض القدس . البواخر مخرت عرض النيل مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد انشئت اصلا لنقل الجنود ، وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم . انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الأوروبى الأكبر الذى لم يشهد العالم مثيله من قبل ، جرثومة مرض فتاك اصابهم أكثر من ألف عام : نعم ياسادتى اننى جئتكم غازيا في عقر داركم . قطرة من السم الذى حقنتم به شرايين التاريخ . أنا لست عطيلا . عطيل كان أكذوبة » .

وعلى لسان محجوب أحد شخصيات الرواية يقول عن البطل مصطفى سعيد :

« تريد أن تعرف حقيقة مصطفى سعيد ؟ مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبى الله الخضر يظهر فجأة ويغيب فجأة . والكنوز التى في هذه الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان الى هنا . وأنت عندك مفتاح . افتح ياسمسم ودعنا نفرق الذهب والجواهر على الناس » .

والنموذج الأخير الذى أود أن أقدمه هنا هو وصف الراوى لجده العجوز الذى يقترب من المائة :

« يا للغرابة يا للسخرية . الانسان لمجرد أنه خلق عند خط الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبدا وبعضهم يعتبرونه الها . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ .. وجدى بصوته النحيل وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته أين وضعه في هذا البساط الأحمدى ؟ هل هو حقيقة كما أزعم أنا وكما يبدو هو ؟ هل هو فوق هذه الفوضى ؟

لا أدرى . ولكنه بقى على أى حال رغم الأوبئة وفساد الحكام وقسوة الطبيعة ، وأنا موقن أن الموت حين يبرز له سيبتسم هو فى وجه الموت » .

هذه النماذج كلها تكشف لنا ما فى حوار الطيب صالح وأسلوبه وتصويره للشخصيات والمواقف من عذوبة وخصوبة وغنى فنى وفكرى عظيم .

وفى الرواية فوق ذلك كله امتزاج خصب أصيل بين فضائل الرواية التقليدية مثل التصوير الدقيق العميق للشخصيات وخلق الحكاية الممتعة التى تشد الأنفاس حتى النهاية ، وفضائل الرواية الحديثة التى تعتمد على تصوير الأحلام والعالم الداخلى للانسان . لقد استخدم الطيب صالح فى روايته جميع الأساليب المناسبة فى مزيج فنى سليم خصب وأصيل . ولذلك جاءت روايته فى النهاية رواية عصرية من ناحية ، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائى العربى والعالمى معا . انها بعبارات أخرى « رواية عربية متطورة » تمثل خطوة جديدة فى أدبنا الروائى ، بل وتفتح فى تاريخ الرواية العربية صفحة جديدة مشرقة ... انها علامة من علامات الطريق فى أدبنا العربى المعاصر .

وقد تصطدم هذه الرواية فى النهاية ببعض البيئات الأدبية المحافظة ، وذلك بسبب بعض الفقرات التى تتحدث عن الجنس ، ورغم ان الرواية سوف تحتفظ بجانب كبير من قيمتها لو استغنت عن هذه الفقرات ، الا انها بالتأكيد سوف تفقد شيئا جوهريا .. سوف تفقد ما فيها من صدق وحرارة ، وسوف تفقد ما فيها من طعم لاذع لاسع مر . ان هذه الرواية رغم صراحتها وجرأتها قد عالجت الجنس كجزء أساسى من بناء الرواية ونبضها الفنى والانسانى ، وهذا ما يعطى لهذه الرواية الفذة كل

الحق فى أن تبقي نصا كاملا لا يتصرف فيه أحد حتى ولا كاتبه نفسه .

ان رواية « موسم الهجرة الى الشمال » تعتبر من انضج نماذج الرواية العربية ، بل والرواية العالمية أيضا فى معالجتها لموضوع الجنس . انها تواجه هذا الموضوع بجرأة فنية « بدائية » ولكنها شديدة الصدق والاصالة ، فالرواية رغم جرأتها لا تستسلم أبدا لموضوع الجنس . ان الجنس فى هذه الرواية عنصر من عناصرها ، يخدم العمل الفني ، وتظهر المواقف الجنسية طبيعية فى موضعها من الرواية وفى تعبيرها عن ضرورة فنية وموضوعية ، ومن واجب حيـــاتنا الأدبية أن تقـــابل هذا الموقف بجرأة وشجاعة ، ولا يجوز أن نخفى رؤوسنا فى الرمال .. فنجعل حـراما على أدبائنا ما ليس حـراما على غيرهم ونمنعهم من أن يقتربوا من موضوع الجنس اذا دعاهم الى ذلك فنهم وفكرهم وصدقهم مع الفن والحياة ، والواجب ـ هنا أن تتحقق حريتنا الفكرية والفنية بمواجهة الحقيقة لا بالهروب منها ، ولو استطاعت حياتنا الفنية أن تهضم الفقرات الجنسية من رواية الطيب صالح بدون مضض أو امتعاض ، فانها بذلك تكون قد خطت مائة سنة أدبية الى الأمام ... وانى لأتمنى أن يحدث هذا تماما .

بقيت ملاحظة مؤسفة هى أن هذه الرواية العظيمة لم تنشر الا فى عدد واحد سابق من مجلة « حوار » التى كانت تصدر فى بيروت ، ثم عصفت بها رياح الفكر الوطنى الحر حيث كانت هذه المجلة تمثل منظمة حرية الثقـــافة العالمية ، التى تستمد التمويل والتوجيه من المخـــابرات

(*) بعد كتابة هذا المقال بفترة نشرت سلسلة « روايات الهلال » رواية موسم الهجرة للشـــمال ثم نشرتها بعد ذلك دار العودة فى بيروت وطبعتها اكثر من طبعة واحدة

الامريكية . ولست أشك فى أن الطيب صالح لا علاقة له بالمنظمة العالمية لحرية الثقافة ، فهو ــ كما تقول روايته فى كل حرف منها ــ عبقرية عربية تنبض بوطنية صحيحة غير مريضة ولا ملتوية ، واذا كان من المؤسف أن هــذه الرواية لم تنشر الا فى مجلة حوار، فاننى أتمنى أن تنشرها دار نشر عربية فى القاهرة أو فى بيروت بنصها الكامل فى اقرب وقت وتقدمها الى القراء العرب فى كل مكان لكى يلمسوا بعقولهم وعواطفهم ميلاد عبقرية جديدة فى سماء الرواية العربية ، ولكى يشهدوا هذه الصفحة الجــديدة المشرقة التى يفتحها فى تاريخ الأدب العربى هذا الشاب الافريقى الذى شرب من ماء النيل ، ولم ينس لونه ولا طعمه عندما سافر الى لندن وشرب من مياه « التاميز » الانجليزى ، بل بقى افريقيا وعربيا وانسانا وفيا لجذوره الأصيلة .

مع نجيب محفوظ

-١-
ألوان من المأساة

أى قراءة سريعة لادب نجيب محفوظ تؤدى على الفور الى الشعور بأنه أدب تراجيدى ـ أو أدب يعبر عن مأساة عنيفة كبيرة .

فما هى هذه المأساة التى طبعت أدب هذا الفنـــان بطابعها الخـــاص ؟ ان نجيب محفوظ من هؤلاء الفنـــانين الكبار الذين تنجبهم الحياة ، وكأنها تريد بظهورهم أن تحافظ على وجودها ، فلو لم يوجد نجيب محفوظ ، لما أتيح للمجتمع الحديث فى مصر أن يجد تسجيلا لعواطفه وأزماته وتطوراته الروحيـــة بكل هـــذه الخصوبة وهذا العمق ، ان نجيب محفوظ فى هذا المجال قريب الشبه من « بلزاك » الذى قال عنه أحد النقاد يوما انه استطاع أن يصور فرنسا أكثر مما استطاعت كتب المؤرخين أن تفعل ، وأن القارىء يستطيع أن يفهم فرنسا من رواياته أكثر مما يستطيع أن يفهمها من كتب المؤرخين .

وهذا الكلام نفسه ينطبق على مصر ونجيب محفوظ .. ومما لا شك فيه أن مصر الحديثة لا يمكن فهمها فهما صحيحا بدون قراءة نجيب محفـــوظ . ولذلك سيظل نجيب محفوظ مصدرا من المصادر الاساسية لدراســـة مصر وفهمها وتذوقها خلال هـــذه المرحلة بكل مشـــاكلها الاجتماعية والنفسية . تمـــاما كمـــا كان بلزاك مصـــدرا

اساسيا لفهم فرنسا فى القرن التاسع عشر .

وقد بدأ نجيب محفوظ الكتابة سنة ١٩٣٢ وتخرج من الجامعة سنة ١٩٣٤ وكان أول انتاجه كتابا مترجما عن مصر القديمة وقد ترجم هذا الكتاب بايحاء وتوجيه من أول اساتذته وأهمهم : سلامة موسى ، وأصدر نجيب روايته الاولى « عبث الإقدار » سنة ١٩٣٩ .

وأى تفكير فى بيئة نجيب محفوظ وشخصيته الفنية يفسر لنا اتجاهه الى المأساة فى أدبه ، فنجيب ولد ونشأ فى القاهرة ، وولد ونشأ فى الطبقة الوسطى الصغيرة ، وعاش فرداً من افراد هذه الطبقة ، ومعظم رواياته وخاصة فى مرحلته الفنية الأولى مكتوبة عن هذه الطبقة .

والطبقة الوسطى دخلت الى قلب المجتمع المصرى دخولا قويا بعد قيام ثورة ١٩١٩ . وكانت هذه الثورة بقيادة الطبقة الوسطى حتى أطلق عليها البعض اسم « ثورة الأفندية » لأنها ليست أساسا ثورة الفلاحين ، وأولاد البلد ، أو العمال الذين كانوا طبقة ضعيفة جدا فى ذلك الوقت .

وكانت ثورة ١٩١٩ من وجهة نظر هذه الطبقة الوسطى ناجحة .. ولنترك نجيب محفوظ قليلا لنتحدث عن هذه الطبقة التى حملت بذرة المأساة الى أدب هذا الفنان ، فقد فتحت ثورة ١٩١٩ أبواب الوظائف والمناصب الحكومية أمام أبناء الطبقة الوسطى ، بعد أن كانت معظم هذه الوظائف فى يد الأجانب وبخاصة الانجليز ، ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن وزارة سعد زغلول التى تولت الحكم بعد اجراء أول انتخابات برلمانية سنة ١٩٢٤ ، وذلك كثمرة أولى لثورة ١٩١٩ :

« ان وزارة سعد زغلول قد وضعت الموظفين الأجانب وبخاصة الانجليز عند حدهم وتضاءلت سلطتهم فى عهدها

.. وقد رفض سعد زغلول تجديد عقد السير موريس شلسدون ايموس المستشار القضائى البريطانى بوزارة الحقانيه ، الذي انتهت مدته فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وطلبت دار المندوب السامي من الوزارة تجديد عقده ولكن سعدا رفض هذا التجديد وكان موقفه بذلك مشرفا » .

هذا المثل الذى يذكره الرافعى هو مجرد مثل واحد من مواقف حكومة سعد زغلول التى فتحت الطريق أمام الطبقة المتوسطة المصرية حتى تحتل الوظائف المختلفة ، وتجد لنفسها مكانا فى مركز القوة من هذا المجتمع بعد أن كانت ضعيفة لا مكان لها أمام النفوذ الأجنبى ، ثم بدأت هذه الطبقة تتضخم فأخرجت المدارس والجامعات عددا كبيرا من أبنائها احتل مكانه فى دواوين الحكومة المختلفة .

ولكن سرعان ما وقعت هذه الطبقة فى ازمة كبيرة ، وبدأت الأمراض النفسية والاجتماعية المختلفة تغزوها من كل جانب .

ولعل أول مظهر واضح لمأساة هذه الطبقة كان فى سنوات الأزمة الاقتصادية الشهيرة ما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ . فقد تعرض المجتمع كله فى هذه الفترة لأزمة خانقة تجرع آلامها كل فرد من افراد الشعب ، ولكن الطبقة الوسطى على الخصوص عانت من هذه الازمة عناء شديدا . فقد كثر المتعطلون بين أبنائها بعد أن أغلقت الحكومة ـ تحت ضغط الأزمة ـ باب الوظائف العامة ، وأصبح الموظفون مهددين بقطع رواتبهم الضئيلة والتى لم تكن تكفى فى قلب هذه الأزمة للحصول على القوت .

ومن يومها والطبقة الوسطى تتعثر فى آلامها وأمراضها وتتلقى الضربات المتتالية مثل قيام الحرب الثانية ، وما صاحبها وتبعها من مشاكل وأزمات .

وفى قلب أزمة ١٩٣٠ – ١٩٣٤ بالذات ظهر تجيب

محفوظ . ولم يكن قادرا على تجاهل هذه الأزمة بحكم نشأته ثم بحكم طبيعته الفنيـــة التى جعلته شـــديد الحساسية لما يقع حوله من أحــداث وتطورات . وكيف يتجاهل هذه الأزمة وهو يراها كل لحظة متجسدة فى الناس الذين يعيش معهم ويتصل بهم ويعرفهم .

تلك هى المأساة التى أحسها نجيب محفوظ . فأعطت لأدبه هذه المسحة « التراجيدية » العنيفة . فالمأساة التى يصورها نجيب محفوظ هى غالبا مأساة الطبقة الوسطى ممثلة فى نماذج انسانية مختلفة من أبناء هذه الطبقة .

ولذلك فان جذور المأساة التى عبر عنها نجيب تمتد الى واقع الطبقة الوسطى وظروفها القاسية .

واول صور للمأساة ــ كما يعبر عنها نجيب محفوظ ــ هى صورة هؤلاء الذين يحاولون الصعود الى أعلى فكثير من أفراد الطبقة الوسطى يملأهم القلق والطموح ، وهم يحاولون دائما الارتفاع عن مستواهم الاجتماعى . مثال ذلك حسنين بطل رواية « بداية ونهاية » .. انه يحاول محاولة عنيفة أن ينتقل من الطبقة الوسطى الصغيرة الى الطبقة الوسطى الـكبيرة ، وليس هنــاك امكانيات مادية طبيعية تساعده على ذلك ، ومن هنا فقد أصبح على أسرته كلها أن تعمل لكى يحقق أهدافه ، فهو يستعين بشقيقه تاجر المخدرات ، ويستعين بأخته الخياطة ليصرفا عليه حتى يصبح ضابطا ، وتسقط أختــه وتفقد شرفهــا فى معركتها القاسية الجافة من أجل الحياة ، ويتعطل أخوه الثانى عن التعليم ويعمل موظفا صغيرا ليساعد الأسرة . ثم يتخلص « حسنين » من خطيبته الأولى بنت الجيران « بهية » ، لأنه يطمع فى الزواج من بنت أحد البكوات حتى ينتسب بذلك الى طبقة أعلى من طبقته . ولكن كل شىء ينهار لأن الحقيقة تنكشف فجاة .. فكل ما وصل

اليه حسنين يمد جذوره فى شرف أخته وسمعة أخيه الأكبر وتضحيات أخيه الأوسط . وانتهت أحلامه عندما اكتشف أن أخته قد تحولت الى بغى وأن أخاه مهدد بالاعتقال بتهمة التجارة فى المخدرات . وأخيرا انتحر هذا الضابط بعد أن اكتشف الحقيقة المفزعة فى طريقه للوصول الى طبقة أعلى .

وهناك آخرون لاينتحرون ، وانما يعيشون حياة الهوان والانحطاط المعنوى فى سبيل وصولهم الى طبقة أعلى مثل محجوب عبد الدايم بطل رواية «القاهرة الجديدة» الذى وصل الى منصبه الكبير كسكرتير لاحد الوزراء عن طريق التفريط فى شرفه تفريطا مهينا فظيعا ، حيث تزوج من عشيقة أحد الوزراء ليكون ستارا شكليا للعلاقة بين الوزير وعشيقته .

وهذه النماذج التى صورها نجيب محفوظ ترسم لنا بقوة صورة لمجتمع تنعدم فيه الفرص المتكافئة ، وتقوم الحياة فيه على التنافس الطبقى المرير . ولا يستطيع الانسان فيه أن يتقدم خطوة الى الأمام بدون أن يدفع ثمنا غاليا رهيبا ، انه لا يتقدم الا على جثث الآخرين ، أو هو يتقدم بالتنازل المستمر عن كل شىء وأى شىء حتى عن شرفه وعرضه . والذين يحاولون الصعود الى أعلى فى روايات نجيب يكشفون عن مأساة ذاتية يعيشون فيها ، ولكنهم فى نفس الوقت يكشفون عن مأساة مجتمع بأكمله . انهم يعيشون فى مجتمع « الاسماك » التى يأكل بعضها بعضا بلا رحمة . مجتمع لاقيمة فيه الا للنجاح بأى ثمن حتى لو كان هذا الثمن هو الانتهازية الصارخة ، وحتى لو كان الثمن هو عرض الاخت والزوجة والخياة فى الطين بلا مبدأ ولا ضمير .

وهذه الصورة من صور المأساة كما رسمها نجيب محفوظ ، تتصل بها صورة أخرى يمكن أن نسميها مأساة

« الضعف الاقتصادى » فعندما يكون الشخص ضعيفا من الناحية الاقتصادية يكون قابلا لان يتشكل حسب ارادة من هو اقوى منه اقتصاديا ، حتى ولو كان هـذا الشكل الجديد غير انسانى وغير مقبول . وبالطبع عندما نفكر فى هذه الصورة نتذكر على الفور مأساة « حميدة » بطلة « زقاق المدق » فهى فتاة من بنات الشعب جميلة ورقيقة ولكنها فقيرة ولا تملك مايحمى حياتها أو يسند هذه الحياة والشاب الذى يحبها ـ عباس الحلو ـ لايملك شيئا لحماية نفسه وحماية حبيبته . ولكى يملك شيئا يسيرا فعليه أن يبتعد عنها سنوات ليعود اليها بعد ذلك وفى يديه قليل من المال . فماذا تفعل الفتاة خلال هذه الفترة ؟ انهـــا ولاشك تذهب فريسة سهلة لمن يملك المـــال ، لمن يملك الحماية والرعاية ، وعليها بالطبع أن تتشكل حسب ارادة صاحب القوة الاقتصادية .

وهكذا تحولت حميدة الى بغى وراقصة رخيصـــة فى احد « البارات » بعد أن كانت فتـاة رقيقة تحتل مكانا كبيرا فى قلب حبيبها « عباس الحلو » وفى حياته . ولكن ماذا تملك من أمر نفسها . ان الرجل الذى قادها الى الانحراف لم يكن يحمل لها عاطفة ولكنه كان يحمل لهـــا مالا . أما حبيبها فكان يحمل العاطفة ولايحمل المال .

وليست هذه قصة « حميدة » فقط ، بل هى مأساة الانسان فى أى مجتمع لايعطيه فرصة للحياة الســليمة الطبيعية فيحرمه من أى قوة اقتصادية ، بينما يعطى هذه القوة لمجموعة من الاشرار المنحرفين الذين يريدون اللهو والاستمتاع والاحتفاظ بامتيازاتهم الخاصـــة ولا يريدون للانسان أى خير .

فحيثما كان هناك « ضعف اقتصادى » فان المأســـاة الانسانية تطل براسها وبصورة لاتعرف الرحمة ، وبالطبع

فان الضعف الاقتصادى يعنى أيضا التفاوت الاقتصادى الفادح بين الناس ، واستغلال طبقة لطبقة وما الى ذلك .

ويلوح للبعض أن « حميدة » فى زقاق المدق ، ليست مجرد شخصية نسائية عادية .. بل هى رمز لمصر كلها .. ومأساتها هى مأساة مصر .. وفى اعتقادى أن هذا التفسير يبدو معقولا الى حد بعيد ، كما شرحت ذلك فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ، وقد وقعت أحداث « زقاق المدق» أثناء الحرب العالمية الثانية . ومن الممكن جدا أن يكون نجيب محفوظ قد رمز بمأساة حميدة الى مأساة مصر ، ورمز بسقوطها وانحلالها الى سقوط مصر وانحلالها فى تلك الفترة . والقانون الذى ينطبق على مأساة حميدة ينطبق هو نفسه على مأساة مصر .. فقد سقطت حميدة لضعفها الاقتصادى الشنيع . وسقطت مصر أيضا لنفس السبب .. لقد كانت منهارة اقتصاديا ، مما جعل الانجليز يسيطرون عليها ــ فى تلك الفترة ويحددون لها شخصيتها وسلوكها . وقد وصف أحد الزعماء العالميين مصر فى ذلك الحين ــ أثناء الحرب الثانية ــ وصفا جارحا فقال « ان مصر مستعدة أن تبيع وتبيع وتبيع أى شىء وكل شىء .. انها منهارة ولا قيمة لشىء فيها » .. وهذا الوصف نفسه ينطبق تماما على حميدة .

نتنقل بعد ذلك الى صورة ثالثة من صور المأساة كما يرسمها نجيب محفوظ فى أدبه وهذه الصورة مستمدة أيضا من حياة الطبقة الوسطى .. ويمكننا أن نقول عن هذه الصورة أنها « مأساة المثقفين » .. فالمثقفون الذين يصورهم نجيب محفوظ يعيشون فى تناقض عنيف هو سبب رئيسى للمأساة فى حياتهم ، فهم يتمتعون بوعى يرفعهم عن الواقع فيرفضون كثيرا من القيم المعروفة التى يهتدى بها الناس ، ويندفعون فى هذا الرفض حتى ينتهى

بهم الامر الى الانفصال عن الواقع ، ومن ناحية اخرى فهم لا يستطيعون تغيير الواقع بحيث يتلاءم مع افكارهم والنتيجة الوحيدة هى أنهم ينعزلون ويذبلون بعيدا عن « الحياة » التقليدية التى تمضى فى طريقها دون أن تستجيب لهم ، أو تهتم بمطالبهم ، ولذلك فهم غالبا ما يعيشون فى جدب عاطفى ، فكثيرون منهم لا يتزوجون ولا يرتبطون ارتباطا عميقا بالحياة الواقعية . ويكتفون بالحياة فى داخل مشاعرهم وأفكارهم الخاصة ، وبذلك تقع مأساة الجفاف والغربة والوحدة فى حياتهم .

وأبرز مثال للمثقف عند نجيب محفوظ هو شخصية « كمال عبد الجواد » فى ثلاثية « بين القصرين » .. لقد نشأ هذا الشاب فى بيئة دينية، ولكنه آمن بنظرية داروين فوقع بينه وبين بيئته انشقاق وتصدع هائلان ، ثم أحب فتاة من طبقة أعلى كانت بتربيتها وثقافتها أقرب الى روحه وعقله .. ولكنها لم تكن تهتم به ، بل كانت تفكر فى انسان يلائمها : من طبقتها ومستواها الاجتماعى ... وقد رفض كمال بالطبع أن يتزوج بأسلوب أخيه «ياسين» دون أن يعرف زوجته معرفة عميقة ، لان كمال ثائر على هذه التقاليد بينما « ياسين » متلائم معها موافق عليها .. ولان كمال مثقف فقد تكونت لديه نظرة مثالية عميقة : اما كل شىء أو لا شىء أبدا ، ولا وسط بين الاثنين ، ولذلك ظلت صدمته العاطفية مسيطرة عليه حتى النهاية ، فعاش بلا زوجة ولا حب ولا علاقات عميقة مع الناس .

وهناك رأى ـ لاشك أنه على جانب من الصواب ـ يقول ان « كمال عبد الجواد » يحمل كثيرا من ملامح نجيب محفوظ نفسه .

والمثال الثانى لهذه المأساة ، مأساة المثقفين ، عند نجيب محفوظ هو « أحمد عاكف » أحد أبطال روايته

« خان الخليلي » .. فهو أيضا أحب وصدم فى حبه .
وهو أيضا منعزل غير متلائم مع الواقع .. وحيد غريب شديد البؤس والضياع .

وهذا النوع من المثقفين ليس من النوع الثائر الذى يحاول أن يفرض رأيه على الواقع .. إن مأساته هى انه « يعرف ويعى » .. ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى سبيل معرفته ووعيه .. انه لايحصل بثقافته حتى على الاطمئنان الداخلى .. كل مايحدث له هو أن يصبح مثل الغصن المكسور من شجرة كبيرة لا تحس به . ان هذا النوع هو المثقف « اللامنتمى » .

وهذا النوع من المثقفين أقرب فى تركيبه النفسى الى « هاملت » .. ذلك الذى يعرف الكثير ولكنه لايستطيع أن يفعل شيئا .. انه يفكر ويحس بعمق ولكنه يعجز عن القيام بعمل واحد . ومما يضيف الى هذه المأساة عمقا جديدا ، أن نجيب محفوظ لايصور الحياة بمنظار المؤرخ ولكنه مؤرخ وفنان فى نفس الوقت ، المؤرخ فيه يتأثر ويهتم بتطور المجتمع وانتقاله من أوضاع قديمة الى أوضاع جديدة .. ولو اكتفى نجيب بهذه النظرة لما كان هنالك دافع للحزن أو الاحساس بمأساة ما . ولكن الفنان فيه ، وهو الاقوى والأعمق ، يهتم بآلام « الانسان الفرد » انه يحسب حسابا كبيرا للثمن الذى يتحقق به التطور وهو ثمن يدفعه الأنسان . وخاصة هؤلاء الذين يسبقون غيرهم فى الطريق الى المستقبل ، والى مواقف جديدة وتقاليد جديدة ، وهؤلاء المثقفون بالذات هم الذين يشقون الطريق الى المستقبل . انهم العلامات الاولى التى تدل على مستقبل مختلف تماما عن الواقع القائم ، وهم لذلك نباتات شاذة وحيدة ، تظهر ثم تذبل وتموت . انهم يمثلون التجربة الاولى للتطور . وهم يدفعون ثمن هذه التجربة المريرة .

وهذه هى المأساة كما صورها نجيب فى حياة هذا النوع من المثقفين . انها مأساة التناقض بين تطور المجتمع والثمن المرير الذى يدفعه الفرد لهذا التطور .

هذه كلها صور من المأساة التى رسمها نجيب محفوظ فى أدبه ، وكلها فى النهاية صور لها جذورها فى مشاكل المجتمع والوان الصراع الدائرة فيه . فهل « المأساة » فى نظر نجيب محفوظ « مأساة اجتماعية » فقط ؟ هل هى مأساة السقوط والانهيار فى حياة الطبقة الوسطى فقط ؟ أليس هناك قوة أخرى فى هذا العالم تتحكم فى مصير الانسان غير الظروف الاجتماعية ثم الزمن أو التطور ؟

أليس هناك فى نظر هذا الفنان الكبير قوى أخرى تؤثر فى المصير البشرى ؟ فى اعتقادى أن نجيب محفوظ لو اقتصر على تفسير « المأساة الانسانية » على أنها مأساة تصنعها حركة الزمن أو التطور أو الواقع فى حياة الانسان ، لكان بذلك فنانا محدود الاحساس بالحياة .

ان الحياة مهما وضعنا لها من القوانين وفسرناها بأقصى مانستطيع من معرفة تظل خاضعة لعنصر مازال غامضا علينا ، وإذا كان هذا العنصر غامضا فى مصدره ، فهو واضح الاثر فى نتائجه . ونحن نسمى هذا العنصر ، أحيانا باسم « القدر » وأحيانا باسم « المصادفة » وأحيانا نطلق عليه أسماء أخرى مختلفة . وقد أحس نجيب محفوظ بدور هذا العنصر فى مأساة الانسان وعبر عنه .

ففى قصته المعروفة « اللص والكلاب » تلعب المصادفة السيئة دورها فى مأساة البطل « سعيد مهران » انه يحاول أن يقتل اعداءه ، فيوفق فى القتل ولكن الاعداء يفلتون منه ويصاب الابرياء بالسوء . وهكذا يقع البطل فى سوء حظ مرير لا مهرب منه ، حتى تحل به الكارثة الاخيرة دون أن يشفى روحه ودون أن يخدش الذين صنعوا مأساته من

البداية . بل تحل به الكارثة وهو يحمل احساسا عميقا بالذنب ، لانه قتل عددا من الابرياء ، ولعل دور المصادفة هنا هو التأكيد على أن التمرد الفردى الذى يمثله سعيد مهران لا فائدة منه ، وأن أهداف سعيد مهران لا تتحقق الا بالثورة العامة الشاملة

وفى الثلاثية يموت فهمى ، الشاب الوطنى المتحمس فى احدى المظاهرات ولكنه لايموت فى تلك المظاهرات العنيفة ضد الانجليز . بل يموت فى مظاهرة سلمية سمح بها الانجليز أنفسهم . انه القدر ، أو المصادفة . تلك القوة الكبيرة التى تواجه المصير الانسانى حيث لا يتوقعها أحد . وتخلق المأساة ربما فى اللحظة التى يتصور الانسان أنه قد حصل فيها على الخلاص والنجاة .

هذه هى القوة الغامضة التى تتربص بالمصير الانسانى وتساهم مساهمة واضحة فى صنع مأساته ، وهذه القوة الغامضة تقف الى جانب القوى الاخرى الواضحة التى اشرنا اليها فى أول هذا الفصل .

على أن هذا التحليل لمعنى المأساة فى أدب نجيب ينطبق فى معظمه على المرحلة الاجتماعية فى ادب نجيب محفوظ والتى تبدأ بروايةخان الخليلىوتنتهى بثلاثية بينالقصرين وقد بقيت ملامح هذه المأساة فى المرحلة التالية التى تبدأ من قصة « أولاد حارتنا » . . ولكن المرحلة الجديدة حملت معها اضافات جديدة فى فهم نجيب محفوظ لمأساة الانسان واحساسه بها .

- ٢ -

الواقعية الوجودية

فى السمان والخريف

بعد أن أصدر نجيب محفوظ ثلاثيته « بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية » كنت من الذين يعتقدون أن نجيب محفوظ انتهى أدبيا وأدى رسالته ، ولست أدرى بالضبط من أين جاءنى هذا الاعتقاد ، ولكنه على أى حال كان اعتقادا يعيش فى حياتنا الادبية كما تعيش « الاشاعة القوية » .. بل مازال هناك من يقول بهذا الرأى الى الان. أما أنا فقد تغير هذا الاعتقاد فى نفسى منذ أن بدأت أتابع انتاج نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، لقد أدركت أن شيئا جديدا يولد فى قلب هذا الفنان وعقله ، وأن هذا الشىء آخذ فى الظهور يوما بعد يوم فى أدبه. ولم يكن هذا الشىء الجديد واضـــــحا أمامى عندما قرات روايته « اللص والكلاب » ولكنه ازداد وضوحا ودقة بعد أن قرأت روايته التالية « السمان والخريف » .

لقد تطور نجيب محفوظ فى أسلوبه وتطور فى نظرته الى الحياة وموقفه منها . ولم تعد الكلمات عنده تحمل معنى واحدا محددا كما كان الامر فى انتاجه القديم . بل أصبحت كلماته تعكس كثيرا من المعانى فى النفس ، كأنها كلمـــات شعرية مليئة بالظلال والايحاءات ، وذلك كله على عـــكس أسلوبه القديم الذى كان فى معظمه أسلوبا تقريريا خاليا ـ على التقريب ـ من روح الشعر .

على أنني أود أن أتناول هنا نقطة رئيسية فى تطور نجيب محفوظ ، راجيا أن تكون مظاهر التطور الاخرى مجالا للدراسات التالية .

هذه النقطة الرئيسية هى أن نجيب محفوظ قد انتقل من النزعة الطبيعية التى سيطرت على انتاجه حتى الثلاثية الى شىء جديد لا أجد اصطلاحا نقديا ينطبق عليه بدقة ، ولكننى سأسمح لنفسى بأن أسميه باسم « الواقعية الوجودية » وهذا التطور من الناحية الفنية قد حمل معه تطورا آخر يسير الى جانبه وينبع منه . فقد انتقل نجيب محفوظ من « المحلية » وبدأ يخطو خطوات أولى فى طريق المشكلة الانسانية العامة وبعبارة أخرى بدأ يسير فى طريق « النزعة العالمية » .

ولنقف قليلا لنتأمل بوضوح أكثر معنى هذا التطور . فالمرحلة الأولى فى أدب نجيب محفوظ — والتى انتهت بظهور الثلاثية — هى المرحلة التى التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعى . كان نجيب — فى هذه المرحلة — يرسم أبطاله رسما تفصليا لا يترك كبيرة ولا صغيرة تتصل بهم دون أن يسجلها . كان يرسمهم من الخارج . ويكاد يحدد طول الشخص ووزنه وتركيبه العضوى الدقيق ، وهو بعد ذلك يرسمهم من الداخل فيحدد تركيبهم النفسى . كأنه فى أحد المعامل الكيميائية يحلل المواد الى أصولها الاولية، ويحدد نسب العناصر المشتركة فى تركيب هذه المواد .

وكان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية، وهو يذكرنا بأدباء هذه المدرسة المعروفين مثل « فلوبير » الذى قرأ فى المكتبة الوطنية بباريس ألف كتاب لكى يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية لاحد أعماله الروائية . ومثل « اميل زولا » الذى كان يحمل دفترا كبيرا يدون فيه ملاحظاته ، وكان يقضى أسابيع

طويلة متجولا بين المحلات التجارية والمصانع المختلفة لكي يجد نماذج لقصصه ويجمع الحوادث لهذه القصص ،ومثل بلزاك الذى كان يستأجر أسرة كاملة بايجار شهرى ليعيش بينها ويدرس على الطبيعة البيئة والشخصيات التى رسمها فى روايته « الاب جوريو » .

ونحن لانعرف ـ حتى الآن ـ كيف كان نجيب محفوظ يختار أبطاله ، فليس لدينا أى معلومات واضحة عن هذا الجانب الهام من شخصية نجيب محفوظ الفنية ، لا نعرف اذا كان يستوحى نماذجه من أبطال واقعيين يعيش معهم حياة مباشرة ويعاشرهم معاشرة دقيقة ، أم أنه كان يستوحى صورة هذه النماذج من تجاربه وذاكرته حيث كان يجد البذور الاولى للشخصية ثم يبنى عليها من خياله الفنى الخصب بعد ذلك مايريد من تصورات مختلفة ، لا أحد يعرف بالضبط هل كان نجيب يحمل « دفترا » مثل زولا ، أو كان يقرأ كتبا عن بيئاته التى يصورها كما كان يفعل فلوبير ، أو كان يستأجر أسرة مثلما كان يفعل بلزاك

هذه كلها أشياء غامضة نرجو أن توضحها لنا أبحاث من هذا النوع فى المستقبل ولكن الذى نعرفه بوضوح هو أن النتيجة التى وصل اليها نجيب محفوظ هى نفس النتيجة التى وصل اليها الطبيعيون .. فالشخصيات والبيئات التى صورها فى مرحلته التى انتهت بالثلاثية نجد نجيب يلتزم فى تصويرها أسلوب المدرسة الطبيعية التى تقوم على أساس من الدراسة الواسعة الدقيقة والمعرفة الشاملة بأدق التفاصيل .

هذا الاديب الطبيعى الذى يعنى بالتفاصيل كل هذه العناية « حمل عصاه ورحل » بعد الثلاثية ، وبدأ يسير فى طريق يبتعد عن أسلوبه الفنى القديم .

ففى رواية « السمان والخريف » نجد شخصيات

يرسمها نجيب محفوظ رسما عابرا دون أن يهتم بالتفاصيل والجزئيات ، فزوجة عيسى بطل الرواية لاتستغرق من اهتمامه أكثر من بضع صفحات . ولو أن هذه المرأة الثرية ، العاقر ، نصف المثقفة ، التى تزوجت اكثر من مرة .. لو أن هذه الشخصية وقعت فى يد نجيب محفوظ أيام كان يكتب « زقاق المدق » أو « بداية ونهاية» لتفنن فى عرضها وتقديمها ومتابعتها فى كل تفاصيل حياتها اليومية الدقيقة وفى أحوالها النفسية المختلفة وطريقة اجتذابها للرجال وتعويض مالديها من نقص ولكن نجيب فى « السمان والخريف » قد مر على هذه التفاصيل كلها مرا سريعا بحيث أنك تخرج من الرواية وقد نسيت كل شيء عنها ، ماعدا أنها تمثل فرصة من فرص بطل الرواية للتغلب على أزمته .

وهكذا ينتقل نجيب من النزعة الطبيعية ويبتعد عنها ؛ وهو فى الوقت نفسه ينتقل من الاهتمام بالتفاصيل الى الاهتمام بالمشاكل الكلية العامة . ويتحول من ذلك الفنان الذى كان همه أن يعطينا أدق صورة للبيئة المحلية التى نعيش فيها ، الى فنان يعرض ويناقش مشكلة انسانية عامة . تعنى البيئة المحلية كما تعنى البيئة الانسانية كلها

وهذا هو ما أعنيه بانتقال نجيب محفوظ من المحلية الى العالمية فى الوقت الذى ترك فيه مذهب الطبيعيين وبدأ يبحث لنفسه عن عالم جديد مختلف .

فالمشكلة التى يعالجها فى « السمان والخريف » لها شكلها المحلى الخاص ... ولكن هذا الشكل لايعدو أن يكون طلاء خارجيا لمشكلة انسانية عميقة تهز عصرنا كله ، تلك هى مشكلة الاحساس بالغربة أو عدم الانتماء أو الاحساس بأن الانسان ضائع مطرود من هذا العالم .

ان الصورة المحلية للقصة هى « ازمة عيسى » الحزبى

القديم الذى تلوث ولم يستطع أن يتلاءم مع العالم الجديد لانه من « الجيل الزائل » .. ولكن هذه الصورة تخفى وراءها الجانب الشامل الانساني العام .

فبطل القصة يعاني مأساة السقوط والخطيئة . لقد اخطأ فسقط ، كما أخطأ آدم وسقط من الجنة ، وأصبح عليه أن يلتمس طريقا للخلاص من خطيئته ولو من خلال الالم والعذاب . ان بطل القصة قد اخطأ خطيئته الكبرى وفقد بساطته وطهارته ، وهو يقول عن نفسه وحزبه :

« كنا حزب المثل الاعلى ، حزب التضحية والفداء ، حزب النزاهة المطلقة ، حزب : كلا ثم كلا أمام المغريات والتهديدات .. فكيف أدركت روحنا الطاهرة الشيخوخة ، كيف تدهورنا رويدا رويدا حتى فقدنا جميل مزايانا ؟ هانحن نقلب أيدينا فى الظلام ، يملأنا الشجن والشعور بالاثم فواحسرتاه » .

فالقصة فى حقيقتها قصة الانسان الذى أكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذى وقع فى الخطيئة وأسلمته الخطيئة لعذاب كبير ، فقد خرج من جنته السعيدة التى ظنها دائمة أبدية خالدة .. خرج الى حياة اخرى أصبح فيها منفيا زائدا عن الحاجة ، لا دور له .. يقول عيسى عن نفسه وعن زملائه :

« مع أى عمل سنتخذه .. سنظل بلا عمل ، لاننا بلا دور ، وهذا هو سر احساسنا بالنفى كالزائدة الدودية »

ولذلك فهو يحلم بالهجرة ، انه يريد أن يترك منفاه الى عالم آخر . لعله يجد له دورا فى الحياة . لعله ينتمى الى شىء ، وتطمئن روحه ، ويتخلص من « موت الاحيـــاء » الذى هو افظع ألف مرة من « موت الاموات » .. وهو يصارح نفسه بالحنين الى الهجرة التى ترمز رمزا قويا الى الرغبة فى الخلاص من المأساة التى يعيش فيها :

« تمني يوما لو كان للمصريين ــ كما لغيرهم ــ جاليه فى امريكا الجنوبيه ليهاجر اليها .. وقال ســـاخطا ان المصريين زواحف لا طيور .. وراوده حلم بتغيير جذرى فى حياته .. ولكنه لم يكن يفعل سوى العبث » .

هذه هى المأساه الوجوديه التى يعيش فيها البطل ، أو هذا هو جوهرها : الغربه والضياع والانفصال عن الواقع والرغبه فى الهجرة من « هذا الواقع » الذى أصبح منفى للانسان .

على أن نجيب محفوظ لايقف على سطح هذه المأساة الوجودية ، بل يندفع الى أعماقها ويصورها تصويرا مثيرا فى عدد آخر من المواقف .. على رأسها موقفان عنيفـان يؤكدان المعنى الوجودى لهذه المأساة .

أما الموقف الاول فيتضح أمامنا عندما يصرخ البطل فى داخله ، ومن خلال مرارة الشعور بالوحدة .. قائلالنفسه « ما أحوجنى الى مسكن » .. انه الشعور بالحاجة الى « الانتماء » ، بالحاجة الى التخلص من « العراء الروحى» هذا العراء القاسى الاليم الذى يعانيه الانسان عندما لايكون له فى الحياة فكره،أو هدف أو دور يقوم به عن وعى واقتناع عندما لايكون منتميا الى شىء ما .. عندما تصبح حيـاته مجرد انتظار للموت .

ومن الحقائق ذات الدلالة العميقة أن الشعور بالحاجة الى مسكن عند بطل « السمان والخريف » هو نفســه الشعور بالحاجة « الى المسكن » عند بطل قصة « اللص والكلاب » فعيسى بطل « السمان والخريف » وســعيد مهران بطل « اللص والكلاب » يبحثان عن مسكن،ويشعران بانهما ضائعان حقا ما داما لا يجدان هذا المسكن .. ألا يوحى الينا هذا الموقف ايحاء واضحا بأن نجيب محفوظ انمـا يرمز بالمسكن الى حاجة الانسان الى هدف يطمئن اليه ؛

وقاعدة ـ فى حياته الروحية ـ يستند عليها ، أن المسكن المعمود فى الروايتين هو رمز الازمه التى يعانيها الانسان الوحيد .. اللامنتمى .

اما الموقف الاحزن الذى يكشف لنا من ازمه الانسان فى صورتها الجديدة كما يتصورها نجيب محفوظ فهو أن ابنه « عيسى » بطل « السمان والخريف » تنكره ولا تعرفه ، وهذه هى نفسها الازمة التى عاشها من قبل سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » فابنته ـ أيضا تنكره ولاتعرفه ـ بل وتخاف منه .

ويمكننا أن نتأمل هذا الموقف المفزع طويلا .. فما معنى هذه الصورة التى تلح على وجدان نجيب محفوظ ... صورة انكار الابنه للاب ، ولماذا تكررت فى روايتين متتابعتين

ان هذه الصورة ـ فى اعتقادى ـ ترمز الى شىء كبير نعيش فى وجدان هذا الفنان .. انها يمكن أن تدلنا على أن جانبا من مأساة الانسان فى نظر هذا الفنان هو أن الاسرة قد تفككت حتى أنكرت الابنة اباها .. وأن المأساة الانسانية المعاصرة أشبه بالصورة الدينية ليوم القيامة . حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، أن الانسان قد أصبح وحيداً ، لا يجد الدفء حتى فى أسرته ، انه منفى حتى من الاسرة ، كما نفى الانسان الاول من جنته .

وهذا المعنى الانسانى الكبير ليس هو المعنى الوحيد الذى تحتمله هذه الصورة المفزعة ، فهناك معنى آخر كثيرا مانقراه بين السطور فى أعمال نجيب محفوظ الاخيرة ، بل ان هذا المعنى بالذات له جذور فى أعماله الاولى ، ذلك هو أن التطور ـ رغم أنه حركة انسانية ـ كثيرا مايحمل فى طريقه آلاما عنيفة ، فانكار الابنة للاب يمكن أن يكون تعبيرا عن آلام التطور ومآسيه . حيث ينكر الجديد القديم وخاصة فى تلك المراحل العنيفة للتغيير والتطور . والقرن

العشرين من أبرز مراحل التغيير فى تاريخ الانسان ،) بل يكاد نجيب محفوظ يعبر تعبيرا مباشرا عن هذا الجانب العنيف للتطور عندما يقول عن بطل السمان والخريف :

« أيقن الآن انه قضى عليه أن يعانى التاريخ فى احدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يثب وثبة خطيرة مخلوقاته التى يحملها فوق ظهره فلا يبالى أيها يبقى وأيها يختل توازنه فيهوى.» .

هذه هى وثبة التاريخ .. وهى الوثبة التى يمكن أن تساهم فى تفسير هذه الصورة التى تعيش فى وجدان نجيب محفوظ بعنف والتى صورها لنا فى « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » معا وهى انكار الابنة لابيها أو انكار الجديد للقديم بعنف وقسوة .

ولا أعرف رمزا أكثر عنفا لمأساة الانسان من هذا الرمز الذى يتجسد فى صورة انكار الابنة لابيها .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ ليصور لنا مأساة انسانية عامة تستمد جذورها من واقع مجتمعنا وظروفه . ولكنها تعلو بعد ذلك الى مستوى الانسان فى كل مجتمع آخر .. وفى هذه « المأساة الانسانية » يقترب نجيب من التناول الوجودى لمأساة الانسان دون أن يغرق فى رمزية«الغريب» لألبير كامى مثلا ، فما زال بين نجيب محفوظ وبين الواقع رباط قوى ، ومن هنا اعتقد أن تعبير « الواقعية الوجودية » ، هو أقرب تعبير لتصوير هذا الاتجاه عند نجيب محفوظ .

ومما يساعدنا على كشف هذا الاتجاه الوجودى عند نجيب محفوظ أيضا أنه يستعمل التعبيرات الشائعة فى الادب الوجودى مثل « المنفى » و « العبث » والاحساس بأن الانسان « زائد عن الحاجة فى هذا العالم » وهو لا يستعملها كألفاظ عادية ، بل يستعملها بنفس العمق

الذى نحسه فى الادب الوجودى الاصيل ..

على أننا نلاحظ أن نجيب محفوظ فى أعمـاله الاخيرة يهتم بالتصوف .. ففى « اللص والكلاب » نجد الشيخ الجندى ، وفى السمان والخريف نجد « سمير » ، وكلاهما قد لجأ الى التصوف كمأوى روحى يجعل آلام الحيـاة ومشاكلها محتملة وسهلة ، ولم يكن نجيب من قبل يعنى بالتصوف كل هذه العناية ، مما يؤكد اتجاهه الى الاهتمام بالمشاكل الانسانية الكبرى . انه يهتم بمشكلة « الانسان والعالم » لا « الانسان والمجتمع » فقط .

وفى السمان والخريف ربما لاول مرة فى ادب نجيـب محفوظ يلتقى البطل فى النهاية مع صوت يدعوه أن يتخلص من ازمته وورطته . وأن يحاول التغلب على جرحه وعجزه والوقوف على قدميه ، انه صوت الامل ، وصوت التقدم ويحاول البطل فى السطور الاخيرة أن يلحق بهذا الصوت الذى يعمل على بعثه من العدم ، وانتشـــاله من حفرة العجز واليأس .. ويبدو هذا الصوت كأنه حلم ، أو كأنه نوع من الالهام الداخلى العميق .. وماكان نجيب من قبل يهتم بالاحلام وماكان يهتم بالالهام الداخلى .

« قال عيسى للشاب المجهول :

ـ ألا ترى أن الدنيا كلها مملة ؟

ـ ليس عندى وقت للملل .

ـ ماذا تفعل اذن ؟

ـ أعابث المتاعب التى ألفتها وأنظر الى الامام بوجه مبتسم رغم كل شىء حتى ظن بى البله .

ـ وما الذى يدعوك الى الابتسام ؟

فقال الشاب بلهجة أكثر جدية :

ـ أحلام عجيبة ، ما رأيك فى أن نختار مكانا أنسب للحديث ؟

فقال عيسى بسرعة :
ــ آسف الحق أنى شربت كأسين ، وأرغب فى الراحة .
فقال الآخر بأسف :
ــ أنت تود أن تجلس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول
ولم يجب عيسى بكلمة فقام الآخر وهو يقول :
ــ أنت لا ترغب فى حديثى فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك .
وتحول عنه ماضيا نحو المدينة .
وتابعه بعينيه وهو يبتعد ، ياله من شاب غريب ؟
ترى ماذا يفعل اليوم ؟ .. ولماذا ينظر الى الامام بوجه مبتسم ؟
وظل يتابعه بعينيه حتى بلغ آخر الميدان . لم يكن سيء النية كما توهم ، ولم يقصده بسوء . فلم لم يشجعه على الحديث ؟ الم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل فى هذه الساعة من الليل ؟ وألم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث الى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟
ورآه وهو يختفى متجها نحو شارع صفية زغلول .
وقال لنفسه أستطيع أن ألحق به على شرط الا أضيع ثانية فى التردد .
وانتفض قائما فى نشوة حماس مفاجئة . ومضى فى طريق الشاب بخطى واسعة تاركا وراء ظهره مجلسه الغارق فى الوحدة والظلام » .
ولعلنا نلاحظ فى هذه الصورة التى يرسمها نجيب محفوظ معنى الجلوس فى الظلام تحت تمثال سعد زغلول فالبطل متمسك بالماضى متعلق به ، فهو وفدى فى عالم لم يعد للوفد فيه مكان ولا دور ، ان البطل يحن الى الماضى حيث كان شيئا فى الحياة وحيث كان له دور وآمال وتطلعات ، انه يحاول أن يتعلق بخيوط الماضى الرفيعة

لعلها تعطيه من ذكرياتها بعض الدفء وهو غارق فى أزمته ولكنه فى اللحظة الاخيرة ينتفض من مكانه ويحاول أن يتابع الشاب المجهول ، وهذا الشاب هو مناضل يسارى تدل عليه تلك الوردة الحمراء التى يحملها فى يده .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ من تصوير بيئة معينة الى

***

تصوير الانسان من خلال هذه البيئة ، من الجزئيات والتفاصيل الى الامور الكلية العامة ، من المحلية الى الموضوعات والقضايا العالمية ، من « الواقعية الطبيعية » الى « الواقعية الوجودية »

ونجيب محفوظ ينتقل الى هذه المرحلة الجديدة وقد استعد لها استعدادا واضحا فقد أصبح أسلوبه مليئا بالندى الشاعرى الحلو . بعد أن كان جافا موضوعيا قاسيا وأصبحت كتابته ذات موسيقى داخلية تتسرب الى روحك تسربا عميقا ، وتشعرك حقا أن الفنان الذى كان يتحدث عن الانسان فى مصر فقط أصبح يستمد من مشاكل الانسان المحلى صورة للانسان العالمى .

-٣-
مرحلة جديدة

منذ أن انهى نجيب محفوظ الثلاثية المعروفة « بين القصرين وقصر الشوق والسكرية » ، وهو يسير فى طريق جديد مختلف عن طريقه القديم ، وهو طريق جديد فى الفن والفكر على السواء .

وكلما فكرت فى التغيير الذى أصاب موقف نجيب محفوظ فى الفن والحياة قفزت الى ذهنى صورة الفنان الروسى الكبير تولستوى . ما أعظم الشبه بين الفنان الروسى والفنان العربى ، فكل منهما قد غير موقفه فى قمة نضجه واكتماله ، ولست أقصد هنا هذا التشابه الفنى بينهما ، رغم أن هذا التشابه حقيقة أومن بها خاصة فى المرحلة الأولى من انتاجهما الفنى ، الا أن الذى أعنيه هنا هو التشابه « الروحى » فقد اتجه تولستوى وهو يقترب من الستين الى البحث الشامل عن عقيدة .. وآندفع فى طريق هذا البحث كالشلال العنيف وبعد أن كانت حياته هادئة لا يشوبها القلق ، وبعد أن كان عقله العظيم مثل البحر الذى لم يعرف للعواصف أثرا على أمواجه ، بعد هذا كله أصبح متمردا لا يعرف الهدوء ، لقد ودع عالمه القديم ، وانطلق الى عالم جديد يبحث فيه عن الروح وعن الله ، وعن المعانى الكبرى الخافية فى هذا الكون ليتحول ذلك كله فى النهاية الى دعوة شاملة يدعو اليها الناس جميعا .

وقد أصيب نجيب محفوظ بلعنة (تولستوى) وترك هو أيضا عالمه القديم ، ففى ذلك العالم القديم كان نجيب يحس بنوع من القلق ، ولكنه (قلق) يشبه اليقين الى حد بعيد . كان نجيب يحس بالقلق النابع من وضع الانسان فى المجتمع المصرى السابق على سنة ١٩٥٢ وكان يفهم سر هذا الوضع المأساوى فهما دقيقا ، ويعرف كل أبعاده وزواياه ، فالتنظيم الخاطىء للمجتمع هو السبب ، والتركيب النفسى والاخلاقى للانسان .. هذا التركيب كله نابع أساسا من سوء النظام الاجتماعى . ولذلك كانت روايات نجيب محفوظ فى مرحلته الأولى فضحا للمجتمع القديم . وكانت أيضا نوعا من النقد الواضح الصريح لهذا المجتمع والكشف العميق لبذور المأساة فيه .

معنى هذا أن نجيب فى مرحلته الأولى كان يحس بالمأساة الاجتماعية ، وكان يعرف أسباب هذه المأساة معرفة كاملة . وما دام الفنان يعرف سر (القلق) الذى يعانيه فهو كما قلت ـ يعيش فى قلق شبيه باليقين المطمئن الى حد بعيد .

وكان قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ثم ظهور اتجاهها الاشتراكى بعد ذلك ، من الأسباب الهامة لتغير نجيب محفوظ . ان المأساة التى كان يشعر بها فى مرحلته الأولى كانت مأساة جامدة ، كانت مثل المرض الذى ينمو باستمرار دون أن يجد من يواجهه بأى لون من الوان العلاج ، ولهذا شغلته المأساة واستولت عليه . وعكف على التعبير عنها بصبر وعمق عظيمين .. أما الآن فقد تغير الموقف . لقد تحركت المأساة الاجتماعية ، وأصبحت هناك محاولة جديدة لعلاجها وأصبح وجود هذه المأساة مسألة زمن بالدرجة الاولى . فالتقدم الصناعى يسحق أمامه البطالة شيئا فشيئا .. والاجراءات الاشتراكية تقضى يوما بعد يوم على

مظاهر المأســـاة القديمة التى شغلت نجيب محفـــوظ واستغرقته ، وليس معنى هذا أن المأساة الاجتماعية قد انتهت مظاهرها وأسبابها ، فالمأساة ما زالت قائمة .. ولكن الفرق بين المرحلة الراهنة والمرحلة السابقة على سنة ١٩٥٢ هو : أن هناك الآن قوى تحارب المأساة وتحاول التغلب عليها ، بينما كان الامر فى الماضى على العكس ، كان الفقر مثل الهرم الاكبر، شامخا جليلا لا يغيره الزمن، وكان هذا الفقر بما يجره من تعاسة وانهيار فى المجتمع والنفس ، يفرض على الفنان الصادق ألا يفكـر فى شيء آخر ، انه يحجب عنه كل الرؤى الاخرى ويؤجلها .

وهكذا كان أمام نجيب محفوظ طريقان عليه أن يختار أحدهما ..

. أن يستمر على أسلوبه القديم بعد قيـام الثورة التى اختارت المأساة الاجتماعية ميدانا هاما لمعركتها ، وأدخلت فى هذه المعركة كثيرا من القوى العنيفة الثائرة وكان استمرار نجيب محفوظ فى التزام أسلوبه الفنى القديم يهدده حتما بالتوقف ، بعد أن اخذت الصورة التى شغلته فى الماضى تهتز وتتغير .

أما الطـريق الثـانى أمام نجيب محفوظ فهو أن يغير أسلوبه ويغير موقفه الفكرى والفنى .

وقد اختار نجيب الطريق الثانى ، وأسارع هنا لأقول ان نجيب محفوظ لم يختر الطريق الثانى لمجرد حبه فى الاستمرار الادبى ، ولا لمجرد حبه فى ان يظل موجودا فى قلب حياتنا الفنية ، يذكره الناس ويتحدثون عنه ، انه باختصار لم يلجأ الى الطريق الثانى دفاعا عن بقائه الذاتى ، فأنا أعتقد أن نجيب محفوظ فنان أمين ، وهو فنان لا يمكن أن يجعل قضية بقائه الذاتى فى المحل الأول من الأهمية ، لأنه يعلم تمام العلم أن العمل الفنى مشاركة بينه وبين

العصر الذى يعيش فيه .. بينه وبين جماهير هذا العصر .
وإذا كان الفنان يهمه بقاؤه الذاتى ويعنيه ، فالجماهير لا تعنيها هذه المسألة ، وانما الذى يعنيها حقا هو أن يكون عند الفنان شيء يقوله ، شيء يمكن أن يكون صلة بين الفنان وجمهوره . شيء يمكن أن يعين هذا الجمهور ويشغله ويلقي الضوء على قضية حساسة من قضاياه .

وأنا أعتقد ـ مخلصا ـ أن نجيب محفوظ لو لم يكن عنده ما يقوله لفضل الصمت بشجاعة واضحة .

فهو فنان لم تنقصه الشجاعة فى أى مرحلة من مراحل تاريخه الفنى ، لقد لقى اهمال الجمهور لفترة طويلة . وكان بحاجة الى شجاعة ليستمر فى الانتاج ولكى يتحدى اهمال الجمهور وابتعاده عنه . وقد وجد هذه الشجاعة التى ساعدته على الاستمرار ، رغم أن كثيرا من زملائه توقفوا واحتجوا ثم احتجبوا نهائيا ، وبعض زملائه بدأ يتملق الجمهور . ويحاول أن يجتذبه من جوانبه الضعيفة ويثيروا فيه بعض الغرائز السهلة ، ولكن نجيب صمد ، ولم يتنازل عن أسلوبه ولا عن رؤيته الخاصة للعالم . واستمر يكتب كما تعود أن يكتب . وكان نجيب محفوظ بحاجة أيضا الى الشجاعة لكى يستمر فى وجه اهمال النقاد . فلقد أهمله النقاد فترة طويلة أيضا ولم ينتبهوا اليه الا بعد روايته التاسعة « بداية ونهاية » . واهمال النقاد للفنان كفيل بأن يضنيه ويشقيه ويعطله ، والفنان فى هذا الموقف بحاجة أيضا الى شجاعة كبيرة لكى يستمر ويحافظ على صفائه وقدرته على التطور وقد وجد نجيب الشجاعة التى ساعدته فى هذا الموقف .

ومرة ثالثة وجد نجيب محفوظ الشجاعة التى ساعدته على الوقوف فى وجه حملة نقدية عنيفة ثارت ضده فى فترة من الفترات ، ولقد كانت هذه الحملة قوية وعاصفة،

وكانت كفيلة بأن تهز ثقته بقلمه فلا يكتب بعدها ، أو يكتب اذا كتب على هوى النقاد ، ولكن نجيب استطاع أن يواجه هذه الحملة النقدية ، دون أن يعطيها أكثر مما تستحق فيتوقف عن الكتابة ، أو أقل مما تستحق فلا يستفيد منها أى نوع من الفائدة .

واذا كان نجيب قد وجد شجاعة فى الاستمرار فى الكتابة عندما كان الجو الذى يحيط به يضغط عليه بقوة لكى يتوقف ، فلست أشك أنه كان سيجد الشجاعة لكى يتوقف عن الكتابة اذا ما وجد أن ما لديه قد انتهى ونفد ، وأنه لم يعد يملك ما يقوله ، لا شك أنه كان سيتوقف .. حتى لو كانت هناك أمواج من الاغراء والتشجيع والدعوة الى العمل والانتاج .

وهكذا اختار نجيب محفوظ عن وعى صادق أن يواصل الكتابة ، وأن يغير موقفه الفنى وموقفه الفكرى معا .

والموقف الفنى الجديد عند نجيب محفوظ هو فى كلمات أن الواقع عنده لم يعد له وجه واحد ، بل أصبح له أكثر من وجه .. وأصبحت له ظلال كثيرة وفى كلمات أكثر وضوحا : أن الواقع فى انتاج نجيب محفوظ الجديد له معان رمزية وايحاءات رمزية . أما الواقع الذى كان يصوره فى الماضى فكان فى الغالب وباستثناء حالات قليلة واقعامباشرا ، لا يعطيك سوى صورته الواضحة المحددة .. صورته الظاهرة للعين . وتبعا لذلك فقد تغير أسلوب نجيب محفوظ من أسلوب المصور الى أسلوب الرسام الذى يعتمد على ألوانه وخطوطه أكثر مما يعتمد على النقل المباشر للواقع .

أما الموقف الفكرى لنجيب محفوظ فهو موقف البحث عن عقيدة شاملة أو ايمان يملأ القلب باليقين والرضا . لقد كان الشبح المخيف فى انتاج نجيب محفوظ السابق

هو المجتمع بصورته القاسية التى كانت تنشر الفساد فى حياة الناس ، وتخرب الداخل والخارج فى عالم الانسان . أما المشكلة الجديدة التى تعنى نجيب محفوظ اليوم فهى مشكلة (الانتماء) و (عدم الانتماء) ، ونجيب محفوظ لم يفقد فى انتاجه الجديد احساسه بدور المجتمع وأهميته فى واقع الانسان ، ولـكنه الآن شديد التركيز على شيء جديد آخر ، ان مأساة الانسان فى انتاج نجيب محفوظ الأخير هى مأساة الانسان اللامنتمى وقد أصبحت كلمـة اللامنتمى شائعة فى هذه الأيام مما جعلها كلمة مبتذلة ، وفاقدة للمعنى والدلالة ولكننا مع ذلك نضطر لاستخدامها لأنها هى الكلمة الوحيدة التى بين يدينا للدلالة على المشكلة الجديدة التى يعبر عنها نجيب محفوظ . فالانسان الجديد الذى يعبر عنه نجيب محفوظ هو الانسان المطـرود من جنة ما ، من فردوس ضائع مفقود . انه الانسان الذى كان يعيش فى يقين شامل ، وأصبح يعيش فى شك كبير وبحث دائم ، فمعظم أبطال نجيب محفـــوظ فى رواياته الاخيرة كانوا يعيشـون حياة مطمئنةهادئة فى البداية ،وهى بداية قصيرة مثل الحلم أو البرق الخاطف . ثم بعـدها تبدأ المأساة . وهى مأساة فى داخل النفس وفى خارجها على السواء . انها مأساة الذين لم يعودوا متأكدين كمـا كان أمرهم من قبل ، مأساة الذين يبحثـــــون عن شيء يتعلقون به بعد أن فقدوا هذا الشيء الذى ظهر فى حياتهم لحظة ثم اختفى ، أو ظهر ثم ثبت لهم أنه وهم غير حقيقى، وهم خارجى ، وهـم لا يكـفى لكى يقضى على هـم القلب الحائر والعقل الباحث عن اليقين .

وهذا الموقف الفكرى ، موقف اللامنتمى ، الباحث عن الانتماء هو بدون شك موقف صادق عميق عند نجيب محفوظ . بل هو موقف له جذوره ، فى مرحلته الأدبية

الأولى ، ولكن الفنان فى هذه المرحلة الأولى كان مشغولا بالمأساة الاجتماعية ، لقد أذهلته هذه المأساة واستغرقته وشدته اليها ، فأعطاها كل نفسه الا فى لحظات قليلة ، حيث كان فى هذه اللحظات القليلة يدرك أن هناك شيئا فى العالم غير هذه المأساة الاجتماعية . ولذلك لم تخل قصصه القديمة كلها ــ تقريبا ــ من ظهور المثقفين وأصحاب العقول الكبيرة التى تبحث عن شيء أشمل وأعمق ، حتى لو كان صاحب هذا العقل الكبير فاشلا فى الحياة العملية . مثل « أحمد عاكف » فى رواية خان الخليلى ، أو فيلسوفا عبيطا مثل «درويش» فى زقاق المدق. لقد كانت مثل هذه النماذج بذورا للاتجاه الذى « أنفجر » فى المرحلة الجديدة من أدب نجيب بل وأصبح هو الاتجاه الاساسى فى هذه المرحلة

ونجيب محفوظ ليس من الذين يؤمنون بسهولة ، وليس من الذين ينكرون بسهولة ، فلو كان من ذوى الايمان السهل لاختار عقيدة من العقائد العصرية وانتمى اليها وأراح باله . ولكن عملية الانتماء الى عقيدة جديدة عند نجيب تستغرق وقتا طويلا ومجهودا نفسيا ضخما ، وهذا هو الامر الطبيعى عند أصحاب النفوس الخصبة الصادقة، ولو كان نجيب محفوظ من الذين ينكرون بسهولة لانكر ما يريد أنكاره من العقائد دون أن يتعذب ، فهناك كثيرون من الذين ينكرون ، نراهم يعتزون بهذا الأنكار ، ويأخذونه مصدرا للغرور والتعالى والزهو .

ولكن نجيب محفوظ ليس من أصحاب هذه الطبائع النفسية ، انه ليس مؤمنا ساذجا وليس منكرا ساذجا . بل ان كل شيء يقتضى منه توقفا طويلا عنيفا عاصفا .

ولذلك يعبر فى مرحلته الأدبية الاخيرة عن ازمة معينة. هى أزمة البحث عن اليقين ، عن الانتماء الكبير . وهذه هى الأزمة الروحية التى تسيطر على انتاجه الجديد .

٤
شهداء ... ومنتحرون

فى المرحلة الأولى من حياة نجيب محفوظ الفنية ، وهى المرحلة التى انتهت بالثلاثية المعروفة كان نجيب محفوظ أشبه بالمؤرخ فى نظرته الى الواقع الذى يصوره أما فى المرحلة الجديدة التى جاءت بعد الثلاثية فقد أصبح نجيب محفوظ فى نظرته الى الواقع أشبه بالشاعر ، ومهمة (المؤرخ) هى تسجيل الواقع تسجيلا أمينا دقيقا ، أما مهمة الشاعر فهى التعبير عن هذا الواقع تعبيرا وجدانيا وغنائيا ...

ولكى يتضح أمامنا الفرق بين الموقفين نستطيع أن ننظر الى « البيئة » التى كان نجيب محفوظ يصورها فى مرحلته الفنية الأولى ، ثم ننظر الى « البيئة » كما نحس بها فى مرحلته الفنية الثانية . ففى المرحلة الأولى كان نجيب يرسم البيئة بكل تفاصيلها ، وكان احساسه بالبيئة احساسا ماديا عميقا ، وليس من المصادفة ـ فى هذه المرحلة ـ أن تكون أسماء معظم رواياته هى أسماء شوارع حقيقية معروفة فى حى « الحسين » وهى البيئة المفضلة غالبا عند نجيب محفوظ . هناك « زقاق المدق » ، « بين القصرين » ، « قصر الشوق » ، « السكرية » ، وقبل ذلك هناك « خان الخليلى » ... كلها أسماء شوارع معروفة محددة. فاذا أخذنا « زقاق المدق » على سبيل المثال نجد أن نجيب قد عنى برسمه رسما ماديا فى غاية الدقة ، بحيث نستطيع

ان تجد فى هذه الرواية ما يشبه الخريطة « الجغرافية » الدقيقة لشارع زقاق المدق . صوره البيوت فى منتهى التحديد والدقة ، والمحلات والمقاهى التى يصورها فى قلب هذا الشارع مرسومة أيضـا فى غاية الوضوح والدقة ، يستطيع الانسان أن يجلس فى زقاق المدق لاول مرة بعد قراءة رواية نجيب محفوظ ، وكانه أحد ابناء هذا الشارع الذين عاشوا فيه وعرفوه حق المعرفة ، بل وكأنه ولد فى هذا الشارع وفتح عينه على الدنيا من خلاله . اننا نعرف زقاق المدق بكل حواسنا ، نعرفه بالعين والشم واللمس والسمع والمذاق ، فـلا يكاد نجيب محفـوظ يترك شيئا يتصل بهذه الحواس دون تصويره . وهو عندما يقوم بعملية التصوير انما يفعل ذلك بما يمكن أن نسميه ـ اذا استعرنا لغة السينما ـ بالحـركة البطيئـة . انه هادىء لا يلهث ولا يتسرع ، ولا ينتقل من نقطة الى نقطة دون أن يشبعهما وصفا وشرحا وتحديدا دقيقا كاملا . ولقد أشرت فى الفصل السابق الى العلاقةبين نجيب محفوظ وتولستوى ، الفنان الروسى الكبير ، ولا أملك الا أن أعود مرة أخرى الى هذه الصلة ، فلقـد كان تولستوى أسـتاذا أعظم فى مدرسة هؤلاء الفنانين الذين يصورون الواقع بهذه الدقة ، وهذه المقدرة الغريبة ، وهذا الصبر الذى لا ينفد ، وهذه الروح التى لا تعرف الأحلام ولا « السرحان » ولا ركوب أجنحة الخيال .

ولقد كتب الفنان والناقد الكبير « ستيفان زفايج » يوما عن تولستوى كلمات أتذكرها دائما كلما فكرت فى نجيب محفوظ ، فهى تنطبق عليه تماما وتصوره فى مرحلته الفنية الأولى أدق تصوير .

يقول زفايج فى كتابه عن تولسـتوى (ترجمة فؤاد أيوب) :

« .. ان تولستوى لا يتخيل عوالم سحرية ، بل يكتفى بتقرير الاشياء الواقعية بكل بساطة ، وهكذا يراودنا الشعور عندما نستمع اليه ، بأننا لا نصغى الى فنان يتحدث الينا. بل الى الأشياء نفسها تتكلم ... ان البشر والحيوانات تخرج من عالمه كما تخرج من مساكنها الخاصة المألوفة ، حسب النظم الطبيعية لحركتها ، فنحس أنه لا يوجد هناك أى شاعر ملتهب من ورائها يحثها ، ويدفعها الى الفعل فى تسرع وهرولة على غرار ديستويفسكى مثلا ، ذلك الذى يضرب ـ محموما ـ أشخاصه بسوط مرفوع دوما ، فينطلقون وهم يصيحون ويزعقون تشتعل فيهم النيران فى جلبة أهوائهم ... ان تولستوى يحكى مثلما يتسلق أهل الجبال مرتفعا ، بتؤدة وانتظام ، رويدا رويدا ، خطوة فخطوة ، دون قفزات ودون عجلة ، ودون تعب ودون ضعف ... اننا لا نحمل بسرعة البرق عنده على طوال حواف السحر الحادة المتألقة ، لا نتردى بصورة مباغتة فى دوار الهاوية الطنان ولا نرتفع وكأنما تحملنا أجنحة خفية فى أجواء الأحلام الخالية ... اننا نبقى ، فى حضور الفن التولستوى ، نافذى البصيرة دوما ، وكأننا فى حضور العالم نفسه » .

... هذا هو الوصف الدقيق البديع لفن تولستوى ، يصلح تماما لوصف أدب نجيب محفوظ فى مرحلته الفنية الأولى ... ففى نجيب هذا البطء وهذا التأنى ، وفيه هذه الدقة الشديدة القريبة الى روح العلم الى حد بعيد ، وفيه هذه الواقعية المسرفة البعيدة كل البعد عن الأحلام والعوالم السحرية ، وفيه هذا الانتظام الحاد ، فلا قفزات ، ولا طفرات ، بل منهج فى رصد الحوادث أشبه بمنهج الباحثين والعلماء ، مقدمات ونتائج وحوافز شديدة الوضوح لتصرفات شديدة الوضوح أيضا .

ومن هنا كان أدب نجيب محفوظ فى مرحلته الأولى بعيدا عن أن يعطينا صورة من شخصية مؤلفه ، بعيدا عن أن يقدم لنا همومه الخاصة ومشاكله وافكاره التى يعانى منها . ولو توقف محفوظ عن الكتابة بعد الثلاثية ، لكان من العسير تماما أن نعرف شيئا عن شخصيته من خلال أدبه . انه لا يفضى الينا بشىء من خلال انتاجه فى هذه المرحلة الا فى لمحات محدودة بسيطة يمكن التقاطها من هنا أو هناك ، فنحن نستطيع أن نعرف شيئا قليلا عن هموم نجيب محفوظ الخاصة من خلال شخصية كمال عبد الجواد فى الثلاثية . ولا يوجد بعد ذلك شخصية أخرى يمكن أن تفتح لنا نافذة فى شخصية هذا الفنان ، أو تضىء منطقة مظلمة . انه يحدثنا عن الواقع حديثا موضوعيا شاملا ، ويلغى ذاته وهمومه الخاصة ومشاغله الروحية ويضعها جانبا . فالقوة الناطقة فى المرحلة الأولى من أدب نجيب هى قوة الواقع الخارجى ، وليست قوة واقعه الروحى الداخلى .

وحتى بالنسبة لمعظم أبطال هذه المرحلة فى أدب نجيب ، انهم جميعا ـ على التقريب ـ محكومون حكما نهائيا بقوة الواقع الخارجى . ان فى هذه الروايات ما يشبه « الجبر » أو « الحتمية » التى لا مفر منها فى تحديد مصير الأبطال ونهايتهم ، لا مجال للاختيار أمامهم ، وحريتهم فى التصرف والحركة معدومة تقريبا . فالمصير الذى ينتظر أبطال « زقاق المدق » هو مصير محتوم لا مفر منه ، ان الواقع نفسه يقودهم الى الكارثة والدمار ، رغم أنهم فى داخلهم متناسقون ، لا يعرفون القلق والتمزق .

وأهم بطلين فى هذه الرواية هما : عباس الحلو وحميدة . لقد كانت بدايتهما طبيعية هادئة طيبة ، ولكن المجتمع الخارجى بفساده وانهياره ، جرهما جرا الى الخارج بعيدا

عن زقاق المدق ، وقادهما شيئا فشيئا الى مصيرهما المحتوم ، الى الدمار والهلاك والموت ، فلم يكن هناك فى ذلك المجتمع الذى صورته رواية « زقاق المدق » سوى منطق الدمار والهلاك والموت ..

فالمأساة فى زقاق المدق « حتمية » يقود اليها الواقع الاجتماعى بتركيبه الفاسد المعقد . وهذا هو نفس المنطق السائد فى شتى المآسى التى كتبها نجيب محفوظ مثل « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » و « بداية ونهاية » بل والثلاثية الى حد بعيد . أن نماذج هذه المرحلة عند نجيب هى ثمرات طبيعية لبيئة معينة .. فالبيئة فى هذه الروايات تصنع الناس وليس العكس .

و « المصير الحتمى » للأبطال فى روايات نجيب محفوظ الاولى يؤكد اقتراب نجيب محفوظ من الروح العلمية فى نظرته الى الواقع ، انه ـ كما أشرت ـ يلغى ذاته تقريبا ليرى حركة الواقع « كما هى » .. والعلم أساسا هو الذى يكشف القوانين الحتمية فى الواقع . فعندما اكتشف العلماء أن الأرض تدور حول الشمس أصبح من الواضح أن هذا الدوران هو « حتمية » لا يمكن أن تتغير ، وكذلك كل القوانين المتصلة بالعلم . فحتمية المأساة أو المصير فى روايات نجيب محفوظ الأولى تؤكد مرة أخرى طريقته فى النظر الى البيئة والواقع . انها النظرة المحايدة ، النظرة التى تعنى بالوصف والتسجيل والتاريخ ، النظرة التى تسجل الشىء ونقيضه بنفس الدقة والعمق والحماس ، النظرة التى تتأمل وتدرس وتكشف ولا تضيف أو تخلق شيئا . وليس معنى هذا كله أن نجيب لم يكن له رأى أو موقف فى روايات المرحلة الأولى فلا شك أن رأيه وموقفه واضحان كل الوضوح من خلال اختياره للموضوع وللزاوية التى يصور من خلالها الموضوع ، والحياد الذى أعنيه هنا هو

حياد فني فى التعبير وتصوير البيئة والشخصيات وتغليب الواقع الخارجى على انفعالات الفنان ومشاعره .

هذه النظره وهذا الموقف ، وهذا البناء كله يتغير عند نجيب محفوظ فى مرحلته الأدبية الجديدة .

لقد انتهت عنده ملكة التسجيل المباشر ، وانتهت عنده شخصية الفنان المؤرخ الذى ينظر الى الواقع بعمق ونفاذ وارادة صلبة وصبر نبير .. ولكن دون أن يمتزج به أو يذوب فيه أو يضيف اليه .

ونستطيع أن نلاحظ التغيير الجديد عند نجيب حتى من عناوين رواياته الأخيرة ، فقد انتهت تماما نزعته الى تسمية رواياته بأسماء الأماكن التى وقعت فيها ، ومن أسماء رواياته الأخيرة : « أولاد حارتنا » و « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » ثم « الطريق » ... الخ وكل هذه الأسماء تثير معنى فى النفس دون أن تكتفى بالاشارة الى مكان معين هو البيئة المادية للرواية . ولكن هذه الظاهرة ظاهرة قريبة سهلة ، تعتبر من باب القرينة التى تقف الى جانب الأدلة ، ولا يمكن أن ننظر اليها كدليل حاسم على التغير عند نجيب محفوظ ، أو كعلامة جوهرية من علامات المرحلة الفنية الجديدة عنده .

ولكننا نلمس العلاقات الجديدة بوضوح عندما نقرأ هذه الروايات الجديدة التى صدرت بعد الثلاثية ولنقف أمام البيئة المادية هنا أيضا .

ان نجيب محفوظ لا يهتم بتصوير هذه البيئة تصويرا دقيقا واقعيا ، مسرفا فى دقته وواقعيته ، كلا ، انه يرسمها رسما عاما ، وفى خطوط قصيرة ، ذلك لان هذه البيئة لم تعد تعنى شيئا فى حد ذاتها ، بل أصبح لها معنى رمزى .. ففى رواية « اللص والكلاب » لا نستطيع أن ننسى البيت الذى كان يعيش فيه سعيد مهران على حافة القبور ،

بيت تفتح نافذته فتطل على منظر القبور .. ولقد كان هذا البيت كفيلا فى المرحله القديمة ان يثير حاسة نجيب محفوظ الوصفية لكى يصفه لنا بكل دقة وتفصيل واسراف ، ولكنه فى اللص والكلاب يرسمه رسما سريعا ، لأن البيت لا يعنيه ، ولكن الذى يعنيه هو معنى هذا البيت ، فنجيب يصور فى هذا البيت الملجأ الأخير للبطل ، الحافة التى يطل منها البطل على الهاوية ، فالبيت يطل على القبور ، وحياة البطل تطل على الموت ، والبيت فى منطقة مهجورة بعيدة ، والبطل فى موقف وحيد مهجور أيضا . وفى رواية «الطريق» نجد وصفا لمدينة الاسكندرية، ولمنطقة الأنفوشى وغيرها من مناطق المدينة ، ولكننا مع ذلك لا نجد وصفا دقيقا للمدينة أو لجزء منها ، لأن الذى يهم الفنان هو أن يصور المدينة فى نفس البطل أما المدينة الواقعية فلا تعنيه .. ومدينة الاسكندرية فى نفس بطل « الطريق » هى « الفردوس المفقود » ، هى العالم الذى كان يعيش فيه آمنا مطمئنا هادىء البال ، هى الدنيا السعيدة التى لم يعرف فيها القلق طريقه اليه ، هى الواحة التى كان فيها كل شىء كاملا رائعا منسجما متناسقا، هى الجنة الضائعة .. ولذلك فكل ما كتبه نجيب محفوظ عن الاسكندرية فى رواية الطريق لا يدخل أبدا فى باب « الوصف » وانما يدخل فى باب «الغناء»، انه يتغنى بالمدينة وينظر اليها نظرة شعرية حالمة ، ويفكر فيها تفكير الذى يتحسر على شىء ضاع منه .. على حب ضائع ، على شباب ضائع ، على طفولة ناعمة جاء بعدها الشقاء لينشب فى الجسم اظافره وأنيابه ... ان الاسكندرية فى رواية « الطريق » مدينة خاصة وليست هى المدينة العامة التى يعرفها كل الناس .

البيئة فى روايات نجيب الجديدة .. بيئة رمزية ،

شعرية ، ليست بيئة واقعية قريبة من الحقيقة العلمية الثابتة ، كما كان الأمر فى المرحلة الأولى ، وهنا يجدر بنا أن نشير بعد ذلك الى علامتين هامتين من علامات المرحلة الجديدة عند نجيب محفوظ .. علامتين متصلتين أشد الاتصال بهذا الجو الرمزى الجديد .

أما العلامة الأولى فهى خاصة بالأسلوب ... فأسلوب نجيب محفوظ قد تغير الى حد كبير . لم يعد الأسلوب البطىء المتأنى الذى لا تفوته كبيرة أو صغيرة بل أصبح أسلوبا سريعا ، لا يقف أمام التفاصيل ... انه يتجه الى العموميات كثيرا ، أنه أسلوب شعرى جمله قصيرة ، ملىء بالتوتر ، ولا زلت أذكر أننى قرأت قصة « اللص والكلاب » فى جلسة واحدة ، وكنت أشعر كأنها جملة واحدة ، لا فواصل بينها . بينما لا يمكن قراءة قصة قديمة لنجيب محفوظ فى جلسة واحدة . لابد من جلسات عديدة متنوعة ، لأن أسلوبه القديم كان خاليا من كل هذه الصفات . كان خاليا تماما من السرعة والتوتر . كان بطيئا ، محايدا ، أشبه بالأسلوب العلمى . ومن هنا أصبح هذا الأسلوب الجديد أداة فى يد نجيب . انه يلائم تماما مرحلته الجديدة وتصويره الشعرى للعالم ، وابتعاده عن المناظر التفصيلية الى المناظر العامة ، وتصويره للبيئة الخارجية من خلال نفس البطل الروائى ، لا من خلال الحقيقة الواقعية المحايدة .

لقد انقلبت الآية الى حد بعيد . فأصبح نجيب محفوظ الذى كان يشبه تولستوى فى مرحلته الفنية الأولى .. أصبح الآن قريبا – فى الفن لا فى الحياة – الى نقيض تولستوى .. الى دستويفيسكى ، وأصبح على رأى ستيفان زفايج « شاعرا ملتهبا يقف وراء أبطاله ، ويدفعها الى الفعل فى تسرع وهرولة ، انه يضرب محموما أشخاصه بسوط

مرفوع دائما ، فينطلقون وهم يصيحون ويزعقون ، تشتعل فيهم النيران ، فى حلبة أهوائهم .. » .

أما العلامة الثانية فى هذه المرحلة الجديدة من أدب نجيب ، وفى هذا الجو الشعرى الرمزى عنده ، فهى أن نجيب محفوظ فى روايته الجـديدة قد أصبح يميل ميلا واضحا الى خلق بطل أساسى واحد فى كل رواية ، بينما كان فى المرحلة الأولى يميـل الى عكس ذلك ، فمثـلا فى « بداية ونهاية » لا نجد بطلا واحدا ولا بطلا رئيسيا ، بل مجموعة متوازنة من الابطال ، وفى رواية « زقاق المدق » نجد نفس الشيء ، وأن حظى « عباس الحلو » و « حميدة» بقدر من التميز الا أن الرواية مع ذلك « تشفى » ـ كما تقول اللهجة العامية ـ بالأبطال الآخرين المرسومين بنفس الدقة والعمق . وكـذلك فى خان الخليلى ... ان أحمد عاكف ـ البطل ـ لا يتميز الا قليلا عن غيره من الأبطـال الآخرين ، ونفس الشيء فى الثلاثية ... الأبطال الرئيسيون لا يتميزون كثيرا على الأبطال الثانويين فان وجد هنـاك أبطال رئيسيون فلا بد أن يكون هناك بطلان على الأقل متساويين فى القيمة والأهمية ... أما الآن فهناك بطل واحد أساسى يتحرك العالم حوله ، ولا مجال للمقارنة بينه وبين الآخرين فى مدى القيمة الروائية . ولعلنا نستثنى من ذلك روايته « ميرامار » لأنها تقوم على « أقسام » روائية ، كل قسم له بطله الخاص .

فى المرحلة الجـديدة أصبح لـكل رواية مركز رئيسى محدد تدور حوله وتتحـرك بسببه . وهذا الميـل الى اختيار بطل واحد رئيسى هو بدون شك رغبة فى التركيز الذى هو طابع المرحلة الجديدة فى أدب نجيب وهو يقوم بالتجميع والتقطير بدلا من رسم الصور الـ (سكوب) للحياة والناس . وهو فى هذا التركيز أيضا يقترب من

طبيعة الشعر والنظرة الشعرية ... انه يريد أن يقول الكلمة التى تغنى عن مئات الكلمات ، ويقدم الموقف الذى يغنى عن مئات المواقف . انه رسام يعبر عما يريد بالألوان والخطوط وليس مصورا يستخدم الكاميرا ، ويلتقط مناظر واقعية ، وكل ذلك يحتاج منه الى التركيز : الى بؤرة واحدة ، الى بطل رئيسى واحد .

وليس من أجل الشعر فقط يتجه نجيب محفوظ الى اختيار بطل واحد . بل لأنه ـ بطبيعة موقفه الجديد ـ أصبح يتأمل فى الوجدان البشرى والضمير البشرى والعقل البشرى . وانتهت الحتمية القديمة التى كانت تفرض المأساة على الأبطال من الخارج فقط ، من القدر الاجتماعى المشئوم ، فقد أصبح دور المجتمع هو دور الشريك ، انه يساهم فى المأساة ، ولكن العامل الأساسى فى المأساة هو ما يدور فى داخل الأبطال أنفسهم ، انهم بقلقهم وتوترهم ومرضهم هم الذين يندفعون الى المأساة بأنفسهم .. ان البطل القديم عند نجيب محفوظ فى مآسيه القديمة هو بطل شهيد ، مقضى عليه من قوة خارجية ، أما الآن فأبطال نجيب محفوظ يذهبون الى المأساة بأقدامهم ، ويضعون المشنقة بأنفسهم حول عنقهم انهم فى كلمة واحدة ينتحرون ، فالمجتمع القديم بظروفه التعيسة هو قاتل الأبطال فى مرحلة نجيب الأولى ، أما الآن فان جرثومة القلق والاضطراب فى داخل هؤلاء الابطال هى التى تقتلهم ، أى أن مأساتهم فى داخلهم بالدرجة الأولى ، تكمن فى ذاتهم ، فى وجدانهم وضميرهم وعقلهم . ان الجرح والسكين فى روايات نجيب محفوظ الأخيرة تكمن فى جسد واحد .

-٥-

الجيل الخائب

ما هى خصائص البطل الجديد عند نجيب محفوظ ؟
لقد خرج البطل الجديد عند نجيب محفوظ من «حظيرة» الواقع ، ولم يعد مجرد رد فعل لهذا الواقع وأصبح هذا البطل كائنا يؤثر فى الواقع ويعارضه ويحاول أن يضيف اليه وهو ينبش فى هذا الواقع بأظافره يريد أن يعرف اسراره وخباياه .

كان من النادر فى روايات نجيب القديمة حتى الثلاثية أن تجد البطل الذى يشعر بالقلق هكذا منذ البداية ، واذا وجد هذا البطل فان قلقه لا يزيد عن القلق العادى ، القلق الذى يتعرض له معظم الناس فى تجاربهم ومشاكلهم المختلفة . وهذا النوع العادى من القلق هو غالبا نتيجة لظروف خارجية .

ان معظم أبطال المرحلة الاولى عند نجيب محفوظ أشبه بشخصية « عطيل » فىمسرحيةشيكسبيرالمشهورة، انه انسان منسجم النفس متناسق الروح ولكنه يثور ويضطرب عندما تجيئه الضربة الخارجية .. وتلك الضربة هى الأدلة التى ساقها « ياجو » على خيانة ديدمونة زوجة عطيل . هنا يتمزق عطيل ويندفع الى قتل زوجته .

وهذا المنطق هو ما يسيطر على معظم ابطال نجيب

محفوظ فى المرحلة الأولى باستثناء نماذج قليلة ... فحسنين أحد أبطال رواية « بداية ونهاية » ، يعيش متناسق النفس ، كل ما يحركه هو طموح اجتماعى عادى مما يكون دائما عند أمثاله ... ولكنه يكتشف بعد أن يحقق أمنيته ويصبح ضابطا أن أخته أصبحت عاهرة .. هنا تتمزق نفسه ويدفع أخته الى الانتحار ، ثم ينتحر هو أيضا ، ورغم أن نهاية الرواية غير حاسمة الا أننى أميل الى الرأى الذى يقول أن البطل قد انتحر .

معنى هذا أن البطل القديم عند نجيب كان لا يعرف القلق غير العادى وكان يعيش فى سلام مع نفسه ومع الناس ، حتى تأتيه الضربة من الخارج فتدير رأسه .. ويدوخ ويترنح ، ويهوى تحت وقع الضربة وينهار .

أما البطل الجديد عند نجيب فيحمل جرثومة القلق فى داخله منذ البداية . وهذا البطل أشبه ببطل آخر من أبطال شيكسبير المعروفين هو « هملت » ..

ان « هملت » شخصية مليئة بالقلق الداخلى العميق .. الأزمات التى تحدث فى حياته ليست هى سبب القلق الذى يعانيه ، لكنها مجرد فرصة تكشف عن هذا القلق وتطلقه من « القمقم » الذى يختفى فيه ، فيظهر كأنه « عفريت » رهيب مخيف .

وهكذا البطل الجديد عند نجيب محفوظ .

ان جرثومة القلق مولودة معه يحملها فى داخله أينما سار ، وفى جميع المواقف والتجارب التى يتعرض لها . وهذا النوع من الشخصيات ، الذى يولد وهو يحمل فى داخله جرثومة القلق ، لا بد أن يكون شخصية قوية ممتازة غير عادية .. فالشخصية العادية لا تعرف هذا القلق الكبير المدمر . ان هذا النوع من القلق مرض لا تتعرض له الا الشخصيات المتفوقة ، التى لا ترضى

بالقليل والتى ترفض الحياة السهلة .

وهذا ما نجده فى أبطـال نجيب محفوظ فى مرحلته الفنية الجديدة ، فهؤلاء الابطـال أصحاب شـخصيات ممتازة متفوقة بشكل من الاشكال، أنها شخصيات منحتها الطبيعة « شهوة » عنيفة للفهم والمعرفة ، شـخصيات قوية ذكية جذابة ليست من الشخصيات العـادية التى نلقاها فى هذه الدنيا كل يوم ، ليست مجرد شخصيات يحركها الطموح الاجتمـاعى .. الطمـوح الى درجة أو منصب من المناصب ، وانما هى شخصيات تحركها أفكار كبيرة وأساسية .

فسعيد مهران بطل « اللص والكلاب » كان حتى وهو خادم صغير يميل الى التفكير ، ويطمع فى القيام بعمل كبير ، وحين احترف السرقة لم يكن بين اللصوص لصا عاديا ، بل كان زعيما وقائد عصابة وكان شخصا مرهوب الجانب الى حد بعيد . وهو أيضـا لم يحترف السرقة الا ومعه فكرة تبرر له هذه السرقة وتفسرها تفسـيرا كاملا ، لقد أخذ الفكرة عن أستاذه ومعلمه الصـحفى « رؤوف علوان » . وهذه الفكرة خلاصتها : أن السرقة من اللصوص هى العدالة بعينها . وهـو يسرق من اللصوص الشرعيين ، الذين كنا نسميهم فى مجتمعنـا القديم بالاغنياء . انه يسرق ويرى فى ذلك احتجاجـا طبيعيا على مجتمع ظالم ، يسمح للبعض أن يأكل حتى يكتظ ، ويحرم الآخرين من أبسط مظاهر الحياة وأبسط الوان الطعام . انه « يفلسف » السرقة ويجعل منها عملا عادلا سليما واحتجاجا طبيعيا على مجتمع ظالم .

هذه الشخصية اذن ليست شخصية انسان عادى ، انحرفت به الظروف الى السرقة . انه ــ على العكس . واحد من ذوى العقول المريضة بالتفكير العنيف ، وهـو

من أصحاب القلق الغاضب الذى يكره ويتمرد ويثور.

وهو عندما يدخل السجن يشعر أنه وقع فى المأساة. ويخرج من السجن لا ليلتمس الهدوء والاستقرار والبعد عن المشاكل ، بل ليجد نفسه تزداد ثورة وتمردا ، ان فكرة رهيبة تتحكم فيه هى « الانتقام » : الانتقام من الصحفى الذى قاده يوما الى فكرة العدالة ، ثم خان مبادئه ، وأصبح رجلا ثريا لا يهمه العدل ولا يفكر فى ذلك الحلم القديم ، والانتقام من زوجته التى خانته وتزوجت من أقرب أصدقائه وأتباعه ، وذلك عندما كان يقضى مدة العقوبة فى السجن .

ان سعيد مهران يتمتع بقوة خارقة عنيفة ، انه « بروفة » ناقصة للثورى الذى يطلب تغيير الحياة وتطهير العالم من آثامه ،ولكنها «بروفة » مليئة بالتشويه وعدم النضج .

والمتياز الشخصية نجده أيضا فى « عيسى » بطل « السمان والخريف » ، أنه شاب لامع متفوق ، كان له فى « نظام » ما قبل الثورة مكان ومركز ونفوذ وأمل عريض . وعندما قامت الثورة فقد مركزه وأمله ولم يستطع أبدا أن يتلاءم مع المجتمع الجديد ، ونمت فكرة عدم التلاؤم مع الحياة فى نفسه ، فمزقت هذه النفس وحطمتها ، وجعلت منه انسانا لا يستقر فى مكان ، ولا يستقر على حال ، فهو تارة فى الاسكندرية وهو تارة فى القاهرة ، وأزمته تمتد وتمتد دون أن يقف هو فى وجهها ، وانما على العكس يساعدها ويمدها بالوقود . ان القوة المحركة عند « عيسى » هى عدم الرضاء بالحياة الجديدة ، بعد أن فقد عالمه القديم الذى كان له فيه شأن كبير ، انه الان لا يستطيع أن يتلاءم مع العالم الجديد ولا يستطيع أن يجد خيطا يربطه مع هذا العالم .. وهو ليس شخصية

سهلة بسيطة يرضى بالحلول الممكنة ، بل هى شخصية قوية ، لا تقبل الامور ببساطة ، ولا تتلاءم بسرعة مع الناس والاشياء .

والامتياز أيضا صفة واضحة فى شخصية « صابر » بطل رواية الطريق : انه جذاب ، ووسيم ، وصاحب شخصية قوية . لقد تسابقت صديقاته وصديقات أمه على خدمته فى الاسكندرية ، ولكنه رفض العون لان هناك شيئا « غير عادى » يحركه ، انه ليس بحاجة الى مجرد الطعام والراحة ، ولكنه أسير لفكرة عنيفة هى : «البحث» عن أبيه الضائع ، عن القوة المجهولة التى ينتسب اليها .

وهكذا نجد نجيب محفوظ فى مرحلته الجديدة يصور أبطالا أقوياء نفوسهم متفتحة للتفكير العنيف والمشاعر العنيفة ، وهم يتحركون بدوافع نفسية لا بدوافع مادية محدودة . ان الجرثومة التى تعمل فى شخصياتهم هى جرثومة القلق المدمر ، هى جرثومة المحاولة الفريدة لترك الحياة العادية المألوفة ، الى الحياة المجهولة الغامضة واكتشافها ومعرفة ما فيها من الاسرار .

ومما يزيد هذه النقطة وضوحا ، ان هؤلاء الابطال يرفضون الحلول الميسورة فى حياتهم . ولو كانوا أشخاصا عاديين لما رفضوا هذه الحلول على الاطلاق . ولكنهم أشخاص غير عاديين ، أشخاص يملؤهم الطموح الروحى ، والسعى الى هدف فريد بعيد .

فسعيد مهران يرفض حلولا كثيرة لاحت له ، يرفض الحل الذى وضعته أمامه « نور » الفتاة التى أحبته وتمنت أن تعيش له ومن أجله ، وهو أن يبقى فى البيت على ان تتحمل « نور » مسئوليته حتى يلوح لهما حل آخر ، وهو يرفض التصوف ، ولا يجد فيه حلا لأزمته ، وهو يرفض أن يعمل عملا ماديا يأكل منه ويتلاءم فيه — من

جديد ـ مع الدنيا والناس .

وعيسى بطل السمان والخريف يرفض البحث عن حل سهل سريع ، يرفض البحث عن عمل مطمئن ينسى فيه ماضيه ، ويرضى بالنهاية التي وصل اليها .. انه يريد أولا أن يقنع نفسه .. ولكنه عاجز عن هذا الاقناع الذاتي الصعب ، ويرفض « صابر » بطل « الطريق » الحلول التي عرضتها عليه صديقاته وصديقات أمه في الاسكندرية ويرفض الحل السهل المنطقي الممتاز الذي وضعته أمامه « الهام » في القاهرة .. حيث طلبت منه أن يعمل وينسى ماضيه ، ويرضى أن يكون مواطنا عاديا في المجتمع !

انهم يرفضون الحياة العادية ، ويسيرون باختيارهم في طريق الشوك ، وهم في هذا الطريق الصعب يستجيبون لطبيعتهم المتميزة ، التي تشكو وتئن من شيء كبير ، وتفكر وتبحث عن شيء كبير ـ فلو كان ما يريدونه مصيرا عاديا مثل مصير بقية الناس ، لوجدوا ما أرادوه دون عناء كبير ، ولكنهم يريدون شيئا صعبا شديد الصعوبة والقسوة ، والوصول اليه محفوف بالمخاطر والاهوال . انهم كما قلت في الفصل السابق منتحرون وليسوا شهداء فهم يسعون الى الكارثة بارادتهم ، وبدافع من نفوسهم المليئة بالقلق والارتباك .

ومما يساعدنا على فهم البطل الجديد عند نجيب محفوظ ما نحسه في هذا البطل من أنه بطل « وحيد » ، لقد دمرت الظروف بالنسبة لهذا البطل جزءا من علاقاته الانسانية وبدلا من أن يحاول هو بناء ما تهدم من حياته عندما يتاح له ذلك ، نراه يسعى على العكس الى تهديم الباقي والقضاء عليه .

فمعظم أبطال نجيب محفوظ في مرحلته الفنية الاولى كانوا يعيشون في نطاق الاسرة ، وكانت المأساة التي

يتعرضون لها تحدث عادة فى نطاق الاسرة ايضا ، ان المأساة فى حياة الابطال ـ فى المرحلة الاولى عند نجيب ـ هي الى حد كبير « مأساةعائلية » .. أما البطل الجديد عند نجيب فهو يعيش وحده ، ويواجه العالم وحده ، وتحدث مأساته بعيداً عن أسرته ، لانه لا يعيش « فى أسرة » ولا يطيق أن يعيش فى « أسرة » .. انها مأساه انسان وحيد منفرد متمرد . سعيد مهران يرفض أن يقيم لنفسه أسرة ، رغم أن الظروف تتيح له هذه الفرصة، وعيسى ـ فى السمان والخريف ـ يرفض أن يقيم أسرة لنفسه ، وصابر ـ فى الطريق ـ يرفض اقامة أسرةهادئة مستقرة . . . .

انهم جميعا كائنات برية ، طريدة النظام العادى للحياة، تواجه العالم وجها لوجه .. دون عون ، ودون علاقات انسانية مستقرة ، وهذا « التوحد » يجعل من هؤلاء الابطال فريسة لمزيد من القلق ، وفريسة للدمار الداخلى العنيف ويجعلهم عرضة للمأساة العاصفة ، لأنهم بدون وقاية انسانية ، لقد خرجوا الى العراء ، ووقفواوحيدين فى منطقة مخيفة مهجورة وغير مألوفة من « محيط » الحياة البشرية ، وهؤلاء الابطال يعانون نوعا فظيعا من الانكار فى حياتهم .. فسعيد مهران ـ كما أشرت فى فصل سابق ـ تنكره ابنته الصغيرة وعيسى تنكره ابنته أيضا ، أما صابر فينكره أبوه وينساه . وتلك كلها فواجع عنيفة ، تزيد فى مرارة الموقف الذى يعانيه هؤلاء ، وهذه الفواجع أيضا تشير الى ان المشكلة التى يعانيها البطل الجديد عند نجيب هى مشكلة قائمة بين هذا البطل وبين العالم ، وليست مجرد مشكلة بينه وبين المجتمع . انها مشكلة تهدده « بالانقراض » الكلى والنهائى ، انها تهدده بالعقم المطلق فلا تستمر حياته ،

ولا يكون لهذه الحياة ثمرة من الثمرات .

هذا هو البطل الجديد عند نجيب محفوظ ، بطل متميز قوى ، عنيف التفكير عنيف الشعور ، بطل بلا أسرة ، بطل متوحد ، قلبه مليء بالجراح الغائرة المريرة وهو يعاني ـ بالدرجة الاولى ـ هموما روحية قبل أن يعاني هموما مادية . فمن أين جاء هذا البطل الجديد وماذا يعنى ؟

ان هـذه النماذج الجديدة التى يصورها نجيب محفوظ هي نماذج للانسان العصرى الذى يتمتع بدرجة عالية من الحساسية والذكاء ، والذى مزقت روحه تيارات عنيفة عاصفة من الازمات الفكرية الكبيرة ، وكما يقول أحد المفكرين الغربيين : ان الانسان العصرى أصبح أذكى من اللازم .. وهـذه محنته ، فشدة الذكاء تدعو الى شدة التفكير وكثرة البحث والتساؤل ، ورفض الرضا السهل رفضا تاما .. ومن هذه الناحية بالذات فان قصص نجيب محفوظ الجديدة تحمل طابعا انسانيا عاما أكثر من قصصه القديمة ، ويمكن لأى انسان عصرى فى أى مكان من هـذا العالم أن يجد فيها شيئا من نفسه .

على ان نجيب محفوظ ليس من طراز هؤلاء الذين ينفصلون عن واقعهم وينقطعون عنه نهائيا ، لذلك فمن الواضح أن هناك أساسا محليا مستمدا من واقعنا لهذه القصص الجديدة عند نجيب ، وهـذا الاساس هو فترة الانتقال فى حياتنا . فالمجتمع القديم ينهار ، والمجتمع الجديد يولد . وبين الانهيار والميلاد فترة صعبة ، لها ضحايا كثيرون ، ان هؤلاء الضحايا هم الجيل الخائب ، الجيل الذى لم يعش فى مرحلة الاستقرار التى مر بها النظام القديم ، بل عاش فى فترة

ازمته وغروبه واضطرابه الكبير ، ولم يلحق مرحلة الاستقرار التى بدأ النظام الجديد فى تحقيقها . لقد عاش هذا الجيل الخائب فى عاصفة التغيير والتبديل ،

فسعيد مهران ما هو الا نموذج لهؤلاء الذين يريدون تعديل هذا العالم وتطهيره ، ولكنهم لايملكون الوسيلة الكاملة الصحيحة ، والتجربة الثورية الناجحة لا تولد عادة الا بعد تجارب كثيرة فاشلة ، وسعيد مهران نموذج لتجربة فاشلة .. عظيمة ومريرة فى آن واحد وهى تجربة ترمز لغيرها من مئات التجارب . ففى طريقنا الى العدل الاجتماعى سقط كثيرون وفقدوا كرامتهم الاجتماعية وخبزهم معا ، ولكنهم لم يفقدوا سمو روحهم ، ولم يفقدوا قدرتهم العاصفة على الرفض والتمرد والاحتجاج . ومن بين هؤلاء الذين سقطوا :

سعيد مهران . أما عيسى فى السمان والخريف فهو ضائع مبدد ، لأن التغيير الجديد أطاح بآماله ، ونسف المستقبل الذى كان يبنيه لنفسه ، فهو جالس أمام تمثال من تماثيل الماضى هو تمثال سعد زغلول ، مشدود الى هذا الماضى بخيط سحرى لايرى ، لقد كان على وشك أن يبدأ حياته فى عالمه القديم فاذا بهذا العالم ينهد كله وينهار ، واذا به يجد نفسه وحيدا طريدا ، لايستطيع أن يبدأ مرة اخرى بعد أن شلته الدهشة وأذهلته ويستطيع أن يتخلص من حزنه ووحدته وشذوذه عن الواقع الجديد ، أما صابر فهو ولا شك رمز للاضطراب الروحى العنيف فى البحث عن عقيدة ، ولقد تميزت مرحلة التغيير هذه بظهور موجة واسعة من العقائد والافكار ، وقد وصل البحث عن عقيدة الى حد مدمر عند البعض ، خاصة هؤلاء الذين استسلموا لهذا البحث استسلاما عنيفا ، فسيطر على أرواحهم ، وقبض على

قلوبهم بيد قوية ، وربما كان البحث عن عقيدة هو أخطر أزمات الروح على الاطلاق وهى ليست مجرد أزمة محلية ولكنها أزمة عالمية ، وما أكثر الفراشات التى احترقت فى نار البحث عن عقيدة ، أو نار البحث عن الاب الضائع كما تصوره رواية الطريق لنجيب محفوظ.

ان البطل الجديد عند نجيب هو مثال من الإمثلة العديدة للجيل الخائب ، جيل الانتقال ، الجيل الانتحارى الذى يريد أن يفك طلاسم العالم ، ويرفض التقاليد القديمة ، ويتقدم الى التجارب الجديدة لعله يكشف ما يضنيه ويعيد الانسجام والتناسق الى نفسه ، والى العالم الخارجي معه .

انه الجيل الذى يريد أن يختط لنفسه طريقا جديدا مبتكرا ، الجيل الحساس الذكى ، الذى تفجرت فيه أعظم مواهب الانسان، وأرقى هذه المواهب ، ولم يلتمس لنفسه الصعود والنصر فى مواكب الحياة الاجتماعية وانما التمس هذا الصعود والنصر في مجال الروح والضمير والوجدان . وكانت تعاستهم الكبرى أنهم جاءوا فى بداية التجربة فذاقوا مرارة الالم والفشل .

هذا هو الجيل الخائب الذى يصوره نجيب من قلب واقعنا الانسانى فى هذه المرحلة العاصفة من تاريخ الانسان، أو كما قال نجيب نفسه فى السمان والخريف، وهى العبارة التى أشرنا اليها فى فصل سابق ، حيث يدور الحديث عن بطل « السمان والخريف » :

« أيقن الآن أنه قضى عليه أن يعانى التاريخ فى أحدى لحظات عنفه حين ينسى وهو يثب وثبة خطيرة مخلوقاته التى يحملها فوق ظهره فلا يبالى أيها يبقى وأيها يختل توازنه فيهوى » ..

-٦-

بين الروح والجسد

كان من الطبيعى أن يلتقى نجيب محفوظ بمشكلة الروح والجسد بعد أن بدأ يتجه الى مشاكل الانسان الداخلية العميقة ، تلك المشاكل التى تتصل بعقله ووجدانه وضميره .

ومشكلة الروح والجسد تظهر بوضوح فى رواية « الطريق » بالذات وقد تعرض نجيب لهذه المشكلة فى رواياته السابقة ، ولكنه لم يجعل منها موضوعا رئيسيا الا فى هذه الرواية .

وفى القراءة الاولى لرواية « الطريق » يلوح لنا أن بطلها «صابر» حائر بين الروح والجسد ، وأن شخصية « الهام » فى هذه الرواية ترمز للروح أما شخصية « كريمة » فترمز للجسد . والسبب فى هذه الفكرة هو أن « الهام » تريد أن تقود البطل فى أزمته الى الانسجام مع العالم ، والخلاص من الازمة التى يعانيها ، انها تضع أمامه حلولا لكل مشكلاته . وهناك مشكلات لا حل لها ، وهى ـ أمام هذا النوع من المشكلات ـ تطلب منه أن يتركها للزمن ، أو أن يلغيها الغاء تاما .

وفى المقابل نجد « كريمة » تمنحه جسدها ، وتدفعه الى قتل زوجها العجوز للحصول على ماله ثم الزواج منها . وكما قلت يبدو ـ من القراءة الاولى ـ أن

« الهام » هى الروح ، أما « كريمة » فهى الجسد . وقد فكرت بهذه الطريقة فى البداية .. ولـكن بعد أن عدت الى قراءة الرواية ، وبعد أن قارنتها بآراء نجيب السابقة ، وخاصة فىأعماله الادبية الجديدة التىصدرت بعد الثلاثية .. بعد هذا كله تبين لى أن نجيب انما ينظر الى مشكلة الروح والجسد نظرة أخرى مختلفة .

ان الجانب المادى فى الحيـــاة لا يعنى عنده المعنى المحدود .. ولـكنه يعنى أشياء أوسع وأبعد من هــذا المعنى الضيق .. انه يعنى النظـام والقوة والخلو من التوتر ، ويعنى فىكلمات أخرى : سيطرة العقل والارادة على الحياة سيطرة كاملة .

فهؤلاء الذين يجعلونحياتهم خاضعة للعقل والارادة. ويطردون من حياتهم كل « ما لايمكن حله » وكل « ما لايمكن السيطرة عليه » وكل ما يبدو غامضا صعبا . هؤلاء هم الماديون الذين يمثلون الجانب المادى فى الحياة تمثيلا حقيقيا .. وهذا النوع من الناس هم القـــادرون على أن يسيطروا على مشـــاكلهم الروحية ويستأنسوا هذه المشاكل مهما كانت وحشـــية عنيفـــة .. انهم « أرضيون » اذا صح التعبير . يقصون ريش الخيال ، ويغلقون النوافذ التى يمكن أن تهب منها العاصفة يوما ما ، ويحسبون لكل شىء حسابه ، ولا يفقدون السيطرة على أرواحهم مهما كانت مواقف الحياة مثيرة واليمة .

بهذا المقيـــاس لايمكن أن تكون « الهام » فى رواية « الطريق » رمزا للروح ، بل هى على العكس رمز مثالى للجانب المـــادى فى الحياة . انها تحاول أن تجد حلا لـكل مشاكل « صابر » . فعندما يقول لها « صابر » انه بلا عمل تذهب وتأتيه بكمية من النقود ليبـدأ بها عملا تجاريا . وعندما يقول لها لقـــد كانت أمه عاهرة

تقول له : انس ذلك ، انه جزء من الماضى ، ويجب أن تنسى الماضى .

عندما يقول « صابر » انه يبحث عن أبيه تقول له انتظر حتى يأتيك ، فان لم يأت فلا أهمية لذلك . انك تستطيع أن تعيش بلا أب ، وتنسى «الهام» أن « البحث عن الاب » مشكلة عنيفة تؤرق « صابر » وتزعج روحه اشد الازعاج ، وكأن البحث عن الاب فى نظرها هو مجرد بحث عن المال أو عن ثروة هذا الاب الضائع حتى يجد « صابر » فى ظلها الامن المادى والطمأنينة المادية .. وتنسى « الهام » أن المشكلة فى حقيقتها مشكلة روحية وأن « صابر » قد أصابته جرثومة مدمرة هى جرثومة القلق . وأن فى روحه عاصفة لايمكن السيطرة عليها هى عاصفة الحنين الى الاب ، الى الاصل ، الى النبع الاساسى لحياة هذا البطل الحائر الضائع . أن البحث عن الاب هو كما يقول «صابر» نفسه « بحث عن الحرية والكرامة والسلام » . ولايمكن لهذا « الباحث » الذى امتلأت روحه بفكرة ثابتة واحدة لا تتبدل هى فكرة البحث عن الاب .. لايمكن لهذا الباحث أن يستقر الا اذا تحقق هدفه وعثر على والده ، أما أن يلغى المشكلة أو يؤجلها فذلك أمر لايمكن لروحه القلقة المتمردة أن تطيقه أو توافق عليه .

« فالهام » اذن تمثل طريق العقل الواضح المحدد ، الطريق الذى ليس فيه أى شوك ، الطريق الذى يقضي على العقبات بالغائها والابتعاد عنها واعتبارها غير قابلة للمناقشة ؛ أن « الهام » تنتسب فى الحقيقة الى « الماديين » ولا تمثل الروح كما توهم الكثيرون . وهى تنتسب الى هذا النوع من الماديين ذوى العقول الصلبة ، والارادة الصلبة ، والنزعة العملية المحددة .. انها

لا تريد ولا توافق على الطيران فى الآفاق المجهولة ، بل تصر على التمسك بالارض ، بالواقع ... تصر على التمسك بالممكن دون ان تتعلق بالمثالى او الخيالى أو الغامض ، أو أى شىء آخر صعب المنال .

أما « كريمة » فتمثل شيئا آخر ، انها تستجيب لما تحس به ، سواء كان الذى تحس به سهل التحقيق أو صعب التحقيق ، سواء كان هذا الشىء ممكنا أو مستحيلا ، انها تعرف غايتها ولا تعرف ـ ولا يهمها أن تعرف ـ وسيلة الوصول الى هذه الغاية . لقد أحبت « صابر » فالقت نفسها بين ذراعيه ، ثم أوحت اليه بفكرة الجريمة لكى تتخلص من زوجها العجوز وهو العقبة فى سبيل وصولها الى هدفها البعيد . انها خاضعة لسيطرة عالمها الداخلى ، تتحكم فيها عواطفها العميقة ، وهى لا تعبأ ابدا بصوت العقل . ولا تسمح له بأن يقف أمامها أو يضع فى طريقها عقبة من العقبات ، انها تود ان تطير الى الأجواء الرحبة غير عابئة بمدى قدرتها على هذا الطيران . وتود أن تسبح فى المحيطات الواسعة الغامضة حتى ولو كانت مقدرتها لا تتجاوز السباحة فى القنوات الصغيرة . انها لا تعبأ الا بصوت روحها وصوت عواطفها الداخلية ، حتى لو أدى بها هذا كله الى الكارثة والمأساة والدمار .

هل يمكن أن نقول عن مثل هذه الفتاة المشتعلة انها تمثل الجانب المادى فى الحياة ؟.. أعتقد ان هذا خطأ ، وأعتقد أننا نأخذ الامور بمظاهرها الخارجية اذا قلنا بمثل هذا الرأى . فكل ما يؤيدنا فى هذا الأمر هو أنها تمنح جسدها لمن تحب بالرغم من أنها متزوجة ، اى ان الموقف الاساسى فى حياتها هو موقف حسى ، بل هو أقصى أنواع المواقف الحسية .. انه موقف متصل كل

الاتصال بالجسد وبالشهوة وبالغريزة ، ولكننا لو تركنا هذا المظهر الخارجي ونظرنا الى الدوافع العميقة لوجدنا أنها فتاة تحكمها قوة روحية ، ويحركها دافع روحى ، انها عاطفية متوترة ، مستعدة للمغامرة ، ومستعدة للطيران فى أجواء مجهولة .. بعيدة .. صعبة

و«صابر» بطل الرواية يندفع اليها أكثر من اندفاعه الى « الهام » ، ذلك لانها تتلاءم مع ما فى روحه من اضطراب كبير ، وتأخذ به الى طريق صعب شاق لايسيطر عليه المنطق ولا العقل ، وهذا الطريق أقرب الى طبيعته ، انه يحمل عبئا كبيرا ثقيلا على نفسه هو عبء البحث عن « الاب الضائع » وقد تحمل هذا البحث كله ، وباختياره ورضاه ، وهو لا يريد أن يتنازل عن هذا الامر بسهولة ويسر . ففى بحثه عن « الاب الضائع » تركزت طاقة كبيرة هائلة « تدمدم » فى داخل نفسه ، ان «صابر» منذ البداية خلق لكى يقوم بعمل كبير ضخم ، ولم يخلق لكى يعيش حياة عادية هادئة ، ولو أراد أن يعيش هذه الحياة العادية الهادئة لوجدها . ولكنه فى ظل الهدوء و « العادية » لن يجد تصريفا كافيا لطاقته الروحية والفكرية ، لقدرته على النفاذ والعناد ومواجهة الصعوبات . انه لايستطيع أن يعيش الا اذا أثبت حقه فى الوجود ، وذلك بأن يقوم بتجربة صعبة كبيرة ، تمتص كل طاقته الداخلية العنيفة .

و « كريمة » وحدها هى التى تستطيع أن تصاحبه فى عالمه الصعب ، وتساهم معه فى خوض هذا العالم واحتماله .

بماذا نخرج من هذا كله ؟.. ان الشيء الاساسى الذى توجهنا اليه رواية « الطريق » هو ان الروح عند نجيب محفوظ لا توجد الا حيث توجد أعتى شهوات الجسد.

وأصحاب الروح الحقيقيون هم الذين يملكون « الحيـــوية الجسدية » العنيفة فى نفس الوقت .

ان نجيب من هؤلاء الفنانين الذين ينفذون الى أعماق الاشياء ولا يخدعهم المظهـــر الخارجى ، وكما كان فى مرحلته الفنية الاولى يتتبع جذور الشر فى الانسان حتى يجد بذرته الاساسية فى المجتمع الخارجى ، فهو هنا فى المرحلة الجديدة من أدبه يتتبع جذور الشر ويردها فى النهاية الى الاضطراب الروحى الذى يعترى الانسان ويعذبه ويشقيه ، كما نجد ــ بالتأمل ــ أن «كريمة» فى « الطريق » ليست مجرد جســـــد فائر شـــــهوانى وان « صابر » فى الطريق ايضا ليس مجرد قاتل ، بل هما روحان قلقان شقيان ، كذلك نجد شخصية «نور» فى رواية « اللص والـكلاب » ، انها مومس ، ولـكنها فى أعماقها طيبة ، محبة ، مستعدة للتضحية ، وهى فى النهاية روح شفافة مضيئة ، وسعيد مهران فى « اللص والـكلاب » أيضا ، صاحب نفس قوية نبيلة رغم أنه لص وقاتل .

وفى رواية «الطريق» نجد شخصية « الاب الضائع » حيث يرمز به نجيب محفوظ الى قوة روحية كبرى فى هذا العالم . هذه القوة هى العقيدة الشاملة التى تحل بالنسبة للانسان كل المشاكل والاسئلة التى تشغل عقله وضميره . يصور نجيب هـــذا الاب على انه « يحب النســــــاء » و « يتـــاجر فى الخمـــور » وما الى ذلك من الصفات المادية الحسية المختلفة ، ومع ذلك فنحن نستطيع بشىء من التأنى والتأمل ، أن ندرك ان هذا « الاب الضائع » هو أكبر رموز الروح على الاطلاق. ان روح الانسان لن تصل الى الانسجام الحقيقى المطلق ... الانسجام الصـــافى الرفيع ، الا اذا اتصلت بهذا

الاب الاكبر ، « الاب الضائع » .

وهكذا ، فالمومسات واللصوص والقتلة و«الخمورجية» فى روايات نجيب الاخيرة هم « أصحاب الروح » الحقيقيون ، وقد يصدم هذا القول ذوقنا ويغضبه ، ولكن هكذا شاءت بصيرة الفنان الكبير ، أن يجد الروح حيث توجد الخطيئة وحيث توجد حيوية الجسد المدمرة العنيفة . وبقليل من التفكير والتأمل نجد أن موقف نجيب محفوظ من الروح هو موقف صحيح . ذلك ان المذنبين وحدهم هم الذين يبحثون عن الغفران، وهم الذين يشعرون بالندم ، وهم الذين يريدون التضحية ويحتاجون اليها . انهم هم الذين يتألمون ويتعذبون، أما الآخرون الذين لم يضطربوا ولم يخطئوا ، فكيف ننتظر منهم ما يثير تعاطفنا معهم أو شفقتنا عليهم ، انهم غالبا أصحاب أرواح مستقرة لم تتعذب ولم تعرف المحنة المؤلمة ، وهم لا يحتاجون منا الى عون روحى لانهم يعتمدون على أنفسهم .

فاذا أردت أن تعرف روح الانسان على حقيقتها ، فابحث عن المخطئين والعصاة وأصحاب الحيوية العنيفة وذوى الطموح الذى يخرج أحيانا عن طاقة البشر . ابحث عن هؤلاء ، وانظر اليهم وهم يتعذبون ويتألمون . هنا فقط تظهر أعمق أعماق الروح الانسانية . وهذا هو نفسه ما يكشفه لنا نجيب محفوظ فى رواياته الاخيرة ، وعلى الاخص فى رواية « الطريق » .

وموقف نجيب فى الربط بين الروح والجسد يذكرنا بالموقف المشابه فى الفلسفات الشرقية . فمريم المجدلية ــ فى الفلسفة المسيحية ــ كانت روحا شفافة ، فيها كثير من الاصالة والتصوف ، وقد انطلقت طاقة مريم الروحية بعد أن عانت تجربتها كمومس تبيع جسدها.

ان شرارة الروح قد نبعت من قلب هـذه التى باعت عرضها يوما ما ، وقدمت جسدها للجميع ، لقد أصبحت مريم أكثر الاظهار طهرا بعد أن غاصت بكل كيانها فى تجارب المومسات .

وفى التصوف الاسلامى كثيرا ما نجد هـــذا الموقف « الرمزى » حيث تتجسد العاطفة الصوفية الراقية — غالبا — فى صورة مادية حسية . ولذلك كان « عمــر الخيام » متصوفا اسلاميا رفيع المقام وهو فى نفس الوقت داعية من دعاة الحس .. فما أكثر ما نجد فى رباعياته دعوة الى المتعة .. الى الشراب ، ومجالس الشراب .. دعوة الى توديع الهدوء والاستقامة ، والدخول فى عالم تملؤه كئوس الخمر وملذات الحواس .

وليس هناك لحظة من لحظات الشقاء الروحى عند « الخيام » الا وهى مرتبطة كل الارتباط بالدعوة الى المتعة الحسية ، بل انه يستدل على وجود الله نفسه بوجود المعصية البشرية ، فلولا وجود المعصية لما كان هناك مبرر للغفران من الله ، والغفــران هو العلامة الـكبرى لهذا الكائن الالهى العظيم ، ويقول « الخيام » فى هذا المعنى « ترجمة رامى » :

ان كنت لا تغفر ذنبى
فما فضلك يارب على العالمين

ان الارواح القلقة كما يصورها نجيب محفوظ ، غالبا ما توجد مع الحيوية الجسدية الفائرة . فليست الروح عند نجيب محفوظ هى الزهــد والتصوف الجاف . وليست الروح هى العقل الهادىء البــارد ، أو الارادة الصارمة المستبدة المتحكمة ، ولـكن الروح هى هـذه الطاقة العنيفة الـكامنة فى داخل الانسان ، والتى تنفجر فى أكثر الاجساد حيوية واندفاعا الى استغلال طـاقتها

الجسدية . ان الجسد الحى المشتعل هو طريق الروح.
ولن تجد عنــد نجيب فى رواياته الجديدة تلـك الروح
الذابلة ، الجـــافة ، المتزمتة التى تقف وحـــدها فى
الصحراء . هذه ليست روحا حقيقيـــة ولـكنها روح
صفراء كأوراق الخريف وليس فيها ما يجذب فنـانا
مثل نجيب محفوظ لا يغفل عن متابعة هذا الازدواج بين
الارواح القلقة والنشاط الجسدى العنيف .

-٧-

الأب الضائع

في رواية « الطريق » لنجيب محفوظ يعاني البطل « صابر » مأساة من نوع غريب ، هي مأســاة « الاب الضائع » . ان « صابر » يبحث عن ابيه ، ويبذل كل جهده للوصول الى هذا الاب . ولـكنه يفشل. وفقدان الاب هو المـأساة التى تنبع منها كل المشاكل للبطـل بعد ذلك . وكل ما يتعرض له من نكبات . ان هــذه المـأساة .الاساسية هى السحاب الـكثيف الذى يمطر فوق حياة البطل كل المشاكل والعقبات .

وهذا « الاب الضائع » فى جو الرواية يشير الى فقدان العقيدة . فالبطل رمز للانسان الذى يبحث عن عقيدة شاملة تملأ حياته وتعيد اليه ايمانه وتناسقه النفسي .

فالاب الذى يبحث عنه البطل هو الله او هو العدالة أو هو المبدأ الاول الذى ينير كل شيء أمام البطل ويخرجه من الظلام الذى يحيط به ، فلا يعرف اين يســير ولا كيف يتصرف .

وهنا لابد أن نعود الى ما ذكرناه من قبــل من أن البطل الجديد عند نجيب محفوظ هو بطل ذكى حساس طموح . لايكتفى بأن يكرر حياة الآخرين ويكون نسخة متشابهة منهم ولا يكتفى بالاستقرار المـادى . انه ليس واحدا من الواقفين فى الطابور البشرى الطويل والذين « يولدون ويتأثرون بالبيئة ، ويتعذبون أو يفرحون ـ

حسب ظروفهم ـ ثم يموتون » كلا .

ان البطل الجديد عند نجيب محفوظ واحد من الذين يولدون ويخرجون عن الطابور العادى . ويقفون على تل مرتفع من الذكاء والحساسية ثم يكتشفون أن حيـــاة الانسان ليست «مستوية» كما تبدو فى النظرة العادية . بل أنها تطل على هوة كبيرة مجهولة .

هذه الهوة هى التى وقف أمامها يوما أديب روسيـا الكبير تولستوى ، فمزقت حياته وبددت سلام روحه ، والغريب أن قلق تولستوى كان يلبس ثوبا من الايمان العميق . ولـكن مشكلته الـكبرى ، هى انه كان يرفض الايمان التقليـــدى ، كان يريد ايمانا جديدا مستقلا متميزا نابعا من نفسه . كان يريد ايمانا خاصا به. ومن اجل هذا الايمان الجديد المتميز اختصم مع أسرته ، واختصم مع الـكنيسة التى رفضت ايمانه واعتبرته الحادا وزندقة . بل لقد اختصم مع العالم كله ، ومات ، وهو الـكونت الواسع الثراء ، فى كوخ خشبى بعيد عن قصوره وأرضه ، هاربا من العالم والناس .

وأمام هذه الهوة وقف نيتشه ذلك المجنون الاعظم ، ليقول : لقد مات الله ! ! وهكذا تمرد نيتشه وثار . ورفض وأنكر ، ولـكنه لم يجد فى هذا كله شيئا من الطمأنينة أو الراحة فأصيب بالجنون ! !

وكان دستويفسكي ، معـــاصر تولستوى وجاره فى السكنى على قمة الادب الروسي والادب الانسانى كله ، يرفض أن ينكر أو يتمرد لانه كما قال على لسان أحد أبطاله : « اذا كان الله غير موجود فكل شيء اذن جائز» . لان الله هو الضمير والمحبة وكل ما ينبع منهما من قيم . فاذا كان غير موجود ، فالقتـــــل والسرقة والقسوة والعنف .. كلها بدون الله جائزة مباحة ، ومع ذلك فهذه

الفكرة اللامعة لم تنقذه من عذاب البحث عن عقيدة شاملة ترد الى قلبه الايمان والطمأنينة . ولقد تمزقت نفسه هو الآخر فى هذا البحث المخيف .

وهناك مئات النماذج فى عالم الفكر والفن ، كلها تبحث عن عقيدة ، وعن ايمان ، وعن طمأنينة فى القلب تمنحها العقيدة والايمان .

وهذه المشكلة بالذات هى المشكلة التى يعالجها نجيب محفوظ فى روايته « الطريق » ، انها مشكلة بطل الرواية « صابر » ، واذا كانت هذه المشكلة قد اجتذبت اليها الكثيرين فى أوروبا فى القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن ، فانها لم تظهر فى أدبنا وتفكيرنا الا فى الفترة الاخيرة ، بعد أن انتشر الوعى ، وتعمق ، وظهر هذا النموذج الانسانى القادر على احتمال مثل هذه المشاكل الكبيرة ، انها مشكلة يعانيها الكثيرون من أبناء هذا الجيل على درجات متفاوتة ، ولا شك أن نجيب نفسه يعانيها بقوة وعنف ، فهى تشغل روحه وتملأ وجدانه الى أبعد الحدود .

نعود بعد ذلك الى رواية « الطريق » ... ان المقدمة الانسانية لمأساة البطل « صابر » هى موت أمه ، ان مأساته تبدأ تماما منذ اللحظة التى تلفظ فيها الام انفاسها، وهكذا نحس احساسا كبيرا بأن نجيب يرمز الى شىء محدد . هو أن مأساة البطل ، الذى هو رمز للباحثين عن عقيدة او عن « اب ضائع » ، هذه المأساة قد مهد لها موت الام أى موت الحنان والتعاطف المطلق النبيل ، لقد كانت الام تمثل هذا الحنان الغامر الذى لا يطلب شيئا فى المقابل . كانت هذه الام تفعل كل ما تحب وما لا تحب لتوفر لابنها جوا مليئا بالحنان دون أن تطلب منه شيئا على الاطلاق. كانت تعمل ، وتسرق،

وتبيع جسدها ، وتشاغب وتفعل أى شيء وكل شيء ، لا لكي توفر له مالا كثيرا ، وسكنا سعيدا ، ورخاء دائما فقط ، فهذا كله يهون أمام شعوره بالحنان الذى حرصت هذه الام على أن توفره لابنها . كل شيء فى هذه الدنيا يهون ولا يشعر ابنهـا الحبيب بلحظة حزن أو بسحابة من الكآبة تمر على قلبه ، أو بدمعة تذرفها عينه كتلك التى يذرفها كل انسان وحيد لا يعرف دفء الحنان ولا لمسات الحب الطيبة. الجميلة التى تسد فى حياته كل منابع الالم .

لقد ماتت أمه اذن ، مات الحنان ، مات الجناح الذى كان يحنو عليه ويدفئه ويحول بينه وبين عواصف الآلام والايام والدموع .

هذه هى بداية رواية « الطريق » ، وهى صـورة رمزية تقدمها هذه الرواية الجميلة عن « خلو عصرنا من الحنان » فالانسان يتيم مثل « صابر » ، بلا أم ، بلا جناح دافيء حنون ، ففى عصرنا نجد تقدما فى كل ما هو عقلى وعملى ولـكن عاطفة الحنان ، بالتأكيد ، غائبة .

وفى غياب هذه العاطفة تصبح مأساة «الاب الضائع» مضاعفة فلو وقعت هذه المـأساة فى جو من حنان الام لـكانت أخف وأهون وأقل دمارا فى النهاية .

وليسمح لى القارىء فى أن أستطرد هنا قليلا لاعود الى صفحة من ذكرياتى الخاصة ، لقد كنت منذ أكثر من عشرين سنة تقريبا أرى بعض أصدقائى يجلسون على مقهى بلدى متواضع فى ميدان الجيزة يأكلون سندوتشات الفول والطعمية ويستعيرون الـكتب من بعضهم ولا يملكون الا القليل ، ولكننى كنت أحس دائما انهم مليئون بالنشوة ، وأنهم يستقبلون الحياة بمحبة وفرح وسعادة ، والآن أرى بعض هؤلاء ، يجلسون فى أرقى الاماكن وقد

سافر بعضهم الى أوروبا ، وعرفوا الدنيا الواسعة وتعمقت ثقافتهم وتنوعت وامتلأت أيديهم بالمال اكثر من قبل، ومع ذلك كله أحس احيانا – عندما أراهم – أنهم منقبضون ينقصهم شيء ما .

لقد كانوا فى الماضى ، عندما كان ينقصهم كل شيء بالفعل ، يبدون وكانهم لا ينقصهم شيء على الاطلاق . وهم يملكون الآن الكثير ، ولكنهم مع ذلك ، أسرى فى مملكة الحزن الكبير .

ليست هذه الصورة دمعة رومانسية على الماضى ، ولكنها تصوير لما أعنيه بفقدان « الحنان » ، ونمو الطابع العقلى والمادى للعصر الذى نعيش فيه ، فالحياة المادية أكثر نضجا وعمقا من الحياة العاطفية والروحية .

ويبدو لى أن هذا هو ما يعنيه نجيب محفوظ بموت الام فى بداية الرواية ، يخيل لى أننى لا ابعد كثيرا عن الرواية وروحها اذا قلت : ان موت الام – أى غياب الحنان – يعنى أن عالمنا الحديث قد أضعف القوى التى كانت تمنحه هذا الحنان مثل الفن والدين والعلاقات الاسرية الواضحة ، وغير ذلك من القيم الانسانية ، كل هذا فى سبيل انتصارات أخرى لاشك أنها عظيمة الاهمية والقيمة ولكنها كلها ، كما أشرت ، ذات اتجاه عقلى عملى مادى .

على أن نجيب محفوظ وهو يصور فى رواية «الطريق» مأساة « الاب الضائع » ومأساة البحث عن عقيدة شاملة وايمان كبير فى جو خال من الحنان الحقيقى العميق .. عندما يصور نجيب هذه المأساة فانه لا يغلق جميع الابواب ، ففى قلب هذه المأساة تحس بشعاع من التفاؤل . فالاب موجود فى هذا العالم وان كان الابن لم يعثر عليه . هكذا تقول لنا الرواية : ان عدم العثور

على الاب لا ينفى انه موجود ، وان البحث عنه ممكن ، ومعنى هذا بكلمات أخرى : ان الانسان العصرى مهما تمزقت روحه فى سبيل البحث عن عقيدة شاملة ، ومهما وجد فى هذا البحث من الشقاء والتعاسة .. فان هــذا كله لن يصدم الانسان بجدار من اليــأس المطلق الذى يسد الطريق ويقف فى وجه الباحثين . سيظل عنــد الانسان دافع قوى للبحث وأمل كبير فى العثــور على هدفه والوصول الى غايته .

غير أن رواية « الطريق » وهى تؤكد لنـــا أن الامل قائم وموجود ، تقول أن البحث عن عقيدة هو فى حد ذاته مهمة شاقة ، انها مهمة تكمن فيها بذرة الــكارثة الحقيقية لاصــــحابها ، وذلك لانهـــا تفجر فى عقولهم وأرواحهم « رؤى » مخيفة ، فهم يبدأون عادة من الشك الــكبير الغامر فاذا كان شكهم فى العقائد الدينية فمعنى هذا أنهم يواجهون الموت بفزع عظيم ، واذا كان شكهم متجها الى العقائد الانسانية فمعنى هذا أن الحياة تبدو لهم غير منطقية وغير معقولة ، ولا يمكن اصلاح ما فيها من فساد كبير ، وكل هذه الرؤى بالطبع ليست حمــلا خفيفا على الروح ، بل هى حمل ثقيل وعبء لايطاق .

ومع ذلك فان رواية « الطريق » تقول ان الامل فى الوصول قائم لايموت .

ونجيب محفوظ هنا أشـــــــــبه بطبيب الامراض المستعصية ، الذى لا يفقد أمله أبدا فى الوصول يوما الى علاج حاسم .

وهذا الامل الذى يلوح فى هذا الجو الحزين المفجع الذى تقدمه رواية « الطريق » ، هو أمل ينبــــع من شخصية نجيب محفوظ ، فأدب هذا الفنان لا ينم عن شخصية قاسية ، ولا ينم عن شماتة فى مأساة الانسان

كما نلاحظ مثلا عند أديب مثل سومرست موم ... على العكس انك تشعر دائما بتيـــار من الرحمة والعطف والشفقة يجرى تحت السطح الخارجى لاعماله الفنية.

ففى رواياته الجديدة تشعر بأن نجيب محفوظ يتدرج بك مع مأساة أبطاله خطوة خطوة حتى تشعر عندما تحل بهم الكارثة أنهم ضحايا ، وان هـذه الكارثة ليست عقابا على خطأ ارتكبوه ، فأخطاؤهم نفسها قد جاءتهم من الحساسية والقلق والشهوة العنيفة لاصـلاح العالم ، وعدم العثور على الطريق لهذا الاصلاح ، ولذلك فأنت تحس انهم نالوا عقابا محزنا مفجعا كأنه عقـــاب يحل بجماعة من الابرياء .

وفى رواياته الجديدة تشعر بأن ابطال نجيب ، هؤلاء الحساسون المغـــامرون الاذكياء انما يثيرون فى النفس الكثير من العطف ، وهو عطف ينبع من بناء المواقف الروائية نفسها ، أى أنه عطف مستمد من قلب الفنان الذى غذى هذه الرواية من حرارة احســـاسه وفكره .

ان هؤلاء الابطال مثيرون للعطف والشفقة ، حتى فى أكثر لحظاتهم « نذالة وانحطاطا » ، فنحن نشـــعر بالعطف على « صابر » فى الطريق وهو يبحث عن أبيه فيضل ، ويدفعه ضلاله الى الجريمة ، ونحن نشـــعر بالعطف على سعيد مهران فى « اللص والكلاب » ، وهو يقتل خطـــأ بعض النـــاس بدلا من أن يصيب أعداءه الحقيقيين ... اننا نعطف على القاتل أكثر من عطفنـــا على المقتول فالمقتول مســكين نعم ، ولكن القاتل أكثـــر عذابا وهوانا وضياعا ، انه ليس قاتلا بطبعه ، ولـكنه يريد أن يحقق العدالة وينتقم من الذين أســـاءوا اليه وعبثوا بحياته ، ولكن عدالته تتحـــول الى أحكـــام بالاعدام ضد جماعة من الابرياء .. فهذا المحب للعدالة ،

الذى يريد أن يحققها بلا قضاة ولا محاكم ، يتحول الى اداة فى يد الظلم .. ثم يكتشف ـ ويا لهول ما يكتشف ـ انه يقف فى صف الظالمين الذين يكرههم ، بل انه أكثر منهم ظلما وسفكا للدم ... وهكذا يزداد احساسه المر بالعذاب والفشل .

لنجيب اذن قلب رحيم عطوف محب ... وهو لذلك لايرفض أن يكون طبيبا يتصدى لامراض النفس البشرية ولا يفقد الامل فى العلاج .. ولكنه يجد فى مهنته كطبيب من هذا النوع عذابا كبيرا ، اولا ، لانه كثيرا ما يصاب بالمرض الذى يعانى منه مرضاه ... وهو يكاد ثانيا يقول لنا : أنا طبيب فعلا .. ولكننى لا أريد أن أعالج الناس من الزكام والصداع ولا أريد أن أعالجهم من السل وما الى ذلك من الامراض الخطيرة ، فكل هذه الامراض قد اكتشف لها العلم كثيرا من ألوان العلاج ، فأصبحت مهما كانت خطورتها أمراضا مستأنسة ، يمكن السيطرة عليها ولكننى أريد أن أكون طبيبا يعالج المرض المستعصى الذى لا علاج له حتى الآن والذى لم يستأنسه أحد بعد ، انه يفترس الانسان بلا رحمة ولا هوادة ، ويبدو الانسان أمامه مغلوبا على أمره ... ولا يملك الأطباء أمامه ، الا أن يتفرجوا على الانسان وهو يتهدم أمام معاول المرض المستبد الشرير الذى لا يقوى عليه حتى الآن طب ولا علم .

ومع ذلك فهناك أطباء شجعان يتميزون ببسالة الروح ، تركوا الامراض العادية ، والامراض التى اصبحت خطورتها محدودة ، تركوا ذلك ليواجهوا أخطر الامراض وأعصاها على الاطلاق ، فماذا فعل هؤلاء الاطباء ؟ انهم لم يعملوا حتى الآن أكثر من التأمل فى هذه الامراض ودراستها وتحليلها .. انهم يهتمون

بتشخيص المرض ، ويبذلون جهودا جبارة لكى يكون هذا التشخيص دقيقا كل الدقة ، عسى أن تكون هذه الجهود مقدمة لاكتشاف سلاح حاسم ضد هذا المرض.

ونجيب اذا كان – فى عالم الفن – طبيبا فهو أحد أطباء هذه الامراض المستعصية ، انه يترك الامراض العادية لينازل مرضا مخيفا صعبا مفترسا لا حل له حتى الآن ، وهذه المنازلة الجريئة تحتاج الى ايمان عميق بأن الحل ممكن وان هذا الحل موجود ، ويجب أن نبحث عنه ، حتى لو كان هناك من يسقطون فى طريق البحث .

وهذا ما تقوله رواية « الطريق » .

ان « صابر » قد سقط فى بحثه عن « الاب الضائع » عن الايمان الكامل ، ولكن هذا الاب موجود ، صحيح أن «صابر» لم يعثر عليه ، ولكنه موجود يملأ العالم ، ويجب أن يستمر فى البحث عنه بشجاعة روحية واصرار وجدانى كامل .

ان الدليل على وجود هذا الاب هو دليل باطنى يعتمد على الشعور والاحساس أكثر مما يعتمد على الواقع المادى الملموس .

والطبيب العادى – عادة – يقول : ان الشىء الذى لايوجد عليه دليل مادى ملموس يجب علينا الا نبحث عنه... لانه لا حيلة لنا فيه... ولكن الطبيب العظيم غير العادى يقول : ان الحل موجود ، حتى ولو لم نعثر عليه الى الآن ... وبمثل هذه الفكرة الخلاقة الدافعة يستمر الطبيب العظيم فى البحث والتنقيب .

والمرض الخطير الذى يواجهه نجيب محفوظ فى رواياته الاخيرة .. وعلى الاخص رواية « الطريق » ، هذا المرض لايمكن أن نسميه فى كلمة واحدة .. بل يمكن

ان نصفه فنقول :

انه القلق الناتج عن فراغ حيـــاة الانسان من فكرة شاملة ، تريح نفسه وتجيب على جميع الاسئلة الاساسية الحائرة فى حياته ، ونجيب محفوظ يواجه هذا المرض الخطير بنفس الدافع الذى يواجه به أى طبيب عظيم مرضا خطيرا مجهول العلاج .. هذا الدافع هو الاحساس الباطنى العميق بأن هناك حلا أو علاجا مهما ولو كان ذلك امرا غامضا ومجهولا بالنسبة لنا حتى الآن .

فروايات نجيب محفوظ الاخيرة أشبه بالتجارب التى يجريها كبار الاطباء على الامراض الخطيرة .

كل ذلك رغم أنه ــ حتى الآن ــ لا دواء ولا شفاء من مرض البحث عن يقين كامل وايمان مطلق يقودان الانسان الى جزيرة لا تعرف فيها الروح معنى القلق أو التمزق ، ولا يشعر فيها الانسان باليتم من ناحية الام ، وباختفاء الاب وضياعه ، ومعه تختفى بالنسبة لاصحاب هـــذا النوع من المرض الروحى كل معانى الحرية والكرامة والسلام ، فلا يجدون أمامهم سوى طريق ملآن بالشوك والنكبات .

انها أزمة حقيقية كبرى من ازمات العصر ، وهى أزمة شائعة فى هذا الجيل بالذات ، فلا يوجد مذهب انسانى واحد يحمل الحل الكامل النهائى لمشـــاكل الانســـان الاجتماعية والنفسية ، وهذه الازمة .. يعبر عنها نجيب محفوظ أجمل تعبير فى رواية « الطريق » ، ويرمز فيهـــا « بالاب الضائع » الى ضياع اليقين الحاسم والعقيـــدة الشاملة التى تعطى للانسان حلا لمشاكل الواقع والنفس والمصير .

بعد هذه الرحلة مع روايات نجيب محفوظ الجديدة هل يمكننا ان نجد موقفا فلسفيا عاما يميز أدب نجيب

محفوظ الجديد ويحدد نظرته الى الحياة ؟

قد يثير هذا السؤال اعتراضا عند البعض ، فالمهم فى نظر هؤلاء ان يكون الفنان أصيلا فى عمله الفنى ، هذه هى مهمته الاولى والاساسية والوحيدة ، ومن حسن الحظ يبدو أن أصحاب هذا الرأى لايمثلون نسبة عالية فى الواقع الادبى عندنا ، بل ربما كانت المشكلة عكسية ، فالذين يطلبون من الفنان توضيح موقفه الفكرى والفلسفى أكثر بكثير من الذين يطلبون منه الاهتمام بالفن أولا وقبل كل شىء .

وعلى كل حال فاننا لن نستطرد فى مناقشة هذه المشكلة ، فالبديهيات هنا تكفينا الى حد كبير ، ومن البديهيات ان صاحب الفلسفة أو العقيدة ما لم يكن فنانا أصيلا فانه عن طريق الفن الردىء سوف يقتل عقيدته أو فلسفته ، وسوف يتحول من فنان يستطيع التأثير على العقل الانسانى والوجدان الانسانى الى مدرس أو خطيب ، ويتحول عمله الفنى بالتالى الى كتاب تعليمى أو خطبة منشورة ، وهذا النوع من الكتب والخطب ضعيف التأثير على جماهير الفن ، وكثيرا ما يكون تأثيره عكسيا يدعو الى النفور .

واذا كان هذا الأمر صحيحا بالنسبة لكل فنان فى كل العصور ، فهو ينطبق على الفنان فى عصرنا الحاضر اكثر من أى عصر آخر من عصور التاريخ .

لقد أصبحت « الديمقراطية الفكرية والروحية » ـ اذا صح التعبير ـ شائعة فى هذا العصر .

وأعنى بهذا النوع من الديمقراطية ان المشاكل التى كانت فى العصور القديمة من شأن قلة قليلة من « النخبة » و « الصفوة » فى المجتمع الانسانى ، هذه المشاكل قد أصبحت عامة شائعة بالنسبة للجميع ،

ولقد كان شيكسبير مثلا فى القرن السادس عشر اذا أراد أن يكتب عن مشكلة « القلق والانقسام الروحى » لم يجد سوى الامير « هاملت » ليعبر من خلاله عن هذه المشكلة .

أما فى عصرنا الحالى فباستطاعتنا أن نجد «هاملت» هذا موظفا فى الدرجة السابعة أو عاملا أو محررا فى احدى الصحف أو طبيبا فى قرية .

كان المنطق القديم يرى ان مشاكل الروح الكبرى لا تعترى الا أصحاب الجاه والسلطان فى المجتمع الانسانى من امراء ونبلاء وأشراف ، أما الجماهير العادية فهى لا تعرف مثل هذا القلق ولا يحق لها أن تعرف مثل هذا القلق ، أما الآن فقد ظهر فنان مثل جوركى ليكتب عن أحد الصعاليك المتشردين فى قصة قصيرة له ، واذا بهذا الصعلوك يكاد يشعر على طريقته بنفس الاحزان والهموم التى يعانيها « هاملت » ، وتستبد بروحه هذه الهموم استبدادا كاملا .

واذا كان هذا صحيحا فى مشاكل الروح والفكر فان هذه الحقيقة تعتبر أكثر انطباقا على مشاكل السياسة وكل ما يتصل بتنظيم المجتمعات الانسانية .

ان المواطن العادى الآن يفكر فيما يفكر فيه الحكام وذوو السلطة المادية والفكرية على السواء ، ولذلك لم يعد مقبولا فى هذا العصر أن ينفصل الفنان عما يدور حوله من مشاكل وعما يتردد من أسئلة فى حياة الناس ونفوسهم .

ونجيب محفوظ كأى فنان كبير كانت صلته بعصره فى مختلف مراحل فنه أكيدة وعميقة ، وهذا الموقف لايعود الى « مذهب سياسى » التزمه نجيب محفوظ فهو فيما أعتقد ليس من ذوى المذاهب السياسية التى يكتب

أصحابها بوحي منها وتطبيقا لها ، انه يقترب فى تحليلاته الاجتماعية من هذا المذهب أو ذاك ، ولكنه لم يكن ابدا من أصحاب المذاهب المحددة الصارمة التى لا تسمح لفنه بالحركة الا فى اطارها المحدد .

اننا عندما نقرأ مثلا « هواردفاست » الكاتب الروائى الامريكى المعروف نشعر على الفور أننا أمام كاتب ماركسى فى نظرته للانسان ، وفى تحليله للتاريخ خاصة فى رواياته التاريخية عن « توم بين » أو « سبارتاكوس » أو غير ذلك .

وعندما نقرأ برنارد شو نشعر من اللحظة الاولى اننا امام كاتب اشتراكى يصدر فى كتابته عن الفهم الاشتراكى ويدعو الى المجتمع الاشتراكى ويحارب أعداءه ، ولكننا لا نستطيع أن نحس الامور بهذه الصورة المباشرة المحددة عند نجيب محفوظ ، بل كل ما نستطيع أن نقوله ونكون أقرب الى روح هذا الفنان الكبير : انه يلتقى فى تحليلاته بهذا المذهب أو ذاك من مذاهب السياسة أو مذاهب الفلسفة .

واذا لم يكن ارتباط نجيب بعصره راجعا الى التزامه لمذهب سياسى أو فلسفى محدد فالى أى شىء يعود هذا الارتباط اذن ؟

فى اعتقادى ان هذا الارتباط يعود الى عدة أمور : فمحاولة فهم العالم الخارجى من ناحية تبدو وكأنها غريزة عند أى فنان كبير ، فالفنان الكبير يكون عادة صاحب شهية غير عادية تدفعه بقوة لا حدود لها الى فهم أكثر وأبعد ما يمكن فهمه فى هذا العالم الذى يعيش فيه ، ان الفنان الكبير عادة يستعين بالوسائل المعروفة مثل القراءة والدراسة والتجربة الذاتية وبالوسائل التى لايمكن أن تتوفر الا للقلة مثل نفاذ البصيرة وقوة الخيال

وما الى ذلك .

ان شهوة المعرفة التى بلا حدود تكاد أن تكون غريزة عند كل فنان كبير ، ولعلنا نذكر تلك الامثلة التى أشرنا اليها فى الفصول السابقة ، فقد كان فلوبير مثلا قارئا مجنونا بالقراءة ... كان يقرأ ويسجل ملاحظاته بلا توقف ، وهو يستعد بالقراءة خمس سنوات متتالية لكتابة روايه واحدة ، وهناك « بلزاك » الذى كان يدفع الاموال لبعض الاسر حتى يعيش بينها ويمتزج بحياتها طويلا لكى يعرف بعد ذلك كيف يكتب عن حياة البورجوازية الفرنسية .

وفى عصرنا لا نستطيع أن ننسى شخصية همنجواى ، ذلك الذى جعل التجربة المباشرة أساسا من أسس المعرفة فى حياته ، لقد أخذ يجرب ويجرب بلا خوف ولا حذر . وتعرض للموت أكثر من مرة عندما كان يلقى بنفسه فى جبال افريقيا وغاباتها ، ويتعرض بذلك الى خطر قاتل ، أو عندما اشترك فى الحرب الاهلية الاسبانية أو عندما جعل الصيد مغامرة يومية من مغامرات حياته ، كل ذلك لكى يتذوق طعم الحياة بنفسه ، ولكى يرضى هذه الشهوة العامة للمعرفة فى داخل نفسه العبقرية .

هذه الشهوة نفسها تتحكم فى نجيب محفوظ ، انه يريد أن يفهم ما حوله وأن يعثر على تفسير لهذه الصورة القاتمة لاوضاع المجتمع وأوضاع الحياة .

هذه الشهوة للمعرفة ، والتى هى صفة عامة عند كبار الفنانين ، ليست هى وحدها التى تفسر لنا ارتباط نجيب بعصره ومجتمعه ، فهناك أمران آخران يفسران فى نظرى نفس الظاهرة .

الامر الاول هو أن نجيب يتميز الى حد بعيد فى تركيبه الفكرى بالنظرة الموضوعية ، انه ليس من أصحاب

« الامزجة » المغلقة على نفسها ، بحيث تحجب عنه احاسيسه الخاصة وأفكاره الذاتية كل رؤية لمشاكل الوجود الخارجي ، حتى تبدو هذه المشاكل الخارجية ـ أن بدت ـ فى اطار كثيف من المشاكل الذاتية .. انه موضوعي يثيره العالم الخارجي ويجذبه اليه ، ويحفز فيه شهوة الفهم والتنقيب والبحث عن تفسير .

أما الامر الثاني فهو ما يبدو وراء أدب نجيب محفوظ من « طاقة أخلاقية » كبيرة لها تأثيرها العظيم فى نظرته الى الامور .

انه يملك قدرة كبيرة على المشاركة الروحية والعقلية، يملك القدرة على أن يتعدى نفسه لكى يتأمل ويفكر ويدرس مشكلة « الآخر » ثم يتبنى هذه المشكلة ويتخذ من عمله الفنى وسيلة لكى يصورها فى أمانة فنية عميقة ، لذلك نجد أن نجيب محفوظ يندفع فى انتاجه الادبى قبل الثورة الى تصوير المشكلة الاجتماعية تصويرا عميقا نفاذا ، لا يقف عند السطح الخارجي ، وهو يفعل ذلك دون أن يرتبط بمذهب سياسي واضح محدد ، ولكنه يتحرك بقوة أساسية ، هى قوة ضميره الذى دفعه دفعا عنيفا الى الارتباط بالآخرين ومشاركتهم عن طريق العمل الفنى مشاركة غامرة .

هذه العوامل كلها جعلت من الطبيعى أن يرتبط نجيب محفوظ بمجتمعه وعصره وأن يفعل ذلك دون دافع من مذهب سياسى أو فلسفى معين ، فهذه العوامل جزء من قواه الداخلية وتركيبه الخاص كفنان ، كل هذا ساعده على ايجاد هذا الخيط الكبير الذى يربط بين أدبه وبين الحياة الواقعية والفكرية فى جيله وعصره .

على أن هذا الارتباط الثاقب الاصيل اذا كان قد تم بدون سيادة مذهب أو نظرية ، فانه قد وصل بنجيب

فى نهاية الامر الى موقف فكرى عام يمكن أن نستخلص ملامحه من انتاجه الادبى الغزير .

ومهما تحدثنا عن هذا الموقف أو استطعنا أن نصل فيه الى خطوط واضحة ، فمن المؤكد أننا نستنتج هذا الموقف الفكرى ، لانه موقف ينبع من أعمـــال نجيب الفنية ، فهذه الاعمال هى الاصل وهى الاساس وليس الموقف الفكرى فيها منفصلا أو مستقلا عن العمل الفني.

ما هو هذا الموقف الفكرى ؟

فى المرحلة الاولى من أدب نجيب وهى المرحلة التى انتهت بثلاثية « بين القصرين » و « قصر الشـــوق » و « السكرية » نستطيع أن نقول ان تحليـــل نجيب محفوظ للظواهر المختلفة هو تحليـــل قريب جدا الى التحليل المادى .

فهو يفسر المـــأساة التى يتعرض لها أبطال رواياته على ضوء الواقع الاجتماعي الخارجي .

ففى رواية « بداية ونهاية » مثلا ، تبدأ المـأساة فى عزف سيمفونيتها المتنوعة الحزينة العريضـة بعد موت الاب ، وموت الاب مأساة كبرى فى المجتمع القديم وهو المجتمع الذى لا توجد فيه ضمانات من أى نوع ، لا أحد يضمن الخبز للانسان ، ولا أحد يضمن العمل ، ولا أحد يضمن التعليم ، ولا أحد يضمن الشرف والـكرامة ، ان كل هــــذه الضمانات كانت تتركز فى الاب أى فى القوة الاقتصادية للأسرة ، وعندما تنهار هــذه القوة يتخلى المجتمع عن كل مسئولية نحو هذه الاسرة وتبدأ المأساة التى تحيط بالجميع وتفسد حياة الجميع .

هذا النحو من التحليل هو التحليل السائد فى مرحلة نجيب محفوظ الاولى وهو تحليل صائب تماما ، فقد كان الموضوع الاساسى فى روايات نجيب محفوظ الاولى

ـ كما أشرنا من قبل ـ هو المأساة الاجتماعية ، والمأساة الاجتماعية تعود فى معظم عناصرها ان لم يكن فى كل عناصرها الى أسباب قائمة فى المجتمع نفسه ، فى تنظيمه وفى أوضاعه الاقتصادية وفى القوانين المختلفة التى تتحكم فيه وتسوده .

فالتحليل المادى هنا تحليل صائب دقيق ، وهذا هو التحليل الذى لجأ اليه نجيب محفوظ ، ويجب الا ننسى ان نجيب لم يقدم هذا التحليل المادى بطريقة عامة أو مباشرة أو مكشوفة ، فلقد فعل ذلك فى اطار مقدرته الخصبة والتى تجعل من موهبة خلق الشخصيات الروائية المقنعة الحية عنده موهبة فنية من الدرجة الاولى .

وفى هذه المرحلة أيضا من ادب نجيب محفوظ توجد بذور متناثرة تكشف عن هموم روحية مرتبطة بالنفس الانسانية أكثر من ارتباطها بالواقع الاجتماعى ، من هذه النماذج احمد عاكف فى « خان الخليلى » ، ذلك القلب الجاف الذابل الذى لا يجد قطرات الندى الا فى قراءة بعض الكتب الصفراء ، ومن هذه النماذج أيضا « كمال عبد الجواد » الحائر المثقف الذى يسيطر عليه شعور عميق بالوحدة فى هذا العالم .

انها نماذج متناثرة لا تكون اتجاها أساسيا فى روايات نجيب الاولى .. ولكنها موجودة مع ذلك ولها قيمتها وحيويتها العميقة .

ماذا فعل نجيب فى مرحلته الفنية الثانية ؟ ان نجيب فى هذه المرحلة لم يتخل عن التحليل المادى للمشاكل التى يتعرض لها ، فما زال العالم الخارجى فى رواياته الجديدة يلعب دوره الاساسى فى تشكيل مأساة الانسان كما يعرضها نجيب ويكشف عنها .

ما من رواية واحدة خلت من سطوة هذا العالم الخارجي ونفوذه وتأثيره على مواقف الابطال .

ففي رواية « الطريق » مثلا نجد أن الموقف المادى للبطل أساس من أسس أزمته ، فهو بلا عمل وهو يرفض بيئته المادية القديمة المنحلة ، ويريد شيئا جديدا منسجما متناسقا ، ولقد كان هذا البطل يقترب من الوقوع في الهاوية كلما اشتد يأسه من العثور على أبيه ، وكلما اقتربت نقوده من النفاد .

وفى « اللص والكلاب » نجد أن الازمة الروحية التي يعانيها البطل لها مصدرها المادى أيضا ، فهذا البطل فقير يحس أن فقره هو نتيجة لنظام اجتماعى غير عادل ، وهو لا يريد أن يستسلم لهذا النظام ، بل يريد أن يقضى عليه ويتحداه وينتقم منه .

فالصلة بين الازمة التى يعانيها الابطال فى روايات نجيب الجديدة وبين الواقع المادى الخارجي صلة كبيرة ، والاطار المادى لهذه الروايات عموما هو اطار يتكون من ظروف فاسدة مرتبكة تقود الى الازمة وتوحى بها .

ولكن نجيب لم يكتف فى المرحلة الثانية من انتاجه بهذا التحليل المادى للأزمة ، فالازمة تنبع أيضا من نفسية أبطاله ، تنبع من حيويتهم وتكوينهم الروحى الخاص .. معنى هذا أن الانسان عند نجيب محفوظ لم يعد كما كان فى البداية ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية .. انه لم يعد مجرد فرد فى طبقة اجتماعية يحمل خصائصها وأمراضها وآلامها ، خصوصا هذه الطبقة التى عنى نجيب محفوظ بتصويرها عناية عميقة فى مرحلته الاولى ، وأقصد بها الطبقة الوسطى الصغيرة ، أن الانسان عند نجيب محفوظ فى مرحلته الجديدة انسان له استقلاله الذاتى الخاص ، انسان له وجوده الداخلى

الذى يتميز تميزا كاملا عن غيره ، انسان يمكن أن يوجد فى أى مكان من العالم ، لانه بقلقه الخاص وهمومه الخاصة ينفصل عن بيئته الى حد ما ويرتبط بصفته الانسانية العامة أولا وقبل كل شيء .

ان التحليل المادى فى روايات نجيب الجديدة لا يقف وحده ، بل يرتبط به تحليل روحى نفسى ، ويؤكد هذا المعنى ما نجده فى شخصيات نجيب الجديدة من امتزاج واضح ملموس بين الجانب المادى والجانب الروحى فسعيد مهران قاتل وقديس ، و « نور » فتاة مومس وملاك ، والاب فى رواية « الطريق » بائع خمور ومزواج ولكنه فى نفس الوقت أعظم رمز للروح ، انه رمز للحرية والكرامة والسلام .

كل هذا الامتزاج بين المادة والروح يؤكد الاتجاه الفكرى الذى يسير فيه نجيب محفوظ .

انه يجمع الآن فى نظرته للانسان بين الايمان بالجانب المادى فى الحياة وبأهمية هذا الجانب وتأثيره الكامل على موقف الانسان وبين الايمان بالانسان المستقل ،الفرد ...الذات الخاصة ،الروح التى تنبع منها الافراح والاحزان

فان أردت تسمية لهذا الموقف الفكرى فيمكننا أن نعود الى التسمية التى أشرنا اليها فى فصل سابق ، وهى « الواقعية الوجودية » – اذا صح هذا التعبير – والمعنى الاساسى الذى ينبع من هذا الموقف الفكرى هو أن الجانب المادى فى الحياة هو سر من أسرار رخاء الانسان وشقائه ، ولا يمكن فهم الموقف الانسانى بدون فهم هذا الجانب المادى وادراكه على حقيقته ، ولكن الجانب المادى ليس وحده هو الاساس فى موقف الانسان .. كلا ، باصرار عنيف عميق .

أن الانسان يملك فى داخله عالما خاصا مستقلا ، بحيث

يمكننا أن نسيطر تمام السيطرة على عالمه المادى ، ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نمنع عنه العذاب والالم اذا كانت فى داخله بذرة من بذور الشك والقلق .

فعالم الانسان يتكون فى جانب منه من هـذا العالم الخارجى المادى ، ولكـنه يتجاوزه الى عوالم أخـرى فى روح الانسان ليست بسيطة ولا سهلة ولايمكن انكارها أو تجاهلها على الاطلاق .

هذا هو الموقف الفكرى العام الذى يمكن أن نخرج به من أدب نجيب محفوظ ، وأود أن أقول اننى أقصد بكلمة الوجودية التى استخدمتها هنا معنـاها العام ، وليس معناها الخاص عند أى فيلسوف من فلاسـفة الوجودية المعروفين .

اننى أقصـد بها ذلك الميـل الى الاهتمام بالجانب الذاتى الروحى الوجدانى فى الانسان .. هذا الجانب الذى يتأثر بالعالم الخارجى ولـكنه يقف أحيانا بعيدا ومستقلا عن كل عامل خارجى يؤثر فيه .

- ٨ -

الشحاذ

فى الروايات الاخيرة لنجيب محفوظ تظهر بين الحين والحين شخصية « شحاذ » يطلب من الناس لقمة خبز أو قرشا يسد به مرارة الجوع ، ورغم ان الشحاذ فى هذه الروايات كان يظهر أمامنا ويختفى فى سرعة البرق الخاطف ، ورغم ان هذا الشحاذ كان أحيانا لا ينطق بأية كلمة ويكتفي بأن يمد يديه للعابرين .. رغم هـذا كله فان هذا الشحاذ يترك فى نفوسنا احساسا عميقا بالحزن والمرارة ، لان نجيب محفوظ يقدم الينا هذا الشحاذ عادة فى لحظة متأزمة من لحظات الرواية .. يظهر ليطلب « صدقة » من انسان حطمته الظروف .. فما ندرى فى تلك اللحظة أيهما أكثر بؤسا : السائل أم المسئول ؟

هذا الشحاذ الذى يظهر بسرعة ويختفى بسرعة فى بعض الروايات الاخيرة لنجيب محفوظ ، يصبح بطـلا رئيسيا لرواية « الشحاذ » ، واذا كان الشحاذ الجديد يشترك مع كل رفاقه الآخرين من الشحاذين فى بؤس النفس وتمزق الروح وشدة الحاجة الى العون ، الا أنه يختلف عن غيره من الشحاذين اختلافا جوهريا ، فهو شحاذ غنى يملك رصيدا كبيرا فى البنك ، وعربة فارهة تنتظره أمام مكتبه لتنقله الى أى مكان يريد ، ورغم ذلك كله فهو شحاذ عريق يمد يده لـكل ما فى الـكون من

قوى وعناصر يسألها العون ، ويطلب منها صدقة تكفيه مذلة الاحتياج والجوع .

فالى أى شىء يحتاج هذا الشحاذ الغريب ؟.. انه يحتاج الى معرفة أسرار الكون ، يحتاج الى معرفة معنى الحياة ، يحتاج الى أن يكتشف ما وراء المظاهر السطحية الساذجة لهذا الوجود .

هذا الشحاذ واسمه عمر الحمزاوى ، هو محام كبير ناجح ، أوصلته مهنته الى مستوى عال من الثراء ، وهو متزوج وله أولاد ، وقد كان فى بداية حياته شاعرا وكان اشتراكيا يحلم بتغيير العالم ، ولكنه ترك الشعر والاشتراكية الى العمل الناجح ، وفى منتصف العمر فى سن الخامسة والاربعين فاجأته الازمة التى عصفت بحياته ، انها أزمة نفسية كبيرة جعلته يشعر ان كل شىء لا معنى له ، لا البيت ولا العمل ولا النجاح ولا الزوجة ولا الاولاد ، وترك « عمر » بيته وخرج هائما على وجهه ، يبحث عن طعم للحياة التى بلا طعم ، يبحث عن شىء جديد فى الدنيا غير هذا الركود القاتل الذى يعانيه ، فأقام فى شقة جديدة مع « وردة » التى التقطها من أحد النوادى الليلية ، وبقى معها سعيدا لفترة قليلة من الوقت ، ولكنه لم يجد فى هذه التجربة ما يريد ، انها لم تحل أزمته ، بل كانت أشبه بالمخدر الذى زال أثره بسرعة .

وانتقل عمر من وردة الى مرجريت ، ثم الى منى ، ومنى ومرجريت هما صورتان من وردة ، ولكنه لم يجد فى كل هذه التجارب سوى اليأس والفراغ ، وعاد الى بيته من جديد ، يائسا محطما ، ووجد أن صديقه وزميله الاشتراكى القديم عثمان خليل قد خرج من السجن ، وحاول عثمان أن يحل أزمة صديقه ، ولكنه

فشل ، وانتهى الامر بعمر الى ان يقيم بمنزل بعيد بين الحقول ، وفى حالة أشبه بالجنون ، حيث يعيش فريسة لاحلام مفزعة ، ورؤى يختلط فيها الخيال بالواقع ، وذات يوم يصل عثمان الى المكان الذى يقيم فيه عمر ويلقى عثمان أمام عمر بعدة اخبار ، منها : ان عثمان خليل مطارد من البوليس مرة أخرى ، ومنها أيضا ان عثمان خليل نفسه تزوج من ابنة عمر الكبرى بثينة وانها تنتظر منه طفلا ، وطلب عثمان الامن لنفسه من مطاردة البوليس كما طلب من عمر أن يعود الى بيته ليحمى البيت ويرعاه ، ولكن عمر - فى حالة ذهوله أو جنونه - لا يعبأ بشىء حتى يفاجأ برصاصة تخترق قدمه ، وهى رصاصة جاءته من أحد رجال البوليس الذين يطاردون عثمان خليل ، وعندما يجد رجال البوليس عثمان مع عمر يقبضون عليهما ويحملانهما فى عربة واحدة ، وعمر غائب عن العالم ، غارق فى أحلامه ودمائه .

هذه هى خلاصة الاحداث الخارجية فى قصة الشحاذ .

فماذا تعنى هذه الاحداث ؟ ان النغم الاساسى فى هذه القصة هو نفسه النغم الذى سبق لنجيب محفوظ أن عبر عنه وعزفه لنا فى قصته « الطريق » انه نغم البحث عن الحقيقة ، عن المجهول ، عن هذا الشىء الذى يفسر الاشياء كلها ويعطيها معناها العميق .

وليس معنى هذا أن قصة « الشحاذ » تكرار لقصة « الطريق » ، والاصح أنها امتداد وتنويع وتعميق لنفس المادة الموجودة فى « الطريق » ، فالحقيقة ان « الشحاذ » لها طعمها الخاص سواء من الناحية الفنية أو من الناحية الانسانية ، فالتشابه هنا بين «الشحاذ» و « الطريق » ليس جمودا ولا تكرارا ولا نوعا من الملل .

وإذا أردنا أن ندخل عالم « الشحاذ » ونفهمه ، فان باستطاعتنا أن نعتمد على عدة مفـــاتيح تساعدنا على اضاءة هذا العالم وفهمه .

المفتاح الاول فى هذه الرواية هو ان البطل قد تخلى من كل الاشياء الحقيقية فى شخصيتهـــه ، وبحث عن النجاح والثروة وظل يسعى وراءهما حتى بلغ منهما قدرا كبيرا ، ولـكن بذرة الشقاء كانت كامنة فى هـذا النجاح لانه نجاح يحقق المثل الاعلى للانسان فى المجتمع، ولـكنه لا يحقق المثل الاعلى للصدق مع النفس ، ولقد كانت حقيقة البطل انه فنان من ناحية ، وانه من ناحية أخرى صاحب عقيـدة هى الاشتراكية ، ولـكنه ترك الشعر وترك الاشتراكية ، وشغله النجاح بعض الوقت ، ولـكن النجاح لا يمكن أن يشغل الانســـان الحساس العميق الى الابد ، وهذا ما حدث ، لقد حقق النجاح كل أغراضه . وها هو البطل يتساءل أين الحقيقة . لقد كان باستطاعته أن يكون أكثر اطمئنانا ، وأكثر سعادة بالحياة لو بقى صادقا مع نفسه ، لو بقى شاعراً واشتراكيا .

على ان البطل لم يترك الشـــعر والاشتراكية لمجرد البحث عن النجاح فقط ، ولـكن الواقع أيضا قد ساعد على أن يتعرض البطـــل لهذه الازمة ويترك حقيقتـــه الصادقة الاصيلة .

وهذا هو المفتاح الثانى للرواية ولا شك .

ان فى مجتمعنا الحديث تناقضا أساسيا بين الشـعر والعلم ، فلقد كان الانسان القديم يستعين بالشعر والفن عموما على اكتشاف أسرار الـكون ، ولهذا فاننا كلما عدنا الى الوراء فى تاريخ الانسانية وجدنا عددا أكبر من الشعراء والفنانين وليست النسبة العددية هى المهمة فقط ، بل ان العلماء الآن يملكون من التأثير على المجتمعات

اضعاف ما يملكه الاديب والفنان ، ولقد كان العكس هو الصحيح تماما فى العصور القديمة ، خذ مثلا على ذلك ما يحدث فى المجتمع السوفيتى ، لقد كان القرن الماضى مليئا بالفنانين والادباء فى روسيا ، كان صوت الفن فى هذا المجتمع هو أعلى الاصوات على الاطلاق وهو أكثرها تأثيرا على المجتمع والانسان ، وبعد أن قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، بدأ صوت الفن يخفت ويرتفع صوت العلم ، حتى أصبح العلم هو صاحب الكلمة العليا فى الحياة .

وعندما نتأمل عالمنا المعاصر ندرك أن ما يحدث فى الاتحاد السوفيتى من ناحية العلاقة بين الفن والعلم هو ما يحدث فى العالم كله بنسب متفاوتة ، ان عصرنا هو عصر العلم أولا ، أما الفن فيأتى فى الدرجة الثانية ، ان العلم هو الوسيلة الاولى فى يد انسان القرن العشرين لكى يعرف أسرار العالم ، ويكتشف حقيقة الوجود . لم يعد هوميروس هو الذى يذهب « مندوبا » عن البشر الى دنيا الاسرار والغموض ليعرف كل ما فى الحياة من مجهولات ، ولكن اينشتين و « فصيلته » هم الآن الذين يدقون أبواب المجهول ويبحثون عن السر .

والفنان الآن فى كل أنحاء العالم يعانى أزمة ، وبطل « الشحاذ » يعانى هذه الازمة معاناة حقيقية ، واعتقد ان هذا الوجه من وجوه رواية « الشحاذ » هو تصوير لجانب من الجوانب الخاصة بنجيب محفوظ نفسه ، ان نجيب ولا شك يحس بهذه الازمة فى قرارة نفسه ، ويدركها ادراكا حقيقيا عميقا ، وقد انعكس احساسه بهذه الازمة على رواية « الشحاذ » ، وليس معنى هذا ان بطل رواية « الشحاذ » هو نجيب محفوظ ، ولكن هذا الجانب فى بطل الرواية يصور ولا شك ازمة فلسفية

يعانيها نجيب محفوظ .

ولنعد الى الرواية نفسها لنسمع مصطفى صديق بطل الرواية يقول : « لعله لو كنا من العلماء الذين ينفقون عشرين عاما فى البحث عن معادلة لما عرفت التعاسة الى نفوسنا سبيلا » .

ويرد عليه عمر بطل الرواية بقوله :

« لعل سر شقائى أننى أبحث عن معادلة بلا تأهيل علمى » . ويرد مصطفى صديق البطل بقوله : « ولأنه لايوجد وحى فى عصرنا فلم يعد لأمثالك الا التسول » . ومصطفى صديق البطل هو الذى يفلسف هذه الازمة العنيفة ، لانه هو أيضا كان فنانا مثل بطل الرواية ، ولكن البطل لم يجد حلا لأزمته ، أما مصطفى فقد وجد الحل ، لقد ترك الفن الى الكتابة الصحفية المسلية ، وله فى ذلك فلسفة . انه يقول :

« الحق أن مفهوم الفن قد تغير ونحن لاندرى . عهد الفن قد مضى وانقضى ، وفن عصرنا هو التسلية والتهريج، هذا هو الفن الممكن فى زمن العلم ويجب أن نتخلى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك ، وفى رأيى أن الترفيه غاية جليلة لمتعبى القرن العشرين ، وما نظن أنه الفن الحقيقى ليس الا الضوء القادم من نجم مات منذ ملايين السنين ، فعلينا أن نبلغ سن الرشد ، وأن نولى المهرجين مايستحقون من احترام . لقد قضى العلم على الفلسفة والفن ، فالى مسرات التسلية بلا تحفظ ببراعة الاطفال وذكاء الرجال ، الى القصص الخفيفة والضحكات المجلجلة والصور الغريبة » .

هذه هى خلاصة الحل الذى وصل اليه مصطفى صديق البطل ، أما البطل نفسه فهو يحس بالمشكلة ولكنه لم يصل الى حل . وهنا تكمن أزمته العنيفة

الكبيرة ... ان الفن أصبح على الهامش ، والفنان يبحث عن مكان له فى العالم . وهذه محنة كبيرة خطيرة . واذا كان الحل هو أن يتحول الفنان الى التسلية والترفيه فياله من حلم اليم لايستطيع كل فنان أن يقبله .

أما الازمة الثانية التى يتعرض لها البطل فهى انه اشتراكى قديم ، وهاهو المجتمع الاشتراكى تظهر ملامحه الاولى فى الافق الاجتماعى فماذا يفعل الآن ، لقد سبق الواقع كل أحلام البطل ، وهذا هو حوار يدور بين البطل وصديقه مصطفى . يقول مصطفى :

« انى أتساءل مادامت الدولة تحتضن المبادىء التقدمية وتطبقها أليس من الحكمة أن نهتم بأعمالنا الخالصة » ويرد البطل مشيرا الى كتابات التسلية والترفيه التى يكتبها مصطفى « كأن تبيع اللب والفشار وتتساءل عن معنى الوجود » . ويقول مصطفى ردا على ذلك « أو أعشق لأبلغ نشوة اليقين » فيرد البطل « أو تسقط مريضا بلا علة » .

وفى هذا الجانب تثير رواية الشحاذ سؤالا هاما : ماذا يفعل الاشتراكيون الذين عاشوا من أجل الدعوة للاشتراكية عندما تتحقق دعوتهم بالفعل ؟ . انه سؤال هام ، وسؤال يبحث الكثيرون عن اجابة له . وهو سؤال له قيمته الكبرى ، لأن هناك فرقا بين الدعوة لمبدأ ، وبين أن يتحول هذا المبدأ الى حقيقة واقعة . ان التبشير شىء والواقع شىء آخر . والفجوة بينهما تعتبر من أفجع الفجوات التى يتعرض لها البشر . ونحن نعرف فى تاريخنا الوطنى عددا من الشبان الذين كانوا فى يوم من الأيام يعملون ضد الأنجليز . يقتلونهم ويطلقون عليهم الرصاص ويلقون عليهم بالقنابل . لقد عاش هؤلاء فترة طويلة فى العنف من أجل بلادهم ولكن ما أكثر حيرة هؤلاء بعد

أن تحررت بلادهم وتحقق هدفهم ، أن بعضهم لا يعرف ماذا يفعل الآن بعد أن انتصرت قضيته .

هذان الجانبان يمثلان جزءاً أساسيا من أزمة بطل الشحاذ

الجانب الأول هو التناقض بين الفن والعلم .

الجانب الثانى هو التنــاقض بين الحلم والواقع بين التبشير بالمبدأ وانتصار هذا المبدأ فى عالم الواقع .

والمفتاح الثالث فى هذه الرواية هو أن أزمة البطــل ليست أزمة جزئية ، أى انه لا يشكو من حرمان عاطفى أو حرمان جنسى ، انه يشكو من أزمة كلية شاملة ، انه يريد أن يعرف جوهر الأشياء ، المهم كما يقول البطــل نفسه « أن تلامس سر أسرار الحياة » . وعجــز بطــل الشحاذ عن تفسير الحياة يجعله خائفــا من الموت . لأن صمت العالم عن الاجابة يجعل الكون كله سجنا ويجعل النهاية قريبة ومخيفة .

لماذا يلح الموت على تذكيرنا بنفسه بين كل عمل وآخر لاشىء يبقى فى الحياة ، عندما يفقد كل شىء معناه ، وعندما يبدو كل شىء غامضا بلا تفسير وعندما يعجز الشــعور بالعائلة ، ويعجز الجنس ، ويعجز كأس الخمر .. عندما يعجز هذا كله عن اعطاء الحياة معنى كبيرا فماذا يبقى فى الوجود الا الموت ؟ .. انه لا يبقى فى الحياة الا فعــل « بضجر » . يقول البطل لنفسه . « ضجر بضجرأضجر فهو ضجر وهى ضجرة والجمع ضجرون وضجرات » . هذا كل ما فى الحياة بالنسبة لهذا البطل المأزوم .

لو كان البطل يبحث عن حل جــزئى محدود مثــل الجنس أو العاطفة أو المال لما تعرض لكل هــذه الأزمة الروحية .

ومفتاح رابع لهذه القصة هو الخوف من تيار التفاهة التى تزحف شيئا فشيئا الى حياة عصرنا كله ، ويبــدو

تيار التفاهة أو على الاقل تيار الحياة السهلة فى هذه العبارة التى يقولها مصطفى صديق البطل « ..أما ابنى عمر الذى سميته للأسف باسمك فمراهق شكس ، واهتمامه بالكرة اهتمامك القديم بقلب العالم راسا على عقب .. » فالكرة ، والكتابات السهلة ، والبرامج السهلة فى التليفزيون والاذاعة .. كل ذلك يشعر البطل بالخوف ؛ لأن عالم العمق قد راح وأخذ يغوص فى التراب . وهذا مظهر آخر من مظاهر غربة البطل عن العالم الذى يعيش فيه . أين هذا العالم من كل ما يحس البطل به من مطالب روحية عميقة أصيلة ؟

على أن الصورة التى ترسمها قصة الشحاذ ليست خالية تماما من أى شعاع من النور .

ان هناك بعض اشعة النور القليلة فى هذا العالم القاتم . ولكن من خلال هذه الاشعة القليلة يمكن يوما أن يتفجر النور الكامل ويجد الانسان طريقه .

من هذه الاشعة القليلة أن البطل يستمع لابنته بثينة وهى شاعرة مثله . تقول له « ان الشعر سيظل أجمل ما فى حياتى » وهنا يقول له البطل « ليكن ، لن أجادلك فى ذلك ويمكن أن تكونى شاعرة وفى ذات الوقت مهندسة »

اى أن البطل يحلم بالجمع بين الفن والعلم فى الجيل الجديد . انه يريد أن يحل التناقض الذى وقع فيه هو . أن يحله بالنسبة لابنته وبالنسبة لجيلها كله . انه لايعرف طريقة لحل التناقض ، ولكنه يحس احساسا غامضا أن التناقض يمكن أن يحل .

ومن أشعة النور أيضا قراءة الشعر الصوفى « وفى أوقات تسلى بقراءة الشعر فهفت نفسه الى أشعار الهند وفارس » . وهذه الاشعار بالذات يمتزج فيها الفن بالصوفية . فكأن التصوف الذى يواجهنا فى كثير من

روايات نجيب محفوظ مازال مصدرا من مصادر الراحة والطمأنينة بالنسبة للانسانية لأنه يخفف من حدة القلق ويعطى للانسان لحظات الرضا تساعده فى هجير الحياة .

وأخيرا .. الا يوجد فى رواية الشحاذ معنى ايجابى كبير غير هذه اللمحات البسيطة من النور ؟ هل تعتبر هذه الرواية غارقة فى اليأس المطلق والظلام الدامس ؟

فى اعتقادى أن داخل رواية الشحاذ وفى أعماقها دعوة ايجابية كبرى تمس روح حضارتنا العربية كلها .

وليس من الافتعال أن نقف أمام هذا الجانب الكبير ونحاول أن نضع أيدينا عليه .

ان رواية الشحاذ تشبه فى مضمونها الفلسفى ملحمة « فاوست » المعروفة . ففاوست كان مثلا للبحث عن المعرفة بلا حدود ولا توقف أمام أى اعتبارات .

وهذا مانحسه فى رواية الشحاذ . ان البطل يريد أن يعرف ، ونغمة البحث عن المجهول ترتفع فى رواية الشحاذ ارتفاعا حادا عنيفا . ولعل أعمق مايجرى فى داخلنا اليوم هو هذا الحنين العنيف الى المعرفة . لقد كان « فاوست » كما صوره الفنان الالماني جيته منذ مائتى سنة تقريبا ، تمهيداً للنهضة العلمية عند الاوربيين . وأعتقد أن هذه هى نفس النغمة عند نجيب محفوظ ، نغمة البحث عن المجهول ، اننا الآن نبحث عن المجهول فى كل شىء فنحاول أن نستخرج النبات الاخضر من الصحراء الجرداء ، ونحاول أن نجد فى بطن الارض أى سر من أسرارها ، ونحاول أن نكتشف أسرار الذرة ، وفى كل بقعة نائية من أرض بلادنا ــ حيث لم يكن يوجد الا الفراغ المخيف ــ يعيش الان عمال ومهندسون يبحثون ويريدون أن يعرفوا .. لم نعد مستسلمين للظروف ، لم نعد نلقى كل مشاكلنا على

عاتق المصادفة أو المجهول ، ولو تصورنا حياتنا « رجلا » لكان هذا الرجل فى حياته الروحية والمعنوية هو بطل الشحاذ ، فالفلسفة الاساسية عند بطل الشحاذ هى البحث عن المجهول ، هى محاولة اكتشاف هذا العالم ، هى محاولة الانتصار على المجهول وليس الاستسلام له ؛ مهما كان فى البحث عن المجهول من المشقة والجهد والعذاب . ولاأعتقد أن الادب العظيم مهمته هى « الطبطبة على الحياة » ولذلك لم تخرج قصة نجيب محفوظ تمجيدا لانتصاراتنا ، وانما خرجت تصويرا لحالة اللهفة على المجهول . وكأن هذه الرواية تلهب ظهورنا وتقول ان هناك أسئلة كبرى يجب أن نفكر فيها ونبحث عن حل لها .

ونجيب محفوظ يفعل ذلك كما يفعله الفنان الصادق فى احساسه بالحياة ·· دون افتعال أو تعمد ·· ان هذه الرواية أشبه بالمقطوعة الموسيقية .. انها نداء عميق وصلوات مخلصة فى محراب المجهول ، انها دعوة للانسان العربى لكى يقتحم الخطر ولايقف عند الحدود الناعمة الساذجة للحياة ، والا طمسته رياح التغيير الكبيرة العنيفة التى تهب على العالم . ان هذه الرواية أغنية من أجل « سوبرمان » عربى ، من أجل انسان يحلق فى الفضاء وينزل الى باطن الارض وليس المهم الآن هو النتيجة السريعة ، وانما المهم هو التجربة .. ان المعادل العملى لرواية نجيب محفوظ المليئة بالشعر هى أن يكون فى بلادنا جيش من العلماء يبحثون عن اجابة للأسئلة الكبرى الحائرة التى دارت فى ذهن بطل الشحاذ ووجدانه ، ولم يجد لها حلا فتحطمت حياته .. ولكنه بقى رمزا عظيما للمحاولة .. للجهد الكبير فى البحث عن المجهول .

محمود درويش ..
عاشق من فلسطين

محمود درويش شاعر عربى شاب لم يصل بعد الى الثلاثين ، حيث أنه ولد سنة ١٩٤٢ ، وهو واحد من بين حوالى ربع مليون عربى ظلوا مقيمين داخل فلسطين المحتلة بعد سنة ١٩٤٨ ، عندما تحولت المأساة الفلسطينية الى اعلان رسمى بقيام دولة اسرائيل .

وقد ولد محمود درويش فى قرية « البروة » وهى قرية فلسطينية هدمها اليهود من بين ماهدموا من المدن والقرى العربية ليقيموا مكانها مستعمرات يهودية . والمعلومات التى بين أيدينا عن حياة هذا الشاعر الشاب معلومات قليلة ومحدودة . ومعظمها مستمد من المرجع الاول عن الادب العربى داخل اسرائيل وهو كتاب « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » للناقد والفنان الفلسطينى غسان كنفانى . وقد أصدر محمود درويش عدة دواوين هى : عصافير بلا أجنحة ، وأوراق الزيتون ، وعاشق من فلسطين ، وآخر الليل .

ويتبادر الى الذهن عند الحديث عن محمود درويش سؤال هو : كيف تسمح السلطات الاسرائيلية بنشر هذا الشعر الذى يحمل فى كل سطر منه تعبيرا ثوريا عنيفا ضد اسرائيل وصانعى اسرائيل ؟ . الحقيقة أن الشاعر محمود درويش ورفاقه من شعراء المقاومة العربية فى

اسرائيل كانوا يستفيدون من كل ثغرة فى النظام الاسرائيلى أو فى القانون الاسرائيلى للتعبير عن أنفسهم . فهناك قانون يسمح لكل مواطن باصدار نشره واحدة فى العام دون رقابه . ومن خلال هذا القانون وامثاله من القوانين التى تهدف الى اعطاء واجهــة ديموقراطية زائفة لاسرائيل يتحــرك العرب فى الارض المحتله . ولا يتركون فرصه واحــدة ممكنة تفلت منهم على الاطلاق . وهكذا تصدر دواوين محمود درويش وغيره من الشعراء . ولا تكاد هــذه الدواوين تصــدر حتى تصــادرها السلطات الاسرائيلية وتعتقل اصـــحابها .. وقد أثارت الحركة الشـــعرية الجديدة بالذات ، والتى يقف فى طليعتها محمود درويش ، أعصاب السلطات الاسرائيلية فصدرت أوامر بمنع نشر الشعر العربى القومى فى الصحف العربية ، ثم صدرت بعد ذلك أوامر باغلاق معظم الصحف العربية نفسها . وعندما لجأ العرب الى اقامة أمسيات شعرية ، يلتقى فيها الجمهور مع الشعراء ، صدرت الاوامر بمنع هذه الامسيات ومعاملتها على أنها مظاهرات وطنية أو تنظيمات سياسية معادية لاسرائيل .

ولك أن تتصور أى دولة تلك التى تفزع من قصائد الشعراء وأمسيات الشعر بهذه الصورة .

والحقيقة أن الشـــعر العربى فى الارض المحتلة انما يجسد روح المقاومة العربية ويغــذيها ، ويشعلها كلما هبت عليها بعض رياح اليأس من النصر القريب أو رياح الاستسلام لواقع المأساة .

لقد أصبح شعر المقاومة عاملا من أقوى العوامل التى تحول بين امتزاج البقية الباقية من العــرب فى الارض المحتلة بالواقع الذى خلقته المأساة ، والتى تحول دون أى بادرة وجدانية أو عقلية باعتراف هؤلاء العرب بهذا

الواقع على أنه واقع نهائى لايمكن أن يتغير ، فمادام هناك شعراء يعبرون بهذه القوة الفنية والنفسية والفكرية عن المأساة الفلسطينية ، وفى الارض المحتلة نفسها ، فان هذا معناه بكل بساطة أن القضية الفلسطينية لاتندثر مع مرور الايام بل تزداد حرارة واشتعالا .

وينقل الينا شعر المقاومة العربية الذى يكتبه الجيل الجديد داخل أسوار اسرائيل روحا ثورية عالية تكاد تقول لنا أنه لو لم يبق سوى مواطن عربى واحد داخل اسرائيل فسيظل هذا المواطن يدعو الى القضية العادلة ، قضية فلسطين ، ولعل هذا الشعر بما فيه من نبض حار صادق يقول لنا أكثر من ذلك : انه لو لم يبق مواطن عربى واحد داخل أسوار اسرائيل ، فلسوف تصرخ الاحجار والاشجار والعصافير وامواج الشواطىء فى حيفا ويافا . سوف تصرخ جميعا بأن الارض هى أرض العرب ، وأن تزوير التاريخ بهذه الصورة الرهيبة لايمكن أن يدوم .

والاتجاه الغالب ــ من الناحية الفنية ــ على شعر المقاومة بين أبناء الجيل العربى الجديد فى الارض المحتلة هو اتجاه « الشعر الجديد » ، الشعر الذى يعتمد على وحدة « التفعيلة » بدلا من وحدة البيت . وبدون أن ندخل فى مشاكل فنية حول هذه المدرسة الشعرية الجديدة ، وهى مشاكل لا مجال لها فى هذه الدراسة ، ينبغى أن نلاحظ شيئا له أهميته ، يدلنا عليه هذا الاتجاه الفنى عند شعراء المقاومة وهو : أن الجيل العربى الجديد من شعراء الارض المحتلة ليس معزولا عن الحركات الفكرية والفنية فى الوطن العربى خارج الإسوار الحديدية التى خلقتها اسرائيل لتحول بين العرب فى الارض المحتلة وبين أى تأثير قد يأتيهم من الخارج . ورغم كل الحصار

الثقافي الذى فرضته اسرائيل على العرب فى الارض المحتلة فقد التقى شعراء الجيل الجديد فى فلسطين بهذا التيار الشعرى الذى بدأ يسود وينتصر فى الوطن العربى كله وأقصد به تيار الشعر الجديد . ولكن كيف تأثر هؤلاء الشعراء السجناء بهذا التيار الوافد اليهم من خارج الاسوار ؟ كيف اتصلت حياتهم الوجدانية والعقلية بالتطورات التى تحدث فى الادب العربى والفكر العربى ؟ ذلك مالانعرفه بدقة ، ربما تم ذلك عن طريق الاذاعات أو عن طريق تسلل بعض المنشورات العربية من خارج اسرائيل الى الداخل ، والذى حدث على أى حال هو ان هؤلاء الشعراء الذين ظهروا داخل أسوار اسرائيل فى السنوات الاخيرة هم جزء من حركة التجديد الفنى فى الشعر العربى المعاصر . الى جانب أنهم يمثلون تيارا رائعا من تيارات « أدب المقاومة » ، حيث يقف هؤلاء الشعراء فى قلب المحنة . لايتفرجون عليها ، ولا يكتبون من الذاكرة ، بل يعيشون فى النار ، ويقاومون ويكتبون شعرهم عن دمهم الذى ينزف ، وعن ألمهم وأملهم معا .

ومحمود درويش يقف فى المقدمة بين شعراء المقاومة فى فلسطين المحتلة ، وهو الآن مسجون (١) فى محاولة جديدة من جانب اسرائيل لتحطيم كل ألوان المقاومة العربية : وفى مقدمتها حركة المقاومة الادبية والفكرية التى يمثلها هذا الشاعر العربى الشاب وغيره من شعراء الارض المحتلة .

وهناك فى العادة شعراء ترتفع قيمتهم فى تاريخ بلادهم بفضل مواقفهم النضالية حتى ولو كان مستواهم الفنى

(١) عند كتابة هذا الفصل بعد ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ بقليل كان الشاعر محمود درويش معتقلا ولكن السلطات الاسرائيلية أفرجت عنه بعد ذلك نتيجة للضجة الكبيرة التى أثيرت حوله .

رديئا ومحدود القيمة . ولكن محمود درويش ليس من هؤلاء ، فهو شاعر يمتاز بالاصالة الفنية الى جانب ولائه المطلق لقضية فلسطين : وطنه ومأساته وجرحه الكبير . انه شاعر ترفعه قضيته وفنه معا .

وشاعرية محمود درويش شاعرية ضخمة . ذات مذاق انسانى خصب . وشعره « نسيج فنى » صالح تماما لأن يكون نسيجا عالميا ، ومن هنا كان محمود درويش من أصلح الشعراء الذين يمكننا أن نترجمهم الى أى لغة أجنبية ، ونضمن استجابة حقيقية لشعرهم فى أى بيئة انسانية غير عربية ، وسوف تكون قصائد درويش بعد ترجمتها تعبيرا عالميا نابضا بالحياة عن واقع المأساة الفلسطينية .

ولست بمثل هذه الكلمات أهون من قضية العالمية فى الادب ، بحيث يمكن أن يصل اليها أى فنان شاب مثل محمود درويش مازال - آخر الامر - فى بداية حياته الفنية . كما أننى ، من ناحية أخرى ، لا أطلق الحديث عن عالمية شعر محمود درويش من باب العاطفة القومية . فالحقيقة أن ما أعنيه بالعالمية هو أن يكون الفن تعبيرا صادقا مخلصا عن قضية يمكن أن يحسها الانسان فى أى مكان فوق الأرض . وهذا هو ماىتجسد فى شعر محمود درويش : صدق واخلاص لقضية كبيرة يعبر عنها فى فن بسيط وعميق معا .

ان المستوى العالمى فى الفن ، ليس لغزا من الالغاز ، فالطريق الى العالمية هو طريق البساطة والايمان والتعبير عن تجربة انسانية عاشها الفنان بأمانة ووجدان متيقظ . وهذا كله هو ماتحسه ونحن نقرأ محمود درويش ، ومن أجل ذلك فان من الواجب علينا أن نقدم هذا الشعر الى العالم . ففى هذا الشعر تعبير فنى صادق عن مأساة

الشاعر ومأساة وطنه وأهله وجيله ، وهو تعبير يمس القلوب ، حتى قلوب هؤلاء الذين لم يسمعوا شيئا عن القضية نفسها ، ولم يعرفوا صفحاتها الدموية الحزينة .

وقصائد محمود درويش تشبه انسانا تحس بأنه يجذبك اليه بقوة منذ أول لقاء معه ، فهو حار متفجر ذو حيوية هائلة . ليس فيه ذرة من الغفلة أو رائحة من روائح الفتور . انه « ينتفض » ويمتلىء بالرغبة فى الحياة والتحرر من المأساة ، سواء كانت هذه المأساة فى داخل نفسه أو كانت فى واقع مجتمعه . ومذاق شعر محمود درويش يذكرنا بالمذاق الانسانى اللاذع : الحلو والمر معا ، للشاعر الامريكى « والت ويتمان » ، ذلك الفنان الذى جعل الشعر عاصفة من الحب والتمرد ، من الغضب والايمان الذى يشبه ايمان الانبياء ، لانه ايمان لايتردد ولا يهاب ولا يعرف اليأس . لقد كان والت ويتمان شاعرا صاحب قوة روحية هادرة ساحرة تملأ شعره ، ولعلنا نحس بهذه القوة عندما نقرأ نموذجا من أبياته التى يقول فيها :

« أنا آتى مع الموسيقى قويا . مع مزاميرى وطبولى . أنا لا أعزف أناشيدى للظافرين فقط ، بل أعزف أيضا للقتلى والمقهورين ، فنحن نخسر المعارك بنفس الروح التى نكسب بها المعارك . فألف مرحى للذين فشلوا . للذين غرقت مراكبهم فى البحر . للذين غرقوا هم أنفسهم فى البحر »

ووالت ويتمان هو الذى يقول أيضا :

« أنا رفيق الشعب وصديقه . كلهم خالدون مثلى ، ولكنهم لايعرفون كم هم خالدون . أما أنا فأعرف . كل انسان يحب نفسه وممتلكاته . أما أنا فأحب هؤلاء الذين كانوا فتيانا والذين يعشقون النساء . أحب الرجل الأبى

الذى يشعر كم يؤلم الانسان أن يهان . أحب الحبيبة الحلوة . والغانس . أحب الامهات . وأمهات الامهات . أحب الشفاه التى ابتسمت والعيون التى ذرفت الدمع احب الاطفال والذين يلدون الاطفال »

هذه نماذج تكشف لنا عن تلك القوة الروحية الانسانية الهادرة التى تملأ شعر والت ويتمان وقلبه ، وشاعرنا العربى الفلسطينى الجريح محمود درويش يحمل شرارة من هذه القوة الروحية « الويتمانية » أن صح التعبير فى قلبه وشعره معا .. انه حار ، ملتهب العواطف نحو الناس والحياة .. وهو لايعرف التأملات الباردة الخالية من الروح • لانه فارس معركة انسانية يشهر فى وجه الظلم سلاحه ويعرض صدره للخطر ، ويدخل مثل هذه المعارك بكل ما يملك من حنان وحب وايمان بالراية التى يحارب وهو يرفعها .

هذا هو مانحس به منذ اللقاء الاول مع شعر محمود درويش ، قبل أن نتأمل هذا الشعر أو نحاول دراسته ومعرفة أسراره الفنية . ومثل هـذه العاطفة الحارة الساخنة قد تعرض الفنان الى سقطة من سقطات الفن الشعرى وهى : الخطابة والضوضاء الفنية الجوفاء ، ولكن أصالة محمود درويش كفنان وأصـالة ايمانه بقضيته تحميانه تماما من تلك السقطة الفنية الخطيرة . فهو لايقترب أبدا من هاوية الخطابة ولا يقف على حافتها ، بل يظل مسيطرا على فنه سيطرة كاملة ويظل من أجل ذلك مسيطرا على قلوبنا بأصالته وصدقه معا .

فهو مثلا عنـدما يرد على تلك النغمة السـائدة فى الادب الاسرائيلى والدعاية الاسرائيلية والتى تحاول أن تقول للعالم : ان العربى همجى ، والعرب عموما هم بشر من الدرجة الثانية .. عندما يرد محمود درويش على

تلك « النغمة الدعائية الظالمة » فانه ينتفض من أعماقه واعماق تجربته العربية ليؤكد انسانية الحضارة العربية ، وأصالة الشخصية العربية القادرة على أن تحقق كثيرا من الانجازات المادية والمعنوية معا ، فالشخصية العربية التى تعرف كيف تمسك قبضة المنجل هى نفسها التى تعرف كيف تعزف الموسيقى فالمنجل والآلة الموسيقية شعاران عظيمان للشخصية العربية المنتجة المبدعة ...
يقول محمود درويش :

نعم عرب
ولا نخجل
ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل
وكيف يقاوم الاعزل
ونعرف كيف نبنى المصنع العصرى
والمنزل
ومستشفى
ومدرسة
وقنبلة
وصاروخا
وموسيقى
ونكتب أجمل الاشعار
... ...

ثم يقول فى قصيدة اخرى :
سنصنع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وماضينا
سلالم للغد الموعود
ثم نصيح : يارضوان
أفتح بابك الموصود

بهذه العاطفة المليئة بالتفاؤل والثقة ، والاستعداد

للنضال والصبر على الجراح الـكثيرة التى يتعرض لها العربى ، بمثل هذه العاطفة القوية الحارة يواجه محمود درويش وقائع المأساة التى يعيشها مع بقية العرب داخل حدود اسرائيل ، حيث تريد الصهيونية للانسان العربى أن يكفر اولا وقبل كل شيء بنفسه وتراثه وقدرته على المشاركة فى الحضارة ، ولعل هذف التشكيك فى الشخصية العربية أن يظهر أمامنا بكل وضوح ، كهـدف اساسى للمفكرين والادباء والسياسيين والعسكريين فى اسرائيل ، عندما نقرأ ماقاله أبا أيبان ، وزير خارجية اسرائيل ، للرئيس الامريكى جونسون ، فى حوار نشرته الصحف حيث يعلق أبا ايبان على نتائج حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ فيقول : « ترون ياسيدى الرئيس أننا كنا على حق حينما كنا نقول لكم باستمرار :نحن نفهم العرب اكثر منكم ونقدر على التعامل معهم بأكثر مما تستطيعون أنتم ، ها نحن قد حققنا لكم ، كل ماقضيتم تحاولونه سنوات طويلة ، لقد انتهى ماكان يسمى بحركة القومية العربية »

ولنترك هذا اللقاء السريع مع الشاعر ، حيث تخطفنا قصائده الى دوامة من السـحر والحرارة والاعتزاز بالجرح والاصرار على تجاوز اليأس والهزيمة ، ولنحاول أن نتعرف بصورة أدق على شاعرية محمود درويش من خلال ديوانه « عاشق من فلسطين »

ان أجمل وأعذب ما فى عالم هذا الشاعر هو « رؤيته الانسانية » الخاصة التى تنعكس على بناء قصائده . فمحمود درويش يرى الناس والاشياء بطريقة تختلط فيها كل العناصر . ففى قصيدة واحدة يتحدث عن حبيبته ، وفى مقطع آخر من القصيدة نفسها نجد هذه الحبيبة قد تحولت الى معنى مختلف هو الوطن . ثم تنقلب الحبيبة الى أخت وأم . وهكذا فالحب والوطن

والحرية والطبيعة كلها معان تختلط ببعضها البعض تمام الاختلاط ، انها ذات ملامح متشابهة ، حيث يرى الشاعر وطنه من خلال عاطفة الحب الشفافة ، ويرى أرضه من خلال عاطفة الامومة ، والحدود بين الاشياء لم تعد موجودة ، هناك فى شعره نوع من « وحدة الوجود » نوع من الامتزاج والذوبان فى ظل ماكان يسميه المصريون القدماء « الكل فى واحد » ، وهذا الامتزاج الكامل بين الصور والمعانى فى رؤية محمود درويش للعالم والذى يتحقق على اجمل صورة فى شعره ، يحدث بدون ترتيب أو نظام دقيق ، وان كان يتم بصورة شفافة لايضيع معها الانسان وهو يعيش فى عالم القصيدة ، فليست قصيدة محمود درويش عالما معتما ، بل هى عالم رقيق مشرق رغم تشابك عناصره ورؤاه ، وبسبب من هذه الرؤية الانسانية المتميزة التى تمزج بين الاشياء مزجا كاملا تبدو قصيدة محمود درويش « حلما » تغيب فيه الوقائع والحواس ، ليصبح الانسان طليقا بلا حدود

على أننا يجب أن نفرق هنا تفرقة كاملة بين نوعين من الحلم ، النوع الاول هو « الحلم » المبنى على الهروب من الواقع الحى ، حيث يكون الحلم تنفيسا عما يختزنه الانسان فى حياته اليومية من مشاكل ومشاعر مختلفة، والحلم هنا هو نوع من الفرار ، وهو فى النهاية ضعف وعجز عن مواجهة الواقع . ان الانسان الهارب على هذه الصورة هو الانسان الهش الرومانسي العاجز عن مواجهة أعباء الحياة وتجاربها الصعبة . وفى العادة يكون هذا النوع من الاحلام قاتما معتما . ويكون الفن الذى يعبر عن مثل هذه الاحلام قاتما معتما كذلك .

أما النوع الثانى من الاحلام فهو الحلم الذى يقوم على فيض من المشاعر الحية الكبيرة التى تملأ وجدان الانسان ،

وتسيطر عليه سيطرة كاملة ، أن هذه المشاعر تفيض ـ لشدة غناها وحيويتها ـ عن يقظة الانسـان فتملأ أحلامه ، وهـذا النوع من الاحلام ، هو الهام وحيوية وقوة واقتراب من النبوة ، وهو تعبير عن اندماج كبير في الواقع . ودليل على الامتزاج بين وعى الانسان وعقله الباطن معا . وهذا الحلم المبنى على فيض الشـعور الهائل ، هو حلم محمود درويش وهو قصيدته فى نفس الوقت ، وهو الحلم الذى يفسر لنا عند محمود درويش « انكسـار المنطق » العادى فى قصائده ، لأن المنطق يصلح للوقائع الباردة ذات المقدمات والنتائج ، ولكنه لايصلح للتجارب الروحية الكبيرة الغامرة التى تملأ مشـاعر الفنان وتسيطر على يقظته وأحلامه وحواسه جميعا . وان دلت هذه « الرؤية الانسانية » الخاصة عند الشاعر على شيء فانما تدل على امتـلائه بقضية وطنه عقليـا وعاطفيا ، فى الواقع والخيال معا ، انه يرى هذا الوطن بجرحه الكبير فى كل شيء : فى الحبيبة والام والطبيعة . . فى كل ماتقع عليه العين . بل هو يرى هذا الوطن فى جميع أحواله النفسية الخاصة ، فى العذاب وفى السعادة على السواء .

فى قصيدته « عاشق من فلسطين » تواجهنا هـذه « الرؤية الخاصة » : فالشاعر يتحدث عن حبيبته ، ولكننا سرعان مانشعر أنه ينتقل من الحبيبة الى الوطن . ثم يوحد بينهما ، فلا نحس أن الحبيبـة شيء والوطن شيء آخر . انه يقول فى أول القصيدة مخاطبا حبيبته :

عيونك شوكة فى القلب
توجعنى ، واعبدها
وأحميها من الريح
وأغمدها وراء الليل والاوجاع . أغمدها

فيشعل جرحها ضوء المصابيح
ويجعل حاضرى غدها
أعز على من روحى
وانسى ، بعد حين ، فى لقاء العين بالعين
بانا مرة كنا ، وراء الباب اثنين

هنا حديث عن الحب . وهو حب محزون ومجروح ، شان كل حب فى أى وطن محزون ومجروح ، فالعيون — فى مثل هذا الحب الحزين — تتحول الى شوكة فى القلب « توجعنى وأعبدها » وهى صورة رائعة ، ولكنها لاتخطر على بال عاشق رومانسى خالى البال ، يحلم أحلاما وردية ويعيش فى ظل سلامة نفسية وسلامة أجتماعية ، انه هنا عاشق يرى فى عيون حبيبته مايذكره بحرمانه ، وبهمه الكبير ، ومسئوليته العظيمة . انه عاشق من فلسطين ، ولكن هذا العاشق فى ظروفه الخاصة وأحزانه الكبيرة لاينسى انه فى نهاية الامر عاشق يفهم الهوى ، ويتذوقه ، ويصبح الحبيبان — مثل كل عاشقين صادقين — شيئا واحدا ، كأنهما لم يكونا فى يوم ما اثنين : هو وهى

ولكن هذا الحديث العاطفى عن الحبيبة ، سرعان مايختفى لنحس أن وراءه شيئا ، فهذه الحبيبة ليست فتاة عادية ، وانما هى فلسطين أو قد تكون فى الأصل فتاة عادية ثم تتحول فى عينيه المتلئتين برؤيا بلاده الى فلسطين نفسها ، وهنا يقول محمود درويش بعد مقدمته العاطفية الحزينة :

رأيتك عند باب الكهف ، عند الغار
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك
رأيتك فى المواقد فى الشوارع
فى الزرائب فى دم الشمس

رايتك فى أغانى اليتم والبؤس
رايتك ملء البحر والرمل
وكنت جميلة كالارض . كالاطفال . كالفل
وأقسم :
من رموش العين سوف أخيط منديلا
وأنقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين أسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرائس الأيك
سأكتب جملة أغلى من الشهداء والفل :
« فلسطينية كانت . ولم تزل »

وقبل أن نناقش ما فى هذا المقطع من رؤى وأفكار ، نستطيع أن نلتفت الى تلك الصور الجزئية التى ينسج منها الشاعر قصيدته : حبل الغسيل ، ثياب الايتام ، المواقد ، الزرائب . هذه الصور التى تبنى لنا « ديكورا شعريا » بديعا لبيئة شعبية أصيلة ، وقد أعطى الشاعر هذه الصور حياة ونبضا كاملين . وتحركت الصور من من جمودها المادى لتعطينا لوحة انسانية ممتلئة بالايحاء الشعرى الجميل ولولا مقدرة محمود درويش الفنية ، ولولا عاطفته الحارة الصادقة ، ولولا تجربته الانسانية الكبيرة ، لما استطاع أن يستخرج من هذه الصور أى معان شعرية أصيلة ، ولا استطاع أن يجد فى الفاظ مثل « الزرائب » و « حبل الغسيل » أى ظلال فنية ، ولكن الشاعر استطاع أن يربط بين هذه الصور الخشنة وبين الواقع الانسانى الذى يعانيه الفلسطينى فى الارض المحتلة فأصبحت صورا مليئة بالفن والاحساس الانسانى العميق

وأمام هذه الصور الفنية ينبغى أن نتساءل : هذا الحديث الجميل بصوره النابضة بالحياة .. لمن يتوجه به الفنان ؟ انه ولاشك ليس حديث عاشق فلسطينى عادى ،

بل هو حديث عاشق من فلسطين ، وعاشق لفلسطين نفسها ، فليس في هذه الصورة القوية كلها مايناسب عاطفة عادية ، أو حبيبة عادية ، ولعلنا نلاحظ ذاك « الطرب » الحلو العميق الذى يعبر عنه الشاعر ، وهو يطرز برموش عينية تلك الجملة الغالية عليه: «فلسطينية كانت . ولم تزل » . بل نكاد نحس أن طربه كله يتركز حول عبارة « لم تزل » . فالاستمرار فى صفة « الفلسطينية » هو مايبهجه ويطربه ويشجيه ، لان هذه الصفة بالذات هى التى تواجه ضغوطا عنيفة من أجل أن تختفي وتزول ، ولذلك فالشاعر يجد فى بقائها واستمرارها ما يثيره ويسعده ويفتح فى وجدانه بابا لآماله كلها .

هذا المزج بين الوطن والحبيبة عند محمود درويش يعطى نفسا عاطفيا حلوا وخصبا لتجاربه الفنية ، ويخلق هذا الحلم المضيء المشحون بالرؤى الحية ، والذى تتحول اليه القصيدة ، فيمتزج الحب فيها بالوطنية وتمتزج صورة الفتاة بصورة الوطن ، ولا يعود فى استطاعة أحد أن يفرق بين عاطفة الحب نحو فتاة وعاطفة الحب نحو أرض ووطن .

ولعلنا نجد نفس النغم الحلو الذى تختلط فيه العاطفة بالوطنية فى قول محمود درويش فى قصيدته « أغانى الاسير » :

معلقة ياعيون الحبيبة
على حبل نور
تكسر من مقلتين
الا تعلمين بأني
أسير اثنتين :
جناحاى انت وحريتى
تنامان خلف الضفاف الغريبة

أحبكما ، هكذا توأمين

انه امتزاج وذوبان كامل بين الحب والحرية . بين العاطفة والوطنية ، فالحرية هنا حب والحب حرية .

ونحن نلتقي بنفس الرؤية الانسانية عندما يحدثنا الشاعر عن أمه ، فلا نكاد نقترب من صورة الام حتى تقفز أمامنا صورة الوطن ... فى قصيدته « فى انتظار العائدين » يقول محمود درويش :

أصوات أحبابى تشق الريح ، تقتحم الغصون
هذا زمان لا كما يتخيلون
ـ يا أمنا انتظرى أمام الباب ، انا عائدون
بمشيئة الملاح تجرى الريح
والتيار يغلبه السفين !
ماذا طبخت لنا ؟ فانا عائدون
نهبوا خوابى الزيت ، يا أمى ، وأكياس الطحين
هاتى بقول الحقل ! هاتى العشب
انا جائعون

مرة أخرى تشدنا تلك الصورة الشعبية الحميمة التى تنشر ظلالها فى نفوسنا وتكاد توهمنا أن الذى يقول هذا الشعر ليس بشاعر ، بل هو مواطن فلسطينى شعبى ملهم يحكى لنا بقلبه ووجدانه كل رؤاه وتجاربه . فخوابى الزيت ، وأكياس الطحين وبقول الحقل والعشب هى الصور التى يعيش معها وبها ابن الشعب العادى ، وهاهو محمود درويش يتناول هذه الصور بيده السحرية فيحيلها الى شعر جميل رائع .

ولقد كانت هذه الصور الشعبية فى نظر البلاغة التقليدية القديمة ، بل وفى نظر بعض أنصار البلاغة الجديدة ، صورا غير قادرة على أن تعطينا أى قطرة من الشعر . ولكن هاهو محمود درويش يكتشفها من جديد .

ويعتصرها فنا حيا جميلا مليئا بالسحر والشعر والعذوبة

ونتساءل هنا أيضا : هل تكون الام فى هذه الابيات هى الام العادية . أم أن الام هنا هى الوطن ؟ انهما معا ، ممتزجان ، ذائبان فى كأس واحدة . وهكذا فالوطن والام والحبيبة يخضعون جميعا لقانون تخلقه المحنة وتؤكده ، انه قانون « الكل فى واحد » . فكل شيء معرض لنفس التجربة المرة . ولنفس الحرمان والخطر . ولا فرق فى ظل هذه الظروف بين أى حبيبة ، وأى أم ، وأى جزء من أرض الوطن .

وما ينطبق على الحبيبة والام ، ينطبق على الاخت : ان محمود درويش عندما يحدثنا عن أخته فهو سرعان ما يتجاوز الاخت الحقيقية ، ويتصور وطنه مجسدا فى شخصية هذه الاخت وفى وجهها .

فى قصيدة له بعنوان : « أهديها غزالا » يقول ، والحديث هنا عن أخته :

أبى من اجلها صلى وصام
وجاب أرض الهند والاغريق
الها راكعا لغبار رجليها
وجاع لاجلها فى البيد ، أجيالا يشد النوق
وأقسم تحت عينيها
يمين قناعة الخالق بالمخلوق
تنام ، فتحلم اليقظة فى عينى مع السهر
فدائى الربيع أنا وعبد نعاس عينيها
وصوفى الحصى والرمل ، والحجر
فاعبدهم ، لتلعب كالملاك ، وظل رجليها
على الدنيا ، صلاة الارض للمطر

هنا أيضا تمتزج صورة الاخت امتزاجا كاملا بالوطن . فالاخت التى تحتاج كل هذا الحب ، وكل هذه الحماية ،

وتلهذا الحنان ، وهذه اللهفة ، التى من أجلها يتصوف الشاعر فى الرمل والحصى والحجر .. هذه الاخت ، هى اخت محمود درويش ووطنه فى نفس الوقت .

وفى شعر محمود درويش ، الى جانب هذا التوحيد والامتزاج والذوبان بين المعانى المختلفة ، ظاهرة اخرى ترتبط بالظاهرة الاولى أشد الارتباط ، هذه الظاهرة الجديدة هى الاحساس « بالاسرة » احساسا عاطفيا متيقظا متحفزا على الدوام لمواجهة الخطر الذى يتوقعه الشاعر فى كل لحظة . ان تجربة الاسرة فى شعر محمود درويش هى تجربة روحية فذة ، وهى - كما تظهر فى شعره - تبدو من أعمق وأبرز التجارب الروحية التى عبر عنها شعرنا العربى الجديد . أنها تجربة دائمة الحضور فى وجدان الشاعر ، فهو يتحدث كثيرا عن أمه وأبيه وجده وأخته وكل مايتصل بهذه العناصر البشرية التى تتكون منها الاسرة ماديا وعاطفيا .

ولكن ماهو معنى الاسرة عند محمود درويش ؟ هل تقتصر على ذلك المعنى الضيق المحدود ؟ هل تدور فى حدود الصور العائلية البسيطة المألوفة ؟ ان أول ما يؤديه معنى « الاسرة » فى شعر محمود درويش ، هو أنه يغذى شعور الفنان بالانتماء ، وهو شعور يحتاج الى تغذية مستمرة دائمة عنده ، وعند أى عربى يعيش فى ظل الارهاب الاسرائيلى الذى يريد أن يقطع كل ما للعرب فى داخل اسرائيل من جذور . فالمقطوع من جذوره يمكن أن ينتهى ويذوب فى المجتمع الجديد بلا ندم ولا مقاومة .

ومن هنا فان محمود درويش يستحضر فى شعره على الدوام كل مايذكره بأسرته ويؤكد له أنه ينتمى الى جذور أصيلة ، وأنه ليس شبحا هائما ، ولا نباتا مقطوعا وملقى به فى رمال الصحراء .

والاسرة عند محمود درويش هى أسرة ممزقة تحاول أن تلتئم ، وهي أشبه بجثة أوزوريس التى تحدثنا الاساطير المصرية القديمة أنها تمزقت بيد اله الشر «ست» ولكن ايزيس الوفية ظلت تبكي وهى تناضل حتى استطاعت أن تعيد الاجزاء المبعثرة من الجثة وأن تعيد الروح الى الجسد المزق ، والجسد الممزق عند الشاعر محمود درويش هو هنا جسد فلسطين الذى يبدو شعره دموعا حوله وبكاء عليه ونضالا من أجل أن تدب فيه الحياة وتعود اليه الروح . كما أن فكرة الاسرة التى تمزقت ، هذه الفكرة التى تقابلنا كثيرا فى شعر محمود درويش هى معادل فنى حلو وعميق لمأساة فلسطين . فشعب فلسطين فى الرؤية الوجدانية للشاعر هو أسرة تمزقت ، ومحاولة الالتئام بين أفراد الاسرة هى محاولة العودة والرجوع والتوحد بين أفراد شعب فلسطين

والاسرة كما يصورها محمود درويش تبدو أسرة عاطفية ، مليئة بالمشاعر الكبيرة النبيلة . انها تعيش فى ظل حب جارف يسيطر على أفرادها سيطرة كاملة ، ويكفى أن نقرأ هذه الابيات التى تصور حب الشاعر لأمه:

أحن الى خبز أمى
وقهوة أمى
ولمسة أمى
وتكبر فى الطفولة
يوما على صدر يوم
واعشق عمرى لانى
اذا مت
أخجل من دمع أمى

هذا حب جارف عميق ، يفوق حب الابن العادى لأمه العادية ، انه نوع من التصوف والعبادة ، ومن يستطيع

أن ينكر على الشاعر مثل هذه العبادة العاطفية ؟. من يستطيع ان ينكر عليه كراهية الموت لانه يخجل من دمع أمه ؟ ان هذا النوع من الحب الجارف الذى يصوره محمود درويش فى عواطفه الخاصة أو فى عواطف العائلة الفلسطينية ، هو وحده الطريق الى الالتئام والعودة ودواء الجرح ، فحبه الجارف الكبير لامه ، حب ايزيس لاوزوريس ، هو نوع من الحب لابد منه ليكون غذاء للنضال ، وغذاء لقضية شعب أصابه ما أصاب شعب فلسطين . ان هذا الحب ، بهذه القوة ، هو تعويض ورد على الكراهية الحادة ضد فلسطين وشعب فلسطين .. هذه الكراهية التى يجسدها كيان اسرائيل .

على أننا نكاد نجد معانى عاطفية محددة تدور حول الام والاب والاخت فى شعر محمود درويش . بالاضافة الى مايؤكده الشاعر دائما من امتزاجهم بمعنى الارض والوطن وبالاضافة الى مايوحى به فى شعره من أن الاهتمام بالام والاب والاخت وحتى الجد انما هو نوع من التركيز والتجميع العاطفى الذى يؤكد للشاعر معنى الانتماء فى بيئة تريد أن تجرده من هذا الانتماء وتحرمه منه . بالاضافة الى هذا كله فاننا نجد معانى محددة للعناصر البشرية التى يشير اليها محمود درويش فى شعره . فالام فى قصائده صامتة مثل الارض ، فان تكلمت فبالدموع والنظرات ، ولكنها تملك سيطرة عاطفية لا حدود لها على الاخرين رغم صمتها وحزنها وضعفها . والاخت هى التى تثير عاطفة خاصة ، عاطفة الحنان والرغبة الحارة فى حمايتها من اى مكروه ، ووقايتها من اى جرح . ففى قصيدة له يقول عن أخته التى تستثير فى نفسه كل عواطف الحماية والحنان ورد الاذى عن وجهها ونفسها ويديها :

حرير شوك أيامى ، على دربى الى غدها

حرير شوك أيامي
واشهى من عصير المجد ما ألقى لاسعدها
وانسى فى طفولتها عذاب طفولتى الدامى
وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

واذا تركنا أخته وأمه ، وبحثنا عن معنى الاب فى شعره وجدنا الاب عنده صورة ناطقة حية تمثل الحكمة والماضى والتراث . وهى التى تشد الشاعر الى أرضه وأهله ، وتفرض عليه الا يبتعد أو يهرب من ذلك العذاب الذى يعانيه فوق الارض . ان الاب هو صوت الاجيال الراحلة تلك التى عاشت على الارض الفلسطينية جيلا بعد جيل . والاب هنا يتكلم – من وراء قصائد محمود درويش الشفافة – وهو يملك المعرفة الكاملة بحقيقة المأساة ، فقد عاشها ولم يروها له أحد ، وهو أيضا يملك ثقة كاملة تكاد تكون ثقة دينية ترتفع فوق كل مناقشة عقلية أو رؤية واقعية بأن الارض لابد أن تعود .

كان جيل محمود درويش صغيرا جدا عندما وقعت الكارثة فأحس بضجيج ماحدث ولكنه لم يدرك معناه ، أما أبوه فقد رأى كل شيء وعرف كل شيء .

ويظهر دور الاب فى شعر محمود درويش أيضا كرد أصيل على عدد من الحالات النفسية التى تنتاب الشاعر وتسيطر عليه ، ومن أهم هذه الحالات : حالة الضيق واللهفة على الهجرة بطريقة ما ، فعندما يصل الشاعر الى حافة اليأس أحيانا ، يتراءى له انه لايستطيع البقاء هو وأمثاله فى هذه الارض التى تعذبه وتضنيه . لابد أن يتركها ويبحث لنفسه عن مكان آخر وجذور أخرى، انه يبحث عن الخلاص الفردى ، بعد أن تسرب اليه شك فى انتصار قضيته . وكان الشاعر قبل اليأس يظن أن خلاصه الفردى فى خلاص الوطن كله . هنا يظهر صوت

الاب : عميقا واثقا . ان الاب هو شعاع ضوء أو شمعة فى ظلام الشك واليأس . والاب ينادى فتاه لا ترحل : تمسك بالارض والتراب ، احمل صليبك على كتفيك ، فلقد تحمل أيوب عذابا مابعده عذاب ثم انتصر على عدوه عندما انتصر على نفسه وعلى يأسه . ان الاب هو الذى يعيد الفتى الحزين الراغب فى الرحلة والهجرة الى جذوره الثابتة .

فى قصيدة « أبى » يكشف محمود درويش عن هـذا الدور الذى يقوم به الاب بالنسبة لجيله من الشباب وهو الجيل الذى تفتحت عيناه على الحياة بعد مأساة ١٩٤٨ :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفر التراب
وصلى لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر

ويقول فى القصيدة نفسها :

وأبى قال مرة
حين صلى على حجر
غض طرفا عن القمر
واحذر البحر ... والسفر

ثم يقول فى ختام القصيدة :

وأبى قال مرة :
الذى ماله وطن
ماله فى الثرى ضريح
... ونهانى عن السفر

ومن خلال هذا الصوت العميق الاصيل ، صوت الاب، زرع الفتى جذوره من جديد فى أرض المأساة ، أملا فى أن يثمر الزرع الجديد نصرا وحرية ، ووطنا غير حزين ، وأسرة ملتئمة غير مجروحة ولا ممزقة .

ويجد الشاعر تحت تأثير صوت أبيه شجاعة الاستمرار ومواصلة البقاء فى الارض ، والسير على الاشواك ، ولذلك فانه ، بناء على الحاح صوت الاب وقوة تأثيره ، يرفض اى سفينة نجاة تريد أن ترحل به وتحمل اليه الخلاص الفردى من الطوفان. . . فقد أحس بفضل صوت ابيه أن النجاة من الطوفان هى فى مواجهة الطوفان :

يانوح !!
هبنى غصن زيتون
ووالدتى .. حمامة
انا صنعنا جنة
كانت نهايتها صناديق القمامة
يانوح !
لا ترحل بنا
أن الممات هنا سلامة
انا جذور لاتعيش بغير ارض
ولتكن أرضى .. قيامة

فالموت اذن على الارض ، فى مواجهة الطوفان ، أهون من الرحيل والابتعاد والسفر والهروب .

هذه هى أسرة محمود درويش : انها شعبه وأهله وسر نضاله وحرارة حبه وحماسه ، وهى القوة الروحية التى تدعوه الى أن يتمسك بأرضه كلما استبد به اليأس وأوشك أن يدفعه الى أن يترك القضية والارض والامل جميعا .

وفى شعر محمود درويش نلتقى بمجموعة كبيرة من الرموز أهمها واكثرها تكرارا : رمز الصليب ، فهذا الرمز يظهر فى معظم قصائد محمود درويش . وللشاعر فى ذلك مبررات فنية وفكرية كبيرة أهمها ولاشك : أنه يعيش على أرض فلسطين .

وفلسطين هى ارض المسيح . وقد اقترنت مأساة المسيح بالصليب الذى أراد اليهود أن يصلبوه عليه . فالصليب يقترن بفلسطين القديمة وهو يقترن ايضا بفلسطين المعاصرة ، لان اليهود بريدون أن يصلبوا فلسطين وكل شىء فيها ، ويقضوا عليها وعلى اهلها ، ومن حق شاعر يعيش فى هذه المأساة حياة يومية حيث يتعرض هو وأهله ومواطنوه لمحاولات الصلب كل يوم بلا رحمة . من حقه أن يعبر عن مأساته برمز الصليب ، ويكفى أن نشير فى هذا الميدان الى مايقوم به اليهود من محاولة لعزل العرب فى داخل المدن بطريقة غير كريمة . فهم يحيطون الاحياء العربية بالإسلاك الشائكة ويطبقون عليهم قوانين عسكرية خاصة . ويمنعونهم من مغادرة أحيائهم . وفى هذه الاحياء نفسها يكون للعرب مدارسهم الخاصة ومحلاتهم الخاصة وما الى ذلك . والغريب أن هذا هو الاسلوب الذى كانت النازية الالمانية تلجأ اليه فى معاملتها لليهود ، وهكذا : نقل اليهود أساليب التعذيب والارهاب النازية ليطبقوها فى معاملتهم للعرب ، وهم بذلك تلاميذ حقيقيون للارهاب النازى مهما ادعوا عكس ذلك ، ومهما ذرفوا الدموع على ما أصابهم من اضطهاد النازية واستنزفوا ملايين « الماركات » من الالمان تعويضا عن هذا الاضطهاد .

ورمز الصليب على كل حال هو رمز عالمى ، ولا يمكن أن نستنكر هذا الرمز الا فى حالة واجدة هى : أن يكون رمزا مصطنعا مفتعلا مبنيا على مجرد الترديد والتقليد . وهذا هو ماظهر فعلا عند بعض الشعراء العرب المعاصرين . حيث كانوا يصطنعون رمز الصليب بمناسبة وبدون مناسبة ، وكان ذلك افتعالا يثير السخط والضيق اما محمود درويش فيستخدم رمز الصليب استخداما

فنيا صحيحا وفى موضعه . ان رمز الصليب عند هذا الشاعر الشاب هو رمز تبرره مأساة الشاعر ومأســـاة الوطن • ويبرره ان هذا الوطن بالذات يستدعى الى العقل والوجدان صورة الصليب أكثر من أى وطن آخر وأكثر من أى تجربة وطنية أو انسانية أخرى . ان الصليب الذى كان معدا للمسيح قد صلبت عليه فلسطين ، والذين فعلوا ذلك هم أيضا أعداء المسيح : اليهود .

ومحمود درويش يعتبر أحد شعراء خمسة من الجيل العربى الجديد استخدموا رمز الصـــليب فأحســـنوا استخدامه وهم : بدر شاكر السياب ، وأدونيس ، وصلاح عبد الصبور ، وخليل حاوى ، وأخيرا محمود درويش ، وفى اعتقادى أن محمود درويش هو أقرب هؤلاء جميعا ـ بحكم تجربته ومأساته ـ الى الاقناع الفنى والوجدانى عندما يستخدم رمز الصليب ومايتصل به من بقية الصورة المعروفة : تاج الشوك على الرأس ، والمسامير فى اليدين ، وذلك لان محمود درويش يعيش مأساة كبيرة حقـا ، وهى مأساة معادلة لمأساة الصلب وتيجان الشوك والمسامير فى اليدين .

يقول محمود درويش فى قصيدته «صدى من الغابة» :

من غابة الزيتون
جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لاتنهشى
فربما أرجع للدار
وربما تشتى السما . ربما
تطفىء هذا الخشب الضارى
أنزل يوما من صليبى
ترى ...

كيف أعود حافيا ... عارى ؟!

فهو هنا يصور نفسه ، فى مأساته ومأساة وطنه مصلوبا يتعذب ، ولكنه مثل المسيح يحمل فى قلبه قضية كبيرة تمنحه الامل فى العودة والانتصار .. انه ملىء بالامل رغم العذاب الكبير الذى يعانى منه .

وليست صورة الصليب فى شعر محمود درويش قاصرة على هذه القصيدة أو على عدد محدود من قصائده ، ولكنها صورة تسيطر على وجدانه وتملأ معظم أشعاره .

ولعل من اكتمال صورة هذا الشاعر أن نقول : انه يتحرك بروح دينية مقاتلة . ليست روحا صليبية تقوم على اشعال الخلاف بين الاديان وخلق المعارك بين أهل هذه الاديان ، حيث تكون الاديان فى العادة تغطية لمصالح اخرى عملية ومادية كما حدث فى الحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين . فلقد كانت جيوش الصليبيين فىالواقع جيوشا استعمارية تريد المكاسب والغنائم ، ولم تكن ترفع راية الدين الا للتغطية والتمويه . ليست الروح الدينية اذن عند محمود درويش روحا صليبية متعصبة لدين ضد دين ، ولكن روحه الدينية هى روح انسانية شفافة ، ولذلك نجد فى شعره محاولة لتفسير الدين تفسيرا نضاليا فهو يقول على لسان المسيح بعد أن عرض الشاعر على المسيح شكواه :

أقول لكم : أماما أيها البشر

فالمسيحية فى وجدانه هى دعوة الى التقدم ودعوة الى النضال والوقوف فى وجه الالام الكبيرة ، وكما يقول المسيح : « ماجئت أحمل سلاما لهذه الارض وانما جئت احمل سيفى على الظلم » .

وهذا التفسير المناضل نفسه يقدمه الشاعر للاسلام ، فهو يقول على لسان محمد مستوحيا رسالته وتاريخه

المليء بالنضال والمقاومة :

تحد السجن والسجان
فان حلاوة الايمان
تذيب مرارة الحنظل

وما أجمل هذه الكلمات التى يكتبها محمود درويش ، والتي تلخص فى حرارة وصدق رسالة الاسلام ورسالة كل دعوة أخرى تؤمن بالانسان وكرامته وحريته وحقه الدائم فى العدل .

ان محمود درويش شاعر كبير يستحق وهوفى محنته اليوم يعاني آلام الحياة فى أحد سجون اسرائيل أن نجعل منه قضية ذات دوي كبير . انه مقاتل وفنان وصاحب رسالة عادلة ، وهو مليء بالحيوية : ان قيدوا جسده فهو ثائر بروحه وان غاب عن الوعي فبالالهام والاحلام يكون كفاحه .

ومن النادر أن يعتريه اليأس لانه جعل نفسه جزءا من تراث النضال ، فهو يشعر دائما أنه واحد من مناضلين آخرين يملاون الارض فى عالمنا المعاصر ، أو مناضلين سبقوه فليس هو فى نظر نفسه أول سجين ، وليس أول من تعرض للتعذيب . وحتى لو هددوه بالقتل فانه يقول لنفسه : لست أول شهيد . ومثل هذه الروح ترفع المناضل الى مستوى الشهداء الحقيقيين وتؤكد له ولغيره عدالة قضيته وتفاؤله الكبير ، وثقته فى أنه لا نهاية للنضال العادل الا أن ينطلق الشاعر ويتحرر من كل قيد ويغني :

مليون عصفور
على أغصان قلبي
يخلق اللحن المقاتل

هذه هي بعض الخطوط العامة فى ملامح محمود درويش : فنانا ومفكرا وشاعر مأساة . وسوف تزداد

شخصية محمود درويش أمامنا وضوحا كلما استطعنا أن نحصل على المزيد من شعره الذى يكشف لنا عن فكره ونفسيته وتطوره الفنى .

ولكننا الآن بحاجة لان نتساءل : اذا كان محمود درويش يعيش اليوم داخل سجن اسرائيلى فلماذا لانجعل منه قضية يحس بها العالم كله ؟ لماذا لانقوم بمحاولة عالمية لانقاذ محمود درويش ؟ ان مثل هذه المحاولة لن تكون ضجة مفتعلة ، فهى ضجة تتصل بقضية عادلة لانها قضية شاعر كبير يتعرض للاضطهاد بسبب أدبه وفنه ورأيه . وهى قضية عادلة من ناحية أخرى لانها تتصل بالقضية الام . قضية فلسطين .

وقد يقول قائل : هل نثور ونغضب من أجل شاعر واحد فى سجون اسرائيل مهما كانت قيمة هذا الشاعر وأهميته ونحن الآن أمام محاولة عدوانية لاعتقال مايقرب من مليون ونصف مليون عربى داخل أسوار اسرائيل بعد عدوان ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ؟

ان هذا الاعتراض يمكن أن يكون معقولا لو أننا اعتبرنا قضية محمود درويش قضية فردية ، ولكن الحقيقة أن إثارة قضية الشاعر المناضل عالميا سوف تخدم القضية الكبرى وسوف تساعد الجهود الاخرى المبذولة فى كل مكان من أجل هذه القضية العادلة ومن أجل النصر فيها . هناك جهود تبذل على المستوى السياسى وجهود تبذل على مستوى الجماهير العادية فى العالم كله . فلماذا لا تكون هناك محاولة أخرى لتجميع المثقفين من رجال الفكر والفنانين والكتاب حول هذه القضية ؟ ان المثقفين يلعبون دورا خطيرا الى أبعد الحدود فى التأثير على الضمير العالمى ، سواء كان ذلك التأثير متصلا بالجانب السياسى للقضايا العالمية أو متصلا بموقف الرأى العام الدولى

من هذه القضايا المختلفة . فالمثقفون هم في الحقيقة الذين يقودون الضمير العالمي ويؤثرون في أحكامه وفي رؤيته للامور وحكمه عليها .

وصوت (١) برتراند راسل الان على سبيل المثال ، هو اقوى من اى صوت آخر في العالم كله . كل ذلك لان هذا المفكر العظيم الذى تجاوز التسعين من عمره قد رصد نفسه نهائيا لخدمة السلام العالمى ، وللدعوة من أجل هذه القضية العظيمة العادلة .

واذا كان أبناء فيتنام مازالوا صامدين فى وجه العدوان الامريكى ، ومازالوا قادرين على التصدى الصابر الحاسم لهذا العدوان . فلاشك أن من بين عناصر صمودهم : عطف الرأى العام عليهم وقد كسبوا هذا العطف بجهود متعددة من أهمها وأبرزها تلك المحاكمة التى أقامها برتراند راسل للرئيس الامريكى جونسون وفضح فيها التدخل الامريكى فى فيتنام . لقد كانت هذه المحاكمة فرصة واسعة وواضحة أمام الرأى العام العالمى ليعرف كل شىء عن هذا العدوان الامريكى . وليكره كل شىء فيه وينكره .

وهناك أمثلة عديدة أخرى تكشف عن أهمية تحويل مثل هذه القضايا الى قضايا عالمية . هناك على سبيل المثال قضية الصحفى والمفكر الفرنسى ريجى دوبريه مؤلف كتاب « ثورة فى الثورة » فكما يقول الاستاذ الياس سحاب مترجم كتاب « دوبريه » فى مقال له عن هذا الصحفى المفكر : « ان دوبريه السجين فى بوليفيا أصبحت قضيته قضية دولية بفضل ملاحقة نفر من أصدقائه لدرجة أن الحكومة البوليفية الغت قرارها بمنع دوبريه

---

(١) كتب هذا المقال فى أوائل سنة ١٩٦٨ أى قبل وفاة راسل بحوالى سنتين .

من تسلم الرسائل التى تأتيه خوفا من نقمة الرأى العام العالمى ، ثم اضطرت لسجنه بدلا من اغتياله ، لأن الرأى العام العالمى عرف أنه حى ، فأصبح قتله بعد ذلك مدعاة لاثارة ضجة عالمية لايتحمل آثارها النظـــام المهلهل فى بوليفيا » .

ولاشك أن موت شاعر كبير مثل « فردريكو جارسيا لوركا » فى الحرب الاهلية الاسبانية ، كان بقعـة دم التصقت بأنصار الاستبداد واعداء الشعب الاسبانى الذين استعانوا بكل الوسائل الارهابية للقضاء على حرية الاسبان وثورتهم ، لقد كان دم « لوركا » تهمة زلزلت سـمعة فرانكو وأنصاره خلال الحرب الاهلية الاسبانية ، ولايزال هذا الدم ـ وسيظل ـ عالقا بتاريخ الذين أسالوه .

وموقف ألمانيا النازية من الثقافة والمثقفين كان من بين الاسباب التى حطمت سمعة النازية وفضحتها أمام العالم كله ، لقد كانوا يحرقون كتب كبار الفنانين والمفكرين ، كان أحد المسئولين النازيين يعلن بجرأة وصفاقة تلك العبارة المشهورة : « كلما سمعت كلمة ثقافة تحسست مسدسى» ولم يكن النازيون يشعرون بالخجل من مثل هذه الكلمات والمواقف أيام قوتهم وسيطرتهم وتصورهم الجنونى : ان صفحات التاريخ تمر تحت أقدامهم ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ماشاءوا لانهم سوف يكتبون تاريخ البشرية كلها من جديد على هواهم .

ولكن النازية انهارت وسقطت بأخطائها وخطاياها فى حق الانسان والحضارة . وعلى رأس هذه الاخطـــاء والجرائم : موقف النازية من الثقافة والفن والفكر .

وقد أصبح من الضرورى الآن ، بعد أن قطعنا هــذه المرحلة من نضالنا الطويل ، الا نرفض التعلم من أعدائنا مادام هناك مايجب أن نتعلمه .

ففى الحركة الصهيونية ظاهرة لها مغزاها . وهــذا ما ينبغى أن نتعلمه ــ فقد اعتمدت الصهيونية اعتمادا جوهريا على الدعوة الأدبية والدعوة الثقافية عموما وقد أبرز الصــهيونيون ابرازا لاحـد له : موقف النازية من الكتاب اليهود والفنانين اليهود . لقد أبرزوا على سبيل المثال مافعله هتلر بمؤلفات «كافكا» حيث أحرقها النازيون ومنعوا قراءتها وتداولها وأصبحت من المحرمات بالنسبة للالمان ، كما أبرزت الحركة الصهيونية موقف النازية من كتابات توماس مان وستيفان زفايج وغيرهما من الكتاب اليهود ، وكان لهذه المواقف التى اتخذتها النازية دورها المزدوج ، فهى من ناحية قد أثارت السخط على موقف النازية من اليهود . ومن ناحية أخرى أثارت نوعا من العطف على اليهود بطريقة دفعت الصهيونية الى استغلال هذا العطف ومحاولة استثماره فى الميادين السـياسية والاقتصادية .

الى جانب ذلك كله فقد تعود الصهيونيون الاهتمـام الواسع بالادب الذى كتب عنهم وعن قضيتهم ، مثلما فعلوا مع قصة « اكسودس » التى كتبهــا « ليـون أوريس » ... فقد تحولت هذه القصة الى فيلم تكلف الكثير وأثيرت حوله ضجة دعائية ضخمة . كما طبعت من هذه القصة طبعات عديدة ، وساعد الصهيونيون على انتشار ملايين النسخ بصورة هائلة فى العالم كله .

وفعل اليهود ذلك أيضا فى رواية « دافيد الروى » التى كتبها السياسى الانجليزى دزرائيــلى والذى كان واحدا من أبرز رؤساء الوزارات الانجليزية فى القرن الماضى ... فقد روج الصهيونيون لهذه النماذج الادبية وغيرها ترويجا ماديا ومعنويا لاحد له .

هذا هو ما يقوم به الصهيونيون نحو قضيتهم . أنهم

يستغلون كل ما يمكن أن يؤثر فى الضمير العالمى وذلك لخدمة أهدافهم ، وليس هناك أى افتعال أو بعد عن حقائق التاريخ عندما نقول : ان الحركة الصيونيـة من الناحية السياسية قد سبقتها بوقت طويل حركةأدبية واسعة تدعو اليها وتمهد الطريق امامها وتنشر القيمالتى تؤمن بها . وقد صاحبت هذه الحركة الادبية قيـام اسرائيل واستمرت معها ، وما زالت الحركة الصهيونية تحاول التأثير على مراكز القوة الثقافية فى العالم كله ، وكان آخر هذه المحاولات ذلك النصر الذى حققته عندما تقرر منح جائزة نوبل عام ١٩٦٧ لاديب اسرائيلى ليس معدودا على الاطلاق من كبار أدباء العصر ، وقد حصل هذا الاديب واسمه « يوسف عجنون » على الجـائزة تحت ضغط صهيوني على لجنة جائزة نوبل التى أثبتت مرارا أنها قابلة للتأثر وانها خاضعة للنفوذ السياسي الغربى ، وليست لجنة حرة تعتمد على مبادىء أمينـة وصادقة فى مواقفها المختلفة .

هذا هو ما تفعله الحركة الصهيونية بقضـيتها التى لا تقوم على العدل ولا على الحق . فماذا ينبغى علينا أن نفعله ، نحن أصحاب القضية العادلة الحقيقية البعيـدة عن التزييف أو التزوير التاريخى ؟ ان من واجبنا الا نترك فرصة سليمة دون استغلالها لكسب العالم معنا الى صفنا .

وهذه فرصة لقضيتنا ولا شك ، وليست فرصـة لاعدائنا : ان تضطهد اسرائيل بحكم تكوينها العنصرى ـ شاعرا موهوبا أصيلا مثل محمود درويش ، وأن تصادر حركة أدبية كاملة هى حركة شعراء المقاومة فى الارض المحتلة ، هذه الحركة التى تسللت الينا بعض نماذجها الشعرية من وراء الاسوار ، وبرزت فيها أسماء أخرى

الى جانب محمود درويش مثل : سميح القاسم وتوفيق زياد ، وحبيب قهوجى .

ان باستطاعتنا بل ومن واجبنا أن نجعل اضطهاد محمود درويش وتعذيبه فى اسرائيل قضية مشتعلة فى أوساط المثقفين فى شتى أنحاء العالم . وذلك بالطبع يقتضى منا أن نبذل جهدا فى ترجمة قصائد هذا الشاعر الموهوب، ومن الواضح ــ كما قلت فى البداية ــ أنها قصائد ذات مذاق انسانى يمكن أن يحس بها الناس فى اى مكان وأى بيئة. وهذه المهمة يجب أن تتبناها مؤسساتنا الثقافية المختلفة، فعن طريق اتحاد كتاب فلسطين واتحاد الادباء العرب، والمجلس الاعلى للاداب والفنون بالقاهرة ، والمكتب الدائم لكتاب آسيا وافريقيا .. عن طريق هذه المؤسسات الثقافية العربية ، وكلها ذات اتصالات عالية واسعة يمكن أن تتحول قضية محمود درويش الى قضية تهز ضمير المثقفين فى كل أنحاء العالم . ومن الممكن بالطبع أن تساهم منظمة تحرير فلسطين فى تبنى قضية هذا الشاعر والمساعدة على توضيحها وشرحها بين المثقفين عن طريق مكاتب المنظمة فى العالم كله .

ومن خلال قضية محمود درويش يمكن أن يزداد المثقفون العالميون فهما للقضية الفلسطينية وقدرة على كشف حقيقة اسرائيل .

ولقد كان من الضرورى ان يسبق ذلك كله محاولة لنشر أشعار محمود درويش بين المواطنين العرب . فمن البديهى ان ما نريد أن نقنع به الراى العام العالمى يجب أن نكون نحن مقتنعون به أولا .

المهم أن نأخذ القضية بصورة جادة ونعتبرها قضية ساخنة لا تحتمل التأجيل والكسل ، والمهم أيضا ألا تكون هذه السطور عند الذين يقتنعون بها فى مؤسساتنا

الثقافية المختلفة مجرد كلام فى الهواء .

ان من أباس عيوبنا أن نتحمس بسرعة ثم ينطفىء الحماس ويتحول الى أمنيات وذكريات ، وكلمات لامعنى لها ، وبعد ذلك نضيع كل هذه القضايا البسيطةالواضحة التى يمكننا من خلالها - رغم بساطتها - أن نصل بصوتنا الى ضمير الدنيا كلها ونؤثر فى هذا الضمير .. كل ذلك نستطيع أن نحققه من خلال لوحة جميلة أو قطعة موسيقية أو قصيدة أو قضية شاعر مضطهدمثل محمود درويش .

والقضايا الكبرى لا تكسبها معارك الحرب فقط . . وانما تكسبها معارك السلام أيضا .. وربما قبل معارك الحرب ، والذى يعرف كيف يكسب السلام هو وحده الذى يستطيع أن يكسب الحرب .

سميح القاسم ...
شاعر الغضب والثورة

فى ٣٠ مايو سنة ١٩٦٥ نشرت احدى الصحف الاسرائيلية مقالا قالت فيه : ظهر فى مدينة الناصرة ديوان حافل بالاشعار الوطنية بعد أن توقف صدور مثل هذه الكتب سنين عديدة ، وعنوان الكتاب هو « أغاني الدروب » من تأليف الشاعر سميح القاسم من قرية الرامة قضاء عكا . وهذا الشاعر هو الشاب العربى الاسرائيلى الوحيد الذى خدم فى الجيش الاسرائيلى خدمة الزامية باعتباره درزيا . ومع ذلك فقد نظم شعره بروح هى أعنف ما ظهر فى اسرائيل منذ قيام الدولة بل انها روح ثورية لم تر المطبعة الاسرائيلية مثيلا لها من قبل ، وفى احدى قصائد هذا الديوان يهزأ الشاعر ممن يدعون للسلام ويتنصل منهم . وفى قصيدة أخرى يعبر عن سخطه على الذين يدعون الى التحاب والتعايش بين العرب واليهود . وفى قصيدة ثالثة يرثى الشاعر لحال اللاجئين الفلسطينيين ويدعو الى الثورة لاعادة الابتسامة الى شفاه الصغار . ويعلن فى احدى قصائده استعداده لتحمل مسئولية دعوته » .

والذى لم تقله الصحيفة الاسرائيلية ان ديوان « أغانى الدروب » للشاعر سميح القاسم لم يفلت من الرقابة الاسرائيلية ، بل لقد حذفت منه الرقابة عددا كبيرا من

القصائد التي ظهرت فى الديوان كصفحات بيضـــاء أو كصفحات فيها علامة x بدون أى كلمة ، وقد بلغ عدد الصفحات المحذوفة من هذا الديوان والتى بدت بيضاء أو ملأتها علامة x احدى عشرة صفحة كاملة ، بل اننا نجد بعض القصائد فى هذا الديوان وقد سمح الرقيب الاسرائيلى بنشر جزء منها وحذف الجزء الباقي ، كما فعل فى قصيدة عنوانها « للسلام » ، وقصيدة أخرى عنوانها « كفر قاسم » .

على أن السلطات الاسرائيلية لم تكتف بالحذف من هذا الديوان ، بل صادرته بعد ذلك واعتقلت الشاعر أكثر من مرة وقد تسربت بعض النسخ من الـــديوان المصادر الى خارج اسرائيل ، أما الشاعر نفسه ، وهو شاب فى الثانية والثلاثين من عمره ، فقـد كان يخرج دائما من سجون اسرائيل أشد صلابة وثورية مما كان، ذلك لانه ــ كما يدل عليه شعره ــ ملىء بايمان حار متفجر بقضيته كعربى فلسطينى يدرك فداحة الظلم الذى أصاب شعبه وأرضه ، وتأبى نفسه الثائرة أن تستسلم لهذا الظلم أو تعترف به ، ولذلك فقد حافظ سميح فى كل مراحل حياته على عنصرين هامين فى شخصيته هما ثوريته وشعره ، وهذان العنصران هما فى الحقيقة عنصر واحد فالعاطفة الثورية الاصيلة الصلبة هى المادة الاولى لشعره ، وشعره ما هو الا تعبير عن ثوريته . ان الشعر والعاطفة الثورية هما وجهان لعملة واحدة .

والواقع أن ظهور سميح القاسم بهذه العاطفة الثورية وبهذا الشعر العنيف المتفجر كان مفاجأة للرأى العام الاسرائيلى ، وكان على وجه الخصوص مفاجأة أكثر اثارة بالنسبة للسلطات الاسرائيلية ، ذلك لان « سميح » شاب « درزى » ، وقد حاول الاسرائيليون منذ سنة ١٩٤٨،

سنة اعلان قيام اسرائيل ، ان يخلقوا نوعا من النزاع الطائفى بين الاقلية العربية التى بقيت فى الارض المحتلة والتى بلغ تعدادها سنة ١٩٦٦ ما يزيد على ثلاثمائة ألف عربى من بينهم ما يقرب من خمسة وعشرين ألفا من الدروز .

وقد رسمت اسرائيل خطتها منذ قيامها على أساس التفرقة بين العرب والدروز فى المعاملة ، ومن مظاهر هذه التفرقة السماح بدخول الشبان الدروز كمجندين فى الجيش الاسرائيلى .

فلا يجوز أن يدخل العرب جيش اسرائيل والاستثناء الوحيد فى ذلك هو الاستثناء الخاص بالدروز ، ومن ناحية أخرى تعمل اسرائيل على ادخال تحسينات ظاهرية على حياة الطائفة الدرزية ، وتمييز هذه الطائفة عن غيرها من الطوائف الاخرى بطريقة شكلية لا تمس جوهر الامور بحال من الاحوال ، والهدف من ذلك كله هو اقناع الدروز بأنهم ليسوا عربا ، وبأن مصلحتهم ، كأصحاب قومية خاصة مستقلة تمام الاستقلال عن القومية العربية هى أن يتحالفوا مع الاسرائيليين ضد العرب فاسرائيل وحدها فيما تزعم السلطات الاسرائيلية هى التى يمكن أن تمنح الدروز فرصتهم الكاملة فى الحياة والمجتمع والعقيدة الحرة .

ولقد كشف قناع السياسة الاسرائيلية فى هذا الميدان الاستاذ صبرى جريس فى كتابه « العرب فى اسرائيل » وصبرى جريس هو محام عربى يقيم داخل أسوار اسرائيل ، وهو من العرب المناضلين الذين يقاومون الارهاب الاسرائيلى بقلمه وبالعمل السياسى معا ، فصبرى جريس هو احد زعماء حركة « الارض » التى نشأت داخل اسرائيل لتجمع العرب فى تنظيم سياسى دقيق ،

وقد أصدرت السلطات الاسرائيلية قرارا بحل هـذه المنظمة ومطاردة أعضائها واعتقالهم . وكان صـبرى جريس من بين الذين تعرضوا للمطاردة والاعتقـال . وكتابه عن « العرب فى اسرائيل » يعتبر أهم وثيقة علمية دقيقة عن واقع العرب داخل اسرائيل . وقد صدر فى تل أبيب بالعبرية وترجمه مركز الابحاث الفلسطينية الى العربية . ومن المعروف أن الكتاب قد صـودر فى اسرائيل بعد صدوره بفترة قليلة كما تم اعتقال مؤلفه .

ويكشف لنا هذا الكتاب عن بعض الاساليب الاسرائيلية فى معاملة الدروز وتحريضهم على قطع كل صلة لهـم بالعرب والامة العربية .

يقول صبرى جريس : « وراء المعاملة الحسـنة التى يتلقاها الدروز تقف سياسة أمل منشود رسمه زعماء اسرائيل ، ونقحها ، بتفصيل متناه فى الدقة ، وعلى أسمى المجالات علوا ، زعماء اسرائيل الذين اسـتهدفوا أن يوجدوا حلفاء للصهيونية فى محاربتهم للحركات التحررية القائمة بين الشعوب الشرقية ، وقد بدأت حملة دعاية فى اسرائيل وخارجها استهدفت تمثيل الدروز كشعب منفصل ، له لغة مشتركة مع اليهود فى اسرائيل . يعيش وكأنه فى جنة عدن داخل هذه الدولة ورمت الى اضعاف موقف الدروز فى سائر البلاد العربية وخصوصا فى سوريا وايجاد حالة من الشك فى ولائهم أو حتى انتسابهم الى الامة العربية والوطن العربى . »

« واستمرارا لهذه السياسة أعلنت اسرائيل فى سنة ١٩٥٧ اعترافها بالدروز كطائفة دينية مستقلة ، وبعد ذلك بخمس سنوات أقرت الكنيست قانـون المحـاكم الدرزية ، فى محاولة استهدفت تنظيم الشئون الدينيه لهذه الطائفة ، ومساواتها بسـائر الطوائف الاخـرى فى

اسرائيل فى الظاهر . وفى الباطن اماطت اللثام عن نيتها المبيتة لخلق القومية الدرزية ، كقومية مميزة عن القومية العربيه . »

« ونحن نشهد اليوم فى اسرائيل أناسا من اليهود يميزون بين العرب والدروز فيقولون : القرى العربية والقرى الدرزية . ويفعل مثلهم الناطقون الرسميون باسم الحكومة وكذلك الصحافة العبرية ، وبلغ النفاق الاسرائيلى ذروته عندما ظهرت كراسة أعدت لتكون كتاب قراءة خاصة بالطلبة الدروز فى الصفوف العليا من المدارس الابتدائية ووقع على النشرة الشيخ أمين طريف الرئيس الدينى للطائفة فى اسرائيل . وأشرفت ادارة الدعاية فى مكتب رئيس الحكومة على تأليف هذه الكراسة ، وقد ذكرت هذه الكراسة أن مصاهرة كانت قائمة بين النبى شعيب ، الذى يجله الدروز بشكل خاص، وبين النبى موسى الكليم وبموجبها تزوج النبى موسى من بنت النبى شعيب ، وقد استفزت هذه القصة غضب الطائفة الدرزية فى اسرائيل ، اذ أن قضية زواج نبيهم شعيب باسرائيلية تناقض مبادىء عقيدتهم الدينية وهى عقيدة تقول أن شعيبا بقى أعزب » .

ويضيف صبرى جريس بعد ذلك حقيقة هامة ، فيقول :

« والحق يقال أن الدروز طائفة دينية عربية تأسست فى نهاية القرن العاشر الميلادى وطقوسها الدينية مشابهة فى أكثر تفاصيلها للديانة الاسلامية ، وهذه الطائفة تشكل من وجهة قومية جزءا لا يتجزأ من الامة العربية ، وتاريخها الحافل بالحرب ضد الاستعمار الفرنسى فى سوريا ليس الا قسما من التاريخ العربى والجدير بالذكر أن القسم الاكبر من المثقفين والشباب الدروز يستنكرون

خلق هذه القومية الجديدة ، ويفخرون بانتسابهم الى الامه العربية » .

هـــذا هو موقف اسرائيل من الدروز كما يفضحه ويشرحه صبرى جريس ، وهو موقف ظاهره طيب ، وباطنه خبيث الى أبعد الحدود ، كما ان هذا الموقف الذى يهدف الىالتفرقة بينالدروز وغيرهم من العرب ، لم ينقذ الدروز أنفسهم من الاضطهـــاد الاسرائيلى فى الأمور التى تتصل بمصالح اسرائيل وخططها للاستيلاء علىأراضى فلسطين، فقد سيطرت السلطات الاسرائيلية عن طريق الاغتصاب والسلب على أراضى الدروز تماما كما فعلت بغيرهم من العرب ، كما ان قرى الدروز تعانى ما تعانيه قرى أخوانهم العرب من بؤس وتخلف .

وعلى كل حال فان دعايات الاسرائيليين لم تفلح فى كسب جمـــاهير الدروز وخاصة الشباب المثقف من بينهم ، فقد ظل الدروز فى معظمهم على ولائهم لعروبتهم، باستثناء أفراد قلائل من العمـــلاء المـــأجورين الذين يوجدون دائما فى كل زمان ومكـــــان ، وأمثال هؤلاء لايمثلون الطائفة الدرزية بل يمثلون انفسهم .

ولقد كان ظهور الشاعر سميح القاسم من بين طائفة الدروز أمرا له مغزاه الكبير ، فسميح القاسم شاعر غزير الانتاج ، وهو فى كل شعره يلتزم بموقف واضـــح صريح ، هو الايمان بعروبة فلسطين ورفض الاحتـــلال الاسرائيلى رفضا كاملا ، واذا قرأنا النماذج الشـــعرية المتعددة التى كتبها شعراء الارض المحتلة ، فاننا نجد بين هذه النماذج جميعا شعر سميح القاسم وهو يقف فى المقدمة من حيث تعبيره عن الغضب والثورة ، اننـــا نجد ــ على سبيل المثال ــ فى شعر صـــديقه ورفيق نضاله محمود درويش نوعا من التفاؤل الثورى الدائم ،

حيث يبدو محمود درويش فى كثير من قصائده وهو يعيش فى المستقبل ، كما يراه ويؤمن به ، فهو يجتاز بعواطفه وخياله كل الظروف الراهنة والمصاعب القائمة والآلام والمحن ليركز على المستقبل الفلسطيني العربى ، حيث يرى ان هذا المستقبل مملوء بحلم الحرية والخلاص من كل القيود والعقبات ، ولكن سميح القاسم يتخذ موقفا آخر ، انه يرى العقبات والمصاعب ، ويرى المأساة التى حلت بالامة العربية والاراضى العربية فينفجر غضبه شعرا عنيفا حارا .

واذا كان بالامكان أن نسمى محمود درويش « شاعر التفاؤل الثورى » فان أقرب تسمية الى الصواب بالنسبة لشخصية سميح القاسم وفنه هى انه : شاعر الغضب الثورى ، ان الغضب يملأ شعر سميح ، والتمرد يمد جذوره فى كل بيت يكتبه ، والنار تشتعل على الدوام فى حروفه ، انه عاصفة تهب على الواقع الفلسطينى الاليم ، حيث يريد أن يدمر كل ما أمامه حتى يعود العدل الى الحياة بعد أن امتلأت بالظلم والمأساة .

وسميح القاسم ، العربى الدرزى الثورى ، الذى أراد الاسرائيليون أن تكون عقيدته الدرزية فاصلا بينه وبين أمته العربية وجسرا يقيم الاخوة بينه وبين الاسرائيليين ... هذا الشاعر قد خيب كل ظنون الاسرائيليين ، انه يبدو فى شعره رافضا كل الرفض لاسطورة الاخوة بين الدروز والاسرائيليين ، ذلك لانه بالدرجة الاولى عربى ، ولانه لا يؤمن بعد المأساة التى حلت بالعرب ان بالامكان أن يكون هناك نوع من الاخوة أو السلام بين العرب والاسرائيليين .

واذا قرأنا ديوانه « أغانى الدروب » الذى تحدثت عنه الصحيفة الاسرائيلية بغضب ودهشة ، وجدنا هذه

المعاني والافكار تتردد كثيراً فى قصائد الديوان ويجب ان نلاحظ هنا ان هذا الديوان بالذات هو أضعف دواوين الشاعر من الناحية الفنية ، حيث انطلق سميح بعد هذا الديوان الى آفاق فنية عالية تثبت انه شاعر من الدرجة الاولى ، ولكن هذا الديوان ، وهو ديوانه الثانى ، رغم بساطته الفنية ورغم اعتماده على التعبير المباشر والتجارب المباشرة فى معظم قصائده ، الا أنه مع ذلك كله يمثل الروح الثورية عند الشاعر .. عارية متفجرة حارة بلا أى ستار يحجبها أو يخفف من حدتها.

ففى قصيدة بعنوان « أخوة » أهداها « الى الذين يعرون الاخوة من جلدها ويتركونها مرتجفة فى صقيع الريف » .. يقول سميح فى مقطع من مقاطع هذه القصيدة :

أخوك أنا ؟ من ترى ذادني عن البيت والكرم والحقل عنوة؟
تحملني من صنوف العذاب بما لا أطيق وتفشاك زهوة
وتشتمني .. وتعلم طفلك شتم نبيى .. بأرض النبوة
تشك بدمعى اذا مابكيت وتسرف فى الظن ان سرت خطوة
وتحصى التفاتاتى المتعبات . فيوما أشار ويوما «تفوه» !

وفى قصيدة أخرى أفضل من القصيدة السابقة وأعمق منها فنا يقول .. وعنوان القصيدة « للسلام » :

ليغن غيرى للسلام
والعين ما عادت تبل صدى شجيرات العنب
وفروع زيتوناتنا .. صارت حطب
لمواقد اللاهين ، يا ويلى ، حطب
وسياجنا المهدود أوحشه صهيل الخيل فى الطفل المهيب
والجرن يشكو الهجر .. والإبريق يحلم بالضيوف
بال « ياهلا » !.. عند الغروب
ورؤى البراويز المغبرة الحطيمة

تبكي على أطرافها نتف من الصور القديمة
وحقائب الاطفال .. أشلاء يتيمة
لبثت لدى أنقاض مدرسة مهدمة حزينة
ما زال فى أحنائها .. ما زال يهزأ بالسكينة ..

رجع من الدرس الاخير ..
عن المحبـــة والسلام ! !

فى هذين النموذجين من شعر سميح القاسم تعبير حاد وصـــارخ عن موقف الشاعر ، انه يرفض أى نوع من الاخوة بينــــه وبين الاسرائيليين ويرى ان ذلك تزوير لا معنى له ولا جدوى منه ، كما انه يرفض دعوى السلام بين العرب والاسرائيليين .. فاى سلام هذا الذى يقوم على جثة الارض الفلسطينية الممزقة ، وعلى دماء المواطنين العرب الذين تم ذبحهم فوق أرضـــهم ليزرعها غيرهم ويحصد زرعها ؟ وهكذا لم تفلح دعوة الاسرائيليين الزائفة عن أخوة الدروز واليهود ، ولم تفلح دعوتهم بضرورة الامتزاج والتعايش الســـلمى بين الدروز واليهود ، فالدروز عرب ، وهم يعانون مأساة العرب فى فلسطين مثلهم مثل أى مواطن عربى آخر .

على ان هـــذه العواطف الحارة الساخنة هى من الخصائص الرئيسية لشخصية سميح القاسم وشعره لا فيما يتصل بقضـيته الوطنية والسياسية والانسانية فقط ، بل فيما يتصـــــل بكل مواقفه الاخرى فى الفكر والحياة ، ولعلنا نجد تجسيدا لهذا النوع من العاطفة فى تلك القصيدة التى كتبها سميح القاسم عن بدر شاكر السياب ، الشـــاعر العراقى الـــكبير ، الذى توفى فى أواخر عام ١٩٦٤ ، والذى يحتل منزلة كبيرة عنـــد الشعراء الشبان فى الارض المحتلة ، ومن بينهم سميح القاسم . لقد قرأوا شعره كله وتأثروا به تأثرا كبيرا

واضحا ، وفى هذه القصيدة يقول سميح القاسم كاشفا بذلك عن طبيعة عواطفه المتحمسة نحو كل القضايا التى يؤمن بها فى الحياة والفكر والفن :

يا بعض الاخوة .. يا بدر :
اغلق فى وجهى بابك
واهجر احبابك
لا لوم على أيوب العصر
يا بدر ...
بالكلمة أحلف ، بالحب
أن أروى طول حياتى أخبارك
أن احفظ أشعارك
عن غيب ..

هذا الاخلاص النبيل والولاء النهائى الحاسم لكل ما يؤمن به هذا الشاعر الشاب هو أحد العناصر البارزة فى شخصية سميح القاسم وفنه ، وكثيرا ما يقدم الينا سميح فى شعره الجديد بعد أن اشتد عوده وازداد نضجه واصبح شاعرا قادرا عارفا بأسرار فنه.. كثيرا ما يقدم وعودا حارة بأنه سوف يعيش من أجل قضيته بنفس الطريقة المخلصة المتحمسة دائما وسوف يعيش بشعره وكل نبضات قلبه من أجل هذه القضية الكبيرة :

فمن يتمى ومن حزنى ومن جوعى ومن عارى ..
يشب لهيب أشعارى ..
ولن أتعب ..
طوال العمر لن أتعب ..
من الجرح الذى غمدت فى مجراه أوتارى ..
فقال : اشرب ..
ووزع لون رايات ، ووزع لون أزهار ..
والقضية الكبرى التى تعيش فى قلبه الممتلىء

بالعواطف الحارة هي قضية وطنه ومأساة هذا الوطن ، وفى قصيدة له بعنوان « وطن ؟ ! » يتذكر فى مرارة ما بقى له من وطنه ، ثم ينتهى من تلك الذكريات الى ايمان راسخ بأن العاصفة لابد أن تهب لتقتلع من طريقها كل المصائب والمصاعب .. يقول سميح فى فقرة من هـذه القصيدة :

وماذا ؟ !
حين صار اللوز والزيتون ..
أخشـــابا ..
تزين مداخل الحانات ..
وانصـــابا ..
يمتع عريها الابهاء والبارات ..
ويحمل بعضها السواح ..
لآخر آخر الدنيا ..
وتبقى دون عينيا ..
وريقات وأحطابا ..
تعالى يا رياح الشرق ..
تعالى يا رياح الشرق ..
ان جذورنا حية ! !

وقد أصدر سميح القاسم حتى الآن عدة مجموعات شعرية هى : « مواكب الشمس » و « أغانى الدروب » و « دمى على كفى » و « دخان البراكين » . وله قصيدة ملحمية طويلة اسمها : « ارم » .

واذا اردنا بعد هـذه الصورة العامة لهذا الشاعر الثورى الشاب أن نعرف المزيد من ملامح شخصيتـه وفنه فاننا نجد أمامنا عناصر عديدة تتكون منها هـذه الشخصية الممتازة ، ومصدرنا الاساسى فى ذلك كله هو شعر الشاعر . -

فسميح القاسم عربى كما عرفنا وهولايؤمنأبدا بتلك التفرقة المفتعلة بين العربوالدروز ، بل يؤمن ايماناكاملا بالوحدة القومية للشعب العربى داخل الارض المحتلة وخارجها على السواء ، وسميح القاسم هو أبرز نموذج يدل على فشل سياسة اسرائيل فى بذر بذور التفرقة الطائفية بين العرب فى الارض المحتلة ، انه رد حاسم وصاخب وعنيف على هذه السياسة الاسرائيلية الخبيثة

والحقيقة اننا نجد مظاهر كثيرة لاصالة الوجدان العربى فى شعر سميح ، وهو موضوع يستحق دراسة مستقلة ، ومن ناحية أخرى نجد أن سميح القاسم مؤمن ايمانا عميقا بالاشتراكية ، فهو لا يتصور أن تحرير الارض الفلسطينية يمكن أن يتم من أجل الاغنياء والاقطاعيين ، بل يجب أن يتم من أجل الفقراء من أبناء الشعب العاديين ، فما هى الجدوى من تحرير الشعب من الاستعمار الاسرائيلى لتقديمه الى مستغلين من نوع آخر .. هم أقل خطرا ولاشك ، ولكنهم أشرار أيضا وممثلون لشتى أنواع الظلم والتعسف ، من أجل هذا يؤمن سميح القاسم بضرورة تحرير الشعب العربى من اسرائيل ومن الاستغلال الاقتصادى فى نفس الوقت :

أجل .. عادت مع الصوت ..
رؤى نسلى الذى أقسمت أن يأتى ..
ووجه الارض ، مخلوق من البدء ..
بصورة سفر تكوين ..
يسمى .. الاشتراكية ..

فهو يرى بايمانه الحار العميق ان الاشتراكية تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الانسان ، وتمثل « سفر تكوين » انسانيا آخر يجب أن يخضع له الانسان العربى ويعيش فى ظله .

وسميح القاسم من أكثر الشعراء العرب المعاصرين متابعة لـكل قضـــايا التحرر والثورة فى العالم كله ، وبخاصة فى العالم الثالث ، فهو يكتب قصائد جميـلة رائعة عن لومومبا والمهدى بن بركة ، وكوبا ، واليمن . ان حركات التحرر والثورة تنعكس فى شـــعر سميح القاسم ، لا كما تنعكس عند شاعر مناسبات عادى ، بل كما تنعكس عند شاعر جعل الثورة دينا له وعقيدة ، وآمن ايمانا مطلقا بأن الانسانية لن تحصل على سعادتها وكرامتها دون أن تكسر بالثورة كل قيودها ، فهـــذه القيـــود فى النهاية هى من نصيب الملايين الفقيرة التى تعمل كل شىء ولا تحصل على خبز أو كرامة انسانية ، وفى قصيدة له بعنوان « أختى صنعاء » يقول :

رغم الابعاد المرصودة
ودروبى المسدودة
رغم الانباء المشئومة

عن قتلى .. قتلى .. قتلى
رغم البومة
ومشانق ملء العتمة من حولى تتدلى
أؤمن .. أؤمن .. أؤمن :

يمنى المعبـــــــود
سيعود سعيد
فكهوف الشاى الاسود والقهوة والقات
صارت ثكنات
ورجالى من أسيوط .. وبورسعيد
كثر .. كثر .. والنصر أكيد

وفى شـــعر سميح القاسم نلتقى « بحس تاريخى » واضح ، فسميح قد دفعته مأساة وطنه الى أن يلتفت الى التاريخ ويقرأ صفحاته المختلفة لعل أحداث التاريخ

أن تقدم اليه أضواء تكشف له سر مأساته .. لعله يرى فى التاريخ نموذجا لهذه المأساة ولعله يرى أخيرا كيف يمكن أن تنتهى هذه المأساة ، والرؤية التى تواجهنا فى شعر سميح القاسم هى رؤية فنان تابع أحداث التاريخ واستخلص منها أن « العدل حتمى » ، وان القضايا المظلومة لابد أن تنتصر . هكذا قال التاريخ للفنان ، وهذا ما رآه الفنان بين سطور الاحداث ولم ير شيئا سواه ومن هنا فقد أعطاه التاريخ يقينا بأن النصر هو مصير كل قضية عادلة ، وقد انعكس هذا « الحس التاريخى » على شعر سميح القاسم بصورة واضحة ولامعة ، وفى قصيدة له بعنوان « حوارية مع رجل يكرهنى » يقول :

ـ روما احترقت يا مجنون
* روما أبقى من نيرون
ـ روما لن تفهم أشعارك
* روما تحفظها عن غيب
ـ روما ستقطع أوتارك
* ألحانى تصعد من قلبى

ان عبرة التاريخ عند الشاعر هى أن نيرون الطاغية يزول والكوارث تزول ، وتبقى المدائن نفسها وتبقى الاشعار الصادقة ، ومن خلال حس التاريخ وايمان الشاعر بالمسيرة التاريخية الكبرى ينادى الشاعر أمته لتعود الى تاريخها القديم المجيد . وهو يناديها فى صوت صارخ وغاضب :

. غنيت مرتجلا على هدى الربابة ألف عام ..
وأعدت مفجوعا ، على هدى الربابة الف عام ..
مذ طار من يدك الحسام ..
وسقطت عن سرج الرياح ، وغاص وجهك فى الرغام

وبعد ذلك يرتفع صوت الشاعر فى غضب ، فيقول فى نفس القصيدة :

يا أمتى ! ..
ماذا لديك ؟ تكلمى ! ما أنت أمه ؟
عودى ! فقد تعب اللسان ، ومات قراء الجريدة ..
عودى ! مغنيك القديم يود تبديل القصيده ..
يا أمتى .. قومى إمنحى هذى الربابة ..
غير البراعة فى الخطابة ..
لحنا جديدا ..
وامنحى الاجيال .. أمجادا جديدة !

الى جانب هـــذا « الحس التاريخى » الذى يؤكد للشاعر بأن العبرة الاساســـية من أحداث التاريخ هى استحالة الظلم وحتمية العدل فى نهاية الطرق .

الى جانب هذا الحس البارز فى شعر سميح القاسم نجد عنده أيضا معرفة واسعة بالقصص الدينية المختلفة وهو يستوحى من هـــذه القصص والنصوص ما يؤكد احساسه بأن ما أصاب وطنه ليس هو الصورة النهائية والاخيرة للمصير العربى ، بل ان المستقبل يحمل مصيرا آخر عادلا يعيد الحقوق الى أصـــحابها ، وفى ديوان « أغانى الدروب » يصدر الشاعر هـــذا الديوان بآية قرآنية هى :

« ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هـــذا ، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

ومن خلال اختيار هـــذه الآية الـكريمة ينقل الينا الشاعر احساسه بأنه يؤمن بضرورة الحساب عن أخطاء الحاضر فى المستقبل ، فالشعب الذى سقط سوف يقف على قدميه ، والظالمون سوف يدفعون الثمن ، وسوف

يكتشفون فداحة خطئهم وجريمتهم ، وفى ديوانه « دمي على كفي » يضع الشاعر فى صدر الديوان كلمات المسيح : « .. الحق الحق أقول لكم ان لم تقع حبة الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت فهى تأتى بثمر كثير » .

وكلمات المسيح تؤكد للشاعر نفس الاحساس الذى لا يفارقه ، فمأساة الشعب العربى الفلسطينى هى طريقه الى الحياة ، وسقوط هذا الشعب فى الكارثة سوف يكون نقطة خلاص جديدة رائعة ، واذا كان الشعب الآن فى حالة كمون فهو أشبه بالحبة فى جوف الارض ، لابد أن تعيش تحت التراب أياما حتى تنمو وتثمر . وقد أصدر سميح القاسم قصيدة طويلة بعنوان « ارم » ، اعتمد فيها على القصة الدينية المعروفة والتى تقول : « ان شداد بن عاد ملك المعمورة ودانت له ملوكها وسمع بذكر الجنة فبنى مدينة على مثالها وسماها « أرم » ، وبعد أن انتهى بناؤها سار اليها مع أهله فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا جميعا وانهارت الجنة الارضية المصطنعة » .

***

وسميح القاسم يجعل من مدينة « ارم » رمزا لاسرائيل ، فاسرائيل هى الجنة الزائفة المزورة التى لابد أن تنهار على صانعيها ، وهو أيضا يدعو فى هذه القصيدة الى اقامة « ارم » جديدة على أساس من العدل والفضيلة ، على أن تكون « أرم » هذه مدينة فاضلة نقية بريئة طاهرة لا ظلم فيها ولا عدوان على كرامة الانسان .

ويقول سميح القاسم فى قصيدته عن « ارم » معبرا عن حنينه الى مدينة فاضلة حقيقية غير زائفة :

ارما ... تريد القافلة
ارما ... على أرض جديدة
ارما .... سعيدة
ارما ... ولكن فاضلة

***

ماذا لديك ؟
لدى عن « ارم » قصيدة
فلتسكتوا
فلتسكتوا
وليلق شاعرنا نشيده

هذه بعض ملامح شاعرية سميح القاسم وشخصيته ، وما أكثر ما يقدمه الينا هذا الشاعر من فن أصيل ومواقف صادقة متحمسة ، وما أكثر ما يحتاج اليه فن هذا الشاعر من دراسات متنوعة تكشف عن القيم الكثيرة النبيلة فى هذا الفن العظيم .

وحسبنا أخيرا أن نقرأ هذه الابيات من قصيدة له بعنوان « فى ذكرى المعتصم » ، حيث يرمز فى هذه الابيات بشخصية يوسف وعودته الى عودة الحق وانتصار العدل وانهيار التآمر والظلم على صانعيه :

أحبائى ! أحبائى ! ..
اذا حنت على الريح ..
وقالت مرة : ماذا يريد سميح ؟ ..
وشاءت أن تزودكم بأنبائي ..
فمروا لي بخيمة شيخنا يعقوب ..
وقولوا : اننى من بعد لثم يديه عن بعد ..
أبشره .. أبشره ..
بعودة يوسف المحبوب ! ..
فان الله والانسان ..

فى الدنيـــــــــــا ..
على وعـــــــــــد ! ..

***

حقا .. ان الله لن يكتفى بتحقيق العدل فى السماء ، بل انه يتجلى ايضا فى كل كفاح للانسان لتحقيق العدل على هذه الارض .

وداعاً للشاعر العظيم
بدر شاكر السياب

حملت الينا الانباء خبر وفاة الشاعر العربى العراقى بدر شاكر السياب يوم ٢٤ ديسمبر عام ١٩٦٤ ، والسياب ليس معروفا على نطاق شعبى واسع فى مصر، ومن أجل هذا كان من أعز أمنياته فى أحاديثه مع أصدقائه ورسائله الخاصة أن يزور مصر ويتصل بجماهيرها القارئة ويعيش فترة من الوقت فى قلب حياتها الثقافية ولكن الداء الذى حل بجسمه خلال سنوات عمره الاخيرة لم يمهله حتى يحقق أمنيته العزيزة والتى كانت تختلط أحيانا بالامل فى الشفاء على أيدى الاطباء المصريين

وقد مات السياب فى احدى مستشفيات الكويت .. مات غريبا عن قريته الصغيرة «جيكور» فى منطقة البصرة هذه القرية التى عشقها وأحال كل ذرة من ترابها الى شعر رائع ، وكان دائما يحملها فى قلبه أينما ذهب ، ولا يجد معنى للحياة أو للسعادة بعيدا عنها .

والسياب شاعر عظيم بكل معنى الكلمة ، لقد ترك وراءه ، رغم انه مات فى الثامنة والثلاثين من عمره ثروة من الشعر الغزير الخصب الذى يجعل منه شاعرا من أعظم شعراء العربية منذ أقدم العصور الى اليوم ، وعظمة السياب كفنان يزيد منها تلك الظلال التى تحيط بشخصيته الانسانية ، فقد عاش فقيرا طيلة حياته ونكب

بمحنة المرض وهو في قمة شبابه ، وقد عرض نفسه على أكبر أطباء لندن وبغداد وبيروت والكويت ، ولم يفلح الطب فى شفائه من مرضه الخطير ، وظل منذ عام ١٩٥٧ تقريبا يتحمل آلاما جسدية عنيفة حطمت روحه وملأت شعره الاخير بعدد كبير من قصائد الرثاء المر لنفسه .

ففى قصيدة كتبها فى أوائل عام ١٩٦٣ ، أى قبل موته بعام تقريبا عنوانها «وصية من محتضر» يقول السياب :

أنا قد أموت غدا فان الداء يقرض غير وان
حبلا يشد الى الحياة حطام جسم مثل دار
نخرت جوانبها الرياح وسقفها سيل القطار

واى رحلة فى شعر السياب رحلة خصبة ومثيرة وغنية ، انه يفوق جميع الشعراء المعاصرين من أبناء جيله فى تنوع انتاجه وغزارته وشموله لكثير من القضايا والتجارب الانسانية ، لقد بدأ السياب حياته الفنية عام ١٩٤٨ تقريبا ، وكانت مرحلته الفنية الاولى ممثلة فى ديوانين هما : « أساطير » و « أزهار ذابلة » وفى هذه المرحلة الاولى من حياته الفنية يبدو السياب شاعرا رومانسيا غارقا فى الرومانسية ، انه يعيش فى عالم خيالى ملىء بالضباب ، ويعبر عن حزن عميق غامض ،ويقترب من الحياة على أطراف أصابعه ، يدفعه اليأس ويعصب عينيه وكان من الطبيعى أن يبدأ السياب هذه البداية الرومانسية الغامضة ، لانه لم يكن قد عرف طريقه بعد ، ولأن الشعر العربى فى تلك المرحلة كانت تغلب عليه الروح الرومانسية الحزينة الغامضة ، وكان ألمع شعراء هذه الفترة وأكثرهم شهرة هم شعراء الحركة الرومانسية ، ولكن الظاهرة التى نلاحظها لو أننا عدنا الى الحياة الادبية فى هذه المرحلة هى ان المدرسة الرومانسية كانت آنذاك تقذف الى الحياة الادبية بآخر موجاتها ، لقد كان

الشعراء الرومانسيون يحسون بالاختناق ويرون العالم مظلما لا معنى له ، ويحسون ان فى الحياة تعقيدا هائلا ولكنه غير مفهوم ، وقد انعكس هذا الموقف على انتاج هذه المدرسة وعلى سلوك بعض الشعراء أيضا . فنحن نجد أن شاعرا كبيرا من ألمع أبناء المدرسة الرومانسية هو محمود حسن اسماعيل يقدم فى هذه الفترة تقريبا ديوانه المعروف «أين المفر» والديوان كله ملىء باحساس الانسان المقيد المأسور الذى لا يعرف لنفسه خلاصا من مأزق الحياة الذى وقع فيه ، وهناك أيضا أحمد زكى أبو شادى ، ومهما كان الاختلاف حول قيمة شعره الا انه فى نهاية الامر يعتبر ظاهرة هامة من ظواهر المرحلة الرومانسية فى الشعر العربى الحديث ، لقد أحس هو الآخر أن الحياة تخنقه وتسد أمامه الطريق ، فترك مصر نهائيا ووجد الخلاص الوحيد فى الهجرة الى أمريكا .

ولعلنا نحس بتلك الروح الرومانسية فى شعر السياب بكل ما فى هذه الروح من خيـــالات وأوهام وفرار من الواقع ، عندما نقرأ له هـــذه الابيات من قصيـــدة له بعنوان «أقداح وأحلام» كتبها عام ١٩٤٦ ، أى فى مرحلته الرومانسية الاولى :

يقول السياب :

انا ما ازال وفى يدى قـــدحى
يا ليـــــل أين تفرق الشرب ؟
ما زلت أشربهـــا وأشربهـــا
حتى ترنح أفقـــك الرحب
الشرق عفر بالضـــباب فما
يبدو ، فأين سناك يا غرب
ما للنجوم ، غرقن من سأم
فى ضـــوئهن ، وكادت الشهب ؟

أنا ما أزال وفى يدى قـــدحى
يا ليـــل أين تفرق الشرب ؟

ففى هذه الابيات نجد نفس المشاعر والخيالات التى كان يعيش فيها الشعراء الرومانسيون ، هؤلاء الذين احسوا الى أبعد حد بالمأساة ولكنهم لم يتجاوزوا هذا الاحساس الى تحليل المـأساة وفهمها . وكان هؤلاء الشعراء الرومانسيون صادقين فى احساسهم. مهما بدوا عاجزين عن معرفة الجذور والاسباب ، فالوطن العربى كله كان يعوم فى بحر من اليأس وكانت قمة اليأس تتمثل فى المشاعر التى ملأت نفوس الجماهير بعـــد مأســـاة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وهذه بعض ملامح المشهد العربى العام فى تلك السنة : جزء عزيز من الوطن العربى يضيع ويتبدد ، جيوش عربية تعود مهزومة خائبة من أرض المعركة ، حكومات تسيطر على المجتمعات العربية بقبضة من حديد وتريد أن تسدل ســـتارا على مخازى حرب فلسطين بأى ثمن ولو بضرب الشعب وكتم أنفاسه ، ولا أحد يعرف بسهولة ويسر ما هو الخلاص من هذا القدر القاسى المرير .

وقد اقترنت مأساة فلسطين ، وما لقيه العرب فيها من هزيمة عام ١٩٤٨ بشىء آخر حدث فى العراق بالذات .. لقد حاولت حكومة صالح جبر الرجعية أن تفرض على العراق معاهدة بينها وبين انجلترا ، وكان من الواضح ان هذه المعاهدة ضد شعب العراق ، تماما مثل المعاهدة التى مزقها الشعب العربى فى مصر عام ١٩٤٦ ، وهى معاهدة صدقى ـ بيفن ، وكانت المعاهدة التى حاول صالح جبر أن يفرضها على العراق وجها آخر من وجوه المأساة التى عاشها السياب فى بداية حياته ، حيث كان غارقا فى الاحزان والخيـــالات الرومانسية الغامضـــة

اليائسة وحيث كان يكتب بنفس الروح الشائعة عند شعراء هذه الفترة ، ولكن المعاهده التي اراد صالح جبر أن يفرضها على العراق اتاحت للشاعر فرصة ذهبية لكى يكسر قيود الرومانسية ، وينطلق الى عالم آخر تتألق فيه عبقريته دون تقليد للآخرين ، لقد قاوم شعب العراق المعاهدة وأسقطها ، واشترك الشاعر الشاب فى المقاومة .. اشترك فى المظاهرات والمؤتمرات الشعبية ، وانشأ القصائد ضد هذه المعاهدة ، ومنذ هذه الفترة بدأ وعى الشاعر يتفتح على شىء جديد فى داخله ، لقد أدرك أن المأساة العربية ليست قدراً نهائيا لا مفر منه الا بالخيالات والاوهام كما يفكر الرومانسيون ، ان من الممكن ولا شك تغيير هذه المأساة والتغلب عليها ومنذ تلك الايام فى تاريخنا العربى المعاصر بدأ السياب ينفصل تدريجيا عن المدرسة الرومانسية ، ويزداد احساسا بالمأساة المفروضة عليه وعلى شعبه ، خاصة وانه يحمل فى وجدانه وعقله صورا مؤلمة لهذه المأساة عن قريته «جيكور» بالبصرة ، حيث تبدو هذه القرية فى خضوعها للاقطاع والاستغلال صورة لكل قرية عربية أخرى فى تلك الفترة السوداء ، وعندما تم للسياب التخلص من سطوة الاحساس الرومانسى بالحياة ، حيث الغموض وارتباك الطريق ، أتيح له أن يصبح واحداً من أعظم رواد الشعر العربى الحديث.. وواحدا من اعظم الشعراء العرب فى كل العصور .

ولقد ساعده على الوصول الى هذا المستوى من النضج الفنى انه شاعر شديد الحساسية ، شديد التأثر بقراءاته وتجاربه فى الحياة ، قادر على أن يستفيد من فنه الى أقصى حد وبأسرع وقت من هذه القراءات والتجارب ، لقد قرأ الكثير فى الادب العالمى والثقافة

العالمية ، ولا تحتاج لكى تكشف عن هـذه الثقافة الواسعة عند السياب الى دليل آخر غير شعره ، انك تحرج من شعره بالمتعة الفنيه الراقية ، ولكنك تخرج الى جاسب ذلك بزاد كبير جدا من الثقافة والمعرفة ، وهو هنا يذكرنا بالشاعر الانجليزى الامريكى الاصل ت٠س٠ اليوت « الذى مات بعد السياب بأيام ولكن السياب مات فى عز شبابه بينما مات اليوت فى السادسة والسبعين »..
فاليوت يحمل الى قارته ثقافة عالية من خلال شعره ، ولذلك كان شعر السياب مثل شعر اليوت صعب القراءة ، لانه يحتاج الى وقفات فكريه كثيرة ، وهى وقفات لا تجفف أبدا منابع الفن والجمال فى شعره بل تزيدها غنى وأصالة ، ولو حاولت أن تستخلص ثقافة السياب من شعره فسوف تجد أنه قرأ كبار الشعراء المعاصرين قراءة جيدة أصيلة عن طريق اللغة الانجليزية التى كان يجيدها اجادة تامة ، فقد قرأ اليوت ولوركا واديث سيتويل وأودن وغيرهم من الشعراء المعروفين ، ويدهشك بعد ذلك أن تحس وراء شعره دراسة عميقة وقراءة مستوعبة للكتب الدينية : العهد القديم ، والانجيل ، والقرآن . لقد استفاد من القصص الدينية الى أقصى حد ، ويندر أن تخلو قصيدة له من الاستعانة بهذه القصص فى بناء شعره وفى التعبير عن تجاربه وعواطفه .

وهو يستعين على وجه الخصوص بقصة أيوب ، لأنها تشبه فى كثير من الوجوه تجربته الخاصة ، حيث ابتلته الأقدار بمرض قاس أليم كما ابتلت أيوب ، وكان عليه أن يصبر ويتحمل كما صبر أيوب واحتمل تعبيرا عن قوة ايمانه ، وفى قصيدته الطويلة « سفر أيوب » فى ديوانه « منزل الأقنان » تعبير عن هذه التجربة التى جعلت منه

أيوبا معاصرا حيث كان يعالج فى لندن .. وفى هـذه القصيدة الرائعة يقول :

يارب أيوب قد أعيـا به الداء
فى غربة دونما مال ولا سـكن
يدعوك فى الدجن
يدعوك فى ظلموت الموت : أعباء
ناء الفؤاد بها فارحمه أن هتفا
يا منجيا فلك نوح مزق السدفا
عنى . أعدنى الى دارى الىوطنى

والسياب لا يقتصر على القصص الدينية والاستفادة منها فهو قارىء للأساطير البابلية والاشورية ثم الاساطير اليونانية . وفى شعره تلتقى كثيرا بشخصيات مثل تموز اله الخصب وعشتار الهة الخصب من شخصيات الاساطير البابلية القديمة ، وتلتقى أيضا بسيزيف وغيرهمـا من أبطال الأساطير اليونانية القديمة ، وهو لا يستخدم هذه الاساطير للاستعراض الثقافى السطحى ، بل يستخدمها كما يستخدمها أرقى شعراء العالم لتعميق العمل الفنى وإعطائه أكثر من وجه واحد بحيث نجد العمل الشعرى فى النهاية وهو يتكون من طبقات عديدة كلما اكتشفت طبقة منها بدت لك منها طبقة أعمق وأنضج وأروع .. وهكذا لا تصبح القصيدة مثل قطعـة السكر سرعان ماتذوب وتتلاشى كلا ، انهـا كائن حى لا يعطى نفسـه بسهولة ويسر ، ولا يكشف أسراره من نظـرة سريعـة عابرة ، بل لابد من التأمل فيه والوقوف أمامه ومعاودة النظر اليه بين الحين والحين حتى يمكن الاقتراب منه وفهم سحره وجماله . ولذلك فقصيدة السياب تحمل متعة مركبة لامتعة بسيطة سريعـة الزوال . وهـذه الحقيقة فى الواقع من أهم الأسباب التى تعطى شعر هذا

الفنان أساسا رائعا للبقاء والخلود . والسياب أيضا لا يكتفى بهذه الألوان المتنوعة من الثقافة فهو واحد من أكثر شعرائنا معرفة بالفولكلور الشعبي خاصة فى العراق وهو لا يقحم هذه المعرفة بالفولكلور الشعبى اقحاما فى شعره . كلا . بل انه يستخدم الفولكلور كعنصر أساسى من عناصر بناء قصائده مما يعطي لهذه القصائد طعما خاصا ورائحة شعبية أصيلة فكأنك تعيش فى أحياء الحسين أو السيدة أو النجف أو كربلاء .

هذه بعض الخطوط العامة لثقافة السياب الواسعة الرائعة التي يكشف عنها شعره العظيم والتى تلتقى كلها كعناصر مختلفة فى « العجينة » الشعرية التى يصنع منها هذا الفنان الكبير قصائده الباقية .

ولنقف لحظات مع بعض نماذج السياب الشعرية التى تكشف لنا مواهبه الفنية والفكرية ، وتكشف لنا عن ثقافته الخصبة .

فنحن نجد فى قصيدته « مدينة بلا مطر » استخداما دقيقا وبديعا لأسطورة « تموز » البابلية المعروفة ، فتموز هو اله الخصب ، والقصيدة تتحدث عن المدينة التى تخلى عنها « تموز » فجف فيها كل شيء ، لم يعد فيها مطر ولا زرع ، لم يعد فيها سوى الجفاف والجوع، أما أهل القرية من أطفال وصبايا ورجال ونساء فهم يتضرعون الى اله الخصب حتى يحنو على المدينة ويمنحها المطر الذى يحمل الحياة الى الزرع والناس ، وهذه الضراعات لا يقدمها الضارعون الى تموز اله الخصب وحده ، بل الى زوجته وحبيبته « عشتار » أيضا ... والضراعة فى المقطع التالى موجهة الى عشتار :

وسار صغار بابل يحملون سلال صبار
وفاكهة من الفخار ، قربانا لعشتار

ويشعل خاطف البرق ،
بظل من ظلال الماء والخضراء والنار
وجوههم المدورة الصغيرة وهي تستسقى
فيوشك أن يفتح ـ وهي تومض ـ حقل نوار
ورف ـ كأن ألف فراشة نثرت على الأفق ـ
نشيدهم الصغير :
« قبور اخوتنا تنادينا
وتبحث عنك أيدينا
لأن الخوف ملء قلوبنا ، ورياح آذار
تهز مهودنا فنخاف . والأصوات تدعونا
جياع نحن مرتجفون فى الظلمة
ونبحث عن يد فى الليل تطعمنا ، تغطينا »

ويستجيب تموز وعشتار الى ضراعات الصغار ، ويعود الربيع الى المدينة يحمل المطر والخير والحياة معه . والقصيدة ذات مغزى سياسى ، لأن الشاعر كان يقصد بها تصوير حالة العراق فى عهد نورى السعيد ، حيث كان العراق حزينا كئيبا خاليا من الحياة ، ولعل الشاعر أيضا يصور لنا عودة الحياة والربيع الى الأرض كرمز لثورة العراق فى سنة ١٩٥٨ ، وهى الثورة التى حملت معها أمل أهل العراق فى الحياة والخلاص .

وهكذا يستخدم السيابالاساطير البابلية فى اصالة فنية عميقة واضحة . وبنفس القوة والقدرة يستخدم الأساطير اليونانية ، ويستخدم القصص الدينية أيضا .

ففى قصيدته « رؤيا فى عام ١٩٥٦ » يستغل الأسطورة اليونانية عن « جنيميد » أو كما ينطقها المثقفون فى بعض البلاد العربية « غنيميد » : الراعى اليونانى الشاب الذى وقع فى حبه زيوس كبير آلهة الأولمب الأغريقى ، فأرسل

صقرا اختطفــه وطار به اليه » .. يقــول الســياب فى القصيدة :

أيها الصقر الالهى الغريب
أيها المنقض من أولمب فى صمت المساء
رافعا روحى لاطباق السماء
رافعا روحى ــ غنيميدا جريحا
سالبا عينى ــ تموزا مسيحا
أيها الصقر الالهى ترفق
ان روحى تتمزق
انها عادت هشيما يوم أن أمسيت ريحا

فهو يرمز الى « روحه » بصـــورة غينميد الشــاب . الذى اختطفه الصقر الالهى ليحمله الى زيوس . ولعل الصورة كلها ترمز الى « الحب المقترن بالعذاب » . واذا تابعنا بقية القصيدة ، شعرنا انها تتحدث عن التناقض الذى كان الشاعر يحس به فى وطنه فى عهد نورى السعيد أيضا ، فلئن كان العراق يحب أبناءه فى ذلك العهد المظلم فلقد كان يعـــذبهم فى نفس الوقت ، تماما كما فعــل « زيوس » مع « غنيميد » : أحبه وأرسل اليه صقرا فاختطفه ... لقد أحبه وعذبه فى نفس الوقت . ولعل هذه الرؤيا تكون رؤيا انسانية عامة بعيــدة عن الواقع السياسى ، تدل على تجربة روحية أحس بها الشاعر حيث اجتمع فى وجدانه الحب والعذاب معا . ولـــكن سياق القصيدة الطويلة يوحى على الأغلب بأن الشاعر انما يقصد واقع العراق . وان كان السياب عموما من أقدر الشعراء على المزج بين الرؤية الواقعية والرؤية النفسية معا . انه يستطيع أن يتحــدث عن تجــربة المواطن فى العراق ، فتبدو تجربة هذا المواطن تجربة انسانية عامة يمكن أن يحسها الانســان فى أى مكان . وهذه « القدرة »

الفنية هي من أثمن ما يمكن أن يمتلكه الشاعر الفنان ليعبر عن تجاربه الانسانية ، وهذه القدرة أيضا هي التى تعطى للعمل الفنى بقاء أطول من الظروف المؤقتة والتجارب المباشرة .

أما القصص الدينية فتملأ أشعار السياب ، فهو يتحدث كثيرا عن محمد ، والمسيح ، والعازر الذى أحياه المسيح من موته ، وأيوب ، وغير هذه الأسماء المختلفة التي تتصل بالتاريخ الديني والقصص الدينية ، وحسبنا أن نعود هنا مرة أخرى الى قصيدته الطويلة « سفر أيوب » ، التي يتحدث فيها عن آلامه وصبره على هذه الآلام ، ويقول فى مطلع هذه القصيدة الممتازة ، وكأنه بذلك يعيد صياغة أحاديث أيوب وأدعيته التي جاءت فى العهد القديم :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الألم
لك الحمد ان الرزايا عطاء
وان المصيبات بعض الكرم
ألم تعطنى أنت هذا الظلام
وأعطيتنى أنت هذا السحر
فهل تشكر الأرض قطر المطر ؟
وتغضب ان لم يجدها الغمام ؟
شهور طوال وهذى الجراح
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى
ولكن أيوب ان صاح صاح :
« لك الحمد ، ان الرزايا ندى
وان الجراح هدايا الحبيب
اضم الى الصدر باقاتها ،

هداياك فى خافقى لا تغيب
هداياك مقبولة . هاتها ! »

وتلك كلها صور من الفن الرفيع ، الذى يجسد لنا تجربة الشاعر تجسيدا انسانيا عميق الأثر فى النفس والوجدان . وهذه الثقافة الواسعة التى يتمتع بها السياب سواء من دراسته للأديان بقصصها وتاريخها ، أو للأساطير البابلية والإساطير الاغريقية، هى التى منحت هذا الشاعر نظرة شاملة عميقة متنوعة ، بصورة لا مثيل لها في شعر شاعر آخر من الشعراء المعاصرين للسياب .

على أن السياب لم يكتف بهذه الثقافات الانسانية التى استوعبها بعد أن أحبها حبا عميقا رائعا . كلا .

فالسياب بطبيعة تكوينه نهم الى معرفة العالم الخارجى يريد أن يفهمه ويعرف مجراه ، وأسراره العميقة . ولا يطيق — وهو الحساس الذى يتأثر بأبسط علاقة بينه وبين العالم الخارجى — أن يكون منعزلا كأى صانع يعمل بلا عاطفة فى اتمام مصنوعاته . ان الفنان العظيم جزء من هذا العالم ، ولابد أن يفهمه ولابد أن يشارك ان استطاع فى تشكيل مصيره . وهذه الشهوة عند السياب هى شهوة عارمة تسيطر عادة على نفس كل فنان كبير أصيل . ومنذ نهاية الحرب الثانيةوالوسيلة الهامة لفهم العالم الخارجى فى الوطن العربى هى الفكر السياسى بمذاهبه الفكرية المختلفة . لقد حاولت الأحزاب العربية القديمة التقليدية أن تثبت فى أذهان الجماهير العربية فكرة نهائية عن السياسة . وهى أن السياسة مجموعة من الشعارات العامة والألاعيب العملية ولا شىء غير ذلك ، ومن هنا كان الفكر السياسى العربى فى منتهى الضعف والفقر فى ظل هذه الأحزاب

التقليدية ، وكانت السياسة على حقيقتها هى كما أحست بها الجماهير البسيطة فأسمتها باسم معروف له دلالته الخاصة ، هذا الاسم هو « بوليتيكا » وهو اسم مقترن بالنصب والاحتيال والبكش ، ولكن الوطن العربى بعد الحرب الثانية أقبل يوما بعد يوم على السياسة كفلسفة عميقة ، وفكر أصيل له مذاهبه المتنوعة أو كما نقول الآن له (ايديولوجياته) المختلفة . وأصبح على المواطن العربى المثقف الحساس أن يبحث فى تيارات الفكر السياسى عن فكرة أو أيديولوجيا .

واندفع السياب بلا ترددالى(الايديولوجيات)السياسية المختلفة يفحصهاويدرسهاويقترب منها ، ولأنه كان واحدا من الطليعة العربية الأولى التى أقبلت على السياسة كفكر وفلسفة ، فقد تعرض للاضطرابات والارتباكات والوان المراهقة الفكرية التى تعرضت لها الطليعة العربية فى تلك المرحلة .. ويجب أن نعترف بالحقيقة الهامة التى تؤكد أن الوطن العربى لم يكشف خطأ فكريا واضحا فى ميدان (الايديولوجيا) السياسية الا بعد أن قامت ثورة مصر سنة ١٩٥٢ . وهو لم يكتشف هذا الخط الفكرى السليم بعد قيام الثورة مباشرة . كلا فالثورة نفسها قد احتاجت الى كثير من التجارب العملية والفكرية حتى استطاعت أخيرا أن تصل الى خط فكرى شامل عميق مما اقتضاه عشر سنوات من البحث النظرى والتجربة العملية . وقبل أن تصل الثورة المصرية العربية الى خطها الفكرى العميق الشامل كانت الحياة العربية عرضة لهجمات عنيفة من المذاهب السياسية ، كل مذهب له بريقه خاصة وأن هذه المذاهب كانت تهجم على الوطن العربى فى شكل فكرى مثالى براق .. ومن هنا فيما أعتقد اضطرب الكثيرون من الشباب فى الوطن العربى كله فى

حياتهم الفكرية ، وأعتقد أن هذا الاضطراب كان طبيعيا جدا . ولم يكن دليلا على الفساد بقدر ما كان دليلا على عمق البحث والحيوية .

والسياب أحد هؤلاء الذين اضطربوا بين المذاهب السياسية اضطرابا عنيفا وربما كان اضطرابه أعنف من غيره كثيرا بسبب عاملين اضافيين في شخصيته : العامل الأول هو شدة حساسيته المفرطة التى جعلت منه شخصية قلقة متقلبة لا تهدأ . وقد تحدث الكثيرون من معارفه عن هذه الحساسية الشديدة المفرطة وسيطرتها التامة على شخصيته ، أما العامل الثانى فهو ظروفه الخاصة ، وأعنى بهذه الظروف الخاصة مرضه وفقره ، لقد كان مرضه عنيفا وقاتلا وكان هذا المرض كفيلا بأن يضاعف حساسيته وقلقه واضطرابه ، وكان فقيرا يصارع أمواج الحياة القاسية ومتاعبها الكثيرة بلا سلاح مناسب، وهذا أيضا مما كان يضاعف حساسيته وقلقه واضطرابه

وهذا ما حدث للسياب . لقد أقبل على المذاهب السياسية بنهم . فقرأ الماركسية وارتبط بالماركسيين عدة سنوات . ثم انفصل عنهم انفصالا مدويا يذكرنا بانفصال ستيفن سبندر وأندريه جيد وسيلونى وغيرهم من أدباء أوروبا عن الحركة الشيوعية هذا الانفصال الذى سجلوه فى الكتاب الشهير (الاله الذى هوى) .

وبعد أن انفصل السياب عن الشيوعيين وتمرد عليهم تمردا عنيفا ارتبط الى أقصى حد بالاتجاهات السياسية التى تؤمن بالوحدة العربية والقومية العربية ولا أعرف هل كان فى هذه الفترة منتميا الى حزب من الأحزاب أو لا ، ولكنه على كل حال كان يتحدث عن نفسه فى كتاباته النثرية على أنه واحد من القوميين العرب وفى هذه الفترة تألقت مواهب السياب فى التعبير عن المأساة العربية

بصورها المختلفــة فكتب عــددا من روائع قصــائده عن الجزائر وفلسطين وبور سعيد . وأصيب السياب بعد ذلك بنكسة فكرية مرة ربطته ببعض الاتجاهات المشبوهة فى بيروت وكان بعض أصحاب هذه الاتجاهات المشبوهة يمدون اليه أحيانا أيديهم بالمساعدة فى الحصول على علاج لمرضه الخطير . وكانوا يساعدونه أحيانا فى طبع شعره والحصول على أجر كبير فى مقابل هذا الشعر . ولكن السياب على كل حال لم يسمح لنفسه بالاستمرار فى هذا المستنقع الفــكرى الذى وقــع فيه . وعاد اليه صفاؤه العربى الذى ظل يلازمه فى سنواته الأخيرة حتى فاضت روحه .

فى هذه الفترة الأخيرة اقتسم شعره موضوعان كبيران الأول هو الانتصارات العربية المختلفة فى كل أرض عربية والثانى هو مرضه الخطير واحساسه بدنو الموت منه .

وانتهى الشاعر العظيم بعــــد رحلته الطــويلة المريرة المضطربة فى هذه الحياة . رحل بعد أن تألم كما لم يتألم أحد ، لقد كان يعــانى آلام المرض العنيف الذى سكن جسده ولم يبرحه ، ولكنه مع ذلك كان يحس بالأمل ، وكان يحتمل فى صبر كل جراحه ، وكان يقول فى شاعرية جميلة أصيلة مخاطبا ربه ، آملا فى أن يعود من مستشفى لندن الى قريته « جيكور » وقد تغلب على مرضه :

لأنه منك حلو عندى المرض
حاشا ، فلست على ماشئت أعترض
والمال ؟ رزق سيأتى منك موفور
هيهات أن يذكر الموتى وقد نهضوا
من رقدة الموت كم مص الدماء بها دود
ومد بساط الثلج ديجور
انى سأشفى ، سأنسى كل ما جرحا

قلبى ، وعرى عظامى فهى راعشة والليل مقرور
وسوف أمشى الى جيكور ذات ضحى .

ولكنه لسوء حظه ، وحظ الأدب العربى المعاصر ، لم يحصل على الشفاء ، فمات بعد أن عانى كثيرا من الآلام المرة ، وفقدنا فيه شاعرا كبيرا قدم الينا الكثير ، وكان قادرا على أن يقدم مزيدا من فنه الخصب لولا ذلك المرض اللعين الذى قضى عليه ، وفجعنا فيه .

أحمد رامي ... في ديوانه

يرتبط أحمد رامي في ذهني ، وربما في أذهان الكثيرين أيضا بشيئين هامين : أما الشيء الأول فهو أغاني أم كلثوم . فقد غنت أم كلثوم لرامي وجعلت منه اسما محبوبا يعرفه الجميع : الذين قرأوا له قليلا أو كثيرا ، والذين لم يقرأوا له حرفا واحدا واكتفوا بسماعه من صوت أم كلثوم . أما الشيء الثاني الذي يرتبط به رامي أشد الارتباط فهو ترجمته لرباعيات الخيام . فهذه الترجمة في الحقيقة هي أشهر ترجمة للخيام في اللغة العربية ، وهي رغم بعض العيوب الواضحة فيها تعتبر أرق ترجمة عربية معروفة . فهناك أكثر من ترجمة أخرى لرباعيات الخيام ، فقد ترجمها محمد السباعي ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي . وهناك ترجمة أخرى لشاعر لبناني هو « البستاني » ، بل لقد ترجمت الرباعيات الى العامية المصرية . ولكن هذه الترجمات كلها لم تشتهر . ولم تخرج عن كونها محاولات تضمها المكتبة العربية . أما الترجمة التي عرفها الناس وقرأوها على نطاق واسع فهي ترجمة أحمد رامي وحده .

ولكنني مع ذلك لم أكن أعرف عن شعر رامي نفسه شيئا دقيقا ، لم اقرأ له ديوانا مطبوعا من قبل . وحتى أغانيه كنت أحس بها وأحكم عليها من خلال صوت

أم كلثوم • وقليلا ما كان صوت أم كلثوم يترك فرصة للتفكير فى شىء سوى هذا الصوت نفسه .

ولذلك فقد سارعت الى قراءة ديوان رامى الذى صدر سنة ١٩٦٤ وقضيت أياما متصلة فى قراءة هذا الديوان الجديد والبحث فيه عن شخصية رامى ، وكيف عبرت هذه الشخصية عن نفسها فى هذا الديوان •

بحثت عن رامى مترجم الخيام فلم أجد منه شيئا . ان الديوان الجديد يؤكد أن رامى ترجم للخيام فقط ولكنه لم يتأثر به . ولم يعاشره معاشرة طويلة عميقة مثل معاشرة جيته أو باسترناك لشيكسبير ، أو معاشرة أبى العلاء للمتنبى . لقد كانت معاشرة هؤلاء الشعراء لغيرهم معاشرة مثمرة تركت أكبر الآثار على شعرهم . أما رامى فلم يخرج من ترجمته للخيام بلمسة من لمسات هذا الشاعر الفارسى العالمى العظيم . فالخيام شاعر فيلسوف ، يعالج مشاكل الدنيا ويتعمق فى هموم القلب الانسانى • والخيام يحاول محاولة ناجحة الى أبعد حد أن يقدم حلا روحيا لمشاكل الانسان • فهو يدعو الى نوع من الاستسلام المبنى على الرضا لا على اليأس . ويدعو الى الاندماج فى الحياة اندماجا كاملا عظيما ، حتى ينسى الانسان آلام الحياة ، وحتى ينسى على الخصوص أكبر ألم وأفظع ألم وهو الموت ، وفلسفة الخيام مليئة بالمعانى الكبيرة التى تجعل من شعره مادة انسانية خالدة فهو متسامح رقيق ، عظيم الشعور بضعف الانسان فى هذا العالم • ينظر الى الانسان نظرته الى كائن يستحق الغفران أكثر مما يستحق العقاب . وقد ملأ هذا الاحساس بالشفقة على الانسان شعر الخيام ، وانتهى به هذا الشعور الى التصوف بأسلوب خاص متميز .

ان رامي لم يتأثر بشيء من هذا على الاطلاق . فشعره لا علاقة له بالفلسفة ، وهو لا يميل الى التأمل العميق ، بل يتوقف عند خواطره السريعه . يسجل الخاطرة الواحده فى بيت او بيتين ، ويهرب سريعا الى خاطرة اخرى مختلفة ، ولا يمكننا أن نخرج من شعره برأى متكامل فى الحياة كما هو الامر عند الخيام ، فالخيام يعطيك رأيا واحدا ووجهة نظر واحدة . وبعبارة أخرى ان الخيام يملك « تجربة روحية » كاملة يعبر عنها فى شعره ، بينما يقدم لنا رامى آراء مختلفة بل متناقضة فى الحياة والناس والأشياء ، ولا يكاد رامى يصبر على رأى واحد ، أو على فكرة واحدة .. ولا يتعمق أبدا حتى يصل بهذه الفكرة أو هذا الراى الى درجة عالية من العمق أو الشفافية أو الرؤية الخاصة المتميزة .

هكذا نجد أن الخيام كان شاعرا من شعراء « الفلسفة » الواحدة الواضحة أما رامى فهو شاعر آراء مبعثرة . كان الخيام يتحدث عن مشكلة الانسان الكبرى فى هذه الحياة : ماذا يفعل الانسان أمام الموت ؟ هل يستسلم للتشاؤم والخوف ؟ هل يغرق نفسه فى الانحلال واللذة ؟ ان اجابة الخيام هى أن يذوب الانسان فى جمال الكون ، ويتسامح ويتصوف ويتخلى عن الطموح الزائف . فهذا هو الحل الوحيد للاستمتاع بالدنيا على قدر الامكان . وللهروب على قدر الامكان أيضا من فزع الموت .

أما رامى فهو فى معظم قصائده شاعر عاطفى ، شاعر يتحدث عن الحب ، عن اللقاء والفراق ، عن الوصال والصد . ونظرته الى الحب لا تزيد على ذلك أبدا ، انها تقف عند المعانى التقليدية ، المعانى العامة التى يعرفها الجميع : شعراء وغير شعراء .

ولذلك لا تلمح فى ديوان رامى ملامح تجربة متميزة ،

تجربة تستطيع أن تقول عنها انها تجربة رامى الخاصة .
فالحب عند عمر بن أبي ربيعة مثلا أو عند بيرون هو حب حسي مادي (مع اختلاف الأسلوب والشخصية بين كل شاعر منهما) والحب عند أبى القاسم الشابى مثلا هو حب رومانسى حزين يرتبط فى معظم الاحوال بالموت .. وهكذا . فكل شاعر كبير له حبه الخاص . له تجربته العاطفية المستقلة . ولكن رامى يحب حبا عاما . هـو الحب المعروف الشائع عند الجميع .

ولذلك فان « التجربة الشعورية » الأصيلة تنقصه . وان لم تنقصه أبدا براعة الصناعة اللفظية الدقيقة

وفى أول قصيدة من الديوان يهدى رامى ديوانه الى ملهمته ، الى حبيبته . فمن هى هذه الملهمة المحبوبة ؟ ما هى شخصيتها ؟ ما هى علاقتها بالشاعر وتجربتهـــا معه ؟ لا نكاد نجد فى القصيدة اجابة على شيء من هذا كله. ان القصيدة تبلغ سبعة أبيات ، وهى مجموعة من الصور المفككة التى لا يجمع بينها شيء ، انها صور لا تعطيك بعد قراءة القصيدة فرصة للتفكير أو الشعور الواحـد ، والقصيدة بتعبير آخر لا تعطيك « تجربة نفسية » واضحة ولا تدور حول حالة عاطفية واحدة بل هى صور متتالية متتابعة لا تنبع من شيء واحد يربطها ويمسك بها .

ففى البيت الأول يقول :

الى محراب أفكارى
ومهبط وحى أشعارى

فى هذا البيت نوع من الشعر الدينى ، ان العاطفة هنا تقترب من العاطفة المقدسة فالحبيبة هنا محراب ومهبط للوحى . والشاعر يصلى ويتعبد حيث يتلقى أشـعاره وأفكاره .

ولكن الشاعر سرعان ما يقول :

الى جنة أحلامي
الى نزهة أبصاري
الى الطير الذي آنس
بالتفريد أسحاري

هكذا فجأة .. انطلق الشاعر من عاطفة القداسة الدينية ، الى مشاعر مادية حسية . فالحبيبة هي جنة أحلامه .. وربما كان الانتقال من جو « المحراب » و « مهبط الوحي » الى جو « الجنة » مقبولا ولكن الذي لا يقبله الذوق ولا يقبله الاحساس الصادق هو أن ينتقل الشاعر من هذه الأجواء الرفيعة المقدسة الى « نزهة الأبصار » .. ان الحبيبة بعد أن كانت محرابا ومهبطا للوحي أصبحت « لعبة » « يتنزه » بصر الشاعر فيها .. ثم أصبحت بعد ذلك شيئا « يسليه » ... انها الطائر الذي « يؤنسه » ويقتل وحشته . وهذه انتقالة او قفزة تدل على انعدام « التجربة النفسية » الصادقة وبالتالي انعدام الصورة المحددة في وجدان الشاعر .

ثم ينتهي الشاعر بعد هذا التلفيق في الصور الشعرية وبعد هذه العواطف المتناقضة التي لا يمكن أن تصدر عن حالة شعورية واحدة .. ينتهي من هذا كله الى أن يقول لحبيبته :

أقدم كأس اشعاري
وأهدي غض أزهاري

ان الشاعر هنا يهرب من الصور التي يرسمها هروبا واضحا ، فهو لا يكاد يقول كأس أشعاري حتى يبحث عن صورة أخرى هي « غض أزهاري » .. ويتضح « التلفيق الشعري » هنا عندما نفكر قليلا في هذا البيت « فكأس الشعر » صورة توحي بأن الشعر كالخمر ومن المعروف أن أفضل الخمر هو الخمر المعتق اي القديم ... ولكن

الشاعر ينسى هذه الصورة ويهرب من ظلالها المختلفة ، ليقول بسرعه « أهدى غض أزهارى » .. والغض معناه الجديد الذى ما زال فى بداية الحياة وهكذا ، يوحى لنا الشاعر فى السطر الأول بأنه يقدم فى شعره تجربة عتيقة مثل الخمر العتيق القديم . ثم ينسى فجأة وبلا مقدمات ظلال الصورة الأولى ويقول : انه يقدم غض الأزهار .. هل يريد اذن أن يقول ان شعره يمثل عمق التجربة وعصارة الأيام والليالى التى عاشها ، أو انه شعر غض حديث يعبر عن تجارب جديدة ، واحساس جديد بالحياة ؟ أو أنه شعر يريد به أن يقدم الاثنين معا ، وكان عليه فى هذه الحالة أن يفصل الصورتين عن بعضهما البعض ويمهد للصورة الثانية المناقضة للأولى .

ما معنى هذا كله ؟ .. معناه بوضوح أن احمد رامى هو شاعر يستسلم للألفاظ والصور الفنية ذات الجمال الخارجى ، ان قصائده مجموعة من الألفاظ البراقة والصور اللفظية اللامعة . وهى ألفاظ وصور لا ينقصها الجمال الخارجى ، ولا الأناقة الشكلية ، ولكنها صور لا تخفى وراءها شيئا عميقا فى النفس . انه شعر « الصاجات » التى ترن رنينا عاليا يؤثر فى الأذن . وليس شعر الموسيقى العميقة التى تعبر عن تجربة معينة وتعيد الانسان الى قلبه وذكرياته وحياته النفسية الداخلية ، والفرق بين شعر « الألفاظ البراقة اللامعة » والشعر الذى يصدر عن تجربة شعورية عميقة هو الفرق بين المعدن الأصيل والمعدن القائم على التقليد .

وشعر رامى فى معظمه من النوع الأخير ، النوع الذى لا تسيطر عليه تجربة عميقة والذى تغريه الألفاظ برنينها الخارجى فيجرى وراءها ناسيا التجربة النفسية الأساسية .

ومما يؤكد ان رامى ليس شاعرا من شعراء « التجارب النفسية » العميقة التى تملأ الشعر فلا تسمح بالتناقض بين الصور الشعرية ولا تسمح بالقفزات المفاجئة بين هذه الصور .. مما يؤكد هذا كله قصيدة رامى عن أم كلثوم .

ان علاقة رامى بأم كلثوم علاقة فنية وانسانية عميقة . فهو مدين لها بكثير من سمعته الفنية ومهما كانت قيمة شعره فان هذا الشعر ينبض بالحياة ويتألق فى صوت أم كلثوم .. لقد رفعته أم كلثوم وقربته من القلوب الى أبعد حد .. فماذا قال رامى عن هذه التى وهبت شعره كل هذه النعم ؟

يقول رامى :

كرمت دوحة رعت أم كلثوم
وجادت بظلها الفينان
فهى قمرية تغنت على الفرع
ولما تهم بالطيران
ثم أنت ولم تكد تعرف الدمع
متى قبضه من الأجفان
واستوى ريشها فخفت عن الأيك
وحامت على الربى والمغانى
تبعث الشجو فى النفوس وتلقى
سحرها فى القلوب والأشجان

وفى نفس القصيدة يقول :

ترسل الشعر منطقا عربيا
بين الآى واضح التبيان
تتناغى الألفاظ فيه من النطق
سليما وتستبين المعانى
فاذا صورة تجلت الى العين

وغابت فى مستقر الجنـــان

ماذا فى هذا «القول» عن أم كلثوم ؟ انه كلام «تقريرى» جاف ، لا يخرج عن ان يكون « نظما » لبعض « المعلومات» المعروفة عن ام كلثوم .. من هذه الحقائق أن أم كلثوم غنت وهى صغيرة جدا .. وكان صوتها رائعا منذ صباها ومن هذه الحقائق أن أم كلثوم تنطق اللغة العربية نطقـا سليما .

هذا الكلام من الممكن أن يقوله أى « صحفى » ناشىء . بل من المـمكن أن يقـــوله أى مواطن عادى من جمهور أم كلثوم .. وليس هناك أى فرق بين المواطن العـــادى ورامى الا « النظم » . ما هو الاحساس الجديد الذى يقدمه لنا رامى حول أم كلثوم ؟ ماذا فى قصيدة رامى مما يمكننا من أن نقول انها رؤية رامى لأم كلثوم وليست رؤية أى انسان آخر ؟ ان هذا الكلام ينطبق على كثير من المطربات وليس فيه ميزة واحدة تتميز بها أم كلثوم عن غيرها .

انه كما قلت فى البداية « شعر لفظى » شعر الصاجات الرنانة . شعر اللمعان الخارجى . فيكفى فى هذه القصـيدة أن الشاعر جمع كلمات مثل دمع ــ ظل ــ أيك ــ قمرية ــ شجو ــ عود ــ حنين ــ ناى ... الخ ، هذه الالفاظ التى تكفى فى نظر الشاعر وحدها لكى تعطى لمسة من الفن لقصيدته . والحقيقة أن الالفاظ مهما كانت جميلة رقيقة فانها لن تكون ذات قيمة كبيرة ما لم يكن لها صلة قوية ببناء القصيدة على أن يكون هذا البناء فى خدمة تجربة نفسية واضحة .

أين كلام رامى عن أم كلثوم من قول الشاعر العربى العظيم ابن الرومى وهو يصف صوت المغنية « وحيد » فى بساطتها وسيطرتها على صوتها :

تتغنى كأنها لا تغنى

أو بقول ابن الرومى أيضا فى مغنية أخرى :

صوت أدق وأنفاس مساعدة

كأنما نفس منهن أنفـــاس

أو قوله أيضا :

ذات صوت تهزه كيف شاءت

مثلما هزت الصـــبا غصن بان

هذه كلها صور مليئة بالايحاء ، يعيش الانســـان مع كل صورة منها طويلا فلا تنتهى الصورة من السيطرة على مشاعرنا بمجرد أن نفهم معناها بل انها تبقى فى نفوسنا دائما لأنها تنبع من تجربة نفسية دقيقة ، أو من رؤية خاصة يراها الشاعر ويحسن التعبير عنها بدقة وصدق .

وأزجال رامي لاتختلف فى نوعها عن قصائده الفصيحة . ولكنها تختلف فى الدرجة . فاذا كان رامي صانعا ماهرا فى شعره الفصيح ، فهو أكثر مهارة فى أزجاله ، وأكثر تمكنـــا من صنعته . مما يتيح له أحيـــانا أن يصل الى لمسات فنيـــة أذكى وأعمق ، ولـــكنه فى أزجاله كمـــا فى قصائده الفصيحة شاعر ألفاظ رقيقة وصــــور شكلية بارعة أكثر مما هو شاعر تجربة نفسية مليئة بالايحاء والعمق والفكر والفلسفة والشخصية الفنية المستقلة .

فهرس



هذا الكتاب

يحتاج أدبنا العربى المعاصر الى كثير من الدراسات المتنوعة ، فقد اصبح لدينا خلال السنوات التى مضت من القرن العشرين تراث أدبى كبير ، ولكن هذا التراث لم يخضع للدراسات النقدية الكافية التى تضىء جوانبه المختلفة ، ويقدم هذاالكتاب محاولة من هـذا النوع ، ويساهم فى القاء الضوء على بعض جوانب حركتنا الادبية المعاصرة .

ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب « ان الادباء الذين تحـدثت عنهـم ليسوا من جيل واحد ولا من مدرسة واحدة ففى الكتاب حديث عن طه حسين الذى تجاوز الثمانين ((مد الله فى عمره)) وفى الكتاب حديث عن محمود درويش الذى لم يصل الى الثلاثين بعد ، وهناك حديث عن احمد رامى وهو من كبار الشعراء التقليديين وحديث عن بدر شاكر السياب وهو احد رواد المدرسة الحديثة فى الشعر العربى المعاصر . وكما أن الادباء الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب لم يجمعهم جيل واحد ولم تجمعهم مدرسة فنية أو فكرية واحدة ، فان الكتاب يتحدث أيضا عن جوانب مختلفة من حياة هؤلاء الادباء ، فهناك دراسة عن طه حسين ومواقفه السياسية ، ودراسة عن رامى من الجانب الفنى فقط ، وهناك بحوث اخرى تجمع بين الدراسة السياسية والدراسة الفنية والدراسة النفسية مثل البحث الذى يضمه الكتاب عن نجيب محفوظ .

وقد حرصت على أن يضم الكتاب دراسات عن بعض الادباء العرب خارج مصر وذلك تاكيدا لايمانى بوحدة الادب العربى فى الاجزاء المختلفة من الوطن العربى الكبير ، وتاكيدا لايمانى من ناحية اخرى بما يتم بين آداب الامة العربية فى كل اقطارها من تاثير متبادل وقوى » .

١٥ قرشـــا


كتاب الهلال
أبو بكر
حوارى محمد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٤٢ محرم ١٣٩١ – مارس ١٩٧١

No. 242 — Mars 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

أبو بكر

حوارى محمد

بقلم

الدكتور نظمى لوقا

دار الهلال

« لان كل شجرة من ثمرها تعرف »
السيد المسيح
انجيل لوقا ٦ : ٤٤

« لان من الثمر تعرف الشجرة »
السيد المسيح
انجيل متى ١٢ : ٣٣

تنبيه

مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد ..

وما كنت بحاجة الى هذا التنبيه ـ الذى يغنى عنه اسمي ـ لولا أن نفرا من النـــاس ذهب ظنهم الى أن انصاف عقيدة من العقـــائد ـ أو انصـــاف أقطابها ـ لايمكن أن يصدر الا عن شخص يدين بالعقيـــدة التى يدفع عنها الافتراء ، وبالتـــالى لا يدافع بالضرورة عن الاسلام ورجاله أو ينصفه وينصفهم الا مسلم

وهو ظن باطل !

فليست كتبى هذه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الاصيلة ، وأن عالجت أمورا متصلة بالدين . فالغرض الاول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة ، والنظر فى ســـائر الامور نظرا موضوعيا مبرءا عن التحيـــز والتـــحامل . بحيث يكون التفكير الانسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى : لا تتأثر نتيجة تحليل الدم الا بالعناصر التى يتكون منها هذا الدم فعلا . ولا دخل فى هـــذه النتيجة لان تكون قطرات الدم لذى قربى أو لأبعد البعداء .

وهـــذه النزاهة الموضوعية أسمى منهج عقلى متـــاح للبشر . وهى أشـــق ما يكون حين يتصـــل الموضوع بالعواطف الشخصية ، ولا سيما المعتقدات ، لأن التجرد

من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير .

لهذا السبب تعمدت البحث فى الاسلاميات ، جاعلا من هذا الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو اليه . وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز.

واذا كان المنهج الموضـــوعى يســـمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الـكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها ، وعن المعـــادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس ، وعن السيارات من غير أن يكون سيارة . فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن الاسلام ورجاله من ليس فى عداد المسلمين ؟

الا ان الانصاف النزيه أثمن فضائل الانسان . وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا الى الامور كافة ، بما فى ذلك الاديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا ...

وفى مرجوى أن يقرأ القارىء صفحاتى بمثل الروح التى كتبت بها .

وسلام على الصادقين ...

دكتور نظمى لوقا

إهداء

الى السائرين فى الظلمة ...

والى من يلوح لهم ـ من أنفسهم ـ فجر جديد ...

وأيضا الى :

أحمد صلاح الدين عفيفى ..

الاخ الصادق الاخاء ، على اختلاف ديانتينا ...

« ورب أخ لم تلده أمك »

توطئة

التعريف بما هو معروف تحصيل حاصل ، أدخل فى باب الهذر الفارغ منه فى أى باب من أبواب المعرفة وفنون الفكر والادب .

وأبو بكر بن أبى قحافة ، الخليفة الاسلامى الاول ، والصحابى الصديق ، علم فى رأسه نار ، يعرف الناس مكانته وفعاله معرفتهم الشمس فى رائعة النهار. فأى حاجة بكاتب مثلى يأتى بأخرة من الدهر يكتب عنه هذه الصفحات القصار ؟

سؤال تحيلنا الاجابة عنه الى مناقشة الغرض من كل سيرة ، والغاية من كل دراسة للشخصيات المشهورة .

فكل ذى شهرة انما يعرف الناس له « ماذا » صنع ، ولكن ليس القصد من كل كتابة عن الاعلام أن نعرف « ماذا » صنعوا ... فقد تكون الكتابة عنهم لنعرف «كيف» صنعوا هذا الذى صنعوه بالذات و«لماذا» ... ولا يراد بذلك فى جميع الاحوال معرفة كنه الافعال وأسرارها وأساليبها ، بل يراد شىء وراء هذا كله وأبعد منه منالا : يراد الايغال فى كنه الشخصية ذاتها ، والتسلل الى مكامنها . فنعرف « من » يكون فلان هذا ، ولا يكون قصارانا أن نعرف « ماذا » صنع فلان.

ونعيد هنا ما قلناه فى غير هذا الـكتاب :

« ان الاحداث قد تكون جليلة الخطر فى أطوار الامم والدول والحضارات . وهى بهـذا جديرة بالدراسة والبحث والتمحيص توسلا الى التعلم والاعتبار. ولكن دراسة اطوار النفس الانسانية فى ضوء الاحداث الكبرى أمر لا يقل عن دراسة الاحداث فى ذاتها أهمية وخطرا . بل تربو عليها فى ذلك أيما ارباء .

« ولا تكتسب الاحـداث وزنها الحقيقى الا لأنها موصولة بحياة الناس ومصائرهم. فالانسان ـ الانسان الفرد والانسان المجتمع والانسان النوع ـ مقياس كل جليل من الامور والحوادث ، وهو غايتها القصوى فى الوقت نفسه .

« ومن أجل الانسان ـ وفى ضوء فهم تكوينه وأسرار نفسه وسلوكه ـ يجب أن يكون اهتمام الدارسين الاكبر بأحداث التاريخ »

وفى هذه الحدود نفسها استوجب أبو بكر أن نكتب عنه ، كتابة تقوم على المصاحبة اليقظة ، والتأمل النافع فى جميع الاحوال ، ودراسة السلوك والاخلاق التى تطلعنا على المنابع الخفية لتلك المواقف الخطيرة فى حياة الامة العربية فى مرحلة من أدق مراحلها .

فهى اذن صحبة نفس فى محياها المعروف لنا معالمه وسماته وآثاره ، واستكناه خبيئتها كى تتكشف لنا مرحلة مرحلة مع أطوار العمر وتباين المواقف وطوارق الاحداث .

هى محاولة فهم اذن ، تتعقب الظاهر الى أصوله الباطنة ، كما يتعقب الفاحص الثمرة والفروع فى النبات الى جذوره الغائرة .

وهو شوط يصطحب فيه الكاتب والقارىء معا فى

ذلك الجهد الصادق للصعود الى سماء الحقيقة من صعيد المحسوس المألوف ، صعود من يتلمس الطريق ، ويتثبت ما استطاع لموطىء قدمه ، ويستعين العقل كله على السداد .

وكأين ما يصل اليه هذا الجهد ، فهو — وان قل — ثمرة سعى ، وحصيلة برهان ، ووليد تبصر وامعان .

وذلك ما عقدنا العزم عليه ، والله المستعان !

رجل من تيم

يعرف النـاس أبا بكر بن أبى قحافة بلقب الصديق الذى وصفه به محمد . وهم يعرفونه لسـبقه الى الاسلام ، وصحبته الطويلة الصادقة للنبى ، وهجرته معه اذ هو « ثانى اثنين » فى الغار ، ثم هو الخليفة الاول منذ قبض النبى ، وصاحب المواقف المشهورة فى محنة الردة حتى قضى عليها ، وواضع دعائم ما صـار فيما بعد امبراطورية عربيـة متراميـة الاطراف تكاد تستوعب الجانب الاكبر من المعمورة .

ولـكن أبا بكر المسلم الصديق انما هو ابن أبى بكر الجاهلى ، الذى لم تبدأ دعوة الاسلام الا وهو يقـارب الاربعين ، أو هو ابن سبع وثلاثين سنة أو تزيد قليلا على أرجح الاقوال . وهى سن يكتمل فيها الطبع وتتم السجية .

فمن أبو بكر فى الجاهلية ؟

أبرز ما نعرفه عنه أنه رجل من قريش ، ومن بطن من بطونها الاثنى عشر . فهو من بنى تيم بن مرة .

فمن هم بنو تيم بن مرة فى قريش التى تنحدر من فهر ، والتى استقرت فيها الاوضاع على يد حفيد فهر قصى بن كلاب فى أوائل القرن الخامس للميلاد أو قبيل ذلك ، حين انتزع قصى بن كلاب السلطة فى مكة من بنى

خزاعة وأسكن فيها قريشا وقسم فيهم أحياءها ، لكل حى منهم قسم يبنون فيه بيوتهم . فنقلهم من البداوة الى الحضارة نقلة حاسمة ، وأقام بذلك «دولة قريش» فى حاضرة الحجاز مكة عاصمة الاوثان ؟

كانت قريش قد تمايزت اثنى عشر بطنا هى :

١ ــ بنو عبد مناف
٢ ــ بنو عبد الدار
٣ ــ بنو مخزوم
٤ ــ بنو أسد بن عبد العزى
٥ ــ بنو زهرة بن كلاب
٦ ــ بنو سهم بن عمرو
٧ ــ بنو تيم بن مرة
٨ ــ بنو جمح بن عمرو
٩ ــ بنو عدى بن كعب
١٠ ــ بنو عامر بن لؤى
١١ ــ بنو محارب بن فهر
١٢ ــ بنو الحارث بن فهر

فاذا نظرنا الى النسب ، وجدنا أن تيم بن مرة ، جد بنى تيم ، هو أخ لـكلاب والد قصى بن كلاب مؤسس قريش الحديثة ومقيم دولتها فى مكة .

فبنو تيم اذن فى النسب الصميم من قريش لا محالة ، لأنهم أولاد عم بنى قصى الذين انفردوا بالعز والسلطان والثراء ، وهم ثلاث أسر : عبد مناف . وعبد العزى (ومن سلالته بنو أسد) وعبد الدار . وبنو تيم أولاد عم بنى مخزوم بن يقظة أيضا ، لأن يقظة هذا أخو تيم وأخو كلاب والد قصى .

وليس يعنينا الآن كيف تقلبت الاحوال وتنازعت هذه البطون السلطان والجاه فى القرن الخامس للميلاد ،

وانما الذى يعنينا فحسب أن أولاد قصى (ابن أخى تيم) تنازعوا بعد أبيهم ما اجتمع فى يده من السقاية والرفادة والحجابة والندوة واللواء والقيادة فى مكة حيث البيت الحرام ، أى الكعبة .

والحجابة هي سدانة البيت أى تولى مفاتيحه .

والسقاية اسقاء الحجيج الماء العذب الذى كانعزيزا بمكة ، وأسقاؤهم كذلك نبيذ التمر .

والرفادة اطعام الحاج جميعا . وكانت الرفادة قسطا تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه الى قصى يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه من الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد

واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى عدو

والقيادة امارة الجيش اذا خرجوا الى حرب .

وانتهى التنازع الذى أوشك أن يفضى الى القتال فتقاسموا تلك المناصب السنية ، فكان لبنى عبد مناف السقاية والرفادة (أى أمر الطعام والشراب). وبقيت لبنى عبد الدار (أخى عبد مناف) الحجابة والندوة واللواء .

وتفرقت مناصب بعد ذلك فى بعض بطون قريش الاخرى ، فكانت قيادة الحرب لبنى مخزوم (آل خالد ابن الوليد من بعد) وكانت « الحكومة » فى بنى سهم (آل عمرو بن العاص من بعد) وهى التحكيم فىالمنازعات والمجالس العرفية تحكيما غير ملزم على الدوام ، وانما يتوقف الامر على رضا الطرفين واقتناعهم برأىالحكم . وكانت الديات والمغارم فى بنى تيم بن مرة (آل أبى بكر من بعد) وهى أشبه بعملية الضمان الذى يتوقف قبوله على اقتناع الناس بالضامن وصدقه ووفائه بالضمان .

وأشهر أبناء عبد مناف «هاشم» الذى ورث مناصب أبيه ، و « عبد شمس » الذى برع فى التجارة وعقد الاتفاقيات التجارية مع نجاشي الحبشة وتكاثرت أمواله وأموال بنيه . وعبد شمس هذا والد أمية وجد أبى سفيان

ونخلص مما تقدم الى أن بنى هاشم (قوم النبى من بعد) كانت لهم صفة الشرف والمكانة الدينية لاتصالهم برعاية الحجاج وأكرامهم . وأن بنى عبد شمس كان لهم الثراء والتفرغ للتجارة ، وان بنى عبد الدار كانت لهم مفاتيح الكعبة والندوة واللواء . وهى شارات المكانة السياسية والنفوذ والسلطان. وان بنى مخزوم كانوا قادة الحرب عند نشوب قتال. وتلك هى المناصب العليا جميعا فى حاضرة الحجاز بالجاهلية .

أما أمر الديات والمغارم الذى كان موكولا الى بنى تيم ابن مرة فما أظنه كان ذا خطر كبير ، لأنه لا يتعدى « ضمان » وفاء المحكوم عليه بالدية أو الغرامة . وقد تقبل قريش الضمان الذى يقدمه التيمى أو لا تقبله . ويقال ــ من بعد ــ أن أبا بكر بن أبى قحافة كان ضمانه مرضيا فى الديات دائما لما تعرفه له قريش من الذمة والامانة والوفاء بالوعد .

ويقول معظم المؤلفين انه لا شيء عن بنى تيم بن مرة معروف لنا غير هـذا . ويقول الدكتور محمد حسين هيكل فى هذا الصدد :

« وقد رويت فى الاشادة بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب روايات تقصبها كتب المتأخرين ، على أن ما تنسبه الروايات المختلفة لبنى تيم من الصفات لايختلف عما ينسب لغيرها من القبائل ، ولا يميزها بطابع خاص يفيد المؤرخ أو يدل على صفة بذاتها فيما ينسب اليها :

فهذه الروايات تنسب الى تيم من الصفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار وما اليها ما تشترك القبائل العربية التي تعيش تحت سماء شبه الجزيرة فى التمدح به والانتساب اليه . لهذا لم يقف مؤرخو أبى بكر عند قبيلته أكثر مما ذكرت ... »

وهذا شأن من يعتمد على المنهج النقلي ويتقيد به ، ولكن المنهج العقلي حرى أن يؤدى بنا الى نتائج كثيرة نقوم بتحقيقها ومضاهاتها بالوقائع التى ثبتت لنا من مواقف أبى بكر ــ سليل تيم بن مرة ــ وسلوكه ومناقبه.

فماذا كانت أحوال بنى تيم بين بطون قريش ؟ وماذا كانت هذه الاحوال خليقة أن تفرض بأوضاعها على بنى تيم من مناهج السلوك وطرائق التصرفات ، بما لها من الزام مادى ونفسي ؟

ما من شك فى ان كل جماعة انما هى فى سلوكها ومجموع صفاتها ومناقبها ومثالبها محدودة باطار من ظروفها المادية وبالآثار النفسية الناجمة عن تلك الظروف . ومحدودة بما يترتب على وضعها من طموح، وبوسائلها لتحقيق ذلك الطموح ، وهى وسائل لا سبيل لها الى تجاوزها

ولذا نسأل مرة أخرى : ماذا كان وضع بنى تيم بن مرة بين سائر بطون قريش ، وهم بنو عمومتهم ، وفيهم البطون القوية والبطون الثرية والبطون كثيرة النفر والبطون التى لا حول لها ولا طول ، والبطون التى هى من الثراء أو النفر أو القوة بين بين ؟

ان تيما كان عم قصى مؤسس الدولة الذى استأثر بنوه بكل السلطان والثراء والمكانة الدينية المتصلة بالكعبة والحجاج ... وشأن بطون القبيلة يومئذ التمايز والتناظر والتنافس الذى يفضى الى التنابذ فى

بعض الاحيان . وكل بطن يعتد ويشمخ على سائر البطون . وكل بما لديهم فرحون .

وما كان بنو تيم — على نسبهم الصميم فى قريش — ذوى عدد أو عدة أو ثراء أو نفوذ أو مكانة حربية أو دينية . فهم يعيشون اذن مكافحين فى تجارة محدودة ليحفظوا على أنفسهم عيشا كريما يتطاول الى اليسر ، وربما الى الثراء ، ويتحاشى الفاقة والحاجة بجهد وسعى موصول .

فهم بذلك دون المكانة المعروفة لعلية اهل الجبروت فى السياسة والمال والحرب ، ولكنهم كذلك فوق مكانة الطبقة الدنيا ، يعتدون بأصل عريق ، وليس لهم مع هذا من الامر شىء . وخلو الاخبار من ذكر لبنى تيم ابن مرة فى الجاهلية دليل قاطع على انه لم يكن لهم شأن ذو بال ..

فماذا يفرض هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى والتاريخى على من يريد أن يصون احترامه ومكانته لئلا يهبط الى درك العامة وأصاغر الناس ، ويصبو الى أن يطاول برأسه أكفاءه فى النسب وان لم يكن من أكفائهم فى السلطان ، ويحاذر أن يدوسه أولئك الجبابرة من بنى عمومته الاقوياء الاثرياء ذوى العدد والعدة والمنعة ، الذين يملى لهم الجاه والبأس — أو لكثيرين منهم على كل حال — فى الانحلال والطغيان والافتئات بغير رادع ؟

ليس من العسير أن نستنتج ما يكون لمن هذا شأنه من النهج فى الحياة :

انه من حيث مصدر معاشه لا اعتماد له الا على التجارة . وان للتجارة لمن فى مثل حاله حدودها ومقتضياتها من السلوك ان أراد لها صاحبها الرواج فى ظروف الجزيرة العربية يومئذ بصفة خاصة :

قبائل وبطون منتشرة لابد فى التعامل معها من ضمان للوعود وعقود الصفقات الشفوية . ولا بد من الامان والمسالمة ... وليس العهد عهد حكومة مركزية ولا بطاقات شخصية ولا مسئولية فردية . فالمسئولية جماعية تلتزم بها العشيرة فى القبيلة الواحدة ، وتلتزم بها القبيلة تجاه غيرها من القبائل. فأهم ما يلزم صاحب التجارة ـ ولا سيما من ليس له بأس بارز ومنعة من قومه الادنين منيعة ـ أن يكون عارفا بالانساب ، التى تقوم يومئذ مقام البطاقة الشخصية فى زماننا .

ولابد له أيضا من أن يكون حسن المدخل عند الناس، حصيفا فطنا ، كثير الاناة ، يتجمل بالصبر والبشاشة والدماثة التى تتألف القلوب ، ولا تستثير العدوان ، وتستل السخائم .

ولكن لابد وراء هذه المهاد اللينة من حزم يعرف صاحبه أين تنتهى الملاينة والمسايرة ، وأين يجب ان يقف فلا يتزحزح والا خسرت تجارته أو استخف به من يتعامل معهم فيذهب ماله ضياعا .

وعند خليقة الحزم هذه تلتقي خلائق الحرص ، واستدبار العواقب ، والبصر بدخائل الناس ، وحسن الخروج من المواقف قبل أن تتأزم ، وحفظ السمت حتى لا تسقط الهيبة بالتبسط والدعابة ، والبعد عن مباذل الفجور والخمر والميسر ، والا تعرضت التجارة ـ وهى محدودة ـ لافلاس فلا يسهل تعويضها أو تجديدها برأس مال مستحدث . وتلك كلها مما يحفظ المروءة ويستلزم الوقار مع البشاشة . وتستلزم كذلك التفكير العملى الذى لا يجد ضيرا فى التساهل استبقاء للمودة ، لأن من ليس عميلا اليوم لا يأس أن يكون عميلا فى يوم من مقبل الايام . فاحدى عينيه على اجتناب الخسارة ،

وعينه الاخرى على ربح مأمول ، ان لم يكن عاجلا فهو آجل .

وهذا أدخل في باب الدهاء ، ولكنه مكر الحصانة الحسن ، لا مكر السوء والغدر والانتقاض . مكر الكائن الضعيف البدن تمده به الطبيعة ليحمى وجوده من ذوى الفوائل المتجبرين .

وكل هذا يحتاج الى ضبط شديد للنفس ، فلا تسرع الى الغضب والشحناء ما لم تكن له عن ذلك مندوحة لحماية الكرامة أو حماية المال . لأن التهور غير مأمون العواقب ، فلا عدد فى العشيرة يرهب ، ولا سلطان لها يخيف ، ولا يكون بعد التهور فى هذه الحالة الا تحمل الثأر أو الاهانة بغير قدرة على الردع . وليس أضيع للعربى من هذا الهوان !

والمال هنا تابع للكرامة وركن لها ، فلو ذهبت الكرامة لما قامت له بين تلك العشائر قائمة ، ولأدت الاستهانة به الى القضاء على كل مكانة له وكل متجر.

فاذا أدخلنا فى اعتبارنا النسب الكريم الذى لا يقل عراقة عن نسب أقوى الاقوياء وأثرى الاثرياء وأوجه الوجهاء ، وجدنا الاعتداد بالنفس و « الحساسية » من جهة الكرامة الشخصية تتضخم وتتجسم، فتفرض على صاحبها مزيدا من مقتضيات « حفظ مركزه » وهو الذى يحز فى نفسه الا يكون له سند يكافىء هذا النسب ويعادله من ثراء طائل أو سلطان أو كثرة عشيرة .

وانما هى « الحسنى » اذن سند هذا المقام الذى يعوزه ما عداها من السند . وهى السبيل الى السيادة بين الناس باختيارهم لما لصاحبها من حسن السمعة ومكارم الاخلاق وحصافة الرأى والترفع عن الصغائر.

وخليق بالحصيف من مثل بنى تيم بن مرة اذن أن

يكون شـــديد التمسك بأسباب العـدل ، حريصا على سيادة « الاصول المرعية » فى المعاملات بين النـاس ، متمسكا فى تعامله معهم بصـدق الوعد والوفاء بما فى الذمة ماديا ومعنويا ، فهو يعلم علم اليقين ان هدم هذا الاســاس فى التعامل يهدم عمـاده الاكبر فى صيـانة حقوقه وسلامة ماله ونفسه ، وهو الذى لا منعة تحمى حياته وأمواله من المعتدين أو الملتوين . فلا عجب يتسم كل شىء بصدق الوعد ووفاء الذمة وتعضيد العدل .

وما من أحد يستطيع الحياة بين الاقوياء بغير ايمـان بسند من القوة يحميه حتما من افتئات هؤلاء الاقوياء . فيغلب أن يرتبط العدل والتمسك بالصـــدق والوفاء والبر بالعهود بقوة غير مادية محجـوبة فى عالم الغيب تردع الجبارين وتحيط حدود العدل بحمايتها ، لانها واضعة هذه الحدود التى لولاها لما حال بين العتـاة والتهام أموال الضـعفى وأنفسهم وكراماتهم حائل . فليس يعقل فى احساسهم ان تكون ماديات هذا العالم الظاهرة كل شىء ، وانما معها وفوقها مصـادر للقوة فوق كل قوى ، وهى القادرة على أن تقهر كل جبار .

وبغير هـذا الاحساس الكامن لا يجدون العزيمة للمضى فى حياتهم معتدين بأنفسهم غير متخاذلين لقلتهم بين ذوى العدد والعدة ، ولتجردهم من السـلطان بين ذوى البـأس ، ولضآلة عتادهم من المـال بين اقيـال التجارة وجبابرة الحرب .

ولا يندر فى قوم هذا شأنهم ، حيـاتهم كفاح ينطوى على تحفز تغطيه الدماثة والســماحة ، وعلى يقظـة للجبابرة وذوى الصلف فى اعتداد رصين وقـور ، وعلى ضبط النفس الذى يكـظم الغيظ ويردع عن الصـغار والمجون والتبذير ، وعلى حساب للعواقب الآجلة غير

المرئية يطغى على الحاح الحاضر الآجل ، نقول لا غرابة أن يكون الكثيرون من هؤلاء ذوى تكوين عصبى ، ولا سيما من كان منهم صغير الهامة ، يحز من اعتداده نحول شديد أو قصر بين يجعله عرضة لاقتحام العيون اياه واستهانتها بقدره وقدرته .

هذه هى الشمائل المنتظرة من اى رجل حصيف من بطن فى قريش مثل بنى تيم بن مرة .

وهى سمات محددة ، بعيدة بعدا شاسعا عما ذهب اليه أصحاب المنهج النقلي ، وهى أيضا خليقة أن تكون اطارا معقولا ، وبيئة ذات مناخ مادى ونفسى وخلقى واضح المعالم ، ينبت فيها رجل بعينه ، هو أبو بكر بن ابى قحافة ، متأثرا بها آخذا منها ...

ولئن تحول عن الجاهلية الى الاسلام مبادرا ، فهذا التحول لا محالة قد تم بكل ما لتلك البيئة من اثر فى تكوينه الفردى ، ولا بد أن هذا الاثر قد أعده لتلك المبادرة الفذة .

فأبو بكر الصديق ابن ابى بكر الجاهلى ـ كما قلنا ـ وأبو بكر الجاهلى رجل من بنى تيم بن مرة .

والآن ... فلنر أين كان أبو بكر من هذه الخلال المفترضة ؟ وما صفته فيما تركه لنا الاخباريون والمؤرخون ؟

سمات أبي بكر

يقول الطبرى باسناده عن عائشة بنت أبى بكر أنها نظرت الى رجل من العرب مر بها وهى فى هودجهـــا فقالت :

ــ ما رايت رجلا أشبه بأبى بكر من هذا !

فقلنا لها :

ــ صفى أبا بكر ..

فقالت عائشة :

ــ رجـــل أبيض نحيف خفيف العارضـــين أجنأ (أحدب) ، لا يستمسك ازاره ، يسترخى على حقويه (خصره) ، معروق الوجه (قليل اللحم فيه) ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، عارى الاجاشـــع (أصـــول الاصابع التى تتصل بظاهر الـكف)

وأما على بن محمد فروى باسناده ان أبا بكر كان « أبيض يخالطه صـــفرة ، حســـن القامة ، نحيفا ، أجنأ ، رقيقا عتيقا (مليـــحا) أقنى الانف ، معروق الوجه ، غائر العينين ، حمش الســـاقين (دقيقهما) ممحوص الفخذين (يتصفان بالشدة والادماج) يخضب بالحناء ... »

وهـــذا التكوين الجسدى الدقيق ظاهر فيه المزاج العصبى ، وفى مظهره الذى تقتحمه العين ما يدخل فى

حساب « العوامل المشددة » عند حساب صفاته الخلقية وسجاياه واسلوب تعامله مع الناس .

كيان صغير ، لو انطوى على طبع فاتر أو مزاج بارد لكان مخلوقا صغير الظاهر والباطن ، كالارنب ، تقتحمه العين ، ولا يقف عنده ذو بصر ولا بصيرة ...

ولكن أبا بكر بن أبي قحافة كان فى كل ما عرف عنه ذا طبع جياش ومزاج حار ، ظاهره ساكن وباطنه محتدم الاوار . وظروف قبيلته ومهنته تحمله حملا على أن يلتزم حدودا مأمونة فى سلوكه وتعامله مع الناس ، ومن هنا جاءت أهمية ضبط النفس الشديد وأخذها بالحزم الحازم والنهى الصارم .

ولنا بعد قليل عود الى هذه السمة الوجدانية ، بعد الاحاطة السريعة بسائر ما انحدر الينا من أخبار سماته وخلائقه التى عرف بها فى جاهليته .

وأول هذه الصفات انه كان نسابة لا يبارى ، حتى لقد وصف بأنه « أنسب قريش » أو أعرف رجالات قريش بأنساب العرب ومفاخرهم ومثالبهم ومغامزهم.

فابن هشام يورد ذلك فى معرض لاشك فى دلالته على أن أبا بكر كان المرجع الاكبر والحجة الاوثق فى علم الانساب :

« ان عمر بن الخطاب حين أتى بسيف النعمان بن المنذر دعا جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل ـ وكان جبير من أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة ، وكان يقول :

ــ إنما أخذت النسب عن أبي بكر الصديق !

وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب ، فسأله عمر :

ــ من كان يا جبير النعمان بن المنذر .. ؟ »

وهذا أشبه فى الدلالة بمن يقول أخذت المنطق عن ارسطو ، او أخذت النحو عن سيبويه ...

ولكن النسب علمه درجات متفاوتة . ففى النسابين من كل محصوله أن فلانا من ولد فلان من فلانة . أما علم أبى بكر بالانساب فكان واعيا جامعا ، محيطا بالمثالب والمحامد والمغامز التى يكون بها النسب مفخرة أو وصمة تخزى صاحبها . بل كان بخفايا هذه المثالب عليما ، يدرى من أسرارها ما يحرص أصحابها على خفائه حتى لا يفتضحوا بها فتكون سبة الدهر .

ونسوق على ذلك ما أورده القيروانى فى كتابه « زهر الآداب » من أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب — وكان من أشعر قريش — هجا النبى محمدا بشعر مقذع :

« ... وما انتهى شعر أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الى النبى صلى الله عليه وسلم شق عليه فدعا عبد الله بن رواحة فاستنشده فأنشده ، فقال النبى :

— أنت شاعر كريم ...

ثم دعا كعب بن مالك فاستنشده فأنشده ، فقال النبى :

— أنت تحسن صفة الحرب !

ثم دعا بحسان بن ثابت فقال له :

— أجب عنى !

فأخرج حسان لسانه فضرب به أرنبة أنفه (متباهيا بطوله) ... ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمس أبا سفيان ، فقال النبى :

— وكيف ، وبينى وبينه القرابة التى قد علمت ؟ !

فقال حسان :

— أسلك منه كما تسل الشعرة من العجين !

فقال النبى :

ـ اذهب الى أبى بكر !

وكان أبو بكر أعلم الناس بأنساب قريش وسائر العرب ، وعنه أخذ جبير بن مطعم علم النسب . فمضى حسان اليه فذكر له أبو بكر معايب أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال حسان بن ثابت شعرا فضح به أبا سفيان فى أمه سمية وأم أبيه سمراء . فلما بلغه هذا الشعر قال :

ـ هذا كلام لم يغب عنه ابن أبى قحافة ! .. »

وهذا العليم بمثالب السادات ومغامزهم ما أحراه اذن أن يتوقى من الفعال ما تلحقه منه سبة يحفظها له نسابة من طرازه !

ولقد كانت سيرته فى الجاهلية مصداق هذه الاستقامة الملحوظة . فلئن كانت عشيرته « بنو تيم » لها التحكيم أو الضمانات فى الديات والمغارم ، فما كان كل تيمى مقبول الضمان فى جميع الاحوال . الا أبا بكر ابن أبى قحافة ، فقد قبلت قريش ضماناته كلها فى الجاهلية بالدية أو التعويض (المغارم) ، ولا يمكن أن يكون هذا قد أتاه جزافا عند قوم ما كان أقربهم الى اللدد واللجاجة فى الخصام ، وتمحل الاسباب للتلاحى عتوا وتجبرا . فلا بد للضامن المقبول أن يكون ذا دراية مفرطة وحساسية مرهفة لتفاوت الاقدار والعصبيات ، مع كياسة فى سوق الاسباب والتقديرات التى ترضى فريقين متغاضبين .

وفى هذه السمة جماع شمائل كثيرة من اللباقة وبعد النظر ودقة الموازين ، وكلها من أرهف السجايا التى يندر اجتماعها لشخصية واحدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، ولا سيما اذا أضفنا اليها الأمانة ورعاية الحق .

فغير غريب اذن أن نجد أبا بكر فى الجاهلية مشهورا بصدق القول والوفاء بالعهد ، يقيد به نفسه حتى عندما تكون له مندوحة من التقيد به لو أنه رام ما يبرر به أمام نفسه وأمام الناس ذلك التحلل .

وهل أحب أبو بكر أحدا وآثره على نفسه وأهله مثلما أحب النبى محمدا ؟ لا ولا ريب !

ومع ذلك لم يدفعه هذا الحب الجم الى التزحزح قيد أنملة واحدة عن سجية الوفاء بالعهد ، والقيام عند الوعد ...

هذا النبى محمد يخطب اليه ابنته عائشة . أرسل فى ذلك خولة بنت حكيم ، فخاطبت فى ذلك أم رومان والدة عائشة ، فكان طبيعيا أن يستطير السرور أبا بكر اذ يرى ابنته تملأ الفراغ الذى تركته خديجة بنت خويلد شاغرا أمدا طويلا ، وأن يرى فى ذلك آصرة تزيد ارتباطه بنبيه فيها من شرف المصاهرة ما يضاعف شرف المصاحبة . ولكن رجلا من رجالات المشركين كان قد خطبها قبل ذلك بسنين لابنه المشرك . فما أحسنها فرصة ليسل ثيابه من ثياب هذا المشرك ! وفى شركه عذر كاف لمثل أبى بكر بعد الذى لقيه ونبيه من عنت فى الاشخاص والاموال كي يستبدل الذى هو خير ما يمكن بما هو شر ومدعاة حرج واعنات .

ولكن معاذ مروءة أبى بكر !

ان أبا بكر خير من يشعر بهذا كله . وبأن الله بدله من شر خيرا عميما . ومن حرج شرفا وفرجا . ومع هذا قال لزوجه أم رومان :

ـ ان المطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه ...

وكأنما استشعر تمام المقابلة بين الضدين ، وأنه لا يليق بمثله أن يذكر هذا الخاطب المشرك أمام خاطب

هو نبيه الذى يفتديه بالنفس والنفيس ، فأردف ذلك بالمبدأ الذى اذا ذكر لم تعد المسألة مسألة مقابلة ومقارنة بين ما هو أدنى وما هو خير :

ـ ... والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط !

وتوجه الى مطعم بن عدى يسأله ألم يزل على رغبته فى تزوج ابنه من عائشة ؟ وأبدت امرأة عدى تخوفها وقلقها أن يؤثر أبو بكر على ابنها ـ وكان لم يزل حديث السن :

ـ ... أتصبئه يا أبا بكر وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

وأيدها زوجها فى هذا التوجس ، فكان ذلك حسب أبى بكر كى يجد انهما أحلاه من وعـــده ، فانه ما كان مستطيعا أن يعد بعـــدم « تبشـــير » زوج ابنته بدينه الجديد ، وهو الذى يبشر به ويدعو اليه كل من وجد فرصة للتحدث اليه من عرض النـــاس وخاصتهم ، فكيف بصهره وختنه اذن ؟

أما وهو عاجز عن شرطهما فهو فى حل من وعده . أما بغير هذا الشرط الذى اشترطاه فما كان شىء ليغريه بالنكول عن الوعد ، ولو أصهر الى مشرك فى الوقت الذى يمد اليه يده ـ من ؟! ـ نبيه للمصاهرة !

وعند هذه السجية نحب أن نقف قليلا :

ما مصدرها ؟

ما مدلولها ومؤداها ؟

ألعل مصدرها الـكرامة ؟

تقترن الـكرامة بصدق الوعد أجل ، بل هى قرينة له على الدوام ، ولـكن الـكرامة قـــد لا تكون المنبع الحقيقى لهذه السجية الـكريمة وان هى صاحبتها ، فهى صنو وليست بأصل .

فمن يصدق وعده عن كرامة على نفسه فحسب ، خليق أن يكون فى سلوكه بعامة عنجهية وعجب !

وما كذلك كان أبو بكر !

فلا يبقى الا أن يكون صدق الوعد المقترن بالوقار والدماثة نابعا من سجية نسميها « حب الحق » بالمعنى العام ، الذى يدفع صاحبه الى حب رعاية حقوق الناس جميعا . يوجب ذلك على نفسه ويقدمه على كل مصلحة له وان عظمت ! وعلى هوى النفس وان طاول شم الجبال وأربى فى الوزن عنده على رواسيها !

وهل من هوى نفس أعلى عنده وأرجح من حبه لنبيه ؟

ومع هذا فالحق أعلى من كل ذلك وأغلى وأجدر !

وتلك أولى السمات التى نجدها بكل صفائها فى أبى بكر سليل بنى تيم ، وان كانت تيم بظروفها وقلة ناصرها وسعيها بالتجارة وتوسطها بين ذوى الاقدار والاموال لا نعرف فى عامتها هذا التقديس النقى لمطلق معنى الحق ، ومطلق معنى الصدق ، وقصاراها أن تقوم فى تجارتها وحفظ كيانها على المصانعة ورعاية حدود الناس ، وان يرعى الناس حدودها ، وهى بحاجة الى هذه الرعاية وسط الجبابرة من بنى الاعمام ...

فكأن مناخ تيم فى هذه الخصلة تجمع فى أصفى نطفة منها ، كما يتجمع المناخ الذى يصنع الفحم فى باطن الارض على أصفى وأندر ما يجتمع عليه لتكون وسط طبقات الفحم ماسة نادرة الصفاء ...

وعلى مثل هذا النقاء كان أبو بكر فى خلقه هذا من تقديس الحق لذاته ، ومن الصدق لذاته ، ومن الوفاء بالوعد لذاته .

ونقول مرة أخرى انه تقديس مطلق الحق ، وليس

الـكرامة فحسب مصدر هذا كله ، لانه لم يكن صاحب عنجهية وعجب ممن لا غاية يرمون اليهـا الا اثبـات ضخامتهم وانفتهم ووزنهم الشخصى .

بل كانت الدماثة ـ وهى نقيض الـكبر والعجب ـ صفته التى اشتهر بها أكثر من كل صفة بين معاصريه والمعجبين به من غير معاصريه على السواء .

لم يكن أبو بكر يدافع احـدا الا بالتى هى أحسن ، اللهم الا أن يكون الامر متعلقا بما لمطلق معنى الحق من قداسة ، وأن يكون التطاول فى استخفاف لا بشخص أبى بكر بل بسلطان يمثله أبو بكر . وفيما عدا هذا فهو الى المسالمة وخفض الجانب .

ولقد يتحرش به الرجل من الاجلاف فلا يرى ذلك شيئا ، ولا يحسبه مدعاة لغضب .

قال له رجل ذات مرة :

ـ لأسبنك سبا يدخل معك قبرك !

فما زاد أبو بكر على أن قال :

ـ بل معك والله يدخل لا معى !

فكانت هذه الـكلمة الهادئة عقابا أوجع ودرسا أنفع للكافة من الف غضبة مضرية « هتكت حجـاب الشمس أو تمطر الدما » !

وقد يقال ان هـذه الدماثة رويت عن أبى بكـر فى الاسلام ...

ونقول نحن :

لا يكون الرجل فى الاسلام على سجية نفسية تناقض سجاياه الاصلية . انه قد يتغير بالـكف عن هذا الامر أو ذاك بسبب التحريم ، أما أسلوب معاملة الناس مما ليس فيه تحريم فمرجعه الى طبيعة النفس ذاتها أو المزاج النفسى . فالرقيق يكون رقيقا ، والخشن يكون

خشنا . والبخيل بخيلا والكريم كريما ، والحساس للجمال حساسا للجمال وهلم جرا ...

وما نحسب نجاح أبى بكر فى تجارته ، ثم فى احترام رأيه فى الديات والمغارم ، ثم فى اقتناع الكثيرين من السادات بعد ذلك بالاسلام ، ما كان هذا كله ليتفق له لولا الكياسة والدماثة الاصيلتان فيه .

ولننظر الى رأى المشركين فيه حين أسلم ، وما أظنهم مهتمين بالتحيز لأبى بكر :

يروى ابن هشام ان الاضطهاد حين كثر على أبى بكر استأذن فى الهجرة الى الحبشة ، فلقيه فى بعض الطريق ابن الدغنة وهو يومئذ سيد الاحابيش فقال له :

ـ الى أين يا أبا بكر ؟

قال أبو بكر :

ـ أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على !

قال ابن الدغنة :

ـ ولم ؟ انك لتزين العشيرة ، وتعين على النائبات ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم . ارجع فأنت فى جوارى ! ..

ذلكم كان رأى أهل الشرك فى أبى بكر ! ؟

والفضل ما شهدت به الاعداء !

من الظاهر إلى الباطن

هذا الانسان النسابة الدمث المقبول الحكم والضمان، المتزن الرأى ، المعين على النوائب ، الخبير بالتجارة ، القصير المعروق الاحدب ، أى رجل كان تحت هـــذا الظاهر البادى للعيان ؟

ثمة اجماع على انه كان دمثا .

يقول ابن هشام :

ــ وكان أبو بكر رجلا مألفا (يألفه الانسان) لقومه . محببا سهلا ... وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته .

ولــكن أى شىء تحت هذه الدماثة ؟

لا يبدو ما تحت الظاهر من الكوامن الا حين يمتحن هذا الظاهر بما يحتك به احتكاكا قويا . فان كان تحته ما يخالفه انقدح كالشرر أو انفجر كالنوافير من تحت الصخر أو كالبراكين من تحت التلال التى كانت تبدو لمرأى العين مكســوة بالبســاتين والرياض الوادعــة اليانعة !

فهل كان فى حياة أبى بكر فى الجاهلية ما أتاح لدماثته وصبره هذا الامتحان الثاقب ؟

قليل من أخبــار جاهلية أبى بكر ما أتانا فى هــذا

السبيل . ولكنه القليل الذى ينبئ عن كثير، وفى تأمله ما قد يحدثنا بأن دماثته لم تكن مثل سائر الدماثة انسياقا محضا وباطنا خاويا من كل ما يخالف الظاهر المألوف فيه وفيمن حوله من أترابه وأهل عشيرته الاقربين والابعدين ...

نشأ أبو بكر فى عاصمة الاوثان مكة .

ولكن أبا بكر لم يكن ممن انساقوا مع التيار ، فلم يعكف كما عكف أهل بيئته على الاوثان . وفيما وصل الينا من خبره انه لم يسجد لصنم قط . وتحدث عن ذلك فقال :

« لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدى فانطلق بى الى مخدع فيه الاصنام فقال لى : « هذه آلهتك الشم العوالى ! » وخلانى وذهب. فدنوت من الصنم وقلت :

ـ انى جائع فأطعمنى !

فلم يجبنى الصنم فقلت :

ـ انى عار فاكسنى !

فلم يجبنى . فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه ! »

وقد تصدق هذه الرواية بحروفها أو قد لا تصدق. ولكن مدلولها يبقى ناطقا بمطابقته لواقع الحال الذى وصل الينا عن أبى بكر بن أبى قحافة :

فالامر الذى لا موضع للشك فيه ان أبا بكر المسلم لم يكن خلقا طارئا لا عهد للعالم به قبل يوم أعتناقه الاسلام . بل هو امتداد على نحو متطور لأبى بكر الجاهلى ، بل انه ما كان ليسلم على النحو الذى أسلم به الا لأنه ذلك الشخص المعين بالذات الذى عرفه الناس فى الجاهلية . فمكونات شخصيته وهو جاهلى هى التى حددت أسلوبه فى مواجهة الاسلام .

ان التكوين النفسى المعين هو الذى يجعل صاحبه ذا

موقف معين ازاء كل موقف خطير فى حياته وحياة قومه ـ كما كان ظهور الدعوة الاسلامية بلا ريب ـ وما كان إختلاف الناس فى مكة يومئذ بين منكر أو معرض أو غير مكترث أو متردد أو ناقم الا لاختلاف تكوينهم النفسى. ويدخل فى هذا التكوين النفسىعنصر الظروف الاجتماعية والنفسية بطبيعة الحال .

فلو لم يكن أبو بكر ذا تكوين نفسى فريد فى جاهليته لما كان موقفه من الاسلام ذلك الموقف الذى تفرد به...

وحين تعوزنا معرفة كافية بجذور الشجرة لن نضل اذا التمسنا معرفة نوعها وصفاتها من الثمرة التى تتمخض عنها .

« لأن من الثمر تعرف الشجرة » .

كلمة السيد المسيح ـ وما أصدقها ! ـ فى موعظته المشهورة .

وقد وعى لنا التاريخ عن أبى بكر الجاهلى ما عرفنا منه سماته الظاهرة . ونحن خليقون أن نجد فى «ثمرة» حياته على عهد الاسلام ما يطلعنا على ما هو خاف تحت هذا الظاهر ، فتنفذ نظرتنا الى سماته الباطنة بعد سماته الظاهرة .

ونبدأ بعلاقته بالاصنام قبل الاسلام ، تلك العلاقة التى انحدرت الينا عنها هذه الرواية ، فنقول انها ـ صدقت بحروفها أو لم تصدق ـ مطابقة للسان الحال ان لم تطابق لسان المقال ...

وفى رواية ابن هشام أن النبى قالعن اسلام أبى بكر:

ـ ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد . الا ماكانمن أبى بكر بن أبى قحافة ، فماعكم (ما انتظر) حين ذكرته له وما تردد فيه !

وتلك أولى الثمرات التى أنبتتها شجرة سلخت من

عمرها فى زمن الجاهلية قبل ذلك نيفا وسبعا وثلاثين سنة !

وهى ثمرة ذات طعم فريد بين الثمار التى طاب جناها فى الاسلام .

فلماذا كان هذا بالذات موقف أبى بكر دون سواه ، ان لم يكن لسبب أصيل فى تكوينه أيام الجاهلية تفرد به أسلوب تفكيره ونظرته الى الوثنية ؟

لقد كان سلوكه فى هـــذا سلوك الغريق أنس طوق النجاة . فما « عكم » أن تشبث به تشبثه بعين الامل فى الحياة !

هذا شأن رجل انطوى على « غربة نفسية » شديدة فى عالم الاوثان . وأضمر لها ازدراء عميقا عايشه أمدا طويلا . ومحال أشد المحال أن يكون تصرفه هذا من وحى الساعة بغير مقدمات وتمهيدات سابقة .

ثم نعود الى صفاته المألوفة : كان سهلا محببا دمثا يألفه الناس ويودونه ويثقون به .

ولو كانت دماثته هـــذه دماثة انقياد ومحض تعلق بالناس وتحبب اليهم لـكان حريا أن يعرض عن دعوة ثورته عداء الناس وتقطع مابينهم وبينه من الفة وتواد.

ولكنها دماثة البـــاطن السـخى الثرى الذى تفيض منه المودة عن احساس عميق بالاخاء الانســـانى وعن سعة أفق وبعد عن الاثرة ...

انها دماثة الوجدان الحار والعاطفة الدافئة والحماسة للخير والرحمة .

فالدماثة هنا فرع وليست أصـــلا . ومظهر لطيف لباطن محتدم شديد الاكتراث لقيم تتجاوز الاشخاص ولا تراهم الا فى الضوء الباهر لهذه القيم .

وهذا هو التفسير الوحيد المقبول لدى العقل لاقدام

ابي بكر بغير تردد على تعريض كل علاقاته الدمثة للخطر، والمجازفة بالمودة والالفة التى عاش فى ظلالهما .

ايثارا لأى شىء ؟

ايثارا لما كان عنده على الدوام — وان خفى عن عيون الناس التى لا تتجاوز الظاهر — أرجح من الدماثة ومن الاشخاص . ايثارا للقيم التى أحسها وأحس ان الاوثان هيهات تمثلها . وانما هى تسد الطريق اليها وتشغل الناس بالاباطيل والترهات ..!

وعلى ظمأ شديد طويل وجد من يقرب اليه المـاء . فكيف يتردد فى ورود المنهل ؟

« من الثمر تعرف الشجرة » .

ومن أسلوب استجابته الفورية للاســلام نعرف أى رجل كان ذلك الجاهلى الدمث . ونعرف أى حماسـة كانت تحتدم احتداما تحت دماثته التى لم يأنس منهـا عارفوه الا ظلا ظليلا وبردا وسلاما ...

تلهف لا يعرف التوقف .

تلهف لا يبالى ما يكون . وكأنه يدوس كل ما كان يبدو للناس أنه يحرص عليه : فها هو الرجل الدمث يودع الامن والسلامة والدعة ويستقبل الويل والثبـور بلا تردد !

انها اذن ليست دماثة الضعيف المستكين الذى يلوذ بالوداعة فزعا من الاهوال والصعاب .

كلا !

وانما هى دماثة مقصودة من رجل هو على غير الدماثة قادر ! وانما هو ايثار للموادعة والمودة من رجــل هو لغيرهما مستطيع !

دماثة ومودة هما فرع وليسا الاصل فى تكوينه . أما الاصل فحماسة لمطلق معنى الحق ومطلق معنى القيمة.

وشعور بالوحشة فى دنيا الاصنام الجاهلية حتى لاح له المرفأ الامين ، فارتمى عليه لا يبالى بعد ذلك ما يكون !

هذه الحرارة والحماسة ، انهما دلائل أخرى ومسارب شتى فى تكوين هذا الرجل القصير المعروق ، الذى تكاد تقتحمه العين لولا وقار فيه ؟

يروى المبرد فى كتابه الكامل حادثة ذات دلالة خاصة ، يقول : « حدثنى العتبى فى اسناد ذكره قال : دعا طلحة بن عبيد الله (أحد السابقين الثمانية الى الاسلام ومن أخص أصدقاء أبى بكر) أبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رحمهم الله . فأبطأ عليه الغلام بشىء أراده . فقال طلحة :

ـ يا غلام !

فقال الغلام :

ـ لبيك !

فقال طلحة :

ـ لا لبيك !

فكف أبو بكر عن الطعام وقال :

ـ ما يسرني أنى قلتها وان لى الدنيا وما فيها !

وقال عمر :

ـ ما يسرنى أنى قلتها ولى نصف الدنيا !

وقال عثمان :

ـ ما يسرنى انى قلتها ولى به حمر النعم ! (اكرم أنواع الابل)

وصمت عليها طلحة فلما خرجوا من عنده باع ضيعة بخمسة عشر ألف درهم فتصدق بثمنها كفارة » .

ولم يكن ما حدث بين طلحة وخادمه بالامر الغريب بمقاييسنا العصرية ، بل لعله أخف بكثير من قول بعضنا

لخادمه حين يضيق به لكثرة قوله « حاضر » من غير أن يحضر :

ـ لا أحضر الله لك الخير !

ولكننا نرى أبا بكر يثور بصديقه ومضيفه عن شعور بالاخاء للخادم ورفقا به وكراهة للخشونة على هوان أمرها ويقول مستاء :

ـ والله ما يسرني اني قلتها وان لي الدنيا وما فيها!

أما عمر فكان حسبه أن ترجح عنده هذه الكلمة الجافية نصف الدنيا !

أما عثمان رجل المال والاعمال الذى يعرف قيمة ما يملك فما زادت عنده هذه الكلمة على كرائم الابل وأغلاها ثمنا وكأنه يوشك أن يؤديها من حر ماله نقدا وعدا .

وقد تصح هذه الواقعة التي أوردها صاحب كتاب « الكامل » أو لا تصح بحذافيرها . ولكن الموضوع الذى تصوره الرواية ـ وهو الرأى فى هؤلاء السادة الكرام ومقدار ما فى خلقهم من مكرمة ـ يبقى صحيحا .

ففى أقل القليل ان الناس كانوا يعهدون فى أولئك الثلاثة خفض جانب وكراهة للفظاظة وحبا شديدا للرحمة والرفق بالضعفى وصغار السن ممن تحت أيديهم .

هذا واضح . ولكن أمرا آخر وراء هذا لابد من التنبه اليه : فها هنا ترتيب تنازلى لاستنكار كل واحد من الائمة الثلاثة للعنف مهما كان يسيرا .

فنحن هنا أمام ثلاث درجات من حرارة عاطفة الاستنكار والرحمة بعضها فوق بعض . أدناها ذلك الرجل المدقق المشتغل بالحياة العملية على ثراء فيه وكرم خلق . فهو يستنكر ولكن بحساب . ويسخو

سخاء كبيرا مما يملكه فعـــلا لا على ســـــبيل الفرض والتخيل . ويذهب فى التضحية الى الحد الذى يطيقه من المال المعدود الناجز ...

وعمر رجل فيه حرارة الاندفاع ، ولـكنه لا ينسى فى حرارة اندفاعه واقع الدنيا فلا يتطرف فى استنكاره كل التطرف ...

اما صاحبنا : اما أبو بكر الوقور الدمث ، فها هنا اندفاع لا يحسب حسابا لشىء الا مطلق معنى الحق ومطلق قدسية القيمة .

وهكذا مرة أخرى نجد أنفسنا عند سلوك واحد بعينه وكأن نفسه قوس مشدودة تدمى عن منزع واحد !

هذا الرجل التاجر . العملى . المجامل . ما باله فى مواقف بعينها متطرفا مسرفا فى المثالية ؟!

لقد أحصينـــا مثاليته فى التمسك بالوعد . ولمن ؟ لمشرك كبير خطب لابنه ابنته وذلك حين جاءه خاطبا لها محمد بن عبد الله بقضه وقضيضه !

واحصينا مثاليته وتطرفه فى الاستنكار بحرارة تنم على ان العاطفة عنده متى استثيرت تملك صاحبها ولا يملـكها صاحبها !

فها هنـا رجل يحب الرفق ويحرص عليه ولـكنه يغاضب صديقه الحميم ومضيفه وهو فى داره لهـذه الهنة الهينة حتى انه يبرأ من قولٍ مثلها ولوِ أعطوه بها الدنيا وما فيها !

رفق شديد يعبر عنه أبو بكر فى هذا الموقف بحرارة شديدة وحدة شديدة .

ولـكنها ليست حدة الخشونة ، بل حدة الرحمة .

سمة ما أبعدها عن سمات التجار. وحرارة ما أبعدها عن حساب الربح والخسارة وتدبر العواقب على طرفى

الطمع والجزع .

او ليس عن هذه السمة صدر حين أسلم ، ما عكم وما تردد وما أحجم ، وترك مستقبل علاقاته وتجارته ومكانته تعصف بها الرياح الهوجاء ؟

بلى والله !

وانها لسمة تظهر كلما تعلق الامر بمطلق معنى الحق ومطلق قدسية القيمة .

وبعبارة أخرى :

انها قدسية المبدأ ...

فهذا التطرف نلمسه فى موطن الارتباط بالعهد . وفى موطن الرحمة للخادم أو العبد . أفلا نعهــده فى موطن ازدراء أوثان شوهاء ؟ أفلا نعهده فى موطن الايمان بقادر فاطر الارض والسماء ؟

ما أقرب هذا الى العقل !

ومع ذلك فنحن نؤثر أن نستأنى لننظر فى بقية جوانب نفسه ، لنرى هل هذه السمة الحارة المتدفقة بالحماسة بمعزل عن جانب منها دون جانب ، أو هى فاشــية فى تكوينه كله .

فاجتنبوني !

ان الاخبار عن حرارة طبع أبى بكر متــواترة · تأخذ الدارس من كل فج وصوب · فها هو الطبرى يقول :

« نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ــ ليتم بعث أسامة ! الا لا يبقين أحد من جند اسامة الا خرج الى عسكره بالجرف !

« وقام أبو بكر فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال فيما قال :

ــ ... فان اســتقمت فتــابعونى . وان زغت فقومونى . ألا وان رســول الله صلى الله عليه وسلم فيض وليس أحــد من هذه الامــة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها ! »

وهذا كلام واضح منه لــكل ذى عينين أن صاحبــه « رجل مبدأ » . المبدأ عنده هو القائم . وهو السلطان الاعلى والمعيار الاوحد . وامام سلطان المبــدأ يستوى جميع الناس . حتى « خليفة رســول الله » . فان استقام ــ اى التزم المبدأ وهو هنا القانون الدينى ــ فعلى الناس طاعته ومتابعته فيما يأمر به . وان زاغ عنه فلا تهاون معه . وعلى التاس أن يتحولوا من متابعته وطاعته الى تقويمه .

المبدأ أو القانون له السيادة المطلقة على الجميع !

ويشفع هذا بالحجة الدامغة والمثل الناصع : فهذا « رسول الله » لم يكن استثناء من هذه القاعدة — على مكانته التي ليست مثلها عند الناس ثمة مكانة — فقد أبى محمد الا أن يعرض على الناس فى خطبته المشهورة الاقتصاص من شخصه حتى مات « وليس أحد من هذه الامة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها ! » فكيف يحق لأى أحد من هذه الامة — ولو كان « خليفة رسول الله » — أن تبدر منه مظلمة في حق أحد من غير تقويم يصان به المبدأ وتتأيد به حرمة القـــانون ويتعزز به سلطانه الذى يرتفع فوق الاشـــخاص مهما أوتوا من سلطان ؟

الى هنا والموقف ناطق بأن أبا بكر كان رجل مبـدأ الى آخر حد . ولـكنه لأمر ما شـــفع تلك العبارات بعبارة تبدو من مستوى جديد . قال :

— ألا وان لى شـــــيطانا يعترينى . فاذا أتانى فاجتنبونى !

وانها لدعوة باعثة على الحيرة بين مطلبين متتاليين فى نفس واحد وسياق واحد :

أن زغت فقومونى !

واذا أتانى شيطانى فاجتنبونى !

كأنما هو ينبه الناس الى الفارق الحاسم — على الرغم من تشابه المواقف — بين الزيغ المـألوف وبين ما سماه شيطانا يعتريه ...

وهو لم يكن يعنى بالشيطان الا حدة بالغة فى الغضب وغليان الطبع والاندفاع فى بعض المواطن .

وما من شك فى أن التعبير بهذا اليسر الشـــديد عن حدة الطبع بأنها شيطان يعتريه يدلنا على أمرين : انه

حدة معهودة فيه لا يستغرب عارفوه أمرها فهى عندهم مفروغ منها ، وانها شديدة شدة بالغة لا يجد لها تأويلا أو تشبيها الا مس الشيطان ، ذلك انها تتجاوز كل حد.

وهذا حرى أن يدلنا على أمر ثالث لازم عما تقدم : انها حدة جامحة تعيى من يحاول كبح جماحها اذا غلت مراجلها وقذفت بحممها •

وعندئذ يستقيم السياق وترتفع الحيرة فى أمر الجمع بين طلب التقويم وطلب الاجتناب : فهو يقول للناس أن زغت فقومونى ، اللهم الا أن يكون الزيغ من قبيل تلك الحدة التى عبر عنها بفعل الشيطان لشدة عتوها ، فلا جدوى عندئذ من محاولة المعارضة والتقويم ، ولا حيلة للناس الا النجاة من عرامها باجتنابه حتى تزول عنه الغاشية ويثوب الى حاله التى يملك فيها عاطفته المتطامنة ولا تملكه فيها عاطفته الجامحة .

ونرى ابن أبى حديد ــ شارح نهج البلاغة ــ يستهول تعبير أبى بكر المجازى ويرى لزاما عليه أن يخفف وقعه على الناس ويرفع ما قد يكتنفنه أو يجره على بعض الأذهان الكليلة من اللبس ، فيقول :

ــ انما أراد بالشيطان الغضب • ولم يرد ان له شيطانا من مردة الجن يعتاده وينوبه ، والا لكان فى عداد المصروعين من المجانين . ما ادعى أحد على أبى بكر هذا ، لا من أوليائه ولا من أعدائه !

وهو احتراز حسن . وان لم تكن به لذوى الالباب حاجة .

ولكن يا له من غضب هذا الذى يلم بأبى بكر فلا يجد ذلك اللبق البليغ الا التعبير عنه على رءوس الاشهاد بأن شيطانا يعتريه ! وينصح الناس بايثار السلامة باجتنابه عندئذ بعد أن نصحهم مباشرة بالتصدى له أن

زاغ وانسوا منه انحرافا ! وانما هى الجائحة التى لا حيلة ولا لأحد فى كفها الى أن تزول كما تنتهى صـولة الاعصار !

ولـكن هذا الوصف لحدته ينبؤنا بشيء آخر : ان ذلك الغضب العاتى لم يكن يعتريه كثيرا. وانه فى مجموع سيرته والمعهود المألوف من أمره يبغض ذلك من نفسه أشد البغض ، وهو أول من ينكره ويعوذ منه ويبرأ ، وان لم يجد فيه حيلة الا نصح الناس بالابتعاد عنه .

وفى الـكناية عن هذا الجموح بالشيطان مغزى قوى : انه شيء لا يفهمه وانما يحس انه فريسة قوة مجهولة مسيطرة عليه لا يملك لها دفعا . فكأنه ليس الغاضب على الحقيقة ، وبالتالى ليس هو الجانى بل هو مجنى عليه كمن يستولى عليهم شيطان من الجن !

وأما فيما عدا هذا فهو كما قال عنه ابن عباس :

ـ كان أبو بكر خيرا كله ، على حدة كانت فيه !

فالخير فيه ظاهر . والحدة فيه ظاهرة !

وليست تعنينا « الحدة » هنا لذاتها فحسب ، بل هى تعنينا بالاكثر لمدلولها الـكامن فى عامة طبعه وعناصر تكوينه أو نسيجه النفسى .

ويردنا هـذا الى الكلام عن معـادن الناس ومراتب وجودهم ولو تساووا فى المدارك والمعتقدات .

أبو بكر رجل مبدأ .

والمبدأ ، أو الحق المطلق ، قيمة القيم عنده .

ولكن هل كل من يدركون المبدأ أو يعرفونه سواسية فى معادن النفوس ، أو « مراتبها » ؟

أجل يردنا هذا الى الكلام عن مراتب الوجود البشرى. فكما أن الحيوان ليس كله رتبة واحدة فى كمالات الوجود. كذلك نوع الانسان ليس كله رتبة واحـدة فى كمالات

وجوده التى يمتاز بها على سائر الحيوان .

قد نقول أن لدى الناس كلهم « استطاعة » ادراك الحق المجرد والقيمة المجردة . لكن هـــذه الاستطاعة لا تخرج عن كونها مثل غيرها من الاستطاعات البدنيـــة والمعنوية .

ونوضح هذه المسألة بمثل نضربه من الامور المـادية التى يشترك الناس كافة فى استطاعتها من غير أن يعنى ذلك بالضرورة انهم سواء فى مدى هذه الاستطاعة اى فى « رتبتها » .

وليكن المثل الذى نضربه هنا : « الجرى »

فكلّ انسان سليم الاعضاء فى استطاعته أن يجرى . ولكن من هؤلاء من يبلغ فى هذه الاستطاعة حد القدرة الفائقة التى تجعل منه بطلا ســـباقا ، ومنهم من يأخذه البهر بعد أمتار قليلة . بل ان الخيل — وهى حيوانات الركض والسبق — ليس كلّ حصان منها يصلح لميادين السباق ، وفى الســـباق تتفاوت المراتب بين الخيول تفاوتا ترتفع بعضها باستطاعته الى قمة القـــدرة ويهبط باستطاعته بعضها الآخر الى حضيض العجـــز الذى يكاد ينفى عنها صفة الاستطاعة أصلا .

ومثل ذلك يقال فى الاستطاعات الحسية التى تحتاج الى مواهب خاصة كالرسم .والغناء والعزف والفروسية. فما كل من خلط الالوان صاحب فن يعتد به . وما أشد التفاوت فى مجالات هذه الفنون بين القمة والحضيض.

وكذلك الحال فى شأن ادراك الحق ، اى المبدأ .

فكلنا مستطيعون — فرضا — أن ندرك الحق أو نفقه المبدأ . بيد أن ثمة تفاوتا بين طرفى مدى الاستطاعة هنا كما هو الحال فى كل استطاعة أخرى مما ضربنا له مثلا فيما تقدم .

فاذا ارتقينا الى مرتبة من يحسنون ادراك الحق باعتباره قيمة القيم أو المبدأ الاوحد لم نجد هؤلاء سواسية أيضا فى لواحق هذا الادراك الذهنى ، فما كل واحد منهم بحريص على التزامه فى سلوكه ذلك الالتزام النابع من الايمان الحقيقى بالقيمة أو المبدأ ، التزاما ترتخص فى سبيله الشهوات والمنافع والمطامع . بل أن منهم من يدرك الحق أو المبدأ بذهنه كل الادراك. ولكنه « يملك » هذا الادراك امتلاكه الدينار أو السلعة من شتى العروض التى يقتنيها الناس . فلكل سلعة منها قيمة تجارية ـ أى ثمن ـ يماكس بها ولا يتردد فى بذلها ان بدا له فى المقايضة عليها ربح مجز حسب تقديره واعتباره .

وما هكذا الاعتقاد والايمان .

شتان !

صاحب السلعة تاجر : القيمة عنده مسخرة فى خدمته .

وصاحب العقيدة أو المبدأ عاشق أو عابد يضع نفسه فى خدمة القيمة بدون شرط أو قيد .

فبين مدركى الحق اذن فئتان :

فئة من يدركونه بعقولهم ولايدخل الايمان به قلوبهم . فهؤلاء لا يصبح الحق عندهم مبدأ أو عقيدة ، بل هم يتاجرون بما أدركوه بالبيع الصريح تارة ، وبالبيع الضمنى تارة أخرى ، وذلك فى صور من التجاهل احيانا ، ومن التواطؤ على الاهدار والانكار فى أكثر الاحيان ...

وفئة من يدركونه بعقولهم فيتحول لديهم الى مبدأ يستولى على وجدانهم كله . أو هم يدركونه بوجدانهم منذ البداية فيتجردون له ، بل يعيشون له ويمتنع

عليهم أن يكونوا له منكرين صراحة أو ضمنا .

ومن هذه الفئة الثانية أبو بكر ...

ولكن هذه الفئة التى تؤمن بالحق المطلق قيمة تنسخ جميع الرغائب من لذة أو منفعة أو مطمع أو سلطان ليست أيضا سواسية فى الاستمساك بالمبدأ : فمنهم من يرقى فى ذلك الى مراتب الشهداء بما يلاقيه فى سبيل التزام عقيدة الحق ، لا يهادن فى ذلك ولا يساوم . ولا يتزحزح قيد شعرة . ومنهم من يؤثر السلامة ويقول عند شبهة البلاء والمحنة : اللهم قد أعذرت ! ثم يكفيه من الصبر على المكروه فى سبيل المبدأ جهد المقل . وهؤلاء أصحاب « التقية » الذين يملكون عواطفهم دائما، ويرخصون لانفسهم اتقاء المكاره ودفعها باصطناع التنكر لما يضمرون من الاعتقاد .

وما كان من أصحاب التقية أبو بكر !

بل كان من المطبوعين على الشهادة ، وان لم يؤت الشهادة !

والى تكوينه النفسى « الحار » وطبيعته الوجدانية المتقدة نرجع فى تفسير هذا المنحى .

وهذا يردنا الى حدته التى سماها احيانا شيطانا يعتريه ، فلا تكون له ولا لغيره حيلة فيه .

فهل كانت هذه السمة آفة طارئة عليه ، أو هى عارض من عوارض سجيته الفطرية ؟

من الناس من يملكون عاطفتهم حين تجيش ، ومنهم من تجيش عاطفتهم فيملكونها ما استطاعوا ثم تربو فى جيشانها فاذا هى كالبركان تملكهم حينئذ ولا يملكونها .

ومن هذا الطراز كان أبو بكر :

كان حارا كله : يفعل الفعل ويرى الرأى بكيانه كله ، لأنه رجل مبدأ ، ورجل مبدأ من الطراز الذى يضع

نفسه باجمعها فى خدمة مبدئه لا يعرف فى ذلك توسطا.
وانما جبله على ذلك من جعل مزاجه حارا جياشا لا يستطيع أن يقف من شيء موقفا وسطا ان مس مبداه . وهو يعرف فى نفسه هذه الحرارة فيبذل جهد المستميت لضبط نفسه ويفلح فى معظم الاحيان ، حتى اشتهر بالدماثة وطول الاناة والحلم !

من النقيض الى النقيض !

فلا بد للمحرك القوى من ضوابط قوية محكمة والا تعرض كل شيء للعطب والهلاك !

رجل من بنى تيم .

فى قلة نفر ، وصفر قامة ، حرفته التجارة ، وعمله متصل بالتحكيم والضمان والعدل ، وصلاته بالناس ينبغى لها الوقار والكياسة واللباقة .

صفات حسنة فى ظروف دقيقة .

ولكن يزيد من جلالها ان صاحبها مجبول على ما يضاد اكثر هذه السجايا . ومن هنا كانت حاجته الى ضبط نفسه أشد ، وكان فضله فى قدرته معظم الوقت على سريرته العاتية أعظم ، فكأنه يسوس فى معظم وقته العواصف ليجعلها ريحا رخاء ، ويروض الحمم ليجعلها بردا وسلاما !

كان وجدانا كله .

فاذا رق أسرف في الحنان ، وما أسرع ما تفيض بالدمع عيناه !

واذا ترفق غضب للضعيف واستنكر الخشونة والاستعلاء الهين حتى تحمر بالغضب عيناه .

واذا آمن كان فارس العقيدة الذى يقدم النفس والنفيس فى سبيل نصرة اعتقاده .

واذا استثيرت غيرته على المبدأ أو أحس استهانة به

لم يكن لغضبه حد ، حتى لينسى ضعف جسمه ورقة تكوينه وما يكتنفه من يأس ، فكأنما اعتراه شيطان !

رجل المبدأ هو .

ولكنه رجل المبدأ من طراز خاص : طراز النفس الجياشة التى يضبط أوامها فيكون قوة منظمة فاعلة بناءة جبارة .

وليس أدل على هذا الضرام المحتبس فى دخيلة التكوين من شواظ يصوره بلسانه أنه من قبيل فعل الشياطين !

وهكذا أسلم !

ثمة اتفاق على أن أبا بكر كان أول من أسـلم من الرجال . وان على بن أبى طالب كان أول من أسلم من الصبيان . وان زيد بن حارثة ــ الذى كان يعرف يومئذ باسم زيد بن محمد بالتبنى ــ كان أول من أسلم من الموالى . وأن خديجة بنت خويلد زوج محمد كانت أول من أسلم من النساء .

وكل هؤلاء ــ باستثناء أبى بكر ــ من خاصـة أهل بيت محمد ، لأن محمدا كان يكفل على بن أبى طالب ويربيه فى بيته وتحت كنفه ويعوله تخفيفا عن عمه أبى طالب لـكثرة عياله وقلة ماله .

فاذا أضفنا الى هذا ما رواه ابن هشام من أن النبى قال :

ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، الا ما كأن من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له وما تردد فيه !

اجتمعت لنا قضيتان :

أولاهما : ان أبا بكر كان أول من أسـلم من خارج خاصة أهل بيت محمد .

وأخراهمـا : ان أبا بكر لم يتردد ولم يجادل ، بل أسلم من فوره منذ عرض عليه محمد العقيدة الجديدة.

وما كان أبو بكر بالغر الســاذج الذى له من حداثة السن نزق أهوج . فاندفاعته وهو فى السابعة والثلاثين أو يجاوزها بشهور اندفاعة ذى بصيرة يدرى ما يفعل !

وليس بكاف هنا فى تفسير اندفاعته تلك أن العقيدة الجديدة راقته ، وانه كان ينطوى على ضــيق بالوثنية وازدراء لــكل ما تمثله من عقيدة ويترتب عليهــا من سلوك .

كلا !

فغيره كثيرون راقتهم العقيدة وكانوا يضمرون ازدراء للأوثان ، ولــكنهم ترددوا وانتظروا .

ويقول البعض أنه انما فعل ذلك لانه « لاموانع » لديه من قبول الاسلام فلا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة.

فهل حقيقة لم تكن فى حياة أبى بكر موانع تمنع أى رجل سواه فى مثل ظروفه من اعتناق الاســلام لأول وهلة وبغير تردد أو انتظار أو كبوة ؟

لقد عرفنا من أمر أبى بكر فى الجاهلية انه كان ــ على حد تعبير ابن هشام ــ « رجلا مألفا لقومه ، محببــا سهلا . وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته » . وكلها صلات اجتماعية واقتصادية وثيقــة تربطه من حيث العاطفة والمصلحة والمعــاش والمــكانة بالمجتمع الذى يعيش فيه .

ثم هو رجل من تيم . وهى التى وصفها أبو سفيان بأنها « أذل قبيلة فى قريش » . وقد يكون أبو ســفيان مبالغا فى ذلك ، ولــكنها ليست من أعز القبائل وأكثرها مناعة وسطوة وثراء ونفوذا على كل حال .

فرجل مثل أبي بكر عرك الدنيا لا يمكن أن يفوته معنى الخروج على ديانة الجماعة الى دين جديد لا عهد للناس به يسفه أحلامهم ويسب آلهتهم ، وانما هو تقطيع العلائق الوثيقة وكساد التجارة ، وتبدل الانس وحشة والمودة عداوة،وسقوط المكانة وضياع الهيبة، والتعرض للمهانة والايذاء فى النفس والمال . وليست له منعة من العدد العديد أو السطوة أو المعاظلة بالنسب الشامخ !

هي حيـــاته كلها اذن من جميع وجوهها واقطارها تتعرض لما يقلبها بالاقدام على الاسلام رأسا على عقب ، وبغير أمل فى حماية أو صيان .

ثم هو أول داخل فى الدين الجديد فهو لا ينتظر أن يجد فيه رفاقا يبذلون له الحماية ويكفلون له المنعة . وانما هو يترك الدعة الى الاضطراب ، والامن الى الهول، والكرامة الى الويل ، ونفاق التجارة الى احتمال الكساد والمقاطعة .

أفتكون فوق هذه كلها موانع عند رجل فى مثل حاله وموضعه ؟

لا أظن !

وما هو بالحدث الغر حتى يقتحم الهول اقتحاما اعمى غافلا عما كان من أمره وما سيكون !

فما سر هذا الاسراع ، الذى نصفه بالاقتحام ولا يكفى فى وصفه الاندفاع ؟

هذا الوقور الألوف المحبب الى قومه لا يمكن الا أن يكون قد لمح كل عناصر الموقف فى فطنة ، وما كان يضيره أن يتريث ويتدبر ـ ان استطاع ! ـ ولـكنه أقدم . بل اقتحم !

لا تفسير يقبله العقل أمام هذه الموانع الشتى الا أن يكون قد « جرفها » دافع من نوع آخر ، دافع أقوى

من هذه الموانع كلها فلم تقف أمامه طرفة عين ، وكأن طوفانا عارما اكتسح السـدود على كثرتها فلم تتبق منها باقية ...

هـذا العامل المضاد لجميع الموانع ، المباين لها فى النوع والكنه ــ وكلها موانع مادية واجتماعية واضحة ظاهرة ــ لابد أن يكون عاملا نفسيا باطنا ...

ومرة أخرى ها نحن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام طبيعة أبى بكر الجياشة وعاطفته التى تستثار فتملكه ولا يملكها .

بهذا . وبهذا وحده . نعقل أسلام أبى بكر على الوجه الذى أسلم به متميزا ، بل متفردا ...

فهو قد أسلم اذن لا عن انتفاء الموانع بل على الرغم من تنوع الموانع وسطوتها .

أسلم لأن العقيدة الجديدة استثارت عاطفته الجياشة ، فكأنما وجد فيها نفسه بعد طول افتقاد ... ورأى الدنيا فى جانب بكل ما فيها ومن فيها من العلائق والمنافع ، ورأى نفسه الحقيقية فى جانب آخر، فاقتحم مندفعا الى الجانب الذى وجد فيه حقيقة نفسه .

« ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ »

كلمة السيد المسيح ، وما أصدقها !

ثم كيف ترانا نتصور أبا بكر وقد تريث يفكر ؟

نراه يوازن بين الموانع والموجبات ، ويرجح بينها . فكأنها عنده متقاربة القيمة يحتاج الى وقت ومراجعة ليتبين أى الجانبين يمكن أن يكون له عنده الرجحان ...

وهذا فى حد ذاته ــ لو أنه حدث من أبى بكر ــ يجعل أبا بكر ليس أبا بكر ! يجعله شخصا آخر يمكن أن تنعقد عنده مقارنة تتضمن التقارب بين قيمة كل ما تمثله

الدنيا وبين ما يمثله الدين الجديد من قيم . ومثل هذا الشخص لا تكون له العاطفة الجياشـــة التى اجتمعت لأبى بكر .

أما وأبو بكر هو أبو بكر ، فما كان ليسلم الا اقتحاما على نحو ما أسلم : ما تردد . وما كبا . وما عكم !

ولو أنه تردد ووازن لـكان معنى هذا أن العقيـدة الجديدة لم تستثر عاطفته الجياشـة . ولصار أمر الترجيح على مستوى واحد من قياس المنافع والمضار . وعلى هذا المستوى كان الاحرى أن يكون للموانع المتنوعة أشد الرجحان ، بما يمثله التزامها من منفعة وأمان وما ينذر به الخروج عليها من القوارع والخسران .

كانت الأسبق

لقد رأينا « كيف أسلم » أبو بكر .

فعلام يدل انه كان أول من أسلم من خارج خاصة آل بيت النبى الاقربين ؟

من بدائه الامور أن النبى بشر أهل بيته أولا ، ثم الناس أقربهم اليه فالاقرب .

فأبو بكر اذن من أوائل من توجه اليهم النبى بالدعوة بعد أهل بيته وأعمامه وبنى أعمامه .

فأما من كانت لهم فى الاسلام كبوة أو تردد وانتظار ، فمنهم ولا شك نفر من ذوى قرباه . فلم يقبل الاسلام الا ابن عمه الصبى على بن أبى طالب الذى يعيش فى كنفه . أما بقية آل أبى طالب ، وأما بقية بنى عبد المطلب جميعا (وعبد المطلب جده مباشرة) فلم يدخل منهم فى الاسلام أحد فى ذلك الطور .

وأبو بكر ليس من هؤلاء ، وليس من بنى هاشم كافة . وانما هو من عشيرة أخرى من عشائر قريش . فبماذا نعلل أن يكون أبو بكر من أوائل من توجه اليهم النبى بالدعوة ، وأنه كان بالفعل أولهم وأسرعهم استجابة ؟

وينبغى أن نلاحظ قبل كل شىء أن العقيدة يومئذ كانت مضمونانها أبعد ما تكون عن التفصيل ، وانما هى بعد فى اجمالها ولبابها الاصيل ، فيحتاج من يعتنقها فى

ذلك الطور حتما الى ثقة بالداعي اليها ـ وهو محمد ـ تحمله على قبول هذا الجديد الغريب ...

وخارج نطاق أهل بيت محمد الاقربين جدا لم يجبه من قرابته أحد على ما لهم به من ثقة قديمة .

فما الذى حمل أبا بكر اذن على الاستجابة للاسلام تلك الاستجابة التى وصفناها بأنها أقرب الى معنى الاقتحام ؟

ليس يكفى القول بأن محمد بن عبد الله كان «الامين» الذى تعرف قريش صدقه وأمانته وكريم أخلاقه . فقد كان ذوو قرابته من بنى عبد المطلب ـ فضلا عن بنى هاشم ـ يعرفون هذا كما تعرفه سائر قريش ، بل واكثر مما تعرفه . ولم يكن هذا كافيا عندهم مع ذلك كى يقبل الاسلام أحد منهم بغير تردد كما فعل أبو بكر!

فلا بد اذن من سبب فوق هذا السبب المألوف فى تعليل الثقة الدافعة الى التصديق القاضية على الموانع.

ولا بد لكل شيء يحدث فى الكون من « سبب كاف » . أما الاسباب التى دون الكفاية فلا تحدث النتيجة التى نبحث لها عن تعليل وتفسير .

فما هو اذن هذا « السبب الكافى » ليكون أبو بكر أول من أسلم مفتتحا ، بل مقتحما طريق الاهوال ، وليكون اسلامه اندفاعة لا تعرف التردد والمراوحة بين عوامل الاحجام والاقبال ؟

دواعى الثقة الشائعة فى قريش بمحمد بن عبد الله غير كافية لهذا التفسير ، والا لكانت كافية لدخول أكثرية قريش فيما دخل فيه أبو بكر ، وعلى نحو ما دخل أبو بكر .

لابد اذن من سبب فوق الثقة ، وأقوى منها بما لا يقاس .

فأى شيء عساه يكون هذا السبب ؟ وبأى اسم من الاسماء المعهودة فى شمائل الناس ندعوه ؟

ان الثقة اقتناع بالشخص تأسيسا على سوابقه فى التعامل .

ومحمد بن عبد الله لم يأت الناس بحديث عن شيء من قبيل ما ألفوا التعامل فيه معه أو مع سواه . فما هو بحديث تجارة . ولا بحديث رواية أو عيان كسائر ما يرويه الرواة ويشاهده المشاهدون . ولكن الذى

يرويه استجاش عاطفة أبى بكر واستولى على مجموع نفسه حين نبذ كل شيء وبايعه على الايمان بدعوته .

فالسر اذن — أو بعض هذا السر على الاقل ! — فيما كان يجول بنفس أبى بكر قبل أن يلقاه محمد بما لقيه به : فقد كان أبو بكر على يقين بلا شك من ضلال الوثنية . ولكنه كان — هو نفسه — لا يدرى ماذا يكون وجه الحق بخلاف ذلك ، ولا ماذا يكون الهدى .

أكان على حد تعبير سقراط كالجاهل الذى مبلغ علمه انه جاهل ، فهو مشتغل بعد ذلك بالبحث عن المعرفة ، وهو بهذا المتميز بأنه أعلم الجهال ؟

أكبر الظن انه كان كذلك !

فلو انه عرف الهدى من نفسه لما كانت له الى الهدى من غيره حاجة !

كان شأنه شأن المبصر ضاق من حوله بالظلمة ضاربة بجرانها ، وكان يحس أنه لابد من نور ، لكنه لايدرى من أين . ولا كيف يكون هذا النور الذى تنقشع عن وجهه الظلمات .

ولو أنه آنس من نفسه ذلك النور ، لما كانت له الى سراج من عند غيره هذه اللهفة .

ولكن ماذا يدريه ان هذا الذى يحمله اليه ذاك

« الغير » هو النور المنشود ، وما رآه يعرض عليه منـه الا قبسا ؟

أهي الثقة ؟

لقد فرغنا من قبل من أمر الثقة ، وانها لم تكن كافية بمعناها الدارج ، فلا بد اذن من مستوى خاص يتكفل بالثقة على هذا المستوى الخارق .

انه شيء ليس فيما كان يدور بنفس أبى بكر فحسب ، بل شيء يتعلق أيضا بالبشير الذى اهتدى بهداه على الفور ...

ولا يمكن أن يكون تصديقا بمجهول ، أو معروف على المستوى المألوف من التعارف بين أهل قرية واحدة... فقد كان أولى بذلك — لو أنه كان كافيا — عترة محمد من بنى عبد المطلب ...

هو اذن شيء أكثر من ثقة المعرفة ، أو ثقة القرابة .

انه ثقة التآلف الروحى الذى يسقط جميع الحواجز، ولا يحتاج الى أسباب ومعاذير .

نوع سام من الحب هو .

حب يندر أن يقع الا بين الاصفياء من بنى البشر ، ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه من سائر العلاقات المألوفة كما يتميز الماس عن سائر أنواع الخرز والزجاج.

كان يملؤه هـذا الحب الذى لا يستطيعه ولا يرقى اليه الا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين فيما نرى ، لأن هـذا الحب هو الذى يمكن له وحـده أن يفسر « انفتاح » قلب أبى بكر بهذه السـهولة وارتماءه فى أحضان العقيدة الجديدة .

ولم تكن بينهما معرفة عادية كالتى تكون بين أبنـاء الحى الواحد والحرفة الواحدة ، ولا الثقـة التى تعم بمألوفها كل غاد ورائح فى مدينة لايزيد حجمها يومئذ على

حجم قرية كبيرة من قرانا الحديثة .

ولـكن ما الذى أذكى هذا الحب ؟

اكثر من عامل واحد ، بعضها يرجع الى تكوين أبى بكر ، وبعضها يرجع الى ظروف مكة وسائر العرب ، وبعضها يرجع الى حرفة أبى بكر وهى التجارة . بل ان اجتماع هذه العوامل هو السر الاكبر فى اذكاء هذا الحب واعداد نفس أبى بكر له فى ذلك الحين .

فابو بكر ـ أولا ـ رجل شـديد الحساسية عاطفى النزعة . والعاطفيون مثاليون متطرفون فى الاعتداد بما للأعمال من مدلولات أكثر من اعتدادهم بظاهرها . أو بعبارة أخرى يعنيهم « أسلوب » العمل و « كيفه » قبل أن يعنيهم ظـاهره وكمه . يأسرهم المعروف وان كان زهيدا ، وتثيرهم الاسـاءة والاستهانة وان كانت هنة هينة . ولا يخيب من يخاطب نجدتهم وأريحيتهم وان كلفهم ذلك الجليل من الخطب .

ثم ان أبا بكر ـ ثانيا ـ رجل حرفته التجـارة . وما أدراك ما التجارة ! ليس كمثلها محك لمعادن النفوس . تلقى الرجل فيعجبك مظهره ومنصبه ، ويبهرك وعظه ، ويفتنك تشدقه بالمبادىء والشعارات ، حتى اذا تعلق الامر بمصلحة يجنيها أو غرم يغرمه مهما كانت المصلحة المادية غنما هينا ، أو كان الغرم سهلا يسيرا ، وجـدت منه نقيض ما كان يتشدق به ! فاذا بالـكبير وقد انقلب أصغر الصغراء ، وبذى المنصب وقد غدا أحقر الحقراء ، وكأنه الـكلب أسالت لعابه قطعـــة من العظم مطروحة بالعراء ! لا يتورع الواحد منهم عن نكث العهد والخديعة والغش والغدر والنكول !

ويقلب أبو بكر وجهه فلا يجد من الناس الا نحوا من ذلك فتركبه الغصائص ، وينتفض بالغيظ والـكمد ،

ولا حيلة له فى طبائع الناس ، ولا منصرف له فى الوقت نفسه عن التعامل معهم ، لأن التجارة معاملة ، وهو كلما مر بهم تكشفوا له عن عدو فى ثياب صديق ، وعن خشاش وغربان ، فى طيالس الجاه والسلطان ، أو فى مسوح ذوى العفة والصيان !

كرب ليس مثله للنفس الحساسة كرب !

ولا مفر من احدى خطتين لمن كان شديد التأذى من هذه الخلال الشائعة شيوع الاطلاق على وجه التقريب :

فاما أن ينقلب فاتكا ناقما على البشرية كافرا بكل خير ، يهدم كل عامر ، ويقوض كل قائم ، ويثأر من الناس كافة بغير تفريق أو تدقيق ، فكلهم « سافل وابن سافل وذو نسب فى الاسفلين عريق » — وهذا نمط الخارجين على المجتمع والقانون .

واما أن ينقلب ناسكا أو كالناسك ، يلوذ بايمانه بقيم الحق والصدق والفضل ، وهو منطو على مضاضة ، ضيق الصدر بما يشاهده فى كل لحظة ، وما يجده فى كل انسان . ولا يكاد يرى للقيم التى يؤمن بها موئلا الا فى ذات نفسه ، فيفيض على الناس يائسا من الجزاء والشكر ، يعاملهم لا بما يستحقون — كما يفعل الخارجون على القانون — بل بما يستحق هو من رعاية وجه الحق والخير ، لا رعاية الآحاد من البشر .

وتلك محنة ليست مثلها محنة ، فلا يفرج من كربها ثأر ، ولا يخفف من كظمها الا ثوران ينفلت أحيانا من جميع الكوابح — على شدتها — فيتراءى للناس كمس من الشيطان !

وفى مثل تلك الحال من الوحشة الاليمة لابد أن يكون أبو بكر على أتم ما يكون من التلهف للاندماج روحيا فى شخص الرجل الذى يجد عنده مصداق

ايمانه بالقيم الرفيعة ، بالفعل لا بالقول فحسب ، فلا محالة يكون حبه له حب التفانى والولاء الذى ليس له حد .

وهل فى بلد حجمها حجم قرية عصرية ، وفى حى واحد منها هو حي التجار ، يمكن الا يلتقى محمد بن عبد الله بأبى بكر ؟

وهل يمكن ، واحدهما مؤهل النفس كأنه قطعة من الحديد حائرة بائرة الا ينجذب انجذابا خارقا نحو الآخر وهو بالنسبة له كقطب مغناطيسى بالغ القوة ؟

ان كانا التقيا ــ وهما بلا شك قد التقيا ! ــ فحتم أوجب الحتم أن يكون قد نشأ بينهما ذلك الحب القوى ، وحتم أوجب الحتم أن يكون أبو بكر قد وجد فى محمد ابن عبد الله ما يجده الظامىء فى الماء ، وما يجده المدلج السارى وسط الظلمة الظلماء فى الكوكب الدرى ، بل ما يجده اليائس من الحياة فى مناط الأمل ومعقد الرجاء !

وللأوباش فى هذه الاهبة النفسية لدى أبى بكر فضل غير منكور ــ وان يكن غير مشكور ! ــ فلولا نارهم ما كانت لتنضج هذه الاهبة النفسية الى هذا الحد عند أبى بكر !

ورب ضارة نافعة !

ولاريب كان هذا التأهب الشديد ما انطوى عليه أبو بكر ومحمد بعد فى دور التحنث والاختلاء ، حتى اذا بلغ الزمان تمامه ، وجهر محمد بدعوته ، لا عجب أن يكون أول من يأنس فيه الخير بعد خاصة أهله أبو بكر .

ولم يخب فيه ظنه ، فما من أحد ــ حتى بنى عبد المطلب وبنى هاشم ! ــ الا اخذته فى الاسلام كبوة أو

نظر أو تردد . أما أبو بكر فما عكم وما تردد وما كبا .
أكانت تلك اذن قرائن معرفة عادية ، كمعرفة الآحاد من عرض الناس أو أبناء القرية الواحدة كما ذهب اليه بعض المؤلفين ؟

كلا !

وانما هو « الحب العظيم الفذ » وراء هذا الايمان الفذ !

أجل ! هو الحب القلبى الطاغى وليس الاقتناع الذهنى الرصين الحذر . عشق روحى جارف ليس حسبة منطقية باردة لا حماسة فيها ولا حركة ، فضلا عن الاندفاع والاقتحام ! فالاقتناع ان وجدت معه حركة فهى نتيجة قد تنجم عنه أو لا تنجم ، وليست هى هو ... وليس هكذا الحب !

حب عظيم أساسه الشعور بحضور المثل الاعلى الذى كان يحلم به العاشق ، فاذا « المطلق » الذى تعلق به قلبه وقد تمثل فى فرد من البشر . وانه ليدرك بقلبه مراميه وآفاق تخليقه الخارق ، ولكنه لا يجد فى نفسه تمام القدرة على مثل صنيعه ، فيعيره روحه يشاركه قوة جناحه فى اقرار واعجاب وخشوع .

ولولا الصفاء الروحى الشديد لانقلب صاحب هذا التكوين حاسدا ناقما . ولكن أبا بكر نسى فى صفائه انانيته وذاب فى مثله الاعلى ، فصار حواريه الاول ، وتابعه الامثل . وأمثال محمد لا يكون لهم الناس الا عاشقين أو حاسدين ناقمين !

وما أشبه التابع والمتبوع فى كثير من المزايا والخلال . ولكنه التشابه فى الاتجاه والصفاء ، مع التفاوت فى الاقتدار ...

وبغير هذا « الحب العظيم » يمتنع فهم هذا الاسلوب

فى الايمان بغير تردد أو تفكير فى العواقب التى تحيق برجل حرفته التجارة ، وصلاته بالناس أساسها الود ولين المهاد والكياسة وحسن السياسة .

محمد فى هذا الحب تمثل فيه « المبدأ » و «المطلق» بشرا سويا . وكان أبو بكر مثل من ينشد ضالة يحسبها شوقا غامضا فى نفسه ، فاذا به يجدها متبلورة كأصفى ما تكون فى شخص آخر ، فتعلق به تعلقه بكل ما فى قلبه من شوق !

وهو هيام ليس كمثله هيام مما يعهده النـاس فى سائر أحوالهم الحسية .

لقد صار محمد عند أبى بكر تجسيد «المبدأ المطلق»، فكل ما جال بنفسه وجده فيه على صورة أوفى وأتم ، فألقى قلبه كله اليه حين أسلم ، ولم يتصور كيف يمكن أن يتحول عنه من « رآه » بعين البصيرة فى مثل ذلك النور الباهر .

وهكذا كان أبو بكر نمطا وحده فى ولائه لمحمد ، لأنه ولاء « استوعب » نفسه كلها ، ولم يترك فيها بقية للتفكير فى شىء ذى بال .

انه استيعاب ...

أو هو — ان شئنا التعبير بلغة بعض المحدثين — « استقطاب » ...

وفى ذلك الاستيعاب أو الاستقطاب نجد تفسير كل سلوك أبى بكر بعد اعتناقه الاسلام ، اعتناقا أشبه ما يكون بالاقتحام ...

کانے فتحا'...

تغيير العقيدة السائدة الى عقيدة جديدة كل الجدة لا عهد لأحد بها من قبل مسألة جد خطيرة .

وقد تكون العقيدة السائدة متداعية ، أو قد تكون محتقرة من ذوى الفطنة والنفوس المفطورة على النبل والكرامة ، كما يعاف الاطهار القذارة والنجاسة بوحى من جبلتهم من غير تعليم سابق ، ويكون بهم شوق الى الجو النظيف والبيئة المبرأة من الدنس يلتمسونه ويتمنونه .

وكان هذا بلا شك رأى نخبة من القرشيين فى ديانة الاوثان السائدة فى الجاهلية . ولكن ثمة فرقا كبيرا بين هذا الموقف وبين « الاقتحام » الذى أقدم عليه أبو بكر حين بادر الى الاسلام « ما عكم وما تردد »...

فذلك الاقتحام يحتاج الى قوة نفسية نادرة ، والى شجاعة تصغر فى جانبها شجاعة المقاتلين فى ساحات القتال ... لان شجاعة المقاتل تساير تيار المعركة الدافق . اما شجاعة الخروج على العقيدة السائدة الى عقيدة ليس لها تاريخ وليس لها اتباع يشدون بروح الجماعة من أزره ويؤنسون وحشته ويطمئنون نوازع القلق لديه فهى شجاعة لا تساير التيار الاجتماعى الجارف ، بل تتصدى له منفردة .

فلئن كان أبو بكر أول من « اقتحم » فى هذا

الاتجاه ، فهو لم يكن الوحيـــد من رجال قريش فى اشمئزازه من الاوثان وما ترمز له من حيـــاة التبذل والاسفاف .

ولذا كان « اقتحامه » وهو الوقور الفاضل العارف بطبائع الناس وانسابهم عاملا فعالا فى « حفز » همم نفر من أولئك الاخيار بعد أن فعل ما ترددوا فيه ، فأصبح الاقدام على آثاره الـــرائدة ضربا من الممــكن ، وكان يبدو لهم قبله ضربا من المستحيل .

يقول ابن هشام :

« ... وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو الى الله والى الاسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه .. » .

ولما كان الشبيه يجتذب الشبيه ، فلا عجب أن يكون من يألفون أبا بكر ممن يشبهونه أو يقاربونه فى صـــفاء النفس ونبل المقصد والانفة من الارجاس ومن ذوى الفضل ومحبى الخير ..

يقول ابن هشام :

« فأسلم بدعائه ١ ــ عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية ــ ٢ ــ والزبير بن العوام بن خويلد (ابن صفية بنت عبد المطلب عمة النبى) ! ــ ٣ ــ وعبد الرحمن ابن عوف ــ ٤ ــ وســـعد بن أبى وقاص بن أهيب (وأهيب عم آمنة بنت وهب أم النبى !) ــ ٥ ــ وطلحة ابن عبيد الله .. »

يسوق ابن هشـــام هذا الخبر فى هـــدوء السرد الاخبارى . ولــكنه سرد لا تسرى فيه حرارة الحياة ان لم تنفخ فيه المخيلة من روحها كى نرى رجالا فيهم ابن عمة محمد ، وحفيد عم أمه ، لا يؤمنون بما جاء به

محمد الا بعد أن رأوا أبا بكر يؤمن به !

انهم — وعلى غرارهم كثيرون غيرهم — كانوا يرون في وثنية قريش أسوأ رأى . هذا أمر لا خلاف عليه . ولكن هذا — في حد ذاته — غير كاف للايمان بما يأتيهم في نقضه أول مناد بعقيدة جديدة ، وان كان معروفا بالامانة وصدق القول من قبل .

أما وهذا الداعية لا يتردد في الايمان بهذا النبي في جرأة تصل الى الاقتحام ، وهو رجل فاضل وقور ، فتلك « وثيقة ضمان » أشبه بالمستندات المعتمدة في عالم التجارة والاعمال .

ولولا « الحب العظيم » الذى غمر قلب أبى بكر لمحمد ابن عبد الله لما كان هذا الايمان الجارف . ولولا ذلك الايمان الذى تجلى به حب أبى بكر لمحمد بن عبد الله حجة لا تقبل التسفيه أو الانكار عند هؤلاء القوم لما انهارت سدود التردد والارتياب في نفوسهم أمام طوفان هذا الحب والتصديق والتوقير ، فأقبلوا ليكونوا أول باقة ، بل أول رعيل من المؤمنين بعد أهل البيت ، وبعد صاحبه وحواريه الاول .

وهكذا كان ايمان أبى بكر بمثابة أول فتح أفاءه الله على الاسلام ! فمنذ آمن هؤلاء النفر تحول الاسلام من « ظاهرة بيتية » الى عقيدة طائفة من الرجال ، فصار للاسلام وضعه الاجتماعى المستقل في مجتمع قريش .

وهو وضع قد يستثير العداء والعدوان ، ولكنه لا يستثيرهما الا لأنه « ظاهرة » لها وزنها وخطرها ، ولا يمكن التغاضى عنها ...

وحسب اسلام أبى بكر هذه النتائج المباشرة كى يكون ذلك الفتح الاول والجليل من فتوح الاسلام .

وهو فتح تفرد بصنعه هذا « الحب العظيم » .

وكان يعلم بفطرة الحس الباطن أو الشعور الكامن ـ ان لم يكن بالوعي الواضح الظاهر ـ ان اقامة « واجهة علنية » هي الشرط الاول لتحول العقيدة الى دعوة ، أو تحول « الظاهرة البيتية » الخصوصية التى لا تكاد تعنى أحداً ، الى « ظاهرة اجتماعية » تعنى جميع الناس ، لأنهم لن يكونوا بعد اقامة هذه الواجهة العلنية الا أحد رجلين : اما محبذ يدخل فى الدعوة الجديدة ، واما ناقم على هذه الدعوة التى تحول الناس عن قديم اعتقادهم ، بما تمنحهم من « رؤية جديدة » يتغير بها سائر « المنظور الاجتماعى والوجدانى والكونى » تغيراً حاسما بمثابة الانتقال من النقيض الى النقيض .

فبغير الدعوة لا تكون العقيدة دينا عاما . وبغير « الواجهة العلنية » لا تبدأ الدعوة بدايتها العملية ..

نقول بدايتها العملية تمييزاً عن البداية النظرية التى قام بها المكلف أساسا بهذه الدعوة ، وهو الرسول نفسه .

وصاحب كل دعوة الى نفسه ورأيه حرى أن يجد مقاومة حاضرة بلا روية . أما صاحب الدعوة الى غيره فحرى أن يجد الروية والاستعداد بعض الشيء للنظر فيما يقول ، لأنه ليس صاحب المصلحة الاولى فيما يدعو اليه . ولأن ما حمله على الدخول فى هذه الدعوة ـ وهو مثلهم غريب عنها وعن صاحبها ـ داع للتأمل ، لان حكمه فى القبول والرفض هو بعينه حكمهم .

وبذلك اتيح لهذا « الحوارى الاول » أن يجلب الى باحة الاسلام أول رعيل من المؤمنين .

وبذلك أيضا ثابر أبو بكر على ما يسره الله له مثابرة المتحمس المصر ... الذى يعلم أن مسلكه هذا أوسع السبل لاقامة « الواجهة العلنية » التى لابد منها لتحويل

الاسلام الى « الوجود العام » .

يقول ابن هشام رواية عن عائشة بنت أبى بكر :

« وكان لأبى بكر مصلى اتخذها عند باب داره فى بنى جمح ، فكان يصلي فيها . وكان رجلا رقيقا اذا قرأ القرآن بكى ! فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته . فمشى رجال من قريش الى ابن الدغنة سيد الاحابيش (وكان قد أجار أبا بكر) فقالوا له :

ـ يا ابن الدغنة ! انك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ! انه رجل اذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكى . وكانت له هيئة ونحو ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم . فأته ، فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء !

« فمشى ابن الدغنة اليه فقال :

ـ يا أبا بكر ! انى لم أجرك لتؤذى قومك ! انهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ! وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت !

فقال أبو بكر :

ـ أو أرد عنك جوارك وأرضى بجوار الله ؟

فقال ابن الدغنة :

ـ فاردد على جوارى !

قال أبو بكر :

ـ قد رددته عليك ! »

وهذا كلام ناطق بذاته . لم يكن حسبه أن يصلى بينه وبين ربه ، بل الناس أراد بهذه العلانية ! وكانت حماسته للدين الجديد وحبه الفائق لرسوله يفجران منه الدمع اذا قرأ القرآن ! فكان ذلك أول « عرض بالصوت والصورة » فى الدعاية الى الاسلام ، على أرقي

الاصول الفنية التى لا تستخدم الاسلوب المبـاشر ، وانما هو العرض الجميل الحى القوى الخاشع الذى يستهوى الافئدة ، والقدوة التى تفعل فعلها الطبيعى على مهل .. !

***

لقد الهم هـذا « الحوارى الاول » خير واجبـات الحوارى الداعية الذى ينوب عن رسوله فيفعل للدعوة أقصى ما يفعله الحوارى النصير البارع الفطن !

وماذا يكون الفتح المبين ، ان لم يكن هذا أول فتح من فتوح الاسلام فى عاصمة الاوثان !

استهوى الافئدة المهيأة ، واقنـع العقول المستعدة المترددة ، وأقام للاسـلام « أول كتيبة » من النصراء ، ومضى يستفتح قلوب غيرهم بغير تحديد شخصى ، وانما هى سـياسة « البـاب المفتوح » لكل من ييسره الله لهداه .

وما كان هذا « البـاب المفتوح » ليجدى لولا أن وراءه ذلك الحنان والخشوع والسمت الرقيق الرحيم . وكلها ثمار العاطفة الجياشة لدى ذلك الرجل الذى اذا جاشت عاطفته بات وهى تملـكه ولا يملـكها ...

ثمرة مباركة لشجرة مباركة ...

هى شجرة ذلك الحب العظيم ...

هذا الحب العظيم ...

وهل من شيء سوى « الحب العظيم » يفسر لنا ما تصدى له أبو بكر ، ليكون « حوارى محمد » بكل معانى هذه الصفة الجليلة ، متحملا فى سبيل هذا التصدى صنوف الايذاء فى شخصه ، وهو الرجل الحريص على الوقار والموادعة ؟

لم تكن الثلة الاولى من المسلمين ـ وكثيرون منهم أسلموا بدعوة أبى بكر أو دعوة من أسلموا على يده ـ تكاد تبلغ الاربعين . واذا بهذا الحوارى وقد الهم دوره الضخم فى نقل الاسلام من السر الى العلن ، ومن ظاهرة بيتية الى ظاهرة اجتماعية تزداد ضخامة وعددا ، وتستثير الاهتمام مهما كان ثمن ذلك استجلاب المعاطب والمغانم ، فهو يقترح على النبى أن يجتمعوا علنا فى الكعبة .

وهناك نهض أبو بكر بما ألهمه من مسئولية الحوارى وفى مقدمتها أمانة الدعاء أو الدعوة ـ أو لعلها ما يسمونه بلغة هذه الايام « مسئولية الاعلام » ـ وكانت الخطابة فى الجموع السبيل الاوفى فى هذا المضمار .

نهض أبو بكر ـ حوارى محمد ـ يتكلم عن دينه ويدعو الناس اليه . وفى الكعبة مجتمع الخاصة والعامة من قريش ، فكان ذلك عنوان التصدى ، أو هو التحرش

الذي يستثير المناوأة لانها الثمن الحتمي لاستثـارة الاذهان واسترعاء الاهتمام ...

وكان لابد مما ليس منه بد .

كان لابد مما كان أبو بكر يعلم سلفا انه كائن حتما حين أشار به على النبى .

ثارت ثائرة قريش ، وانهالوا على هـذه الجماعة ، وعلى رءوسها بصفة خاصة ، بالضرب والايذاء . وكان طبيعيا أن ينال أبا بكر النصيب الاوفى من ذلك ، وهو الرجل الصغير الهامة الدقيق التكوين . ويقال ان جبارا من المشركين ظل يضرب وجه أبا بكر بالنعال حتى تورم وجهه واختلطت معالمه ... ولم ينقذه من موت محقق الا مسارعة جماعة من قبيلته تيم وقد سـمعوا بما يحدث له ، فخلصوه من يد الرجل وحملوه الى بيتـه مشكوكا فى حياته ... حتى لقد تواعدوا أن يثأروا له من قاتله عتبة بن ربيعة .

وبعد لاى أفاق أبو بكر من غشيته وهو على فراشـه فلم يسأل الا عن شيء واحد : ماذا كان من أمر محمد ؟

ولا يصدر مثل هذا السؤال فى مثل هذا الموقف الا من حب أشبه بحب الام وليدها ، تستهين بحياتها ولا يعنيها الا أن يكون سالما معافى .

وسخطت عشيرته منه هذا التفانى الذى انساه أمر نفسه وهو موف على التلف . وتقدمت أمه تعرض عليه طعاما يقيم أوده أو شربة لبن ، فما زاده ذلك الا امعانا فى السؤال ، وأبى أن يضع فى فمه شيئا قبل أن يطمئن على ما كان من أمر نبيه .

فقالت أمه :

ــ والله ما أعلم بصاحبك !

قال :

ـ فاذهبى الى بنت الخطاب فاسأليها عنه .

وكانت أخت عمر قد أسلمت خلسة ، فلما جاءتها أم أبى بكر خشيت أن تكون من جواسيس المشركين يستطلعون طلعها ، فزعمت أنها لا تعرف أبا بكر ولا محمدا ...

وبعد أخذ ورد بين المرأتين ذهبت بنت الخطاب مع أم أبى بكر الى حيث يرقد لترى بعينيها وتستوثق لنفسها . فلما شهدت سوء حاله أخذتها الرحمة به فبكت واستصرخت السماء أن تثأر لما ناله من أولئك الظلمة الفسقة ! ولكن أبا بكر لم يلق باله الى صراخها وغضبها لحاله ، وألح عليها بالسؤال :

ـ ما فعل رسول الله ؟

فقالت له انها تخشى أن تسمع أمه مقالتها ! فالى هذا الحد كانت النقمة وخوف الخطر على من يسلم فى تلك الفترة ، حتى من أمه التى ولدته ! وطمأنها أبو بكر، وعندئذ ـ وعندئذ فقط ـ أجابته انه صحيح معافى .

وخشى أبو بكر أن تكون قد كذبته القول رحمة به ، وأبى أن يطمئن قلبه حتى يرى بعينى رأسه ، فقالت له بنت الخطاب انه مختبىء فى دار الارقم بأطراف مكة ، فهم أن ينهض اليه متعجلا ، وبمشقة أقنعتاه بالبقاء الى الليل حتى يحفظ سرية مخبأ محمد . فانتظر ، ولكنه أبى أن يذوق شيئا حتى يرى محمدا ويطمئن عليه ، وعزز اباءه بيمين مغلظة . وما أرخى الليل سدوله حتى خرج يتوكأ من شدة ضعفه على المرأتين . وما أن دخل على محمد حتى أكب عليه يعانقه وهو يبكى فرحا .

وبعدئذ ـ وبعدئذ فقط ـ طابت نفسه أن يتبلغ بشىء يصلح به حاله ويقيم أوده .

فهل يخطر بالتصور سلوك بلغ هذا المبلغ من التفانى،

الا أن يكون مصدره جبا من طراز رفيع ، تزول الجبال الرواسي ولا يزول ، وتتحول النجوم عن مواقعها ولا يحول .. ؟

وآية ذلك انه لم يزد بعد تلك « القارعة » الا امعانا فى مسئولية الحوارى الامين ، أو « وزير الدعاية » للدين الجديد ...

فهذا ابن هشام يروى أن أقطاب المشركين فى قريش اجتمعوا فى الحجر ، ومعهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذى يروى هذه الواقعة بلسانه :

« فقال أشرافهم بعضهم لبعض :

ـ ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، فما بالكم اذا باداكم بما تكرهون تركتموه ؟

« فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، واحاطوا به يقولون :

ـ أنت الذى تقول كذا وكذا .. ؟

« يعنون ما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول النبى :

ـ نعم ! أنا الذى اقول ذلك !

« ولقد رأيت رجلا منهم اخذ بمجمع ردائه ، فقام ابو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول :

ـ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

« ثم انصرفوا عنه ، فان ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط »

وعن أم كلثوم بنت أبى بكر ـ واخت عائشة أنها قالت :

ـ رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه ... وكان رجلا كثير الشعر ! ..

وهل يبلغ حب أعظم من التفدية بالنفس والصد من الحبيب بجسمه الضعيف ، حتى ليفلقوا راسه ، وما بين ذلك والموت سوى ان الله سلم ؟

ولكن حب أبى بكر لنبيه كان كفؤا لهذا التفـــانى وهذا الفداء .

ثم انظر اليه يبكى ــ على ندرة البكاء فى أهل البداوة ــ كلما رأى حبيبه يتعرض للايذاء : يطفر الى ذهنك تكوينه العاطفى الجياش ، ذلك التكوين الذى رأيناه فى جميع المواقف ينبى عن « عاطفة تملك صـــاحبها ولا يملـكها اذا استثار براكينها شىء » فكأنها تحت الطلب فى كل وقت ، لا تحتجب عن الانظار الا بجهد جهيد ، ولـكنه الاحتجاب الذى ليس بينه وبين السـفور الا اشارة واحدة هو لها بالمرصاد !

و برهانے آخر ...

ثم هذا الرجل ضعيف البنية ، قليل العشير، التاجر الذى تعتمد حياته المعاشية على علاقاته بالنـــاس ، والعمل على تأمين ماله ومعاملاته ، والبصر بالعواقب المادية فلا يبذل الدرهم الا حيث يتوقع أن يعود اليه درهمين ، أو على أقل القليل لا يضيع الدرهم عليه. فلا يكون فراقه اياه الى غير رجعة .

هذا الرجل ماذا كان يفعل بماله هـذا منذ أسـلم ايمانا بالدين الذى دعاه اليه الرجل الذى أحبه أعظم الحب ؟

فلننظر قليلا فيما رواه ابن هشام :

« ... ثم ان المشركين عدوا على من أسـلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم .

« وكان بلال بن رباح عبدا لبعض بنى جمح ، مولدا من مولديهم ، وكان اسم أمه حمامة ، وكان صـــادق الاسلام طاهر القلب . وكان أمية بن خلف بن وهب

ابن حذافة بن جمح يخرجه اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له :

ـ لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى !

« فيقول وهو فى ذلك البلاء :

ـ أحد ! أحد !

(يعنى بذلك أن الله واحد ، وهيهات تكون اللات والعزى شركاء له فى الألوهية)

« وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ويسمعه وهو يقول : أحد ! أحد ! فيقول ورقة :

ـ أحد أحد والله يا بلال !

« ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول له :

ـ أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا !

(أى لأجعلن قبره موضع حنان فأتمسح به متبركا كما يتمسح الناس بقبور الصالحين والشهداء !)

« حتى مر به أبو بكر ذات يوم ، وهم يصنعون به ذلك ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف :

ـ الا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

« فقال أمية :

ـ أنت الذى أفسدته ، فانقذه مما ترى !

« فقال أبو بكر :

ـ أفعل ! عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، وهو على دينك ، أعطيكه به !

« فقال أمية بن خلف :

ـ قد قبلت !

« فقال أبو بكر :

ــ هو لك !

« فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه . . . »

وواضح أن بلالا كان دون ذلك العبد الوثني في كل مزايا العبيد ، فلا يجوز في موازين التجارة الصحيحة أن يتعادلا في الثمن أو عند المقايضة . ولكن أبا بكر التاجر ركل موازين التجارة والربح والخسارة في سبيل استنقاذ بلال بن رباح من هذا العذاب الاليم .

والى هاهنا كان حسب أي تاجر أن يرى نفسه آب بالخسران ، وضحى ما وسع التاجر أن يضحى ، ولكن أبا بكر لم يكتف بهذا ، بل أخذه وأعتقه ! وهكذا ألقى براس ماله في البحر ، وهذه لا تصدر عن رجل بقيت له من خلائق التجارة ذرة !

لقد جرف « الحب العظيم » أقوى سجايا التاجر الذي ناهز الاربعين ، سلخها حسن التدبير للمال حاذقا في البيع والشراء .

ولكن « الحب العظيم » لا يعرف البيع والشراء ، لانه لا يعترف الا بنشوة العطاء .. والفداء ..

ويقول ابن هشام على الاثر في ذلك السياق :

« ثم أعتق أبو بكر على الاسلام قبل أن يهاجر الى المدينة ست رقاب بلال بن رباح سابعهم : ١ ــ عامر ابن فهيرة ــ ٢ ــ أم عبيس ــ ٣ ــ زنيرة ــ ٤ ــ النهدية ــ ٥ ــ ابنة النهدية ــ ٦ ــ جارية بنى نوفل وكان الذى يعذبها عمر بن الخطاب ! »

وبذلك اكتمل العدد سبع رقاب من ضعاف العبيد ، وهي تضحية ضخمة ينوء بها رصيد تاجر محدود المال باتت تجارته أقل رواجا ومعاملاته أضيق مجالا بعد أن خرج على دين قومه .

فلا عجب نقرأ فى أعقاب سرد ابن هشام لتفصيلات عتق هذه الرقاب ، حديثا أشبه بالعتاب أو التقريع من والد أبى بكر لابنه وهو يراه يبتعد من سنن التجارة السليمة وأصولها القويمة .

« وقال أبو قحافة لابنه أبى بكر :

ـ يا بنى ! انى أراك تعتق رقابا ضعافا . فلو أنك اذ فعلت ما فعلت اعتقت رجالا جلدا (أشداء) يمنعونك ويقومون دونك ؟ »

وهو حديث معقول جدا بمقاييس اب مشرك لم يزل على دين قريش ، طاعن فى السن ، يرى ابنه ـ وهم عشيرة قليلة العدد ـ مهددا فى نفسه وماله ، يتربص به أعداؤه ويعتدون عليه حتى انهم يشجون رأسه ، فيريد أن يكون له على الاقل بهذا المال الضائع فى الشراء والعتق نصراء أشداء من مواليه (أى عتقائه من عبيده السابقين) يقدرون على حمايتـه ودفع الاذى عنه فى تلك المحنة التى تحدق به ...

فماذا كان جواب التاجر ابن التاجر ؟

« ... قال أبو بكر لأبيه :

ـ يا أبت ! انى انما أريد ما أريد لوجـه الله عز وجل ! »

فلا عجب أن يروى ابن هشـام أن ما قاله له أبوه وما أجابه به هو المقصود بتلك الآيات من سورة الليل :

« فأما من أعطى واتقى ، وصـدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والاولى ، فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها الا الاشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الاتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما

لاحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ، ولسوف يرضى »

ان « الحب العظيم » هو التفسير الوحيد لهذا الصنيع الذى يهلك به مال تاجر تحف به الأزمات والشدائد ، ولا يدرى ما يكون من أمره غدا ...

« الحب العظيم » وحده هو التفسير الذى يستقيم به سلوك تاجر حصيف أنساه اندفاع العاطفة تدبير التاجر وحصافته . فجعل متجره نشوة القلب ورضوان الضمير لا ساحات الاسواق ، وحساب الخسائر والارباح ...

دبرهان ثالث

ثم هذا الرجل الحصيف ، العارف بالاخبار، العليم بدخائل القبائل ، المتمرس بالناس ، التاجر الذى لا يعاملهم الا بحذر ، ولا يأخذهم بظاهر أقوالهم ، ولا يثق ثقة عمياء ، بل عن تبصر واستدبار للعواقب ، وقياس للغائب على الشاهد ، ما باله قد انقلبت أحواله فلا يكون معيار من هذه المعايير فى موازينه عندما نجم حديث ارتجت له الالباب ، وزاغت له البصائر ، وزلزل له ايمان قوم فارتكسوا ، واذا به وحده لا يتردد فى التصديق حيث كذبوا ، بل ينطلق فى تصديق ما كذبوا به منكرين وكأنه وحده يرى اليقين فيه رأى العيان ، حيث أيقنوا هم بالزور والبهتان ؟ !

ذلكم حديث الاسراء .

وان أمره مع ابى بكر لعجب !

يقول ابن هشام رواية عن محمد بن اسحق :

« ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، وهو بيت المقدس فى ايلياء (القدس) وقد فشا الاسلام بمكة فى قريش وفى القبائل كلها ... وكان من الحديث فيما بلغنى عن مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وامر من الله عز وجل فى قدرته وسلطانه ، وفيه عبرة لأولى الالباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى به سبحانه

وتعالى كيف شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد ...

« ... وعن بعض آل أبى بكر أن عائشة زوج النبى كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أسرى بروحه » ..

« وعن معاوية بن أبى سفيان ، كان اذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ــ كانت رؤيا من الله صادقة !

« فلم ينكر ذلك من قولهما (قول عائشة ومعاوية) لقول الحسن أن هذه الآية نزلت فى ذلك ، وهى :

ــ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس...

« والله أعلم على أى حاليه كان نائما أو يقظان قد جاءه ما جاءه ، وعاين فيه ما عاين من أمر الله ... »

ثم ماذا بعد هذا الاسراء العجب ؟

يقول ابن هشام ــ برواية عن الحسن ــ أنه قال :

« فلما أصبح (النبى) غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

ــ هذا والله الامر (بكسر الهمزة العجيب المنكر) البين ! ان العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة وشهرا مقبلة . أفيذهب ذلك كله محمد فى ليلة واحدة ويرجع الى مكة ؟ !

« فارتد كثير مما كان أسلم ، وذهب النـــاس الى أبى بكر ، فقالوا له :

ــ هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ؟ يزعم انه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع الى مكة ! »

ولم تكن فزعة شكاة تماما ، ولكنها بالاكثر هجمة احراج ! فهذا التـــاجر الرزين الوقور كم أحرجهم

باسراعه الى الايمان بما جاء به محمد من حديث الوحي، وكم أغرى ايمانه هذا ـ لوقاره وحصافته ـ غيره من رجالات قريش أن يدخلوا فيما دخل فيه من الدين الجديد ، وكم بشر ودعا جهرة ، حتى نقل الدين الجديد الى « ظاهرة اجتماعية » لا محالة فيما تحدثه من صدع في بنيان قريش ، حتى « فشا الاسلام في قريش وفي قوم من قبائل أخرى من قبائل العرب» فزاد ذلك من حرجهم

فاليوم اذن سنحت لهم السانحة الكبرى كي يشتفوا في هذا الاسلام ، وكي يشمتوا أول مايشمتون في حواري محمد الأول وصاحبه الذي يذب عنه ويدعو اليه ويفتديه ويؤيده أشد التأييد .

اليوم آن لهم أن يقولوا :

ـ هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ انظر الام وصل به الامر ، فقد أغراه تصديقك اياه أن يخرج على الناس هذه المرة بما لا محل للمماراة في بطلانه الذي لا يقبله عقل ! فأنت التاجر العتيد ليس أحد أعرف منك بطريق الشام ، وكم قطعته جيئة وذهوبا ، وما أحد أدرى منك بطوله الذي يستغرق شهرا للذهاب ومثله للاياب ، وهذا صاحبك (وما أوضح التهكم والشماتة في صاحبك تلك على لسانهم ؟) يزعم أنه ذهب الى هناك وعاد تحت جنح ليلة واحدة !

هي الدامغة اذن ليس مثلها في حسبانهم دامغة !

وكان أول ما تبادر الى ذهن أبي بكر :

ـ انتم تكذبون عليه !

فلكم افتروا عليه من قبل ، ولكم جرب عليهم الادعاء بالباطل على « صاحبه » . ولكنهم قالوا :

ـ بلى ! ها هو في المسجد يحدث الناس بذلك !

فماذا كان من أبي بكر الحصيف الاريب العارف بالناس

والديار والدروب ، ومجرب الحياة الوقور الاريب ؟

لقــد وفى الحذر حقه حين امتحن قبــل كل شيء صدقهم وجدهم فيما نقلوا اليه ، لأنه لم يكن للـكذب فى نفسه الا افتراض واحد : أن يكونوا هم كاذبين فيما ادعوا أن « صاحبه » قاله . أما الطرف الآخر . أما صاحبه . فليس فى نفسه مجرد افتراض كذبه بصرف النظر عن « جسامة » الامر الذى يحدث الناس به .

أما وقد وفى الحذر فى نفسه حقه . ووفى تمحيص الـكذب من جانبهم حقه ـ وليس يمكن عنده الا أن يكون الـكذب من جانبهم ـ فلم يبق لديه الا رأى واحد يبديه من فوره ، لأنه ليس له فى نفسه بديل . قال :

ـ والله لئن كان قاله لقد صــدق ! فما يعجبكم (يدهشكم) من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الارض فى ساعة من ليل او نهار فأصدقه . فهذا أعجب مما تعجبون منه !

والله لئن كان قاله لقد صدق !

قالها مناقضا كل معلوماته عن مضمون ما يقول : مناقضا كل معلوماته عن المسافة وعن الوسائل وعن المدة

فعلى قياس العقل : كل قضية اما صادقة أو كاذبة لذاتها بصرف النظر عن قائلها .

وابو بكر ـ فى نظر الناس وتجربتهم ـ ذلك العاقل أشد العقل . الفطن أشد الفطنة . اللبيب الذى لاتدخل عليه غفلة ولا تجوز عليه خدعة .

وبهذا الحساب كان ينبغى أن يكون أشد المكذبين ، فاذا به أشد المصدقين . ومن غير القاء نظرة واحــدة على « مضمون » القضية التى يتحدث بها محمد . او

من غير مراجعة لمقاييس العقل الحسابي الذى يقيس الغائب على الشاهد . ولا يسلم بأمر خارج على مألوف العادة فى التجربة .

ولـكن الشك لم يداخل أبا بكر لحظة واحدة . وهذا العقل الحسابي لم يكن فى حسبانه حين قالها بغير تردد بعد أن رأى انه استوفى حق هذا العقل كل الاستيفاء بالشك فى صدق زعمهم .

أما وقد صار الامر الآن متعلقا بمحمد وحده ، فليس للشك فى المسألة مكان ، وليس فيها قولان . وانما هو حكم لا يحتمل عنده نقضا ولا حاجة معه الى برهان :

ـ والله لئن كان قاله لقد صدق !

قالها وهى بالنسبة لنفسه كافية . أما بالنسبة لهم فلا بد لها من تبرير . ومن هنا أردف :

ـ فما يدهشكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الارض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . فهذا أعجب وأبعد مما تعجبون منه !

وهو تبرير من الواضح انه يؤسس تصـديقا على تصديق ! ذلك أنه ـ حين يتعلق الامر بمحمد وحده ـ فلا محل عنده لغير التصديق، أما الشك فلسواه من الناس

برهان جدلى مفحم . قائم على مقـدمة ليس لها قدرها وقيمتها الا عند المؤمن الذى انتهى من التسليم بصدق صاحب الدعوة ولم يعد ذلك محل مراجعة .

وأبو بكر كان أول المصدقين به .

ولـكن كثيرين غيره من المصدقين ارتدوا عن الاسلام بسبب حديث الاسراء هذا ، وكأنهم خجلوا من تصديقه فما خبرهم ؟ ولماذا لم يكن حالهم وبرهانهم أمام أنفسهم كبرهان أبى بكر ؟

ذلك ان اسلامهم لم «يستقطب» نفسيتهم ووجدانهم وتفكيرهم ، بل ظل الى جانب تصديقهم دور فعال للعقل

الحسابي أو الواقعي الحسي . فحين تعلق الامر بواقع حسي — هو المسافة والمدة — رفض عقلهم القضية . لأن ذلك العقل لا يعرف الا قاعدة ابتناء صدق القضية أو كذبها على النظر في مضمونها ، وليس على النظر الى قائلها . وتأسيسا على النظر في المضمون يحكم على القائل بأنه صادق أو كاذب .

فالعقل الواقعي الحسي اذن لم تزل له عندهم السيادة رغم اسلامهم وتصديقهم بالدعوة حتى ذلك الحين . مما يدل على أن هذا التصديق كان لمضمون ما تدعو اليه بالاكثر . أما أبو بكر فشأنه غير هذا الشأن . شتان !

وتفكيره من نوع آخر بعد ذلك « الاستقطاب » الذي صنعه به حب محمد حين رآه جديرا بتصديقه وايمانه. انه تفكير « يقلب الاوضاع » السابقة السائدة عند سائر الناس في احتكامهم الى العقل الواقعي الحسي . فهذا العقل يجعل كل قائل موضع امتحان ، يعرض مضمون قضيته على معاييره المرتكزة على معطيات الواقع الحسي وتجربته المألوفة .

اما تفكير أبي بكر — بعد ذلك الانقلاب أو الاستقطاب الناجم عن حبه لمحمد فايمانه به — فيجعل هذا القائل المبدأ والاساس ، وليس الواقف في قفص الاتهام انتظارا للحكم له أو عليه . وتصبح الاشياء عند أبي بكر محكوما عليها بالصدق أو الكذب بمقتضى مطابقتها أو مخالفتها لما يقول محمد .

فما يقول محمد مقامه عند أبي بكر كمقام « المبادىء المسلم بها » عند الرياضي ، فهي التي يقيم عليها كل بنائه المنطقي بعد ذلك . وكل جزئية في هذا البناء انما تكون صادقة أو كاذبة بمقدار مطابقتها أو مخالفتها

لهذه « المبادىء المسلمة » .

فالقائل في هـذه الحالة ، وباعتبـار ذاته هو ، وبخصوصية يتفرد بها هو ، انما هو المبدأ والاساس ومعيار الصدق والكذب . وعلى سائر الاقضية أن تطابقه وتوافقه كي تكون صادقة ، والا فالبطلان يلزمها ولا يلزمه ، والخسران عليها لا عليه !

فالعقل الواقعي الحسي هنا لم يعد السلطة العليا ، بل هو قد بات خاضعا كل الخضوع لسلطة أعلى منه . وتلك هي سلطة الايمان بمحمد ايمانا « مستقطبا » منشئا لحالة فذة قلبت كل أساس للتفكير والقياس عند رجل لم يعرفه قومه من قبل بشيء كما عرفوه بالفطنة والحصافة والاحتكام الى العقل الحسى الواقعي .

وذلك الانقلاب المنشىء لذلك الاستقطاب لايمكن أن تحدثه عند مثله الا قوة خارقة أعلى من كل ما هو معهود في العقل العملي الحسي .

هذه القوة لا يمكن أن تكون غير الحب الفذ المتسامي بأفقه فوق كل قوى الحس .

هو تصديق من نوع خاص اذن . قائم على حب من نوع خاص . لهذا ارتد الاكثرون بذلك السبب نفسه الذي زاد به وتجلى تصديق أبى بكر ...

لأن العقل الحسي عندهم هو المبدأ الاقصى انكروا وكذبوا بغير تردد .

ولأن الايمان المطلق عنده هو المبدأ الذى يخضع له كل شيء . وينسخ كل مبدأ مثلما ينسخ الابصار تلمس الاعمى ، زاده ذلك الداعي بعينه الى انكارهم يقينا وتصديقا

معجزة ما حدث في نفس أبى بكر من انقلاب لايمكن أن يحققها الا الحب الفذ في سموه المطلق في سلطانه .

فلا عجب يومئذ سماه محمد « الصديق » ...

وبرهان رابع

وفيما تلا حديث الاسراء آية أخرى على ذلك الحب الفذ ، أو ذلك « الاستقطاب » الذى لا ينشأ الا منه . آية رابعة تتلوها آيات ... فمن شأن من صار هـذا حاله الا يصدر فى فعل من أفعاله الا عن هـذا المنبع الجديد الذي استوعب كيانه كله .

وذلكم حديث الهجرة ...

يقول ابن اسحق :

« وكان أبو بكر رجلا ذا مال . فكان حين استأذن النبى فى الهجرة ، فقال له النبى :

ـ لا تعجل ! لعل الله يجعل لك صاحبا ...

« قد طمع بأن يكون النبى انما يعنى نفسه حين قال له ذلك . فابتاع راحلتين فاحتبسهما فى داره يعلفهما اعدادا لذلك » .

ثم يردف ابن اسحق أيضا :

« ... وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : كان لا يخطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار . اما بكرة واما عشية . حتى اذا كان ذلك اليوم الذى أذن فيه له فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرى قومه أتانا صلى الله عليه وسلم بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها . فلما رآه أبو بكر

قال :

ــ ما جاء رسول الله هذه الساعة الا لأمر حدث !

« فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس . وليس عند أبى بكر الا انا واختى اسماء . فقال له :

ــ اخرج عنى من عندك !

« فقال أبو بكر :

ــ يا رسول الله انما هما ابنتاى . وما ذاك ؟ فداك ابى وأمى !

« فقال :

ــ ان الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .

« فقال أبو بكر :

ــ الصحبة يا رسول الله !

« قال النبى :

ــ الصحبة !

« فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن احدا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ! »

وعند هذه الدموع التى ادهشت ابنة أبى بكر يذرفها رجل ثابت الجنان نتمهل قليلا ...

آآية طبع جياش شديد الحرارة هى ، تحت سطح هذا الوقار والاتزان ؟

أجل ، ولا مراء !

ولكن هذا ليس قصارى أمرها :

فقد يكون الرجل جياش الطبع ولا يبكى فرحا فى كل مناسبة يهزه فيها السرور .

بل وأكثر من هذا : ما كل رجل جياش الطبع حرى أن يرى فى هذا الذى جاءه فيه محمد داعيا للسرور ، فضلا عن السرور الدافق الذى يفجر الدمع من المآقى!

فالذى آذنه به محمد انما هو المخاطرة بالحياة على

الارجح ، وهو بالقطع فراق الاهل والولد وما كان بقى لهمن أسباب الدعة والاستقرار • انه النفى الاختيارى الذى لا تؤمن معه الغوائل على التجارة وموارد الرزق كلها . ولا تؤمن معه غوائل قريش على بنتيه وأبيه الشيخ الاعمى وأمه . وانما هو الشظف والقلق .

انما هى المحنة من كل وجه أتاه محمد يدعوه اليها . فما كان أحراه أن يفرق أو يتوجس ! وعلى أقل القليل ما كان أحراه الا يستطيره السرور بهذه القوارع الجسام !

ولكن السرور استطار أبا بكر حتى بكى فرحا !

وما عسى يكون منبع هذا الفرح الطافى الذى يجرف دواعى القلق والحزن والتوجس والجزع حتى تنعدم وتتلاشى من جوانحه وهو الحصيف الاريب الذى يستبصر عواقب الامور ويحسب لكل شىء حسابه ، باحساس مجرب الحياة وفطنة التاجر ؟

انه ولا شك منبع من مستوى اعلى بكثيرمن كل هذه الاحاسيس و « الحسابات » . وهى حسابات لا يكفى لابطالها الايمان العادى . فقد يكون الرجل مؤمنا ثم يأخذه الخوف على حياته أو ماله وولده .

انه ايمان من نوعخاص : ايمانالمحب الذى استقطب حبه لمحمد كل كيانه ، وكل احساسه ، وكل تفكيره ، فحيث « صحبة » محمد يكون اقتحام الاهوال التى لا تتوقف دون الموت أحب الى نفس هذا المحب من كل طيبات الامن والدعة وطمأنينة البال على النفس والاهل . وأحب الى نفسه مئات الاضعاف ، حتى لا يكتفى فى فرحه بأقل من الدمع المدرار !

ثم ماذا كان من أمره بعد ذلك ؟

ألعلها كانت دموع فرح من وحى اللحظة ، حتى اذا

ذهبت حدتها وراجع فكره ارعوى أو استأنى او كف من غربه ؟

يقول ابن اسحق :

« فلما اجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج اتى أبا بكر بن أبى قحافة مخرجا من خوخة لابى بكر فى ظهر بيته . ثم عمدا الى غار بثور (جبل بأسفل مكة) فدخلاه ... »

ويقول ابن هشام :

« وحدثنى بعض أهل العلم أن الحسن بن أبى الحسن البصرى قال :

ـ انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الى الغار ليلا . فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمس الغار لينظر أفيه سبع او حية ، يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه !»

وهى حادثة ناطقة بذاتها : ان هذا فعل المحب الذى يقدس حبيبه حتى ليفتديه بنفسه فى غير تردد . وهو ما لا يشبهه صنيع الا صنيع أم مفرطة الامومة بوليدها تدفعها الغريزة ـ بغير تفكير أو تدبر ـ فى لحظة الروع أن تلقي بنفسها على مصدر التهلكة لتكون وقاء له أن كان ثمة وقاء . أو فداء له ان لم يكن فى الامر حيلة دون الفداء .

صنيع لا يصدر الا عن أسمى مشاعر الحب والولاء

وبرهان خامس

ولكن أكان ذلك الصنيع قصارى حب أبى بكر لمحمد ، وهو حب لا يقارن الا بحب الابوة أو الامومة المسرف فى البذل والعطاء والفداء ؟

كلا !

فثمة دليل على ان حب أبى بكر لمحمد ها هنا كان فوق حب الابوة التى فطرها الله غريزة فى قلوب أحنى الامهات والآباء !

ولا عجب ! فقد انطمس حب الابوة ذاته فى نور هذا الحب الفذ ، فى موقف الهجرة هذا ، حتى لم يكد يبقى له أثر ، من غير مقتض يوجب ذلك بفرض أو تكليف ، الا تكليف عاطفة حبه الفذ لمحمد . تلك العاطفة التى تستوعب كل شيء ولا تترك لحب الابناء والحرص عليهم اعتبارا فى هذا الطوفان العاطفى الجارف .

كان حسبه وزيادة أن يخاطر بنفسه مستطار القلب فرحا بصحبة محمد ، وأن يقيه بنفسه ما عسى أن يكون كامنا تحت جنح الليل فى غار ثور من سبع أو حية ، وما كان عليه جناح بعد هذا الولاء العميم أن يوفى بنتيه وأهله حقهم من الحياطة والرعاية ، وهو تاركهم بين ظهرى عدو مبين شرس ، فحسبه تركه اياهم بلا نصير ، وما أحراه أن يعوضهم من ذلك بعض الشيء بما يطمئنه

على معاشهم وهو الرجل « ذو المال الكثير » كما قال عنه ابن اسحق ، فيكون ذلك أضعف الايمان فى محنتهم ووحدتهم .

ولكن معاذ حب محمد !

حيث يتعلق الامر بمحمد فلا وجود عند ابى بكر لشىء ولا لشخص خلا محمد ، ولو على سبيل التزيد الذى لا تدعو الحاجة الملحة اليه .

يقول ابن اسحق :

«... عن أسماء بنت ابى بكر قالت : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج ابو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم ، أو ستة آلاف ، فانطلق بها كلها معه ! فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره فقال :

ـ والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه !

« فقلت له :

ـ كلا يا أبت ! انه قد ترك لنا خيرا كثيرا

« وأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت يده فقلت :

ـ يا أبت ! ضع يدك على هذا المال !

« فوضع يده عليه ، فقال :

ـ لابأس ! اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ (كفاية) لكم ...

« ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكننى أردت أن أسكن الشيخ بذلك ... »

أجل ، كان فى وسع أبى بكر أن يترك نصف ماله لأهله ، وعليهم - وهو يعلم هذا حتما - ستنصب ثائرة قريش ولا مراء بعد افلاته مع صاحبه الى المدينة. ولكنه لم يفعل !

وكان فى وسع أبى بكر أن يترك لهم ربع هذا المال . أوخمسة ، ويكون مع هذا قد آثر حبيبه الفذ بأكثر مما يطالب به المؤمن شديد الولاء، المجزل البذل والعطاء والفداء

لكن ابا بكر لم يفعل شيئا من هذا ، وحرمهم ماله كله ، وآثر أن يحمله ليكون تحت تصرف دعوة محمد فى هجرته التى يعلم أن مصيرها محفوف بالمجهولات .

حب محمد ، ومصلحة محمد ، والاحتياط لمحمد ، ذلكم عند أبى بكر كان أعتى آلاف المرات من حبه لأهله - وفيهم فتاتان صغيرتان ! - ومن مصلحتهم والاحتياط لهم فى محنتهم التى تركهم يواجهونها وحدهم . فما لشىء من هذا كله على جسامته وجود - عند رجل شديد الشعور بالمسئولية - الى جانب ذلك الحب الآخر ، الحب الاقوى والاسمى والاعظم لصاحبه ونبيه الذى آمن به وناصره مناصرة المحب المتفانى ، فاستولى هذا الحب على نفسه كلها ولم يدع له فى شىء مصرفا ، مهما كانت دواعى التفكير والتدبير ، ومهما كانت دوافع الحنان !

وليس أقل من « الحب » بمعناه الاسمى يصلح تفسيرا لهذا التصرف بالذات ، في تلك الظروف بالذات.

ولعل تمام الصورة ، صورة الحب الذى لا يعرف حدا يقف عنده فى العطاء والفداء ، فى رواية ابن اسحق - باسناده - عن بعض أصحاب النبى فى صدد هيئة وصوله مع صاحبه الى يثرب :

« لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكفنا (توقعنا) قدومه ، كنا نخرج اذا صلينا الصبح الى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة (فى شهر ربيع الاول) حتى اذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، فصرخ بأعلى صوته :

ــ هذا جدكم جاء !

« فخرجنا الى رسول الله ، وهو جالس فى ظل نخلة، ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك ، وركبه الناس (ازدحموا عليه) وما يعرفونه من أبى بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .. ! »

فعل أبو بكر هذا : أظله بردائه .

وكانت له عن ذلك مندوحة ، فنحن نعلم أن أبا بكر عندما ركب مع النبى من غار ثور يريدان المدينة ــ على حد رواية ابن اسحق :

« فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق.. »

وكان فى وسع أبى بكر أن يترك لخادمه هذا تظليل النبى وتظليله أيضا فى تلك الهاجرة التى لايطاق فيها الوقوف فى العراء بلا ظل ، فيلوذ الناس ــ على شدة شوقهم الى النبى ! ــ بالبيوت ..

ولكن معاذ « الحب العظيم » !

بنفسه أظله بردائه ، متعرضا للشمس المحرقة بعد ذلك السفر الطويل المنهك ، بغير موجب .

أبغير موجب حقا ؟

وهل من موجب أقوى من الهاجرة المحرقة ، مثلما كان أقوى من حب الاهل والولد ... اللهم الا موجب الحب الجارف ، ذلك الحب الذى يتلهف على فرصة للتلذذ بالبذل بالغا ما بلغ ، والسرور بالمشقة بالغة ما بلغت ، خدمة للمحبوب الفذ ؟ ..

ذلك منطق لا يستقيم ولا يفهم الا فى ضوء الحب ، وفى ضوء الحب وحده .

وهى خليقة نادرة غاية الندرة بين خلائق بنى الانسان

وفى المدينة ..

وفى المدينة صار الاسلام « دولة دعوة » لاول مرة ، بعد أن عمل أبو بكر فى مكة على اضفاء « الظاهرة الاجتماعية » عليه ، بما أشرنا اليه من سلوكه ، فكان بذلك أول « وزير للدعاية » فى الاسلام .

فماذا كان دور أبى بكر فى « الدولة » الجديدة ؟

هو بعينه دوره السابق فى مكة ، مع تحوير يقتضيه تغير الظروف والاوضاع و « مراكز القوة » .

فها هنا ليس موقفه موقف المكافح عن قلة ضد كثرة ساحقة باغية طاغية ، بل موقف المنافح ضد « جانب » من سكان المدينة وأرباضها يخالفون دعوة الدولة الجديدة ويصدون عنها .

. ها هنا فى المدينة صار أبو بكر كبير دعاة الاسلام ورأس المنافحين عن النبى تجاه اليهود من سكان يثرب ، يتصدى لهم ولا ينهنه عن التصدى .

وأول ذلك التصدى ما رواه ابن اسحق :

« دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس (وهو البيت يتدارس فيه اليهود كتابهم) على يهود ، فوجد منهم ناسا كثيرا ... قد إجتمعوا الى رجل منهم يقال له « فنحاص » وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع .. »

ابو بكر اذن هو الذى دخل على اليهود مكان دراستهم الدينية ... فلماذا دخل ؟ أهى زيارة تحية ومجاملة ؟ سنرى !

« ... فقال أبو بكر لفنحاص :

ـ ويحك يا فنحاص ! اتق الله واسلم ! ..

« فقال فنحاص لأبى بكر :

ـ والله يا أبا بكر ما بنا الى الله من فقر ، وانه الينا لفقير ! وما نتضرع اليه كما يتضرع الينــــا ! وانا عنه لأغنياء ، وما هو عنـــا بغنى ! ولو كان عنـــا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .. !

« فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنــــحاص ضربا شديدا ، وقال له :

ـ والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله ! »

وما بأوضح من هــذا يكون التصــــدى والتحدى : يدخل على اليهود عقر دارهم وهم فيها جمع كبير فيدعو أحبارهم الى الاسلام ! وحين سمع ردا قبيحا فى حق الله لم يملك نفسه من الغضب وهو فرد وسط جماعتهم الـكبيرة « فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا » وتهدده بضرب عنقه لولا العهد .. !

غضب شديد لا يقيم وزنا للمخاطر ، وهذا شــأن النفس الجياشة التى ان مس شىء موضوع عاطفتهـا الـكبرى لم تقم وزنا لشىء ، وكأنما مس ذلك لغمـــا شديد التفجر !

غضب نزل فيه قرآن ليحد من غربه :

ـ « .. ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان

ذلك من عزم الامور »
غضب ينسي كل شيء ، حتى ليفوته «عزم الامور» وهو اللبيب الحصيف الاريب الوقور
وهـــذا نمط من سيرته فى صحبة النبى ، وزيرا ومؤازرا وصاحبا ومشيرا ونصيرا ، نمط حماســـة لا تخمد ، وهمة لا تفتر ، وحب ليس له حد ، وغيرة كلها اقدام ...
ثم كان يوم بدر ...
أول معركة للمسلمين ، وأول نصر .
يوم رهيب له ما بعده ، كيوم الهجرة ، وله خطره ومخاطره التى تتجدد بها مخاطر « غار ثور » .
وأبو بكر كان فى الهجرة وفى الغار « ثانى اثنين » .
وما كذلك ـ بظاهر الاحداث ـ كان يوم بدر ! فهو يوم لقاء أجناد بأجناد ، وهؤلاء وأولاء فى العدد والعدة، فما أبعده عن موقف كان فيه أبو بكر « ثانى اثنين » .
ولـكن مواطن القتال ـ ككل مواطن النضـــال ـ طبقات فى الدقة والشـــدة ، وحيثما يكون وقع المحنة شديدا على قلب مثقل بالاعباء ، فثمة داخل محيـــط النصراء والاعداء ـ على اتساعه ـ مواقف تشعر فيها النفس بالوحدة ، أو هى أقرب ما تكون الى الوحدة فى التدبر والتصرف .

وبدر كانت أول مواقع الاسلام الحربية ، على قلة فى عدد المسلمين وكثرة فى عدد القرشـــيين المشركين ، فما أحراه أن يكون يوم امتحان عســـير على وجدان محمد .
وننظر فيما كان من أمر محمد فى ذلك اليوم ـ برواية ابن اسحق ـ فنرى مصداق ما قلناه ، ونلمس أيضا مكان أبى بكر من نبيه وحبيبه :

« نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم (كما أشار عليه الحباب بن المنذر بن الجموح) نزل عليه ، ثم أمر بالقلب (العيون) فغورت (سدت) وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية (للشرب) ... وقال سعيد بن معاذ الانصارى :

ـ يا نبى الله ! ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا الله وأظهرنا على عدوه كان ذلك ما أحببنـــا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك ؟ ..

« فأثنى عليه النبى خيرا ، ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه »

ولـكن ... أكان محمد فى ذلك العريش وحده ؟

يقول ابن اسحق :

« ثم تزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال لهم :

ـ ان اكتنفكم القوم فانضحوهم (ارموهم) عنكم بالنبل !

« ورســول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، معه فيه أبو بكر الصديق ! »

ثانى اثنين دائما ، كلما تزاحمت المحن على محمد .

ويستأنف ابن اسحق الرواية عن يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق،

ليس معه فيه غيره .. !

« ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول :

ـ اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد !

« وأبو بكر يقول :

ـ يانبى الله ! بعض مناشدتك ربك ، فانه منجز لك ما وعدك ! »

ها هو موقف غار ثور يتكرر :

ثانى اثنين ، الله ثالثهما !

فقلب محمد معلق بمناجاة ربه أن يؤتيه وأصحابه السبعين النصر فى ذلك اللقاء الحاسم ، وهو مدرك خطر هذا اليوم على مستقبل الدعوة كله .

وقلب أبى بكر يأخذه الاشفاق على صاحبه قبل كل شىء . وانه لفرط ايمانه بصدق نبوته لا يجد فى نفسه من نصر الله ريبا ، فيذكره أن وعد الله حق وان نصره آت لاريب فيه .

أهى عبقرية الايمان ؟

نعم ولا مراء !

ولـكنها أيضا شىء فوق عبقرية الإيمان ...

انها عبقرية الحب تشغل قلب أبى بكر على النبى ولا يرى احتمال الهزيمة ، لأن محمدا فى نظره أعز على ربه من أن يكون هناك ريب فى نصره اياه ، مهما قل عدد أصحابه ، ومهما كثر عدد أعدائه ...

قضية مفروغ منها عنده ، لا تحتاج الى مناقشة أو برهان ، بل تنهض برهانا على كل ما يوافقها وتدحض بذاتها ما يخالفها ...

ولعل الاحساس بهذا الحب هو الذى استحق عند محمد مكافأة واضحة فى رقتها ، ففى رواية ابن اسحق :

« وقد خفق (نام نوما يسيرا) رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى العريش ثم انتبه وقال :

ــ ابشر يا أبا بكر ! أتاك نصر الله ! »

لم يقل « أتانا » بل قال « أتاك » ، وكأنما أحس أن الفرح بنصر الله سيغمر أبا بكر أكثر مما يغمر سائر النــاس ، بما فى قلبه من احســاس متفرد نحو نبيه وحبيبه ، فله صدى ذو وقع خاص لما فى قلبه من هذه الخصوصية ، خصوصية « الحب الفذ » .

وشيجة حب ليس كمثلها وشيجة . بها استحق أبو بكر أن يكون ثانى اثنين ، وأن يخص قبل ســائر المسلمين بفرحة النصر وبشراه .

ولــكن هل كان هذا كل شأن أبى بكر يوم بدر ؟

للقصة جانب آخر من جوانب العلائق الانسانية :

كان فى جيش قريش يوم بدر ابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وكان شجاعا بارعا فى قتال السيف ، ومن أمهر الرماة .

وبرز عبد الرحمن بن أبى بكر يطلب مبارزا ، فمــا تأخر أبو بكر وما تردد ، ووثب يجيب مناجزة ابنه ، ولــكن محمدا تلطف فى رده عن ذلك ، نافذا اليه من أشد المنافذ حساسية عند أبى بكر ، قال له : « متعنى بنفسك ! » ، معبرا بذلك عن ائتناسه به فى وحدته بالعريش ، فقعد أبو بكر ، لأن واجبه نحو محمد لاينهض به فى ذلك الموطن سواه ، أما واجب القتال فينهض به عنه أى مسلم ممن شهدوا بدرا .

وفيما بعد أسلم عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقال يوم أسلم لأبيه انه كان هدفا واضحا لسهامه يوم بدر ، ولــكنه انصرف عنه برا بأبوته ولم يقتله .

فما تظن أبا بكر أجابه ؟

قال له بغير تردد انه لو كان على مرمى سهامه يومئذ لما عدل عنه !

ومرة أخرى تبرز عقيدته التى استولت عليه ، فصارت أساس سلوكه كله ومصدر كل قيمة عنده . فاذا نصرة محمد مقدمة عند أبى بكر على كل شىء ، وعلى كل انسان ، حتى الاهل والولد . فلو تمكن من رمى ابنه عبد الرحمن لما تعامى عنه ، ولما تردد ! ويجاهر ابنه بهذا وهو الابن الذى كان على مرمى قوسه فتحاماه !

أعن قلة حنان فى أبى بكر ، وقلة رقة للولد ؟

لنستمع الى ابن هشام :

« حدثنى الزبيرى أن رجلا دخل على أبى بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها . فقال له الرجل :

ـ من هذه ؟

« فقال أبو بكر :

ـ هذه بنت رجل خير منى : سعد بن الربيع ، كان من النقباء يوم العقبة وشهد بدرا واستشهد يوم أحد » .

وهذا هو أبو بكر فى حنانه على حقيقته وفى رقته وجيشان عاطفته ، لا يكتفى فى الاعراب عن حنانه بأقل من « الرشف والتقبيل » وهو يحمل الطفلة اليتيمة على صدره .

أفمثله من يتهم اذن ببرود العاطفة وقلة الحنان وجفاء البنين من صلبه ؟

هيهات !

ولكنه « الميزان الجديد » جعل فوق عاطفة جزئية عاطفة كبرى ، فاذا العاطفة الجزئية « أضيع من السراج

فى الشمس » ، واذا بالعاطفة الكبرى تجرف فى طريقها كل اعتبار لأيما شىء ، وأيما شخص ، حتى البنات والبنين !

وهكذا نسى هذا الأب ــ على فرط حنانه الطبيعى ــ بنتيه وما تحتاجان اليه حين احتمل ماله كله ليجعله فى خدمة محمد ورهن مشيئته .

وهكذا أيضا نسى هذا الأب ــ على فرط حنانه الطبيعى ــ عاطفة الابوة ازاء ابنه عبد الرحمن ، فلم يذكر سوى أن عبد الرحمن يقاتل محمدا ، فى صفوف أعداء محمد ...

وبفيض من العاطفة ــ بمعناها الجديد الطاغى ــ صارح ابنه انه ما كان ليتحاشى قتله يوم بدر . وقالها صادقا ، لأنه أقوى عاطفة ، لا لأنه مهزول الوجدان .

ولكنها عاطفة ينفرد بها ، عن تفرد بينبوعها ، ومن هنا كان تفرده فى ثمارها ومظاهرها .

***

وبهذه العاطفة المتقدة لزم أبو بكر محمدا ، فلم يتركه بعد بدر فى غزوة كبيرة أو صغيرة ، ولم يترك مجلسه وزيرا ومشيرا ، ولم يغب عن جانبه فى أى موطن من مواطن السياسة أو الحكم الداخلى أو قتال الاعداء .

لقد تحول وزير الدعاية فى مكة الى وزير الدولة فى المدينة .

كان دائما ثانى اثنين فى مواطن الشدة الحاسمة ، وكان الاول دائما بين القلة النادرة من جلة الصحابة حينما يتسع نطاق الموقف والمشورة .

وكذلك ظل الى ختام حياة محمد فى سياق واحد مطرد . ولكن موقفين اثنين من ذلك التاريخ الطويل

انحطير يلفتان النظر فى تلك الصحبة بالمدينة .

أولهما محنة الافك .

وثانيهما يوم الحديبية .

ولكل منهما حديث قائم برأسه .

محنة الإفك *

قلما مرت بحياة رجـل محنة مثل محنة الافك ، يكون فيها موزعا توزيعا بالغ القسوة بين حبـه الفذ لصاحبه ونبيه الذى يفديه بالنفس والنفيس ، وبين حبه لا لابنته فحسب ، بل ولما هو أغلى عند العربى الـكريم من الحياة والاهل : الا وهو العرض المصون والسمعة الطيبة .

محنة نفذت الى أعمق أعماق هذا الرجل الحساس المتقد العاطفة ، لتنال من أعز ما يحرص عليه بينه وبين نفسه ، وبينه وبين النـاس ، وهو الوقور العـارف بمثالب العرب ، فاذا به عرضة بين يوم وليلة لمثلب ليس كمثله مثلب !

وما حديث الافك ؟

يقول ابن اسحق بسند مرفوع الى عائشة :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع (أجرى القرعة) بين نسائه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه . فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى . وكان النسـاء اذ ذاك لم يهجن اللحم فيثقلن . وكنت اذا رحل لى بعيرى جلست فى هودجى، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى فيأخذون

بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير ، فيشدونه بالحبال ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك توجه قافلا ، حتى اذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا ، فبات به بعض الليل ، ثم أذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى .. وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفار « خرز يمنى » . فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته . وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج ، وهم يظنون انى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا انى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.... فرجعت الى العسكر وما فيه داع ولا مجيب وقد انطلق الناس. فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أنى لو قد افتقدت لرجع الى فوالله انى لمضطجعة اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وقد كان تخلف عن العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي وأقبل على حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب ، فلما رآنى قال وأنا ملتفة فى ثيابى :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ما خلفك يرحمك الله ؟

« فما كلمته ! ثم قرب البعير فقال : اركبى ! .. واستأخر عنى فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت

حتى أصبحت ونزل الناس . فلما اطمأنوا فى منزلهم ذاك طلع الرجل يقود بى ، فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج العسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك ! ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شيء . وانتهى الامر الى رسول الله والى أبوى ، لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيرا ، الا انى قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بى : كنت اذا اشتكيت رحمنى ولطف بى ، فلم يفعل ذلك فى شكواى تلك ، فأنكرت ذلك منه ، حتى وجدت نفسى فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى :

ـ يا رسول الله ! لو أذنت لى فانتقلت الى أمى (أم رومان) فمرضتنى ؟

« فقال : لا عليك ! .. فانتقلت الى أمى ، ولا علم لى بشيء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ... فخرجت ليلة لبعض حاجتى ... ومعى أم مسطح بنت أبى وهم (خالة أبى بكر) فوالله انها لتمشى معى اذ عثرت فى مرطها (كسائها) فقالت (تدعو على ابنها) : تعس مسطح ! .. فقلت لها : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا ! فقالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟.. قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتنى بالذى خاض فيه أهل الافك من أمرى وأمر صفوان . فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ورجعت ، فوالله ما زلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

ـ يغفر الله لك : تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى شيئا من ذلك ؟

« فقالت : اى بنية ! خفضى (هونى) عليك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عن رجل يحبها لها

ضرائر الا كثرن وكثر الناس عليها !

« ... ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى . وعندى امرأة من الانصار ، وأنا أبكى وهى تبكى معى ... فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـ يا عائشة ! انه قــد كان ما قد بلغك من قول الناس . فاتقى الله . وان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى الى الله ، فان الله يقبل التوبة عن عباده » .

وفى رواية البخارى عن عائشة :

« ... فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى (جف) حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى :

ـ أجب رسول الله عنى فيما قال !

« فقال أبى :

ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله !

« فقلت لأمى :

ـ أجيبى رسول الله فيما قال !

« فقالت أمى :

ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ! »

وفى رواية ابن اسحق عن عائشة أنها :

« قالت : ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم مادخـل على آل أبى بكر فى تلك الايام !.. فلما ان اســتعجما « صمتا » استعبرت فبكيت ، ثم قلت :

ـ والله لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ! والله انى لأعلم لئن أقررت ما يقول النــاس والله يعلم أنى منــه بريئة ، لأقولن ما لم يكن . وان أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى .. ولــكن سأقول كما قال أبو يوسف ـ

وقد التمست اسم يعقوب فما أذكره ! ـ : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! »

« فوالله ما برح رسـول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه . فسجى رسول الله بثوبه ووضعت له وسـادة من أدم تحت رأسه ، فأنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله مافزعت ولا باليت .. قد عرفت اني بريئة .. وان الله عز وجل غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشـة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا أن يأتى من الله تحقيق ما قاله الناس !

« ثم سرى عن رسول الله فجلس ، وانه ليتحدر منه مثل الجمان فى يوم شات فجعـل يمسح العرق عن جبينه ويقول :

ـ أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك ! »

وفى رواية البخارى :

« فقالت لى أمى :

ـ قومى اليه !

« فقلت :

ـ والله لا أقوم اليه فانى لا أحمد الا الله عز وجل!»

ونعود الى رواية ابن اسحق :

« ثم خرج الى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله من القرآن فى ذلك (من سـورة النور) ثم أمر بمسطح بن اثاثة (ابن خالة أبى بكر) وحسان بن ثابت (شاعر النبى) وحمنة بنت جحش (بنت عمة النبى وأخت زوجته زينب) وكانوا ممن أفصح بالفاحشـة فضربوا حدهم ... »

ويقول ابن هشام :

« فلما نزل هذا القرآن فى عائشة وفيمن قال ما قال

.. قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته :
ـ والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وادخل علينا (من الهم) !

« فأنزل الله فى ذلك :

« ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »

« فقال أبو بكر :
ـ بلى والله ! انى لأحب ان يغفر الله لى !
« فرجع الى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال :
ـ والله لا أنزعها منه أبدا ... »

والذى يعنينا من شأن الافك كله فى هذا المقام ما كان من وقعه فى نفس أبى بكر ، وما كان بتأثيره من فعل أبى بكر .

وقد يكون بعض الامر فى مظهره امتناعا عن الفعل ، وهو مع هذا ـ بالاعتبار النفسى والخلقى ـ فعل أقوى ما يكون الفعل !

ان البركان فعل عنيف غاية العنف . ولكن أقوى منه بلا شك ذلك الحائل الذى أن وجد كف عمل البركان الثائر فلا تنطلق منه حمة واحدة ! فيظن الجاهل أن سكونه عن خمود وجمود ، وهو يتأجج بالضرام ، لأن « الفعل الاقوى » ـ وهو فعل الكابح ـ غاب عن عينه العشواء أو ادراكه الخابى !

ومثل ذلك كان حال أبى بكر :

رجل وقور حفيظ على كرامته عليم بمثالب الناس فهو أدرى الخلق بما يلحق بالرجل وآله من سبة

حديث كحديث الافك .

ولئن سمى من بعد افكا ، فما تناقلته الالسنة وهى تسميه افكا . وهذا الرجل الموتور المطعون فى سمعته وعرضه ، ما كان أحراه أن يدفع عن ابنته ما قيل . ويثور بمن خاض فى أمرها هذا الخوض الوبيل .

ولكنه لزم الصمت !

ومرضت ابنته ، وعادت الى بيته مدنفة تجهل ما يقال . وأبو بكر صامت ، بل وألزم نساء بيته الصمت المطبق ، وما أشق الصمت فى مثل هذا المعرض على النساء !

ولكن ماذا وراء هذا الصمت ؟

أتراه صمت البليد الذى لا يحس ؟

أتراه صمت العاجز عن الرد والردع ؟

أتراه صمت المستخزى ؟

أو هو صمت من نوع غير هذا كله ؟

المرجع فى هذا الى ما نعرفه عن حال أبى بكر . وحاله قاطعة بأنه لم يكن بليد الحس ، بل هو على النقيض من ذلك مرهف جياش العاطفة ... وهو حين يتعلق الامر بمواقف الحنان يعبر بدمعه قبل لسانه لفرط جيشانه . وغير معقول أن ابنته المريضة المطعونة فى سمعتها كانت عليه هينة فلا تهيج مشاعره الحارة بطبعها لمحنتها .

وهذه عائشة — فى رواية ابن اسحق — تقول :

— ووالله ما أعلم أن أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الايام !

ولكنه لزم الصمت أكثر من شهر ، على ما به من الكرب .

أهو صمت العاجز اذن ؟

وأى عجز بمثله وهو وزير محمـــد وحواريه الاول وصاحب نجواه وثانى اثنين فى كل موقف حازب لمحمد؟ اى عجز عساه يكون على مكانته وفصاحته ، وقد جهر بالفاحشة من جهر من ذوى قرابته (ابن خالته مسطح) وذوى قرابة النبي (حمنة بنت جحش) وشاعر النبى حسان بن ثابت ؟

لقد أرجف المبطلون فى جراة ما بعدها جراة ، أفلا يجسر هو بالحق مثل جسارتهم بالبهتان ؟ وما كان صمته ليسكت الالسنة ويقتل الفرية فى مهدها ، وقد صرحت مسفرة عن وجهها الكريه حتى ملأت الاسماع.

فليس عذره فى الصمت من هذه الجهة اذن .

أهو صمت المستخزى ؟

لو كان عن خزى لما ظل على حاله من ملازمة النبى لا يتخلف عنه ، ولا يفاتحه مع هذا فى شىء !

هذا الصمت الذى سد على براكين غضبه وألمه المنافذ هذا السد المطبق فلا تخرج منه كلمة ولا نأمة ، لابد أن له سببا آخر اذن !

. . .

وهو سبب أقوى من ألم الكرامة الجريحة ، ومن ألمه لابنته ولشرفه . أقوى منهما — على جبروتهمـــا — وأرجح كثيرا ، حتى لزم هذا الصمت العجيب وألزمه آل بيته ، وهو الذى لو شاء لرد وردع ، وانتصـــف لنفسه غير ملوم !

ولـــكن الامر كان يتعلق لا بنفسه وكرامته وابنتـــه وشرفه وشرفها فحسب .

الامر أيضا — وقبل هذا كله — يتعلق بمحمد !

وحيث يكون لمحمد شأن ، فشـــأن محمد مقدم فى اعتباره على نفسه وابنته وسمعته وشرف بيته وعرضه، وان كان الذى به شخصيا من هـــذا الـــكرب فوق ما

يحمل البشر !

هـذا وحده كاف لابراز نوع ومستوى حبه الفذ لمحمد ، ذلك الحب الذي هان بجانبه ـ حرفيا لا على المجاز والتخيل ـ أنكى وأوجع وأقمأ ما ينزل برجل مثله من الآلام والـكروب .

ثم أكان لديه فى براءة عائشة شك ؟

كلا !

ولـكن حين يتعلق الامر بمحمد انما يعنيه ما يألم له محمد ، فهو ينسى آلامه ليذكر محنة حبيبه ونبيه . ولا يعنيه الا أن ترتفع المحنة عن كاهله فيما أوذى به فى صدد زوجته .

عائشة زوج محمد تأتى عنده فى الاعتبار قبل عائشة ابنته . ومحنة محمد فى صددها تأتى عنده فى الاعتبار قبل محنته فى ابنته وفى كرامته . فمحمد اذن صاحب الحق وحده فى الـكلام ، وفى الرد ، ان شاء صـدق ما يقال ، وان شاء كذب ونفى .

وتغضب عائشـة وتهيب بأبيها أن يجيب النبى ، فيكون كل رده عليها :

ـ والله ما أدرى بماذا أجيبه !

لأنه أمر لمحمد فيه شأن ، فالامر كله اليه وحده ، بغير تأثير ، وبغير دفاع . وهو متقبل ما يراه محمـد أيا كان !

صمت يلتبس عند غير الواعى بالجمود أو « عدم الفعل » ـ أو هو ما يسـمونه برطانة هـذه الايام « سلبية » ! ـ وهو مع هذا فعل أقوى ما يكون الفعل ـ أو هو بتلك الرطانة ايجابية أقوى ما تكون الايجابية ـ لأنه احساس قوى جياش مضطرم له حاكم أقوى منه بين ملـكات النفس وينابيعها : حاكم قد لا يقدره

كل انسان قدره ، لأنه من ينبوع فذ لا يرقى اليه الا الاقلون : ينبوع ذلك الحب الفريد . والناس يتصورون سواهم على غرارهم !

ولهذا لا يعرف الفضل لأهل الفضل الا ذوو الفضل! وحين يندر ذوو الفضل ، ينـــدر أيضا من يتصورون الفضل عند أهل الفضل ، ولا حول ولا قوة الا بالله !

ولما بشر محمد عائشـــة ببراءتها لم ينطق أبو بكر أيضا . وهنا يبرز جانب آخر من شخصيتـه : جانب الـكرامة والترفع .

لئن كانوا قالوا فهو يعلم أنه فـوق ما قالوا . وما كل فرية كفؤ للرد عليها ، ولا ســيما حين تنزل الى مســتوى رمى الاعراض الطـــاهرة بأخس المفتريات وأقذرها . وبحسبه أن قد ظهر الحق .

وكان قصـــاراه حين وقع النبى الحـــد على كبار المرجفين ، وفيهم مسطح ابن خالة أبى بكر ، انه أقسم لايعوله كما كان يفعل لفقره . فكانت تلك بادرة غضبه الوحيدة

وها هنا ملحظ لا تفوتنا عبرته العامة :

مسطح هذا ابن خالة أبى بكر ، وأســير فضله لأنه يعوله ويعول أمه . ومسطح هذا بين كبار مروجى هذه الفرية القــذرة التى تصم أبا بكر وتقمئه بما هو أنكى من القتل .

أنقول : اتق شر من أحسنت اليه ؟

نقولها نعم ، ونقول أيضا :

لا حيلة لك أمام شر بعض الاخساء ، ولا سيما ان أنت أحسنت اليهم ، لأنهم يضمرون من الحقد على كل حال ما قد لا يجسرون على التعبــير عنه ، حتى اذا سنحت السانحة كانوا أدنأ الاعداء ، بغير سبب ظاهر

للبغضاء ، الا ما ينطوون عليه من غل ووضاعة .

كل العـــداوات قد ترجى ازالتهـــا
الا عداوة من عاداك عن حسد ...

ثم ملحظ آخر :

ليذكر أهل الوعى ان ليس كل فرية قذرة لا تتلقى من المفترى عليه ردا فهى قائمة على أســاس . فأهل الـكرامة يترفعون عن النزول بأنفســـهم الى حضيض الاتهـــام وكأنه شيء مشروع للمرجفين ، وكأنهم بحاجة الى الدفاع عن طهارتهم أمام كل وبش يخطر له الخــوض فى أعراضهم بسوء نية ، فهم أكرم على أنفسهم من هذا. ثم يجب الا ننسى غضاضة الانشغال بهذه الدناءات التى تشبه المخاط ، أن ترفعه تتقزز ، وان تتركه تتقزز ... وان من المفتريات ما هو أنكى من المخاط ، وأدعى للتقزز من البراز ...

لذا كان قصارى سخط أبى بكر أنه أقسم لا يعول ابن خالته الآثم ، واستثنى أمه لانها كانت بريئة من ذنبه .

ومع هذا كله ، فانه حبا لمحمد ، ولما يأتى به محمد ، ما أن نزل القرآن يسأل :

ـ الا تحبون أن يغفر الله لـكم ؟ والله غفور رحيم !

حتى قال أبو بكر بغير تردد :

ـ بلى والله ! انى لأحب أن يغفر الله لى ! والله لاانزع نفقتى من مسطح أبدا ...

وملحظ أخير ، قبل ختام هذه السطور :

ذلك الحض على الصفح فى تلك الآيات من القرآن ، تأسيسا على حب الناس أن يغفر الله لهم ، ما أقربه فى وقعه على النفس عندى من قولنا نحن المسيحيين فى صلاتنا : « رب اغفر لنا ذنوبنا مثلما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا ... »

يوم الحديبية

وما يوم الحديبية بسر !

بعد الافك بقليل ، فى آخر سنة ست للهجرة بعينها ، خرج محمد فى ذى القعدة معتمرا ، قاصدا مكة حيث الكعبة ، لا يريد حربا . ويقول فى ذلك ابن اسحق :

« واستنفر (النبى) العرب ومن حوله من أهل البوادى من الاعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت الحرام ... وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والانصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، ويعلم الناس أنه انما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له » .

وعند عسفان ــ على مسافة مرحلتين من مكة ــ علم محمد أن قريشا خرجت بقضها وقضيضها وجعلت على قيادة خيلها خالد بن الوليد ليمنعوه من دخول مكة بالقوة ، فسلك بالمسلمين طريقا آخر ، حتى اذا كان عند الحديبية نزل بمن معه وانتظر وفد قريش .

وتعاقبت الوفود وهو يقول لهم انه لا يريد حربا . لا يريد الا العمرة والطواف بالبيت . وهم يأبون الا صده .

يقول الزهرى :

« ثم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة ابن مسعود الثقفى ... فخرج حتى أتى النبى فجلس بين يديه وقال :

ـ يا محمد ! أجمعت أوشاب النـاس ثم جئت بهم الى بيضتك (أهلك) لتفضها (تكسرها) بهم ؟ ! انها قريش ! قد خرجت معها العوذ المطافيل (النسـاء والاطفال) . قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لن تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله ! لـكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا !

« وأبو بكر الصديق خلف رسول الله قاعد ، فقال :

ـ أمصص بظر اللات ! أنحن ننكشف عنه ؟ »

أبو بكر قاعد « خلف » محمد .

موقع يتخذه اجلالا لمحمد ، حتى لا يحاذيه فى المجلس وهو يستقبل وفد الاعداء . ويتخذه فى الوقت نفسه ليحميه من ظهره ، والظهر فى هـذا المقام أحوج الى الحماية من الوجه . ويظل سـاكتا لأن الـكلمة لمحمد وحده . حتى اذا عرض الرجل بأن أصحاب محمد قد يخذلونه عند لقاء جيش قريش ، لم يملك هذا الرجل الوقور لسانه ، فسب الرجل بذلك اللفظ المقذع ... سبه هذا السب ، وهو الذى عرف بدماثة اللفظ وعفة اللسان فى معظم الاحيان ، حتى ان رجلا توعده بقوله ذات يوم :

ـ لأسبنك يا أبا بكر سبا يدخل معك قبرك !

فأجابه :

ـ بل معك والله يدخل لا معى !

وهو بعينه الذى أقذع الأفلون فى سب عرضه كما رأينا فلم يتحرك لسانه بجواب ، فضلا عن الاقذاع .

ولـكن الامر هنا يتعلق بولائه وصحبه لمحمد ، وكل ما يمس محمدا فكأنما يمس داخل نفس أبى بكر لغما شديد الانفجار .

ها هنا اذن لا محل للوقار والدماثة .

ها هنا يصدر عن أبى بكر ما يصدر عن البركان من الشواظ !

وندع هذا لنمضى فى سياق أحداث الحديبية :

أرسل محمد رسولا من قبله الى قريش ليبلغ أشرافها ما جاء له ، وأركبه بعيرا من ابله (ابل النبى) فقتلوا البعير ، وردوا الرجل خائبا بعد أن هموا بقتله. فأرسل محمد زوج ابنته عثمان بن عفان ــ لـكثرة عصبيته فى قريش ــ فاحتبسوه عندهم ، وبلغ النبى أنهم قتـلوه فاستعد لحربهم ، ودعا الناس الى بيعة الرضوان تحت الشجرة . قيل بايعهم على الموت ، وقيل ــ على رواية جابر بن عبد الله ــ بايعهم على ألا يفروا . وكانت عدة المسلمين سبعمئة ، وقيل ألفا وأربعمئة . ثم علم النبى أن عثمان لم يقتل ، فعدل عن حرب قريش .

يقول الزهري :

« ثم بعثت قريش سهل بن عمـرو ، من بنى عامـر ابن لؤى ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له :

ــ أيت محمدا فصالحه ، ولا يكن فى صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ...

« فأتاه سهل بن عمرو . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، قال :

ــ قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل !

« فلما انتهى سهل بن عمرو الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم تكلم فأطال الـكلام ، وتراجعا (راجع كل منهما الآخر فى كلامه) ثم جرى بينهما الصلح ...

« فلما التأم الامر (على الرجوع هذا العام عن مكة وعلى أن من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشـــا ممن مع محمـــد لم يردوه عليه !) ولم يبق الا تسطير كتاب الصلح ، وثب عمر ابن الخطاب فأتى أبا بكر فقال له :

ــ يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟

« قال أبو بكر :

ــ بلى !

« قال عمر :

ــ أو لسنا بالمسلمين ؟

« قال أبو بكر :

ــ بلى !

« قال عمر :

ــ أو ليسوا بالمشركين ؟

« قال أبو بكر :

ــ بلى !

« قال عمر :

ــ فعلام نعطى الدنية (الذل) فى ديننا ؟

« قال أبو بكر :

ــ يا عمر ! الزم غرزه ! (أمره وطريقتـــه) فانى أشهد انه رسول الله !

« قال عمر :

ــ وأنا أشهد انه رسول الله !

« ثم أتى عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ــ يا رسول الله ! ألست برسول الله ؟

« قال النبى :
— بلى !
« قال عمر :
— أولسنا بالمسلمين ؟
« قال :
— بلى !
« قال عمر :
— أوليسوا بالمشركين ؟
« قال :
— بلى !
« قال عمر :
— فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟
« فقال النبى :
— أنا عبد الله ورسـوله . لن أخالف أمره ! ولن يضيعنى ! »

وأذعن عمر .

وعند هذا نقف قليلا لننظر فيما كان من أبى بكر فى هذا المقام ...

وانا لنرى من أمره ها هنا نظير ما كان من أمره ذات يوم قبل ذلك بسنين ، غداة ليلة الاسراء .

« والله لئن كان قال ، لقد صدق ! »

فمحمـد ها هنـا — عند أبى بكر — منبع الحق والصواب ، وهو مقياسهما الذى لا معقب عليه ، كما كان فى ذلك اليوم حين كذب النـاس ما أنبأهم به من حديث الاسراء . وكما كان عنده دائما فى كل موقف ، وفى كل مقام ، أيا كان الموقف والمقام !

كان ظاهر الامر وما درج عليه حال الناس يناقض

حديث الاسراء . ولكن حديث الاسراء مصدره محمد. اذن فما يخالفه هو الباطل مهما كان من أمر التجربة والعقل المنطقى المألوف ! فأبو بكر بكل ما أوتيه من عقل ومنطق وحصافة تابع لمبدأ جديد هو محمد ، وعقله ومنطقه وحصافته وتجربته فى خدمة هذا المبدأ وفى حدود هذه الخدمة وكفى ! انه لم يفقد حصافته ولكنه طوعها للمبدأ القائم تطويعا .

وظاهر الامر أن الحديبية خذلان للمسلمين واذلال لكرامتهم ، وتنافى ما وعد الله المؤمنين من العزة والنصر . ولكن الصلح على هذا النحو ارتآه محمد وارتضاه ، فما ارتآه محمد وارتضاه هو الحق والصواب والخير ، وما يخالفه هو الباطل الحقيق بالمهانة والاستخزاء مهما يكن من أمر النظر الذهنى والاحساس الظاهر ...

وها هنا أيضا يبرز الفارق الحاسم بين الرجل من طراز ابى بكر والرجل من طراز عمر بن الخطاب ...

ابو بكر أحب محمدا حبه الفذ فصدقه بلا قيد ولا شرط .

وعمر اقتنع بما جاء به محمد ، فأحبه فى ضوء عقله ، ولذا فهو على عمق ايمانه لا يستغنى بالايمان عن العقل ، بل هما عنده صنوان ...

وهكذا نجد أبا بكر « أحادى المحور » منذ اسلامه ، تدور الحياة كلها ويدور الكون عنده حول محور لا محور سواه .

ونرى عمر بن الخطاب « ثنائى المحور » وكأن عقله وايمانه فرسا رهان . فاذا بدا بين محوريه تباين ثارت ثائرته واستبدت به الحيرة ...

أجل . هو يوم آخر كيوم حديث الاسراء .

وآية ساطعة أخرى على أن « حب محمد » ذلك الحب الفذ هو المحور، الاوحد الذى باتت تدور حوله حياة أبى بكر فى سلاسة لا أمت فيها ولا اضطراب ...

ومَرِضَ محمد ..

وتمر السنون وابو بكر حوارى محمد ووزيره فى كل شأن . فى مواطن الغزو . وفى يوم الفتح . وبعد الفتح. الى أن كان يوم اعتلت فيه صحة محمد .

يقول ابن اسحق بسند ينتهى الى عائشة :

« وتتام به وجعه « اشــتد » وهو يدور على نســائه حتى استعز به (غلبه على نفسه) وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى فأذن له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى بين رجلين من أهله عاصبا رأسه تخط قدماه حتى دخل بيتى ، ثم غمر رسول الله (أصابته غمرة المرض أى شدته) واشتد به وجعه فقال :

ــ هريقوا على سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج الى الناس فأعهد اليهم ...

« فأقعدناه فى مخضب لحفصة بنت عمر ؛ ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول :

ــ حسبكم ! حسبكم ! »

وفى رواية الزهرى :

« حدثنى أيوب بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر

لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال :

ــ ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وما عنده فاختار ما عند الله ...

« ففهمها أبو بكر ، وعرف أن النبى نفسه يريد ، فبكى وقال :

ــ بل نحن نفديك بأنفسنا وابنائنا !

« فقال النبى :

ــ على رسلك يا أبا بكر !

« ثم قال :

ــ انظروا هذه الابواب اللافظة فى المسجد فسدوها، الا بيت أبى بكر . فانى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة يدا منه ... »

وفى رواية ابن اسحق بسند ينتهى الى بعض آل أبى سعيد بن المعلى :

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ فى كلامه :

ــ فانى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ... »

حس مرهف أشد ما يكون رهافة فى كل أمر يتعلق بمحمد . ومحمد مريض ولم يكن من قبل يشكو مرضا . والوجع عليه شديد حتى لتكاد قدماه تعجزان عن حمله فهو يجرهما وتخطان فى الارض من ثقل المرض عليه وافتقاده الجهد . وهو قد آثر عائشة بنت أبى بكر بالرقاد فى بيتها حين اشتد عليه مرضه . فلا عجب يقع كلام محمد على المنبر وقعا خاصا لدى أبى بكر ، فيكون المتفرد بادراك ما يرمى اليه من النذير باقتراب منية محمد ، فيبكى .

ويهون محمد على صاحبه الخطب الذى لا محيص

عنه ، ثم يردف ذلك بوصيته أن يسدوا جميع الابواب المفضية الى المسجد ، مكان الصـــلاة ، ورمز الدولة الدينية ومقرها ، والساحة المفضية الى بيوت النبى ، فلا يتركوا الا بابا واحدا ، هو باب أبى بكر ، ويزكيه للناس هذه التزكية التى لم يؤثر بها أحدا سواه . فلو كان لمحمد أن يتخذ من البشر خليلا لـكان أبا بكر .

تمييز فى الرتبة من غير عنوان التمييز . فلولا الحائل لـكان المتفرد من دون الناس جميعا بمقام الخليل الذى يجمع كل عناصر الحب وسماته. وأنه ليخصه بالتوديع، ويسرى عنه لوعة الفراق ببشارة التلاق :

— ... ولـكن صحبة واخاء ايمان حتى يجمع الله بيننا عنده !

وانفراد ابى بكر بالفطنة الى مرمى نعى النبى نفسه للناس فى هذه الخطبة دليل قوى على الاحساس الذى يربط المحب بحبيبه .

وافراد النبى أبا بكر بهذه التحية والمنزلة دليل قوى على الوشيجة القلبيـــة المتبـــادلة بينهما ، على تفاوت مضمون الشحنة الوجدانية عند هذا وذاك .

فأبو بكر يحب محمدا حب التقديس والولاء .

ومحمد يحب أبا بكر حب الاعزاز والتقدير .

ومنزلة محمد عند أبى بكر لا تعدلها منزلة أحد من البشر كائنا من كان ، حتى نفسه وولده .

ومنزلة أبى بكر — وان بقيت منزلة مهتـــد مؤتم — الا انها فى الصدر من منازل المهتدين المؤتمين لا تعلوها من بينهم منزلة كائن من كان ، ولا تعلو اليها .

وهكذا على اختلاف المنزلتين ، يبرز كل منهما عنـــد صاحبه أشرف بروز يسمح به قدره الطبيعى ...

ثم عاد النبى الى فراشه فى بيت عائشة ، وزادت

وطأة المرض عليه فغشى عليه من الحمى فى فترات كثيرة ، فقال ـ برواية الزهرى عن عائشة ـ :

ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس !

فجعلت عائشة تتعلل :

ـ يا نبى الله ! ان أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت أسيف كثير البكاء اذا قرأ القرآن ...

فكرر عليها أمره أن يصلى بالناس أبو بكر ، وعادت عائشة تتعلل ، وتغرى بالتعلل معها حفصة ، حتى ضجر النبى وقال :

ـ انكن صواحب يوسف ! فمروه فليصل بالناس !

وفى رواية ابن اسحق أن النبى أمر عبد الله بن زمعة أن يدعو أبا بكر للصلاة بالناس ، وكان أبو بكر غائبا ، ووجد أمامه عمر بن الخطاب فقال :

ـ قم يا عمر فصل بالناس !

« فقام عمر ، ولما كبر سمع النبى صوته ، وكان عمر رجلا مجهرا (جهير الصوت) فقال النبى :

ـ فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ! يأبى الله ذلك والمسلمون !

« فبعث الى أبى بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس .. »

وهى آية أخرى ناطقة بعلو شأن أبى بكر على سواه من الناس عند محمد ، وانه فى الصدارة بين المهتدين به لا يعدل به أحدا . وأن محمدا لم يجد من يقوم مقامه سواه ، وان كان عمر بن الخطاب !

ومثلها فى الدلالة ما جاء فى رواية ابن اسحق :

« لما كان يوم الاثنين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا رأسه الى صلاة الصبح ، وأبو بكر يصلى بالناس ...

« فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرج الناس فعرف أبو بكر أن النـــاس لم يصنعوا ذلك الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكص عن مصـــلاه (تراجع عنه) فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظهره وقال : « صل بالنـــاس ! »

« وجلس النبى الى جنبه ، فصلى قاعدا عن يمين أبى بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلمهم رافعا صوته ، حتى خرج صوته من باب المسجد ...

« فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلامه قال له أبو بكر :

ـ يا نبى الله ! انى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب ، واليوم يوم بنت خارجة (زوجته فى السنح ضاحية المدينة) أفآتيها ؟

« قال النبى : نعم !

« ثم دخل النبى ، وخرج أبو بكر الى أهله بالسنح »

وليس همى ها هنـــا تزكيـــة جـــدارة أبى بـــكر بخلافة محمد ، ولـــكن الذى يعنينى ما كان له من مكانة عند محمد لا تعدلها مكانة . مثلما كانت مكانة محمد عنـــد أبى بكر لا تعدلها مكانة، على اختلاف المـكانتين باختلاف الرجلين ...

وهذه النصوص قاطعة بذاتها ، بصرف النظر عما حدث بعد ذلك من معرفة الناس قدر أبى بكر واختيارهم اياه لخلافة محمد . فســـواء فعلوا أو كانوا لم يفعلوا فليس يغير هذا شيئا على الاطلاق من علو مكانة أبى بكر عند نبيه وحبيبه ، ومن حرصـــه على التنويه به قولا وتقديمه على سواه عملا ، وانكاره أن يقوم غيره مكانه ، واصراره الغاضب على دحض معارضة عائشة لقيام أبيها مكان النبى فى الصلاة . فليس عنده مثـــل أبى بكر !

يوم محمد

ولكن الانتعاش الذى حدث لمحمد ذلك الصباح كان اشبه بصحوة الموت . فلم يلبث أن انتكس ودخل فى النزع ، وهو ــ برواية الزهرى ــ مضطجع فى حجر عائشة « وتوفى حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم .. »

وقام عمر بن الخطاب فى الناس فقال :

ــ ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ! وان رسول الله صلى الله عليه وسلم مامات ! ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، وليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات ! »

موقف مؤمن شديد الاعجاب ، حتى ليأبى أن يصدق أن محمدا بشر يلم به الموت كما يلم بسائر البشر ..

ويستطرد الزهرى قائلا :

« واقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شىء حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبرة (نوع من ثياب اليمن) فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : « بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب

١

الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا !»

« ثم رد البرد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :

ــ على رسلك يا عمر ! أنصت !

« فأبى عمر الا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت اقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه اقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد أبو بكر الله واثنى عليه ثم قال :

ــ أيها الناس ! انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ! ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت !

« ثم تلا هذه الآية :

ــ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين !

« فوالله لكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبى بكر ، فانما هى فى أفواههم . وقال عمر : « والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (دهشت) حتى وقعت الى الارض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات ! »

صورة تناقلتها الألسن على مدى الاجيال ، ورآها الناس ــ بحق ــ فتحا قائما برأسه ، ثبت العزائم الواهنة ، وأرسى قواعد الايمان فى النفوس فلا تميد بذلك الزلزال العظيم ، واستخرج منها الأكثرون حقيقة شائعة : ان المفارقة تامة بين أبى بكر وعمر ، وان أبا بكر كان رجل الواقع حيث كان عمر رجل العاطفة .

وهذا كلام لا ينفذ الى ما وراء السطح من سلوك الرجلين الظاهرى ..

فعمر كان رجل عاطفة فى هذا المقام ولا مراء . ولكن

أبا بكر كان أيضا رجل عاطفة فى هذا المقام بالذات على الخصوص ، وعاطفته أقوى من عاطفة عمر وأعمق !

كانت عاطفـة أبي بكر على مستوى أعلى : ليست عاطفة الجزع أمام مفاجأة مصمية ، أو عاطفة اشفاق على النفس من هول ما منيت به من رزء لا كفاء له ــ وهو حال عمر ــ ، بل كانت عاطفة الاحساس بالواجب نحو محمد فى هذا الوقت العصيب . كانت عاطفة المشغول بمحمد لا المشغول بنفسه . كانت عاطفة من ينسى مصيبته ــ على جسامتها وفداحتها ــ فلا يذكر شيئا سوى ما ينبغى لمحمد وقد ألم به طائف الموت ، حذر امتداد يد الموت الىأكثر مما لا حيلة لأحد فى ردها عنه ، وهو جسم محمد .

أما محمد المعنى . أما محمد المبدأ . أما محمد الدعوة . أمامحمد الدولة . أما محمد الهادى ، فذلك ما ينبغى ألا يسمح للموت بالاجتراء عليه !

انها العاطفة الراقية التى تلزم صاحبها وتلهمه يقظة العقل والحس ، وضبط النفس ، وحضور البديهة ، وتوقد القريحة ، كى يكون نعم الحارس امام هذا الغائل الرهيب ، فلا يسمح له بتجاوز ما وقع فى يده فعلا ، وهو على كل حال أمر لا محيص عنه ، فلا جدوى من الجمود عنده . وما يستغرقه الجزع من همته هو أحوج ما يكون الى استجماعه للقيام بالحراسة الواعية الضارية لتراث محمد حتى لا يذهب بذهاب بدن محمد ..

عاطفة استغرقت عمر .

وعاطفة استنفرت أبا بكر !

عاطفة جازعة أطاشتها الكارثة ، فى مقابل عاطفة أيقظ الهول المحدق أرقى ملكاتها ، وأذكى قريحتها وابتعث كوامن همتها وبديهتها ..

فلا غرو ان كان أبو بكر ـ لأنه ذلك المحب الفذ ـ اليق الرجلين أن يكون رجل الساعة !

وننظر فى كلمته الملهمة التى وجهها الى نبيه وحبيبه فى ذلك الموقف الرهيب ، فماذا تراه قال ؟ قال :

ـ أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها !

تقرير واقع لا حيلة فيه . ولكن أى شىء يترتب على هذا الاقرار ؟ أهو جزع الواله الفارق فى دمعه المدرار ؟ أهو عجز المغلوب على أمره أو طيش من لا يلم شتات لبه المستطار ، ولا يقر له فى ساعة الروع قرار ؟

كان ذلك ممكنا . وهو ما فعله الكثيرون فى ضحوة ذلك النهار ..

ولكن أبا بكر رتب على ذلك الاقرار شــيئا من نوع آخر تماما : رتب عليه ما عبر عنه بالشــطر الآخر من عبارته الوجيزة العميقة التى كشفت عن مدى ما لديه من اقتدار واصرار ..

قال : « ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا .. ؟ »

وها هنا بيت القصيد ..

الموتة الحتم كنت لا محالة ذائقها يا محمد ، وما كان بيدنا ولا بيد أحد أن يردها عنك !

أما الموتة الأخرى : الموتة التى تصيب رسالتك التى بعثت بها وعشت لها ، وتصيب المعنى والمثل الأعلى الذى تجسم فيك ، فهذه موتة بيدنا نحن الا تدنو منك . وهذا عهد علينا ألا تذوق هذه الموتة أبدا ..

انه قرار أنطق به لسان أبى بكر ذلك الحب الفذ الذى يستنهض العزم ، ويلهم الحس والفهم .

وبلسان هذا الحب المتين الفذ المحلق الملهم خرج الى الناس يقول لهم : أما محمد البشر فقد مات ، وأما الذى كان محمد رسوله الى الناس فحى لا يموت ! أما

محمد البشر فما كان له بقاء ، وأما محمد المعنى والمثل فعصى على الفناء !.. أى شىء الا هذا ! الا أن الموت نفسه لن يقوى عليه ، ولا سبيل له اليه !

وبدافع من هذا الحب الفذ الملهم جند أبو بكر نفسه وقاء لمحمد المعنى الذى ينبغى الا تمتد اليه غائلة الموت. وصارت حياته منذ تلك اللحظة وقفا على هذه الغاية ، حتى النهاية !

لقد كان محمد عنده معيار الصدق والصواب الذى يجب على الواقع الحسى أن يخضع له ويطابقه والا فعليه العفاء! واليوم !

اليوم على الواقع الحسى أيضا أن يخضع لحقيقة واحدة : ان محمدا المعنى . وكل ما عاش له محمد . وما كان يمثله محمد . هو معيار الثبات والبقاء أولا وأخيرا، وكل ما خالف هذا المبدأ الأعلى فهو وهم باطل ولو تصدى لاثباته الانس والجن بعضهم لبعض ظهيرا .. !

ما يمثله محمد كان فى حياة محمد أساس الحق الاوحد. وما يمثله محمد صار بعد وفاته أساس الوجود الاوحد! «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا !» فمحمد كان لسان السماء. ورسول الله . وهذا المعنى ادعى للتأكيد فى مواجهة الموت أكثر مما كان مؤكدا فى مواجهة الحياة

حب محمد ألهمه فى حياته الولاء والفداء . وحب محمد ــ بعد موت محمد ــ ألهمه غيرة المحب الصادق على كل ما يجعل حبيبه موصول البقاء عالى اللواء عصيا على سطوة الفناء ..

وبهذا الاحساس المستغرق واجه أبوبكر أفدح الأرزاء، واستقبل ما أتى به الغد من الاعباء ، مستعدا لتحدى الدنيا وما فيها غير مستريب لحظة واحدة فى صدق احساسه أو تتبدل الارض غير الارض والسماء غير السماء !

دهْرُ الموت !

تمت البيعة لأبى بكر ، فصار خليفة محمد .
وكانت هذه البيعة ـ بيعة السقيفة ـ « فلتة » كما قال عمر ، فى ذلك الاجتماع العاصف فىعقر دار الانصار، مما يعرفه الخاص والعام . ولسنا فى هذا الكتاب معنيين بسرد الأحداث ـ على جسامتها ـ لذاتها ، وانما الذى يعنينا من الأحداث مدلولها لا ظاهرها الذى لا يجهله أحد .
انتهى الأمر الى أبى بكر اذن . فأعطيت القوس باريها. وصار أشد الناس حبا لمحمد ، هو بعينه حارس مجد محمد ، والحفيظ على ما أرسى قواعده وما مثله فى حياته للناس .
وبوحى هذا الحب ، وبوحى هذه الغيرة ، وقف أبو بكر يقول للناس غداة وفاة النبى ، على ما يذكره الطبرى :
ـ أيها الناس ! انما أنا مثلكم . وانى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطيق ان الله اصطفى محمدا على العالمين ، وعصمه من الآفات. وانما أنا متبع ولست بمبتدع. فان استقمت فتابعونى . وان زغت فقومونى . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة

سوط فما دونها . الا وان لى شيطانا يعترينى ! فاذا اتاني فاجتنبوني !

كلام رجل يقدر مسئوليته التى لا مسئولية مثلها تمام التقدير . فهو مدرك كل الادراك حدود طاقته ، ومدرك كل الادراك ذلك الفارق بين ذاته وذات محمد ، وبين وضعه ووضع محمد :

ــ ابها الناس ! انما أنا مثلكم !

لا يعنى بذلك انه مثلهم بشر ، فقد كان محمد بنص القرآن مثلهم بشرا . بل يعنى أنه بشر ليس له مدد من الوحى ولا سند من العصمة .

ــ وانى لا أدرى لعلكم ستكلفوننى ما كان رسول الله يطيق .

وكيف عساه يطيق ما كان محمد يطيق ؟ أليس : « الله قد اصطفى محمدا على العالمين وعصمه من الآفات ؟ »

ذلك اذن جماع الفوارق بينه وبين محمد : محمد ليس كمثله أحد ــ وان كان بشرا ــ لأن الله اصطفاه على العالمين من دون معاصريه جميعا ، وخصه وحده « بالعصمة من الآفات » .

أبو بكر اذن يجب أن يراه رعيته على حقيقته : رجلا مثلهم غير معصوم من الآفات والنقائص . وليس الله هو الذى اصطفاه ، وانما هم الذين اختاروه وبايعوه وارتضوه .

فأين اذن يلتمس المرجع للاصابة والسداد ، حيث لا عصمة من الزلل والآفات ؟

محمد المصطفى المعصوم ذلكم المرجع !

ــ .. وانما أنا متبع ولست بمبتدع !

ليس من عند أبى بكر ما يأمرهم به منذ اليوم ، ولا عن هواه ورأيه يصدر ، بل عن فعل محمد وقوله ،

فان أطاعوه انما محمدا على الحقيقة يطيعون !
وشعار الاتباع هنا أوفق شعار لقوم حديثى عهد بدين تحول بهم عن دين أجدادهم . ولئن دانوا به فعن طاعة لمن ينطق بوحى السماء . أما وقد انقطع الوحى وصار الأمر لبشر منهم فلا أساس لولائهم ولا ضمان !

وتأسيسا على اقامة هذا المرجع الاوحد للسياسة والحكم ، يجب أن يكون هذا المرجع فوق الجميع بلا استثناء : فوق أبى بكر وفوق جميع الرعية على السواء .
ويستتبع هذا حتما :
ـ فان استقمت (على هذا الاتباع) فتابعونى ، وان زغت فقومونى ..
هى اذن « سيادة القانون » التى ليس مثلها ضمان للعدل . والعدل أساس الملك ، وليس عنه للرعية غنى .
ذلك العدل الذى تمثل فى محمد :
ـ وان رسول الله قبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة سوط فما دونها !
ولكن أين هو من هذا الكمال فى العدل والتنزه عن الظلم ؟ انه لأمين كل الامانة حين يطلعهم فى نفسه على آفة تثلم العدل حيث كان محمد مبرءا من الآفات :
ـ الا وان لى شيطانا يعترينى ، فاذا اتانى فاجتنبونى!

يريد أن غضبه ان ثار فليبتعدوا عنه كيلا يصيبهم من شواظه بظلم لا يملك له فى حينه كبحا ، ويركبه الندم عليه حين يثوب الى المعهود من حلمه .

أمين هو جد أمين ، يطلع رعيته على عيبه الخفى ، كما يطلع التاجر الشريف من يشترى منه سلعة على عيبها المستور ، ابراء للذمة ووفاء بالعهد .
الاتباع هنا ضمان الرعية .
والاتباع هنا ضمان الراعى أمام نفسه انه لن يحمل

الناس على هواه ، وانما هو قائم بواجب ليس اليه مرجعه ، بل الى من كان محور حياته منذ بسط اليه يده مبايعا .

والاتباع بعد هذا منه ما هو سهل يقوم على تنفيذ أمر صريح للنبى ، ومنه ما ليس سهلاً لان النبى ليس له فيه أمر صريح . وعند غياب النص ترجع المسألة الى « الروح » .

وفى هذه المواقف « الجديدة » يتبين الفرق بين «التابع» الغفل الذى لا ينبع تنفيذه وسلوكه فى أعماق نفسه المتشبعة بالايمان بالمتبوع ، وبين «الحوارى» الذى يفيض اتباعه وسلوكه عن التشبع بحب متبوعه وفهمه .

فى هذه المواقف « الجديدة » تتكشف عبقرية المحب الذى « يعيش » حياة حبيبه نيابة عنه . يعيشها له ، وكأنه جعل من نفسه هيكلا تحل فيه روح ذلك الحبيب وتمارس فيه ارادتها وكأن عادى الموت لم يستأثر به !

ومنذ مات محمد صارت جميع المواقف « مواقف جديدة » ، لان الظروف كلها تغيرت تغيرا فاحشا .

وكان أول هذه المواقف التى انبرى لها ابو بكر بعد بيعته مسألة بعث أسامه بن زيد بن حارثة بجيشه الى تخوم الشام .

يقول ابن اسحق :

« وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اسامة بن زيد بن حارثة الى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون . فبينا الناس على ذلك ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكواه الذى قبضه الله فيه .. واستبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فى بعث أسامة بن زيد ، وهو فى

وجعه ، فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناس قالوا فى أمر أسامة :

ـ أقر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار !

« فحمد النبى الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال :

ـ أيها الناس ! انفذوا بعث أسامة ! ..

« ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانكمش (أسرع) الناس فى جهادهم واستعز (استبد) برسول الله وجعه فخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ ، فضرب به عسكره ، وتتام اليه الناس . وثقل رسول الله فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... »

وفى رواية الطبرى استئنافا لهذا الامر :

« ولما بويع أبو بكر قال :

ـ ليتم بعث أسامة !

« وقد ارتدت العرب اما عامة واما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق .. والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم وقلة عددهم . فقال الناس لأبى بكر :

ـ ان هؤلاء جل المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى لك ان تفرق عنك جماعة المسلمين !

« فقال أبو بكر :

ـ والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته ! »

وفى رواية عن الحسن البصرى :

« ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته

بعثا على أهل المدينــة ومن حــولهم ، وفيهم عمر بن الخطاب ، وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله ، فوقف أسامة بالناس ، ثم قال لعمر بن الخطاب :

ــ ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه ، يأذن لى أرجع بالناس . فان معى وجوه الناس ، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله (متاعه النفيس وأهل بيته) وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ! »

موقف جديد خطير !

بل هو أخطر موقف يتعرض له الاسلام منذ انتشر وصارت له دولة . وقائد الجيش الذى به جملة الناس وخاصتهم أول من أدرك خطورة الحالة ، وأن « أمن الدولة » أولى بالاهتمام من الغزو الخارجى ، ورجوعه بالناس أليق بمقتضى الحال . وكان فى جيشه عمر بن الخطاب فرأى هذا الرأى ، وقبل القيــام بالمهمة التى وكلها اليه القائد كى يراجع الخليفة .

ثم موقف جديد آخر تسوقه بقيــة حديث الحسن البصرى :

« وقالت الأنصار (لعمر) :

ــ فان أبى الا أن نمضى فأبلغه عنا واطلب اليــه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة » .

ها هنا اذن موقفان جديدان :

ارتداد العرب عامة وخاصة . جماعات وأفرادا حتى ليخشى أن يتخطف المشركون المسلمين

واستياء الانصار من تولى القيادة « غلام حديث السن » على جلة الشيوخ منهم ومن المهاجرين ..

فماذا فعل أبو بكر ؟

يمضى الحسن البصرى فى حديثه قائلا :

« فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة (من الرغبة فى الرجوع بجيشه الى المدينة ليكون ردءا للخليفة وللمسلمين فيها) فقال أبو بكر :

ـ لو خطفتني الذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم !

« فقال له عمر :

ـ فان الانصار أمروني أن أبلغك وانهم يطلبون اليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة !

« فوثب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأخذ بلحية عمر فقال له :

ـ ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه ؟! »

اذن فالجواب لا ثم لا فى المسألتين !

« الموقف الجديد » بكل خطره انما هو تحد آخر ينبرى به الموت بعد أن استأثر بجسم محمد متطاولا الى كل ما هو حى لا يموت فى محمد !

وهذا التحدى هو ما جند أبو بكر نفسه ـ بدافع غيرة المحب الفذ ـ كى يقهره . لا لأنه لا يعقل اطلاقا أن ينتصر الموت على ما له من جبروت فيستأثر بارادة محمد وما يمثله محمد !

« تمرد » أو « لا تمرد » . ردة أو لا ردة . ليفعل الناس جميعا ما شاءوا . فليس لهم الى اماتة أى شىء يتصل بروح محمد وارادته ومجده من سبيل !

وارادة كل انسان أبرز ما يتصل بشخصه وروحه . فلتكن ارادة محمد اذن أقوى من الموت . ومن كل ما يجنده الموت من الغوائل والعوامل ، بالغة ما بلغت من الجسامة والهول !

أمحمد مات حقا ؟

أو يظنون هذا ؟
لم يمت والله الا بدنه !

وآية هذا أن يمضي كل شيء وكأن محمدا لم يمت . فاذا الموت هو الذى اندحر ، حيث خال الكثيرون ـ أو خيل اليهم ـ انه دحر محمدا وانتهى الامر .. !

ولو تخطفتنى الذئاب لأتمن بعث أسامة !

ولو تخطفتنى لا استبدل بأسامة !

وما هو بالاتباع الحرفى ـ وان بدا كذلك فى الظاهر ـ لأنه اتباع نابع من الروح . وعن تقـدير لكل جوانب الموقف الجديد . اما الاتباع الحرفى السطحى فيكون عن جهل بجوانب الموقف الجديد أو غفلة عنها .

فلئن شمل هذا السلوك من أبى بكر الجانب الظاهر من أوامر النبى ونواهيه فلأن هذا الظاهر واجهة الباطن الحى ونتيجة حتميه لازمة عنه . أما المتبع الحرفى حفا فهو الذى لا يرى الا الحروف أو الظاهر ولا يتجاوزها تقديره ، فيتبع عن غفله وعجز ، لا عن بصيرة وذكاء .

لم يكن عناد الجاهل الأحمق .

بل كان أصرار المؤمن وغيرة المحب !

كان يدرك أنه فى « موقف جديد » . ولكنه لا يعقل ان تكون للمواقف الجديدة ـ بالغة ما بلغت من الجبروت ـ سطوة على مبدأ الحق عنده ومبدأ الوجود : على ارادة نبيه الذى لا يراه الا منتصرا على الموت ، لأن ارادته من ينبوع هيهات يتطاول اليه الموت !

وبهذه الروح انثنى ليواجه حروب الردة التى انتشرت فى سائر أرجاء شبه الجزيرة العربية كما تنتشر النار فى الهشيم !

وانتصر أبو بكر

وهل تراني بحاجة الى بسط تفصيلات أحداث حروب الردة الطاحنة ؟

أمر حروب الردة يعرفه العام والخاص . وهنــــاك مؤلفات استقصت جوانبهــا العســكرية وأخبارها فى اسهاب . ثم هى لا تعنينى فى كتابى هذا الا من حيث مدلولها على نفسية أبى بكر .

يقول الطبرى :

« ارتدت العرب عوام أو خواص . وتوحى (ادعى الوحى) مسيلمة وطلحة فاستغلظ أمرهما .. وكذلك سائر الناس فى كل مكان !

« وقدمت رسل النبى من اليمن واليمامة وبلاد بنى أسد ووفود من كان كاتبه النبى وأمر أمره فى الأســود العنسى ومسيلمة وطلحة بالاخبار والكتب . فدفعــوا كتبهم الى أبى بكر ، وأخبروه الخبر ، فقــــال لهم أبو بكر :

ــ لا تبرحوا حتى تجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتهم وأمر ، وبانتقاض الامور !

« فلم يلبثوا أن قدمت كتب أمراء النبى من كل مكان بانتقاض عامة أو خاصة . وتبسطهم بأنواع الميــل على المسلمين .. وكان أول من صادم عبس وذبيان : عاجلوه

قبل رجوع أسامة ! »

أبو بكر اذن كان يعلم سلفا مدى خطورة « الموقف الجديد » . فما أن جاءته رسل بأخبار انتقاض العرب هنا وهناك حتى أخبرهم أن « أدهى مما وصفتهم وأمر» لا تلبث أن تأتى أنباؤه !

عن ادراك وبصيرة اذن أقدم على انفاذ جيش أسامة الى الشام وهو مفتوح العينين على ما يوشك أن يوشك أن يكون من العواقب والطوارق . ومع هذا بقى فى نفر ضئيل جدا بالمدينة ليواجه تلك العاصفة الهوجاء . ومعه ايمانه وحبه الفذ !

يقول الطبرى :

« وبعثوا وفودا الى المدينة (من المرتدين) فنزلوا على وجوه الناس يعرضون على أبى بكر أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة . فعزم الله لأبى بكر على الحق وقال :

ـ لو منعونى عقالا (الحبل تقاد به الابل) مما كانوا يعطون النبى صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم عليه !

« فرجع وفد من يلى المدينة من المرتدة اليهم فأخبروا عشائرهم بقلة أهل المدينة وأطمعوهم فيها . وجعل أبو بكر ـ بعدما أخرج الوفد ـ على أنقاب المدينة (مداخلها الخارجية) نفرا وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد ، وقال لهم :

ـ ان الارض كافرة ! وقد رأى وفدهم منكم قلة ! وانكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ! وأدناهم منكم على بريد .. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ! فاستعدوا وأعدوا ! »

هو يدرى اذن فى هذا « الموقف الجديد » مبلغ قوة عدوه ومبلغ خطره . ويدرى مبلغ قلة أصحابه فى فياب

جيش أسامة . والمرتدون عرضوا عليه الاقرار بسلطان الدين : وآية ذلك اقامتهم الصلاة . ولكنهم رفضوا الاذعان لسلطان الدولة لانهم رأوا الزكاة ـ فى نظرهم ـ جزية دولة مركزية ليس لهم بها عهد !

كان يدرى .
ولم يتردد !
ولم يثنه أن عمر بن الخطاب ـ وهو من هو ! ـ اعترض عليه اعتراضا فقهيا ، حيث قال بصراحته المعهودة :
ـ كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وان محمدا رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله !
« فقال أبو بكر فى اصرار :
ـ والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ! فان الزكاة حق المال . وقد قال الا بحقها » .
ويلتفت أبو بكر الى صديقه فى حدة ممزوجة بالمرارة فيقول له :
ـ يابن الخطاب ! رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ! أجبار فى الجاهلية وخوار فى الاسلام ؟! انه قد انقطع الوحى وتم الدين . أو ينقص وأنا حى ؟

ان الزكاة هنا ركن من أركان ما رسمه محمد عن وحى ربه . وهيهات يقبل أبو بكر أن يعترف بأن الموت محا شيئا أيا كان مما رسمه محمد . وأراده . ودعا الناس اليه !
محمد حى فى دينه قبل كل شىء !
فهل يسمح لاحد أن يفتات على شىء من هذا الدين وفى أبى بكر عرق ينبض ؟

الموت خير من هذا عنــد أبى بكر ! لا بمنطق الواقع القديم أو الواقع الجديد ، بل بمنطق الايمان والحب الفذ الذى يعلو على كل واقع مهما استفلظ أمره واستطال !

وخرج أبو بكر لحرب المحدقين بالمدينة وهو فى القلة الضئيلة ممن بقوا معه فى غياب أسامة . لم يمهلهم بل باداهم المرة تلو المرة . وكان يقود الغارات بنفسه .

وانتصر ايمان أبى بكر وحبه الفذ على ذلك « الواقع الجديد » .. وردهم مدحورين .

وعاد اسامة فبدأ أبو بكر يجيش الجيوش والسرايا لقتال القبائل المرتدة فى احد عشر موضعا متفرقة فى أرجاء الجزيرة العربية كافة !

ما وهن فردا ، فهل يهن وقد أوتى حشدا وجندا ؟

ومن حرارة ايمانه وهمته فردا سرت حمية الغـيرة والايمان الى أجناده وقواده .

وانتصر الحب الفذ على الموت فيما فرضه من ذلك « الواقع الجديد » . وارتد الموت حسيرا مدحورا عن محمد المعنى . ومحمد المبدأ . ومحمد الدعوة . ومحمد المثل . ومحمد الدولة ، عن محمد « الحبيب » بما لتلك الكلمة من معنى فذ فى وجدان ذلك المحب الفذ ..

فهل اندحر الموت وكفى ؟

كلا !

بل انقلبت الردة على الاسلام موجة من الفتوح تنداح دائرتها فتجتاح الامبراطوريتين اللتين تقاسمتا يومئـذ سلطان العالم المعمور . وتحقق بذلك لراية محمد نصر يمتد من بعد امتدادا لم يسبق له فى التاريخ نظير ..

وفى حروب الردة الضارية الضروس يبدو هذا الرجل الدمث الأسيف السريع البكاء وقد لبس للحادثات جلد نمر ! فهو ــ مثلا ــ يأمر خالد بن الوليد :

ـ لا تظفرن بأحد بقتل المسلمين الا قتلته ونكلت به جهرا ! .. ومن أصبت ممن حاد (عادى) الله أو صده ممن ترى فى قتله صلاحا فاقتله !

وها هو ـ مثلا ـ يقول للقعقاع بن عمر :

ـ واعلم ان شفاء النفس الخوض ! فاصنع ما عندك !

ماذا جرى لابى بكر الرقيق الاسيف ؟

جرى لأبى بكر انه الآن لا يصدر عما يملك من أمر نفسه . وانما هو الان يصدر بنفسه وارادته وكيانه جميعا عن عاطفة غلابة : عاطفة غيرة المحب ثار غضبه ثورة البراكين تقذف بالحمم لما استشعره من الاستهانة بحبيبه . وقد زاد من ثوراته أن يظن المستهينون ان هذا الحبيب ليس ـ وهو فى قبره ـ فى مأمن كاف وهو فى كنف محبه أبى بكر !

كلا !

ودون هذا تصغر كل كبيرة ويهون كل عزيز ! ولا بد للكافة أن يوقنوا بالقوارع المصمية ان كل ما يخص محمدا وهيبته فهو من كنف أبى بكر فى حرز حريز !

بلا استثناء!

كان محمد عند أبى بكر بشرا يتمثل فيه المثل الاعلى. فما بلغه عن ربه وما قضى به وشرعه للناس هو الدستور الذى لايرقى اليه ضريب من الشرائع والقوانين والآراء.
وذهب محمد البشر .

وبقى قانون محمد سلطانا أعلى عند أبى بكر تعنو له كل هامة . ويتطامن أمامه كل بأس . ويطأطىء له كل رأس . ومنه ينبع كل سند شرعى للسلطان .

فحيثما تعلق الامر بهذا القانون الاعلى لايمكن بحال من الاحوال أن يكون استثناء ! فما النفس ؟ وما الولد ؟ وما الناس كافة بجانب هذا القانون والمثل الاعلى الذى يتحدى فيه أبو بكر الموت وعوادى الدهر ، بعد أن صار محمد رهين القبر ؟

بهذا أخذ أبو بكر نفسه . وأخذ خاصة أهله . وأخذ أولى الناس بالرعاية والحدب : قد تدمع عينه رقة لهم ويتنزى قلبه .. ولكنه لا يستثنى منهم أحدا فى الخضوع المطلق لما يأمر به هذا القانون الاعلى : قانون محمد بشريعة القرآن وصحيح السنة !

كان محمد أحب اليه من أهل الدنيا جميعا . لايستثنى من ذلك الحب أحدا . لا نفسه ولا ولده ، كما رأينا .
ثم مات محمد فكان حبه لمحمد المعنى الباقى محور

وجوده ومحور كل وجود فى نظره بعامة . لا يستثنى من ذلك أحدا . ولو كان فاطمة بنت محمد !

أجل فاطمة بنت محمد :

تلك التى أحبها محمد كما لم يحب أحدا من الناس . وهي بعينها التى ضرب بها محمد مثلا شرودا فى سيادة القانون : «والله لوسرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها!

القانون اذن فوق كل انسان وبلا استثناء ! »

هكذا استن محمد . وبهذا بلغ محمد عن ربه وأشهد الناس على ذلك .

أولم يكن محمد هو الذى دعا الناس الى القصاص من شخصه بموجب هـذا القانون ، ان كان قد جلد لأحد منهم ظهرا أو لطم له خدا ؟

يقول الطبرى :

« عن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت اليه فوجدته موعوكا قد عصب رأسه . فقال : خذ بيدى يا فضل ! فأخذت بيـده حتى جلس على المنبر ثم قال : ناد فى الناس ! فاجتمعوا اليه فقال : « أما بعد ، أيها الناس فانى أحمد اليكم الله الذى لااله الا هو . . من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد (فليقتص) منه ! ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه ! ومن أخذت له مالا فهـذا مالى فليأخذ منه ! ولا يخش الشـحناء من قبلى . فانها ليست من شأنى ! الا وان أحبكم الى من أخـذ منى حقـا ان كان له . أو حللنى (سامحنى) فلقيت ربى وأنا طيب النفس . وقد أرى ان هـذا غير مغن عنى حتى أقوم فيكم مرارا ! »

فشخص محمد نفسه اذن ــ بموجب سنة محمـد وشريعته ــ كان خاضعا اتم الخضوع للقانون !

وفاطمة بنت محمد كانت ــ بنص كلام محمد عنها وبروح شريعته ــ خاضعة أتم الخضوع لذلك القانون.
وهذا القانون كل ما بقي من محمد بعد موت محمد .
فكيف يكون منه استثناء ولو لفاطمة بنت محمد ؟

ذهبت فاطمة بنت محمد الى ابى بكر بعد موت أبيها . وكانت أشبه الناس بمحمد شكلا وسمتا ومشية وايماء . فما بقى أحد من جلساء الخليفة ملك دمعه تأثرا لمرآها . وكان أبو بكر أشدهم بكاء ورقة لها.
ذهبت اليه فاطمة فى أمر « فدك » وهى قرية نخل من فىء خيبر كانت من سهم محمد فى الغنائم وجعلها فيئا لأهل بيته . وما زاد عن حاجتهم كان يقسمه بين فقراء المسلمين .
وعلى بكاء أبى بكر ورقته لها أجابها :

ــ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « نحن الانبياء لا نورث . ما تركناه صدقة » . وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها ...
وفى رواية ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة ، ان أبا بكر قال : « يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما . وانه قال : ان الانبياء لايورثون ! »
فقالت فاطمة : « ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. »
قال أبو بكر : « فمن يشهد بذلك ؟ »

فجاء على بن أبى طالب فشهد . وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا . فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها (على آل بيته وعلى الفقراء والمساكين) فقال أبو بكر : « صدقت يا ابنة رسول الله ! وصدق على !

وصدقت أم أيمن ! وصدق عمر . وصدق عبد الرحمن ابن عوف ! وذلك ان مالك لأبيك . كان رسـول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمـل منه فى سبيل الله . فما تصنعين أنت بها ؟ »

قالت فاطمة بنت محمد :

ــ أصنع بها كما كان يصنع بها أبى !

قال أبو بكر : « فلك على (عهد) الله أن أصنع كما كان يصنع فيها أبوك ! »

قالت فاطمة : « الله لتفعلن ؟ »

فقال أبو بكر : « الله لأفعلن ! »

قالت فاطمة : « اللهم اشهد ! »

وكان أبو بكر يأخـذ غلتهـا فيدفع منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ... »

موقف شديد أفدح الشـدة على أبى بكر موقفه ذاك من فاطمة بنت محمـد ! تلك التى بكى الرجال ــ وهو أولهم ! ــ لمرآها ، فهى أشبه خلق الله بمحمد ..

أتته فاطمة تسعى بعيد موت أبيها تسأله حقا لها ، وهى التى كان أبوها مصدر كل حق وسلطان فى أمتـه جمعاء . وعاطفته نحو شخص محمـد كانت حرية أن تحمله حملا على أن يجيبها لولا ان ما هو أقوى من ذلك كله منعه من تلك الاجابة منعا باتا .

وما من شىء أشـد محنة على الرجل العاطفى من اضطراره الى الرفض فى موقف كهذا : الطالبة فيه بنت محمد . بل نسله الوحيد الباقى من بعده . وأشـد الناس شبـها به . وقبر أبيها لم يجف بعد . وأبوها أعز عليه من ذات نفسه وأخص ولده .

فما الذى عساه كان أعز على أبى بكر من البر بمحمد فى شخص ابنته الزهراء ؟

ليس عنــد أبى بكر ما هو أعز من كل شيء ـ حتى هذا الحد ـ الا محمد !

اعزازا ورعاية لمحمد المعنى . ومحمد المبدأ . ومحمد المثل. ومحمد القانون. داس أبو بكر قلبه في ذلك الموقف؟

الى هذا الحد : الى حد تقديم محمد المعنى على محمد الأب ، كان هذا الحب الفذ العميق الواعى . فلو أنه ملك بحال من الاحوال أن يرضي فاطمة لأرضاها ولكان ذلك أحب اليه من الدنيا وما فيها !

ولـكن القانون الذى تلخص فيه كل ما هو باق من محمد كان أقوى عنده من كل اعتبار على الاطلاق .

واستجمع أبو بكر شـــجاعة ايمانه وقالها صريحة حاسمة مدوية : « لا استثناء لـكائن من كان ، ولو كان فاطمة بنت محمد ! »

قالها وعينه تدمع ، وقلبه يدمى . ولـكنه قالهـا لأنه لم يكن له عن قولها محيص ، مدفوعا في اغضـاب وحيدة محمد بحبه الفذ لمحمد !

واشتدت لواعج الالم لذلك الثمن الباهظ الذى أداه في سبيل « سيادة القانون » فصحب عمر بن الخطاب يسعيان الى بيت فاطمة يريدان اســتلال غضـــبها بالمحاسنة والتبرير ، لا بالرجوع عما رآه أبوبكر واضحا كالشمس رأد الضحى ...

واستأذنا عليها . فأبت أن تأذن لهما !

فأتيا عليا فكلماه فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط . فسلما عليهـــا فلم ترد عليهمـــا السلام ! فتكلم أبو بكر فقال :

ـ يا حبيبــة رسول الله ! والله ان قرابة رسول الله احب الى من قرابتى ! وانك لأحب الى من عائشـــة ابنتى ! ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده !

أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ثم أمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ ألا اني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا نورث ! ما تركناه فهو صدقة ! »

فقالت فاطمة : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ »

قالا : (أبو بكر ، وعمر) : « نعم ! »

فقالت فاطمة :

ـ ناشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : « رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ »

قالا : « نعم ! سمعناه من رسول الله »

فقالت : « فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ! ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه ! »

فقال أبو بكر :

ـ أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يافاطمة!

ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق... وخرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم :

ـ يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ .. لا حاجة لى فى بيعتكم ! أقيلونى بيعتى !

أجل يبكى أبو بكر حتى تكاد نفسه تزهق رقة للتى صدق كل الصدق حين قال انها أحب اليه من عائشة ابنته ، لأن أبا فاطمة ـ بالصدق كل الصدق ـ كان عنده أحب اليه من نفسه. وود صادقا لو فداه بنفسه وولده

ما من عاطفة شخصية امتحنت بأحرج من هذا الامتحان العصيب !

وثبت له أبو بكر !

لا بيعة صحيحة يمكن أن تسمح له أمام ضميره

وأمام حبه لمحمد المثل والقدوة ومحمد القانون أن يقضي لبنت محمد بما يراه استثناء واضحا من قانون محمد!
ان قلبه ليتصدع حزنا وأسى . ولكنه مع هذا لا يملك ولا يستطيع هذا الاستثناء !
وبصدق كره الخلافة والبيعة بما عرضته لهذا الامتحان الرهيب والاختيار العصيب . فاما أغلى ما فى قلبه من عاطفة شخصية نحو محمد فى شخص بنت محمد. واما أغلى ما فى وجدانه منعاطفة مقدسة لمحمد !

ما بقيت فى عنقه خلافة محمد فلا سبيل له الى اجتناب هذا الكرب الشخصى الممض ... فهو بها اشقى الناس . الا ليتهم يقيلونه منها !
أما وهى باقية . أما وهى واجبه نحو مجد محمد وتراث محمد فلتكن المحنة الشخصية ما تكون ، فانما هو القانون سيد الجميع ولا استثناء لأحد !
أفبعد هذه القارعة يمكن أن يتخاذل ابو بكر أمام هوى شخصى على حساب القانون الاعلى ؟
محال !
وفى هذا ما يلخص سياسته فى الدولة . وامامته . وأمانته . وتدبيره . وقضاءه ...
ومن هذا القبيل ما كان من شأنه مع الانصار .
يقول صاحب زهر الآداب :

« وصل الى أبى بكر مال من البحرين . فساوىَ فيه بين الناس . فغضبت الانصار . وقالوا له :
ـ فضلنا !
فقال أبو بكر :
ـ صدقتم ! ان أردتم أن افضلكم صار ماعملتموه للدنيا . وان صبرتم كان ذلك لله عز وجل !
فقالوا :

ـ والله ما عملنا الا لله تعالى !

وانصرفوا . فرقى أبو بكر المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ـ يا معشر الانصار ! ان شئتم أن تقولوا انا آويناكم فى ظلالنا . وشاطرناكم فى أموالنا . ونصرناكم بأنفسنا، قلتم وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد . وان طال به الامد . فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوى :

« أبوا أن يملونا . ولو أن أمنا
تلاقى الذى يلقون منا ، لملت
همو أسكنونا فى ظلال بيوتهم
ظلال بيوت ادفأت وأظلت »

فأبو بكر مقر كل الاقرار بفضل الانصار . مستعد كل الاستعداد للتغنى بهذا الفضل آناء الليل وأطراف النهار . وانه ـ وهو العربى العريق الكريم ـ ليعلم ان عرفان الجميل ومجازاة الاحسان من أوجب الواجبات . وان شبهة الضن على من غمروا المرء باحسانه سبة ووصمة . فناهيك اذن بالانصار الذين آووا النبى وآووه والمهاجرين حين اضطهدهم قومهم وعذبوهم وأهدروا دمهم . فشبهة الضن عليهم أقبح ما يكون بعد أن صارت مقاليد بلاد العرب كلها تحت يد الخليفة أبى بكر ...

حرج شديد جدا . وتعرض للمعابة كريه غاية الكراهة . ولم يكن يكلفه دفعه الا اليسير من المال فلا يراجعه ولا يعيب عليه أحد لما للأنصار من فضل ظاهر غامر . ولكن أبا بكر يحس نفسه مكتوف اليدين ، لأن القانون عنده هو القانون . وسيادته مطلقة . ولا استثناء منه لأحد بالغا ما بلغ الحرج !

وثبت لها أبو بكر . ولم تزحزحه المحنة . وظل

الحارس الامين على قانون محمد ، بثمن ما أفدحه من ثمن يؤديه من مشاعره الشخصية !

أترانا بحاجة بعد هـذا الى تقصى أحـداث حكمه وحكومته فى الداخل والخارج ؟

كلا !

فما بعد هـذين الموقفين زيادة لمستزيد . وقد بلغ الحرج الشخصى فيهما أقصى ما يبلغ من انسان . ولو غيره فى مكانه لوجد من فداحة الحرج عذيرا . اما هو فلم تكن له بذلك يدان . وان الموت لأحب اليـه من اغضاب بنت نبيه ، لو كان ارضاؤها فى الامكان ...

ولـكنه الحب الفذ الذى يتجاوز ذوات الاشخاص الى المبدأ ، فيراه محور الوجود الذى لاتقوم لشىء قائمة لولاه .

فلا عجب ان عاش ابو بكر خلافته زاهدا أشد الزهد. ولا عجب أن الخيلاء لم تركبه . وان فتنـة السلطان لم تلحقه . وانما السلطان عنـده عبء فادح تمنى لو أقالوه منه .

ولا عجب كان قدره عنـد نفسـه بمقدار التزامه « المبدأ » وحفاظه على سلطان القانون الاعلى . وقيامه بما لحب محمد المعنى ومحمد المثل من حق مطلق . ثم هو بعد هذا كله لا يرى حقا له عند أحد اللهم الا حق ذلك القانون الاعلى ، ولـكل أحد فى الوقت عينه عليه حق لا يعدله حق بما هو راع ، وبما هو مسئول عن رعيته .

رحم الله أبا بكر !

أما بعد ...

فأبو بكر فى مجموع صفـاته النفسية وسلوكه نمط على طرف النقيض من نمط رجـال كثيرين يحتظ بهم تاريخ الامم على احتلاف لغاها وأديانها .

فأبو بكر مثال الرجل الذى تعز به دولة العقيدة .
وأولئك انماط الرجال الذين تنحل بهم سطوة العقيدة.
أبو بكر وهب حياته للمبدأ .
واولئك جعلوا من المبادىء متجرا ومرتزقا .
أبو بكر من معدن نادر شديد النقاء .
وأولئك من معدن شائع شيوع الرمال فى الصحراء .
فلئن قال قائل بعد هذا عن هذه الصفحات انها سيرة حياة من حيث هى صورة قلب ..

أو قال قائل انها دراسة فى الحب .
فالقولان ـ حين يتعلق الامر بأبى بكر ـ سيان .
لأن الحب الفذ كان لباب اللباب من ذلك الانسان..

... ...

... ...

وسلام على الصادقين ..

مصر الجديدة

دكتور نظمى لوقا

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



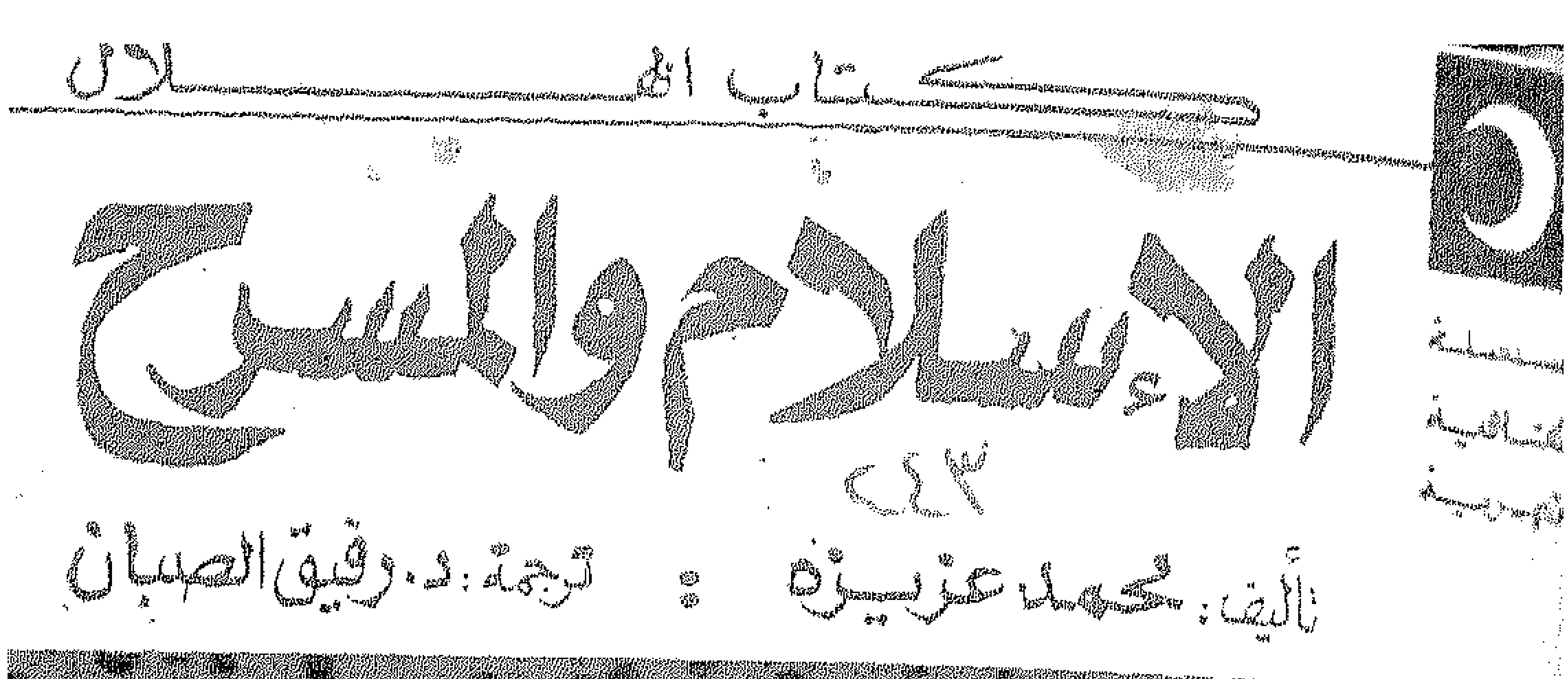
هذا الكتاب

« ابو بكر : حوارى محمد » هو حلقة فى سلسلة بداها الدكتور نظمى لوقا منذ سنوات وهى سلسلة تتصل بالتاريخ والفكر والانسان فى الاسلام . وكان اول كتاب فى هذه السلسلة هو « محمد : الرسالة والرسول » وقد لقى هذا الكتاب نجاحا واسعا بين جماهير المستنيرين من القراء العرب مسيحيين ومسلمين . وكتب الدكتور نظمى لوقا بعد ذلك عدة كتب أخرى منها « محمد فى حياته الخاصة » و « عمرو بن العاص » وقد تميزت كتب الدكتور نظمى بميزات واضحة اهمها عمق التفكير ، والاحاطة بالموضوع ، وحلاوة التعبير ، وترجع هذه الميزات كلها الى ان الدكتور نظمى لوقا ليس مجرد باحث يجمع الحقائق المجردة ولكنه كاتب فنان ومثقف واستاذ من اساتذة الفلسفة ، وهو فوق ذلك كله مسيحى عربى صاحب ضمير حى وصاحب نظرة خاصة الى التراث الاسلامى ، حيث يرى ان هذا التراث ليس ملكا للمسلمين وحدهم بل هو — بكل صفحاته فى الفكر والنضال والعقيدة — ملك للعرب جميعا . ومن هنا جاءت اسلاميات الدكتور نظمى لوقا من ارقى الدراسات واجملها واكثرها عمقا واقربها الى عقول القراء العرب وقلوبهم فى كل مكان . هذا الكتاب الجديد عن « ابى بكر » يحمل كل خصائص الدكتور نظمى فى دراساته السابقة واهم هذه الخصائص : عمق التفكير وجمال التعبير وشمول النظرة الى التاريخ والفكر والانسان والدين .

١٠ قروش

كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية



الإسلام والمسرح

تأليف: محمد عزيزة : ترجمة: د. رفيق الصبان

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٤٣ صفر ١٣٩١ - ابريل ١٩٧١

No. 243 — Avril 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عدداً) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م٠) — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنان حلمى التونى

الإسلام و المسرح

تأليف : محمد عزيزة ● ترجمة : د. رفيق الصبان

دار الهلال

المسرح الباطنى

المقدمة
اللغز

وجوه اللغز الثلاثة :

تملك الحضارة الاسلامية تراثا أدبيا لا حد لغناه وكثافته . فاذا كان (الخيام) و (أبو نواس) قد رفعا الروح الشعرية الى قمم لا تجارى فان (المعرى) و (الحلاج) قد غاصا الى أعماق التفكير الانسانى . وزركش (الجاحظ) الفعل العربى بنقاء ووضــوح لا يصل اليه الا رجل مسته حرارة الموهبــة ، وأعاد (ابن خلدون) خلق التــاريخ ، وجعلنــا تتنبأ بعلم الاجتماع القادم .

وبين هذه الروائع كلها ، نجد أن المسرح ، يضيىء بعدم وجوده .

وفى الحقيقة اننا حتى عام ١٨٤٨ العام الذى ترجم فيه (مارون النقاش) مسرحية موليير (البخيل) وقام

بتمثيلها ، فان العالم العربى ــ الاسلامى كان يتجاهل تماما التعبير المسرحى .

هذا هو الوجه الاول من اللغز .

ويزيد من غموض هذا اللغز اننا نعرف تماما ان الحضارة الاسلامية قد عرفت تماما التقاليـد الهندية القديمة وكل مآسيها المقدسة كما عرفت أيضا بشكل أكثر عمقا كل الارث اليونانى ، بل انها كانت هى التى عرفت بالفـكر الهللينى (بفضـل المترجمين والمعلقين العرب فى القرون الوســطى) ونشرته فى كل أرجاء الدنيا وخصوصا فى العالم الغربى .

وعندما نقول الفكر اليونانى فاننا لا نعنى فلسـفة افلاطون وافلوطين وارسطو فحسب ، ولـكن مسرح (ايسخيلوس) الكبير و (سوفوكل) و (اوريبديس) ومع ذلك فاننا نلاحظ ان المترجمين الذين أفاضــوا بترجمة وشرح النصوص الفلسفية اليونانية ، لم يجدوا ضروريا أن يترجموا ولو بيتا واحدا عن ايسخيلوس أو حوارا صغيرا من سوفوكل أو تأملا من اوريبديس

هذا هو الوجه الثانى من اللغز .

وأخيرا عندما أراد (ابن رشد) أن يترجم كتاب

(فن الشعر) لأرسطو واجهته صعوبة لغوية دقيقة عندما وجد نفسه أمام كلمتى (الكوميديا) و (التراجيديا) . وقد خرج من هذا المأزق باستعمال كلمتين تقولان الشيء الكثير وتدلان دلالة واضحة على اتجاه تفكيره

فقد استعمل كلمة (الهجاء) ليدلل بها على الكوميديا و (المديح) للتراجيديا

وقد ارتكب بذلك خطأ له دلالته لأنه استبدل (الزمر الدرامية) بـ (الأنواع الشعرية) ولا شك ان ابن رشد لم يكن جاهلا خطأ ترجمته ، وان التبرير المرتبك الذى يأتى به للدفاع عن ترجمته تؤكد فى نفوسنا هذا الشعور ، وهو ان التفكير الاسلامى قد تجاهل أو لم يرغب أن يتوقف أمام مفهوم التمسرح لنحاول اذن أن نعرف السبب .

الجزء الاول

قصة طلاق

التفسيرات المقدمة :

ان الباحثين العرب (رغم ندرتهم) الذين حاولوا أن يفسروا الأسباب التى جعلت الاسلام لا يعرف المسرح ، لم يقدموا لنا الا تفسيرات ناقصة وتعليلات غير مقنعة .

فـ (زكى طليمات) مثلا يعتقد ان بداوة الحياة قبل الاسلام ورحيل القبائل الدائم وعدم استقرارها فى مكان معين قد منع الاسلام من معرفة المسرح ، ولا شك ان هذا التفسير ساذج الى حد ما .. فاذا وافقنا على ان الاسلام فى بداية ظهوره كان على صورة من صور عدم الثبات فاننا لا نستطيع أن ننسى انه منذ عهد معاوية أصبحت دمشق عاصمة كبرى . وان بغداد فى عهد العباسيين كانت مركزا حضاريا لايستهان

به . وفى كافة الأحوال فان الاسلام لم يكف لحظة عن التأرجح بين التجوال والشعور بالمدى والحساسية التى تخص البدوى الدائم وبين الاستقرار والطباع الحسنة لساكن المدينة تاجرا كان أم صانعا أم رجل علم .

أما أحمد أمين فيأتى بتعليل أكثر عمقا لأنه يعيد غياب المسرح عن التفكير الاسلامى الى أسباب دينية فيقول : ان الدين يمنع التصوير وبالتالى التمثيل .

وكى ندرس هذا التعليل علينا أن نقلب الأمر حسب وجهتى نظر :

هل منع الاسلام بصورة صريحة التصوير وبالتالى التمثيل ؟ ! أم انه اكتفى بالتحريم الضمنى للفن عموما وللممارسة المسرحية بشكل خاص ؟ !

والحقيقة انه باستثناء التحريم المتعلق بالعبادة الوثنية للأصنام « اللات والعزى » والذى نزل فى فى السور القرآنية بصورة صريحة (١) . فان القرآن

---

(١) اقرأ بهذا الصدد كتاب (محمد) لمونتجمرى وات خصوصا الجزء الذى يشير فيه الى الايات التى اقرت ثم منعت تكريم الاوثان .. وهذا يدل فى رأيه على نوعية الصراع الذى كان قائما عند بدء النبوة بين محمد وتجار

لم يشر بصراحة الى موضوع الفن أو التصـــوير أو التمثيل . وعلينا أن نجد أســبابا للمنع فى الأحاديث حيث نرى موقفا عدائيا واضحا للتصوير وللفن .

ويشير (ماسينيون) فى مقال هام بعنوان « طرق التعبير الفنية لدى شعوب الاسلام » نشره فى مجلة ســوريا عام ١٩٢١ الى أربعة نصــوص صريحة فى الأحاديث تمنع التصوير .

١ ــ اللعنة التى تحل على عبدة القبور وصــور الأنبياء والقديسين ، ونلاحظ هنا أن (القبلة) فى الجوامع هى عش فارغ .

٢ ــ الفنانون وصانعو الصور عقابهم من الله يوم القيامة القيام بمهمة مستحيلة وهى أن يبعثوا الحياة فى الصور التى صنعوها .

٣ ــ منع استعمال الاقمشة والوسائد التى تحمل صورا (وهذا الحديث مطعون فيه ، لأن النبى نفسه

مكة الاغنياء . اذ اراد هؤلاء التجار بادىء الامر ان يظهروا بمظهر المدافع عن ديانات الاجداد مع رغبتهم بالا يقاوموا الدين الجديد .. ومن هنا أتى التنازل ــ ولكن سرعان ما عاد التوازن واستؤنف العراك .. وأتى التحريم المتعلق بعبادة الاوثان .

كما يقال كان يستعمل وسائد من هذا النوع فى غرفته)
٤ ــ تحريم عبادة الصليب .

اننا نجد أنفسنا أمام ملاحظات ثلاث على هذه التحريمات الأربعة التى أوردها ماسينيون :

أولا : انها لا تنصب على المسرح بشكل معين وانما على التصوير .

ثانيا : ان الخوف من التصوير ليس مقصورا على الاسلام وحده ، فهناك الكثير من التحريمات بصدده فى الكتب المقدسة :

« لا تصنع الصور التى تمثل الاشياء التى فى السماء .. أو على الأرض .. فى المياه ، أو فى أعماق التراب »

« الجزء العشرون من الكتاب المقدس وهو الجزء المعنون بعنوان الهجرة »

وان موقف الاسلام المتشدد فى هذا الموضوع يذكرنا بتشدد البروتستانت واستنكارهم كل أنواع التصوير .

ثالثا : ان أى استعراض سريع لتطور تفسير الاحاديث من قبل رجال الدين المسلمين يقودنا الى تبين تطور اختلاف وجهات النظر ، وبالتالى مرونة هذه الاحكام (فالنووى) يمنع فى القرن الثالث عشر

كل صورة تعطى ظلا (ويلاحظ ماسينيون هنـا أن هذا التفسير شديد السذاجة وشديد البدائية ، وان دليل الانسان الحى هو بالضبط أن يشكل ستارة تتخذ شكل الصورة المتحركة) .

بينما يصل (القرطبى) الذى توفى عام ١٢٧٣ الى القول فى كتابه « أحكام القرآن » ان فئة من المفسرين انتهت بأن اعتبرت الفن والتصوير شرعيين ، وكى يبرهنوا على صحة أقوالهم اعتمدوا على سورة من القرآن تشير الى التماثيل التى صنعها اليهود لسليمان « القرآن الجزء الرابع والعشرين ، ١٣ »

وعلينا أن نلاحظ هنا انه رغم المنع الصريح الصادر عن السنة .. ومهما كانت تفرعاته وتفسيراته ، فان هذا المنع لم يقف فى طريق وجود تصوير عربى حق[1]

(١) انظر بهذا الصدد مقدمة ريتشارد ايتنجهاوزن لكتابه التصوير العربى طبع سكيرا ٠ وانظر ايضا الاكتشافات الاثرية التى قام بها آ ٠ موزيل (قصر الحمراء فى الاردن) ودانيال شلمبرجر (قصر الحير الغربى فى سوريا) واكتشافات ر ٠ هاملتون و د٠ البرمكى (قرية المجفر فى اريحا) وارنست هرزفلد (قصر الجوسق فى سامراء العراق) والتحليلات الدقيقة جدا لرسوم السقف فى كنيسة باليرما من قبل ارنست كتزنجر أو

ولم يمنع من تطور حركة الرسم تطورا كبيرا فى كافة أرجاء العالم العربى حاليا . لذلك مهماكانت الأحوال يمكننا أن نقول كما قال ماسينيون فى كتابه الذى أشرنا اليه : « والحقيقة ان كل هذه الروايات التى أشارت الى منع بعض أشكال التعبير لم تقصد الا التحديد فقط ولم تقصد الانكار وان الدين لم يمنع الفن .. وانما التمجيد الذى يصل الى حد العبادة »

لذلك يبدو انه من الافضل أن نفتش عن أسباب عدم تلاؤم الاسلام التقليدى (١) مع الفن عامة ومع

تحليل رسومات مسجد أمية الكبير من قبل مارجريت فان برشيم .

وانظر خصوصا فن الكتب العربية خاصة الصور المدهشة التى وجدت فى بعض المخطوطات العربيه ككتاب البيطرة لابن الاحنف وكليلة ودمنة لابن المقفع عن كتاب بيدبا وكتاب صور الكواكب للصوفى وكتاب المادة الطبية لمختار الحكيم ومحاسن الكلام للمبشر .. ثم انظر بعد ذلك الى الاجزاء السابع والعاشر والواحدوالثلاثين والثانى والثلاثين ، والتاسع والثلاثين والثالث والاربعين من مقامات الحريرى التى رسمها الواسطى والكتاب موجود فى المكتبة الوطنية بباريس .

(١) يستخدم المؤلف كلمة الاسلام التقليدى هنا للدلالة على الفكر الاسلامى التقليدى القديم وهو يميز بين هذا الفكر الاسلامى التقليدى وبين الفكر الاسلامى الحديث .

المسرح خاصة لا فى التشاريع والأحكام المنصوص عليها بصراحة ولكن فى الخلافات العميقة فى التكوين وفى المعانى وفى طبيعة الفرد المسلم نفسه .

فكأن الأمر يجرى وهنـاك عدم تلاؤم مطلـق بين الطبيعة الاسلامية والمسرح قادت الاسلام التقليـدى الى عدم الارتبـاط بالمسرح وبالتالى أدت الى هـذا الطلاق .

ولكن علينا أن نبحث أولا .. كيف يظهر المسرح فى حضارة ما ؟

ظهور المسرح أو التجربة الصراعية :

كثير من الدراسات اهتمت ببحث أصول المسرح .

فبالنسبة لنيتشه يبحث الرجل الذى صقله المجتمع عن التغيرات كوسيلة يحارب فيها العدم الذى يسكن فى أعماقه « ان الاستحواذ هو الشرط الأساسى لـكل فن درامى ، والثمـل الديونيسيسى يزهر كريح الربيع بقوة لا تقاوم ، كالعاصـفة ، أو كجنون تختلط فيه عواطف شتى ، هـذا الدفع الربيعى هـو تغير نشوان ويعبر عن عرض الارادة » .

ولكن هذا الدفع الحيوى ، هذه التراجيديا المرحة تسير نحو التلاشى لأن ابولون يقف بوجه ديونسيوس وفى أعماق الانسان يبدأ الضمير التحليلى بالتطور وباخراج (السموم الكامنة) .. ومنذ تلك اللحظة تتشوه الديونسيسية وتصبح التراجيديا مسرحية .

وهناك وجه آخر لهذا النوع من التفسير ، ولكن الدفع الربيعى يستبدل فيه بالمعنى الدينى . ففى بدء المسرح كانت هناك الطقوس الدينية . وهذه النظرية تعتمد على التشابه الموجود بين الطقس الدينى والاحتفال المسرحى .

ولكن هذه النظرية عن أصل المسرح نظرية قابلة للنقاش لأنها نظرية قاطعة . فهى تعيد ولادة المسرح الى نوع من التغيرات القطعية التى تعتمد على أساس معين « الدفع الربيعى عند نيتشه أو الطقس الدينى عند سواه » جذوره مختلفة اختلافا بينا عن الواقع المسرحى . مما يؤدى بنا الى أن نربط بصورة ظاهرية بين معطيين مختلفين فى جذريهما معتمدين فقط على التشابه الظاهرى فى الأشكال التى يعبر بهما هذان المعطيان عن نفسيهما .

ونحن نفضل عن هذا التفسير الشكلى القاطع تفسيرا أساسيا نضع بموجبه السؤال التالى :

فى أية لحظة من لحظات التجربة الجماعية يحس المجتمع بالحاجة الى التعبير عن نفسه بواسطة هذه الطريقة المعينة التى تتخذ شكل المسرح ؟

وعلينا كى نجيب عن هذا السؤال أن نعقد المقارنة التالية :

فلو لم يبتكر المسرح اليونانى الحرية المطلقة فى التعبير عن المواقف الصراعية لوقع فى المصيبة التى وقع بها مسرح (النو) اليابانى الذى جمد فى نشيد وحيد عاطفى ينتهى ليبدأ من جديد

فلو لم تفلت عواطف ميديا وبروميثيوس وأورست هادرة صارخة لشكا هؤلاء الأبطال التراجيديون الشهيرون من الشلل اليائس الذى أصاب زميليهم اليابانيين كانانى وزيامى اللذين جمدتهما تقاليد مجتمع يابانى رجعى ومحافظ تسيطرعليه قواعد ثلاثة مقدسة : الهوكو (الاحترام دون قيد أو شرط للأشياء العامة) والتيمان (الشرف) والبونغن (العرش)

فلو لم يعرف المسرح اليونانى تجربة الصراع لظل

نشيدا مأساويا وحيدا .. ومع ذلك فقد دشن المسرح اليونانى فى القرن السادس والخامس الحلقة الذهبية الاولى من تاريخ المسرح العالمى ..

ولقد أشار افلاطون فى كتابه القانون الى ان اثينا كانت (المدينة المسرحية) التى تسن قوانين المسرح .. مؤكدا بذلك أهمية فن الدراما فى الصراعات الايديولوجية والسياسية .. أى بكلمة واحدة الحياة العضوية لأية مدينة .

وكى يصل المسرح اليونانى الى هذا المستوى كان عليه أن يكتشف مفهوم الحرية بواسطة الشق الذى تفتحه تجربة الصراع الاساسية .

ولعل أسطورة برومثيوس هى خير مفتاح لفهم المسرح اليونانى الذى يعبر عنه جان دوفينيو بالشكل الصائب التالى :

ابتكار شعرى لوضعيات محددة يتصاعد فيها التعبير عن الصراع بين التشوق للحرية والعقبات التى تقف فى طريقه ..

لقد أصبح البطل التراجيدى اذن الجسر الذى تمر عليه (الفضيحة) . الرجل الذى يرفض والذى يستمر

فى رفضه . وعندما سرق بروميثيوس النـــار من الآلهة « فانه قد أكد وجوده الانسانى عن طريق ممارســة حريته السلبية » (١) ولو كان ذلك عن طريق الجريمة ،

البطل اذن هو شخصية غير معتادة « وهذا اللاإعتياد يصل أحيانا الى درجة الجرم » تقوم علانية بالعمل الذى يفصلها عن باقى العالم .

انتجونا تخرق قوانين المدينة ، وكيزركس يرتكب غلطة مهاجمـــة اليونان ، وأوديب يغرق فى جرائمه . وعكس الفيلسوف الذى (يتطهر) من عواطفه .. نرى البطل المأساوى ينادى بكل قواه هذه (الوضعية) التى تدفعه خارج دائرة العرف الاجتماعى التقليدى.. والتى تجعله يحيا بكل ما فيه على المسرح . ولقد قال شيللر بأمانة : ان المسرح اليونانى قد علم الحضارة اليونانية ما هى الفردية الحقة من خلال رؤيا فنية .

اذن ففى أصول المسرح اليونانى .. ولنقل أصـــول المسرح عامة يوجد مفهوم (الصراع) الذى يتخــذ أشكالا عدة :.

---

(١) جان دوفينيو (سسيولوجية المسرح)

١ ـ الصراع العمودى :

فى هـذه الحالة الصراعية الاولى .. تواجه الحرية البشرية الارادة الالهية ، والمثال الاكثر انطباقا الذى يقدمه المسرح اليونانى بهذا الصدد هو (بروميثيوس المقيد بالاغلال) .

٢ ـ الصراع الأفقى :

وهنـا يواجه الفرد قوانين المجمـوعة والـكيان الاجتماعى المفروض . والمثال الأكثر صفاء على هـذا الصراع هو (انتجونا) .

٣ ـ الصراع الديناميكى :

وفى هذه الحالة تقف العفوية البشرية بوجه الذى لا مفر منه ، القدر ، التاريخ المقدر والمعاش دراميا . ويظل خير مثال على هذا الصراع مسرحية (الفرس) الذين تقوقعوا على هزيمتهم وعلى دهشتهم من انهزام القدر .

٤ ـ الصراع الداخلى :

وهى الحالة الصراعيـة الاكثر دقة . فهيجل يعرف القدر بأنه « الشعور بالوجود ، ولـكن الشعور به بشكل عدائى » فالبطـل المـأساوى هنا يصـل الى

التناقضات الداخلية التى تمجره وتوجه حدثه نحو اكمال وجوده . فأوديب يحمل فى أعماقه جذور مأساته وعذابه . فهو الزوج ـ الابن والولد ـ القاتل والضحية الجلاد .

واذا أقررنا بأن المسرح اليونانى هو أول مسرح كامل فى تاريخ العروض المسرحية ، واذا تذكرنا انه أول شكل درامى عرفه العرب (١) فان هذه المعلومات السريعة عن فكرة التمسرح اليونانية ستساعدنا أن نضع مشكلة مفهوم المسرح تجاه الاسلام التقليدى .

فهل يستطيع الرجل المسلم حسب حضارته ودينه أن يحيا واحدا من هذه الحالات الصراعية الأربع وأن يكتشف امكانيات اللغة المسرحية ؟

وهل يمكن للمسلم التقليدى أن يضع حريته الشخصية أمام ارادة الله ، أو أمام الكيان الاجتماعى لمدينته ؟ أو يواجه بها منطق التاريخ والقدر أو أن يكتشف أخيرا فى أعماقه انسانا آخر يصارعه ؟

وسنبحث الآن فى هذه الامكانيات الأربع على ضوء الفلسفة الدينية والحقيقة الاجتماعية للاسلام التقليدى .

---

(١) بالاضافة الى المآسى الهندية والفارسية طبعا

الحرية الانسانية والارادة الالهية أو « بروميثيوس غير المتصور »

ما دام الانسان يكتشف نفسه ندا للآلهة كما فى التراجيديا اليونانية ، أو على الاقل بشكل شخصية مستقلة تحيا وحدها تجاهه .. فاننا أمام ارادتين ارادة هذا الانسان وارادة الله .

وبالنسبة للدين الاسلامى التقليدى فان مثل هذه الثنائية ليست غير موجودة فحسب ، بل انها غير متصورة على الاطلاق .

وحول هذا الموضوع يقول ماسينيون فى المقال الذى أشرنا اليه :

« علينا أن نفهم ان كل ما صنعه الله فى هذا العالم ، هو أشبه بالادوات الصغيرة التى نصنعها نحن ، دمى ميكانيكية .. والعالم الذى هو أكبر وأكمل شكل فنى ليس الا دمية ميكانيكية يحرك الرب خيوطها كيفما شاء .. وكأننا فى مسرح للعرائس . لذلك ليست هناك دراما فى الاسلام . لأن الدراما كما يعرفها التفكير الاوروبى الشائع تدوز فى قلب الانسان انها دراما حريتهم . ولكن هذه الحرية بالنسبة للمسلمين

مشروطة بالارادة، الالهية التى لا تعتبرهم الا أدوات فحسب » .

وبالنسبة للسنيين (١) فالله هو مصدر وأساس كل شىء .. كل شىء يخرج منه وكل شىء يعود اليه . انه ينبوع كافة الاشياء . وابن طفيل يجعل بطله الوحيد والمتوحد حى بن يقظان يقول : « وبما ان المادة فى كل جسد تحتاج الى شكل .. لأنها لا توجد الا به .. فان كل ما هو موجود لا يوجد الا بارادة الخالق » .

بل ان وعينا نفسه بما هو موجود لا يمكن أن يتم الا بارادة الهية .

وقد بنت جماعة المعتزلة على هذا المفهوم مبدأ الظهور والاختفاء الذى يقولون بموجبه ان الله قد خلق مرة واحدة الأجساد .. ولكنه يظهرها على مراحل وان الاشياء .. كافة الاشياء موجودة فى حالة استعداد ولكنها تنتظر إشارة الظهور .

وتجاه القدرة الالهية المطلقة فان تصرف الانسان

(١) وسنرى فيما بعد أن الشيعة هى التى ستكتشف مفهوم المسرح . انظر بهذا الصدد (ريتر) وهل يعتبر التعصب الدينى سببا فى الانحطاط « الكلاسيكية والانحطاط الثقافى فى التاريخ الاسلامى » ـ باريس ١٩٥٧ .

يتقلص الى أدنى درجاته .

ان ارادة الانسان هى جزء من ارادة الرب الشاملة . ومن هذه الزاوية لايمكننا تصور نشوء صراع يتواجه فيه (الكل) مع (شيء صغير منه) .

ويلاحظ جان دوفينيو فى كتابه سسيولوجية المسرح « وبالطبـــع ، فان المجتمعات كلها لم تحاول أن ترسم صورة للانسان . أن تمثل الموقف ، والشرط الاجتماعى والتمزقات والآمال . وحتى ان بعض هذه المجتمعات التى رفضت تمثيل الوجه البشرى قد جهلت أيضـــا مفهوم المسرح .

فالرب المجردكان له وجود من القوة بدرجة لاتسمح بالبحث المنهجى عن رؤيا مادية للنظام البشرى ، وهذا هو حال المجتمع الاسلامى مثلا .

تجاه هذه القدرة الالهية الـــكبرى فاننا نجد بدل الثورة شعورا بالفراغ الاساسى بالنسبة لكل مخلوق. والانسان ليست له أهمية الا بكونه قطعة صغيرة فى محرك ميكانيكى كبير .. انه يضع ايقـــاعه الشخصى ضمن نطاق الحركة الكبرى المستمرة .. انه بين يدى الرب . وكل شيء يأتى من الرب واليه يعود كل شيء

وكل شيء يزول « ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

ومن هذا الشعور بالفراغ استطاع النساك الصوفيون أن يضعوا قواعد فلسفتهم عن الفناء وعن الاختفاء الكامل .

اذن فمن جهة نجد الارادة الالهية اللامتناهية التى لا حدود لقدرتها ، ثم حرية الانسان الصغير ، ثم (وهذه هى النقطة الهامة) بما ان ارادة الانسان هى جزء من ارادة الله وما دامت كذلك فلا يمكن اذن أن تنفصل عنها وبالتالى أن تواجهها .

ويلاحظ جاك بيرك ذلك فيقول : « ان الشخصية الاسلامية التقليدية تنتسب لنظام الكون ، لذلك فهى تهرب من الكثير من العذاب والألم ومن مواجهة الكثير من المشاكل . انها سعيدة سعادة التوافق » .

ان التواصل بالذات الالهية هو الذى يمنع حركة التمرد ـ وليس الخوف وحده ـ لأن التمرد كما نعرف هو انفصال قبل أى شيء آخر .

ويلاحظ لويس غارديه « من المدهش أن يظل الفن المسرحى مجهولا فى الاسلام . وهذا يعود الى صعوبة

تنظيم العروض المسرحية فى مجتمع يحارب فيه رجال الاخلاق والمحافظين تمثيل الادوار النسوية ويعود أكثر من ذلك الى المعنى الأليم للقدر الانسانى . فان صراع العواطف النفسى الذى يعتبر المادة الاساسية للدراما أو للتراجيديا ، وتحليل الطبــاع الذى تقوم عليه كل الكوميديات الــكبيرة الانســانية ، لم تكن قط من خصائص المجتمع الاسلامى القديم . فهذا العراك بين الانســان وقدره الذى مجده كتاب المسرح اليــونان لا يتناسب مع مفهوم الحياة ولا مع العــلاقات التى تربط الانسان بخالقه فى المجتمعات العربيــة الايرانية أو العربية الاسلامية » .

واذا كان المسلم التقليدى رجلا حرا فان هذه الحرية مقصورة ومراقبة من قبل الرب ، حرية تجعله ينفــــذ القدر المكتوب عليه فحسب .

فالتعارض بين حرية الاختيــار والمقــدر يتضح من خلال هذه النظرة وكأنه مشكلة مزيفة لأن الانسان حر فقط فى ارادة ما يريده الله .

وقد لاحظ جوستاف فون جرونيوم فى مقال نشره بمجلة ديوجين « العــدد ٤٨ ــ ١٩٦٤ » عن « تجربة

المقدسات ومفهوم الشخصية الانسانية فى الاسلام »

« ان الاسلام السنى لم ينجح فى خلق فن مسرحى، رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية . وهذا لا يعود الى سبب تاريخى قدر ما يعود الى مفهوم الانسان فى الاسلام وهو مفهوم يمنع وقوع أى صراع درامى »

ويوضح فون جرونيوم فيما بعد هذه الفكرة فيقول :

« فاذا لم تكن هناك حرية اختيار حقة واذا لم يكن لهذا الخيار معنى يتجاوز به الحالات الخاصة ، واذا لم تنعكس هذه الحرية على القطب الاخلاقى فىالروح نفسها فان الانسان العادى لايمكنه أن يصبح انسانا دراماتيكيا » .

مواطن المدينة المسلمة :

ولـكن يمكننا أن نقول اذا لم يكن بروميثيوس ممكنا ، واذا لم يكن متصورا قيام صراع بين الانسان والارادة الالهية فلماذا لا نواجه الاحتمالات الاخرى من حالات الصراع التى شرحناها سابقا ؟

ولماذا لا يواجه الانسان المسلم مدينته وقوانينها ؟

ولم لا تتكلم انتجونا العربية ؟

والجواب على ذلك : ان الاسلام دين ودنيا ، وانه قد نظم الامور الدنيوية وقواعد الحياة بالنسبة لـكل فرد وبالنسبة للمجموعة كلها كما يلاحظ نويس جارديه فى كتابه عن المدينة الاسلامية ، فالمدينة الاسلامية التقليدية بكل ما فيها من طقوس عائلية واجتماعية وسياسية ودينية تنظمها التعاليم الجماعية وكل من يخرج عن مجموعة المسلمين ولو بمقدار فارق شعرة فانه يموت كافرا .

الأمة اذن حكم ، دولة ، تشريع قانونى آراده وسن له الله . بل ان الطبيعة الاجتماعية للواجبات الدينية « الحج ، الجهاد ، الصيام ، الصلاة الجماعية يوم الجمعة . تضحية الخروف فى العيد الخ .. » تؤكد عن طريق الممارسة الاجتماعية عقلية جماعية موحدة وتكمل من انتماء الفرد الكامل للمجموعة ، وتتقلص الحرية الانسانية الى أقصى درجاتها تجاه المتطلبات الاجتماعية المفروضة .

طبعا ، ان ثورة انتجونا ممكنة على الصعيد الفردى ولكن مثل هذه الثورة تعطينا شعراء ولا تعطينا كتابا للدراما ، ففى المدينة اليونانية نرى ان (المجموعة

البشرية) للمدينة هى التى قاست تجربة انتجونا .

ان الجسد الاجتماعى للمدينة اليونانية بأسره هو الذى كان يتأرجح بين الرغبة بالثورة الفردية وبين الرغبة بالانضمام .

وان انتجونا وكريون ليسا الا الفم الناطق لهذا التأرجح الذى يعانيه الجسد الاجتماعى كله . وعلى العكس ففى المدينة الاسلامية حيث نجد الرغبة لتحقيق الوحدة الجماعية شديد العمق ، وحيث نرى تنفيذها عضويا تماما وأساسيا فان مثل هذا الاعتراض الفردى لا يشكل نقاشا مدنيا فقط .. وانما يتحول فيصبح غلطة كفر .

العودة الابدية :

ان صراع الانسان مع القدر أى مع التاريخ الدرامى شيء يصعب تصوره أيضا فى اطار الاسلام التقليدى . فكى نواجه التاريخ علينا أن نشعر به دراميا ، والتاريخ لايمكن أن يأخذ مدى دراميا الا فى اللحظة التى تتم فيها التجربة الانسانية فى زمن موضوعى له توقيته الخاص به والذى لا يخضع للرغبات الشخصية وبهذه

الصفة لايمكنه أن يتلاءم مع الزمن الشـخصى الذى ينسجه ضمير الانسان الذى ينزع نحو البقاء والحركة

وبالنسبة للاسلام التقليدى فالتاريخ ليس دراميـا وانما دورى وأسطورى . فهناك أولا زمن بعيد عقد فيه الله ميثاقا مع المؤمنين . وقال الرب لرجاله : ألست ربكم الأعلى ؟ وأجابه المسـلمون بالايجاب فرحـين نشوانين . وبين فترة وأخرى يأتى الأنبياء هؤلاء الرسل الذين يذكرون الناس بهذا الميثاق .

وكما يقول هنرى كوريان : « ان الفكر التاريخى للاسلام يتحرك حركتين متعادلتين (المبـدأ والمعاد) لذلك لايمكننا أن نرى العالم يتطور لأنه لا يسـير عموديا بل أفقيا .

هـذا الزمن البعيـد غير المحدد والدورى يخلـق الاسطورة ولا يمكنه أن يخلق الدراما .

فكل ما يحدث (مكتوب) بالنسبة للمسيرالعمودى ، وكل ما يحدث فى المسير الافقى للزمن المعـاش هو حادث ثانوى . ولا شىء يهم الا المدارات الهـادئة فى منحنيات المبدأ والمعاد فى ذلك الزمن البدائى .

وحتى علم المقاصد البشرية يصبح وفق هذا المعيار

مفهوما يمكن القبول به بسهولة لأنه ليس الا مرحلة عابرة بين مدار وآخر .

وبهذا المفهوم يمكننا أن نتكلم عن القدرية الاسلامية التى يمكننا أن نربطها بالقدرية بمفهومها اليونانى ــ اللاتينى والمتصلة بشدة بالطقوس الغيبية وبالتنبؤات اللاتينية ــ اليونانية (كاساندرا ــ الخامس من مارس .. الخ) .

ولكن المكتوب فى العالم الاسلامى يجب أن نراه من منظار حتمية متفائلة للتاريخ .

فكل ما يحدث مكتوب ومقدر ، ولكن المهم هنا ان هذا المكتوب لم يكتب الا لسبب عادل ؛ وانه مهما كانت الاحداث تبدو لنا من الوهلة الاولى مخالفة للمصالح العامة ، فان الفكر الاسلامى لا يشك لحظة واحدة بتخطيط الله السرى والذى لايمكن أن يؤدى الا الى الخير .. ولو بعد زمن طويل . وهكذا ملأ هذا الفكر التقليدى التاريخ بتفسيرات تعود كلها الى حتمية متفائلة تركز على انسجام نظام العالم ، وتجعل الانسان المسلم يتحرك فيه بعيدا عن التناقضات والصراع .

الفردية المستحيلة أو الانسان المحايد :

تكلمنا عن المعطيات الثـــلاثة للصراع ، وقلنـــا ان ارادة المسلم جزء من ارادة الله لذلك لايمكن أن تواجهها . وان الانتماء المطلق من الانســان المسلم لمجموعته ، ومفهوم التاريخ اللادرامى عنده يمنع وجود هذا الصراع على مستوييه الثانيين ، أى ان (الفردية) مصدر كل صراع داخلى تبدو مستحيلة لديه .

لذلك فان وعيه بالمجموعة التى تحيــط به والتى يرى نفسه مجبرا على الانتماء اليها .. يتجلى بمستوى قبول شامل . وبالتالى فان الصراعات النفسية والفردية تتجه نحو الذوبان فى بوتقة التصرفات الجماعية . هذه هى قصة الطلاق الذى حدث بين المسرح والاســلام التقليدى . وعلينـــا أن نكون عادلين فنقول ان هــذا التعارض بين المسرح والدين لم يكن ظاهرة تميز بهـــا الاسلام فحسب وانمـــا كافة الديانات التى تقول بالله واحد والتى أقامت حدا بينها وبين الفعل المسرحى .

ولكن طبيعة الديانة المسيحية التى فصلت بين الأمور الدينية والدنيوية فى المدنية المسيحية والصراع بينهما قد خفف من سيطرة الدين كظاهرة اجتماعية على فكرة المسرح

الجزء الثانى

الأسباب الأخرى

خطيئة الكبرياء أو الاسباب الادبية للنقص :

ولكن هل تكفى الاسباب الدينية مهما كانت عميقة لابعاد العبقرية العربية عن الكتابة المسرحية ؟ فالعرب الذين ترجموا وعلقوا بكثرة على افلاطون وارسطو وافلوطين قد عرفوا أيضا النصوص المسرحية الكوميدية والتراجيدية التى أتت من اليونان .

لاشك انه ما من شىء كان يهيىء العرب لفهم هذه النصوص بعمق وهضمها ثم تقليدها للأسباب التى ذكرناها سابقا . ولكن لمَ لم يحاول العرب أن يترجموا ولو من باب الفضول أبياتا من المسرح اليونانى الشعرى ؟ ؟

ان العرب الذين لم يفهموا (الفكر المسرحى) لم يروا فى هذه المآسى اليونانية الا نصوصا بسيطة

موزونة وأشعارا حوارية غريبة .

ونحن نعرف القناعة الداخلية التى لا تتزعزع لرجال الأدب فى القرون الاولى والتى تقول ان التعبيرالشعرى ليس من اكتشاف التفكير العربى فحسب بل انه منطقة نفوذ خاصة لا يشاركه فيها أحد .

ولقد كتب الجاحظ فى هذا الموضوع مقطعا هاما وذا دلالة فى كتابه « الحيوان » اعتبر فيه الشعر فنا محدثا كان المهلهل وامرؤ القيس من أوائل من اكتشفه وعرف به .

اذن فالشعر لم يبدأ الا من قرن ونصف قرن قبل الاسلام أو قرنين على الاكثر . والموهبة الشعرية عطاء مقصور على العرب ومن يتكلم العربية ..

وابن رشيق يؤكد هذه الفكرة ويقول : ان العرب أفضل الشعوب وان فنهم فن الشعر هو ارقى الفنون وانهم احتكروا لأنفسهم فن الكلمة ، تاركين بعيدا عنهم كل خدمة يدوية أخرى وكل اتصال مهنى يعتمد على جسدهم .

وبما ان التراجيديات اليونانية اذا جردت من كيانها المسرحى .. فلن تكون الا أشعارا غريبة .. وما فائدة

ترجمة شعر غير عربى ؟ وهل نحن بحاجة اليه حقاً ؟

وهكذا نكتشف الاسباب الأدبية التى تعلل صمت المترجمين والتى تعود كلها لسبب واحد عميق : خطيئة الـكبرياء .

البستان المتجمد أو الاسباب اللغوية :

وهنا علينا أن نقيم تمييزا فاصلا بين العالم العربى والعالم الاسلامى . فعلى مستوى اللغة لايمكن أن تكون المشكلة واحدة بالنسبة لحيدر آباد وبالى واصفهان من جهة ، ودمشق والقاهرة ومراكش من جهة أخرى . لذلك فنحن سنتكلم فى هذا الجزء عن العالم العربى وحده .

يقول جاك بيرك فى كتابه « العرب من البارحة وحتى الغد » :

« ان التقاليد العربية جهلت التعبير المسرحى لأنها لم تتوفق الى اعطائه لغة مناسبة » .

والحقيقة ان اللغة العربية تعانى بالنسبة للمسرح من مشكلتين متكاملتين :

١ ــ عدم تناسب اللغة العربية الكلاسيكية مع المتطلبات الداخلية للغة الدرامية .

٢ ـ صعوبة اختيار واحدة من اللغات العربية الثلاث .

فأكثر من أية لغة أخرى .. يمكننا أن نلاحظ بالنسبة للغة العربية فاصلا هاما بين مستوى التعبير ومستوى المعنى .

وقد عبر الجاحظ عن هذه الصعوبة بتمييزه بين اصطلاحات ثلاثة :

١ ـ الاشارة : أى أن تشير بشكل عابر الى الشيء

٢ ـ التعبير : أن تعبر عنه بشكل واضح تقريبا

٣ ـ الدلالة : أن تشير اليه بمعناه بشكل رمزى

واللغة الكلاسيكية تنتمى الى المعنى أى الى الدلالة بينما يعود المسرح لغويا الى منطقة التعبير الواضحة .

وبعد ذلك فان اللغة لايمكنها أن تنفصل عن القيم التى تحملها . ويقول هيدجر بهذا الصدد : « ان اللغة منزل الكائن » ويؤكد موريس ليندهارت من جانبه ان الكلمة (وهى التعبير عن القوة الخالقة التى يؤكد فيها المرء نفسه) هى أكثر العناصر سموا عن التمثيل الاسطورى للمرء .

ولأن اللغة العربية ظلت ميدانا للمعانى فانها حملت ولمدة طويلة لا تتغير موضوعات واحدة ، مما يبرر الاطر الجامدة التى ظل الشعر العربى الكلاسيكى حبيسا بها والصعوبة الكبرى التى يواجهها عندما يريد تجديد نفسه .

وقد حاول شعراء المهجر وبعض الشعراء الطليعيين المحدثين (نزار قبانى ونازك الملائكة .. الخ) أن يلائموا اللغة القديمة المتجمدة مع مواضيع جديدة .. ولكن هذه المحاولة لم تكن سهلة دائما كما لاحظ جاك بيرك فى كتابه الذى ذكرناه « ان الفعل العربى يعير نفسه لأرض الرجال أكثر مما يعود اليها .. ومادته تختلف دائما عن لغة الحياة اليومية . . والشارات التى يعتمد عليها تهمل اليومى الشائع وتظل وفية لأصلها لا تهبط عنه » ..

اللغة اذن بقيت بستانا للمعانى والرموز أى للتجربة المعبر عنها وليست المعاشة مباشرة ، لذلك فكل حب عندما ينتقل الى الشعر يصبح حزينا ، وكل بطولة كبيرة وكل عظمة نبيلة ، حتى لو كانت هذه العواطف فى التجربة المعاشة مختلفة تماما .

اللغة العربية الكلاسيكية تشبه بستانا جميلا ولكنه بستان متجمد .

والمسرح بتكوينه هو اللغة التى لا تحتمل القوالب الجامدة .. وعندما آقول المسرح فأعنى به المسرح الحقيقى وليس مسرح الفودفيل بشخصياته الثلاثية ولا الميلودراما ونهايتها السعيدة

ولكن المسرح الحى ، المسرح الذى تخلق فيه الاحداث فى كل لحظة وحيث ترفض الحرية فيه أى ضغط كان .

ويلاحظ جان دوفينيو فى كتابه المشار اليه «انالمسرح كلمة مبنية وبذلك فهو كشف ديناميكى . ومنذ أن يستخدم الانسان اللغة ليلقى بجسر الى نفسه أو الى الآخرين ومنذ أن يحاول التواصل ليواجه الصراع الذى يضنيه ، لا تصبح اللغة سلاحا بل تعبيرا ايجابيا عن الكائن بصفتها تجربة معاشة »

والمسرح كالحياة اليومية .. فن سريع ، يعرب دوما بالحاضر ، ولغته هى اللغة التى تعرض وتوضح ، متخلصة من كل المعانى السابقة ، ومن كل ما يحجب الشىء عن الكلمة التى تشير اليه . ان الكلمة المسرحية

ترتبط بالتجربة التى تخلقها .. وتمثلها (١)

تبقى أمامنا اللغة العامية التى تمثل أصـدق تمثيل التجربة المعاشة .. والمسرح يستريح اليها ما فى ذلك من شك . ولكن اختيار اللغة العامية للمسرح العربى الا يقودنا الى الاقليمية ؟

وهل يمكن أن نوافق عليها ومفهوم الوحدة العربية يزداد صلابة ونشعر به كضرورة الزامية نهفو اليهـا بشوق .

هذا اذا لم نختر لغة ثالثة (العربية الوسطى) التى لا يدافع عنها توفيق الحكيم وحده فهناك فى لبنـان انيس فريحة الذى كتب حول ذلك كتاب « نحو عربية متيسرة » وفى تونس حسن زمرلى .

ولكن أليس هذا الحل خطرا أيضا ؟ وألا يؤدى بنا ربما الى اضاعة الجانب الدلالى والروحى تقريبا للغتنا الفصحى القديمة والجانب التاريخى للعامية ؟

على كل حال .. لا زال باب النقاش مفتوحا ..

---

(١). وهذا صحيح حتى بالنسبةللمسرحيات الروحية. فكلوديل ومترلنك وويدكايند يستعملون اللغة الاكثر مباشرة ليعبروا عن الحالات الروحية الاكثر قلقا والاكثر سموا والاكثر رمزية .

الجزء الثالث

الاستثناء والقاعدة "التعازى" الشيعية

« المسرح الفارسى .. أمر عظيم » الكونت جوبينو

الاستثناء الوحيد لقاعدة الغياب المسرحى هذا هو التعازى الشيعية التى أعطت الاسلام اعتبارا من القرن السابع الشكل الدرامى الوحيد الذى يعرفه (١)

ففى الايام التى تسبق أول محرم ، فى الجوامع

(١) هناك عدة دراسات هامة حول التعازى نذكرمنها
شودزكو : المسرح الفارسى . باريس ١٨٤٤ .
لوت : الدراما الدينية فى فارس (التعزية) المجلة الجديدة ١٩٠٣ .
ليتين : الدراما فى فارس . ليبزيج ١٩٢٩
مونتيه : المسرح فى فارس . جنيف ١٨٨٨
رونو : التعازى الفارسية (الدراسات الجديدة للتاريخ الدينى) باريس ١٨٨٤
ثالاسو : المسرح الفارسى المجلة المسرحية ، ١٩٠٥ والعدد الخاص عن المسرح الفارسى من المجلة نفسها

والتكيات ، فى الساحات العامة ، وفى بعض المنازل الخاصة ، ومن على المنابر تقف شخصيات دينية مدعوة . روزى كان ــ (التى ستتخذ فيما بعد شخصيات المقدمين) لتروى احداث بطولة الحسين ابن على وتشيد بمناقبه .

هؤلاء الروزى كان كانوا يسردون المديح ثم يضمنونه حوادث تفسيرية والنتيجة كانت مزيجا من الرثاء والغناء والرواية والمواعظ .

وسريعا ما ظهر الى جانب الروزى كان مساعدا لقبوه بـ (بامامبر كان) أى (المغنى على قاعدة المنبر) ويبقى دائما الى جانب المنبر ويتحاور مع الروزى كان ثم ظهر (النوح ـ كان) وهم مجموعة من البكائين يتجاوبون مع سرد (الروزى ــ كان) أى اننا أصبحنا أمام ازدواج يذكرنا بتحولات الجوقة اليونانية .

ومنذ أول محرم وحتى ظهر عاشوراء (أى خلال عشرة أيام) كانت تقام المسيرات الدينية العنيفة التى تجعل مدينة كربلاء فى حالة توتر دائم . ويرى جوبينو فى هذه الاحتفالات شيئا يشبه الطقوس الوثنية التى كانت تقام لأدونيس ، ويرى ب.ايردمان فيها استمرارا

للعبادة السامية لأدونيس ــ تموز (١)

والى جانب المدائح والندب المعتادين كانت هــذه المسيرات تحتوى على رقصات (سيدزن ، زندرزن) ورجال يضربون أنفسهم بالسياط وأشخاص متنكرين : كامام يمتطى صهوة جواده والدم ينزف منه بغزارة . وكذلك بالنسبة لباقى المشتركين .

وأخيرا فى اليوم العــاشر .. يمثل المشــهد الملقب بالتعازى ..

هذه الاحتفالات يمكننا أن نقارنها بالأعياد والمسيرات والأسرار التى ما زالت تقام حتى يومنا هذا فى مدينة (أوبيرا مرجوز) فى بافاريا .

أما مسرحيات التعازى هــذه فقــد كتبها مؤلفون مجهولون (٢) ، ويتم تمثيلها فى الســاحات العامة وفى الهــواء الطلق أو فى (التــكية) (٣) حيث يوضع فى

---

(١) موريس ماجر وهنرى ليونيه : الاعياد فى الشرق وفى العهود البعيدة

(٢) وحسب رأى شودزكو فان التعازى قد كتبت بأشعار ذات ايقاع يدعى بالعربية بالهزج « المسرح الفارسى»

(٣) وحتى الان يوجد فى طهران مسرح يحمل اســـم تكى دولاتى « تكية الدولة »

منتصفها صيوان خشبى دائرى أو مربع يدعى (سيكو) ويستعمل كخشبة مسرح ، وهذا الصيوان مفتوح من كل جوانبه وليس فيه أى ديكور . أما المثلون فيغيرون ملابسهم فى ألواح جانبية تدعى (تاج ـ نوما)

ويدوم العرض ساعات متوالية ، ومنذ الصباح الباكر يتجمع الناس حول (السيكو) .

أما أدوار الرجال فيؤديها الرجال . والجمال والجياد الحقيقية كانت تمثل قافلة الحسين . هذه هى التفصيلات المادية للعرض قدمناها باختصار (١) كى ننتقل الآن ونرى المواضيع المعالجة .

لم يترك النبى أى نص مكتوب يتعلق بمن يخلفه ، لذلك انقسم المسلمون بعد موته الى فئتين : الشرعيون الذين يقولون ان الخلافة يجب أن تبقى فى عائلة النبى والذين يرون فى على (ابن عم وصهر محمد) الخليفة الطبيعى لمحمد

الدستوريون الذين يقولون ان الخلافة يجب أن

---

(١) لزيادة التفاصيل ، انظر كتاب ريزفانى المسرح والرقص فى ايران ـ منيرونوف باريس ١٩٦٢ .

تتم عن طريق الانتخاب

وقد تم الفوز بادىء الأمر للفئة الثانية ، وكان أول خليفة فى الاسلام (أبو بكر الصـديق) الذى سلم الخلافة من بعده الى (عمر) . وعندما قتل عمر بيـد رجل ايرانى يدعى (أبو لؤلؤة ــ فيروز) اختير (عثمان) للخلافة ، وقد رفضت شيعة على هذا الاختيار. ومنذ هذه اللحظة ولدت الفتنة الكبرى .

وقد أعقب ذلك فترة من العراك والخلافات الشديدة قتل فيهـا عثمان من قبل بعض الثـائرين ، ووصلت الخلافة الى على .

ثم اتهم معاوية عليا بمقتل عثمان وقام بثورة ضده ، وقتل على بدوره فى أحد مساجد الكوفة .. فأصـبح الطريق مفتوحا منذ ذلك الحين أمام معاوية الذى سمى نفسه (خليفة) . ثم أخذ البيعة لصالح ابنـه يزيد ، فأصبحت الخلافة وراثية كما كان يريدها (الشرعيون) ولكن لصالح أسرة معاوية وليس لصالح أسرة النبى

ولما أصبح يزيد بن معاوية حاكما لدمشق فى ابريل عام ٦٨٠ أرسل المبعوثين الى كافة الولاة طالبا البيعة ، وقد قبل أغلب الولاة بهذا الأمر ، ولكن عندما وصلت

الرسل الى المدينة حيث كان يقيم أولاد على : الحسن والحسين ، آثر الحسين الهرب مسرعا الى مكة كى يتجنب المبايعة تاركا أخيه الحسن وحيدا ، متعبا فى المدينة المقدسة (١) .

وفى هذه الاثناء كانت الحركة الشيعية قد اشتدت وراحوا يفكرون فى الكوفة بمبايعة الحسين ، وأرسلت الرسل تباعا اليه تدعوه الى الكوفة ، ولكن عيون يزيد كانت تبلغه بما يحصل ، فأحس بالخطر وكلف حاكم الكوفة عبيد الله بن زياد بأن يمنع بكافة الوسائل وصول الحسين الى الكوفة ، بينما كان الحسين وأتباعه (ويبلغ عددهم ما يقارب المائتين) فى الطريق اليها . وأمر ابن زياد فيلقا من الجيش الأموى بقيادة (الحر) بأن يسد الطريق فى وجه الحسين ، وتم اللقاء بين الحر وأتباع الحسين ، ولكن الحر عوضا عن محاربة الحسين انضم هو وجنده اليه (٢) . وفى أثناء ذلك بدأت أخبار

---

(١) ب ٠ جونستون ٠ الحسن والحسين أو بن كورت ١٩٠٩ .
بيلى : المسرحية المعجزة للحسن والحسين لندن ١٨٧٩
(٢) انظر القنصرى « أبو القاسم محمد » استشهاد الحر بن يزيد طهران ١٨٩٧ (ليتوغراف)

خطيرة تصل من الكوفة : اذ دب الشقاق بين سكانها ولم يعودوا كلهم فى صالح الحسين . عندئذ قرر الحسين عدم الذهاب الى الكوفة واتجه الى الشمال عن طريق الفرات .

عند ذلك أرسل يزيد جيشا من أربعة آلاف جندى ليقضى على مجموعة الهاربين الصغيرة ، وكان هذا الجيش برئاسة شمر بن ذى الجوشن ، ولما وصل هذا الجيش الى سهل كربلاء ، قطع الطريق الى الفرات عن الحسين وأتباعه (١) . وزادت الحرارة اللاهبة من عطش الاطفال ولكن العدو كان يحرس ليلا ونهارا كل الطرق المؤدية الى الماء .

وحاول العباس شقيق الحسين أن يخترق الحصار ولكنه فقد كلتا ذراعيه ومات متأثرا بجراحه . وكاد ابن الحسين زين العابدين بيمار (أى المريض) يموت عطشا .

وفى صباح العاشر من محرم (العاشر من اكتوبر

---

(١) نولديك استشهاد الحسين فى كربلاء برلين ١٩٠٩ سلسلة المكتبة التركية .

عام٦٨٠) نشبت المعركة ، وذبح كافة أنصار الحسين(١). وقطع رأس الحسين نفسه ، وأخذت النساء والاطفال أسرى الى دمشق ، وقد حملت كل رؤوس شـهداء عاشـوراء الى يزيد على أسـنة الرماح (٢) ، وتقول الروايات ان يزيد قد عبث برأس الحسين المقطوع ، ومنذ ذلك الحين لم تكف (التعازى) من أن تعيـد تمثيل مأساة كربلاء وآلام السيد الحسين (٣) .

كيف نفسر وجود هـذا المسرح ؟ هنـاك سببان متكاملان يبدوان لنا حاسمين .

الاول : سبب دينى ، والثانى : ذو طبيعة سياسية .

لقـد اكتشفت الشـيعة المسرح لأنها مرت بتجربة

---

(١) شودزكو استشهاد الجندى ، نشيد الضحايا ، ١٨٥٥

(٢) اسماعيل خان سرباز – أسرار – الشـهادات طهران ١٨٧٥

(٣) كى نكون اكثر دقة علينا ان نشير الى شىء من تفصيل (السيناريو) التابع لهذه المسرحيات . فهناك دائما مقدمة لهذه المسرحيات ترينا الملك سـليمان على بساط الريح او قصة مجنون ليلى الذى أتى يشـتكى للامام جعفـر الصادق من أنهم لا يعطـونه يد ليـلى . او حادثة اجفالدين الولد الثائر الذى اتت والدته تشتكيه للنبى .

الانفصال عن الدين .

فقد نسبت اليها جريمة مقتل عثمان ، وكانت تعانى من الندم العميق لأنها مسئولة بشكل ما عن مصرع على ثم الحسين . لذلك اكتشفت الشيعة الشعور بالذنب ووخزات ضمير شقى .

لأنها لما وضعت خارج المدينة السنية ، فانها اكتشفت بذلك قوانين اللا انتماء القاسية بنفس الوقت الذى أحست فيه بالقوة المحررة فى الخروج عن القواعد واغراء « اللعنات الكبرى أمام جدران المدينة » .

وفقد التاريخ من وجهة نظر الشيعة براءته الاصلية ، وتلوث الميثاق الذى يربط بين الله وعباده بدم على والحسين ، علينا اذن أن ننظف التاريخ من نتائج هذا الخطأ ، حتى يبعث الامام المختفى من جديد وينقذ العالم (١) .

أما النقطة الثانية فسياسية ، فعلينا ألا ننسى ان التعازى قد نشأت فى فارس حيث لم ير الفارسيون فى حياة وموت الحسين قدرا مأساويا فحسب .. بل

---

(١) حول علاقة الدين بالمسرح الفارسي انظر مونتيه (الديانة والمسرح فى فارس) مجلة تاريخ الديانات، باريس ١٨٨٧ • زورخ ١٩٦٠

ضمنوا سير حياته الأليم مطامعهم السياسية والقومية المكتومة .

فحسين ليس ابن على فحسب ، بل هو زوج شهرابانو آخر بنات الملك الساسانى يزدجرد وهذا الاتصال يجعل من الحسين واحدا من الأمة الفارسية « ليس هناك ما يثبت صحة هذا القول الذى ما زال افتراضا محضا ـ المترجم »

ويقول الوردى أحد أئمة الشيعة فى كتابه « وعاظ السلاطين » (١) . « لقد حصل على (وكان المفضل عند الرسول) على مركز ممتاز فى الاسلام جعل منه نصير الضعفاء والمظلومين »

وقد تابع ابنه الحسين القيام بهذا الدور ، وعندما احتلت الجيوش العربية والاسلامية فارس راحت هذه تفتش عن زعيم لها فوجدته فى أكثر أئمة الاسلام تواضعا ، ونحن هنا أمام مثال بارع من السنكريتية حيث تتخذ السياسة رداء دينيا والدين رداء سياسيا (٢)

(١) الوردى (وعاظ السلاطين) بغداد ١٩٥٤

(٢) انظر حول هذا الموضوع كتاب الكونت جوبينو (الديانات والفلسفات فى اسيا الوسطى) باريس ١٨٨٦ ـ ١٩٠٠ .

ولكن مع الأسف فان سميرنوف قد حضر عام ١٩١٦ آخر عرض عام للتعازى فى فارس ، وختم وصفه بالعبارات التالية : « وانه لمن المؤسف حقا أن تخسر فارس مثل هذا الشيء الغريب » (١)

وقد تأكد زوال هذا النوع من العروض فى يومنا هذا عندما سنت الحكومة الايرانية قانونا صريحا بمنعه .. فدفنت بذلك جثة مائتة .

علينا أن نشير أخيرا ان (التعازى) ما زالت تقام حتى اليوم فى العراق فى مدينة كربلاء بشكل لا يختلف كثيرا عن الشكل الذى وصفناه .

---

(١) سميرنوف الدين فى فارس تفليس ١٩١٦

المسرح المكتشف

كان هناك فنان ايرانى ، دخل فى دين الاسلام .. وكان يشكو لان الدين يجبره ان يتخلى عن فنه . وقال له عمر : «هيا .. ارسم اشخاصك واعطها شكل الورود ثم اقطع رءوسها . . »

« من رواية شهيرة »

ورغم ان الاسلام عجز عن أن يحمل ويحقق شكلا مسرحيا مزدهرا .. فان هذا لم يمنعه من معرفة أشكال مختلفة من المسرح .. وكما استطاع الفنان الايرانى الذى روينا حادثته ان يتحايل فى التعبير عن نفسه فان فنانى المسرح قد ابتكروا أشكالا عفوية من التعبير الدرامى غير المسرح .

مجموعة من الاشكال سنصفها نحن بالاشكال الما قبل مسرحية والتى ستبرهن على تطور المسرح بشكل لا يخص المسرح الاسلامى فحسب .

فهناك مجتمعات أخرى قد عرفت كيف تبتكر أشكالا درامية تمثل بشكل حسى رموزا تشير الى المجتمع والامثلة على ذلك كثيرة ، تمجيد الكوندومبلة فى باهيا والفودو فى تاهيتى والرقصات الشامانية فى سيبيريا ،

والكوبا فى جزر الباسفيك الشمالية وحتى (المواكب الملكية) فى القرون الوسطى أو (أعياد الكائن الأعلى) التى انبثقت من الثورة الفرنسية (١)

وفى الاسلام أيضا وجدت مثل هذه المظاهر.. وبالطبع فانها لم تصل الى مرحلة التبلور (التى جعلت مثـلا أغانى ديونسيوس تصبح مهدا للتراجيديا) التى كان ممكنا أن تحولها الى لغة درامية أصيلة .

ولكن هذا لا يمنع من أنها وجدت وانها ما زالت موجودة وان حصرها لا يمكن الا آن يكون مفيدا .

(١) انظر حول هذه التظاهرات الفنية :
روجيه باستيد : الكوندومبلة فى باهيا • لاهاى ١٩٥٨
الفريد مترو : الفودو الهايتى • جاليمارد ١٩٥٨
برونيسلاف مالينوفسكى : رواد شمال الباسفيك • جاليمارد ١٩٦٣
جان كازونوف : الالهة ترقص فى سيبولا • جاليمارد ١٩٥٧
روبرت جولان : الموث سارا • باريس ١٩٦٧

القسم الاول

ماقبل المسرح

بين مجموعة العناصر الماقبل مسرحية المتشتتة والموزعة ، يبدو لنا من الضرورى أن نلجأ الى تصنيف يجمع الزمر التى تتوافق والتى تمت الى بعضها بصلة ما
لذلك فنحن نقدم فئات ثلاث :

الفعل الممثل :

وهذه الزمرة تبدأ بحركات البيع المعروفة والمميزة فى الاسواق المغربية (١) .
والحقيقة انه يمكننا أن نضم الى هـذه الزمرة كل ما يمكن أن يكون فى الكلام حجة لألعاب درامية (الغناء ، الكورس ، الحوار ، المونولوج)

(١) والتى يمكننا تقريبها من بعض طقوس البيع فى البلاد الاخرى . . خصوصا (سوق الجبن) فى هولندا المثير للدهشة حقا ..

وفى هذا الاطار نضع وفى مكان الصـدارة المداح أو المقلد أو الحكواتى أو الفداوى (حب البلد) .. فبهذه التسميات المختلفة نشير الى القصاصين الجوالين، البارعين فى الايماء ، الرحالة المرحين ، الذين يقومون بمدح الشخصيـات الشـهيرة ، ويقلـدون اللهجات والعادات أو يروون الحكايات المـاضية أو الحالية . ويمكننا أن نرى نماذج معاصرين من هؤلاء القصاصين فى يومنا هذا فى ساحة الجمعة الشهيرة بمراكش .

وكذلك يمكننا أن نضع فى هذه الزمرة الاولى من العناصر الما قبل مسرحيـة (الـكلام الملحون) حيث يروى الراوى بجمل موزونة ، مغـامرة على الاكثر مضحكة تتخللها مقاطع جنسية وحيث ترد عليه جوقة خبيثة من الشباب بحماس زائد (١) . وقد أصبح الشيخ (سالم بوضاية) المغنى العجوز الملقب بملك الزجل أستاذا فى هذا الفن ، وهو موجود حاليا بتونس . وفى احدى أغانيه مثلا يروى متاعب حياته الزوجية . ويمثل بالايماء مشاهد من حياته العائلية .. ناقلا ما تقوله له

---

(١) انظر بهذا الشأن سيترن : الاغانى المذراب - باليرما ١٩٥٣

زوجته . وما يجيبها به ، تشاركه فى ذلك مجموعة من الرجال تبعث الحرارة فى الناس بين مقطع وآخر .

ونضع أيضا فى هذه الزمرة المونولوجات الايمائية لبعض الرحالة البربر ، كذلك الابيات الدرامية حقا التى يلقيها المغنون الشعراء الموسميون حيث يتحاور البو غانم (رجل القصب) مع رفاقه الخصوصيين (الارداد) (١)

وضمن اطار (الفعل الممثل) يمكن أن نضع أيضا الغناء المتعدد الاصوات لبربر الاطلس المتوسط حيث يشكل التصفيق المنظم الخاص نوعا من الرد ومن السند للغناء ويخلق بذلك شيئا يشبه الحوار الدرامى .

ويمكننا أيضا أن نتساءل : اذا لم يكن هناك بنيان درامى فى حالة بدائية فى بعض مسرحيات (معلوف الاندلسى) كذلك فى هذه الاغنية الشعبية الذائعة الصيت (ياشوشانا) .. فهل هى الا الوصف الموضوعى (السيناريو) اذا أردنا القول لوكالة عاطفية ؟ فالغنى يطلب بالفعل من شوشانا العبدة السوداء الصغيرة

(١) لاحظ ذلك ايضا ميشيل هابارث فى مقدمته لكتاب هنرى كربا (المسرح الجزائرى)

نتيجة المهمة التى قام بها عندها .

وبشكل عام علينا أن نؤكد القيمة الما قبل مسرحية لكل أنواع الفولكلور (١) .

وأن نشير الى الاهميـة الاستثنائية التى يتمتع بها الفولكلور اللبنانى (٢). فهذه الاغانى الشعبية اللبنانية التى أبدع الأخوان رحبانى بتوزيعها الموسـيقى والتى أجادت فيروز غنـاءها قـد ألهمتهم عددا كبـيرا من الكوميديات الموسيقية .. كما اعتمد عليها بشكل رئيسى أيضا الفيلم السينمائى (بياع الخواتم) .

ويقدم الفولكلور العراقى أيضا أرضا خصبة فى هذا الموضوع (٣) .

وعلينـا أن نشير أخيرا الى تأسيس مركز للفنـون الشعبية فى الجمهورية العربية المتحدة يشرف عليه يحيى حقى ومهمته احياء فن فولكلورى شـديد الغنى فيما

---

(١) حول الفولكلور ، انظر المقال التحليلى الذى كتبه الدكتور حسين مؤنس (الفولكلور) فى المجلة سنة ١٩٥٨ عدد ٩٣ .

(٢) انظر جبور عبد النور دراسات حول الشعر العامى فى لبنان (نص اطروحة) .

(٣) انظر مقال نازك الملائكة (شخصية الاخر فى الغناء العراقى) فى آداب اغسطس ١٩٥٧ .

يتعلق بالمصادر الما قبل مسرحية (١) .

أما ايران فتملك بدورها آغانى شعبية باللغة الاهمية من مازنديران ، ومن جورجان ، جيلاك ومن تاليش ، وخصوصا أغانى اذربيجان (شيكسته) (٢) .

ولنذكر أخيرا رقصات الدراويش الدائرية (المولوية) التى كان أول من آسس نظامهم الشاعر الكبير جلال الدين الرومى (١٢٠٧ ــ ١٢٦٣) والذى وجد خلال فترة طويلة فى تركيا (فى قونيـــا خصوصـــا) مريديه الاكثر حماسة .

وفى كتابه الرائع « ميسنيفى ــ منارى » يصـــف الرومى الاندفاعات الديونيسيســـية لهـــذه الرقصـــة النشوانة .

وقد نقل لنا أحد الرحالة الفرنسيين (بواجوبى) عن هذه الرقصات وصفا صادقا نستنتج من خلاله الطابع الدينى الذى يميز هذا الثمل (٣) .

---

(١) رشدى الصالح (الادب الشعبى) القاهرة١٩٥٨ .

(٢) التى نقل معظمها فى كتاب ريزفانى الذى اشرنا اليه (المسرح والرقص فى ايران)

(٣) ف . بواجـــوبى (دفتر ســـفر باريس) مجلة الموزاييك . باريس ١٨٧٥ . عدد (ديسمبر) .

ولعله من الافضل أن نختتم هذه الزمرة من (الفعل الممثل) بأن نشير الى المراكز الأدبية التى كانوا يدعونها أسواقا ، وأشهرها جميعا سوق عكاظ

فقد كانت تقام قريبا من الطائف وتدوم كما يؤكدون عشرين يوما . ويظن ان الشاعر النابغة الذبيانى كان يلعب دور الحكم بين كثرة المتنافسين الشعريين .

التظاهرات ذات الطابع القريب من الدينى :

فى هذه الزمرة الثانية من العناصر الما قبل مسرحية يمكننا أن نضع فى مركز الصدارة (المواكب الموسمية). ففى المغرب أيام الجفاف تخرج الفتيات الصغيرات فى موكب جماعى ، وقد رفعن ملعقة كبيرة من الخشب علقت عليها بصورة عشوائية قطعا من القماش الملون .

أما فى تونس فيلقبون هذه الدمية باسم آمك تانجو (الأم تانجو) وفى الجزائر يطلقون عليها (أما تالكنجا).

وترقص الفتيات أمام الدمية وهن يغنين :

« أمك تانجو . .

يا نسا . .

طلبت ربى . .

فى الشتا » . .

أى « الأم تانجو أيتها النساء قد طلبت من الله المطر»

انه دون شك طقس يعتمد على السحر ولكن قيمته الدرامية لا جدال فيها ، ويمكننا آن نستنتج اننا أمام طقوس قديمة زراعية من ليبيا مرتبطة بالخصوبة ، وما زالت قائمة .

فى هذا الاطار من المواكب الموسمية يمكننا أن نضع (خرجة سيدى بوسعيد). ففى منتصف أغسطس تعرف هضبة سيدى بوسعيد (فى ضواحى تونس) نشاطا غير معتاد . نرى من خلاله آعلاما قديمة من الجيش التركى وقد فرشت ، أعلاما كبيرة ذات ألوان فاقعة ، ويبدأ موكب متوتر بالسير من زاوية المربوط وحتى أعلى الهضبة باتجاه مكان يدعونه (ايملكار) حيث كان يقيم الرجل القديس قبل أن يختار أعلى انهضبة ليتم فيها حياته .. هذه الهضبة التى سميت بعد ذلك باسمه

وخلال كل هذه (الرحلة) لا تكف الطبلة عن القرع تصاحبها آلات النفخ الهوائى (الناى والمزوج) ويقف بعض المداحين ينشدون مناقب القديس .. بينما يمثل آخرون بعض المشاهد الايمائية الضاحكة .

وضمن هذه الزمرة من العناصر الما قبل مسرحية

ذات الطابع القريب من الديني علينا أن نضع (احتفالات الترغيب) لبعض الطوائف الدينية كالعيسوية مثلا . ورغم ان هذه الطوائف قد منعت بالقانون فانها لم تختف تماما . وقد سنحت لنا الفرصة أن نرى جزءا من هذه الاحتفالات ويمكننا أن نؤكد أن طابعها المسرحي يزداد تأكدا (١) .

والحقيقة ان الاحتفال يبدأ بأغنيات دينية تحت رعاية رئيس الطائفة الذى يطلقون عليه اسم (عكاشة) وبعد ذلك يدخل بعض قدامى الطائفة فى حالة وجد ويأكلون قطعا من الزجاج المكسور أو عقارب حية .

يلى هذا العرض ، عرض ايمائى يقوم به المنتمون مؤخرا الى الطائفة (وذلك حسب تسلسل شديد الدقة) ويمثلون فيه أدوار الحيوانات المتوحشة : الأسود ، النمور ، الفهود ، الذئاب ، الثعالب .. الخ)

ويجلسون القرفصاء أو على أربع. ويبدأون بالركض وهم على هذا الوضع أو يقفزون أو يتسلقون

(١) راجع كتاب ميشيل ليريس (الامتلاك ومظاهره المسرحية عند الاحباش فى غوندار) بلون • باريس ١٩٥٨ .

الجدران .. مصدرين الاصوات المميزة لكل حيوان من الحيوانات التى يقلدونها .

وكذلك نستطيع أن نضع فى اطار هذه التظاهرات ذات الطـابع القريب من الدينى (بعض تظـاهرات المجموعات السوداء المقيمة فى افريقيا الشـمالية) .. وخصوصا شخصية (بوسعدية) الشخصية الشهيرة فى كثير من المدن المغربية .

فهـذه الشخصية بقناعها ، وبحزامها الطويل الذى يكمله ذنب ثعلب وبصناجاتها ، وقبعتهـا المخروطيـة المزينة ببقايا مرايا زجاجية .. هى الشخصية التى تقدم عروضها بشكل مستمر ، وتروى اسـطورة جميلة ان هذه الشخصية كانت ملكا معزولا من امبراطورية مالى القديمة الاسطورية وانه يدور من مدينـة الى أخرى فريسة لهزء الاطفال (١) .

وعلى كل حال ، فان بعض أعياد ورقصات السكان السود تحتوى فى طياتها على كثير من العناصر الما قبل مسرحية . خصوصا (رقصة صيد الغزال) التى تدور فى جيبستان قرب مدنين فى تونس ، حيث يقرع الطبل

(١) محمد دواس (أبو سعدية) تونس ١٩٦٦

ويدعى الى الصيد .. ومن ثم يبدأ الرقص .. ويمثل الراقصون بالايماء المطاردة فى الاحراش وبين الاغصان الكثيفة .

كذلك رقصة جوجو من وجربا التى تعتمد على القفزات وتحاول عن طريق الايماء أيضا أن تمثل المد والجزر فى البحر .

ورقصة (ستامبالى سيدى سعد) حيث يصبح الرقص حجة لمشاركة جماعية كثيفة وذات طابع درامى (١) . وقد حرصنا ألا نذكر فى اطار هذه الدراسة الا الاحتفالات التى رأيناها رأى العين . ومن البديهى ان هناك مظاهر من هذا النوع فى كافة أرجاء العالم العربى .. وان مثل هذه الاشكال من التمسرح العفوى واللامباشر لابد أن يتواجد تحت مظاهر شتى

علينا أخيرا أن نشرح الزمرة الثالثة من الاشكال الما قبل مسرحية ، وهى تتكون من الاشكال المجهضة للمسرح حيث نرى خطوة عريضة قد اجتيزت للوصول

(١) فان جينيب : المعتقدات السودانية فى تونس . مجلة التقاليد الشعبية .

مدام دوبولوز : دراسة حالات الاستحواذ فى منطقة صفاقس (المجلة التونسية) ١٩٣٣

الى تأسيس بنيان درامى متطور .. ولكن يتضح لنا ان هذه الخطوة لم تكن كافية لأنها لم تؤد الا الى شكل غير متكامل من المسرح ، ولكن هذا لا يمنع أيضا من أن تكون هذه الزمرة هى أكثر الزمر أهمية فى هذه الدراسة .

الاشكال المجهضة للمسرح :

ولنذكر بالحال ضمن هذه الاشكال المجهضة الروايات النابضة بالحياة والمليئة بالدعابة الساخرة التى تضمنتها مقامات بديع الزمان الهمزانى والحريرى .

فان بطلى هذه النوادر الصغيرة (عيسى بن هشام) و (أبو زيد) يشبهان الى حد بعيد خدم كوميديات القرن السابع عشر والثامن عشر من سكابان الىفيجارو مارين بسنغاريل وفرونتان الذين مثلوا سيطرة التفكير الساخر الى جانب اظهارهم سوء نية السادة .

ولكن مسرح الظل هو الذى نراه أكثر الاشكال لفتا للانتباه ضمن اطار هذه الفئة . فحتى عمر الخيام أكد على القيمة الميتافزيقية والخيالية التى يتمتع بها (فانوس الخيال) فى احدى رباعياته الشهيرة

« هذا العالم الذى نتحركُ فيه
شبيه بفانوس مسحور
الشمس هى الضوء والعالم هو الفانوس
ونحن نتحركُ أشبه ما نكون بالظلال »

واستغل الشاعر (باقى) فى القرن السادس عشر (خيال الظل) ليبرهن على بعض مبادئه الفلسفية : « ان الأمر كله يعود الى السيد الذى يقف خلف الستار .. أتظن ان حركات هذه الخيالات هى حركات ارادية ؟ »

والحقيقة انه منذ (اسطورة المغارة) التى جعلها افلاطون اسطورة شهيرة ، لم تكف هذه الثنائية بين الرجل وظله ، بين الحقيقة ومظاهرها ، من ملء عالم البشر العقلى :

وعاد (بيندار) الى اثارة المشكلة فيما بعد حين قال : « نحن الكائنات المؤقتة .. ما نحن ؟ وما ليس نحن ؟ ان الانسان ليس الا حلم ظل .. »

وعلى هذا الطريق عبر كراكوز وفرقته الشهيرة بواسطة الخيالات المتحركة عن هذه الاسئلة المختلجة الدائمة .

وكى نعود الى أصول مسرح خيال الظل الاولى ، فليست الصين هى ما يجب أن تتجه اليه ـ كما يخطىء الـكثيرون معتمـدين على اصطلاح الظـلال الصينية الشائع ـ ولكن علينا أن ننظر نحو الهنـد . فبيشل يدعى ان فى نص الماهاباراتا وهو من أقـدم النصوص الهندية نجد اشارة صريحة الى مسرح الظل (١)

ففى جاوا حيث تغلغلت الحضارة الهندية منذ القرن الرابع نرى ان ألعاب الوايانغ التى حفظتها التقاليد حتى يومنا هذا تشـكل عرضا مختلطـا تساهم فيه عنـاصر مسرح الظل ومسرح العرائس معا (٢) . ونصادف غالبا فى الأدب الجافانى اشارات ذات طابع فلسفى تشير الى الوايانغ . فالاريونا ويناها وهى قصيـدة من القرن الحادى عشر تقارن الناس الذين يعطون أهميـة بالغة لهـذا العالم الفانى الذى نحيـا فيـه بهؤلاء الذين تستهويهم عروض الوايانغ رغم انهم يعرفون ان الدمى

(١) انظـر كتاب س . ليفى (المسرح الهنـدى) . باريس ١٨٩١ والكتاب الجماعى عن الهند القديمة مجموعة (تطور البشرية) باريس ١٩٣٣ .

(٢) أنظر فان ليليفلد (الرقص فى المسرح الجافانى) باريس ١٩٣١ .

فى هذه العروض مصنوعة من قطع جلدية .

أما تاريخ مسرح الظل فى الصين فلا يعود الى زمن بعيد جدا رغم ان احدى الاساطير تنسب ظهوره الى الامبراطور (وو) الذى عاش بين عامى ١٤٠ — ٨٧ قبل الميلاد ولكن الاسيكلوبيديات الصينية تشير الى ظهوره فى بدء القرن الحادى عشر كنوع من التسليات الشائعة فى الأسواق العامة (١) . أما أول اشارة نصادفها فى الادب العربى والتى تثبت بشكل قاطع للجدال وجود مسرح الظل فى الشرق ، فانها تعود للقرن الحادى عشر .

ففى العالم الاسلامى وقبل أن يؤلف ابن دانيال الموصلى (طيف خياله) (٢) الشهير فى مصر بظل السلطان بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) أشار بعض المتصوفة المسلمين الى مسرح الظل ملقبين اياه بظل الخيال أو خيال الظل أو خيال الستار وقارنوا بين العالم

---

(١) انظر تشو كياكين (المسرح الصينى) بونهوف ١٩٢٧ .

(٢) انها قصة القهرمانة التى وعدت الامير فيصل بعروس فائقة الحسن ولكنها قدمت عوضا عنها امرأة دميمة .

وبين ستار العرض ليثبتــوا نظريتهم عن الخليقــة أو تفسيراتهم عن العلاقة بين الذات الالهية وبين البشر .

وهكذا نجد فى أعمال (ابن حزم) والامام الغزالى، ومحيى الدين العربى ، وابن فارس مسرح الظل مستخدما كوسيلة للمقارنة أو كوجه من وجوه التشبيه . ويشير الغزالى فى كتابه ان صلاح الدين الكبير قد شهد برفقة القاضى الفاضل عرضا من عروض هــذا المسرح . وان القاضى قد أصابه الذعر بادىء الأمر .. فأراد مغادرة القاعة ولكنه خوفا من اغضاب السلطان بقى جالســا حتى النهاية ثم أعلن تأييده لأخلاقية هــذه الصور . ورغم ذلك فان المؤرخ ابن اياس يفيد بأن قانونا بمنع خيال الظل قد سن فى عام ١٤٥١ .

وعرف أتراك آسيا الوسطى مسرح الظل منذ زمن بعيد .. وكى يقيم جذوره فى الشرق فان هذا المسرح قد اتبع نفس الطريق التى اتبعهــا الاتراك فى غزوهم للبلاد الشرقية الوسطى منها والقريبة ولبعض مناطق افريقيا الشمالية . وبعــد آن تشــكلت الامبراطورية العثمانية ، فرض هذا المسرح نفسه بتقاليده الجديدة

وبشخصياته على البلاد المغزوة . سواء فى أوروبا أو فى افريقيا .

أما بالنسبة لمسرح الظــل المعروف باســم كراكوز (وكراكوز بالتركية تعنى العيون السوداء) فعلينا أن تصــعد فى التــاريخ الى حكم أورهان ــ (١٣٢٦ ــ ١٣٥٩) حتى نجد جذور هــذا العرض أو على الأقل تاريخ ولادة الشخصيتين الرئيسيتين فيه .

فحسب ما تقول احدى الاساطير الحلوة ان كاراكوز والحاجى عيواظ قد عاشا حقا فى البصرة وأن الأول كان بناء ، والثانى حدادا وانهما كانا يعملان معا فى بنــاء احد الجوامع بناء على أمر من الســلطان . ويروون أيضا ان ثرثرات ونكات هذين الرفيقين المرحين كانت تمنع باقى العمال من العمل مما آجل الى أمد طويل انتهاء بناء الجامع . ولفت هذا التأخير الطويل انتباه السلطان فأصدر أوامره بقتل المسئولين . وهكذا لقى العابثان الموت .. ولكن السلطان اورهان سرعان ما تملكه الندم على حركته الظالمة هذه وأراد رجل يدعى (سيه كوسترى) أن يواسى السلطان .. فنصب ستارا فى ركن من أركان القصر وأظهر خيال الضحيتين وقلد

كلامهما أمام السلطان . واستعمل كوسترى الماهر (بابوجيه) ليعبر عن شخصيتى كراكوز وحاجى عيواظ ، وأصبح منذ ذلك الحين سيدا لهذا الفن باعتراف كل لاعبى خيال الظل الاتراك .

وسارت شخصية كراكوز فى حوض المتوسط كله وتلونت بألوان مختلفة واتخذت طابع العقليات المتنوعة وخرجت خصوصا من حدودها الصوفية الضيقة الأولى الى حدود أكثر مرونة وسخرية .. بل اننا نجدها قد وصلت الى ايران نفسها تحت اسم (خيمة سالى جردون) « الخيمة ذات الظلال المتحركة »

هذا الطابع الهازىء الذى كانت ترافقه حواريات بالغة الجرأة من وجهة نظر أخلاقيـة « خصوصا فى المسرحية المعروفة باسم الحمام أو المسرحية التى تحمل اسم ألعاب الليمون » قد دفعت السلطات أكثر من مرة الى منع هذا المسرح من العمل « خصوصا عام ١٨٤٣ فى الجزائر »

ومن منع الى آخر سقط هذا النوع من المسرح فى أدراج النسيان .. ولكن هذا لا يمنع من ان هذا المسرح بشخصياته النموذجية ومواقفه المتعددة قد كان

المثال الوحيد المقبول تقريبــا لشــكل مسرحي عرفه الاسلام ومارسه بصورة شعبية واسعة (١)

ويقترب من هذا الشكل المسرحي مسرح العرائس. وهو رغم انه أقل شعبية من مسرح الـكاراكوز ، ورغم انه أقل شمولا فى البلاد الاسلامية ، فان هــذا الشكل من المسرح اســتطاع أن يعطى (تحت تأثير صقلية) مسرحا له قوامه الهام فى تونس .

وهنالك ثلاث دمى تشكل الشخصيات الرئيسية لعقدة القصة ، وهى على الغالب لا تتغير : اسماعيل باشــا يخطف بعد عدد من المغامرات الحربية نينا الجميلة من خطيبها نيكولا المتشرد الصقلى ، الاسبانى أو الايطالى (حسب المناطق) .

ويمكننا أن نقرأ الخلفيــات السياسيــه بســهولة ووضوح.. فالحماية العثمانية قد طردت المحتل الاسبانى والاجنبى .. ومسرح العرائس يمثل هذا النصر السياسى

(١) حول الاعدادات المسرحية المعاصرة لروايات كاراكوز فى العالم العربى انظر :
كاكى (مسرح الكاراكوز) الذى قدمه المسرح القــومى الجزائرى وكاراكوز خادم الحب مسرحية اعدها ونشرها المؤلف سنة ١٩٦٢ .

والعسكرى ويحوله الى انتصار عاطفى .

وعلينا أن نشير أيضا أن ايران قد عرفت هى أيضـا نوعا جديرا بالاتتباه من مسرح العرائس أطلقت عليه اسم (لوبيت ـ بازى)

وفى كتابه « مخازن الأسرار » (١) يقارن النظامى (١١٤١ ـ ١٢٠٣) الاحيـاء بالعرائس التى تحركها أصابع اللوبيت باز (الرجل الذى يحرك العرائس وراء الستار)

وهناك ثلاثة أنواع من ألعاب العرائس فى ايران : أهمها كان دون شك ألعاب البطل الاصلع (بهلفـان كيتشل) (٢) .وأبطال هذه الألعاب الرئيسيون خمسة : بهلفان كيتشل، والمهرج الخبيث اكهوند، زين، رستم ، وديف .

أما الشكل الثانى من مسرح العرائس الفارسى فهو الألعاب المسائية تحت الخيمة (شب بازى) (٣) ويتألف من اثنين من الموسيقيين : الاول يلعب الكمنجة والثانى

---

(١) طبعة بلاند لوندره ، ١٨٤٤ .

(٢) انظر كالونوف بهلفان كيتشل . لينينجراد ١٩٢٨

(٣) انظر بيريزيف الدمى الفارسية ، كازان ١٨٥٢

الزرب مرافقين رقصات الدمى الصغيرة .

أما الشكل الثالث من هذه الألعاب .. فهو ألعاب الجرة .

ولكن مهما كانت أمجادهم السابقة فان هذه العرائس لم تكن بالنسبة لبلاد الاسلام الا ذكريات بعيدة منسية .

وعلينا أن نستعرض الآن الفئة الرابعة والاخيرة من هذه الأشكال المجهضة للمسرح بأن ندرس احتفالين تقليديين شديدى الغرابة : الاول فى تونس والثانى فى مراكش .

ويجب أن نؤكد هنا ان هذه الاشكال من المسرحة الجماعية يجب أن تكون موجودة بشكل ما فى أى ركن من أركان العالم العربى .. ولكننا اكتفينا بأن ننقل هذين المثالين لأنهما الوحيدان اللذان نملك عنهما معلومات آكيدة فلقد قابلنا بأنفسنا بعض المنظمين وأجرينا حوارا مباشرا معهم وأخذنا بعض الشهادات الدقيقة .. بل اننا رأينا العرض نفسه مباشرة بالنسبة للمثال الأول .

وعندما يتطور علم عادات الشعوب فى البلاد العربية

فانه سيحمل لنا ـ ونحن على ثقة كاملة من ذلك ـ الكثير من المعلومات القيمة الاخرى .

أما المثال الاول على هذه المسرحيات الجماعية فهى أعياد نبتة البلوط أو سهرة الكذب والتى تدور فى تونس .

ففى بعض أحياء المدينة العتيقة تتم عروض تلقائيـة ارتجالية ترتبط بفترات زمنية معينة من العام .. هـذه العروض ينظمها محركون (واحـد منهم هو سـالم السنغالى والذى لقب بذلك بسبب سواد بشرته وهو الذى كان دليلي فى هذا المضمار) يشجعون على اشتراك بعض سكان الحى معهم ، وهو اشتراك مجـانى غير مأجور .. والمرأة بعيدة تماما عن هذه العرض التى تقتصر على الرجال فقط .

وهناك موضوعان تدور حولهما هذه العروض :

١ ـ السلطان وزليخا : السلطان على عرشه يضع بين شفتيه قطعة طماطم كبيرة .

ويأتى بعض الناس للانحناء عند قدميه وتدخل زوجته زليخا (شاب متنكر طبعا)

وتوحى اليه بأنهـا تحبه ، ثم تذهب لتخدعه دون مبالاة مع الشاعر المهرج الذى يدعونه بالطبع «أبو نواس»

٢ ـ الأم بالازا : وهى قصة قابلة لا تأنف من أن تلعب بين حين وآخر دور القهرمانة .

واذا كانت نبتة البلوط لا تتعلق الا بحى صغير فى تونس فان « أعياد تولباس » تجند كل عام مدينة فاس بمراكش بأكملها .

ففى هـذا العيد السنوى ، ينتخب طلاب مدراس ملكا يحق له أن يحكم المدينة يوما بأكمله ويأتى حاكم البلاد بنفسه ليحييه .

ويشاع ان العلويين قد استنـدوا فى اقامة حكمهم على عيد من أعياد تولباس .

نحن هنا أمام مثال شديد النجاح لمسرحة الحيـاة الاجتماعية بكاملها حيث يلعب كل فرد دورا جـديدا ابتكره حسب الوضـع الجديد الذى خلقـه المجتمع نفسه بصورة كاملة وعفوية .

وهذا يذكرنا بالطبع بعض الاعياد المطلقة فى القرون الوسطى : فرواسار ، والاستوريا وانجليكانا لتوماس والسينجهام ، ومذكـرات بيير سالامون أو لوحـات

كاتروسانتو (١) ترينا مدى اتســاع هــذه الدراميات الجماعية . وما من شك انه بالنسبة لأعياد نولباس فان الأمر يتعلق بانقلاب مطلق للأوضاع وان هذه المسرحة الـكاملة للحياة الاجتماعيــة لا تدوم الا من شروق الشمس وحتى غروبها .. وان هذه الظاهرة ، وفق هذا المعنى ، تنتمى الى مظاهر الأعياد أكثر مما تنتمى الى الدرامات الجماعية .

***

ورغم الأهمية التى لا يمكن نكرانها بالنسبة لعلم عادات الشعوب والتى تقدمها هذه المظاهر ، فعلينا أن نعترف ان هذه الأشكال الما قبل مسرحية لم تستطع أن تؤدى الى أى شكل متطور ودائم للمسرح.. وانها لا تمثل فى نطاق دراستنا هذه الا نصيبا مرجعيا نورده للذاكرة .

والحقيقة ان المسرح العربى سيولد لا من هذه العناصر الاصيلة ولكن من النقل الخارجى ، من الاستيراد أو بعبارة أصح من ظاهرة نقل ثقافة أجنبية .

---

(١) انظر بيير فرانكاستل (التصوير والمجتمع) ليون ١٩٥١

القسم الثانى :

الرهن الأصلى

فى عام ١٨٤٨ عاد اللبنانى مارون النقاش من ايطاليا ليقدم أول مسرحياته : البخيل (المترجمة عن موليير) والتى ستكون أول مسرحية (حسب المعنى المعاصر للكلمة) فى ربرتوار المسرح العربى . وقد كتب السائح الايطالى بلزونى عام ١٨١٥ مؤكدا انه رأى فى شبرا فى مصر عروضا مسرحية وان المسرحيات الممثلة (الحاجى والجمل) و (الاجنبى والعربى الفقير) كانت شعبية جدا وتحتوى حسب رأيه على اتهام حاد لطبقة التجار الغنية والمجردة عن الضمير .

ويقال ان مسرحا فرنسيا قد تم انشاؤه فى مصر فى عام ١٨٣٧ وكانت كثير من الفرق الاجنبية تأتى لتمثل

[1](*) بلزونى سجل للعمليات والاكتشافات الاخيرة فى مصر والنوبة ــ لندن ١٨٢٠ .

فيه . ومع ذلك فان التأثير الايطـالى هو الذى ترك بصمته فى مصر .. كما تدل على ذلك المـذكرة التى أرسلها بالايطالية فى ١٦ اكتوبر عام ١٨٤٧ ارتين باى الى سير شارل موراى قنصل بريطانيا فى مصر والمدعوة « التنظيمات المسرحية » والتى كانت أشبه ما تكون بنشرة تتعلق بالقواعد الواجب اتباعها فى داخل صالات المسرح « منع التـدخين ، منع الضجيج .. الخ .. » ومهما كان شأن هذه التفاصيل .. فالمهم الانتباه اليه ونحن فى اطار هـذه الدراسة أن الشرق العربى لم يكتشف المسرح الا فى عام ١٨٤٨ بفضل ترجمة مارون النقاش لمسرحية موليير (البخيل) .

وبفضل ظاهرة استيراد الثقافة هذه سيعرف المغرب العربى بدوره وبعد ستين عاما فى عام ١٩٠٨ على وجه الدقة الظاهرة المسرحية تقدم بلغته الاصلية .

اذ قررت فرقة مصرية بادارة القرداحى أن تقوم فى هذا التاريخ بأول جولة مسرحية لها خارج بلادها . ووصلت الى تونس وقدمت فيها عروضـها بنجاح كبير .. ثم تابعت طريقها بعد ذلك نحو الجزائر .. وبهذه الطريقة عرف المغرب العربى المسرح .

اذن .. سواء بالنسبة للشرق العربى آو لبلاد المغرب فان ولادة المسرح تمت عن طريق استيراد الثقافة الاجنبية .. أى عن طريق الرهن الاصلى . فهل علينا بهذه الحالة أن نتكلم عن المسرح العربى أو عن المسرح الممثل بالعربية ؟ ..

ان الهوة العميقة التى ما زالت تفصل بين المسرح العربى وجمهوره ، والتخلف الذى يدور فيه بالنسبة لغيره من المسارح فى العالم ربما يعود الى فكرة الثقافة المستوردة هذه . فعوضا عن أن يطوز المسرح العربى عناصره الما قبل مسرحية ويحولها ألى لغة مسرحية متينة البنيان ، فانه اضطر كى يثبت وجوده الى سلوك منعطف طويل مستعملا طرقا غريبة عليه .

لقد دفع المسرح العربى ثمن وجوده بخسارة أصوله خسارة مؤقتة .

ولكن كيف نبرر ظهور المسرح العربى من جديد من العدم وبفترة تاريخية شديدة التحديد ؟

القسم الثالث :

أوديب العربي

كما كانت الفتنة الاولى فى الاسلام حول حق الخلافة باعثا على فك اجماع المسلمين وادخال عاطفة جديدة عليهم من الانعزال ومفهوم الخطيئة وعدم الانتماء وجعلتهم (يخترعون) المسرح على يد الخارجين (الشيعة) (١) . فان الفتنة الثانية التى نشأت عن الاستعمار والضياع الذى نتج عنه ، ستثير الحساسية الخلاقة عند العرب وستقودهم الى طريق يكتشفون فى نهايته ومن خلال طرق التعبير والاتصال الجديدة التى توصلوا اليها ، القصة والمسرح .

الخطيئة الاولى :

ان العرب لم يشعروا بالاستعمار كنتيجة حتمية

(١) انظر فى «سوبرا» ماذا قيل عن التعازى الشيعية

للتاريخ وكالمرحلة القصوى للرأسمالية كما يقول لينين وانما شعروا به بادىء الأمر كنوع من الخطأ .

ويسمى قسـطنطين زريق (1) وهو واحد من أكثر المؤرخين العرب المعاصرين جدية ، هذه المرحلة باسم (النكبة) ويقدم الاحساس الضميرى الذى تلاها بأنه (تمزق الذليل) .

واذا كانت عصـور الانحطاط قد اتهمت بضراوة بأنها جعلت من أغلب البلاد الاسلامية فريسة سـهلة للاستعمار (بل ان البعض ذهب الى وصف كثير من هذه البلاد بالقابلة للاستعمار) . فان الإحساس الحاد بالخطأ سيؤدى فى الروح الجماعية للشعوب الى اشكال عنيفة من عدم التوازن .

ومن هنا بدأت تظهر مفاهيم جديدة وهامة كالكبت والقلق .

اكتشاف الاخرين :

ولكن الاستعمار رغم كل سيئاته ساعد العرب على اكتشاف الآخرين .

وبالطبع فان هذا الاكتشاف مغلوط لأنه كان اكتشافا

(1) قسطنطين زريق (نحن والطريق) بيروت ١٩٦٠

مفروضا وليس تلقائيا . ولكن تجاه الآخرين توضح موقف غريب تشكل من خليط غامض من العواطف فيها النفور والتوتر المكتوم والرفض والقبول والحوار الموحى والصمت المفاجيء .

ان الحضارة التكنيكية تبعد وبالتالى تذل ولكن تغطيتها لحاجات الزمن الحاضر تغرى وتشجع على تجاوزات مثمرة . ولقد اضطر المسلم التقليدى كى يتلاءم مع الآخرين وكى يتوافق مع عالم خلقته الآلة باسم الضرورات الحيوية ، ولكى يحيا الحياة المعاصرة أن يتنازل عن جزء كبير منه .. وأن يعيد خلق نفسه وأن يتجاوب مع التقدم العلمى والانسانى .

ولكن بأى ثمن ؟

لقد اكتشف فجأة أن مدينته ليست هى الانسجام التام لأنها خرجت من يده وأصبح يتقاسمها مع الآخرين . لقد أصبحت هذه (القرية الظالمة) التى اكتشف فيها الدكتور (كامل حسين) الظلم .. وكيف يكون الانسان ناقصا ..

وهكذا بعد أن ابتعد عنه تاريخه ، وأصبح الآخرون يوجهون نفسه ، وبعد أن شعر بأعماق نفسه بفراغات

تتسع يوما بعد يوم وتتراكم فيها عواطف الكبت والقلق مواجها كل يوم التجربة الغامضة لغيرية مفروضة وليست مقبولة . مضطرا فى كل لحظة الى موافقة ارثه الحضارى مع ثقافة مستوردة من الخارج يفرضها التقدم التكنيكى الذى صنعه الآخرون .

أصبح المسلم المستعمر مع تماسه مع الحضارة المعاصرة التى لا ترحم شخصية متحركة تواجه مسئولية خطئها كى تتجاوزها ، وأصبح بذلك يحيا حالة درامية خالصة تكاد تصل الى درجة المأساة .

لقد بدأ اورفيه العربى يهبط درجات الجحيم الخاص به

ولكن علينا ألا نخطىء فنقول ان المسرح العربى ولد من النقل والاقتباس . لأن كل شىء فى الوضع الحيوى للعرب أصبح مهيئا لولادة الدراما .

ان شكل المسرح فقط هو الذى اتانا من الآخرين . أما روحه وأساسه ودوره ، فقد بدأ العربى المستعمر يشعر بها كحاجة وجودية فى روحه المتوثبة .

المسرح والبعث اللغوى :

بين عامى ١٨٤٨ ـ ١٨٨٠ ترتسم حركة يقظة الأدب العربى، وسيجعل بطرس البستانى ، ولويس صابونجى،

والأب بولو ، والاخوان شدياق وخصوصا شعراء المهجر من هذه النهضة أرضا تنطلق منها كل مغامرات الكلمة العربية (١)

ومن حظ هذه الحركة الحاسمة انها تمت على يد المسيحيين العرب ، لذلك فقدت اللغة الكلاسيكية بين أيديهم طابعها القدسى والرمزى الذى كان يمنعها حتى ذلك الحين من المغامرة فى أنواع أدبية جديدة يمكن للعبقرية العربية أن تسهم فيها .

وهكذا أصبحت ممارسة الاشكال الثقافية المستوردة كالقصة والاقصوصة والمسرح أمرا ممكنا فى لغة امرىء القيس ..

وهكذا بعد أن اكتشفت الأمة العربية المسرح .. راحت تمارسه شيئا فشيئا ، لأنها رأت فيه طريقة ملائمة للتعبير وشكلا يثبت انتماءها الى العالم المعاصر.

---

(١) حول هذه النهضة انظر كتاب ب . شيكو (الاداب العربية فى القرن التاسع عشر) ١٩٢٦
وجوزيف أسعد داغر (مصادر الدراسة الادبية) ببروت سنة ١٩٥٦.

النـــص

التعازى

ان نصوص التعازى الرئيسية هى ثلاثة :

ـ هناك أولا العدد ٩٣٣ من الاصول الفارسيـة (ملحق) فى المكتبة القومية بباريس .

ويحتوى على ٣٣مجلسا ويحمل عنوان جونغ ـى ـ شيهادات أى (نشيد الشهيد)

وقـد ترجم الكسندر شودزكو فى كتابه « المسرح الفارسى » (١) خمس قطع (الاعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٣٢) أما العدد ٢٤ وهو العدد الأكثر أهمية لأنه يروى آلام الحسين فقـد ترجمـه شارل فيرولو فى كتابه « المسرح الفارسى أو مأساة كربلاء » (٢)

---

(١) الكسندر شـودزكو « المسرح الفـارسى » لوزد باريس ١٨٧٨

(٢) شارل فيرولو · المسرح الفارسى أو مأساة كربلاء ميزون توف ، باريس ١٩٥٠

وطبع الأب روبرت هنرى دوجنيريه العدد ١٨ « استشهاد على الأكبر » (١) كما قام بترجمته .

ـ أما النص الثانى للتعازى فقد طبعه قنصل سابق لألمانيا فى بغداد (ويليهم لتين) ويحمل عنوان «كتاب لتين » ويحتوى على خمسة عشر مشهدا مقدمة بشكل نقل فوتوغرافى لمخطوط عراقى مع مقدمة مختصرة .

ـ أما النص الثالث فهو « كتاب لويس » الذى نشر بالانجليزية من قبل كولونيل انجليزى هو السير لويس بيللى ويحمل عنوان مسرحية الحسن والحسين المعجزة ويحتوى على ترجمة ٣٧ مسرحية فقد نصها الاصلى من حينها .

وعلينا أن نشير أن بعض الترجمات الجزئية للتعازى قد تمت أيضا .. فقد ترجم جوبينو فى الجزء الخامس عشر من كتابه «الديانات والفلسفات فى آسيا الوسطى» المقطع المتعلق (بزواج قاسم) (٢) وترجم مجيد ريزفانى

---

(١) روبرت وهنرى جينيريه (استشهاد على الاكبر) مكتبة كلية الفلسفة والاداب فى جامعة لييج .

(٢) الجزء الخامس عشر من كتابه«الديانات والفلسفات فى اسيا الوسطى » .

النص الكامل للمقطع المسمى (استشهاد حر بن يزيد) [1]

والتعازى كما هى الآن تقسم بصــورة طبيعية الى حلقات ثلاث :

١ ــ المشاهد التى تسبق معركة كربلاء .
٢ ــ مأساة كربلاء وآلام السيد الحسين .
٣ ــ عقب كربلاء .

وسنقدم فى هــذا الكتاب خلاصــة للمشاهد التى تسبق وتلحق الحلقة الاساسية أى آلام الحسين . أما بالنسبة لآلام الحسين نفسها فقــد اعترضتنا مشكلة هامة هى :

هل علينا أن نقدم ترجمة أمينة للنص الاصــلى ، ومعالجة علمية ربما امتازت بالدقة الوثائقية ولــكنها ستتميز أيضــا بالروتين اللفظى والتحقيقــات التى لن تفعل الا ان تزيد من الاعمال الدراســية التى سبقت والتى يمكن الاكتفاء بها !

أم أن نؤكد كل أصداء العالمية التى نجد جذورها فى هذا النشيد المــأســاوى الرائع .. بأن نحترم كل

(١) مجيــد رزفانى (المسرح والرقص فى ايــران) ميزون نوف • باريس ١٩٦٥

الاحترام خطه الرئيسى ولكن أن نختار له طريقة تعبيرية تنسجم مع التأليف الدرامى المعاصر ؟

ولم نتردد واخترنا الطريق الثانية .

ان المشــهدالتمثيلى الذى نقدمه هنا هو اعداد حر عن عدد من النصوص الشيعية التى درسناها فى كثير من المكتبات القومية بالعالم .. وخصوصـــا فى كربلاء حيث تحفظ بعض المخطوطات فيهــا بعنــاية وحرص شديدين فى أعماق الارشيفات الخاصة .

ونحن نعتقد اننا فى محاولة اعادة الكتابة هذه ، كنا أمناء فى المحافظة على روح (التعازى) واننا حاولنا أن نعبر عن هذه الحركة الواسعة من الوجد ومن الذكرى الحارة من خــلال لغة معدلة نراها أكثر تناســبا مع متطلبات عصرنا .

خلاصة المشاهد التى سبقت معركة كربلاء

زواج على وفاطمة :

فى يوم ما .. زار النبى ملاك له عشرون رأسا وكل رأس فيه ألف لسان ، وكل لسان يلهج بلسان عربى مبين بذكر الله .

وقال الملاك للنبى : « اسمى اسرافيل ، وقد كلفنى الرب أن أبلغك انه عليك أن تزوج الضياء للضياء » وسارع النبى عندئذ بتزويج ابنته فاطمة الى على بن أبى طالب .

ومن هذا الزواج ولد طفلان : الحسن والحسين .

طفولة الحسين :

منذ أن بلغ الخامسة من العمر ، بدأ الحسين يصنع

المعجزات ، فقد أدخل فى الاسلام قبيلة يهودية كانت تسكن فى ضواحى المدينة .

وخلال ذلك أعلم الملاك جبرائيل النبى بأن حفيديه سيموتان يوما ما ميتة عنيفة . وأراد النبى أن يعرف لماذا كتب الله عليهما هذا العقاب وتكفيرا عن أى ذنب؟

وأجاب جبريل : ان الحسن والحسين لن يرتكبا أى خطأ ، ولكن ميتتهما الفاجعة ستكون ضرورية لصالح المؤمنين .. عندئذ رضخ النبى لارادة الخالق .

وعندما علم على بالخبر رضخ له أيضا ، كذلك فعلت فاطمة ، لكنها تساءلت : كيف يمكنها أن تتابع الحياة بعد هذه التجربة القاسية ؟ وأخبرها النبى أنها ستموت قبل تنفيذ القضاء الرهيب .

وكان النبى الذى لم يرزق الا بولدين ماتا فى المهد يعتبر الحسين وريثه الوحيد ، ويحيطه بحنـــان أبوى زائد ..

وعندما أخبره الملاك جبريل ان المسلمين الخطـة سيعرفون أيضا أهوال الجحيم ، ازدادت تعاسته لدرجة انه انعزل فى غرفته كى يبكى ويصلى . وبقى أياما هناك دون طعام أو شراب رافضا رؤية أى بشر كان . وقد

حاول كل من على وفاطمة والحسن اخراجه من هـذه العزلة دون جدوى .

وعندما أتى الحسين متوسلا اليه أن يخرج ، وافق النبى على الخروج وعلى استئناف نبوته .

موت النبى :

النبى مريض فى سريره ، وحرارته تزداد ارتفاعا . وفاطمة تسهر عليه باكية .

وفجأة يصل رجـل بدوى من الصـحراء ويطلب مقابلته .. ويسمح النبى بذلك ويدعه يدخل اليه .

ويكشف البدوى عن هويته : « اننى عزرائيل ملاك الموت .. هذا الذى لا يعرف الابتسام ، والذى يجتاز الابواب كافة ، لقد أرسلنى الخالق اليك ، وسـألنى ألا أدخل دارك الا بعد استئذانك ، اعلم اننى أتيت لأقبض روحك ، ولكننى سآخذها بكل رفق وأحملها الى الجنة حيث ينتظرك باقىالأنبياء ليحيطوا بموكبك»

عندئذ سارع جبريل ليساعد النبى .. وقدم عزرائيل لمحمد تفاحة اقتطفها من بساتين الجنة . وعندما شم النبى رائحتها « وكان كثير المحبـة لرائحة الطيب » لفظ أنفاسه الاخيرة برفق بعد أن تشهد للمرة الاخيرة

بشهادة الايمان الاسلامية « لا اله الا الله » .

موت فاطمة :

وسقطت فاطمة مريضة بعد شـــهور قليلة من وفاة النبى ..

وكان على يسهر عليها بكل حنان ورعاية ، وأخبرته فاطمة انها رأت حلما تراءى لها فيه آبوها وقال لها : « غدا ، ستلحقين بى الى الجنة » واشتد التأثر بعلى فطلب من فاطمة أن تغفر له كل الأخطاء التى ارتكبها بحقها .. ولكن فاطمة أكدت له عرفانها بجميله وسألته أن يلبى لها طلبها الاخير : « ستجد فى غرفتى صندوقا مغلقا باحكام ، ويمكنك أن تميزه بسهولة عن غيره ، لأن له لونا أحمر ، بلون الدم ، فى هــذا الصنــدوق توجد ورقة مختومة كتب عليها ملاك البشـــارة عدة سطور بالحبر الأخضر . عندما أفارق الروح ، تذكر ذلك جيدا ، ضع هذا الصندوق بعناية على صـــدرى لأننى أريد يوم المحاكمة النهائية أن أضع تحت أقدام عرش الخالق هذا العقد ففيه ثمن دم ولدي . دم الحسين الذى بفضله سيغفر لكل أمتنا . وحتى أكثر الخطـاة خطأ .. سيغفر له ويدخل الجنة » .

الحسين يترك المدينة ويذهب الى كربلاء :

كان الحسين فى السادسة من عمره عنـدما ماتت أمه ، وعندما حان سن زواجه ، تزوج أميرة فارسيـة تدعى شهرابانو ابنة آخر الملوك الســاسانيين يزدجرد الثالث ..

وعندما بلغ الخامسة والخمسين قرر أن يذهب مع أتباعه الى الكوفة وأن يترك المدينة مطالبـا بحقه فى الخلافة ..

وعندما وصلت هذه النية الى يزيد بن معاوية الذى ورث العرش عن أبيه وأصبح خليفة أمويا فى دمشق أرسل جيشا كبيرا ومجهزا ليســد طريق العراق أمام الحسين وأنصاره .

وتم اللقاء أمام مدينة كربلاء حيث حاصر الجيش الأموى أتباع الحســين وجعلهم على مبعــدة من نهر الفرات فى محاولة لاثبــاط عزائمهم عن طريق العطش وحجب الماء عنهم .

وفى هذه اللحظة تبدأ مأساة كربلاء وتبدأ الحلقة الرئيسية من التعازى

آلام الحسين
أو
مأساة كربلاء

اعداد مسرحي بتصرف عن الكتاب الفارسي
« جونج ـ ي ـ شهاديته »

« المشهد يدور فى الكوفة ، أمام قصر الحاكم عبيد الله»

عبيد الله :

يا قادة الجيش الأموى ، لقد جمعتكم ها هنا كى أطلعكم على أحداث خطيرة .

لقد اكتشفنا مؤامرة شيعية ، وألقينا القبض على رجل مثير للفتن يدعى « مسلم » وقد أعدمناه .

ولقد اعترف الرجل قبل موته انه كان مبعوثا من المدينة الى الكوفة ، كى يختبر عواطف سكان مدينتنا تجاه مطامع سيده الحسين . .

ونتيجة لذلك فقد أرسل الى خليفتنا يزيد بن معاوية أمره من دمشق بأن أبدد موكب الحسين الذى يتجه حاليا نحو الكوفة وأن أمنعه بكافة الوسائل من الوصول الى هدفه ، وعلى أن أقتل كل من يقاومنى وأن أوقف النساء والاطفال والشيوخ وأن أقودهم أسرى الى دمشق .

انى أسميك قائدا للكتيبة يا ابن سعد ، وسيكون شمر بن ذى الجوشن مساعدا لك .. أما أنت ياحر فانى أسميك قائدا لفيلق الاستكشاف .

اذهبوا ونفذوا الأوامر بسرعة ، فمصير المملكة الحاكمة بين أيديكم . « ظلام »

«فى الصحراء ــ أمام الفرات ــ قافلة الحسين تتوقف»

رئيس الجوقة :

طويلة كانت مسيرتنا
وكبير تعبنا
أيها السلام .. يا سلام العالم
لا تهجر معسكرنا .
فى مساء التأمل هذا .

الجوقة :

ان وردة الرمال .
تنغلق على بللورها .
والبوم الخائف .
يمسك نعيبه .
أى نبوءات قاتمة .

تجعلك ترتجف .. يا سهل كربلاء الحزين .

رئيس الجوقة :

تعال أيها الصمت .
غلف أجسادنا .
بلمساتك العريضة .

الجوقة :

الصمت لبى نداءك .
ولكن لمساته ليست الا خفقات أجنحة .
تبعث فينا العذاب .

رسول :

السلام عليكم جميعا .. أيمكن لأحد منكم أن يبلغ الحسين بمقدمى ؟

الحسين : « يخرج من الظل » .
أنا هنا .. ماذا تريد أن تخبرنى ؟

الرسول :

السلام عليكم يا أمير الأئمة ، ان الأخبار التى أحملها من الكوفة مفزعة . لقد قبض على رسولك

« مسلم » وأعدم . وعبيد الله يستعد لارسال جيشه
كى يسد أمامك الطريق .

الحسين :

وسكان الـكوفة ؟

الرسول :

يلزمون الصمت . وقد استبد بهم الخوف .
وما من أحد منهم يجرؤ على مساندتك .
تجنب الـكوفة يا أمير الأئمة .
تجنب هذه المدينة المتغيرة ذات النزوات .

« يخرج »

الحسين : (وحده)

فى هـذه الساعة البعيدة عن الثبات .. التى تنقلب
فيها الاشياء .
أى اضطراب يمسكك يا نفس ؟
هل أتابع الطريق رغم العقبات ؟
هل أقود هذا الشعب نحو أجله من أجل أهداف ؟
هل أسبابى نقية حقا ؟ أم انها الكبرياء التى تدفعنى؟
وهل يكون اغراء السلطة بهذه القوة حتى تجعلنى

أنسى مسئوليتى تجاه هذا الشعب ؟

ولكن .. كيف يمكن للرجل الفاضل أن يقبل دون نقاش اهانة المتسلطين فى هذا العالم ؟

أيمكن لأكثر الأهداف عدلا أن تدفن فى التراب عارا وخوفا أمام البربرية المتسلطة ؟

يانور القرار الصائب .. انت تتخلى عنى بقسوة .

الجوقة :

فى قلب الرجل العادل .

الظل يحارب الضياء .

الحسين :

يا أصدقائى .. لقد استمعتم جميعا الى الأنباء المشئومة ..

والقرار الذى سيتخذ يتعلق بكم كما يتعلق بى .

ساعدونى اذن على أن أنطق بالكلمات التى تحرر قدرنا .. ساعدونى ..

زينب :

يا أخى . ان دم أبينا ينادى .

الانتقام . فلا تضعف .

عباس :

أخي . الحق الى جانبنا.
ومن واجبنا أن نمنع امتهان الخلافة .
فلا تضعف .

على الأكبر :

أبتاه . الرجل الملوث وحده يخشى المعركة العادلة .
لنتابع ..

على الأصغر :

أبتاه .. انى أتحرق للمناداة بحقى .. على سنان رمحى
لنتابع ..

قاسم :

عماه ، ان نترك طريقنا يعنى اننا نعترف بالأخطاء
التى لم نرتكبها قط .
لنتابع ..

الجوقة :

اسمعهم يا حسين .

انهم يتكلمون باسمنا .
فلا تخيب حماسهم .
واتنظارنا ..

الحسين :

ما دامت هذه رغبتكم .
لنتابع مسيرتنا .

« ظلام »

« فى الصحراء .. فيلق الاستكشاف بقيادة الحر قد ضل الطريق .

الكثير من رجاله قد ماتوا عطشا ، أما من بقى منهم على قيد الحياة فيزحف وقد نفذت قواه ، قافلة الحسين تمر فى المكان الذى ينازع فيه الحر وثلاثة من رجاله»

العباس :

أخي .. لقد عثرنا على جنود أمويين يموتون من الظمأ ..
ماذا نفعل بهم ؟

الحسين :

أريد أن أراهم . آتوا بهم الى .

« يجلبون الرجال الاربعة على حمالات »

الحسين :

يدو ان هذا هو قائدهم ، قربوه منى ، أريد أن أكلمه ..

من تكون أيها الغريب ؟

الحر :

انني ادعى الحر ، وأنا رئيس فرقة الاستكشاف فى الجيش الأموى .

لقد ضللت ورجالى الطريق فى الصحراء .

وكان علينا أن نعين مكان قافلة الحسين .

الحسين :

لم تفشل فى مهمتك . أنا الحسين . وها أنت ذا فى قلب قافلتى .

الحر :

يا للقدر المعاكس . ها أنذا فى قبضة أعدائى . طر بعيدا أيها الأمل العذب .

كتب على أن أموت فى هذه الصحراء الملتهبة .

الحسين :

« يسقيه من قربته »
أذا كان الماء الزلال يميت الظامىء .. اذن ستموت .

الحر :

أهذا ممكن ؟ أتيت اليك لأقتلك .. فاذا بك ترد الى الحياة ؟
يا أميرى .. ان حيرتى كبيرة .

الحسين :

لقد أعدت الحياة اليك .. لأن عينيك كانتا تناديانى
وفى عذابك يا أخى.. رأيت عذاب كل الذين يتألمون .
الطير الجريح ، والطفل المنزوع عن أمه ، وقبضة البرىء المغلقة .
نعم يا حر لماذا شاءت الأقدار أن تكون عدوى ؟

الجوقة :

هكذا يكلم العادل الرجل الضال .
وصوته بات مسموعا .
وطلب الضال من الرجل العادل .
أن يقبله فى صفوف رجاله .

وأجابه العادل الى طلبه .
فطاش صواب الضال .
وكان يجهل سعيد الحظ .
انه عما قريب سيكون أول شهيد .
فى سهل كربلاء الحزين .

« فى معسكر الجيش الأموى »

شمر :

ان قافلة الحسين أصبحت على مرمى البصر أيها القائد . لنقم بهجوم ، وليكن الهجوم الاول والاخير. وبين اصطدام السيوف والسلاح نبيد مرة واحدة أنصار الحسين أجمعين .

ابن سعد :

فى الحقيقة يسوؤنى استعمال العنف تجاه حفيد النبى. خير لنا أن نقطع عنهم طريق الفرات ، ولنحرمهم من الماء فنجبرهم على الاستسلام .. ونتجنب بذلك الكثير من الخطايا .

شمر :

ان فتورك يغضبنى ، ولكنى أطيع ، ولن يضـيرهم الانتظار بشىء .

ابن سعد :

أى شيطان أنت .. وما سر تعطشك للدم ؟

شمر :

انى رجل كامل يريد أن يذهب الى أبعـد مراحل نفسه ، وأنا لا أكره شيئا قدر ما أكره هذه التنازلات.. والمهازل المزيفة التى نلعبها على أنفسنا ..

« ظلام »

« بعد مضى أيام .. فى معسكر الحسين المشتت »

الجوقة :

أيتها الايام المشئومة .
يا أيام العذاب .
يا مذاقها مذاق الدم .
الظمأ يحاصرنا .
والموت .
هذا الفارس دون رحمة .

ينهب دون توقف .
من صفوفنا .
أجمل وخير الثمار .
من نبكى ؟
وأى من شهدائنا ..
أكثر استحقاقا لدموعنا ؟

رئيس الجوقة :

لنبك العباس .
الفارس المقدام .
الذى استشهد .
بعد أن قطعت ذراعاه .

الجوقة :

لنبك الشجاعة التى نقصت .

رئيس الجوقة :

لنبك على الأكبر .
وعلى الأصغر .
اللذين سقطا صريعين فى ..
نشوة معركتهما الاولى .

الجوقة :

لنبك الشباب الذى ذبل .

رئيس الجوقة :

لنبك « قاسم »
العريس المـأساوى .
الذى استشهد صبيحة يوم زفافه .

الجوقة :

لنبك الحب الذى لم يتم .

رئيس الجوقة :

لنبك باقى شهدائنا ..
المختارين .

الجوقة :

لنبك .. لنبك .
انتصار الظلم ..

« ظلام »

« فى معسكر الجيش الأموى الذى يضرب الحصار »

شمر :

لم يبق من أسرة النبى ، الا الحسين بن على ، أما الباقون كلهم فقد سقطوا صرعى بعد أن صرخوا ايمانهم صرعهم السيف والخنجر .

ولقد حان الآن دور هذا الذى يدعونه نور عيون الدنيا والآخرة .

ليسقط تحت ضربات سيوفنا ، ولنضع فى الأسر كل آله وذويه .

وعندئذ نذهب وقد ملأتنا النشوة نحو عبيـد الله لنخبره بموت ابن فاطمة .

ابن سعد :

ما تقول أيها الشقى ؟ كيف يمكننى أن أوافق على مقتل الحسين ؟

ألا يكفى هذا الذى ارتكبناه .. وكيف يمكننى أن أبرىء نفسى يوم الحساب ؟

ألا يكفى انأخاه العباس قد عانىعذاب الاستشهاد؟

وان ابنه على الأكبر قد سـقط ، وان دم العريس قاسم قد خضب كفيه ؟

هذه الجرائم جعلت الشـــمس تـكسف .. وما زلت تريد أن تشفى غليلك من هــذا البائس الذى يتيه فى سهل لا يعرف الــكرم ؟

شمر :

ان موت الحسين تطلب مطلق وضرورة لا غنى عنها واذا جبنت فما عليك الا أن تعود للــكوفة وتترك لى أمر قيادة الجيوش .

ابن سعد :

ان كراهيتك العمياء تفقدك الصــواب ؛ أعلينا كى نطيع أوامر عبيد الله بن زياد أن نتخلى عن حقنــا فى الجنة ؟ .. لنكف عن هــذه الحرب الظالمة ، ولندع الحسين يعود أدراجه الى المدينة .

شمر :

ما دام الحسين لم يسقط بعد ، وقد نفــذت الى جسده الرماح والســيوف ، وما دامت زينب وكلثوم لم تقعا أسيرتين ، وما دام دم الحسين لم يرو ظمأ هذه الأرض الجافة فان عينى وقلبى لن يرتويامن القتل والمذابح واذا كنت لا تملك الشجاعة اللازمة لذلك .. فسأقتل

الحسين بنفسى ، انى أتجاوز القوانين ، وأتحدى الجن التى تحمى ابن على ، لأن موته وحــده هو الــذى سيسكن هذه العاصفة التى تزمجر فى قلبى .

« ظلام »

« شمر يتجه نحو المعسكر المحاصر »

شمر : (صارخا)

أين نساء حريم الحسين ؟ أخبروا الحسين أن يظهر لى

زينب :

اخفض الصوت يا خائن .. اخفض الصوت .

فالحسين نائم . اخفض الصوت .

شمر :

اذهبى يا زينب واخبرى الحسين انها ليست ســاعة النوم ، اخبريه ان الساعة حانت ، هــذه الساعة التى عليه أن يواجه فيها الموت .

أما أنت فسأحملك معى الى دمشق ، والمصير الذى اخترته لك سيكون قاسيا لدرجة تجعل الناس يتأوهون على مصيرك .

زينب :

انه ينام .. يا من عدمت الحياء ، ابن على المرتجى
نائم .. فلا تصرخ بالصـــوت .. ســأنقل اليه كلماتك
الوقحة .. اخفض الصوت ، ودعنى أوقظه .
« تدخل زينب الى خيمة الحسين »

زينب :

استيقظ يا أخى ، أتوسل اليك ، لقد اسود وشاحى
باقتراب أجلك .

استيقظ ، ان جيش الأعداء هنا ..ياملكا دون فرسان
استيقظ ، نومك هادىء ، ولكن مملـــكة الأحلام
خداعة . استيقظ ، فنحن محاصرون فى أعماق شقائنا .

الحسين :

حلمت حلما .. كان السهل فيه أخضر .. ولكنك لم
تدعينى أكمله .
والماء رقراقا ، والنبع نقيا.. ولكنك لم تدعينى أكمله
وخيل الى انى أميز والدتى .. وقد ارتدت السواد
كلها .. وأشارت الى بيدها شارة خفيفة .. وابتسمت

ابتسامة عذبة وكأنها تريد منى أن أجتاز المياه وأن أصل اليها .. ولكنك لم تدعينى أكمله ..

زينب :

كنت نائما أى أخى .. وفى هذه الأثناء وصل شمر وصرخ بنا .

أريد أن أقتل الحسين وأن أسبى زينب .. هـذا ما قاله شمر .

الحسين :

لقد أكملت شمس الشقاء السوداء دورتها اذن ، لقد أخذ منى هذا الفارس المتعطش للدم أخى وأولادى وخير ما لى من أعوان .

وها هو يطمع الآن بسلبى حياة لم تعد ذات قيمة ، وأن يجعلك تتحملين يا أختى المعبـودة أهوال أسر مخجل ، لقد كتب على ألا أدخـل أبواب الجنة الا وعيناى مليئتان بالأشواك .

زينب :

كيف لايمكننى أن أموت لأجـلك يانور عينى ..

فأنقذك وأجنب نفسى شقاء أسر أكثر هولا من الموت ؟

الحسين :

لقد حانت الســاعة التى لا مفر منها والتى على أن أواجه فيها رياح القدر المعاكسة .

آن أوان الرحيل يا أختاه ، سأبلغ سلامك والدتنا..

لقد كان الحلم نبوءة ، كانت تعرف انه على أن ألقاها

زينب :

لن يسمح الله بذلك ، ولن ترضى السماء بأن يقع مثل هذا الظلم . اذا مت أيها الملك .. فلن يبقى أمامى الا أن أضع حدا لحياتى بيدى هاتين .

الحسين :

لن ترتكبى هذا العمل الأحمق أبدا .. لأنى أعهـد اليك بصغيرتى سكينة ، لا تكفى لحظة واحـدة عن السهر عليها ، ستكونين ملاذها الوحيد .

سكينة : (تستيقظ)

أنا ظمأى .. ظمأى .. يا والدى الحبيب .. أتوسل اليك .. نقطة ماء

الحسين :

على شفتيها المشققتين تقف روحها التى عذبها الظمأ تنتظر الرحيل ، انظرى يا زينب .. يأس الوالد الذى يعجز عن انقاذ فلذة كبده ، انهضى ياسكينة .. وكفى عن الأنين ، سأذهب وآتيك بقليل من الماء آتينى بأسلحتى يا أختاه ..

آن الأوان كى أستعد لمعركتى الاخيرة ، وربما عندما أصل الى فوق .. أمام الينابيع السماوية ، ربما أمكننى أن ألقى بقطرة من ماء على النار التى تلتهم أحشاء طفلتى الصغيرة .

زينب :

أيها الملك الشقى ، كيف يمكننا تحمل الحياة من دونك لا تذهب الى حقل المعركة .

الحسين :

وما يمكننى أن أفعل سوى ذلك .. يا أعز الاخوات أنت تعرفين ان زمرة الكلاب الهائجة التى تحاصرنا لا تدع لنا مجالا للافلات

اذن خير لنا أن نموت بشجاعة .. وسلاحنا فى يدنا

بدلا من أن نذبح على سرير وثير . أعهد اليك بسكينة ،
اسهرى عليها .. كلميها عنى ، بين وقت وآخر .
الوداع .. كم أحببتك يا زينب

« يخرج »

زينب :

الشقاء الكبير يخرس اللسان .. ويجفف الدمع .
أيتها الشمس .. أيتها الشمس الوقحة كيف يكون
بوسعك أن تتوهجى وأن تضيئى بأنوارك هذا الكفر
الذى لا يطاق . « ظلام »
« الحسين يتجه نحو المعسكر الأموى »

الحسين :

نادوا لى ابن سعد .. وليأت وحده .
رجل من عسكر الأمويين :
يا قائدى الحسين يرغب بمحادثتك .
انه هناك ... وحده

ابن سعد : (متوجها نحو الحسين) ..

السلام عليك يانور عين فاطمة .. مايمكننى لأجلك ؟

الحسين :

فى بلاد الشقاء هــذه .. هناك ماء كثير للعصــافير والحيوانات المتوحشة ومع ذلك تموت نسائى عطشا.. اعطنى قليلا من الماء .

ابن سعد :

لايمكننى ياسيدى النبيل أن أجيبك الى هذا الطلب ان أوامر الخليفة يزيد بن معاوية قاطعــة فى هــذا الشأن . لذلك أنا مجبر على ترك قداستك

« يتركه ويخرج »

الحسين :

أيتها السماء .. لم تتخلين عنى ؟ « صمت »

« يظهر ملك الجن »

جعفر (١) :

السلام أيها الغريب التائه فى الصحراء ، الذى يعذبه الظمأ .. السلام أيها المهجور .

(١) جعفر هو ملك الجن ويصفونه على شــكل مخلوق خرافى .. قوائمه الامامية قوائم جـــواد وقوائمه الخلفية شبيهة بقوائم الجمل .

الحسين :

من يتكلم ؟ .. من ينادينى ؟

جعفر :

أنا خادمك ، انى من آتباع شعب الجن الذى يسكن آبار العلم .

عندما حرر والدك النبيل بلادنا من آيدى أعدائنا ، وضعنى على رأس جيش الجن . ومنـــذ ذلك الحين أصبحنا رهن اشارتك الدائمة ، ولقـــد أبلغتنى الجن أنباء مأساتك فهرعت الى نجدتك .

ان جيش الجن كله رهن أوامرك ، انهم هنا جميعا فى السهل ، يختبئون تحت راية رداء الليـــل المظلم ، اسمح لنا أن نحقق رجاءك ، أخبرنا ما تتمنى ، تكلم ونحن نستمع اليك .

الحسين :

كم هو عذب أن نسمع صوت صديق ونحن فى أعمق أعماق الوحدة..أهو أنت ياجعفر الحبيب ! أم هى صور من صنع مخيلتى المريضة ؟

جعفر :

سيدى .. سيدى اننى هنا .. وهو أنا من يتوسل اليك أن تقبل مساعدته .

الحسين :

وكما تذوب الشـــمس الغاربة فى أمواج المحيـــط الحمراء وتتدثر منتشية بردائها السائل أحس انه على أن أسير وحيدا لأواجه نهايتى .

ان تعبى كبير يا صديقى ، وكبير هو اغراء النعاس الذى يحل المشـــاكل كلها ، أن أنام .. أنام .. وربما استطعت أن أعثر وراء النوم على هـــذه الراحة التى يهبها مصير قبلنا به .

دعنى يا صديقى .. أنهى وحدى ما بدأت ، هنـــا تنتهى الدورة وهنا أغلق دائرة مصيرى .

اذن فالوداع أيها الظل العذب .. وشكرا لك على هذا النداء الأخير .

« جعفر يختفى فى الليل »

شمر : (يظهر)

حسين . مهمتى اللذيذة هى أن أجعلك تعترف وتبايع

بسلطان يزيد أو أن تتهيأ للموت .

الحسين :

اعلم انني لن أعترف أبدا بسلطان رجل حقه فى الخلافة لا المبايعة الشعبية ، وانما لأنه ابن لأبيه ..

شمر :

لم أكن أنتظر غير ذلك منك .. يا حسين الكريم ، ياحسين المثالى ، أيها النقى الجميل ، ياكثير النقاء ياحسين.
يا لعظمتك.. وكم هومؤسف أن تتفسخ هذه العظمة كلها فى لهيب الشمس .. فى أرجاء هذا السهل الكئيب حيا .. كنت تتحدى الملوك .. وميتا ستكون عطية للغربان الجائعة . تدثر بكبريائك أيها الأمير الذى سقط .
فحد سيفى سيعرف كيف يتلقى بريق نظراتك .

الحسين :

أى قلق عميق أحسه فى قرارك المذعور ..
أى شمر لماذا يدفعك عذاب روحك الى ظلمات غرائزك الدنيا ؟

شمر :

لا تكلف نفسك جهد اقناعى أيها الرسول النبيل .

ان اغراء طيبتك العذبة لا تمس روحى الصلبة ،
انى أكره الضعف الانسانى ، وأكره صـوت التفاؤل
الراضى عن نفسه .

انى أستخلص القدرة القاطعة من هذا الذى ندعوه
حبا ..أريد أن أكون السنديان الذى لا ينثنى ، والصلب
الجامد ..

اذن كفانا مزاحا . بايع يزيد أو تهيأ للموت .

الحسين :

انى أرضى بموتى الذى لا مفر منه ، ولكن اخبرنى
ياشمر : لم تكرهنى الى هذا الحد..وما الذى أمثله وتحتقره

شمر :

ما يثيرنى فيك ياحسين ليس عظمتك أو عذوبتك ،
وليس تفاؤلك ، وانما هذا الطابع المطلق لعواطفك .

الحسين :

أى ثأر لى أن أعرف انك أنت جلادى ، تقتلنى لأنك
لا تستطيع أن تكون مثلى !

شمر :

كفانا ثرثرة ، تهيأ للموت .

الحسين :

سأكون مستعدا بعد أن أودع أهلى .. الوداع الاخير .. أيمكنني ؟

شمر :

اذهب واعلم انني بانتظارك .

« الحسين يستدير نحو خيامه »

الحسين : (يكلم أنصاره)

ها قد حانت ساعة الفراق والتمزق .

شهرابانو يا رفيقة شبابى العذبة ، يا رفيقة انهيارى، اعلمى انى لا أفارقك الا مرغما لأن قلبى لم يرغب أبدا بأن يتحرر من تلقاء نفسه من القيود العذبة التى تربطنامعا

انى أعهد اليك بأولادى..كلميهم عنى حتى يذكرونى

وأنت يا صغيرى زين العابدين ، يا وريثى ، انى أعهد اليك بما بقى من القافلة ورغم سنك الصغيرة ، وجسدك الضعيف (١) ، عليك أن تسهر على النساء والاطفال ، وأن تتابع النضال .

---

(١) زين العابدين يطلق عليه بالفارسية (بيمار) اى المريض .

وأنت يا زينب .. ياشقيقتى المفضلة ، يا صورة أمنا الحية ، كيف أقول لك ما تحسينه وما تعرفينه حقا ؟
اعلمى ان الحديد عندما يتغلغل الى لحمى المدهوش .. ستكون آخر أفكارى متجهة نحوك .

أما أنتم .. أيها الشيوخ الكرماء ، وأنتن أيتها الأرامل الغارقات بالدموع .. ويا أرق الأيتام ..
أنتم يا من سأترككم على حافة الشقاء الحادة ، أيها الضعفاء الناجون من الموت ، فكنتم أعذب الشهود
عندما يحين الوقت وينضج .. اذكرونى بتسامح ، وارووا بكثير من الاعتدال قصة الرجل الذى أراد أن يحقق حتى النهاية قدرا صلبا .

وأنتم يا أشباح أحبابى الغائبين ، يا من تهيمون حول نيران المعسكرات تسلحوا بشىء من الصبر .. فقريبا ؛ ستفارق روحى التى تحررت .. جسدى ، وستذهب لتلقاكم على ضفاف نهر الكوثر فى الجنة .. بعيدا عن أشواك هذه الحياة الدنيا

الوداع يا أصدقائى .. سأسبقكم الى الحياة الاخرى ولكنى لن أترككم .

« يذهب الحسين »

زينب :

الحسين يذهب ..
والأرض تتابع دورانها ..
يالجنون العالم ..

الجوقة :

فى سهل الظلم .
النقى يتقدم .

زينب :

الحسين يذهب ..
والنجوم ما ازلت تتلألأ . يا لعمى العالم .

الجوقة :

الى لقاء موته .. النقى يتقدم .

زينب :

الحسين يذهب .. والفرات يتابع مجراه .
يا لصمم العالم .

الجوقة :

تأوهى يا قبة السماء الزرقاء .

فالنقى يتقدم .

زينب :

الحسين يذهب ..
والنهار يتبع الليل .
يا لبعدك عن المنطق أيها العالم .

الجوقة :

فى سهل الظلم .
النقى يتقدم .

زينب :

وأنا أواصل الحياة ..
يا لضياع روحى ..

« ظلام »

«الحسين أمام الجيش الأموى ، ينتظر نهوض الشمس»

الحسين :

ها أنت ذا أخيرا ، أيها الصباح الصغير الابيض ،
يا معلن اليقظة .
الديك يصرخ فى الضياء المظلم ، والارض تنفخ بثقل

أحلامها البشعة .. وتتهيأ نشوى لاستقبال النهار .
عما قريب .. سيتورد الافق ، وعما قريب ستدفىء الشمس الهضاب ، وعما قريب .. سيأتى صباحى الاخير
أيتها السماء ، أيتها السماء الصامتة لم تركتنى ؟

الملاك فيتروس (١) :

أتيت اليك يا ابن على المرتجى . ان كفى فارغتان ، ولكن قلبى يفيض رحمة .
ولا أملك الا كلمات مطمئنة أقدمها لك .

الحسين :

شقائى كبير أيها الصديق .

فيتروس :

أفهمك لأننى أيضا عرفت الشك والقلق .
فى يوم ما ، كنت مسئولا عن خطأ جسيم ، وطردنى الخالق من السموات ، وأكلت النار أجنحتى ، وبعد ذلك هبطت الى الارض وخلال ثلاثين ألفا وتسعين من السنوات كنت أهيم فى جزيرة من جزر الروم محروما

(١) اسم الملاك فيتروس يبدو وكأنه اشتقاق غريب من اسم بيير سيد الحواريين (بطرس) .

من رضا الرب ، وعرفت اغراء الالحاد وعرفت نداء الشر
ولكن فى ليلة ، الليلة التى أتيت فيها أنت الى الدنيا ، أيها المنقذ ، أتانى الملاك جبريل الأمين وأعلمنى بالنبأ السعيد ، قال لى أمير الملائكة : « اسعد يا فيتروس ، لقد عفا الخالق عن أخطائك وأعادك للجنان ، لأن فى هذه الليلة وضعت فاطمة جوهرة لا مثيل لها ، فى هذه الليلة أصبح على والدا لطفل سيكمل مهمته» هكذا تكلم لجبريل الأمين ونما جناحاى من جديد .. وبدأت صعودى المجيد .

الحسين :

يا زهرة النسيان ، أيتها الكلمات ، لم لا تستطيعين أن تحلى مكان الحقيقة السامة ؟

فيتروس :

ان الخالق لا يهجر مختاريه أبدا .. فاطمئن ياحسين.

الحسين :

اذهب أيها الملاك الجميل .. اذهب واعلم انى مازلت مصمما أن أهب حياتى تكفيرا عن خطايا أمتى .

« يختفى الملاك فيتروس »

الحسين :

« متجها نحو الجيش الأموى »
نادوا ابن سعد ، أريد أن أكلمه .

ابن سعد :

ما تريد منى أيها الأمير ؟

الحسين :

أن أخبر للمرة الاخيرة نواياك .

ابن سعد :

يا أميرى ، ان خجلى عظيم ، اعرف ان الملاك جبريل نفسه قد مشط لك شعرك ، اعرف انك المختار السعيد، وان أمك ابنة النبى ، أعرف ذلك ولا أجهله ، وفى أعمق أعماق قلبى أحترمك وأجلك كرجال الصحابة ، ولكنى مع ذلك عزمت على أن أترك جيشى يقتلك .
فى هذه الليلة نفسها ، أبلغنى يزيد انه يهبنى ولاية (رى) (١) مقابل رأسك .
يا أميرى ان خجلى عظيم ولكن قرارى قد اتخذ.

(١) رى ولاية فى جنوب طهران

الحسين :

انى أشفق عليك أيها الرجل الجشع ، أيمكن لأموال الدنيا أن تضل الضمير هكذا ؟

تقـدم اذن ، ما دام قرارك قـد اتخذ . جز رأسى بنفسك ، ولا تضف الى جشعك جبنا مخجلا . تعال الى وأتمم ما عزمت عليه .

ابن سعد :

كلا .. كلا .. لن أجرؤ أن أقتل بيدى ابن بنت النبى

« يستدير نحو جيشه »

ابن سعد :

نصرانى (١) ، خذ هذا السيف وجز رأس الحسين وسأعطيك بزة مكافأة لك .

« لا يتقدم أحد »

ابن سعد :

من يرغب بترقية كبرى .. ليقدم لى رأس الحسين..

(١) نصراني تعنى مسيحي واذا كان ابن سعد يوجه كلامه الى نصرانى فلثقته الكاملة بأنه ما من مسلم يجرؤ على قتل حفيد محمد .

سنان يا ابن أنس .. ألا يغريك ذلك ؟

« لا يتقدم أحد »

ابن سعد :

يا جبناء ، يا أشباه النساء . ألا يريد أحـد منكم تنفيذ أوامرى ؟

شمر : (يتقدم)

لا يستبد بك الغضب يا ابن سعد ، ما من أحد غيرى سيجز رأس الحسين ، هو وأنا نعرف ذلك منذ بدء المعركة . ألا تعرف ذلك يا حسين ؟ وكما يفعل البازى ذو العين الشـاقبة عنـدما ينقض على الحمامة ويهشم رأسها ليستمتع به ، كذلك شمر الذى لايخاف ، يمكنه وحده أن يظلم الضياء المنبعث من وجهك بالدم الذى سيجعله يتدفق من جراحك الواسعة .

الحسين :

أعرف ذلك أيها المتشدق الوقح ، تعال الى ، وانه مهمتك القذرة يا جزار ، تعال ، وليسقط ليـل الظلم على هذا السهل .

شمر : (يندفع نحوه)

نعم .. سأعرف كيف أظلم بريق نظراتك .

« ظلام »

شمر :

« يحمل رأس الحسين بيده »

لقد فصلت رأس الحسين عن جسده .

تعال يا ابن سعد ، واملأ جيوب سرجى بالجواهر والاحجار الكريمة جزاء لى على عظمة المهمة التى أسديتها لك .

ابن سعد :

الآن .. أصبح العالم كما يشتهيه يزيد

لتضرب الطبول كلها .

ولكن ما أبرد هذا الصباح .. وما أحر بريق نظرة الشهيد .

« هنا تنتهى آلام الحسين »

خلاصة الأحداث
بعد معركة كربلاء

الناجون من كربلاء يعودون الى المدينة :

وحمل الجيش الأموى الى دمشق رأس الحسين بعد أن ثبتت على نصل رمح ، كما حمل معها أيضا الناجين من النساء والاطفال أسرى .

وخلال الطريق كانت تقع المعجزات ، وكثير من اليهود والنصارى كانوا يرتدون عن دينهم ويدخلون رحاب الاسلام .

وتحررت عائلة الحسين من الأسر بعد فترة قصيرة من وصولها الى دمشق .

وعاد منهم الى المدينة المنورة من نجا من مذبحة كربلاء .

أما المكان الذى دفن فيه الحسين فهناك حوله روايتان :

فالتعازى ذات الأصل الفاطمى « مصر ـ لبنان » تؤكد أن رأس الحسين قد دفنت فى اسكالون فى بلاد فلسطين القديمة فى معبد قد بناه الملك النبى سليمان بنفسه . أما التعـازى العراقية والايرانيـة فتؤكد أن الشاب زين العابدين بيمار قد ترك أسرته عندما خرجت من دمشق ، وعاد الى كربلاء ليدفن رأس والده الى جانب بقايا جسده .

يوم الحساب الاخير أو خاتمة الحسين :

فى يوم الحساب الاخير ، سيتناقش الحسين ويعقوب لمعرفة من منهما قد تعذب فى الدنيا أكثر من غيره ، ويحسم جبريل النزاع لصالح الحسين ، فيصبح الحسين بذلك الشخص الذى سيتلقى مفاتيح الجنة ليـدخل اليها المسلمين الصالحين ، وكذلك الخطاة الذين عرفوا الندم الصادق .

فكرة المسرح
والطقوس
الإسلامية

●

دراسة ملحقة

تأليف
رشيد بنشنب

مقدمة

نشرت هذه الدراسة ضمن المجلد الكبير عن تاريخ العروض المسرحية الذى نشرته انسكلوبيديا البلياد الذائعة الصيت .

وقد رأيت ضمها الى الدراسة التى ترجمناها للسيد محمد عزيزة نظرا لتشابه وجهات النظر وان كان الاختلاف فى التفسير بينا وملحوظا

على كل حال فان هذه الدراسة الوثائقية ستلقى بدورها شيئا من النور على أسس تكوين المسرح العربى .. وجذوره العميقة المستمدة من الفولكور والعادات والتقاليد الاجتماعية .

ولا شك ان المقارنة بين الدراستين المعروضتين ستضعان القارىء العربى أمام الاحتمالات والفروض الكثيرة التى يضعها الباحثون حول المسرح العربى ونشوئه .. علاقته بالتفكير الاسلامى ومدى تقبل الروح الاسلامية لهذا النوع « المتحرك » من الادب .

« المترجم »

المسرح والطقوس الاسلامية

رغم ان كل عمل يقوم به منفذا الفروض القرآنية يعتبر بحد ذاته واجبا فرديا ، فان الرجل المسلم يجد نفسه بصورة معتادة مشتركا بعمل جماعى مع سواه من المسلمين وان هذه « الجماعية » تتخذ أحيانا معنى دينيا وتتخذ أحيانا أخرى قيمة العادة المتبعة .

فالرجل المسلم المؤمن يصبح فى كل واحدة من هذه المناسبات « سواء كانت تطبيقا لتعاليم القرآن أو مساهمة فى الاعياد الدينية أو اتباعا لعادات المنطقة » جزءا من مجموعة تبتدىء من الأسرة وتنتهى فى المجموعة الاسلامية كلها .

واذا أمعنا النظر فى القواعد الأساسية لأركان الدين « الشهادة ، اقامة الصلاة ، اتيان الزكاة ، صيام رمضان ، والحج الى بيت الله الحرام » وجدنا ان كل واحدة منها تتم ضمن مجموعة من الاعمال تنفذ بشكل

جماعى ، وفى اطار المجموعة الاسلامية .. ولسنا بحاجة فى هذا الصدد الى الرجوع الى نصـوص القرآن .. وانما نكتفى بأن نذكر طريقة التنفيذ حتى تتضح لنـا الصـفة الجماعية والمسرحيـة ان جاز التعبير لهـذه الفروض ، والتى هى موضع دراستنا هنا .

فاذا حدث الآن مثلا .. أن صـادفنا فلاحا يؤدى صلاته منفردا فى وسط حقـله ، أو مسـافرا يؤدى الحركات نفسها فى عربة قطار ـ وهو أمر نادر ـ فان الصورة الاكثر شيوعا « والتى يعرفها الكثيرون حتى أصبحت شيئا يشبه الاكلشيه » للصلاة .. هى صورة المؤذن فى أعلى مئذنته ينادى المؤمنين للصلاة .. لأن المسلمين يتجمعون عادة فى المسـجد ، المركز الرئيسى للحياة الدينية والاجتماعية والثقـافية بعد أن يقوموا بفرض الوضوء ويتوجهون نحو مكة بصفوف طويلة متوازية وراء مسلم محترم اختاروه « اماما » لهم ، محاطين بأكثر الشخصيات أهمية فى المدينـة ، وهو الذى يؤدى طقوس الصلاة ويحرك توقيتهـا ، كذلك يقيم المسلمون فى مساجدهم وبشكل جماعى صـلاة

الجمعة الاجبارية على الرجال والتى يتم فى خلالها القاء خطبة تقليدية مخصصة لذكر الاخــلاق العامة وشرح تعاليم الدين .. وبينما تحتشد جموع الناس المؤمنين فى ردهة المسجد لتستمع الى هــذا الامام الخطيب ، نجد كل النشاطات الاخرى فى المدينــة أو فى القرية الاسلامية قد تضاءلت ..

هناك فرض دينى ثان .. تنفذه المجموعة المســلمة كلها تقريبا بدقة وحرص وهو صيام رمضان ، فمنــذ شروق الشمس وحتى غروبها واذا شئنا الدقة لقلنــا حتى اللحظة التى يمكن التمييز فيها بين الخيط الابيض والخيط الاسود يلزم المسلم المؤمن جانب الامتنــاع الكامل عن تناول الطعــام أو الشراب أو التعطر أو

القيام بالعلاقات الجنسية ، وهذا يفسح المجال للقيــام بأكبر قدر ممكن من التظاهرات الدينية والشعبية أثناء ساعات الليل .. فما أن تحل ساعة الافطار .. حتى تقوم السيدات فور التهام الطعام بتبادل الزيارات وبالرقص والغناء والاستماع الى الراديو .

أما الرجال .. فيتجمعون فى المقاهى ، أو يذهبون

الى دور السينما والمسرح .. ولكن هل يعنى ذلك ان المساجد تصبح خاليـة ؟ ! على العكس تماما ، فلا يكتفى المسلمون بالتجمع فيهـا بأعداد كبيرة لأداء صلاة العشـاء الاجبـارية فى شهر رمضـان ولكنهم يتجمعون أيضا ليستمعوا بكثير من الحماس والنشوة الدينية الى قراءة القرآن والاحاديث الدينية التى قد تستمر أحيانا حتى مطلع الفجـر ، بالاضافة الى ذلك فان الايام المفردة من رمضان خصوصا يوم السـابع والعشرين التى يدعونهـا بليلة القـدر والتى يقـول الايمان الشعبى ان الارادة الالهية تحدد فيها أحداث السنة القادمة كلهـا تعتبر نقطة انطـلاق لكثير من الاحتفالات الدينية المدهشـة فى كافة أرجاء العـالم الاسلامى ، اذ تضاء المساجد كلها .. ويتسابق المصلون والمؤمنون ليستمعوا بنشوة الى الفقهاء يرتلون سـور القرآن والاناشيد النبوية الملحنة والمغناة .

أما بالنسبة للحج فقد كان شائعا قبل ولادة محمد ، ولكن الاسلام حافظ عليه بعـد أن نقاه من الاوهام وجعل منه فرضا دينيا وأصبح مجمعا دينيا رسميـا

للمسلمين كلهم .. ففى كل سنة يتجمع فيه مائتان الى ثلاثمائة ألف مسلم جاء أغلبهم من آسيا وافريقيـا .. ولسنا هنا بصدد ذكر تفصيلات الحج وطريقة القيـام به .. وانما سنكتفى بذكر وتلخيص المراحل الأساسية التى يتم بها .. فبعد أن يدور المؤمنون حول الكعبة فى مكة سبع دورات وبعد أن يقوموا بالطواف سـبع مرات بين الصفا والمروة بشكل جماعى منظم .. يقوم المسلمون الموجودون فى مكة كلهم بأداء تظـاهرات جماعية تبدأ يوم السـابع من ذى الحجـة بعد خطبـة يلقيها الامام الحنفى فى المسـجد ، وفى اليوم الثانى يذهب الجميع ، البعض على الاقدام ، والبعض على ظهور الجمال ، والبغض فى السيارات الى سهل صغير عار مجرد من الأشجار : « عرفات » الواقع على بعـد أربعين كيلومترا من مكة تحيط به عدة هضاب متتالية . وفى وسطه ينهض على صخور صلبة جبـل الرحمة ، وهناك وفى هذا المكان المحدود يتجمع عشرات الالاف من المؤمنين تحت الخيام ليقوموا بأداء الصلاة بشـكل جماعي طيلة النهار .. وتحت شمس لاهبة .. وفى جو خانق تبدو فيه الأشياء وكأنها تذوب من حرارة الشمس،

يقوم المؤمنون بتلاوة الجمــل الدينية بقيــادة امام ، فينفذون بذلك المظهر الأساسى للحج ، أى الوقفة بين يدى الله ، وعند هبوط الليل يتجهون جميعا نحو واد قريب « المزدلفة » .

وهناك تتم « وقفة » أخرى حتى فجر اليوم التالى ، ثم يلتقى المســلمون أمام نصب حجرى يدعونه نصب الشيطان الاكبر .. ويقال ان ابراهيم قد تخلص فى هذا المكان من الشيطان بأن رماه بسبعة أحجار ، ولهــذا الغرض يرمى المؤمنون كل واحــد منهم ســبع حصى التقطها فى المزدلفة .. قائلا : « باسم الله .. الله الاكبر»

بعد هذا الرجم ، يقوم المؤمنون بذبح الضحية التى يقدمونها للرب .. ففى العيد الكبير يحتفل المسلمون بيوم التضحية فى « منى » والذى تختتم فيه احتفالات الحج ، الذى يحتفل به أيضا بنفس الوقت فى كل أرجاء الوطن الاسلامى ..

وبهذه المناسبة يقوم كل رب عائلة حسب امكانيته المــادية بذبح حيوان ــ على الاغلب خروف ــ يقدم جزء كبير منه للفقراء .

الى جانب العيد الكبير .. هنالك عيد آخر يحتفل به

بعد انتهاء شهر الصيام ويدعى العيد الصغير ويقع فى اليوم الاول من شهر شوال ، وفى كلا العيـدين تقام الاحتفالات المرحة سـواء العامة أو الخاصـة والتى تستمر أياما ثلاثة ، والتى يرتدى المسـلمون فيهـا الثياب الجديدة ويذهبون جماعات خارج المدينة والى « المصلى » حيث يقومون معا بأداء صـلاة جمـاعية علنية .. كما نرى ذلك حتى الآن فى مراكش .

ثم يتبادلون الزيارات والتمنيات والهدايا ويقدمون العطايا للفقراء .

الى جانب هـذين العيـدين نضيف باجمـاع كل الطوائف الاسـلامية حدثين كبيرين من نفس النوع :

عاشوراء والمولد : ففى العـاشر من اول شـهور السنة الهجرية يحتفل المسلمون بعاشوراء عيد الصدقة ويتخلل هذا العيد أحيانا خصوصا فى افريقيا الشمالية كرنفالات شعبية .. أما فى الشرق فان الشيعة الايرانيون كانوا يحتفلون قديما ــ وحتى اليوم فى بعض الامكنة ــ بذكرى استشهاد الامام الحسين ابن بنت رسول الله الذى قتـل فى كربلاء فى عام ٦٨٠ عن طريق عروض مسرحية تدعى بالتعزية وعن طريق مواكب دينية يقوم

فيها المتعصبون بحركات ذات طابع حاد أطال فى وصفها من سبق جوبينو ومن تلاه .

أما العيد الثانى ، فهو عيد مولد النبى الذى يحتفل به فى العاشر من شهر ربيع الأول ، ففى كل مكان من العالم الاسلامى يحضر المسلمون احتفالات دينية تقام فى المساجد وفى المعابد وفى المدارس القرآنية ويستمعون الى قراءة القرآن الذى يتلى بشكل كورس والى المدائح النبوية أو يستمعون الى خطب دينية يلقيها خطباء مشهورون ، وهدف هذه الاجتماعات العامة ليس احياء تعاليم النبى فحسب ، وانما التعبير عن التواثق الاسلامى بواسطة أعمال تدل على العطف وعلى الاحسان موجهة نحو الفقراء .. والى ذكرى الاموات ، والى زيارة أضرحة الاولياء .

والى جانب هذه الاعياد الدينية التى يمكننا أن نطلق عليها صفة الرسمية ، تضاف فى كل منطقة من مناطق العالم الاسلامى تظاهرات جماعية يحرص عليها بدقة شديدة كأعياد المربوط أو الطقوس الموسمية حيث يتدخل الشعور الدينى غالبا كمساعد أساسى لهذه الظاهرة الشعبية .. ولكن التزمت الاسلامى

يرفض هذه الظواهر رفضا حاسما ويسميها بالبدعة وبالتالى يعتبرها محرمة .

وأغلب هذه المظاهر تجد جذورها فى تقديس الاولياء .. الكثيرون فى أغلب مناطق البلاد الاسلامية البعض منهم متصوفة ، والبعض الآخر شيوخ طريقة ، والقسم الأخير مهووسون دينيا أو أنصاف مجانين تفسر كلماتهم المبهمة على طريقة نوستراداموسى . وقد كانت بغداد تسمى « حصن الاولياء » لكثرة عدد هؤلاء المتدينين الذين كانوا يعيشون فيها والذين ما زالت قبورهم فى ضواحيها .. من هؤلاء الاولياء نذكر سيدى عبد القادر الدجلانى الذى تجله أكثر الطوائف الاسلامية حتى اليوم .

ومن هؤلاء الاولياء المعتبرين يمكننا أن نذكر اسم جلال الدين الرومى فى تركيا مؤسس طريقة «المولوية» الدراويش الذين يدورون ، وأحمد الرفاعى مؤسس طريقة الدراويش الذين يصرخون باسم الله

أما فى مصر ، فان أكثر الأولياء شهرة شعبية هم : ابراهيم الدسوقى ، أحمد البدوى ، وسيد مرزوق

الاحمدى الذى تقام فى عيده مواكب بالغة الغرابة فى القاهرة ..

ولم تظل افريقيا الشمالية بعيدة عن هـذا التعبير الشعبى عن الهوس الدينى .. ويكفى أن نجتاز الطريق الذى يؤدى الى طرابلس على ضـفة البحر لكى نرى مئـات المـارابوط التى تعج بالمؤمنين .. وكثير منهم يأخذون الطريق الصحراوى الى دجربوب حيث يوجد قبر الشيخ سنوسى مؤسس طائفة السنوسية .

ونجد نفس هذه الظاهرة فى تونس ، فى الجزائر ، فى تلمسان ، فى فاس . وفى مكناس أمام الأضرحة التى شيدت تمجيدا لذكرى سيدى مخلص ، سيدى عبد الرحمن الثعالبى ، سيدى أبو مدين ، ومحمد بن عيسى ، الذين يأتون المؤمنون اليهم أفرادا وجمـاعات التماسا لبركتهم التى يعترفون بها .

هذا التقدير الذى يحاط به هؤلاء الاولياء لا يعبر عنه بالعطايا فحسب ، بل بشكل عبادة شخصية تتجلى فى الاعياد الموسمية ، وأكثر هذه المظاهر أهمية تبـدو فى المواكب الدينية التى يحمل المساهمون فيها الاغصان الخضراء ، أما الصـغار فيرقصـون ويغنون .. بينما

يصفق الآخرون بأكفهم حفاظا على الايقـاع ، وتمـد الموائد العامة للفقراء .. وينجذب التجار بالطبـع الى هذه التجمعات الكبيرة .. فتقام المقاهى المرتجلة أمام قبور الاولياء .. ثم تنظم التسـالى الشـعبية كسباق الخيل الكثير الرواج .

وأكثر الاعياد المربوطية شعبيـة ورواجا فى افريقيا الشمالية هى التى تدور قطعا فى مدينة ماكناس أمام ضريح محمد بن‌عيسى منشىء طريقة العيسوية .. وحول تفاصيل هذه الاعياد لا نريد أن نتوقف فقد وصفت بالكثير من الدقة دون أن يترك شيئا من تفاصيلها :

« الجروح الاختيارية ، لعق الحديد المحمى ، السير على الزجاج المكسور وعلى أشواك الصبار ، اللعب بالافاعى ، ابتلاع العقارب .. واللحم النيىء »

ونرى من الأفضـل العودة الى الذاكرة الشخصية فيما يتعلق باحتفال تقوم به نفس الطائفة فى الجزائر.. ويتم ابتهاجا برئيس الطائفة نفسها .. ويأتى المشاهدون للمشاركة فى هذا المشهد الذى يدعونه بالحضرة والذى يدور فى الفناء الداخلى لقبر الولى والذى يتشكل من

قسمين : قراءة التعاليم « الحزب » والتمارين «الجدب» تفصل بينهما استراحة .

أما بالنسبة للقسم الأول : فتقف مجموعتان متقابلتان من الكورس ترددان مقاطع من القرآن وصلوات وأشعارا وتراتيل تنتهى بتأوه حاد يكاد لا ينتهى .. ويستمر هذا القسم ما يقارب الساعة .

وبعد استراحة قصيرة يبدأ الجزء الثانى ، بالرقصة النشوانة : رجل ثم ثان ، ثم ثالث ، ثم رابع ، ينهضون ليرقصوا مترنحين ذات اليمين وذات الشمال ، بينما تميل رؤوسهم ورقابهم الى الأمام .. يبتدءون وئيدا ، ثم تزداد سرعتهم شيئا فشيئا .. ونرى ضمن الاوركسترا المكونة من عازفى الناى ودقاقى الطبول موقدا علقت عليه سيوف قاطعة النصل ذات حدين .. وأسلاك حادة من الحديد ومساكات فولاذية .

وخلال لحظات معينة .. أمام المتفرجين الذين تتملكهم النشوة يقفز أحد الراقصين ويمسك بالسيف المحمى ويديره بيديه ثم يغرزه فى بطنه وفى رقبته .. بينما يغرز الآخرون « المساكات » الفولاذية فى عضلات أكتافهم ، وفى بطونهم وفى شفاههم وفى وجناتهم ، وفى آذانهم .

وبعد لحظة ينهض رئيس الطائفة الذى يقود الاحتفال كله مع بعض مساعديه .. ويرفع الحديد عن الاجسام ويمر بأصابعه على الجروح فتلتئم حالا .. كما نرى أيضا بعض الراقصين الذين يسارعون الى الموقد ، ويأخذون فحما مشتعلا ويضعونه بين شفاههم ويرقصون وهم كذلك بضع دقائق ثم يسقطون أرضا متشنجين ، مرتعدين ورءوسهم على الأرض ، وفجأة تتوقف الطبول التى رافقت بايقاعها كل هذه المشاهد عن العزف .. ويبقى الراقصون ممددين أو ينهضون جالسين .. ثم يبتدىء انشاد نشيد دينى حزين ومليء بالايمان يشبه الى حد بعيد أناشيد النصر والتحرر .

وكل من شاهد هذه العروض البالغة القسوة وصفها بأنها مظاهر تدل على التعصب وعلى الهستيريا الجماعية واذا أردنا الدقة على الحيوانية ، وكيف لايصفونها بذلك ما دامت هذه هى مظاهرها الخارجية التى تبدأ وتنتهى بها .. ولكن هذا الارتعاش فى الروح « هذه الرغبة الروحية بتنظيم الوجد الدينى » . « هذا البحث عن السعادة بمخرج عن الفردية المحدودة » كان الوجه الثانى للتفسيرات التى رآها البعض الآخر فى

هذه المظاهر الغريبة والفريدة فى نوعها .

هذا الانطباع يتركه أيضا مشهد الدراويش الذين يدورون والذين كانوا يعيشون فى أعماق التكايا فى القسطنطينية ، اذ يمسهم دوار لا يقاوم ورءوسهم تسقط على أكتافهم وأذرعهم مفتوحة على شــكل صليب .. وأعينهم نصف مغمضة فنراهم يدورون حول أنفسهم على أنغام مزمار وطبل حتى الاعيــاء الكامل ويصفهم تيوفيل جوتييه فى مجلة « الشرق » قائلا : « كهؤلاء السباحين المستسلمين الذين يتركون أنفســهم لأمواج النشوة » .

أما بالنسبة للدراويش الذين يصرخون .. فسلوكهم مختلف رغم أن أسسهم واحــدة .. اذ نراهم جالسين القرفصــاء فى وضع جامد وكأنهم تماثيل من الحجر يرددون بصوت واحد تراتيل دينية موضوعها الرئيسى يكرره رجل واحد هو قائد الفرقة ، ثم نراهم ينهضون بشـكل يشــبه الحلقة ويضــعون أيديهم على أكتاف بعضهم ، ويصــفهم تيوفيــل جوتييه أيضـــا قائلا : « ويبدأون بأن يخرجوا من أعماق صدورهم صــوتا

ثاقبا وطويلا لا يشبه أى صوت بشرى .. نستطيع أن نميز فيه كلمة الله ــ حى .. »

وتمجيــد الأولياء لاتقتصر على المدن ، وانما نراها شائعة أيضا فى القرى حيث تدور طقوس على الاغلب تعود الى ما قبل الاسلام ويقصد منها استدرار نتــاج زراعى خصب ، كعيد يناير والموافق أول العام الجولى « الذى يصادف ١٣ يناير » والذى يعبر عنه الفلاحون بمظاهر لطيفة يغلب عليها طابع السحر .. فكل أحداث العام الماضى يجب أن تدور فى خيالهم حسب ما يتم فى هذا النهار .. لذلك يحاولون اعطاء حياتهم اليوميــة طابعا كريما فتقوم النساء مثلا بتنظيف البيوت تنظيفا كاملا، ويتخلصن من الاثاث القديم والاشياء المستهلكة ويغسلن الثياب المتسخة ويجهزن طعــاما فاخرا يشترك فيه أعضاء الأسرة كلهم .

وعندما يهدد الجفاف الطويل بافســاد المحاصيــل وتنشيف الينابيع .. يتجمع المســلمون ويقومون بأداء الصلاة الجماعية الرسميــة كما يفعلون فى أيام الجمع بعد أن يكونوا قد صــاموا نهارا كاملا وقاموا بأداء الفرائض الدينية كاملة خــلال أيام ثلاثة ، وفى بعض

البلاد الاسلامية فى مثل هذه الاحوال نصادف مظاهر لطيفة تعود دون أدنى شك الى عادات قديمة ما زالت قائمة والتى يقوم بها الناس دون أية خلفية دينية : مظاهر شعبية فى طرق الريف يساهم فيها النساء والاطفال ويقرعون على لوحات حديدية رغبة منهم فى طرد الشيطان الذى يمنع المطر من الهطول ، أو القاء الاحجار فى الآبار وفى مجارى الأنهار .

كما نرى المسلمين يشاركون فى أعياد كرنفالية خاصة تتساءل اذا لم تكن جذورها يونانية قديمة ، فتطوان مثلا مشهورة فى كل افريقيا الشمالية بأعيادها الضاحكة كذلك مشهورة أيضا أعياد « تولباس » فى تونس التى يساهم فى فصولها ويشارك فيها بحماسة زائدة الشعب كله

كما نرى هذه المظاهر الدينية والشعبية كثيرة ومتنوعة فى الاسلام .

أعياد رسمية بالنسبة لرمضان ، الحج الى مكة ، الاعياد الدينية ، عاشوراء والمولد النبوى ، من جهة ، وأعياد الاولياء والمواكب والرقصات الصوفية ، والكرنفالات والطقوس الريفيه من جهة أخرى .

ان الطبقة الكبرى المؤمنة من المسلمين تجد الرضى

فى اجتياز الطريق الـــكبير والواضح للدين لتعبر فيه عن نفسها .. بينما تجد طائفة أخرى صغيرة من المؤمنين النشوة فى التوقف أمام المسالك الصــغيرة وتشعباتها رغم ان التقيد الحرفى بتعاليم الاسلام يعتبرها محرمة قطعا ونوعا من البدع المكروهة .

ولكن هــذا لا يمنع ان الاســلام الغنى بتقاليــده التاريخية والاســطورية وبدقته المنسجمة فى حركات أفراد المجاميع ضمن الطائفة الدينية نفسها قد استطاع بواسطة تعــاليمه الحاسمة والفضفاضة هــذه أن يثبت وحدته وانسجامه مع نفسه فى آن واحد .

الإسلام والمسرح الشعبي

لقد اضطر مسلمو آسيا وافريقيا الى الانتظار حتى منتصف القرن التاسع عشر كى يكتشفوا المسرح كما هو عليه فى أوربا .. مع انه كان فى وسعهم منذ القرون الوسطى أن يشهدوا عروضا أحيانا ضاحكة وأخرى جادة .. ومن أهمها وأكثرها شعبية كان من جهة الايماء والعرائس ومسرحيات الشحاذين وألعاب القرية ، كما هى الحال فى « الايتشافروس » الفارسى ، ومن جهة أخرى أغانى الحركات الممثلة والتعازى .

ونحن لا نريد هنا أن نرسم صـورة حية ومشوقة لهذه العروض أو أن نصفها ونتفحص أصولها وتطورها التاريخى ، وانما نود أن نعرض كيف استطاع المسرح كعرض تمثيلى أن يظهر لجمهور البلاد الاسلامية ، وما مثله ويمثله على الصعيد الثقافى والفنى والتأثير الذى يفرضه على فئة من الشباب الذى أصبح بتحمس للفن

التمثيلى كما يتحمس لنوع جديد من الرياضة .

وبما أن تاريخ هذا النوع من التعبير الادبى قد ترك بشكل ارادى جانبا .. فاننا سنحاول قدر المستطاع أن نوضح موقف الجمهور من المسرح والممثلين .. أمام ما يرون وما يسمعون علنا نستطيع أن نستنتج من ذلك شيئا ..

ومن بين العروض المسرحية التى صفق لها الجمهور الاسلامى وتذوقها خلال قرون .. علينا أن نضع مسرح الكاراكوز ، أغنية الحركة الممثلة ، الفارس والتعزية التى تحتوى « دون أن تنتمى بشكل قاطع الى الفن الدرامى » على عناصر مسرحية قاطعة كالاخراج ، والشخصيات والاحداث والحوار والكورس ..

وبفرح ظاهر كان سكان المدن والقرى فى المشرق والمغرب يهرعون لرؤية عروض الكاراكوز المتجولة بين دمشق واسطنبول وبين القاهرة وفاس .

هذه الشخصية الفولكلورية ذات الاصل التركى ظاهرا « كاراكوز تعنى بالتركية العيون السوداء » ، واللهجة الجريئة ، العابث ، المغرور، كبير الحيلة والذى يعرف كيف يكون عند الحاجة رحيم القلب ، معبرا عن

الحكمة الشعبية .. استطاع أن ينتقل بسرعة من موطنه الاصلي الى سوريا ولبنان ومصر وحتى أن يصل الى افريقيا الشمالية حيث أصابه بعض التغيير وازداد أدبا وحياء .. ولكنه ظل يتحرك بين رفيقه حاجي عيواظ وزوجته ، وعلى العموم فاننا كنا نراه يتحرك فى ديكور عار مجرد من كل زينة .. وحيث يكون الأثاث بسطا الى أبعد حدود البساطة .. زاوية فى الحائط تعلق عليها سجادة فى وسطها مربع أبيض مضاء من الخلف .. ضوء واحد موجود وطبل صغير يعزف ويقوم مقام الاوركسترا .. لاشيء معقد أكثر من ذلك ، ويقف القائد فى الزاوية بين الجدار والسجادة محاطا بعدد من الدمى يرتدون ثيابا صاخبة الالوان يحركها ويجعلها تتكلم ..

وكان الرجال والنساء والاطفال يتابعون بشغف هذه المغامرات المتخيلة لكاراكوز التى كانت تختلف أحداثها بين منطقة وأخرى ولكنها لا تخرج أبدا عن مواضيع معروفة : كاراكوز يسافر ، كاراكوز واللصوص ، كاراكوز والقاضى ، كاراكوز والتاجر ،

كاراكوز يمرض ، كاراكوز يضرب زوجته .. الخ .

ومن خلال كل قصة .. كانت تظهر أحداث مضحكة وتقليدية تثير ضحكات ومرح جمهور ليس صعبا كثيرا ، أما فى افريقيا الشمالية وخصوصا الجزائر حيث ظهر كاراكوز ، فى أيام عاروج وخير الدين ، ذو اللحية الحمراء فان المواضيع المطروقة كانت مستمدة من حياة الناس اليومية .

هذا الفن الواقعى بارادته دون أن يكون فاحشا .. كما هى الحال فى الشكل المتبع فى تركيا أو فى سوريا كان هدفه اثارة الضحك .. ولم تكن مشاهده القصيرة تحتوى على أى وعظ أخلاقى .. بما أن الشخصية الرئيسية فيه أى كاراكوز لا تكف عن الكذب والسرقة والاحتيال .. وتنجو مع ذلك من كل عقاب .. ومن هذه المغامرات المرحة لم يكن هناك أى درس يمكننا أن نستنتجه لأن كاراكوز فى نظر الناس لايمكن أن يمثل الضعيف الذى يلعب على الاكثر قوة أو على الاذكى وانما المحتال الذى يستطيع بمهارته الزائدة أن ينجو من العقاب .

كما نرى ، فان كاراكوز كان قبـــل أى شىء آخر مسرحية من نوع الفارس ثقيلة وممتدة .. تتوالى فيها الصفعات والشتائم والمواقف المربكة .. ولم يكن هدفه الا أن يسلى فى زمن كان المسلمون فيه لم يعرفوا بعد المسرح والسينما ، فكان هذا العرض بالنسبة لهم لعبة جماعية يبعث مجرد رؤيتها السرور فى نفوسهم .

وفى الوقت نفسه كان بوسع الكثير من المسلمين فى المغرب وفى الشرق القريب أن يشـــهدوا تمثيل بعض مسرحيات « الفارس » يقدمها بعض الهواة عموما فى الهواء الطلق بمناسبة أعياد الاولياء حيث تسمح التقاليد بشىء من التسلية والترفيه عن النفس .

فما أن تنتهى الاحتفـالات الجدية المقـامة تكريما لذكرى المربوط .. حتى يقوم بعض أفراد طريقته بتشكيل مجموعة مرحة ترتجل « ألعابا » مليئة بالدعابة والمرح.. فتسمع مرة حوارا تتوضح فيه موهبة الشعب النفاذة وخصوصا طبقته البورجوازية الصغيرة ، ونشهد أحيانا أخرى مشهدا مسليا مقتبسا من الواقع المعاصر ومطورا حول موضوع معروف : القـاضى الجاهل مثلا الذى

يحكم بالظلم ، العبد أو القروى الذى يكتشف أسرار المدينة .. الخ .. وكم رأينا من الممثلين الماهرين الذين يكادون لا يغيرون من معالم أشكالهم يمثلون أحيانا ويلعبون بالايماء أحيانا أخرى أمام جمهور منتبه وغير عسير التطلبات والذى لا يرغب أكثر من رؤية هؤلاء الممثلين ومتابعة حركاتهم .

أما شخصيات هذه « الفارس » التى تكرر نفسها فى أكثر الاحيان فهى دوما : القاضى ، التاجر ، الفلاح ، الخادم ، السكير ، المعتوه ، ثقيل اللسان ، والاصم الأبكم ، أما العرض نفسه فيدور دائما حول موضوع واحد تغنيه بصورة مستمرة ينابيع المخيلة التى لا تنضب ..

أما الاغنية ذات الحركات الايمائية فهى دون شك أقدم من الكاراكوز والفارس .. وكانت تجذب اليها دائما الكثير من المستمعين فى الاسواق والمعارض العامة .. وحتى قبل الاسلام كانوا يروون أثناء السهرات الادبية « السمر » أساطير أمراء اليمن القدامى ، وقصص الشعوب القديمة التى كانت أول من حكم

البـلاد ، وكانوا يذكرون بشيء من التـأثر « أيام العرب » .. هذه الروايات البطولية التى تمجد أعمال القبيلة الخارقة وفضائل قادتها .

وكما كان الشعراء الجوالون فى اليونان القـديمة يخرجون فى المدن يغنون مناقب أبطال الانيـاذة .. كذلك كان المنشدون العرب ينشـدون أمام الجمهور ويشيدون بشجاعة المحاربين العظماء أو الشخصيـات الكبيرة التى ما زالت التقاليد الشعبية تحفظ ذكراهم ..

وأمام دائرة تزداد توسعا من الرجال والأطفال الذين تركز انتباههم حول أسطورة هؤلاء الأبطـال الذهبية يبدأ المنشد يصاحب انشاده بايماءات كثيرة التعبير ، وأحيانا يرافقه عازف مزمار أو ضارب طبل .. ويروى بأبيات مثيرة المطاردات البطولية فى المناطق الواسعة .. واللقاءات المأساوية والمعارك المخيفة ، والحب المسحور الذى يتدخل فيه « الجن » باستمرار .

وهكذا يأخـذ « السحر » مكانا هاما فى هـذه القصص التى صنعت لارضـاء الروح الشعبية والتى

تنتصر الفضيلة فيها على الدوام .. كما تنتصر الشجاعة وينتصر الايمان .

ولكن هذا النوع من العروض المسرحية يحدد نفسه بنفسه .. اذ لم تعد هذه القصص القديمة المليئة بالشاعرية الموحية والتى ما زالت تصادف رد فعل قوى لدى الريفيين تجد صدى مؤثرا فى زمن شاع فيه الراديو والتليفزيون .. حتى لو استطاع الراوى أن ينثر بعض القضايا المعاصرة فى سرده ..

واذا كان الاعجاب فائقا فى القديم بهذه الروايات الشديدة الفصاحة .. فاننا لا نجد فيها الآن الا سحرا مطفئا .. لأن ما ينقصها بالضبط هو ما ينقص الفارس ومسرحيات كاراكوز وما شعر به الجمهور أخيرا .. النفس الانسانى ، هذا العطف على الانسان الذى بدونه يصبح كل نص مهما كانت قيمته الأدبية نصا بلا روح وبلا صدى دائم .

هذه الميزة النادرة حقا .. هل استطاع الجمهور الاسلامى فى فارس أن يجدها فى مسرحيات التعازى ؟

يبدو أن الامر على عكس ذلك .

فنحن نقر أن هذه المسرحيات تعتمد على أســاس ديني شأن التراجيـديات اليونانية ، وأسرار القرون الوسطى وانها تأخذ نقطة انطلاقها من على وخصوصا من الحسين ابن بنت محمد ، وابن على الذى قتل مع كل أفراد عائلته عام ٦٨٠ فى كربلاء على يد جنــود الخليفة يزيد .. بينما كان فى طريقه من المدينــة الى الكوفة لكى يلحق بأنصاره . هــذه الحادثة العسكرية قد وجدت فى فارس صدى عميقا .. وكان الاحتفــال بذكرى موت الحسين يتم عن طريق مظاهر الحداد ، ومسيرات شعبية يجلد فيها المؤمنونأنفسهم مع تأوهات وندب علنى ثم تحول كل ذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الى عرض مسرحى .

يقام هذا العرض عموما فى ساحة عامة ، أو فى صحن مسجد أو فى تكية بنيت لهذا الغرض، ويأتىالمشاهدون الذين يهزهم الايمان نفسه ليشاركوا فى العرض وكأنه طقس دينى .

أما فى البداية فنجدهم وقد هزهم التأثر صامتين ، جامدين ثم تنهمر دموعهم دون ضابط ، عندما يشهدون

أمام أعينهم أحداث حياة الحسين المضطربة : طفولته السعيدة مع أبيه الامام على ، وأمه فاطمة ابنة النبى ، وأخيه الحسن ، ثم شبابه المهدد من كل جانب من قبل أعداء قساة ، وأخيرا نهايته المأساوية ، ويزداد فضولهم الملىء بالاعجاب بعوامل أخرى تقدم فى العرض .. كالرؤى والمعجزات والنبوءات والاحياء .. اذ يرون مثلا رأس الحسين المقطوعة تظهر لترتل مقاطع من القرآن .. وفى مكان آخر يرون أحد المعاركين الشهداء وقد قطعت ذراعاه يضع سيفه بين أسنانه ويغمده فى أحشاء خصمه ، ولكن حماس المشاهدين لا يصل الى أعلى درجاته الا فى المشهد الرئيسي للعرض .. مشهد قطع رأس الامام نفسه حيث يجرى الدم ـ الدم الحقيقى ـ أمام أنظار المشاهدين المتألمين على رمال الصحراء .. عند ذلك يبدأ البكاء والنشيج المختلط بالاهتزاز العصبى لدى البعض الذين بلغ ايمانهم بما يرونه درجة كبيرة من التأثر .

وأخيرا يتدخل المشاهدون فى العرض بحماسة تفوق حماسة الممثلين .. ويبدو الأمر وكأن الممثلين والمشاهدين

قد خضعوا للعذاب نفسه يعيشون بصورة واحدة مغامرة الحسين الرهيبة ويصبحون بذلك مثالا حيا للتقمص ..

ونحن نفهم أن تختفى مسرحيات التعزية منذ أن بدأ التطور العصرى يظهر .

وفى الحقيقة ان التعازى فى فارس والكاراكوز فى أراضى الامبراطورية العثمانية ، ومسرحيات الفارس ، والاغانى الممثلة بالحركات الايمائية عند العرب ومظاهر التسلية الشعبية الاخرى ليس لهـا الا علاقة بعيـدة بالمسرح كما نفهمه بمعناه العصرى .

فهذه العروض لم تساهم الا بقـدر محدود جـدا بتكوين المسرح العربى الذى بقى غريبا على الحضارة الاسلامية حتى منتصف القرن التاسع عشر .

وان غياب هـذا الفن المسرحى قد كان موضـوعا لمناقشات عديدة ليست هنا مجالا للبحث .

والحقيقة ان النقاش طال كثيرا حول الصعوبات التى صادفها هذا المسرح فى تكوينه : استعمال لغة مفهومة من كل الناس ، اختيار الممثلين وخصوصا الممثلات ..

المنافسة الحالية للسينما .. الخ .

دون أن يعتنى أحد بشرح الاسبـاب العميقة التى أخرت ظهور المسرح فى المجتمع والادب العربى رغم ان مظاهره الجديدة والشـديدة العمق الانسانى تستحق بأن يزداد الجمهور الأوروبى بها معرفة . على كل حال ، فان أسباب مثل هذه الظاهرة الاستثنائية فى حضارات الامم تعود الى جذور اجتماعية وتاريخية وثقافية .. فمن لغو الكلام أن نقول الآن ان الفن الدرامى أصبح من مستلزمات الحياة المدنية المعـاصرة ، ويمكننا أن نقول إن الحضارة العربية الاسلامية قد ارتدت طابعا ريفيا خلال فترة طويلة من السنين ، كما أن المسرح من جهة ثانية يتغذى ويعتمد على مجموعة من الاساطير ، كما نجد الحال مثلا عند اليونان القدامى الذين تشابكت معتقداتهم الدينية ومؤسسـاتهم الاجتماعية ، ولـكن المسلمين لم يعرفوا هذا الطابع .. وعلينا أن نشير أيضا ان العرب لم يعرفوا الا فى وقت متـأخر جدا أعمـال ايسخيلوس وسوفوكل وأوريبيديس وارستوفان ، بينما توصـلوا الى أعمـاق مؤلفـات ارسـطو وافلاطون

وهيبوقراط ، وجاليان .. مما لا يثير الدهشة .. فمن جهة كف المسرح اليونانى عن الحياة فى القرن التاسع والعاشر الميلادى بعد أن هاجمته الكنيسة بضراوة وساعد على قتله انحطاط الآداب .. كما ان الاعمال اليونانية التى أثارت اهتمام العرب فى ذلك العصر كان لها طابع علمى أو قيمة عملية .

وفى مثل هذه الظروف لم يكن العرب يبدون الاهتمام بالادب كأدب .. أما الإسباب لذلك فتعود الى أن قبولهم بهذا النوع من الادب يفترض عموما ثقافة غير متوفرة لديهم بعد ، أو أنها قد تصبح ميزة طبقة قليلة خاصة .

ولكن هذا النفور الذى أظهره المسلمون للمسرح يفسر خصوصا بفن الحياة عندهم والتعبير عن فلسفة تتطابق مع وجهة نظر الاسلام للعالم والمصنوعة من الكرامة ومن التحفظ ومن الوفاء لتقاليد الاجداد الذين يمنعون كل عرض للذات أو للعواطف الخاصة .

لذلك فانه فى كل مرة يظهر فيها المسلم بشكل علنى تبدو الامور وكأن عليه أن يختفى وراء قناع من المراعاة

الاجتماعية واحدة بالنسبة للجميع ولكنها بذلك تمحو الفردية وتلزم الفكر بشكل واحد غير شخصي مضبوط الجزئيات بالاضافة الى ان المظاهر اللفظية محددة بأشكال معينة ومغلقة على نفسها بأسلوبية ثقافية واضحة الحدود .

التكنيك الجديد :

فى العالم العربى الاسلامى كما فى غيره يولد المسرح من المدنية ومن التكنيك .. لأن المسرح ليس الا اكتشافا له طابع تكنيكى يتم فى اليوم الذى يحل فيه الممثل محل الراوية وحيث تصبح الرواية عرضا وحيث لا نكتفى برواية الاحداث بل ننتقل الى اظهارها .

وفى منتصف القرن التاسع عشر على وجه التحديد تم هذا الحدث بالنسبة للحضارة الاسلامية .

وكان المسيحيون اللبنانيون أول الرواد .. وبالطبع فاننا لن نصل الى القول بأنهم كانوا على نفس حالة اليونان القدامى الذين كانوا يعيشون على السواحل.. وشهدوا فى قريتهم الصغيرة ذات صباح .. عربة تتوقف ثم عرضا لأول مسرحية فى العالم . على العكس فان

الخلق المسرحي اختار من انطلاقه فى لبنان المكان الاكثر تزمتا وتحفظا .. ففى يوم اعلان النتائج .. كانت بعض المدارس الخاصة تترك بعض طلابها الموهوبين يمثلون أمام أساتذتهم وأهليهم ورفاقهم مسرحيات أخلاقيـة صغيرة كتبها أساتذتهم .. هذه الالعاب المدرسية التى أصبح لها الآن طعم حلـو المذاق مختلطـا بذكريات الطفـولة الملونة كانت تعتبر آنذاك امتـدادا للتعليم ومساهمة جدية بتثقيف الشبيبة المتعلمة .

وكان المسرح سيظل فى مرحلة النشاط المدرسى لولا أن ظهر رجل حاول أن يدعو مواطنيه الى هذا الشكل الادبى والثقافى الجديد وأن يجعل من المسرح الوليـد شيئا آخر غير أن يكون الصـفحة الاخيرة المصـورة والممثلة للبرنامج الدراسى ، ولكن مارون النقاش الذى كان يحمل ثقافة شاملة وتجربة منوعة وتفكيرا خصبا أطلع رفاقه على اكتشاف قام به قبل سنوات خلال رحلة له الى ايطاليا .. وقد بدأ بتكوين ثقافتـه حول هـذا الاكتشاف بقراءة عدد كبير من الاعمـال المسرحيـة الانجليزية والفرنسيـة ثم بدأ يجرب القيـام ببعض

الأدوار وتكليف بعض أفراد أسرته وأصدقائه باتباع الطريق التى يسلكها . وفى يوم ما .. قرر أن يكتب باللغة العربية الفصحى كوميديا مقتبسة لا من الادب العربى أو من ألف ليلة وليلة كما سيفعل فيما بعد وانما من أكثر المسرحيات العالمية شعبية : بخيل موليير التى ترجمها وأعدها بتصرف مبتكر . وعندما جهز العمل لم يقدمه فى محل عام وانما فى داره الخاصة وأمام فئة صغيرة من الاصدقاء .. ما الذى قدمه النقاش فى هذه الليلة المسرحية الاولى العظيمة الشهرة والتى تشكل صك ولادة المسرح ودخوله عالم المجتمع العربى ؟؟ .. لقد أعاد صياغة مسرحية موليير الشهيرة .. وبسطها وحولها تحويلا كاملا .. كل ما فيها تغير ، بناؤها ، حوادثها ، مغزاها ، ومن الطبيعى اننا اذا حاولنا مقارنة النصين لكانت النتيجة رهيبة .. ولكن من الخطل توجيه اللوم اليه على هذه الجزئيات خصوصا انه فى ذلك الحين لم يكن أحد يفكر بتوجيه نقد جاد الى مثل هذه المواضيع .

وبالطبع فانه من المستحيل أن نورد ردود فعل

الجمهور الذى شهد لأول مرة هــذا العرض المسرحى الذى قدمه النقاش .. وموقفه من شخصية هاراباغون العربى المعد لارضاء ذوق الجمهور اللبنــانى فى عام ١٨٤٨ .

ولـكننا نستطيع أن نستنتج أن الجمهور قد استقبل بترحاب هذا الفن الحى ، بدليــل تشجيعه النقــاش على الاستمرار فيه . وأظهر النقاش نشاطا واسعا كمدير وممثــل ومؤلف وحاول أن يكون جمهورا مسرحيــا حقيقيا وأن يودع فى نفسه حب الفن الدرامى ..وتوالت مسرحيات النقاش المأخوذة عن المسرح الفرنسى ، فبعد البخيل رأينا الطائش « أبو الحسن المغفل » ثم الحسود « طرطوف » .

ولـكن من الظلم للنقــاش أن ندرســه من خــلال شخصيته فقط .. فأعمــاله المسرحيــة لا توازى بشىء تأثيره لأن دوره قد تجلى بكونه قد كان رائدا أول ..

فلقد قدم الى جمهــور قليل مكون من المثقفين ومن الطــلاب الذين يعشقون الفن والادب « كوميــديات طبــاع » أبطالها الرئيســيون نماذج يمثلون الحقيقة

الانسانية فى كل وقت .. وبالطبع لايمكننا أن نؤكد ان هذه العروض المسرحية الاولى قد قوبلت بحماس بالغ لأن التفكير العام لم يكن متجها فى هذا الطريق .. ولم يكن مستعدا أو مهيئا لتقبل المسرح الذى لم يكن أحد يفهم مبادءه أو أهدافه .

لذلك ما علينا أن نستغرب اذا كان رد الفعل الذى قابل به جمهور المشرق خلفاء النقـاش أديب اسحق ، ونجيب حداد مكونا من الفضـول السهل أو العرفان بالجميل المهذب .

فهذا الجيل الاول من المتفرجين العرب كان مكونا أساسا من رجال يحبون الادب ويتحسسون جمـال الكلمة أكثر من مجرى الحوادث والى تصوير الطباع أكثر من أداء الممثلين .

أما أعمال شكسبير وكورنى وراسين وهوجو .. التى كان يقدمها اليهم بصبر واناة حينا ، وبسرعة أحيـانا مترجمون مجتهدون أو معدون مهرة .. هذه الوجوه الحية التى تصور مجتمعا فى زمن معين والانسانية كلها فى كل الازمان والتى يعجب بها المتفرج المثقف فقـد

ظلت بالنسبة اليهم غريبة .. لا يمكن الوصـول اليها حقا ..

ولكن المتفرج العربى بدا أكثر تقبلا فيما بعد عندما واجه ممثلين يلعبون أمامه بلغته اليومية التى اعتادها والتى يفهمها مباشرة مثل أعمال عبدالله النديم..وخصوصا المتفرج المصرى الذى جذبته العروض التى كان يقدمها اليه السورى أبو خليل القبانى لا لكون مواضـيعها مستمدة من التاريخ العربى الاسـلامى فقط .. وانما لأن هذه العروض كانت تتخللها مقاطع من الغناء والرقص والموسيقى ..

ان الخمسين سنة التى تنتهى فى مطلع القرن العشرين أى فى أوائل عام ١٩٠٠ تعتبر بالنسبة للمسرح العربى مرحلة تهيئة .. وبينما كانت الترجمـات والاعدادات المسرحية تتوالى ، كانت المأساة تظهر بخجل ، غير شاعرة تماما بكيانها .. مليئة بالحشو والعناصر الشعرية . أما الكوميديا فقد ظل موضوعها فقيرا وفى أغلب الأحيـان مقتبسا عن المسرح الأوربى والشخصيات غير مصورة بعناية ..

ولكن مهما كان شأن هذين النوعين .. فان جمهور مصر ولبنان كان يفضل عليهما دائما النوع الثالث أى الاوبريت . لأن العرض الذى يجرى على المسرح يجب أن يخاطب عينيـــه وأذنيه دون أن يتنـــاسى مع ذلك الاحداث التاريخية والاسلوب المفخم .

مهما يكن من أمر .. فان طريقـــا جديدا قد شـــق بالنسبة للتفكير العربى .. ولم يبق بعد الا أن نخلق مسرحا حقا يخاطب جموع الناس كلها .

فهرس

المسرح الباطنى :

المسرح المكتشف :

النص :

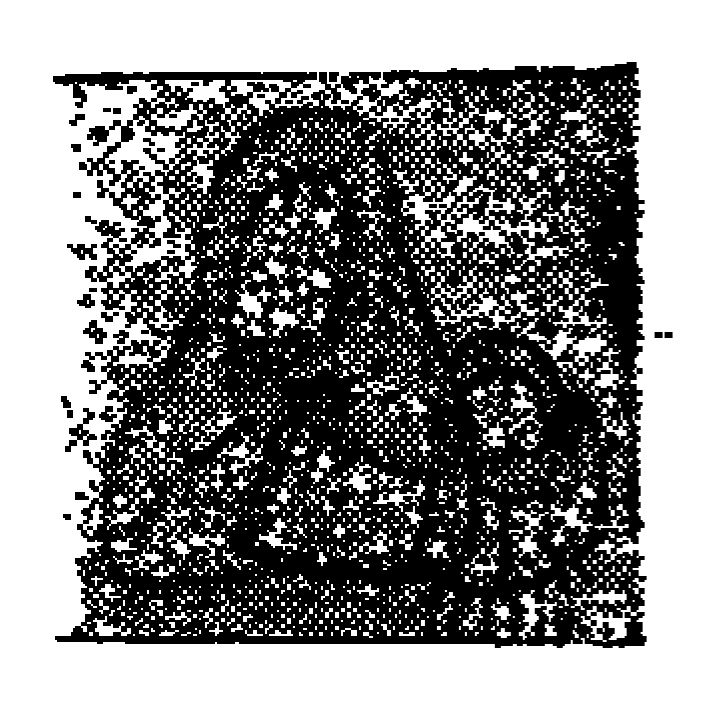
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
S:10 Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

هذه دراسة جديدة عن مشكلة قديمة هى « الاسلام والمسرح » ، فقد طرح الباحثون والمفكرون فى بلادنا منذ فجر النهضة العربية سؤالا محددا عن السبب الذى منع ظهور المسرح فى الحضارة الاسلامية ، واجاب هؤلاء الباحثون والمفكرون اجابات مختلفة عن هذا السؤال الكبير . ولكن الموضوع مازال حتى اليوم قضية حائرة . وهذه الدراسة التى كتبها بالفرنسية الباحث العربى التونسى الدكتور « محمد عزيزة » ، وترجمها الدكتور رفيق الصبان تعتبر من أعمق واجرأ الدراسات فى هذا الميدان ، بالاضافة الى انها تقدم نصا مسرحيا رائعا هو « آلام الحسين أو ماساة كربلاء » وهو نص ظهر فى بعض البيئات الاسلامية القديمة ، والحقيقة انه نص بالغ الجمال والعذوبة بحيث يفرض علينا أن نغير بعض جوانب نظرتنا الى موضوع المسرح فى الحضارة الاسلامية . اما الدكتور محمد عزيزة « ٣١ سنة » فهو عالم عربى شاب درس الحقوق والاداب والعلوم الاسلامية فى جامعتى باريس والسوربون وله عديد من الابحاث منها « نظريات عن المسرح العربى المعاصر » وله تحت الطبع « الخط العربى » و « الفنون فى افريقيا » و « القوالب التقليدية فى المسرح » . ويسعد « كتاب الهلال » أن يقدم اليوم هذه الدراسة الجديدة اللامعة لتكون موضـوعا للبحث والمناقشة بين النقاد والادباء فى شتى انحاء الوطن العربى فى هـذا الموضوع القديم الذى احتل مكانة كبيرة فى الفكر العربى المعاصر .



كتاب الهلال

حكايات مسافر

مصطفى محمود

سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٤٤ ربيع الأول ١٣٩١ – مايو ١٩٧١

No 244 — Mai 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عدداً) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م.) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان بهجت عثمان

مصطفى محمود

حكايات مسافر

دار الهلال

الليالى الحمراء فى ألمانيا

المانيـــا بلاد مهـــذبة جدا .. كل شيء فيها يتم وفقا لجدول .. وبرنامج .. وحصص محددة

وفى خلال خمسة أيام متتالية من رحلتنا كانت كل حصصنا مصانع ..

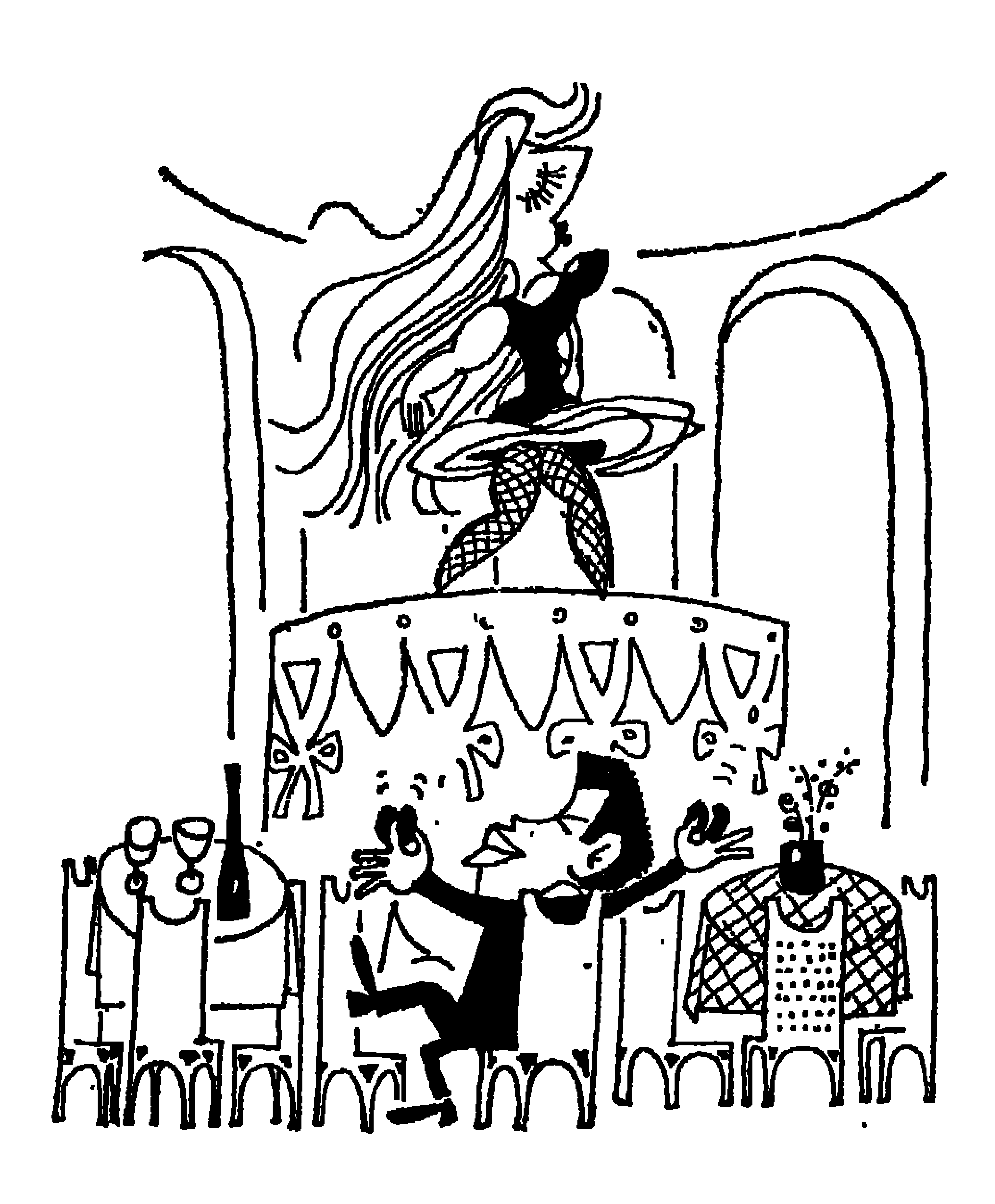
كنا نصحو على مصـــنع .. ونفطر على ورشـــة .. ونتغدى على شركة .. ونتعشى على منجم ..

وبدأت أشعر بالغيظ ..

أليس فى ألمانيا حصص للتسلية ..

كنت قد مللت من الفحم والحديد وطفح بى الملل.. وبدأت أعرب لمرافقنا الرسمى عن اعجابى العظيم بألمانيا وصناعاتها ..

وكنت أقول له كل يوم خمس مرات .. ان المانيـــا رائعة .. وانها أثبتت انها لن تموت .. وانها انتصرت على أعدائها ..



وكان يجيب عليّ بابتسامة مهذبة قائلا :

ــ هذا قليل من كثير ياسيدى .. وغدا سوف ترى فى مصانع اسن ماذا فعلنا .. سوف ترى مليار طن من الخردة يذوب أمام عينيك .. ويتحول الى أنهار من الحديد السائل .. ثم يخرج من طرف المصنع أنابيب وأسياخ وألواح وشرائح .. وسوف ترى الالواح فى كولونيا تتحول الى عربات أنيقة .. وسوف ترى فى باديش الهواء يتحول الى ســماد .. انك تستطيع أن تتصور مدى ما بذلنا من جهد اذا اطلعت على أرقام انتاجنا الأخيرة ..

ويضع يده فى جيبه ويخرج خريطة ورسوما بيانية واحصاءات يبسطها أمامه ويبدأ فى تلاوتها :

ــ ٣ ملايين طن كذا وكذا فى شهر كذا ..

ــ ٥ مليارات من الأطنان كذا فى شهر كيت وكيت .

ــ تسعون ألف قطعة فى سنة كام وفى سنة كام

وأحنى رأسى انحناءة غاية فى التهذيب وأؤكد له ان هذا ما أتصوره فعلا .. وان المانيا قد أصبحت عميــدة الصناعة فى العالم .. ثم أردف فى خجل قائلا :

ـ ولاشك ان الصناعة ليست كل شيء فى المانيا ..
ولا بد ان المانيا تقدمت فى كل فن .. حتى .. حتى فى السينما مثلا ..

ـ ها .. ها .. السينما .. والراديو .. والتليفزيون أيضا .. ان عندنا صمامات تستطيـع ان تلتقط كذا ذبذبة فى الثانية .. وتستطيع أن تعمل على كذا موجة فى وقت واحد .. والاحصاءات الأخيرة تدل على ..

ويخرج خريطة الرسوم البيانية والاحصاءات ويبدأ فى التلاوة من جديد ، فأقول فى استسلام .

ـ رائع .. رائع .. عظيم .. مدهش ..

وقد ظللت شهيـد هـذه الاحصاءات مدة خمسة أيام متوالية حينما فهم الالمانى اللبيب غرضى فجأة .. فقال لى وهو يربت على كتفى :

ـ ها .. انت تريد أن تلهو ؟ ..

فقلت فى استنجاد :

ـ ها .. ها .. أرجوك ..

وربت على كتفه وربت على كتفى وتبادلنا النظرات الجانبية والضحك لأول مرة فى الرحلة .. ثم مال على هامسا :

ـ سوف آخذك الى أرقى مقهى فى دسلدورف .. الى البلاديوم ..

ـ رائع .. اشكرك .. سوف يساعدنى هذا كثيرا على فهم المصانع ..

وتصافحنا فى ود عميق ..

***

وفى المساء كنت أجلس الى جواره فى صالة ملهى أنيق حول بيست رقص ومسرح متحرك .. وكنا نحن الاثنان الشابين الوحيدين فى الملهى كله .. وكل من حولنا من العجائز ..

وفهمت ان صديقى مبالغة فى الحفاوة بى قد صحبنى الى أغلى كباريه فى دسلدورف .. وهو كباريه يذهب اليه أصحاب المصانع فقط ليشاهدوا نوعا راقيا جدا من اللهو .. نوعا يشبه الفلسفة عندنا ..

واستسلمت لقضائى ورحت أنظر الى الوجوه الكهلة والشعور البيض والظهـــور المحدبة .. وأتأمل الفراء والمجوهرات وثياب السهرة ..

وكانت الوجوه الجميـــلة الوحيـــدة هى وجــوه الخادمات ..

وبدأ المسرح يعرض نمرا عاليــة .. وبدأت أتفرج وأنسى نفسي ..

وفى منتصف الليــل وأنا أصغى الى موسيقى فاترة حالمة .. وقد خفتت الأضــواء .. أخــذتنى شــطحة فلسفية .. ومررت بلحظة اختلط فيها احساسى وخيل الى أنى فى القاهرة على احدى موائد الاوبرج .. انظر الى وجوه أليفة من عجائزنا الاغنياء فى ثياب الســهرة وأصغى الى بيبى المانزا ..

لم تكن توجد فروق كافية تجعل من المانيا .. المانيا

كنت أحس بالانسان وقد سقطت عنه البطاقة التى تحدد مكانه على الاطلس فأصبح مجرد شخص يمكن أن يكون أنا أو انت أو هو أو هى .. أو أى انسان..

وكنت أحس بأن كل الاطفــال يمكن أن يكونوا أطفــالى .. وكل العجائز يمكن أن يكونوا آبائى .. وكل الدنيا يمكن أن تكون وطنى ..

وكنت أحس بالراحة العميقة ..

ولم أفق من هذا الاحساس اللذيذ المخدر الا حينما اقترب الجرسون ووضع يده على كتف صديقى قائلا

فى لهجة المانية صرفة :

ـ هر فالك ..

ففتحت عينى على الواقع فجـــأة .. وتـذكرت البلاديوم .. دسلدورف .. والمائدة التى أجلس عليها

وأحسست ان الجغرافيا علم قبيح يجعل من العــالم مائة دولة ومائة لغة ومائة جنسية ..

وكان الستار يسدل على آخر فصــل فى البرنامج وصديقى يقول هامسا :

ـ سهرة جميلة ؟ ..

وكنت أتثـاءب كأنى قائم لتوى من قراءة كتاب طويل .. وكانت هذه أولى محاولاتى للهو فى ألمانيـا العابسة المهذبة ..

وفى الصباح الباكر كنا نهرول الى مصانع الهل ، ثم نركب الى مصــانع فورد ونطير الى كروب وباديش ومرسيدس ..

وبعد خمسة أيام أخرى كنا نحط رحالنا فى مينـاء هامبورج ..

وفى هامبورج كانت فى جدول الرحلة خانة خالية ..

سألت عن معناها فقالوا لى ان معناها نصف يوم بدون برنامج .. تقضيه على كيفك !

وتنفست الصعداء ..

ست ساعات على كيفى .. بدون مصانع .. وبدون كباريهات محترمة ..

وكان أول شيء فعلته انى تخلصت من الموكب الرسمى .. وسرت وحدى ! ..

سرت لمدة ساعة فى الشوارع وأنا سعيد .. وكان شكلى بشعرى الاكرت وشفتى الممتلئتين مصيدة للابتسامات فى طول هامبورج وعرضها ..

كان كل ألمانى ينظر الىّ ويبتسم .. وكل ألمانية تغمز لى بعينيها وتضحك .. .

وفى دكان للسجائر .. وقفت أشترى شيكولاتة .. وقال لى البائع بالانجليزية الركيكة :

ــ انت من الهند .. أليس كذلك ؟ ..

ــ بالضبط .. من أحراش الهند .. من الغابات التى يسكنها القرود .. !

ــ ها .. ها .. لقد خمنت هذا ..

وشد على يدى وهو يهنىء نفسه على ذكائه

ـ منذ متى وأنت فى المانيا ؟ ..

ـ منذ أيام معدودة ..

ـ جو بارد .. أليس كذلك ؟ ..

ـ آه .. ولـكنه منعش ..

ومال على أذنى هامسا :

ـ ويمكنك أن تجعله منعشا جدا .. عليك بشوب من البيرة وحورية فى لون الفل .. هل تعرف شـارع الريباربان .. انه هناك من على الناصية .. اذهب ولا تضيع ليلتك .. انك تجد فى شـارع الريباربان كل شىء .. انه بوليفار المانيا .. فقط تذكر هذه النصيحة.. لا تقل لفتاة المانية أنت بيضاء مثل اللبن وخدك تفاحى فهذه شتائم عندنا .. فاللبن والتفاح هما أرخص الاشياء فى المانيا ..

قل لها أنت سـمراء وكحيلة وعيونك سـود ..

وشكرته ، ورحت أبرطع الى شارع الريباربان ..

وكان المساء قد أقبـل .. والجو قـد تحول الى صقيع .. ودخلت فى معطفى الواسع .. وأغلقت بابه

الذى يشبه باب المخبأ ..

وفى شارع الريبـاربان وجدت صفين من المـلاهى بطول الشارع الضيق .. وعلى كل ملهى يقف رجل فى زى كرنفال يقوم بالدعاية للبرنامج بخمس لغـات .. ويصيح كأنه يصيح على مزاد :

عرايا من كل نوع ..
لوحات حية لا تنسى ..
ساعات من العمر هى أجمل ما فى العمر ..

تعال الى جناتنـا يا صـاح .. واترك همومك على الباب ..

وفى ركن مظلم كان هناك رجل مريب ذو لحية يهمس الى كل عابر سبيل :

ـ ان الـكباريهات لا تغنى ولا تسمن .. ولا فائدة فى عرايا لا تلمسهن بيديك.. تعال معى أنا.. وسأصحبك الى ما هو أشهى من الجنة ..

كان الشارع يشبه شريطا رفيعا من باريس وسـط هامبورج .. وكان كل شىء ممكنا فى هـذا الشريط الضيق ..

كانت هنـاك سـينمات تتفنن فى عرض الجنس .. ومسارح تتفنن فى عرض الغزل بين النساء .. ومشارب للبيرة الرديئة يختلط فيها الجنسان فى تبذل .. وأندية للقمـار .. وحانات لتبادل الصفقات المريبة ..

وخيل الى وأنا أسير انى عبرت حدود المانيا بدون باسبورت ..

كانت كل الوجوه حولى غريبة ..

وجوه زنوج ويابانيين وصينيـين وروس وانجليـز وفرنسيين وأمريكان .. وليس بينها وجه المانى واحد ..

كان الشارع من أجل السواح فقط .. حتى الممثلات والراقصات كن من الاجانب ..

وأدركت بعد ساعات من التسكع فى هذا الشـارع انى لا أتفرج على المانيا .. وانما أتفرج على نفسى .. على الصورة التى فى ذهن الالمان عنى وعن السـواح من كل الالوان ..

وقطعت تسكعى وأخذت تاكسى الى الفندق ..

وفى الطريق سألت السائق :

ـ ألا يوجد فى بلادكم هلس ؟ ..

ـ ماذا تعنى بالهلس .. ان البنت عندنا حرة تفعل ما تشاء قبل الزواج .. وليس هذا هلسا ..

ـ ماذا تسمونه اذن ؟ ..

ـ اننا لا نسميه شيئا .. انه حياتنا فى يوم الاحد..

ـ انه يوم سعيد يوم الاحد .. تذهبون فيه الى الكنيسة فى الصباح .. والى عشاقكم فى المساء ..

وضحكت .. وضحك السائق دون أن يفكر ..

وتوقف التاكسى عند الفندق .. ونزلت وأنا أفكر فى الشعب الالمانى المنظم جدا ..

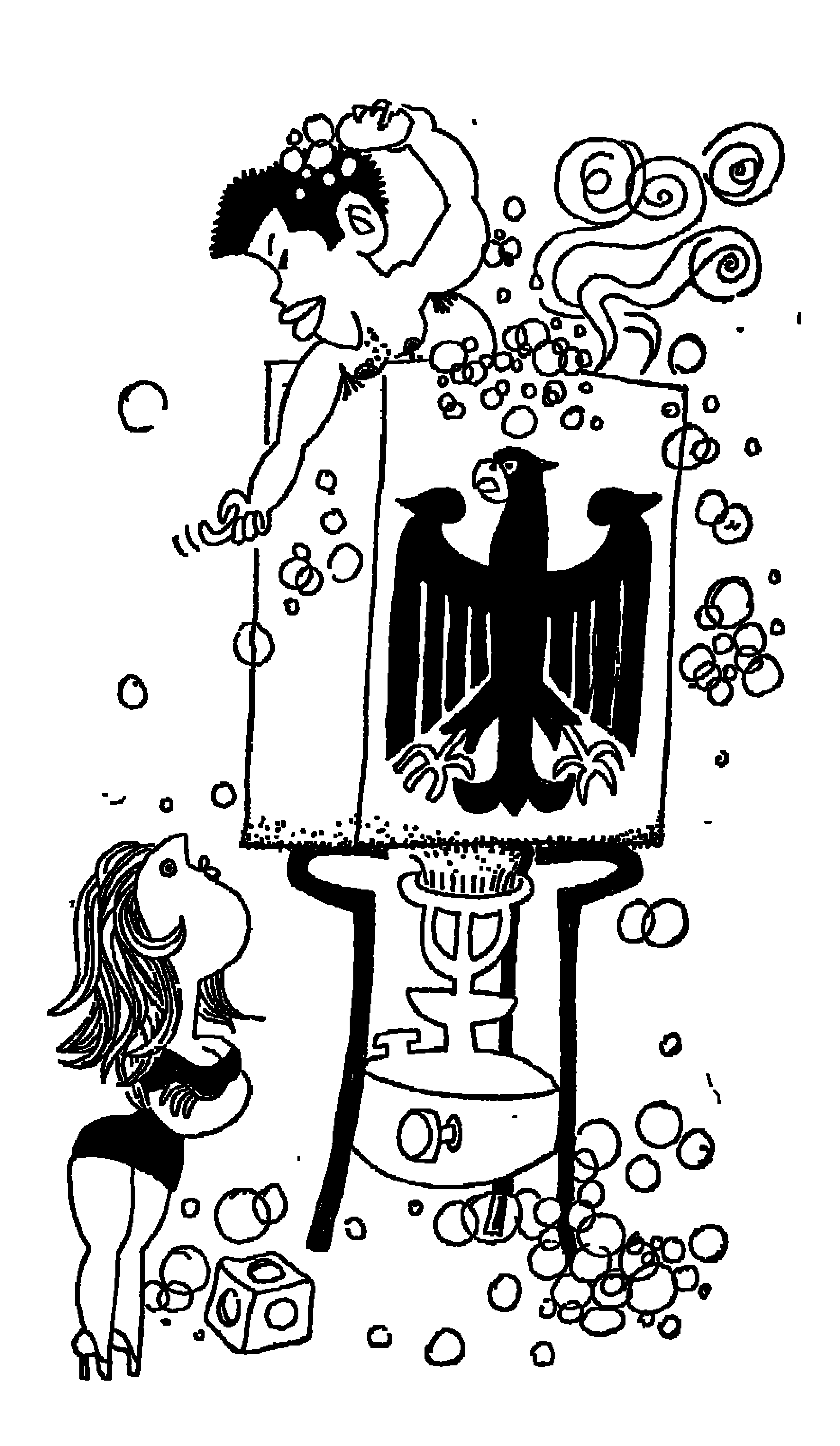
شد الحبل في هامبورغ

هامبورج .. فندق الاتلانتيك فى أواخر شتاء عام ١٩٥٧ ..

والهواء يقطر بالثلج والدخان المتصاعد من مدخنة الفندق يرتجف كأن به قشعريرة .. وأنا واقف فى الصالة أكتب خطابا الى روز اليوسف .. والى جوارى يقف الهر فالك الملحق الصحفى الالمانى يشد شعره لأن المبعوثين المصريين لايفهمون ان هناك مواعيد .. وان هنالك ساعات يد وساعات حائط وساعات جيب .. وأوقات يتفق عليها الناس ويلتقون فيها بالدقيقة واللحظة ..

— ان أدق ميعاد عندكم هو الساعة كذا .. أى كذا .. لا فرق بين ساعة قبل أو ساعتين بعد ..

يقول هذا ويشد شعره ويكز على اسنانه وانا انظر اليه ببلاهة .. ثم أقول محاولا أن أغطى جراحنا :



ـ نحن فى الشرق فلاسفة .. ولسنا كمسارية .. وباعة لبن .. وعمال خراطة وحدادة مثلكم .. ماذا يهم ان تكون الساعة السادسة أو السابعة .. اننا لانرتزق من الدكاكين ولكننا نعيش على التأملات .. ودكان التأملات لا يغلق بابه أبدا .. فما الداعى للعجلة ..

وأعود الى خطابى أكتب فى « عجلة » .. بينما يمصمص الهر فالك شفتيه فى يأس وقد استسلم أخيرا وصدق اننا فلاسفة ..

لقد وصلنا هامبورج منذ ساعتين وما لبثنا أن تفرقنا فى الجهات الاربع .. بعضنا يجرى خلف خبر والآخر يجرى خلف قصة والثالث يجرى خلف سهرة .. أما أنا فكنت أحلم بفراش وثير ونوم عميق فقد كنت متعبا ..

ولهذا أسرعت بختام خطابى واعتذرت للهر فالك عن الاجتماع .. ثم صعدت الى غرفتى وأنا أترنح .. وكل ما أعرفه عن الغرفة انها رقم ٧٩ .. وانها بالدور الخامس .. وان معى مفتاحها ..

وبلغت الدور الخامس وسرت فى ممر طويل مفروش

بالقطيفة حتى نهايته .. ثم وضعت مفتاحي في البـاب وأدرته .. ودخلت .. ولـكنى فوجئت بالغرفة خاوية على جدرانها .. لا شيء فيها بالمرة .. لا فراش .. ولا مكتب ولا كرسي .. ولا شيء ... مجرد خرابة قائمة على جدران أنيقة .. وعدت لأتأكد من الرقم .. ومن المفتاح والباب .. ثم وقفت حائرا ..

أهذا هو الـكرم الالمـانى .. أن ينام المبعوثون المصريون على الارض .. فى غرفة ليس فيها دولاب أو سرير أو مكتب أو كرسى ؟

أهذا هو النظام .. أهذا هو ؟

وصفقت بيدى فى غيظ .. ثم تذكرت فجأة انى فى الاتلانتيك هوتيل .. ولست فى لوكاندة السيد البدوى وان التصفيق حتى الصباح لن يجدى ..

وذهبت أبحث عن جرس حتى وجـدته .. وظللت أدقه عدة مرات حتى جاء الخادم مهرولا .. وهو رجل أنيق مهندم ..

وقلت له باختصار ... وبامتعاض أيضا .. ان الغرفة كما يرى ... ليس بها أى شيء من وسائل الراحة ..

وابتسم الرجل ابتسامة لطيفة ونظر مرتين الى شعرى الاكرت .. ثم اتجه الى زرار فى الحائط وضغط عليه فخرج سرير كامل المعدات من داخل الحائط .. واتجه الى اليمين وضغط على زرار آخر فخرجت كنبة .. واتجه الى الخلف وشد حبلا فخرج مصبـاح ومكتب وكرسى .. واتجه الى الشـمال وضـغط على قرص فخرجت مائدة عليهـا راديو وتليفون ونوتة مذكرات واعلانات وهدايا ..

وعاد الرجل ينظر الى شعرى الاكرت ..

وابتسم .. فابتسمت فى غيظ .. وقلت له : اننا فى الشرق نفعل هذا فى السيرك .. واننـا نفعل أكثر من هذا .. نرفع أحيانا قبعة صغيرة فيخرج من تحتها فيل..

وضحك الخادم فى سذاجة .. وصدقنى .. وظـل يسألنى طويلا عن الشرق .. وعن السحر الاسـود .. وتحضير الارواح .. وظللت أكذب عليه لمدة سـاعة من فرط غيظى ..

وحينما تركنى كنت ما زلت أدور فى الغرفة مغتاظا.. أضغط على الأزرار فأعيد الأثاث الى مكانه فى باطن

الحائط ثم أضغط عليها مرة أخرى فأخرجه .. كما تخرج المصارين من بطن الأرنب ..

وشعرت بشيء من الاطمئنان حينما أتقنت هذه اللعبة وفهمتها ..

وبدأت أفكر فى النوم ..

وخلعت ثيابى .. ودخلت الحمام ..

ولكن منظر الحمام أصابنى بالذعر ..

انه ليس الحمام المألوف الذى نعرفه .. ولكنه يشبه غرفة الآلات فى باخرة .. كل شبر فى الحائط فيه ماسورة ومفتاح وحنفية .. وزر .. ورافعة .. وعجلة..

ووقفت أفكر.. وأنا أنظر الى الحنفيات الخمس التى تصب فى البانيو ..

انى أعلم جيدا ان هناك حنفية للماء البارد.. وحنفية للماء الساخن .. وتبقى بعد هذا ثلاث حنفيات ..

ووقفت أهرش رأسى وأقول : من الجائز أن تكون الحنفية الثالثة .. ماء بالصابون .. والرابعة للشاى .. والخامسة للويسكى ..

وكانت أمامى على رف الحوض مرآة مقعرة نظرت

فيها فوجدت ذقنى مكبرة ومساحتها فدان .. وكل شعرة فيها طول الشجرة ..

وفهمت ان هذه المرآة خاصة بالحلاقة الانيقة .. لتسهل عملية اقتلاع الشعر من الذقن .. ولتتبع الموسى وهو يجرى من شعرة لأخرى ..

ومددت يدى فى خوف وفتحت الحنفية الساخنة وملأت البانيو ..

ثم تمددت فيه لأسترخى وأفكر على راحتى ..

وسرى الدفء فى أوصالى .. وأحسست بالراحة وسرح فكرى فى ألف شىء وشىء .. وفجأة .. ربما بعد ساعة من السرحان .. أفقت لأرى حبلا يهتز أمامى

وتتبعت الحبل فوجدته مدلى من ثقب صغير فى السقف .. وأمسكت بطرف الحبل ..

ما فائدة هذا الحبل ؟ ..

ان المفروض أن يشده المستحم .. فيحدث شىء ما

وظللت انظر الى الحبل فى خوف وهو يهتز .. وأمسك به بين لحظة وأخرى لأشده .. ثم أعود فأتردد .. ثم أعود فأتركه .. وأكتفى بالنظر اليه ..

وأخيرا تشجعت .. وجذبت الحبل جـذبة واحدة قوية ..

واتنظرت والعرق يتصبب على جسدى العارى .. وما لبثت أن سمعت خطوات مسرعة فى الممـر .. ثم دارت أكرة الحمام .. وانفتح الباب .. ودخلت خادمة بيضاء فاتنة مثل القمر ..

لا شك ان شعر القراء قد وقف من الفضول ..

لا بأس .. سوف أشرح لهم بعض الاشياء ..

لقد فهمت ان الحبل سببه حوادث الغرق التى تحدث فى البانيو للسكارى الذين يعودون الى الفندق فى آخر الليل ويفقدون وعيهم أثناء الاستحمام .. وهو مدلى عادة فى متناول المستحم ليستنجد به اذا أوشك أن يفقد وعيه .. وأنا شخصيا فقدت وعيى ..

لا بسبب السكر .. ولـكن بسبب المفاجأة ..

... ...

... ...

النقط المتروكة هنا لها معنى آخر غير المعنى الذى يقصده احسان عبد القدوس بالنقط التى يكتبها فى قصة لا أنام .. وأنا أحذر القراء من الاسراف فى الخيال

تأملات من روما

حينما بلغت ايطاليا قادما من ميونخ كنت كأنى أنزل بدروما .. وأحسست ان بين المجتمع الالمانى والايطالى عدة درجات يهبطها السائح ..

كانت روما تبدو قديمة .. وكان نهر التيبر يبـدو كترعة الجعفرية .. مياهه قذرة راكدة ..

وكانت الشوارع ضيقة والبيوت كالحة .. والوجوه مصفرة شاحبة .. والنساء يتكلمن كثيرا .. ويحركن أيديهن كما يفعل نساء بولاق .. والشحاذون فى كل مكان ..

وبدأت أتساءل : ما الذى يجعل روما .. هى روما ؟ وأجابتنى التماثيل فى كل شارع وزقاق وميدان ..

كانت المدينـة تبدو كمتحف بدون أسوار وبدون باب .. فى كل مكان تجد تمثالا قديما ونافورة .. وفى كل شبر تجد خرابة أثرية على بابها عسكرى ..



ولو تصورت أحشاء الهرم الاكبر ، وأحشاء معـابد الاقصر وقد خرجت لتحتل ميادين القاهرة الرئيسية .. وتتناثر فى شوارعها .. فهذه هى روما ..

ان روما هى حافظة أمينة لتاريخ الفن الرومانى ..

وكل آثار الفن الخالدة فى روما أقامتها تبرعات من جميع أرجاء أوروبا بدعوة من البـابا .. ومن أجل المسيح ..

ان الفن والدين سبيكة واحدة هناك ..

فى متحف الفاتيكان تجد قصـة المسيحية مرسومة على الجدران بريشة الرسامين الـكبار أمثال ميكائيل انجلو ، ودافنشى ، ورافائيل .. وتجد تماثيل للعذراء والبابوات والقديسين ..

وفى الكنائس والمعابد تجد الكهنة ، وتجد الأصنام .. وتجد أبطال الميثولوجيا الاغريقية حولك .. كأنك تقرأ فى كتاب مجسم ..

حتى الـكاهن المصرى تجد له غرفـة خاصـة فى متحف الفاتيكان .. تقابل فيها فراعنة تعرفهم ، وملوكا قدامى من الاسرات الاولى .. لا شـك ان تماثيلهم

سرقت وعبرت البحر الى ايطاليا .. ثم يبعث للبابا وللكنيسة ..

ان النحت الفرعونى شىء آخر تماما غير النحت الرومانى .. النحت الفرعونى فهم شيئا جديدا فى فن النحت لم يفهمه الرومان .. فهم جمال الكتلة فى ذاتها .. جمال الحجر المجرد ..

انك تشاهد التمثال الفرعونى من كل الزوايا فتجد انه جميل .. وتشاهده من بعد ومن قرب .. وتتأمله وأنت لا تفهم موضوعه فترى انه جميل ..

انه قطعة من الحجارة جميلة فى ذاتها ، أما التماثيل الرومانية فتبدو من بعيد كأنها «لعبكة» لكثرة مافيها من التفاصيل والحركات ولتعدد الشخصيات فى كل تمثال .. ولا بد لك من أن تقترب وتطابق بين الاثر وموضوعه وتفهم قصته لتستمتع بما فيه من فن ..

انها تقدم واقعية سطحية تقف عند حدود الجسم وعضلاته وتفاصيله .. وتكتفى من انسان بحركة رشيقة أو انفعال عارض ..

أما الفراعنة فيقدمون فى نحتهم الانسان كله ..

الانسان فى شموخه وعناده .. وفى سماته الباقية من خلف التحولات والانفعالات والحركات الطارئة ..

ان النحات الفرعونى يمسح أثر الزمن من على وجه تمثاله ويمحو من عليه كل ما هو مؤقت .. ثم يسويه فيبدو كأنه البشرية كلها فى خلودها .. وفى حركتها التاريخية العنيدة ..

وقطع النحت الفرعونى .. قطع زخرفية تكشف عن احساس الفراعنة بالشكل والخطوط والعلاقات الهندسية الجميلة ..

لقد فهمت النحت الفرعونى فى روما .. ولم أفهمه فى مصر ..

وفى كنيسة القديس بطرس وجدت نفسى تحت قبة هائلة من الرخام .. وفى تحفة خرافية من تحف البناء ..

كانت صور ميكائيل انجلو منقولة على الموزايكو.. فى دقة وصبر مذهل .. وتماثيل الملائكة والعذارى والشياطين والبابوات تنظر الى من الجدران ..

ودفعت ستين ليرة لأتفرج على المتحف البابوى ..

ودخلت سردابا يحتوى على أرواب وقلانس وصلبان

وتيجان من الذهب .. كل تاج منها يزن بضعة أرطال .. ومصاحف مذهبة ضخمة فى حجم الدولاب .. وجواهر نادرة ..

وعجبت لهذا البذخ الاسطورى ..

كل هذا البريق الخاطف .. والذهب .. والماس .. والمجد.. والسلطان.. هى ممتلكات للبابوات الزاهدين الذين تركوا الدنيا خلف ظهورهم ..

مساكين هؤلاء البابوات ..

ان هذه التيجان الذهب حملها ثقيل فعلا ..

وفى الخارج كنت أسمع صوت التراتيل .. وكانت هناك راهبة توقد شمعة حول مقبرة القديس بطرس.. وتتمتم فى خشوع .. وكان كل الناس راكعين ما عدا أنا .. والبواب ..

وعدت وأنا أفكر طول الطريق ..

وجلست فى مقهى على الرصيف فى بيازا باربيرينى أمام النافورة الشهيرة وأنا أفكر أيضا ..

كنت أفكر فى كيف تصبح القاهرة مثل روما ..

واكتشفت بعد لحظات انى أفكر بعقلية الخديوى اسماعيل ..

من السهل أن تصبح القاهرة روما فى ثلاثة شهور اذا جمعنا فننا الكلاسيكى وألقينا به فى الميادين ، ولكن هل هذا يقدمنا كثيرا ..

انه يجعل من القاهرة بلدا قديمة ومتحف ذكريات ..

ولكن التقدم شيء أكثر من مجرد متاحف ..

ان مفتاح التقدم فى هذا العصر هو الصناعة ..

ان الطبق والملعقة والكرسى والموقد والمصباح وقرص الدواء .. منتجات صناعية ..

والماء والصابون والخبز والكهرباء والغاز عمليات صناعية ..

والزراعة تحولت بالمحاريث الميكانيكية الى عملية صناعية ..

والتعليم تحول الى عملية صناعية حيث ينتشر الفكر والادب والثقافة والفن عن طريق المطابع وآلات اللينوتيب والانترتيب والتيكر والراديو والتليفزيون والسينما ..

حتى كلمة النظافة فى مدينة أصبح معناها الحقيقى صناعى .. فليست النظافة سوى نتيجة ألوف الانابيب

والمجارى والبـــلاليع الممـــدودة فوق الارض وتحت الارض لصرف القاذورات ..

والرجل الذى قال لى فى المانيا ان هناك علاقة بين الحضارة فى بلد واستهلاك مواسير الصلب فيها لم يكن مخطئا ..

والتاريخ يكشف لنا عن العلاقة بين الصناعة والقوة .. فالشيء المشترك الذى تتشابه فيه كل المستعمرات .. انها تعتمد كلها على الزراعة .. ومجتمع زراعى يساوى فى هذه الايام مجتمعا ضعيفا ..

ان الصناعة لها معنى واسع ..

انها تعنى الحرية .. لأن الآلة تحرر الانسان ، وتوفر له أثمن ما يمتلك .. الطاقة والوقت والعمر.. وتحرر الشعوب بمنحها القوة ..

والنظرية القائلة بأن الصناعة تؤدى الى مجتمع آلى وانسان آلى كاذبة من أساسها .. لأن الصنـــاعة فى الحق تأخذ على عاتقها الواجبـــات الآليـــة .. وتترك للانسان مجالاته الابداعية ..

ان الحضارة تقوم على ساقين : أحدهما الكتب ..

والآخر المصانع ..

فى الكتب توجد الغايات .. توجد الآداب والعلوم والفنون .. وفى المصانع تصنع الوسائل الى هذه الغايات ..

ونحن فى حاجة الى هاتين الساقين لنتقدم ونسبق روما وبرلين ولندن ..

كنت أفكر فى هذه المشكلات وأنا أتأمل نافورة البيازا باربيرينى التى تخرج من تمثال نصفه رجل ، ونصفه سمكة .. وأمامى طفل ايطالى يشحذ .. ويوزع النعناع على الجالسين بنفس الطريقة التي يتبعها الشحاذون هنا فى مصر .. وفى الناحية الاخرى الجرسون يطالبنى بقائمة حساب تصل الي ستين قرشا في مقابل فنجان القهوة ..

وكان من الواضح انه أضاف ليرات كثيرة الي الحساب لأن شعرى أكرت وشكلى افريقى يغري بالإستغفال ..

ورفضت الدفع .. وقلت ان هذا نشل علني علي قارعة الطريق ..

ووقف الجرسون يرطن ويلوح بيديه ويمط شفتيه كما يفعل الطلاينة الجرابيع فى أفلام دى سيكا ..

واجتمع الجرسونات يلوحون بأيديهم بما معناه .. انى رجل بدائى .. لا أفهم معنى القهـوة فى البيـازا باربيريني .. فى روما بلاد الفن والجمال ..

وقلت انى أفهم معنى القهوة .. وأفهم أيضا وظيفة البوليس الايطالى ..

وتدلت شفة الجرسون المحتال .. واتضح ان القهوة فى ايطاليا قابلة للفصال تماما مثل أسعار المنـاديل فى شارع الازهر ..

وتركت المقهى .. وأنا أعد الليرات الباقية فى جيبى .. والساعات الباقية على قيام الطائرة .. وأفكر فى أرخص شىء أشتريه ..

ووجدت بعد سـاعة من الجمع والطرح ان أرخص شىء .. هو التأمل .. والمشى .. والاعجاب من الظاهر .. من ظاهر الفترينات ..

ووقفت أمام فاترينة كبيرة متألقة .. أفكر ..

لقـد فكرت فى النحت الفرعونى .. والروماني ..

وفكرت فى الصناعة والحضارة .. والآن أجدنى أفكر على الرغم منى فى التجارة .. فى تلك المهنة الغريبة التى تربح بدون تعب ..

ما على التاجر الا أن يسلم البضاعة فيكسب أكثر من الذى يصنعها ..

وهو يستطيع ان يتاجر فى القماش .. وفى الحديد.. ويستطيع أن يتاجر فى العملة .. ويستطيع اذا تخصص فى فن البورصة .. أن يبيع عمليــات البيــع نفسه .. فيكسب مليون جنيه فى لحظة واحــدة بمجرد عقــد صفقات وحل صفقات .. وبدون جهد يذكر ..

ان أى شىء تمسه التجارة يتحول الى ذهب ..

كاتب الاعلانات يكسب أضعاف كاتب القصــة لانه يعمل فى بلاط صاحبة الجلالة التجارة ..

وبائع نوتات بيتهوفن يكسب فى اليوم ما لم يكسبه بيتهوفن طول عمره .. لانه بائع ..

ان التجارة مهنة غريبة تقلب قيم الاشياء .. تجعل من العمل قيمة مفلســة .. وتصنــع أباطرة مزيفين من أصحاب الدكاكين ..

وشخشخت بالليرات القليلة التى فى جيبى .. والتى لا تصلح لشىء ..

مائة ليرة ..

ماذا تصنع فى ايطاليا .. ؟!

انها لاتكفى بقشيشا على مسحة حذاء .. !

وأسرعت أهرول الى المطار عائدا الى بلادى أحمل أخف حقيبة حملها سائح .. حقيبة بها هــدية واحدة الى أصدقائى فى القاهرة .. صفحتين من التأملات على شاطىء التيبر ..

فلسفة الجسم العاري

طبيعى جدا أن يتوقف الشرقى الذى جاء من بلاد البراقع والعبـاءات أمام هـذه الوفرة من الاجسـام العارية المعروضة فى الفاترينات ..

وكل شىء فى باريس يعرض بلغة الجسم العارى .. اعلانات القمصـان .. اعلانات العطـور .. الدعايات السياسية .. آخر دواء منوم .. حتى طوابع البريد .. تصدر لك مصلحة البريد طابعا عليه رسم عريان

وليست الدوافع سـياحية فقط .. فالبـاريسيون أنفسهم فى هذا الشهر الشديد البرودة وهو ليس شهرا سياحيا يملئون مسارح الستريبتيز فى البيجال ويحتلون الصفوف الاولى ليتأملوا العروض العارية فى اهتمام شديد .. اهتمام ليس منبعه الحرمان الجنسى .. ولا الفضول الشرقى لرؤية الاعضاء التناسلية .. فالاختلاط في باريس هو القاعدة والعلاقات ميسورة ، وانما منبعه



فلسفة باريسية .. اسـمها فلسـفة الجسم العارى .. فالجسم العارى هنا لغة مثل الادب والموسيقى لهـا نقاد ..

والفرنسـيون من رواد البيجال يتابعون العروض العارية بكل برود وهم يدخنون فليس ما يعرض بالنسبة لهم موضوعا للاثارة ولكنه موضوع للنقد ..

وما يعرض على المراقص الاخرى بهدف التعبير عن الجنس يعرض بفن رفيع يبعد العين تماما عن التفكير فى الاثارة .

انها فلسفة الجسم العارى .. اعتياد العين على رؤية الجسـم العارى نقـل التفكير من موضـوع الاثارة الغريزية الى موضوع التأمل الذهنى البحت لـكل ما يمكن أن يرى فى الجسد العارى من علاقات جماليـة بحتة ومعانى مجردة .

ومع ذلك فليسـت باريس هى ملاهى السـتربتيز والخنافس فبرغم جاذبية هـذه الموضـوعات للكتابة الصحفية والقراء الشرقيين .. الا ان باريس شىء آخر

فى باريس أكثر من ثلاثمائة مسرح تعرض أحـدث

ما وصلت اليه مبتكرات الاذهان من فن رفيع بعيد عن الاغراء خال من اسفاف التجارة .. وفى باريس عشرات المتاحف وعشرات المكتبات العامة تحوى مخطوطات نادرة يسافر اليها الدارسون من كل مكان .

فى باريس آثارنا الفرعونية معروضة بذوق اجمل مما هى فى متحفنا القديم الذى يشبه ــ من كثرة تكدس التحف فى أروقته بلا نظام ــ صندوق زبالة كبير .

ونجد فى باريس مخطوطات ابن سينا وجابر بن حيان ونفائس غوال من تراثنا العربى لا نجدها فى بلادنا ..

وتجد فى باريس صحفا جادة تنشر مقالات مطولة مدعمة بالاحصاءات والهوامش والدراسات والتعليقات العميقة والمناقشات الحرة .. صحفا لها رواج ولها قراء بمئات الآلاف .

واذا كان الباريسى يسكر طينة ليلة رأس السنة فهو يعمل بيديه وأسنانه طول العام .. والقبلات المباحة فى المترو هى المكافآت المشروعة التى أحلها الاوروبى لنفسه بعد عمل دائب مرهق ومخلص فى المصنع طول النهار .

وفى باريس أكثر من ٦ ملايين ساكن ولا زحام ولا تعلق بعربات المترو .

وفى باريس أتوبيسات قديمة «كهنة» ولكنها مازالت تسير بكفاءة نتيجة الاشراف الدائب والصيانة المستمرة .

باريس ليست مدينة دعارة كما يحلو للفرد الشرقى ان يسميها .

باريس كالمرآة سوف تعكس لك ما فى نفسك .. فاذا لم تر فيها سوى الدعارة فلأنك داعر ليس فى رأسك سوى الدعارة .. وليس الذنب ذنب باريس وانما الذنب ذنبك .

وأنا رأيت فى باريس بيئة خصبة غنية تنشط الذهن على العمل .

ولم أر فى الافراط الواضح فى عرض الجسم العارى اثارة ..

ولم أر فى قبلات المترو دعارة .

وانما هو الوجه الآخر من العمل المضنى .

وباريس ليست غالية ذلك الغلاء المخيف الذى نسمع

عنه .. فيمكنك أن تؤجر غرفة بمدفأة فى دور خامس أو سادس بخمسة عشر جنيها فى الشهر وتدبر لنفسك طعاما طول اليوم بنصف جنيه ، وما تبقى فى يدك من مصروف تنفقه فى المواصلات وفى سهرة أسبوعية بأحد المسارح الرخيصة التى تشرف عليها الدولة .

ومتحف اللوفر مفتوح لك مجانا يوم الاحد ومكتبات الجامعة مفتوحة لك مجانا طوال أيام الاسبوع .

وجميع الصحف تقرأها مجانا فى السفارة وتستطيع أن تحلق شعرك بنفسك بمشط خاص يباع بأربعة فرنكات ؛ وتغسل ثيابك فى غسالة عامة كل أسبوع بفرنك ونصف الفرنك أى حوالى عشرة قروش .

واذا كنت تتمتع بصحة جيدة وتستطيع ان تخبط مشاوير طويلة يمكنك ان توفر فرنكات المترو وتعتمد على قدميك فى ذرع باريس طولا وعرضا ويمكنك أن توفر وجبة من طعامك وتعتمد على وجبتين واذا أفلست تكتفى باللبن والتفاح وهى أرخص مواد غذائية «كيلو التفاح بفرنك أى عشرة قروش» والنبيذ أرخص من الاثنين .

وأغلى ما فى باريس الطبيب والكوافير والمطعم الذى يخدمك فيه جرسون والمحلات التى تبيع الاشياء النسائية والتاكسى والأماكن الارستقراطية .

وأنت أخيب السياح جميعا اذا نزلت باريس بعقلية الشرقى لتصطاد امرأة .. فأنت لن تعرف باريس أبدا.. وأولى بك أن توفر نقودك وتظل فى بلدك ففيها الكفاية من النساء .

ولا تخدعك الافيشات العارية والافلام العارية ومسارح بيجال العارية .. فهى عند الفرنسيين فلسفة وليست اثارة .. لغة عادية يومية فقدت معناها الجنسى وان كانت ما زالت تحتفظ بالشكل الجنسى .

نصيحة واحدة مهمة أن تتعلم اللغة الفرنسية فهى شىء هام وضرورى فى باريس .

أقوال غير مأثورة :

---

* فى القاهرة تجد بين كل مقهى ومقهى .. مقهى
وفى بيروت تجد بين كل كباريه وكباريه .. كباريه
وفى سويسرا تجد بين كل بنك وبنك .. بنك
وفى باريس تجد بين كل افيش عارى وافيش عارى

.. افيش عارى

وفى طنطا تجد بين كل جامع وجامع .. جامع

* من أدلة الرخاء فى بلد أن تجد زحاما شديدا فى المكتبات وطوابير على أبواب المسارح فهذه أشياء لا يفكر فيها الناس الا بعد أن يشبعوا

* اذا دخلت باريس وكان أول ما خطر لك .. كيف أقضى ليلة حمراء هذا المساء .. فأنت لم تسافر الى باريس .. انت انتقلت من محطة الى محطة داخل نفسك .. ما زلت تحمل اهابك الشرقى وجلدك ومدنيتك القديمة معك

* ما أجمل رؤية القاهرة من بعيد .. من ميدان الكونكورد .. وشارع الشانزليزيه وشارع دونج ستريت

* اذا دخلت متحف الشمع فى باريس فسوف تفاجأ برؤية تمثال بالحجم الطبيعى لموشى ديان الى جانب تماثيل نابليون وفولتير وروسو .. وفى الصحف وفى التليفزيون وفى الاذاعة سوف تسمع نبرة مختلفة كثيرا عن نبرة ديجول الودية . والفرنسيون

ما زالوا يعطون آذانهم للصهيونيـة أكثر ممـا يعطونها لديجول .. وعلينا أن نضـاعف العمـل والنشاط لنكسب هذه الآذان الى صفنا ولا نعتقد اننا كسبنا فرنسا لأن ديجول معنا

* أرخص شيء فى باريس هو الرسم .. تستطيع أن تشترى لوحة رائعة لفنان ناشيء يرسم فى المونمارتر بعشرة جنيهات

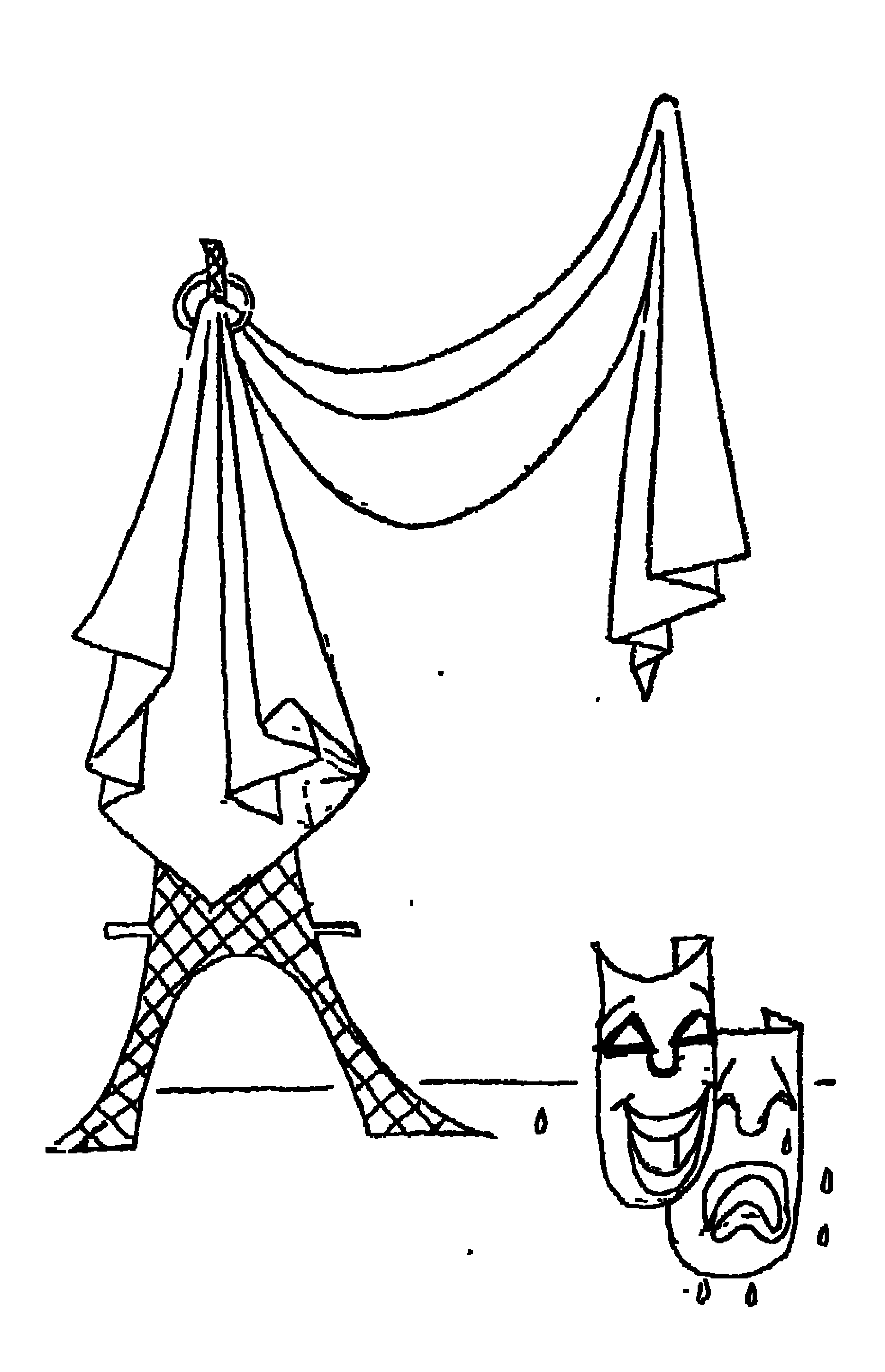
الويل لمن يبدأ حياته رساما فى باريس انه سـوف يظل طول حياته يصعد من سلم الخدم

* حذار أن تعمل نجارا فى فرنسا .. فغرفه الصالون موبيليا فاخرة تباع فى باريس بثمانين ومائة جنيه . وغرفة النوم بمائة جنيه وبالتقسيط

روايات تتحدث عنها باريس

ظاهرة هامة فى مسـارح باريس انها تعرض هـذا الموسم روايات مترجمة .. لا توجـد مسرحية واحدة محلية مؤلفة .. ظاهرة ثانية ان كل هـذه المسرحيـات تتناول مشكلة الله والانسان والوجود لتنتهى الى نتيجة واحدة .. ان لا أحـد يرعانا فى السماء .. وان الله فى اجازة بالنسبة لكتاب المسرح ورواده وبالنسبة لسماء فرنسا على الأقل . .

فى مسرحية « مقبرة العربات » للمؤلف الاسبانى « ارابال » نرى الديكور لا يتغير طول العـرض هو خرابة قذرة تتراكم فيها العربات القديمة ، مجرد هياكل عربات يعلوها الصدأ ملقاة فوق بعضها .. ثم نفهم أن ما نراه هو لوكاندة وان صـاحب اللوكاندة يؤجـر غرفاتها بأجر زهيد لمن يريد أن يقضى ليلة مع صاحبته ونرى ان صـاحب اللوكاندة يسـتغل هـذه الغرف



ويستغل زوجته أيضا .. فعلى زوجته مادلين أن تضاجع نزلاء اللوكاندة عند اللزوم .. واذا رفضت فهو يضربها ثم يدفع بها الى الغرف لتعود اليه بأجر مضاعف ونفهم ان جميع العلاقات الجنسية في هـذه الخرابة الكبيرة تمارس كوسـيلة لقتل الوقت أو للتجارة أو اللهو أو كلون من الغرور واستعراض القوة أو اذلال الرجـل للمرأة أو المرأة للرجل .. لا أحد يمارس الجنس للحب .. ولا يوجد الحب على الاطلاق .. كل جنس ينجذب الى الجنس الآخر بدافع اللذة المؤقتـة أو المنفعة أو استعراض العضلات أو اللهو .. حتى يظهر المسيح .. ومسـيح القرن العشرين الذى يظهر عام ١٩٦٨ هو مسيح عصرى جدا .. فهو يمارس الجنس .. ونراه فى أحضان مادلين « مريم المجدلية » ولكننا نفهم انه يفعل هذا لأنه يحبها .. وان لا شيء يحركه نحو الجنس سوى الحب وانه الرجل الوحيد الذى يمارس الجنس للحب فى هذه الخرابة الكبيرة المليئـة بالقاذورات .. ولأنه الرجل الوحيد الذى يحب نرى جميـع الرجال الآخرين يتآمرون عليه لأنه سوف يفسد عليهم حياتهم

وملذاتهم السهلة ثم يبلغون البوليس عنه ليتخلصوا منه ..

ويدهم رجال البوليس الخرابة فتخرج لهم المجدلية عارية تماما حتى تشغل أنظارهم عنه .. ولكنهم يقبضون عليه ويصلبونه ..

وفى مناظر سريعة ساخرة بعد هذا نرى نشأة الكنيسة ثم تحللها وانهيارها ونرى تحول النصوص الدينية فى يد الكهنة الى محفوظات واجراءات روتينية بيروقراطية ..

نسينا أن نقول ان جميع أبطال المسرحية عراه ملطـ الا من ورقة توت من أول المسرحية الى آخرها .

وتنتهى « مقبرة العربات » لنرى مسرحية ثانية قصيرة لنفس المؤلف « ارابال » وعلى نفس الديكور وفى نفس الخرابة .. نرى رجلا وامرأة أشبه بريا وسكينة وقد تعودا أن يقتلا فى كل ليلة ضحية .. ولكنهما هذه الليلة وبعد ارتكاب جريمتهما يفكران فى الاقلاع عن هذه العادة السيئة ويحاولان أن يكونا مواطنين طيبين .

وتسأل المرأة : ماذا نفعل لنكون مواطنين طيبين .

ويبدأ الرجل يقرأ من الانجيل آيات عن الفضيلة والسلوك الطيب ..

وبعد تلاوة طويلة .. تقول المرأة : يا لها من حياة مملة .. ان معنى هذا اننا لن نجد ما نفعله ..

وتبدو البلادة على وجه الرجل .. انه لن يجد ما يفعله .. ان هذا يبدو واضحا ..

وينتهى الفصل الواحد القصير وقد فهمنا ان الاثنين سيعودان الى جريمتهما كل ليلة . وان تلك الخرابة الكبيرة ـ الدنيا فى نظر المؤلف ـ ليس فيها ما يثير بالنسبة لسكانها سوى لذة الجنس ولذة القتل وما يبقى بعد ذلك فهو أمر ممل يدعو الى التثاؤب ولا يستحق مجرد التفكير فيه ..

واذا تركنا مسرح الفنون حيث التقينا « بأرابال » وذهبنا الى المسرح القومى فاننا نرى « برخت » فى آخر عمل له « الأم » .. يحاول أن يلحق بركاب الساخطين ..

وبالرغم من ان المسرحية مأخوذة من رواية جوركى

« الأم » وبالرغم من ان الشيوعيين يتجنبون الخوض فى مسائل الدين .. الا ان برخت لايريد أن تفوته هذه الحمى دون أن يساهم فيهـا . ونراه فى أهم منظر فى المسرحية حينما يبلغ الأم نبأ مقتل ابنها رميا بالرصاص وهو يوزع المنشورات الشيوعية ويثير الاضرابات فى فنلندا .. تسقط الأم مغشيا عليها .. وتدخل جاراتها لاسعافها ..

وفى محاولة من الجارات لتعزية الأم .. يقدمن لها الانجيل فترده بأدب فى البداية قائلة : انه كتاب جميل ولكنها لن تجد فيه تعزية .. فتقول الجارة : ان لها أبا فى السماء يرعانا جميعا .. فترد الأم قائلة : انها تعرف ان فى السماء غازات منها الاكسجين والنتروجين ولكن ليس فيها غاز اسمه الأب السماوى ..

ــ ولكن الله يكتب علينا الموت وكل ما نعانيه فى حياتنا الدنيا قدر مكتوب ألا تؤمنين بذلك أيتها الأم الطيبة ..

ــ ان ما تعلمته ان الانسان هو الذى يخط قدره بيده ..

ـ ألا تصدقين ما فى الانجيل ..

ـ لو صدقت أنت ما فى الانجيل وعملت بما فيه لما طردت ناتاليا المسكينة لأنها لم تدفع لك ايجار غرفتك ..

ـ لقد تأخرت فى دفع الايجار ثلاثة شهور .. والانجيل يوصينا بأن تؤدى الحقوق الى أصحابها ..

ـ ويوصينا أيضا بالرفق بالضعفاء والمحبة والعمل من أجل الآخرين ..

وفى محاولة كل من الاثنتين اثبات وجهة نظرها يتمزق الانجيل بينهما .

وبالرغم من امتلاء المسرح لآخره وتصفيق اليساريين المتحمسين .. الا ان تعليق النقاد على المسرحية انها أفشل وأتفه ما كتب برخت . وان مناقشة برخت لمشكلة وجود الله كانت سطحية ودون المستوى ..

والملحوظ انه فى الوقت الذى تكاد تكون فيه مسرحيات برخت مسرحيات مقررة على الدول الاشتراكية فانه الآن فى فرنسا يلفظ أنفاسه ككاتب مسرحى دعائى ساذج من الدرجة الثانية .

واذا تركنا المسرح الى السينما فاننـا نرى الموجة الجديدة تكتسح باريس ..

وفى فيلم « نهاية الاسبوع » لجودار وهو رائد الموجة الجديدة .. نرى محاولة شديدة التطرف ..

يبدأ الفيلم بحوار بين الزوج وزوجتـه .. الزوجة تعتذر عن الخروج مع زوجهـا لأنها مريضـة بنزلة شعبية .. ونفهم بعد هذا ان الزوجة كذبت لأنها تريد أن تلتقى بعشيقها .. ونرى ان الزوج هو الآخر قـد استفاد من الفرصة فذهب الى عشيقته ..

وبعـد قطع سريع تذهب بنـا الـكاميرا الى بيت العشيق .. ونرى الزوجة عارية تحكى لعشيقها اعترافا مفصلا عما دار فى الليلة المـاضية .. حينما كانت هى وزوجها وروبير وزوجته معا .. وكيف تبادل الازواج الزوجات .. ونام كل منهمـا مع زوجة الآخر .. ثم تفاصيل دقيقة عن شذوذ روبير وعن أساليبه المنحرفة فى الفراش .. حوار طويل مفصل يستمر خمس دقائق ينتهى بأن يقول العشيق وهو يأخذ الزوجة بين ذراعيه لنكرر بالضبط ماذا فعل روبير .

فاذا كنا فى اليوم التالى فنحن مع الزوجين فى فسحة نهاية الاسبوع وقد استقلا عربتهما الانيقة فى طريقهما الى الأم فى الريف ..

والطريق الزراعى مزدحم وفيه مئــات العربات .. باريس كلها خرجت اليوم فى فسحة نهاية الاسبوع .. وهناك حادثة على الطريق .. والمرور معطــل .. وكل صاحب عربة يلعن ويســخط : « آلم يكن يريد أن يموت الا اليوم .. لماذا لم يمت فى يوم آخر ويريحنا » لا أحد يفكر الا فى نفسه وفى الوصول الى هدفه قبل الآخرين ..

وينفتح الطريق بعد ساعات لنرى حادثة تصادم بشعة ذهب ضحيتها أطفال وشبــان وبنات قتلى على جانبى الطريق .. ولكن لا أحــد يتوقف لينظر وانما تمرق العربات فى سرعة خاطفة ويذهب كل واحد الى حاله..

ولكن المــأساة لا تنتهى وانما تبدأ .. فعلى جانبى الطريق عربات محطمة محترقة وحوادث وقتلى فى كل شبر من الطريق .. حادثة بعد حادثة ــ ونفهم من ذلك ان المؤلف يرمز الى النيران المشتعلة على الجانبين فى

فيتنام والكونجو ونيجيريا والشرق الاوسط والقنابل التى تتساقط ، والضحايا الذين يسقطون فى كل مكان بينما الناس فى أوروبا يتبادلون القبلات على الارصفة ويخرجون فى فسحة نهاية الاسبوع ومعهم سندويتشات الدجاج وزجاجات الويسكى كل منهم يضحك ملء فمه كأن لا شيء يحدث حوله .. !

ثم يفاجئنا المؤلف بقاطع طريق يقطع الطريق على عربة الزوجين ثم يقفز الى داخل العربة ويقول فى هدوء للزوج : « انه الله » .. وانه يريد الذهاب الى لندن.. وينظر الزوج فى سخرية الى هذا الرجل الذى يدعى بكل تبجح انه الله .. وفى حركة مثيرة يبسط الرجل يده ويمدها الى السماء ثم يفتحها فاذا بداخلها أرنب سمين عظيم .. ويضحك الزوج .. ويقول الرجل انه مستعد لأن يجيب لهما أى طلب حتى لو أرادا الجنة ذاتها اذا أوصلاه الى لندن .. ألكما فى طلب أى طلب ؟ ..

ويفكر الزوجان ويقدحان زناد فكرهما ، ثم ينفجر الزوج قائلا : عربة مرسيدس عام ١٩٦٨ وتنفجر

الزوجة متوسلة : فستان سواريه من محلات كونياس
ويصرخ الله فى ازدراء : ولكنك يا رجل تملك الآن
عربة مرسيدس عام ١٩٦٥ .. وانت يا امرأة عندك
خمسون فستانا سواريه .. وهذه فرصة ذهبية لم تتح
لبشر .. تلتقيان فيها بالله وتطلبان ما تشاءان فلا تخطر
لكما الا هذه المطالب البرجوازية التافهة . بصراحة
يا بشر .. أنا أحتقركم جدا ويبصق الله فى احتقار
ويقفز نازلا من العربة .. ويصرخ الزوجان : اثبت لنا
انك الله .. اننا نشك فى أمرك .. احدث لنا معجزة ..
فيجيب الله وهو يختفى : أنتما أحقر من أن أثبت لكما
وجودى ..

وفى طريق الحوادث والحرائق تنتهى عربة الزوجين
الى حادثة فتحترق هى الاخرى وينجو الزوجان ليهيما
على وجهيهما جائعين يطلبان اللقمة فلا يجدانها ..
ويحاولان توقيف أى عربة فلا يقف لهما أحد .. فكل
واحد لا يفكر الا فى نفسه ..

وفى النهاية تقف لهما عربة زبالة يقودها زنجى ..
وترى الزنجى يقضم قضمات كبيرة من سندويتش فى

يده .. فيطلب منه الاثنان لقمة فيعطيهما « فتفوتة » ..
ـ ولكن هذه « فتفوتة » ! ..

ـ انها بالضبط ياسيدى نفس النسبة التى تعطيها لى أمريكا من خيرات الكونغو ..
وعلى عربة الزبالة يصلان الى بيت الأم فى الريف ..
بيت أنيق فى وسط ضيعة ..

والأم غنية ولها أطيان ومزرعة لتربية الدواجن ولا تريد أن تعطيهما شبرا من أملاكها ..
وحسب الوصية لابد أن تموت الأم ليرث الأبناء ..
والأم عجوز ولا تريد أن تموت ..

ويقتل الاثنان الأم ويرثان الضيعة ..
ونسمع على الحشيش فى الحديقة المجاورة شابا يقرأ من كتاب شعر فى يده :

ـ متى يمنحنا الله ساعة صفاء ؟
ويجيب علينا الفيلم كله .. وهذا ما حدث حينما منحكم الله ساعة صفاء .. وخرجت مدينتكم الظالمة لتمرح ..

وينتهى الفيلم بهجوم الهنود الحمر وحشود يأجوج

ومأجوج وعصابات من البرابرة البيض والصفر على هذه المدينة الظالمة التى تمرح ..

ونرى مناظر ختامية لعالم خلا من الله والقانون والمحبة والنظام .. مناظر تصل الى ذروة فى البشاعة.. والفوضى والقتل والاباحية .. النهاية التى يتوقعها المؤلف لحضارة القرن العشرين ..

وهذا هو الفيلم الذى يعرض فى خمس سينمات فى وقت واحد فى باريس ويدور حوله الجدل العنيف ..

وفيه كما فى مسرح « ارابال » النذير المشئوم .. ونفس النبرة المقبضة .. بأن أوروبا تعيش فى عالم بلا إله .. وبلا أمل .. وانها على حافة الهاوية ..

لقطات من لندن

فى هايدبارك سمعت هذا الحوار الطريف :

الخطيب شاب أسود افريقى ثائر والمستمعون عدة مئات من الانجليز والبيض من مختلف الجنسيات ..

والخطيب ينقد بشدة الاوضـاع داخل بريطانيا .. رأس المـال المتحكم وتجار السـلاح ونهب الشعوب وامتصاص دم المستعمرات فى الوقت الذى يرفض فيه أى صاحب عمل تشغيل السود ويفضـل عاملا أبيض سكيرا مدمن مخدرات مصابا بالشذوذ الجنسى لمجرد انه أبيض ..

ويرد عليه خنفس من الواقفين شعره ناعم ومسترسل حتى كتفيه :

ــ اذا كانت لا تعجبك بلادنا فلماذا لا تعطينا عرض اكتافك وتحل عنا وتعود الى بلاد القرود التى تعيش فيها .. أراهن أن لك ذيلا تخفيه تحت هـذه العبـاءة



الحمراء الفضفاضة التى تلبسها « ضحك » ..

ـ أنا لى ذيل فعلا ولكن ليس من الخلف وبالمناسبة ياسيدى أو سيدتى .. فى الواقع أنا فى حيرة .. هل انت رجل أو امرأة

« ضحك وتصفيق » .

ويرد الخنفس فى هدوء :

ـ أنا أناقشك على مستوى سيابى أرجوك ألاتخرج عن الموضوع .. لقد طرحت عليك سؤالا محددا فلم تجبني عليه .. اذا كنا لا نعجبك فلماذا لا تغور فى داهية وتريحنا ..

ـ أنا مستعد أن أغور فى داهية وأعود الى بلادى. اذا غار فى داهية اثنان ونصف مليون انجليزى متشرد هلفوت يعملون فى قارتى افريقيا .. دخلوها دون دعوة ودون استئذان .. دخلوها قفزا من النوافذ .

ـ دخلوها ليعلموك ويمدنوك ..

ـ علمونى الوصايا العشر وقالوا لى : لا تسرق .. لا تسرق السيجارة ورأيتهم يسرقون حقول التبغ كلها وحقول الشاى والقمح والقطن ومناجم الذهب

والحديد ويسرقون أولادى ويبيعــونهم فى أســواق النخاسة .. لا تقتل جارك ورأيتهم يقتلون بدل الجار مليون جار بالقنابل الذرية .. لا تزن مع امرأة ، ورأيتهم يزنون مع الرجل . . .

ــ لا تنسَ أننا دخلنا افريقيا لنجدكم عراة برابرة نيام نيام آكلى لحوم البشر .

ــ انه لأمر مؤسف ياسيدى اننا أقلعنــا عن أكل لحم البشر .. فالواقع انى أرى انك أكلة شهية جدا .. دجاجة لذيذة تغرى بالقضم « ضحك وتهريج » .

ويرد الخنفس فى هدوء :

ــ ألم يكن من الأولى أن تأخذ أمك العزيزة أقراصا لمنع الحمل حتى لا تلد خنازير وغوريلات مثلك .

ــ يبدو ان الكثيرات من الانجليزيات الجميــلات من أهل بلدك لهن وجهة نظر أخرى فهن يفضلن صحبة الخنازير والغوريلات أمثالنا .

ــ رد على ردا سياسيا .. قل لى ماذا يحدث لو أن الرجل الابيض حمل ما بنى لــكم من مدارس ومصانع ومستشفيات وعاد الى بريطانيا . وماذا يحدث لبريطانيا

لو حملتم أنتم اختراعاتكم ومبتكراتكم وعدتم بها الى الغابة .. ياسيدى ، الرجل الاسود صفر .. وهو غير موجود فى بلادنا ووجوده مثل عدمه . أما نحن فاذا هجرنا بلادكم فانها سوف تتحول الى خراب لأننا نحن الحضارة .

ـ الحضارة بدأت من افريقيا .. من مصر ، اذا كنت قرأت التاريخ .. وهى سوف تعود الى افريقيا .. الحضارة تنتقل حيث يحلو لها وحيث يوجد من يعمل لها ويسهر من أجلها ويعرق من أجلها وليس حيث تسهرون أنتم فى البارات وفى صالونات الحلاقة تحت اكشسوارات « ضحك من البنات » .

وبين الجمهور عشرات من البنات سن ستاشر يتابعن ويتحمسن ويشتركن فى المناقشات .

ولندن الآن تحولت الى هايد بارك كبيرة .. فى كل خطوة تسمع نقاشا حادا فى السياسة .

ولا يدور فى ذهن الناس الا السياسة .

فى الصحيفة ، فى الكتاب ، فى الاذاعة ، فى التليفزيون فى المسرح ، فى السينما ، نفس القلق ونفس الاسئلة

والكابوس الجاثم الذى اسمه اليمين واليسار .

والفيلم الذى بروج هو الذى يضيف تحليلا جديدا الى الموقف السياسى .

فى فيلم ايطالى للمخرج بارتولوتشى يعرض الآن فى لندن وباريس نرى الازمة السياسية مطروحة بطريقة جديدة .

وبطل الفيلم عضو فى الحزب الشيوعى ، من ذلك النوع المتحمس الذى ينتقد كل شىء ولا يرضى عن أى شىء .. وأى تهاون فى نظره خيانة .. وأى انحراف جريمة تاريخية .. وأى تشاؤم اثم لا يغتفر .. وأى تردد بورجوازية .. وأى اعتدال رجعية .

ونراه يحمل شعار « انت بورجوازى » يلقى به فى وجه كل من يقابله .. وعينه مفتوحة كعين الصقر تلتقط كل ظاهرة بورجوازية من تسريحة الشعر الى ربطة العنق الى الحذاء اللميع الى بذلة السهرة .. لقد تعلم جيدا الدرس الذى سمعه من سيزار فى الحزب . ما هى البورجوازية .. حب المظاهر الفارغة والفخفخة وجنون الموضات والجرى وراء الالقاب والشهرة

والخضوع للـذوق العام ومحاولة الانتساب للطبقة الارستقراطية وتقليدها .. العجز عن الخروج من قبضة العرف والعادة والخوف من مخالفة رأى عام ولو كان خطأ . تقييم كل فرد بما فى جيبه .. الجبن أمام المسئولية والقاؤها على الآخرين .. احترام المنصب وليس العمل .. الفردية ، السلبية ، كل هذه سمات البورجوازى .. وعليه أن يكتشفها ويفضحها ويحاربها ، فالبورجوازية هى عدوة الثورة والاخلاق البورجوازية هى التى تقعد بالشعب عن بلوغ أهدافه. والأخلاق البورجوازية قد توجد فى العامل والفلاح ..

العامل الصغير الذى يفكر فى ان تكون له ورشة صغيرة مثل صاحب الورشة التى يعمل بها بورجوازى والفلاح الذى يطمع فى ملكية عشرة فدادين مثل المالك الذى يعمل عنده بورجوازى .

وبطلنا يعى الدرس جيدا وينطلق من أول الرواية الى آخرها مثل كلب الصيد .. يهاجم ويتهم ويدمغ بالخيانة والانحراف ويلقى المحاضرات ويناقش ويصنف الشعارات والنداءات المحبوكة المسبوكة ، ويضع

كلبشات المنطق فى يد تعيس الحظ الذى يقع تحت يده ويودى بصديقه إلى الانتحار فى لحظة يأس .

ونحن نفاجأ فى آخر الرواية ببطلنا العظيم هذا يخون حبه الوحيد ويتزوج من امرأة ارستقراطيــة من أسرة اقطاعية عريقة ونراه فى بنوار من أوبرا روما الى جوار زوجته فى بذلة سهرة أنيقة يرد التحية للوزراء ورجال المال عن يمين وشمال .

وحينما ينهار البطل أمام سيزار يقول فى صــوت ممزق .. لقد ظللت طول عمرى أحارب البورجوازية فى الآخرين ونسيت انى أنا بورجوازى .. وكان يجب أن أحارب نفسى قبل أن أحارب الآخرين .. كنت أظن انى أنا الثورة .. ولكنى الآن أعلم جيدا اننا جميعــا أنا وأنتم وكل ما نقول ونكتب نمثل مرحلة ما قبــل الثورة .. وليس الثورة .

وحينما يرد عليه سيزار قائلا : اتهم نفسك ولا تتهم الحزب .. نرى من خلال الكاميرا ولقطات المخرج ان الفيلم يحاول أن يقول لنا أكثر من هذا .. فكل ما فى عالمنا اليوم من ثورات هى مراحل ما قبل الثورة فى

نظر المؤلف والمخرج .. انهـا الثورات التى يجب أن تثور على نفسها اذا أرادت أن تحقق حرية حقيقيـة للانسان وليس شعارات زائفة كاذبة .

والفيلم يقدم هذا المضمون السياسى من خلال قصة غرامية غاية فى الرقة .. قصة تنتهى بخيانة الحبيبة التى تمثل كل المبـادىء الشريفة التى كان يدعيها البطـل وينتحلها .. والنبرة السياسية خافتة طول الوقت تطل من بين السطور ويجهر بها الصـمت دون أن تنتقل الكاميرا مرة واحـدة الى الحزب الشيوعى وخلاياه ومنشوراته .

واذا ذهبنا الى المسرح وجدنا ان معظم موضوعات المسرحيات سياسية .

فى مسرحيـة « الرقم ١٠ » التى يعرضهـا مسرح ستراند هذا الاسبوع يقـدم لنا المؤلف رونالد ميلر صورة خيالية لأزمة سياسية تحدث سنة ١٩٦٩ ولكننا نفهم من أحداث الرواية اننا نعيش بالفعل هذه الازمة أو اننا نسير اليها بخطى مسرعة .

والمؤلف يقدم لنا ما يجرى من أحداث فى بلد خيالى

اسمه زمبارديا .

وتفهم ان زمبارديا تقع فى جنوب افريقيا وان زعيم زمبارديا ثائر وطنى استطاع ان يحقق لبلاده مكاسب اجتماعية عظيمة .

وهـذا الزعيم اسـمه « تيموى » يخطط لضرب الاستعمار البريطانى فى بلاده ضربة قاصمة .

وتفتح الستار فى الفصل الاول على مجلس الوزراء البريطانى مجتمع وجو الجلسة مكهرب متوتر ووزير الدفاع يقول ان معلومات المخابرات المؤكدة التى تحت يده تقول ان « تيموى » سوف يؤمم مناجم النحاس فى زمبارديا ، وان هذه الضربة ستكون ضربة قاصمة لاقتصاد بريطانيا وهيبتها ، ولا بد من اتخاذ اجراءات سريعة وحاسمة لتدارك الـكارثة

ورئيس الوزراء يقول :

ـ هل تريدنا أن نعلن الحرب على زمبارديا ؟ ..

ـ لابد من اسقاط تيموى بأى ثمن .

ـ ومن يدريك ان اسـقاط تيموى أن يؤدى الى ظهور تيموى آخر ؟ ..

وتحتد المناقشة وتشترك عدة أصوات :

ــ اننا لن نستطيع ان نوقف المد الوطنى فى هذه البلاد بالعنف .. ان العنف فى هذه المسائل لا يجدى .

ــ ان المد الوطنى يحمل معه أخطارا تهدد الوجود البريطانى فى القارة ولا يجب أن ننسى اننا ما زلنا نعتمد فى خاماتنا ومواردنا الأولية على افريقيا وما زالت افريقيا هى سوقنا الرئيسية .

ــ اننا لا نستطيع ان نرسل بحملة بحرية الى شواطىء زمبارديا من أجل استرداد مناجم النحاس .. ان ما كان يمكن عمله فى القرون الوسطى لايمكن عمله الآن .. ان العصر تغير .

ــ هل نقف مكتوفى الأيدى ومصالحنا مهددة ؟ ..

ــ نستطيع ان نقوم بعمل سياسى فى مجلس الامن.

ــ بدون تأييد أمريكا لن نستطيع ان نحصل على أغلبية كافية .. وسوف تتلكأ القرارات بين الادراج بينما مصالحنا تضرب فى افريقيا ونطرد خطوة خطوة الى البحر .

ــ ان الازمة الاقتصادية فى بريطانيا لا تحتمل الانفاق على أى خطة عسكرية .. ليس عندنا بديل

للمفاوضة وهنا يدق وزير الدفاع بيده المائدة صارخا :

ـ أتعلمون ماذا ستكون نتيجة الفراغ السياسى الذى تتركه فى افريقيا .. ان الصين سوف تملأ هذا الفراغ .. بل هى تتحرك لتملأه بالفعل .. وهذه الخرائط والصور التى التقطتها أقمار التجسس للمنطقة « يبسط عددا من الخرائط أمامه » تدل على ذلك .. « يشير بيده » قواعد صواريخ صينية .. مطارات فى زمباردیا عليها عشرات الطائرات الصينية .. قاذفات طوربيد صينية على الساحل .. الصين فى افريقيا .. الصين فى آسيا .. سنوات قليلة أخرى ثم تضع قدميها فى استراليا ، ولا يبقى لنا الا أن نموت جوعا فى الجزر البريطانية أو نحارب بعد فوات الأوان ألف مليون صينى وآسيوى وافريقى مسلحين بالقنابل الهيدروجينية حربا تكون فيها نهاية جنسنا الابيض .

وتنزل الستار على هذه الاخطار المدلهمة . فاذا كان الفصل الثانى فنحن نرى، ان الرئيس تيموى قد أمم مناجم النحاس بالفعل ونرى انجلترا تسحب خبراءها من المناجم فى محاولة لشل العمل فيها ولكن الخبراء

الانجليز يخرجون ليدخل الخبراء الصيـنيون مكانهم وتستمر المناجم فى عملها وكأن لا شىء حدث.. ويوافق رئيس وزراء بريطانيـا على عمل مظاهرة بحرية أمام سواحل زمبارديا على سبيل الارهاب . الارهاب فقط..

ولكن وزير الدفاع يقترح عملا عسكريا أكثر حسما.. يقترح التضامن مع جارة زمبارديا روديسيا .. التضامن مع الاقلية البيضاء فى روديسيا لشن هجوم مزدوج على زمبارديا واسـقاط تيموى .. ويرفض رئيس الوزراء هذا التهور ويحذر وزير الدفاع من أى اتصال بالاقلية البيضاء فى روديسيا لما هو معروف من عداء تاريخى بين زمبارديا وبين هذه الاقلية البيضاء .

ولكن وزير الدفاع يمضى فى التواطؤ والتآمر مع حكومة هذه الاقلية البيضاء سرا ليـدبر انقضاضـا مفاجئا على زمبارديا .

الى هنا تسـير الاحداث شـبه متوازية مع أزمة السويس .

ومن الواضح ان المؤلف يتخيل أزمة مشابهة .

ولكن الستار سوف تنزل على نهاية مختلفة تماما .

فرئيس الوزراء يكتشف التواطؤ بين وزير حربيته وبين حكومة الاقلية البيضاء فيضطره الى الاستقالة ويدعو فورا الى اجتماع قمة يشترك فيه تيموى مع الرئيس الامريكى فى محاولة لتسوية سلمية ونراه يحجز الطائرة ليسافر فورا لحضور الاجتماع ونسمعه يقول :

ـ سوف أخالسبهم وأدير دفة السفينة الى البحار الآمنة .

ونفهم انه سوف يسعى الى السلام بأى ثمن .

انها محنة الرجل الابيض أمام يقظة الشعوب الملونة .. أمام زحف الصين وانتفاض افريقيا .

والمؤلف لايرى حلا لهذه المحنة سوى قبول الأمر الواقع وطلب السلام بأى ثمن ولو كان الثمن هو الهزيمة والتراجع الى الصفوف الخلفية من التاريخ .. فأى صدام هذه المرة سوف يكون فيه القضاء على الرجل الابيض وعلى حضارته .. فهناك ألف مليون « سبارتاكوس » .. وليس « سبارتاكوس واحد » .

ترى هل يفكر الساسة كما يفكر المؤلفون .

وهل ينتصر العقل ! ؟

.. ان ساعة الامتحان تقترب .

الله في لندن

٣٣ ميدان بلجراف ـ مارلبورن .

يا طالما قرأت عن العجائب والمعجزات التى تجرى فى هذا العنوان .

روايات رواها لنا أبو الخير نجيب وعلى راضى عن أرواح تتجسد فى الظلام وكراسى تطير فى الهواء وأبواق تتكلم دون أن يتحدث فيها أحد .

مبنى أنيق من طابقين .

فى الطابق السفلى مكتبة تحوى كل ما فى العالم من كتب عن الروحية وتراجم انجليزية لكل الكتب السماوية بما فيها القرآن وقاعة مكتوب عليها قاعة سير كونان دويل «المؤلف المعروف صاحب كتب شرلوك هولمز وكان رئيسا للجمعية فى أواخر حياته » .

تقدمت من السيدة الواقفة على مكتب الاستعلامات أسألها عن نشاط الجمعية فقالت انهم يتقدمون هنا


MADAD

محاضرات يومية عن المشكلات الروحية بالاضافة الى عروض خاصة يقدمها أصحاب المواهب ممن عندهم قوى روحية .. وان هناك عرضا خاصا الليلة الساعة السابعة مساء . والتذكرة أربعة شلنات .

مبلغ زهيد جدا فى مقابل رؤية كرسى يطير فى الهواء وروح تتجسد من عالم الظلام ..

ولكن السيدة صححت معلوماتى قائلة : انه لم يعد هناك وسطاء من هذا النوع الذى تفكر فيه ممن يجسدون الارواح أو يرفعون الموائد فى الهواء .. لا أحد الآن يقوى على رفع نملة .. العالم الآن أصبح ماديا جدا لم يعد يجود علينا بأمثال هؤلاء الوسطاء ..

ـ ولكن العالم كان ماديا أيضا منذ عشر سنوات حينما كنا نقرأ هذه الروايات ..

ـ نعم .. فى الواقع أنا لا أدرى لماذا لم يعد يتقدم لنا أمثال هؤلاء الموهوبين الآن ..

وكنت أقول فى نفسى ربما لأن الوسائل العلمية المتطورة الآن أصبحت كفيلة بكشف أى خدعة مما كان يسهل حبكها وترويجها أيام زمان .

ـ اذن ماذا سنرى من عروض الليلة ياسيدتى ؟ ..
ـ عندنا مشـايخ مكشوف عنهم الحجاب يقدمون عروضا فى الجلاء البصرى وأعطتنى كتيبا صـغيرا فيه جداول بعروض هؤلاء المشايخ ..

وكان الكتيب يضم عديدا من الاسماء .. الشيخة مارى هويفـر ، الشـيخة نورا بلاكورد ، الشـيخة ماجدالين كيلى ، الشيخ جاك ماكاى ، الشيخة فلورنس دربشير ..

وكان شيئا مثيرا بالنسبة لى أن أتفرج على ما يفعله الدراويش الانجليز.. شيئا يستحق الاربعة شلنات وأكثر

وضحكت بينى وبين نفسى ..

سـأرى الليـلة دراويش انجليز حقيقيين يفتحون الفنجان ويقرؤون البخت ويضربون الرمل فى لنـدن قلعة الحضارة المادية فى عصر الذرة .. انها فرجة حقا..

ولقد كانت حقا فرجة ..

قالوا لى : ان العرض سيكون فى الطـابق العلوى فى قاعة سير اوليفرلودج « المختـرع المعروف الذى اخترع صمام الراديو . وقد كان هو الآخر رئيسا لهذه

الجمعية فى أواخر حياته » ..

أسماء محترمة .. سير كونان دويل مؤلف له شهرته واحترامه ، سير اوليفرلودج مخترع عظيم استطاع تحويل راديو السماعة البسيط الى الراديو الناطق الذى نضعه الآن فى بيوتنا عن طريق الصمام الالكترونى الذى اخترعه، لاشك ان الجمعية تعرف كيف تروج لنفسها

وصعدت الى قاعة سير اوليفرلودج فى الطابق الثانى ..

كانت ممتلئة عن آخرها ..

ولكن لفت نظرى ان كل الموجودين عجائز ، وان ٩٠ فى المائة من هؤلاء العجائز نساء عجائز ..

وكانت هذه التوعية الواضحة بين الرواد تدل على أن الجمعية فشلت أن تخلق ايمانا حقيقيا أو تجتذب عقلا شابا واحدا ..

ونساء عجائز فى مثل هذا السن هن فى الغالب ضحايا الهستيريا والخوف من الموت ولكل واحدة ابن فقدته فى الحرب تتمنى أن تسمع صوته وعندها استعداد فطرى لأن تصدق أى همسة تقال لها عن العالم الآخر .

واحتلت حتى وجدت لنفسى مقعدا خاليا فى الصف الاول .. كان فى نيتى أن أسأل الشيخة هويلر عن طالعى وأرى هل تستطيع أن تعرف هذه الدرويشة الانجليزية عنى أى شىء ..

وبدأ العرض يعزف على الأرغن لتهيئة الجو .. ودخلت الشيخة هويلر .. امرأة فى الستين تضع نظارة طبية على عينيها ..

وقرأت الشيخة هويلر عدة ابتهالات وصلوات ، وردد الموجودون من خلفها : آمين ..

ورفعت أصبعى لأسأل الشيخة ، ولكنى فهمت ان هذا أمر غير ممكن وان لا أحد يستطيع أن يسأل الشيخة فى شىء ، ولكن الشيخة هى التى تختار بنفسها من تقرأ له الطالع من الموجودين .. وكان هذا أول شىء مريب فى الموضوع .. فمن يدرينى ان الشيخة تأتى كل مرة ومعها طقمها من المريدين والمطيباتية .. ولكنهم قالوا لى : انها مسألة ضمير .. وان هنا فى انجلترا النظام والقانون فوق كل شىء ..

أمرى الى الله ..

وأغمضت الشيخة عينيها وسرحت بعض الوقت ثم فتحت عينيها وأشارت الى امرأة فى الصف الثالث ..

ــ انت .. نعم .. انت ياسيدتى يا من تضعين قبعة حمراء على رأسك .. انى أرى حول رأسك هالة من النور .. انك امرأة طيبة جدا ياسيدتى .. كريمة سخية تحبين الآخرين ..

ونكست المرأة رأسـها فى خجل وتواضع .. بينما أردفت الشيخة :

ــ انى أرى الآن الى جوارى روحا رفافة لشـاب رقيق جميل يلبس حلة عسكرية لعله ابنك ياسيدتى .. فهو يشبهك تماما..وفهمت منه انه مات فى الحرب الاخيرة

ــ نعم .. ان لى ابنا مات فعلا فى الحرب الاخيرة ..

وتهلل وجه الشيخة .. فقـد غمزت السـنارة .. وأردفت تقول :

ــ اسمه جاك .. جاك .. جاك .. أليس كذلك ؟

ــ لا ياسيدتى ..

ــ اذن فاسمه ماك .. ماك ..

ــ لا ياسيدتى ..

ــ اذن فاسمه بلاك .. بلاك ..

ــ فى الواقع اسمه ماكاى ..

ــ آه .. وكنت تنادينه على سبيل الدلع ماك ؟ ماك .. هكذا رن فى أذنى .. انت تعرفين ان الاسماء تختلط فى عالم الروح .. ان جاك قريب جدا من ماك ومن بلاك ..

ولكن السيدة الانجليزية جدا كانت مصرة على تصحيح كل كلمة فأجابت فى هدوء :

ــ لم أكن أناديه ماك .. ولكن كنت أناديه ماكى ..

وقالت الشيخة التى وقعت فى شر أعمالها :

ــ حسنا .. ان ماكى وجاكى وبلاكى من فئة واحدة أليس كذلك ؟ على أى حال .. هو يقول لك انه سعيد جدا .. وانه سوف يحتفل معكم فى ديسمبر ــ ويبدو أنكم سوف تحتفلون فى ديسمبر بشىء ما .. خطوبة على ما أعتقد ؟

ــ لا ياسيدتى ..

ــ اذن هو عيد ميلاد ؟

ــ لا ياسيدتى ..

ــ اذن هو عيد زواج ؟

ــ لا ياسيدتى ..

ــ اوه .. انه الكريسماس .. كيف ننسى هذا يا الهى .. ها هو يبتسم ويضحك معنا ..

ــ انه يسألنى الآن عن العمة ليزا ؟

والسيدة الانجليزية تسأل فى حيرة :

ــ من هى العمة ليزا ؟

ــ ليزا أو اليزابث .. أقول ليزا أو اليزابث ..

وبدت الحيرة على وجه السيدة .. وكانت الشيخة ما زالت تعصر فى ذهنها .

ــ ليزا أو اليزابث أو أليس أو دنيس ..

ــ نعم .. أليس .. عندنا أليس ..

ــ العمة أليس ..

ــ هى خالة وليست عمة .

ــ الخالة أليس .. الفرق ليس كبيرا على أى حال بين خالة وعمة .. يبدو انه كان يعزها كثيرا ؟

ــ انه لم يرها مرة واحدة فهى فى استراليا ..

ــ نعم .. ولهذا فهو يفكر فيها دائما ويسأل عنها..

من الواضح انه كان يريد أن يراها .. يا له من ولد رقيق طيب.. انه كان يحب لعب الكرة كثيرا وهو صغير.

ــ لقد كان بطلا في فرقة الجيش ..

ــ أوه .. ألم أقل لك انه يحب لعب الكرة ..

انه ما زال مغرما باللعب حتى فى العالم الآخر.. انى أراه يلهو بالكرة فى رشاقة بين قدميه ..

ــ لقد كان يلعب كرة السلة وليس كرة القدم ..

ــ أوه .. هذا أمر طبيعى ولهذا هو يفكر الآن فى لعب كرة القدم على سبيل التغيير.. واستمرت الدرويشة تتخبط فى عرض مداه ساعة بين تخمينات تصيب مرة وتخطىء عشر مرات ..

وفى طريقى الى باب الخروج استوقفتنى فتاة الاستعلامات لتقول :

ــ ما رأيك فى العرض ؟

ــ رأيى ان مدام هويلر ليست وسيطة جلاء بصرى لأنها لا تملك أى جلاء بصرى أو غير بصرى وعندنا فى مصر ثلاثون مليونا يستطيعون أن يتكلموا أحسن مما تكلمت مدام هويلر دون أن يدعى أحدهم ان عنده مواهب روحية ..

ـ هل عندكم وسطاء فى القاهرة ؟

ـ عنـدنا فى الحسين دراويش الواحد منهم بألف مدام هويلر ..

ـ حقا .. ولماذا لايأتون الى هنا لعرض مواهبهم ؟

ـ أعتقد فعلا اننا يجب أن نصدر لـكم الدراويش

وكانت مكتبة الجمعية قد بدأت تمتلىء بالرواد ..

وأخذت أدور بين الأرفف باحثا عن بعض الكتب ..

والظـاهر انى ظللت أبحث مدة طويلة لأن المشرف على المكتبة تقدم الى ليعرض مساعدته .. ولما أمليت عليه بعض أسماء الكتب التى أبحث عنها هز رأسه فى أسف قائلا : انها كانت هنا بالفعل ولكنها نفدت ، ثم أعطانى عنوان مكتبة متخصصة .. اسمها مكتبة واتكنز .. فيها كل ما يخطر على البال من كتب ..

ومكتبة واتكنز .. مكتبة عجيبة .. والشارع الذى تقع فيه هو شارع عجيب هو الآخر .. فأنت فى جو يشبه جو شـارع الازهر بمكتباته القديمة وكتبه الصفراء التى تبحث فى الأديان وفى الأرواح وفى التنجيم والسـحر .. وكتابة الأحجبـة .. واذا كنت مغـرما

« بالشبشبة » تستطيع أن تجد كتابا بالانجليزية يبحث فى « الشبشبـــة » وتاريخ « الشبشبـــة » وطـرق « الشبشبة » .. واذا كنت من هواة الجن تجد كتبا عن الجن ومراجع عن « شمهورش » ..

وصاحب المكتبة رجل عجوز خفيف الدم ..

وانجليزى حقيقى ..

وقفت أسأله عما فى مكتبته من كتب وعن رأيه فى هذه الكتب ، وهل حاول أن يقرأها ؟

فأجاب الرجل فى ابتسامة :

ــ مما يؤسف له ياســيدى انى متخصص فى بيع الكلام الفــارغ .. ورأيى الحقيقى ان كل ما فى هــذه المكتبة كلام فارغ يجب أن يلقى فى صندوق القمامة.. مثلا هذا القسم هناك الخاص بكتابة الأحجبة .. لماذا تتعب أنفسنا بكتابة الأحجبة .. اذا أردنا النفع فعندنا أسلحة أقوى من الأحجبة .. ما هو الأجدى ، حجاب يجلب البركة ، أو شيك على بنك باركليز بألف جنيه استرلينى .. واذا أردنا الضرر .. لماذا لا نطلق الرصاص بدلا من استحضار شمهورش ! ..

ـ عندك حق .. فهذا العصر يقدم وسائل حاسمة وسريعة لتلبية جميع الرغبات ، وبساط الريح وسيلة متأخرة جدا وبطيئة من سبل المواصلات بالنسبة للصواريخ .. والشعب الانجليزى يعرف هذا جيدا على ما يبدو ، فأنا لا أرى زبائن كثيرة فى مكتبتك ..

ـ ولهذا نبيع الكتب بأسعار مضاعفة لأن زبائنها قلة .. وكلهم من المجانين .

وكانت مصادفة طريفة حينما جلست أشاهد التليفزيون فى المساء .. فرأيت المذيع يقدم حديثا مع أحد القسس .. قال المذيع فى أدب :

ـ سيدى الأب سمعنا جميعا انك تقدم فى كنيستك المرطبات وانك جعلت منها مرقصا يرتاده الفتيان والفتيات لقضاء أوقات مرحة من الرقص على أنغام اسطوانات الخنافس .. سيدى الأب نريد أن نفهم بالضبط ما هى رسالة الكنيسة فى نظرك ؟

وأجاب الأب فى وقار :

ـ الكنيسة ليست ملجأ عجائز .. سيدى لقد تحولت الكنيسة الى مقبرة بانعزالها عن واقع الحياة .. واذا

استمرت الكنيسة تقدم للشباب ما لايطلبه وما لايفكر فيه فسوف تتحول الى قبو مهجور ولن يدخلها أحد.. لن يتبقى من رواد الـــكنيسة الا عجائز تجاوزوا سن الفعل والتأثير .. فهل هذه رسالة الكنيسة ؟ اننا نفهم دور الكنيسة خطأ .. دور الكنيسة الحقيقى أن تقــدم للشباب احتياجاته ..

ــ والكباريه يقدم للشباب احتياجاته أيضا ولكن أظن من الواجب ان يكون هناك فارق .

أنا أفهم ان تقدم الكنيسة للشباب احتياجاته الروحية

ــ ان كلمة روح كلمة مضللة جدا . واسمح لى أن أقول ان هذه الكلمة لم يرد ذكرها فى الانجيل .. واننـــا أوردناها كترجمة خاطئـــة لـــكلمة « كيان » بالعبرية .. الانسان جسم وكيان فى الانجيـــل وليس جسما وروحا .. والكيان كلمة أشـــمل وأصدق .. والعواطف والرغبات هى من ضـــميم ذات الانســـان وكيانه .. ويجب أن تقدم الكنيسة غذاء العاطفة .. ان الحب ليس شرا .. وانما الشر ألا نكون صادقين فى حبنا .. وهذه وظيفة الكنيسة التى تبارك الحب لا ان

تدمغه بالخطيئة ــ ان تجعل من الشاب محبا صادقا ، بهذا وحده يمكن ان يكون للكنيسة دور فى الحياة وان تكون بيتا يؤمه الاحياء لا بيتا يؤمه الاموات .

والحق انها لشهادة من رجل دين تستوقف التأمل .

وأمر طريف غاية الطرافــة من قسيس محترف ان يقول ان كلمة روح كلمة مضللة ويقول ان الانســان جسم وكيان وليس جسما وروحا ، منكرا بذلك الروح بطريقة غاية فى التهذيب أمام عشرة ملايين مستمع

لاشك ان الحضارة المادية انتصرت فى أوروبا

ولاشك ان الله فكرة لاوجود لها بالنسبة للعقلية الغربية

ولاشك ان الروح بالنسبــة للرجل الغربى خرافة بالرغم من الجمعيــة الروحيــة ٣٣ ميــدان بلجراف مارلبورن وما كتبه عنها على راضى وأبو الخير نجيب.

والأمر يستدعى أكثر من جمعية روحية .. ليعود الايمان

الأمر يستدعى نزول المسيح شخصيــا ليمشى على الماء أمام مائة مليون أوروبى ليبــدأ الأوروبى يفكر بطريقة مختلفة ..

وربما لو فعل لاستبقت ملايين الأيدى لصلبه من جديد

التفكير بطريقة جنسية

كان الخطيب الزنجي فى هايد بارك قد جمع حوله أكثر من ثلاثمائة مستمع ومستمعة .

جمهـــور غفير من الانجليز كان يستمع فى اهتمام شديد والخطيب الزنجي يحكى فى تفاخر شديد .

كانت ليلة من ليالى ربيعكم الجميل وكان هناك فتى انجليزى من فتيانكم المدللين يسير فى حى سوهو وقد التقط احدى بنات الليل .. وسرت خلفهما لأرى ماذا سوف يحدث . ورأيتهما يصعدان الى غرفة من هـــذه الغرف اياها .. وانتظرت وأنا أنظر فى ساعتى .. واذا بهما يهبطان بعد عشر دقائق ..

سيداتى سادتى هـــذه حكاية تأخذ فى بلادنا ثلاث ســاعات على الاقل . هو الفرق بين الرجل الابيض والرجل الأسود « تصفيق من البنات والسيدات » .

وسمعت انجليزيا يعلق من خلفى .


المفكر

ـ هذه طريقة غبية من اضاعة الوقت ياسيدى .
وتعليق آخر أكثر برودا ..
ـ والنتيجة أيها البهائم هى كثرة النسل والمجاعة .
ثم لا عمل لاطعام هذه الأفواه الزائدة .

انجليزى آخر ـ بعد مثل هـذه الساعات الثلاث الهنيئة لا يفكر الواحد منكم الا فى ساعات مثلها من النوم .

انجليزى آخر ـ لا مانع عندنا من ان تتفوقوا علينا بهذه الطريقة .

وتقدم شاب انجليزى يرسل شعره طويلا على كتفيه ليقول :
ـ أليس أولى بكم أن تحاولوا احراز هذه البطولات فى ميادين القتال بدلا من احرازها فى الفراش .

وأجاب الزنجى فى سرعة خاطر ناظرا الى شعر الخنفس الطويل :
ـ اعذرنى ياسيدى أقصد ياسيدتى ... الحق اننا لم نعد نعرف كيف نميز بين الرجال والنساء فى لندن
وأجاب الخنفس بسرعة :

ـ ان الرجولة لا تصنع فى دكان الحلاق ولا غرف النوم ..

وصاح انجليزى آخر :

ـ لا مانع عندنا من أن نعطيكم نساءنا ونأخذ أرضكم .

وهذا الحوار القصير الذكي كطلقات الرصاص يستحق منا وقفة طويلة ..

فقد أصبحت عادة عندنا أن نشير الى انهيار الغرب ونستشهد بما يجرى من قبلات فى شوارع باريس لنقول : باريس الداعرة . ونصور شعور الاولاد المرسلة الطويلة فى لندن لنقول : لندن الساقطة ، ونهلل لخفض الاسترلينى ونقول : انتهت الرأسمالية ، أكلتها التناقضات .. اليوم انهار الاسترلينى وغدا ينهار الدولار وبعد غد يفلس الفرنك ويليه المارك ولا يبقى الا أن تشيع الجنازة .

ولا مانع من الحماسة ولكن النظرة الموضوعية أيضا مطلوبة اذا كنا نريد أن نسمى أنفسنا علميين .

هل انهار الغرب حقيقة اقتصادا وأخلاقا .

الجنيه الاسترلينى انخفض عشرين فى المائة هذا صحيح ولكن بالرغم من ذلك ما زال يباع بضعف سعره في السوق السوداء فى أوربا الشرقية كلها .. الجنيه باثنين .. وما زال عملة صعبة تحتال الحكومات للحصول عليها .

وليس السبب انه استرلينى ولكن لأنه يساوى مقابلا من الانتاج الجيد المطلوب فى جميع الاسواق .. الاسترلينى والفرنك والمارك والليرة معناها الرولز رويس والرينو والمارسيدس والفيات .

لن ينهار الغرب بسبب تبادل القبلات واطالة الشعر وتخفيض الجنيه ولكنه سوف ينهار اذا أنتجت الكتلة الشرقية انتاجا أجود .. واذا أصبحت الصناعات الغربية صناعات من الدرجة الثانية وغير مطلوبة . والفنون الغربية فنونا من الدرجة الثانية وغير مطلوبة

ان العمل والعمل وحده هو الذى يعطى الجنيه قيمته ويعطى الشعوب أهميتها .. العمل الخلاق وليس العمل الجنسى الذى لا ينتج سوى أفواه تأكل .

ويبقى للشرف مغنى واحد .

انه العمل .. العمل .. العمل ..

ومنذ ١٢ سـنة كتبت فى كتابى « الله والانسان » اننا ما زلنـا نفهم الشرف فى بلادنا الشرقيـة بمفهوم ضيق جدا .. فالشرف عندنا هو « صيانة الاعضـاء التناسلية » .. وللأسف ما زلنـا نفهم الشرف بهذا المعنى .. ونحـاول ان نحكم على الشـعوب بنفـس المستوى .. باريس داعرة لأنها تتبـادل القبـلات فى الشوارع ، انجلترا انهارت لأن الرجال أطالوا شعورهم لندن هى الشذوذ الجنسى .

وننسى ان فى القاهرة أيضا شذوذا جنسيا .. وان الفارق الوحيد هو الفارق بين السرية والعلانية .. وان كل ما فعـله المشرع الانجليزى هو انه سـاوى بين النص القـانونى الانجليزى والنص المصرى وشـطب العقوبة الخاصة باللواط والسحاق .. فأصبح القـانون واحدا .. وهذا هو كل ما حدث .

ولكن خيل الينا ان انجلترا انتهت ..

ودائما تتصور إن انجلترا انتهت .. وان كل ما علينا هو أن نطيل العمليـة الجنسيـة الى ثلاث سـاعات

بالحشيش ان أمكن ، فهـذه هى الرجولة والـكرامة والشرف واننا بهذا سوف نهزم العالم فهذه هى الرجولة الحقة .. وان الغرب سوف يموت من تلقـاء نفسـه بانتهاء الاستعمار فمن أين سوف يجد الغرب المسكين طعامه ونحن الذين نطعمه بالقمح ونكسوه بالقطن .

ولـكن فرنسـا خرجت من الجزائر ولم تمت من الجوع .

وانجلترا تخرج اليوم من الخليـج وترفض عروض المشايخ بالانفاق على جيوشها لتبقى فى حراستهم وتقول لسنا رقيقا فى خدمة مشايخ البترول .

هل تموت انجلترا بدون استعمار ؟! ..

أعتقد انها سوف تموت اذا فكر الانجليز فى الدخول فى حروب جنسية تناسلية واذا فرغت أذهانهم فلم تعد تحتوى الا على مطالب الفراش ..

أما إذا شمر الانجليزى ساعديه وراح يعمل ويخترع ويبتكر فانه لا يموت ، وانما نموت نحن حتى بدون استعمار .. ألا نشترى القمح بعملة صـعبة وعنـدنا مساحات زراعيـة شاسـعة وملايين الفـلاحين .. ألا

ستجدى الهند القمح وهى أخصب البلاد أرضا .. ألا تحصدها المجاعات وتأتيها النجدات من الغرب المنهار المفلس .. ألا تتكلم ، ونتكلم ، وتتكلم .. ثم لا نعمل .

متى نفهم ان الرجولة هى الجلد على العمل وحمل المسئولية والصمود للعقبات الجسام والبطولة فى الميدان وفداء الاوطان .

وان المجد الحقيقى ليس مكانه مخادع الغوانى ، وانما المعامل والمصانع والحقول وميادين القتال .

وان أرخص الانتصارات كلفة وأقلها جهدا هى انتصارات الرجل فى الفراش .. فماذا يحدث فى الفراش ؟ ان الطبيعة هى التى تعمل هنا وليس الرجل ..

ومن السهل أن تنتصر الغريزة ، وتسود الشهوة .. ولكن أصعب الصعب أن يسود العقل .

والانسان لا يولد الا لحظة يسود عقله تصرفاته .. من تلك اللحظة فقط يبدأ تاريخه وعمره الحقيقى .

وهزيمة الرأسمالية التى نحلم بها لن تكون الا فى ميدان العمل وحده .

والرأسمالية طريق مسدود هـذا صحيح ، ولـكن الكذب على النفس طريق مسدود أيضا .. ولندن ذروة حضارة وليست ذروة دعارة .

والاشتراكية سوف تنتصر بأن يعمل الاشتراكيون وليس بأن يحملوا لافتات اعلامية وشـعارات جوفاء واتهامات باطلة .

ونحن نفتخـر فى الشرق بأننـا عاطفيـون مع ان الاستسلام للعاطفة علامة تأخر وليس علامة تقدم وانما علامة التقدم أن تخضع عواطفنا لعقولنا وتخضع عقولنا لارادتنا وتخضع ارادتنا لمثلنا العليا .

وبرود الانجليزى يدل على ارتقائه .

وفوران الرجل الشرقي يدل على طفولته .

والمجد أعمال وليس دواوين حماسة .

وفي عبارة قصـيرة مختصرة ذكية قالها الانجليزى تلخيص القضية كلها :

ـ لا مانع عندنا ان نعطيكم نساءنا ونأخذ أرضكم

لأنه يعلم انه اذا أخذ أرضنا وخيراتنا سوف يستعيد نساءه مع الوقت ويأخذ نساءنا أيضا .

ولاشك ان الخطيب الزنجي لم يكن موفقـا حينما بدأ يتفاخر بقوته الجنسية .

وأغلب الظن ان هـذه القوة كانت تنقصه فالرجل السوى لا يتحدث عادة فى مثل هذه الاشياء .. والمؤكد انه نسى ان هذه الناحية هى مظهر ضعف الرجل وليست مظهر قوته .. وشجعه تصـفيق البنـات الانجليزيات فتمادى ووقع فى الفخ وأطبق عليه الجمهـور الذكى وأهلكه .

وكانت نهاية عادلة أن يهلك هذا النوع من التفكير.

ولـكنى ما زلت أسأل نفسى :

ترى هل هلك هـذا النوع من التفكير عندنا نحن أيضا ؟! ..

نصف ما ينشر عنـدنا فى الصحف وما يكتب من تعليقـات يدل على اننـا ما زلنا نفكر بهذه الطريقة الخاطئة .

فما زلنا نتكلم عن انهيار الغرب ونهنىء بعضنا بأن انجلترا انتهت والمجتمع الاوروبى تعفن وأكثر من هذا نسوق الأدلة والبراهين فظهور الادب الاسود ومسرح

اللامعقول والسيريالزم هى دلائل النهاية ، وننسى أنها دلائل خصوبة وقدرة على الابتكار والتلوين ودلائل طقس فنى واجتماعى حر يسمح لألف زهرة بأن تتفتح ويسمح بالاتهام ولو كان نصبا للمشانق .

ولأن الفنانين فى انجلترا يقولون : تسقط انجلترا .. خيل الينا ان انجلترا سقطت .

ولكن انجلترا لم تسقط .

وانجلترا هى البلد الوحيد فى العالم الذى لم يحدث فيه انقلاب واحد طوال تاريخه سوى انقلاب كروموبل .. وما يزال الانجليز نادمين عليه .

لم تستطع معارك النقد أن تنال من ثبات عرش بكنجهام .

لأن عرش بكنجهام يستمد ثباته من ثبات شخصية المواطن الانجليزى العادى ومن برود الشخصية الانجليزية التى تسودها اعتبارات العقل والعلم والنظرة الموضوعية ولا تقودها العواطف والشهوات فتحب اليوم ما تكرهه غدا .. ومن ثبات الاقتصاد الانجليزى الذى يقوم على انصراف أربعين مليونا من المواطنين

فى عمل متواصل دائب وجاد يرفع مستوى المعيشـة بالاسـتعمار أو بدون اسـتعمار الى درجة من الرخاء مشبعة .

انه العمل مرة أخرى .

وسيادة العقل على البربرية العاطفية .

هى التى صنعت هنا وطنا متحضرا حرا مستقرا .

ولهذا تصـور كارل ماركس ان الشيوعية سـوف تبدأ فى انجلترا لأنها بلاد التمركز الصنـاعى والحرية الفكرية .

ولكن كارل ماركس أخطأ الحساب .

وأغلب الظن ان انجلترا هى آخر بلد سوف تدخله الشيوعية لأنها آخر بلد يحتاج الى الشيوعية .

وسوف يحتفظ الشعب الانجليزى بالملكة واللوردات ليضحك عليهم ويشتمهم فهذه متعة ضرورية هنا مثـل الرغيف تماما .

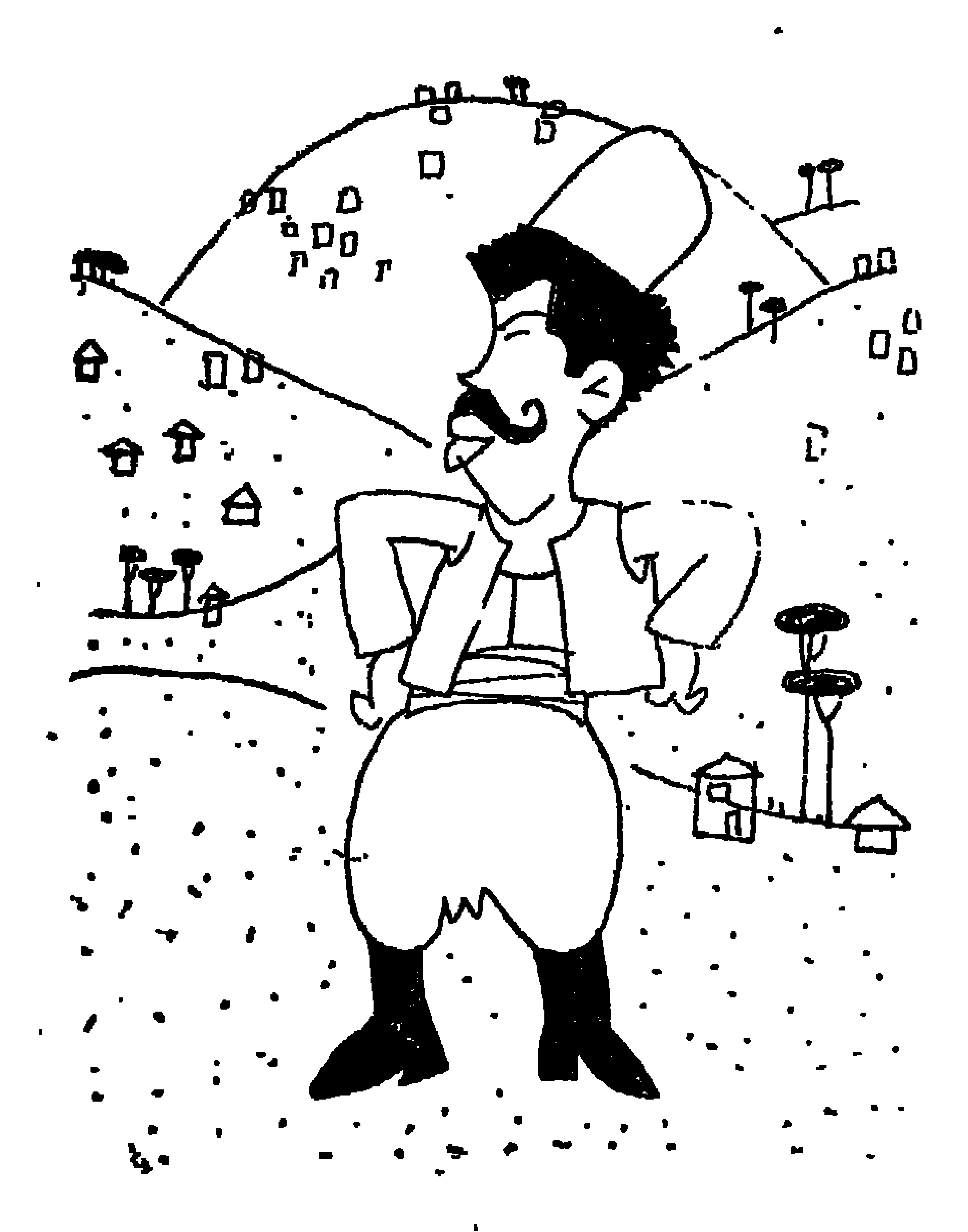
فمن الحرية يصنع الانجليز ما هو أهم من كل النظم .. يصنعون فنونا تبقى للتاريخ .

بيروت بلد المتناقضات

لبنان « هونج كونج » الشرق الاوسط التى تفتح صدرها لكل أبناء آدم .. دمها خفيف جدا .. فقد أقنعت الجميع بأنها حصالة مأمونة يستطيع كل واحد أن يحوش فيها فلوسه دون أن يجد من يسأله عن ملته أو نحلته أو الطريقة التى حصل بها على الفلوس .. الكل سواء أمام البنك المركزى لا فرق بين درزى أو مجوسى أو نيام نيام من آكلى لحوم البشر .. الاحضان مفتوحة للجميع .. وأهلا وسهلا .. تكرم .. يعطيك العافيــة .. عيونى .. الله معك .. قبضنى .. ساوى حالى .. الله يخليك ..

والمثقف اللبنــانى يحادثك فى أسى عن عدم وجود مبادىء وعن تطلع لبنان الى خطة واضحة

وهو حديث لمجرد الترف العقلى .. والاستهلاك الوقتى على قارعة الطريق .. أما ساعة الجد .. فأنت



تجد أكثــر من واحــد يقول لك : صرماية على كل المبــادىء .. مالنا نحن ومال ها المعركة .. نحنا هون بنحب الجميع .

وهى لغة القومسيونجى الذى يبيع للكل .. ويريد أن يروج بضاعته للــكل ..

واللبنــانى فى آخر الأمرَ له منطق .. فهو لايملك سوى منظر جميل ورقعة شاعرية على البحر ..

وليس فى لبنان بئر بترول واحدة ولا منجم حديد .. البئر الوحيدة هى جيوب الزوار.. والوسيلة الوحيدة هى نزحها فى رشاقة لتصــبح أنظف من الصينى بعــد غسيله .. هذه هى خطة التنمية ..

ولكى تؤتى خطة التنمية أحســن ثمرة .. لابد أن تكون الصلة بالجميع حسنة .. والترحيب على أشــده لأى وارد من أى مبدأ .

ولا بد أن تتعدد وجوه الانفاق أمام هؤلاء الواردين .. فالخير دائما على قدوم الواردين .

فى كل شارع كباريه .. وبين كل كباريه وكباريه .. كباريه ..

وفى الليل تتألق أفيشات البارات وعلب الليل كأحسن ما يكون الاعلان عن باريس الشرق .

ولا أدرى لماذا انتعش فن الكباريه بالذات .. ربما لأنه أسـهل وأسرع وسـيلة لاقامة فاترينـات جذابة للامتاع .. بدون جهد فنى يذكر .. فالكباريه لا يحتاج لأكثر من استئجار فرق متجولة جيـدة واعداد موائد حافلة بالمزات والخمور .. أما السينما فأمرها يحتـاج الى مؤلف قصة وكاتب سيناريو ومخرج وممثل وتنظيم فنى وجهد وعكوف طويل مضنى معرض بعد كل هذا للفشل .. والمسرح يحتاج الى جهد أكبر .. وهو بعـد هذا غير مضمون كمصدر ايراد .. فزبون الثقافة غير مضمون وخصوصا بين سـياح عابرين عبـورا عاجلا طالبين متعا سريعة ..

ولهذا أصبحت بلد الكباريه بلا منازع .

كباريهات تحت الارض .. وفوق الارض .. وفوق السـطح .. وفى أقبية .. وفى خنـادق .. وفى كهوف أثرية ..

والفن الاذاعى والفن التليفزيونى ليس أسعد حالا

من الفنون الأخرى ..

فالاذاعة والتليفزيون فى بيروت هى قنــوات اعلان قبل أن تكون أى شىء آخر .. وهى محدودة المجال محدودة القوة .. والفن فيها ثانوى ..

والمواطن اللبنانى انسان حبوب لطيف مرح .. محب للحياة .. محب للرقص .. محب للغناء والمرح والشرب .. وهو يكسب كثيرا وينفق كثيرا ..

والطبقة التى تسكن بيروت غالبيتها طبقة متوسطـة تشتغل بالتجارة وتعيش فى رخاء نسبى .. والطمــوح الشائع بينها .. هو طموح مادى وشخصى .. لا طموح قومى .. والايديولوجيــة الرائجة هى الحرية الفردية بلا حدود وبلا ضوابط .. والثراء بسرعة وبأى طريق..

ولكن لبنان مع هذا لا يمكن تلخيصــها فى هــذه الكلمات القليلة .. ولا يمكن مسحها اجتماعيا وفكريا بهذه البساطة .. ففى لبنان متناقضات حادة .. وأعماق .. وقلب .. ولباب غير القشرة الاجتماعية التى تبدو للسائح عند أول نظرة ..

واذا كانت القشرة الاجتماعية بما فيها من كباريهات

ومراقص وعلب ليل تبــدو فى ظاهرها مصداقا لهــذه الصورة من التحلل الفردى والمادية والمتاجرة .. الا ان المعايشة العميقة للمجتمع اللبنانى تكشف عن صــورة أخرى مناقضة للأولى تماما .. فالاقلية اللبنانية المثقفة تبدو منسلخة تماما من هــذا الواقع وثائرة عليه فى محاولة لتبنى قيما أرفع .. فى محاولة العثور على نفسها وحمل مسئولياتها ..

المثقف اللبنانى يحاول أن يجد نفسه كفرد فى عالم يعاصر كل مشكلة فى هذا العالم باحساســه وعقــله ويشارك فى حلها .. ويقوم بدوره كفرد مسئول لا كمجرد بائع فى دكان .

والمناقشات فى كل قضية معاصرة .. سياسية وفنيــة وفكرية وعلمية تحتدم فى الوســط المثقف كجزء من الروتين اليومى ..

والكتاب اللبنانى يتابع بالترجمــة كل ما يؤلف فى الخارج فى لحظة صدوره ..

والحياة الثقافيــة تبــدو طازجة دائما على نقيض الشكل الاجتماعى الظاهر الذى يبدو للعيان بكل ما

فيه من تحلل وفردية وحياة استمتاعية فارغه ..

وفى وسط ركام التفاهات تبدو هناك انجازات رفيعة مثل ما يقـدمه الاخوان رحبـانى وفيروز فى مجـال الموسيقى مثلا ..

وفى أكثر من مجال نجد أمثال هذه الزهور البرية التى تفرز رحيقا نادرا ، فى مجال الشعر .. والقصة .. والرواية ..

وفى لبنان شهداء شرفاء سقطوا وهم يدافعون عن عروبة لبنان ..

ولـكن المثقف اللبنانى فى نهـاية الأمر مكبل .. ومغلول .. واقامته محددة .. لأنه يعمل داخل شـكل اجتماعى غير ملائم بحكم طبيعة تكوينه للتطور.. شكل اجتماعى غير طيع يدور فى حلقـة مفرغة من المتاجرة والمنافسة المادية الحامية .. بما فيها المتاجرة بالمعنويات ذاتها .. والمتاجرة بالمثقف نفسه ..

وقيم المحبة والصـداقة والأخوة تختنق فى سـباق المصلحة وتكالب رأس المـال الذى يطحن فى طريقـه كل شىء ..

والشكل الاجتماعى مرتبط بالوضع السياسى والاقليمى للبنان كبلد صغيرة محدودة الموارد تتكسب من حيادها .. ومن عدم انحيازها لمبدأ .. أى مبدأ ..

وهكذا تمسك حلقة الضرورات برقبة المثقف ولا يجد منها فكاكا ..

لا حل سوى أن يصرخ .. ويناقش .. ويحاول .. ويفكر ..

ولكنه صراخ فى الهواء .. يضيع فى النهاية فى صراخ الجاز والبوجى بوجى والتويست فى ليل بيروت الاحمر الذى تنزف فيه ملايين الليرات ..

المثقف اللبنانى يعتقد ان له رسالة .. ومبدأ .. ودورا فى الحياة ..

ولكن لبنان كبلد صغيرة بلا موارد .. تعتمد على اللامبدئية كمورد رئيسي لحياتها .. اللامبدئية منجم يدر عليها كل فئات العملات من كل بلاد العالم بكافة اتجاهاتها ..

وبفضل هذه اللامبدئية تتدفق عليها رءوس الاموال الهاربة من رياح الاشتراكية فى كل مكان .. والنتيجة

رخاء مفتعل مصطنع مؤقت .. رخاء متسلل من الخارج .. وليس رخاء حقيقيا ناميا من الداخل ..

ولا يمكن أن يقوم اقتصاد حقيقى على مثل هـذه العوامل الظرفية ..

انه يكون اقتصـادا من ورق اللعـب لا من ورق البنكنوت .. مجرد مقـامرة ناجحة على التناقضـات العربية الموجودة .. وهى متناقضات لن تدوم طويلا.. فمصير الدول العربية الى وحدة حتميـة .. ومصـير الرأسمالية العالمية الى الهزيمة .. فالرأسماليه العالميـة سوقها وغذاؤها الاستعمار .. والاستعمار يضرب الآن فى كل مكان .. والاشتراكية تزحف لتحتل كرسيـا بعد كرسى ..

والرأسمالية العالمية بدون أسواق وبدون مستعمرات وبدون حقول بترول .. ومناجم حديد ونحاس وشعوب متأخرة تنهبها وتسرقها .. مصيرها الموت جوعا ..

ولن يكون أمامها بعـد ذلك الا أن تأكل بعضـها بعضا ..

والمثقف اللبنانى الذى تفوته هذه الحقيقة لا يمكن

أن يكون مواطنا عالميا يعيش أزمة هذا العالم ويدرك أبعادها ..

واذا كانت لبنان المحدودة الموارد لايمكن أن تكتفى بذاتها فانها بانتمائها الى كيان عربى كبير تجد نسبهـا وكرامتها وعروبتها كما تجد الثمرة مكانها العزيز المنيع على الشجرة الاصل .

لا يمكن أن تعيش لبنان زوجة للـكل ..

لايمكن أن تعيش لقيطـة بلا أب بلا أم .. يكتب كتابها بالفرنسية .. ويكتب شاعرها سعيد عقل أشعاره بالحرف اللاتينى ..

انطلاقها من عروبتها لن يضمها الى العالم ولن يجعل مواطنها عالميا .. وانما يكون قيـدها فى دفتر العالم صحيحا .. بأن تكون نسبتها صحيحة من البداية ..

وبدون العائلة الصغيرة لن نعرف العائلة الكبيرة ..

بدون أن تعانى مشاعر الأم ومشاعر الأب ومشاعر الأبناء .. لا يمكن أن تكون أبناء فى العالم الكبير ..

والرجل المتحلل من كل الروابط والمسئوليات المطلق من زوجته المتبرىء من آبائه وأبنائه أصلح للانضمام

الى بار منه الى الانضمام الى عالم ..

ولكن لبنان بكل متناقضاتها لم تجعلنى أكرهها .. وانما كانت بالنسبة لى شيئا مثيرا .

أثارتنى لبنـــان برائحة زهور الليمون على جبالها ، وروائح الخمور فى باراتها .. بشبابها القلق العبقرى .. وشبابها العابث اللاهى ..

قال لى ياسر هوارى ، الصحفى والكاتب اللبنانى :

ــ انك لن تستطيع أن تغلق على نفسك الغرفة فى الفنــدق لتــكتب شــيئا فى الايام الاولى من نزولك بيروت .. ان بيروت سوف تشدك من فراشك .. ومن مكتبك .. ومن قلمك .. انت لا تعرف بيروت ..

ولكنى قلت له باطمئنان : أنا أعرف نفسى .

ولكن ثبت لى فى النهاية انى لا أعرف نفسى .. ولا أعرف بيروت .. وان صديقى ياسر يعرف الاثنين أكثر منى فما لبثت بيروت أن شدتنى من نفسى .. وسرقتنى من عاداتى .. وأيقظتنى أشعة شمسها المبللة بالنــدى بكرباجها المنعش فى الفجر لأقف كالطفل فى الشبــاك أجذب أنفاسا لاهثة من هواء البحر ..

وفى التاسـعة كنت أدخل فى ثيـابى وأهرول الى الخارج ..

وأمام كل دكان كنت أقف ساعة أمام الفاترينات ..

والفاترينات فى بيروت تبتز المال ابتزازا . وتصيب محدود الدخل بمركب نقص لا شفاء منه ..

وهم هناك يجيدون فن العرض .. وفن الاغراء .. حتى ورقة اليانصيب تجدها مقطوعة نصفين لاغرائك بشراء نصفها اذا كنت لا تملك ثمنها كله ..

والبائع تجده يحمل سباطة الموز بعناقيدها الشهيـة ويلوح بها وسط المارة ليبيعها أصبعا .. اصبعا .. لمن لايملك ثمن الكيلو أو النصف أو الربع ..

وأنت تجد كل واحد من المارة يجلب اصبعا ويضع فرنـكا فى اليـد الممـدودة .. ويمضى يقشر ويأكل ويشقشق بفمه .. منظر مغر .. هو الآخر بروباجندا .. ودعاية ..

لا مفر ..

لابد أن تدفع ..

وطول طريقك فى بيروت فى أى شارع أو زقاق أو

ناصية .. لابد أن تدفع ..

التاكسى بليرتين « أربعون قرشا » ولكن هناك تاكسى مثله بالضبط بثلاثة قروش .. لا تحمل هما .. ما دام معك ثلاثة قروش ادفعها وتوكل ..

ادفع .. ادفع ..

هذا هو الفن البيروتى .. يمسك بيدك ويضعها فى جيبك ويخرجها بأى شيء .. آى مبلغ ..

الاقمشة تجدها مزينة بالتوقيعات والماركات والحروف اللاتينية .. وهى تظل تحتال عليك حتى تشتريها ثم تكتشف حينما تصل الى القاهرة انها موجودة فى المحلات العادية بنصف الثمن .. ولكنها بيروت .. تعرف كيف تزغلل العين .. وتضيع العقل ..

وأنت تظل أسير الفاترينات والاعلانات .. حتى تفلس وتصبح على الحميد المجيد .. وحينئذ تجد انك قد فقدت القدرة على الحركة تماما .. فأنت فى لبنان بدون ليرات معناها .. معتقل .. مسجون فى زنزانة فراشك .. لا تستطيع أن تحرك ذراعا ولا ساقا.. فكل حركة بفلوس ..

ومعتقل بدون أكل وبدون شرب فالأكل بفلوس ، والشرب بفلوس .. والتنفس بفلوس .. والضحك فى سهرة أصدقاء بفلوس ..

والحرية فى لبنان خرافة ..

الحرية متاحة .. ولكن لايستطيع أن يحصل عليها الا من يدفع ثمنها نقدا وعدا .. من الليرات ..

انت حر فى أن ترشح نفسك فى الانتخابات .. ولكن فى الحقيقة لن تستطيع ترشيح نفسك لأن ادارة المعركة الانتخابية تحتاج الى نصف مليون ليرة ..

والذين نجحوا فى الانتخابات الاخيرة فيهم ١٢ مليونيرا والطبقة الغنية ممثلة بينهم بكاملها .

واذا كنت فقيرا مثلى فلن تجد فى مجلس النواب من يمثلك ..

وانت حر فى ابداء رأيك .. هكذا يقولون.. ولكنك تكتشف بعد أيام من اقامتك انك لابد أن تبيع هذا الرأى لمن يملك القدرة على تمويل صحيفة تنشر فيها رأيك . أقصد رأيه ، فأنت من تلك اللحظة سوف تعبر عنه وعن مصالحه لا عن نفسك .. ففى لبنان أكثر من

أربعين صحيفة يوميـــة .. ولا يمكن أن تعيش هــذه الصحف على القراء وحدهم .. وكل تعداد لبنان كما هو معروف مليون ونصف ..

واذا كنت نجما لامعــا .. وأخــذ التليفزيون معك حديثا .. فسوف تقول المذيعة بعــد ختام الحديث : سيداتي سادتي قدم لكم هــذه الندوة الرائعة صابون « أومو » .. فصابون « أومو » فى الواقع هو الذى دفع تكاليف هــذه الســاعة من الهواء الذى قلته فى ندوتك عن الفن والجمال والفكر والفلســفة الخ .. الخ .. وفى النهاية لابد أن تبدو وكأنك تغســل قفاك أمام المتفرجين بصابون « أومو » ..

وانت حر ..

ألم أقل فى البداية انك حر جدا .. لدرجة تجنن ..

ولبنان تجنن ..

ولكنها مع ذلك دمها خفيف .. شربات ..

أيام في طرابلس

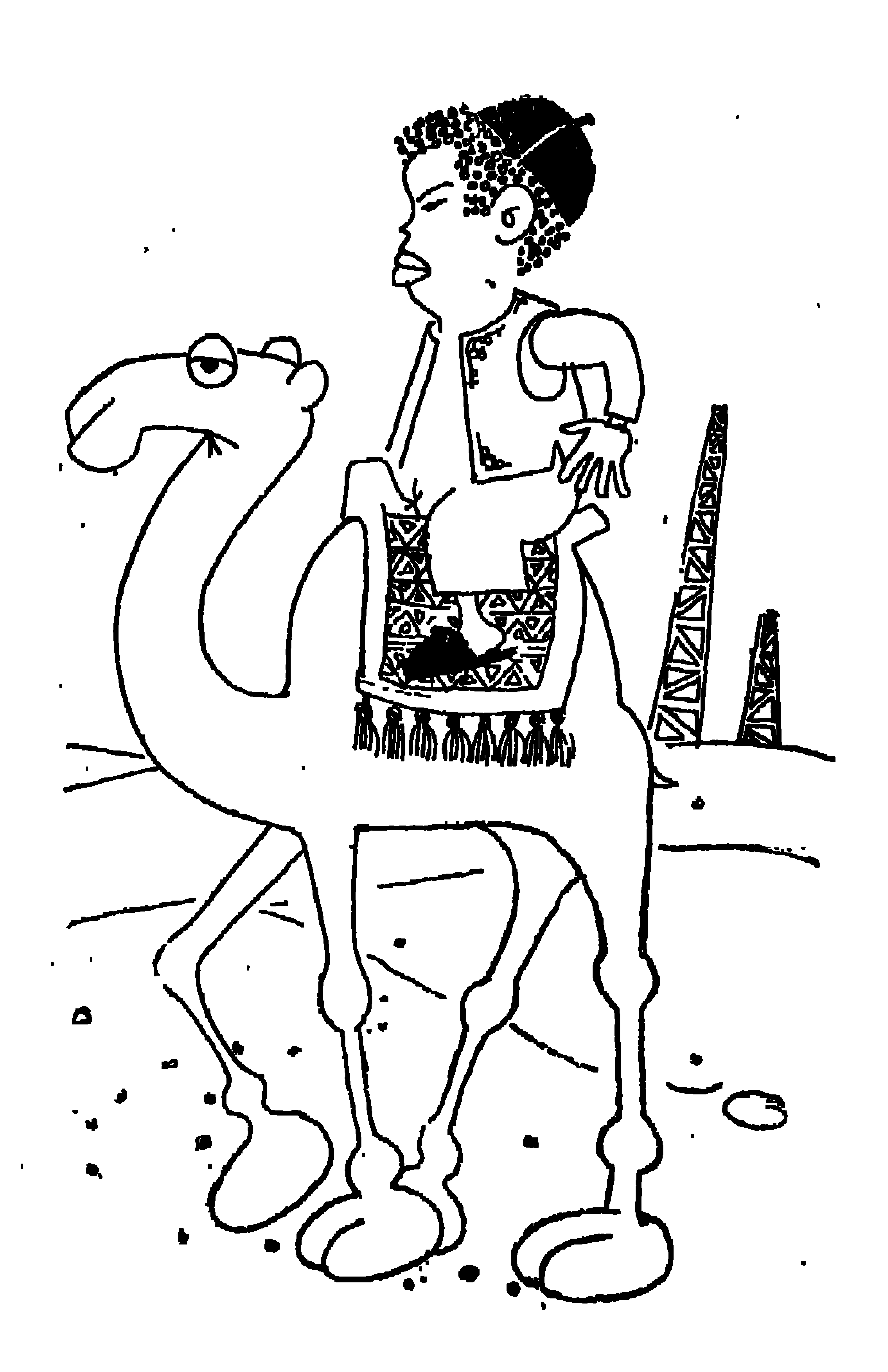
أجمل الخمور ما كانت معتقة ..

كلما زاد عمر النبيذ فى الدنان زاد سعره .. هكذا يقول المدمنون .

والحضارات شأنها شأن الأنبذة كلما ضربت بجذورها فى الزمن زادت عراقة ونبلا .. وكذلك المدن عظمتها بتاريخها ونصيبها من تقلب الأحداث .

كان هذا ما خطر لى وأنا أتمشى على شاطىء طرابلس .. فكل ذرة رمل كانت تقول لى هنا تاريخ .

تحت أقدامى حيث تلمع أصداف البحر .. من أغوار الزمن السحيق .. منذ عشرة آلاف سنة .. تقول لنا خريطة العالم القديم .. كان هذا الشمال الافريقى مسرحا للفيلة والغزلان والزراف والثيران والاسود والنمور .. وكان الليبيون الأوائل يعبدون الشمس والقمر ويصنعون الأسلحة من الصوان ويصنعون



الأوانى الفخارية من الطين المحروق ويستعملون الوشم .

ويمضى شريط التاريخ بضعة آلاف أخرى من الأعوام .. فأرى رسل خوفو يأتون الى هذا المكان خطابا يبحثون له عن عروسة ليبية يتزوجها ليأمن بهذا الزواج غارات الليبيين ويتفرغ لبناء هرمه الذى كان يحتاج لعشرين سنة من العمل المتواصل ..

ثم بضعة آلاف أخرى ويخرج من هنا رجل اسمه « شيشنق » يغزو دلتا النيل ويحكمها ٢٠٠ سنة وتعرف أسرته بين الفراعنة بالأسرة الثانية والعشرين ..

ثم يأتى الغزاة كأرجال الجراد . ويرتفع صليل السلاح ويتخضب ذلك الشاطىء الهادىء الجميل بالدم ..

وتمضى مواكب خلف مواكب ..

الاغريق.. الفينيقيون .. العرب .. الاسبان .. الأتراك الطليان .. الانجليز .. وأسماء مدوية .. الاسكندر .. بطليموس .. عمرو بن العاص .

وجيوش بعد جيوش تصبح ترابا .. وأطماع تذروها الرياح .. ومدن تدفنها الرمال ..

هنا بقايا قوس ماركوس أوريليوس .. وهنا حمامات

وأسواق رومانية .. وفى بلدة سيرين القريبة معبد أبولو .. ومن هذا الباب دخل عمرو بن العاص سنة ٢٢هجرية فى جيش من خمسة آلاف جندى ..

وفى سنة ٥٦٨ هجرية جاء قراقوش المشهور من مصر غاضبا مغضوبا عليه من الأيوبيين ليدخل طرابلس من هذا الباب غازيا ومعه عسكر كثير وينهب ويسلب ويقود البغال محملة بالذهب الى قابس ..

وهنا جلس بدرو نافارو القائد الاسبانى بعد أن فتح المدينة ليكتب الى نائب الملك فرديناند قائلا :

أيها السيد هذه المدينة طرابلس أعظم كثيرا مما كنت أظن .. وبالرغم من أن جميع الذين وصفوها قد أجادوا الوصف الا أننى أرى أنهم لم يجتازوا نصف الحقيقة .. وبين جميع المدن التى شاهدت فى الدنيا لم أجد مدينة تضاهيها سواء فى تحصيناتها أو فى نظافتها .. وهى تبدو كمدينة امبراطورية أكثر منها مدينة لا تخص ملكا واحدا ..

ومن هنا مر « التيجانى » المؤرخ حينما كتب فى كتابه « رحلة التيجانى » ..

« ولما توجهنا الى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء .. »

ويضيف فى مكان آخر ..

ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعا واستقامة وذلك أن أكثرها تخترق المدينة طولا وعرضا من أولها الى آخرها على هيئة شطرنجية فالماشى بها مشى الرخ خلالها .. (الرخ هو قطعة الطابية فى الشطرنج)

وعن الغزو الاسبانى نعثر على خطاب كتبه الملك فرديناند الى قائده ..

استلمت رسائلك الثلاث الخاصة بتموين الحملة وقد أمرت بأن يكتب الى الونزو حتى يطحن بأسرع ما يمكن ألف كيس من القمح ويجهز كمية من البقسماط المجفف تكفى ثمانية آلاف رجل مدة ١٥ يوما .. كما كتبت الى خازن أموال ملقا بصرف عشرة آلاف دركات ووضع كل ما يملك من امكانيات التموين تحت تصرفكم ..

هكذا كانت تدبر المذبحة لأهل هذا البلد منذ

أربعمائة سنة ..

وفى صباح الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٥١٠ داهم بدرو نافارو طرابلس فى أسطول من ١٢٠ سفينة على متنها ١٥ ألف جندى اسبانى وثلاثة آلاف من المرتزقة الايطاليين والأوروبيين ..

وكان العرب يدافعون من وراء هذه الأسوار ومن خلف هذه القلعة ذاتها وما زالت قائمة بأبراجها .. ومن هنا كانت النبال وقذائف الحجارة والنار الفارسية والمياه الفائرة تتدفق فى محاولة لايقاف جحافل الغزاة .

وفى ذلك اليوم استشهد خمسة آلاف عربى وأسر عشرة آلاف آخرين بيعوا كرقيق فى أسواق صقلية بسعر ٣ الى ٥ دوكات للرأس ..

وتذكر الرواية أن يهود ايطاليا افتدوا أبناء جنسهم اليهود الذين أسروا فى المعركة ، أما ما تبقى من العرب فقد هربوا الى تاجوراء والى جبال الغريان .. وسقطت طرابلس بعد حرب أربع ساعات ..

ويروى لنا التاريخ أن بدرو نافارو الذى أبحر بعد ذلك بجزء من الأسطول ليغزو قرقنة ويحقق أحلام

اسبانيا التوسعية عاد بهزيمة منـــكرة بعد آن فقد ٩٠ سفينة وتسعة آلاف قتيل ..

واضطرت الحامية الاسبانية أن ترحل عن طرابلس تحت وطأة المقاومة الليبية والنجدات المستمرة التى تأتى من الداخل ..

ونعرف من التاريخ أن طرابلس بلغت أوج عظمتهـا فى عهد « أحمد باشا ألقره مالِلي » وهو تركى مثـل محمد على باشا فى مصر استقل بحكم ليبيا .. وأنشأ دولة قره ماليه مستقلة عن الباب العالى العثمانى ..

وفى هذا العهد بلغت البحرية الليبية من القوة بدرجة جعلت كل الدول تدفع لها جزية سنوية لتأمين مرور سفنها فى البحر الأبيض ..

وحينما رفضت بحرية السويد سنة ١٧٦٩ دفع الجزية .. أسرت البحرية الليبية سبع سفن سويدية ولم تجد السويد سوى نابليون لتوسطه فى عقد صلح مع ليبيا واطلاق السفن الأسيرة . ويومها دفعت السويد ثمانين الف فرنك غرامة .

ونجد أن أمريكا تسعى بعد ذلك بقنصلها لعقد صلح

مشابه وتوسط حسن باشا والى الجزائر فى ذلك الوقت لتأمين مرور سفنها فى مقابل تعريفة سنوية .

ثم نجدها فى سنة ١٨٠٣ ترسل السفينة الحربية فيلادلفيا بقيادة بامبريدج لغرب طرابلس انتقاما من تهديدها المستمر لأساطيلها .. فتكون النتيجة ضرب فيلادلفيا واغراقها أمام هذه الشواطىء وأسر بامبريدج .

وفى سنة ١٨٠٤ نجد أسطولا أمريكيا من ١٤ قطعة يضرب شواطىء طرابلس بدون جدوى ..

وفى سنة ١٨٠٥ تعترف أمريكا بسيادة ليبيا على البحر وتوقع معاهدة تدفع فيها ٦٠ الف دولار لاسترداد أسيرها بامبريدج .

وهكذا عرف هذا الشاطىء ذرى المجد ومهاوى الذلة وتعاقبت عليه الأحداث .. حتى التتار لم ينج من أهوائهم .. فى سنة ٤٤٠ بعد الميلاد أغارت جيوش الوندال (وهى قبائل تترية) على طرابلس ونهبت وخربت وأحرقت وأحالت لبدة الى كومة من الحجارة والتراب وفر أهلها أمام الونذال الى النجوع والقرى البعيدة ..

واستمر حكم الوندال الى سنة ٤٤٣ الى أن أقبل بلزاريوس القــائد الرومانى فى أســطول عظيم وهزم الوندال وشنق ملكهم قاليمار وأعاد ملك روما لروما ..

وكان شر ما عانى هذا الشاطىء فى أيام الاستعمار الايطالى .

وكانت أولى محاولات ايطاليا الاستعمارية فى أواخر العهد العثمانى الثانى سنة ١٩١١ وبدأت على استحياء ..

أنشأت جالية ايطالية قوية فى ليبيا ..

وفتحت مدارس ايطالية مجانية ..

ومستشفيات ومستوصفات ..

وأرسلت الجواسيس تحت ستار البعثات العلمية ..

وأهم من هذا كله أنشأت بانكو دى روما وكانت مهمته اقراض الملاك الليبيين الفقراء ثم نزع أملاكهم ..

وكانت أنشودة رجل الشارع فى ايطاليا فى هــذه الأيام « آه يا طرابلس الجميلة » .

ثم أسفرت ايطاليا عن نواياها فأعلنت الحرب فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ .. وبدأت المذابح .. والحرب التى قدرت لها ايطاليــا أن تنتهى فى ١٥ يوما امتدت الى

عشرين سنة فلم تستسلم ليبيا الا سنة ١٣٩١ بعد كفاح دام قضى على نصف سكانها ..

وفى سنة ١٩٣٧ جاء موسولينى الى هذا الشاطىء فى موكب وهيلمان ومثلت الادارة مهزلة اهدائه سيف الاسلام وحامى حمى الدين .. فى الوقت الذى كان يطعن فيه الاسلام ويلزم خطباء المسجد المساكين بالدعاء على المنابر يوم الجمعة للملك عمانويل بدل الدعاء لخليفة المسلمين ويلقى المتمردون من الطائرات كان المجاهدون يشنقون فى الميادين العامة وتسبى النساء وتغتصب الأموال وتفرض اللغة الايطالية كلغة أولى فى المدارس وينفى الوطنيون بالألوف .. وعلى من يريد أن يضمن حرمة منزله وأملاكه أن يتجنس بالجنسية الايطالية ..

وعلى كل طفل ليبى أن ينشد فى المدرسة نشيد الصباح :

أننا أبناء روما

جندها نحن القدامى

قد سعينا الألف عاما

ثم عدنا للعهود

وآلاف من المهاجرين الايطاليين والمستوطنين يجلبهم الشاطىء كل يوم .. ولكل ايطالى أرض مجانية يملكها وفيلا يسكنها وحدائق غناء تثمر له الفاكهة والتين والزيتون ..

ثم يروى لنا التاريخ هزيمة الفاشية فى الحرب وجثة موسولينى التى بصق عليها مواطنوها ..

أيام ..

لقد شهدت أياما يا طرابلس ..

من كان يظن أن الصحافة بدأت فى طرابلس منذ ١٤٠ سنة بجريدة مخطوطة باليد كان يصدرها القناصل فى نسخ محدودة .

ثم أصدرت طرابلس بعد هذا « السالنامه » بالتركية والعربية وبالمطبعة الحجرية وصدر منها ١١ عددا .

وفى سنة ١٨٦٦ بدأت جريدة طرابلس غرب التى ظلت تصدر أكثر من ٤٠ عاما فى العهد العثمانى ، وكانت أول جريدة تتقاضى اشتراكاتها نقدا فقد كانت أكثر الصحف قبل ذلك تتقاضى اشتراكات عينية .. كذا شوال

من الشـعير وكذا مكيـال من القمح مقـابل اشتراك سنوى ..

ومنذ سبعين سنة كانت فى طرابلس سبع صحف .. الترقى والعصر الجديد والكشاف والرقيب وأبو قشة وغيرها وغيرها فى ظروف طباعة بدائية وفى أسوأ ظروف الاستعمار الايطالى .. نقرأ هذا فى كتاب على مصطفى المصراتى « صحافة ليبيا » وعلى المصراتى هو عقاد ليبيا لا تستطيع أن تعرف أى شىء عن ليبيا دون أن تمر على كتبه ..

وفى ليبيا زهر جديد طالع كالنوار أمثال أحمد الفقيه وبشير الهاشمى ويوسف الغويرى وعلى صدقى يكتبون القصة والمقال والشعر .. وفى ليبيا أبطال بذلوا دماءهم فداء ومحبة أمثال سعدون وغوما وعمر المختار وسوف تكون لنا وقفة طويلة مع بعضهم ..

وليبيا ما زالت تتكلم العربية بالرغم من عشرات الغزاة الذين حاولوا فرض لغاتهم بالسيف والمدفع .. وهى مسألة تدعو للتأمل .. فالعرب أتوا غزاة هم الآخرون .. وأتوا بالسـيف .. ومع ذلك تقبلتهم ليبيا مفتـوحة

الذراعين وتشربت لغتهم وحضـــارتهم ثم تحولت الى مدافعة عن العروبة والعربية أكثر من العــرب الأوائل الذين غزوها ..

وربما كان هذا هو الدليل القاطع أن ما فعله العرب بالعــالم لم يكن نشرا للعقيدة بالسيف وانما كان نشرا لحضارة ..

وما انتشرت العقيدة بالقوة وانما بجاذبيتها الذاتيــة وبما حملته للناس من صدق وسماحة ومحبة .. حقيقة بسيطة وساطعة مثل شمس هذا الشاطىء المشرق ..

وما زالت الأمواج تحت قدمى تتلاطم ..

وعاصف التاريخ لن يهدأ ..

والايام يتداولها الخالق بين الناس ..

لا الامبراطوريات تظل امبراطوريات ولا العبيد يظلون عبيدا ..

ترى ماذا تخبىء لك الأيام يا طرابلس ..

يا أعز من أحببت ذات شتاء فى عام ١٩٦٧ ..

فهرس

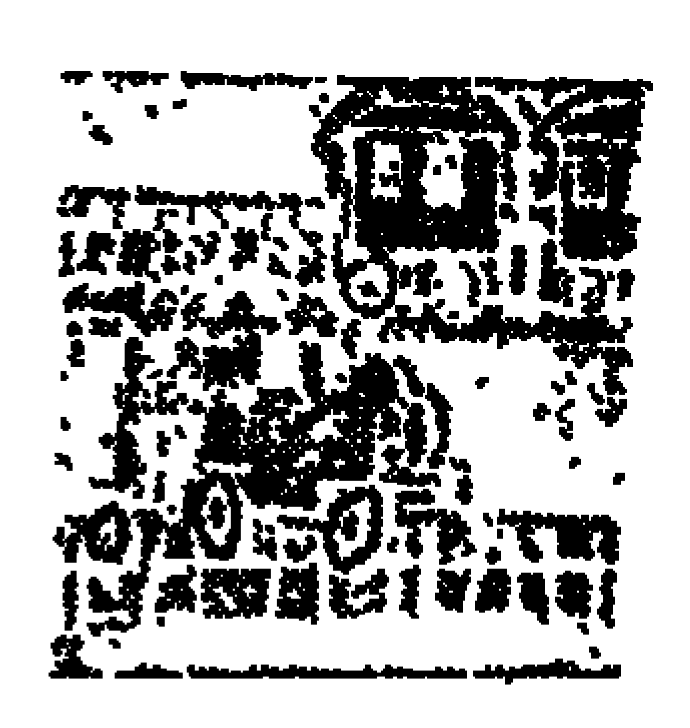
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

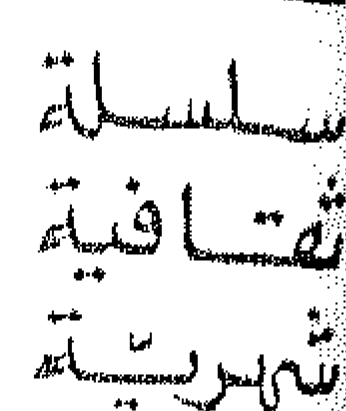
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 904
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



كلمة الأخيرة

مصطفى محمود كاتب كبير ناجح له شعبية واسعة فى أوساط القراء العرب فى كل مكان ، وقد احتل مصطفى محمود مكانته الكبيرة كفنان وصحفى بعد ان قدم عددا كبيرا من الدراسات اللامعة والاعمال الفنية الناجحة ، وكل كتابات مصطفى محمود تجمع بين الفكر العميق ، والتعبير الجميل السهل فى نفس الوقت ، مما يجعل قراءة كتاباته ممتعة للعقل والوجدان حتى لو كان يكتب فى اعصى المشاكل واكثرها عمقا وتعقيدا ، ومن هنا أكتسب مصطفى محمود شعبيته ومكانته ككاتب ناجح مقروء ، على ان مصطفى محمود قد اتجه فى السنوات الاخيرة الى ميادين جديدة فى الانتاج الفنى والفكرى ، ومن بين هذه الميادين مايمكن ان نسميه « بأدب الرحلات » ، فقد قام مصطفى محمود بعدد من الرحلات الشاقة ليكتشف الانسان والارض وليعرف كيف يفكر البشر عندما يعيشون فى ظروف صعبة قاسية مثل هؤلاء الذين يعيشون فى الصحارى وفى البيئات المنعزلة عن الحضارة . وفى هذا الكتاب الجديد « حكايات مسافر » نعيش مع مصطفى محمود فى مجموعة من رحلاته المختلفة .. فى بيئات متحضرة ، وبيئات بعيدة عن الحضارة، حيث تمتلىء هذه الرحلات – على صفحات هذا الكتاب – باكتشافات وجدانية وفكرية لامعة . وكما ان مصطفى محمود يصحبنا معه فى عدد من رحلاته ، فنحن من خلال صفحات هذا الكتاب المختلفة نقوم برحلة أخرى مع عقل مصطفى محمود الخصب واسلوبه السهل الممتع الجميل وملاحظاته الدقيقة الذكية .. انها رحلة مع مصطفى محمود ، ورحلة اخرى رائعة فى داخل مصطفى محمود نعيش فيها مع كاتب فنان صاحب احساس مرهف دقيق بالناس والحياة ..

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

أحمد عرابى

الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ٢٤٥ ربيع الثانى ١٣٩١ - يونية ١٩٧١

No. 245 — June 1971

مركز الادارة

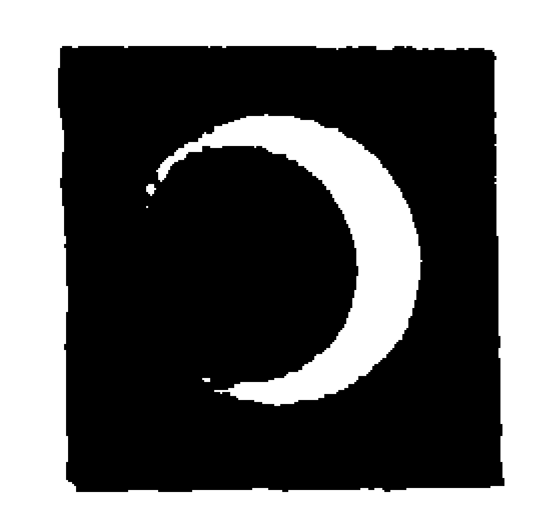
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عدداً) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م.) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنـــان حلمي التوني

محمود الخفيف

أحمد عرابى
الزعيم المفترى عليه

الجزء الأول

دار الهلال

الاهداء

الى الأشبال النواهض الميامين من شباب هذا الجيل ، فى وادينا المبارك ، وفى الأقطار العربية الشقيقة أهدى سيرة هذا الزعيم المصرى الفلاح ، الذى جاهد فى سبيل الحق ومات على دين الحق ، والذى آن أن ينصفه التاريخ وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية .

محمود الخفيف

مقدمة

كان المصريون الى عهد قريب يذكرون اسم عرابى فلا يبتعث هذا الاسم وا أسفاه فى أذهانهم الا صـــور العنف والنزق وتراهم وان لم يقصـــدوا يقرنون اسم عرابى بمعانى الهزيمة والاحتلال والمذلة كأن هذه المعانى من مرادفاته

وما أذكر مجلسا تطرق الحديث فيه الى عرابى الا وسرت فى الوجوه كآبة ، وتسابقت الالسن الى الهزء به وتعديد مساوئه وابراز مثالبه ، اللهم الا قلة لا يعجبهم هذا الكلام ولكنهم لا يعرفون كيف يدفعون عنه هـــذا الظلم ..

وكنت أبدا أحــد المخالفين الذين يحسون فى قرارة أنفسهم ان الرجل مظلوم وأنه مفترى عليـــه ، وكنت أسأل نفسى دائما : أما آن للتاريخ أن ينصف هـــذا المصرى الفـــلاح وأن يحدد له مكانه بين قواد حركتنا القومية ؟

والحق أنه قل أن نجد فى رجالنا رجلا ضاعت حسناته فى سيئاته كما ضاعت حسنات عرابى فيما افترى عليه من سيئات ، كذلك قل أن نجد فى رجالنا رجلاً كرهه أكثر بنى قومه مضللين ، واستنكروا أعمـــاله جاهلين بقدر ما كره هؤلاء عرابيا واستنكروا ما فعل وما أسند

اليه من الاعمال زورا وافكا ، وفى ذلك دليل قوى على أن التاريخ قد يظلم عامدا كما قد يخطىء غير عامد ، وفيه كذلك دليل على أن الامور كثيرا ما تجرى فيه كما يشاء الحظ لا كما يكون العدل والقسطاس ، فيكون نصيب بعض الرجال من التعظيم والتوقير بقدر ما يتوافى لهم من حظ لا ندرى كيف اتفق لهم دون غيرهم ، بينما يجنى على كثير من ذوى النفوس الصحيحة والعظمة الصادقة ما يلحق بهم من سوء الطالع وما يحيط بهم من نحس الايام ...

وما كان عرابى فيما أعتقد الا طالب حق يلحق به فى طلب الحق الخطأ والصواب كما يلحق بغيره ، ولعلى استطعت أن أجلو ذلك فى سيرته بقدر ما وصلت اليه من الادلة فى تلك السيرة التى بالغ كثير من ذوى الاغراض فى تشويهها والحط من قدر صاحبها .

ومهما يكن من الامر فما أحسب ان فى الناقمين على عرابى من يستطيع أن يمارى فى أنه كان زعيم حركة وداعية فكرة وأنه ، أخطأ أو أصاب ، كان مخلصا فيما يفعل أو يقول ، وأنه قبل ذلك كله وفوق ذلك كله كان أول مصرى فلاح فى مصر الحديثة نجم من بين عامة الفلاحين فى قرية من قرى مصر فاضطلع بقضية من القضايا الوطنية الكبرى ، ونادى على رأس المنادين بمطالب مصر ، وصار اسمه فى ظرف هام من ظروف نهوضها علما على الجهاد ورمزا للمقاومة ومثلا للقومية حتى شاءت الاقدار فامتشق الحسام وسار على رأس جيش من بنيها الفلاحين يذود عن أراضيها ويقف غير طامع ولا هازل فى وجه الغادرين الباطشين من أعدائها

بهذه الروح كتبت عن عرابى ، وعلى هذا الاساس بينت سيرته فالاخلاص فى الرجال هو عندى مقياس

بطولتهم بل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها ، أما الصواب والخطأ وما اليهما فأمور توجد فى الابطال وغير الابطال ، ولا فرق فيهـا فى كثير ولا قليـل بين هؤلاء وهؤلاء ...

واني اذ كنت أكتب سيرة عرابى كانت تقوم فى ذهنى المفتريات التى افتريت عليه ولـكن ذلك لم يضعف قط احساسى بأنه كان شديد الاخـلاص لقضيتـه متوقد الحمية فى وطنيته شديد الانفة فى قوميته وليس بضائره بعد ذلك ما يرميه به المبطلون أوالمفرضون، ولو قد واتاه الحظ الأعمى كما واتى الآلاف غيره من الزعماء والقواد فانتصر فى معركة التل الـكبير ، أو لو أنه لم يحط به من الخيانة فى أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به وأبلى فى تلك المعركة بعض البلاء أو قتل فى غمرتها لرأينا اليوم له التماثيل فى عواصمنا ولزخرت الكتب بالثناء عليه

وعندى أنه من أكبر الظلم أن تنسى حسناته وهى لعمر الحق كثيرة ولا تذكر الا أخطاؤه ما اقترفه وما افترى عليه منها لتسـاق أدلة على ما يشاء بعض المؤرخين نعته به ...

ولقد كان هذا الظلم الذى لقيه الرجل علىأيدى فريق من بنى قومه هو حافزى للـكتابة فأخذت أنشر سيرته تباعا فى مجلة الرسالة الغراء ، وما أن رأى بعض أبنائه المقال الرابع حتى تفضلوا بزيارتى بدار المجلة معبرين لى عن شكرانهم ثم وضعوا بين يدى مذكراته المخطوطة وبعض الكتب التى كانت ترد اليه فى منفاه وغيرها من الوثائق والصور العظيمة القيمة ، مما أثنى عليهم من أجله أعظم الثناء ...

ومما طبت له نفسا ما أفضى الى به أحدهم ومؤداه أن والده رحمه الله تنبأ بأن الذى سيدافع عنه هو شاب

من شباب الجيل القادم الذى لم يفسده الاحتلال ..!

وما زادتنى هذه النبوءة الا اهتماما بدراسة سيرته لعلى أكون هذا الشاب الذى يحسن أن يدافع عن عرابى، ولقد كنت قبل هذا كما ذكرت أحس انه مظلوم وأن أعداءه بالغوا فى الكيد له والزراية عليه ، وآلمنى من هذا الظلم فضلا عما يلحق عرابيا منه أنه ينال كذلك من حركة مصر القومية على يديه تلك الحركة الجليلة التى حاول المبطلون تشويهها .

***

وبعد فهذا كتابى أقدمه للقراء ، فان كنت وفقت الى ما أحببت فحسبى جزاء على ما بذلت من جهد أنى أنصفت مظلوما قضى نحبه ولم ينصفه أحد ، وأنى بسطت سيرة الحركة القومية ولعل فى هذا البسط عبرة وذكرى لهذا الجيل الذى يتوثب ويتطلع الى المجد ، وان كنت قصرت عما أردت فعذرى أن هذا جهد ما استطعت ، ولتكن هذه خطوة متواضعة يسرنى أن أشهد بعدها خطوات يخطوها غيرى من الكرام الكاتبين فى سبيل هذا الوطن الذى نخلص له الحب والولاء .

وفقنا الله للعمل لمصر وهيأ لمصر المكان المرجو من العزة والسؤدد والحرية .

محمود الخفيف

الصبى القروى

يجد كتاب التراجم الذين يتناولون سير العظماء طائفة من الانباء التى تجلو حياة هؤلاء ابان طفولتهم فيستعرضونها مستخرجين منها ما يعدونه من أمارات النجابة ومن بشائر النبوغ والتبريز ، أو ما يرون أنه من الشواهد على قوة الشخصية وبعد الهمة ومضاء العزيمة وما اليها مما تقوم عليه العظمة .

ونحن اذ نتكلم عن أحمد عرابى تعوزنا المصادر التى يمكن أن نعلم منها الكثير عن سيرته وخلاله فى طفولته وقصارانا أن نقول انه ولد فى شهر مارس سنة ١٨٤١ فى هرية رزنة ، وهى قرية بالشرقية تقع غير بعيد من مدينة الزقازيق ...

ونشأ الصبى القروى كما ينشأ الآلاف مثله فى قرى مصر على نمط من العيش لا نحسبه يختلف كثيرا أو قليلا فى قرية عنه فى أخرى من هاتيك القرى التى نبتت منذ الازل على ماء النيل .

نشأ فى هذه القرية الصغيرة ذلك الصبى الذى قدر له أن يجرى اسمه يوما ما على كل لسان فى مصر ، والذى صارت حياته فيما بعد فصلا من تاريخ وطنه ، والذى تداولت اسمه ألسن الساسة فى انجلترا وفرنسا دهرا طويلا ، والذى أجبر الخديو على النزول اليه حيث

وقف على رأس الجيش يوم عابدين ليسمعه كلمة الامة ، والذى يحتل جهاده أبرز مكان فى كل كتاب تناول ما تعارف المؤرخون على تسميته المسألة المصرية ...

ودرج الصبى القروى بين لداته فى هرية رزنة عرضة للأوبئة المختلفة ، يحيط به فى قريتـــه الجهل والفقر والمرض أينما اتجه ، ولا يجد حوله من مظاهر الحياة والعمران مثل ما يجده من ينشأ فى مدينة كبيرة أو يتلقى العلم فى مدرسة منظمة .

وكان أبوه محمد عرابى شـــيخ هرية رزنة أو على الاصح أحد « مشايخها » على حد الاصـــطلاح الادارى فكانت تقسم القرى فى تلك الايام أقساما يسمى الواحد منها «حصة» ويعين على كل حصة شيخ يختار لبروز شخصيته اما بالثراء أو بالقوة أو بالاستنارة بشىء من التعليم أو بها جميعا ، ولم تكن وظيفة العمدة على النحو القائم فى القرى الآن قد عرفت بعد .

ويذكر عرابى عن أبيه فى مذكراته (١) أنه كان «شيخا جليلا رئيسا على عشيرته عالما ورعا تقيا نقيا موصوفا بالعفة والامانة » ، ونراه عند ذكر نسبه يعدد آباءه حتى يصل الى السيد صالح البلاسى فيذكر أنه ينسب الى بلاس وهى كما يقول قرية صغيرة ببطائح العراق ، كما يذكر أنه أول من هبط مصر من أجـــداده وأنه تزوج بالسيدة صفية شقيقة السيد أحمد الرفاعى الصيادى، وما يزال عرابى يرتقى بنسبه اذ يذكر آباءه بعد البلاسى هذا حتى يصله بالامام موسى الـكاظم بن الامام جعفر الصـــادق بن الامام محمد الباقر بن الامام على الزاهر زين العابدين بن الامام الحسين رضى الله عنه .

(١) كشف الستار عن سر الاسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية .م.

ويذكر عرابى كذلك فيما يذكره من أنباء والده قولة : « وكان قد أمر والدى بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جدده للعامة بعد عصر كل يوم وبعد صلاة العشاء فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عبادتهم وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل بلده » .

وأدخله أبوه مكتب القرية . وهو كما يقول من منشآته فيها ، وفى هذا المكتب فتحت عينا الصبى على نور العلم فحفظ شيئا من القرآن الكريم وتعلم مبادىء القراءة والكتابة ...

***

ويمكننا أن نتصور حال هذا الصبى فى أول عهده بالتعليم قياسا على ما نعرف من حال أمثاله من أبناء المكاتب فى كل قرية ، وهى حال تكاد أن تكون فى القرى جميعا واحدة فلا فرق بين مكتب ومكتب الا بقدر مايكون من فرق بين قرية وقرية .

فهذا صبى فى جلباب طويل من القطن أو التيل وفوق رأسه قلنسوة ، يخطر بين صبية مثله الى المكتب وتحت ابطه لوح من الصفيح وبيده محبرة فيها الأقلام الغاب خزانة أو هى محبرة ذات « مقلمة » كما يقول أبناء المكتب ، وهو لايمتاز عن بقية الصبية فى شىء الا بما عسى أن يكون فى قدميه من نعل لأنه ابن شيخ البلد وأكثرهم حفاة ، وما يحضر فى جيبه من فطائر يأكلها متى جاع أو يدفعها الى « الفقيه » على جوعه فى حين لايوجد فى جيوب لداته الا الخبز اليابس ...

وفى المكتب يجلس الصبى على الارض بين أقرانه ولعل العريف يرفعه درجة فيجلسه على حصير أو على دكة من الخشب ثم يكتب له بعض كلمات فى لوحه ليكتب

مثلها ، أو بعض أرقام الحساب ليقلد رسمها ؛ فلا يضع لوحه الا حين يتلو العريف على الصبية بعض سور القرآن الصغيرة جملة فجملة فيرددون ما يتلو فى نغمة مثل نغمته ، ويردد الصبى كما يفعلون ولكنه أفصح منهم لسانا وأسرع حفظا ، فالفصاحة هى أول ما يظهر من صفات ذلك الصبى وبها يتحدث العريف الى أبيه !

وتعهده صراف القرية كذلك ميخائيل غطاس فعلمه مبادىء الحساب ، وكان تعلم الحساب يحدث عادة على يد هؤلاء الصيارفة وبخاصة لأبناء المشايخ الذين يتصل بهم هؤلاء ويحرصون على مودتهم ورضائهم .

***

ومات أبوه وهو فى الثامنة من عمره ، ولكن يتمه لم يحل بينه وبين أن ينال قسطا من التعليم فى الازهر ، فقد أرسله أخوه الاكبر محمد عرابى الى هناك عسى أن يكون عالما من علمائه ، ولكن الصبى لم يلبث بالازهر الا أربع سنوات تعلم فيها على طريقة الازهر يومئذ شيئا من الفقه والتفسير والنحو ، وحفظ الصبى القرآن بالضرورة كما يفعل من يلتحقون بهذا الجامع العتيد .

وعاد الصبى الى قريته ولسنا نعلم ما الذى حمله على العودة ، أكان ذلك نفورا من التعليم وركونا الى البطالة ، أم كان لرغبة منه فى أن يسلك فى الحياة سبيلا غير سبيل الازهر ؟ ذلك ما لا نستطيع أن نتبينه على وجه اليقين . وكان من الممكن أن يعيش هذا الصبى القروى بقية عمره فى تلك القرية زارعا ثم يموت فيها كما يعيش ويموت سواه من الفلاحين .

ولكن الاقدار تخرجه بعد قليل من القرية ليغدو فيما بعد رجلا من رجال مصر ، بل ليكون أول مصرى فلاح ينطق بحق مصر وتتمثل فى حركته الروح القومية لمصر

وقد استيقظت من سبات طويل وأخذت تنفض عنها غبار القرون ، أجل أخرجت الاقدار هذا الفلاح من قريته ليقف وجها لوجه تلقاء خديو مصر يعلن اليه فى بسالة وفى غير طيش أن « أهل مصر ليسوا عبيدا وأنهم لن يورثوا بعد اليوم » ويفتتح بهذه الوقفة وبهذه الكلمة فصلا جديدا فى تاريخ هذه البلاد فيكون فضله فضل الرواد يخطون الخطوة الاولى فيظل لهم الفضل ويظل لهم الحمد وان اتسعت بعدهم الخطوات وتوالت الوثبات، وما نحسب خطوة عرابى فى طريق الحرية والقومية كانت أقل خطرا من وثبة سعد ، ذلك الفلاح الذى نهض من بعده والذى غضب مثل غضبته ووثب مثل وثبته واتجه نفس وجهته ، ولكنه لم يكن من رجال السيف فلم يشهر الا القلم سلاحا ولم يمتط الا أعواد المنابر مجاهدة وكفاحا

***

ونحب أن نقف عند أمرين فى نشأته كان لهما أثر بعيد فى تكوين خلقه وخلق شخصيته ، أما أولهما فهو أن أباه كان شيخا فى القرية ، وأما الثانى فهو أنه فى التحدث عن نسبه يصل أجداده بالحسين عليه السلام

كان يجد أبناء الحكام فى القرى حتى وان لم يكن حظ آبائهم من الثراء كبيرا أنهم فى موضع يصغر دونه موضع أبناء الزراع ، ففيهم على لداتهم شىء من الترفع وفى نفوسهم شىء من الكبر على من حولهم من الناس ، اذ يجد الصبى منهم أباه محاطا بالتوقير مخوف الجانب يتقدم الناس اذا سار ويفسح له صدر المجلس اذا جلس ، وتبدو عليه اذا كان ذا مال آثار النعمة فى مظهره وملبسه كما تبدو تلك الآثار فى مسكنه وفيما يقتنى من دواب وفيما يقوم على خدمته من خدم أو يلوذ به من اتباع أو يحيط به من بطانة ، لذلك كان اذا خرج هؤلاء

الابناء من القرية الى مجال أوسع منها خرجوا وفى أنفسهم ذلك الاعتزاز الذى ألفوه فى بيئتهم الاولى فما يحبون أن يسمعوا كلمة نابية بل انهم ليكرهون أن يجدوا عدم الاكتراث لهم بله التطاول عليهم ، ولقد يوحى الى الصبى منهم ما غرس فى نفسه منذ صغره أن يثور على الوضع الجديد اما باظهار القوة البدنية على من كانوا فى مثل سنه ، أو بالتفاخر عليهم بالمال والنسب ، واما بالعناد والشغب على من لهم عليه حق الطاعة من المربين والرؤساء ، ولقد يسرف هؤلاء فيتوهمون المذلة فيما ليس فيه مذلة ، أو يفسرون بالاهانة ما لم يقصد به أية اهانة فيبدون لذلك كثيرا من الاباء ويغالون فيه حتى ينقلب اباؤهم شراسة أو حتى يحسبه الناس شراسة.

***

ونحس من سيرة عرابى أنه كان أحد هؤلاء ، فلما قدر له أن يخالط قوما كانوا ينظرون الى المصريين جميعا نظرة الاحتقار ويجعلون نعتهم بالفلاحين مسبة لهم ، ثارت فى نفسه الحمية ثم عصفت فى رأسه النخوة فكان صوته أول صوت مصرى مثل القومية المصرية وان كان بذلك يفصح عن شعور غيره ممن أحسوا مثل احساسه ولكن لم يكن لهم مثل جرأته وقوة شخصيته .

وزاد الحمية تسعرا فى نفس عرابى ثانى الامرين اللذين أشرنا اليهما وذلك وصله أجداده بالحسين بن على رضى الله عنهما ، فسواء أصحت هذه الصلة أم لم تصح فقد كان بها مؤمنا ، وكان ايمانه بها كفيلا أن يملأه انفة وعزة فمن كان مثله كما يزعم شريفا عربيا ينتمى الى الحسين عز عليه أن يستذل وبخاصة بأيدى قوم يرى أنهم مهما علوا فهم دونه علوا وشرفا ، وانك لتلمح اعتزازه بنسبه فى تمثله ببيت الفرزدق « أولئك آبائى » فى خاتمة

كلامه عن نسبه فى مذكراته .

بقى الصبى فى قريته لايعلم ماذا يكون من أمره فى غده ، ولا يخالط الا الفلاحين من أبناء القرية ، أما الشراكسة المترفعين الذين يمقتون الفلاحين فلم يك يعلم من أمرهم شيئا ولا كان يسمع يومئذ بوجودهم ، وأنى له ذلك فى قريته ، ولكن الاقدار عما قريب سترمى به الى حيث يجد نفسه كما يجد بنى قومه موضع ازدراء هؤلاء ، فلا يطيق هذا الفلاح المصرى ترفعهم وكبرياءهم والتمتع بأكبر المناصب فى الجيش ، واذ ذاك يناضل عن قوميته ويغضب لكرامته ويكون فى هذه الدائرة الضيقة وان لم يقصد ممثلا مصر كلها التى كرهت الاجانب يومئذ وقد استيقظت فيها روح القومية ، تلك الروح التى تتمثل فيما امتلأت به نفس ذلك الفتى القروى القادم من قرية مصرية .

في صفوف الجيش

لم يطل بالصبى المقام بالازهر ، ولم يطل به كذلك المقام فى قريته ، فان القدر الذى لم يشأ له أن يكون شيخا من أشياخ الازهر ، ولا فلاحا من فلاحى القرية ، قد شاء لهأن يكون جنديا فى صفوف الجيش .

أراد سعيد باشا أن ينهض بالجيش المصرى ، فأمر أن يكون فى صفوفه أبناء المشايخ والاعيان ، كيلا يحتقر الجندى فى نظر الناس ، اذ كانوا لايرون الا المستضعفين والفقراء يحشدون ويساقون الى الجيش ليكونوا عسكره ، أما ضباطه وقواده فكان أكثرهم من الشركس.
وكان بين من ألحق بالجيش من أبناء الاعيان هذا الفتى الازهرى القروى ، وكان يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ، وبالتحاقه بالجيش تبدأ مرحلة جديدة فى حياته ، ثم تنتهى من ناحية أخرى مرحلة تعليمه ، ومن ذلك ترى ان كل ما ناله هذا الفتى من المعرفة لم يعد ما تلقاه فى المكتب ثم فى الازهر حتى سن اليفاعة ، اللهم الا ما كان من مطالعاته فيما بعد ، وهى أمر لا نستطيع تحديده ...

انتظم عرابى فى سلك الجيش جنديا صغيرا ، ولكن حظه من القراءة والكتابة على قلته ، والمامه بشىء من علم الحساب قد أجدى عليه من أول الامر فعين فى عمل

من أعمال الكتابة بالاورطة الرابعة من آلاى المشاة الاول (١) .

وما لبث أن رقى عرابى بعد سنتين الى رتبة ملازم ثان ، ثم الى رتبة ملازم أول، فيوزباشى فى نفس السنة ، وكان يومئذ فى السابعة عشرة ، ولم يمر عامان بعد ذلك حتى وصل الى رتبة قائمقام ، وكان عرابى أول مصرى وصل الى هذه الرتبة كما يقول فى مذكراته .

وصل هذا الجندى من رتبة الجاويش الى رتبة قائمقام فى أقل من أربع سنوات وما كان ذلك عن حظوة له عند أحد ، وانما كان سلاحه ذلك القدر من العلم الذى أشرنا اليه ، فبه تمكن عرابى أن يدرس القوانين العسكرية ويجتاز بها الامتحان متفوقا ، ويدلنا ذلك على ندرة المتعلمين فى ذلك الجيش ، ولا شك فى أن هذا الترقى السريع قد بث فى نفس الفتى القروى كثيرا من الطموح والاقدام ...

على أنه كان طموحا بطبعه ، جريئا فى عصر كثيرا ما كانت تعد الجرأة فيه ضربا من العصيان والتمرد كما سيأتى بيانه ، ولسوف نرى من مواقفه فى ذلك العصر ما يزيد معنى بسالته وضوحا ، ويظهرها مضاعفة .

وأول ما عرف عنه فى الجندية كراهته للعنصر الشركسى ، فكان لايفتأ يقارن بين نصيب هذا العنصر ونصيب المصريين من المناصب ، فلا تزيده المقارنة الا

---

(١) ويذكر عرابى فى تاريخ حياته الذى كتبه لمستر بلنت والحقه هذا بكتابه ، أنه كره أن يعمل هذا العمل الكتابى لانه لا مجال فيه للترقى . وبما انه كان يطمع أن يكون ذا شخصية كمدير الاقليم ، فقد الح على رئيسه أن يلحقه بصفوف الجيش ، ولكن رئيسه افهمه أنه يخسر بذلك ، لان أجره فى وظيفته هذه ستون قرشا فى الشهر وأجر الجندى خمسة عشر فحسب ، وما زال عرابى بهذا الرئيس حتى الحقه بالجيش فى مرتبة جاويش .

غضبا وكراهية لهؤلاء الاجانب ...

أليست هذه النزعة فيه هى نزعته الوطنية فى الجيش يوم تبدأ الحركة العسكرية ؟ ثم ألسنا نجد فيها جانبا من الوطنية ونحس معنى من معانيها ؟

ولكن بعض المؤرخين لا يفهم هذا من جانب عرابى الا على أنه ضرب من الانانية والجشع ، بل لقد يسرف بعضهم فيرمونه بالتبجح قائلين : ما لهذا الفلاح وعليا المراتب فى غير جدارة ؟ وانهم فى الحق ليمتدحونه بذلك من حيث لايشعرون ولئن كان الطموح بالنفس والشعور بالقومية تبجحا ، فماذا نسمى التقاعد والتخاذل والاستخذاء أمام الاجنبى ؟ ألا ليت كل تبجح يكون كتبجح عرابى هذا ، فما أجدره بالاعجاب والثناء .

وكيف يستطيع رجل فى مثل موقفه أن يقنع المكابرين أن نزعته كانت قومية يقصد بها بنى قومه جميعا ؟ وأى عيب فى أن يبدأ بنفسه فيرقى بها ؟ أليس مصريا ؟ وهل كان يعتز الا بمصريته اذ اعتز بنفسه ؟ على أنه لو أراد بالرقى نفسه فحسب دون أى اعتبار قومى فما وجه العيب فى ذلك ؟ أيكون من العيب أن يتطلع الانسان الى المعالى ، ولا يكون من العيب أن يرضى بتقدم غيره عليه فى غير حق ، حتى ولو كان ذلك الغير أجنبيا ؟

كره عرابى الاجانب فى الجيش كرها شديدا ، وبخاصة هؤلاء الشراكسة المتعصبين لانفسهم المترفعين على المصريين واستقر هذا الكره فى أعماق نفسه ، ولسوف يجر عليه عنتا كثيرا وضيقا ، ولكنه لن يأبه لذلك ، ولسوف يظل على عناده واصراره حتى يصبح الامر أمر الوطنيين جميعا فى الجيش لا أمر أحمد عرابى فحسب .

وظل عرابى فى مرحلته الاولى فى الجندية ساخطا على هؤلاء الاتراك والشركس لا يفتر سخطه ولا ينقطع عليهم

شغبه ، يكيدون له ويكيد لهم ، وانا لنلمس فى هـذا سببا قويا من أسباب زعامته للحركة العسكرية فيما بعد ، فلسوف يلتقى فى دار هذا المتبرم الساخط رؤوس الساخطين الحانقين من رجال الجندية يوم يزمعون أن يشتكوا الى الحكومة فى أوائل عهد توفيق مما يلحق بهم من أذى من جراء سياسة وزير الجهـادية الشركسى عثمان رفقى ...

ويذكرعرابى فى مذكراته ما كان بينه وبين سعيد باشا من حسن الصلة حتى لقد اختاره ياورا له فى زيارته المدينة المنورة ، فكان على مقربة منه أثناء هذه الرحلة وقد أهدى اليه هـذا الوالى كما يذكر تاريخ نابليون مترجما الى العربية ، ولقد قرأ عرابى هذا التاريخ كله فى ليله ، كما قال فى مذكراته عن نفسه التىكتبها لمستر بلنت والتى اثبتها هذا فى آخر كتابه ، وقد ذكر فيها عرابى أن سعيدا ألقى بالكتاب مغضبا على الارض اذ رأى أن نابليون استطاع أن يفتح مصر بثلاثينألفجندى، وتناول عرابى الكتاب فلم ينم حتى أتمه ، وجاء الىسعيد ينبئه أن نابليون استطاع ذلك بالجيش المدرب ، وأن سعيدا يستطيع أن يجعل لمصر جيشا مدربا على نمط جيش نابليون ، ولست أستطيع أن أتبين على وجه اليقين ماتركته قراءة مثلهذا التاريخ من أثر فى نفسه ، فلم يعلق هو على ذلك الا بقوله : « ولمـا طالعت ذلك الكتاب شـعرت بحاجة بلادنا الى حكومة شـورية دستورية ، فكان ذلك سببا لمطالعتى كثيرا من التواريخ العربية » (١) .

ولست أدرى كيف توحى قراءة تاريخ نابليون بحاجة مصر الى حكومة شورية دستورية ؟ على أن قراءة سيرة

---

(١) كشـف الستار عن سر الاسرار .

ذلك الجندى المغامر الفذ الذى وصل بجده الى قمة المجد الحربى وبلغ أوج الشهرة والجاه ، توحى الى كل من يقرؤها معانى الاقدام والبطولة وتملأ النفس تطلعا وحماسة ، وعلى هذا فلا يصعب أن نتصور ماعسى أن تلقيه تلك السيرة من المعانى فى نفس كنفس عرابى الجندى المتطلع المتوثب ...

ويشيرعرابى فى مذكراته الى أن سعيدا كان يميل الى المصريين فى الجيش ويريد أن يرفع عنهم ما لحقهم من غبن على يد الشركس ، كما يشير الى أنه كانت لسعيد نزعة وطنية تتجلى فى محبته لمصر وللمصريين ، وفى رغبته أن ينالوا قسطهم الحق من الترقى فى الجيش .

وما يعنينا من ذكر هذه العلاقة بين سعيد وعرابى الا ما فيها من اقبال عرابى على كل من يحب المصريين ، فهذا الاقبال دليل على أن النزعة الوطنية القومية كانت منبعثة من أعماق نفسه ، وعلى أن شغبه على الشركس والترك لم يك بدافع الاثرة كما يحلو لبعض الناس أن يرموه ...

ويقول عرابى ان ميول سعيد الوطنية قد تبينت فى خطبة القاها فى حفل جمع كثيرا من علية القوم ، وقد أثبت عرابى فى مذكراته بضعة أسطر تحت عنوان : خطبة المرحوم سعيد باشا ، وبدأها بقوله : قال مرتجلا.

فهل أثبت عرابى خطبة الباشا وهو يلقيها ؟ اذا صح ذلك كان لكلام سعيد الذى يورده عرابى أهميتـه فى الدلالة على اتجاه هذا الوالى يومئذ ، واذا كان عرابى يذكر ما وعته ذاكرته فحسب ، فان فى هذا الذى يذكره عن سعيد ما هو كاف لان يكشف عن نزعته ، وقد جاء فى هذه الخطبة قول سعيد حسبما أثبت عرابى «وحيث انى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا

الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لان يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفســه عن الاجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل » .

يقول عرابى : « فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الامراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشــين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر فى أساس نظام مصر للمصريين . وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هــذه النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الامة المصرية الــكريمة » .

ولقد كتب عرابى هذه الآراء بعد الثورة ، ولعل فى ذلك ما يدعو الى ضعف الثقة فى قيمتهــا عند بعض المؤرخين ، كما هو الحال مثلا فى مذكرات نابليون التى كتبها فى منفاه فى سانت هيلانة ، فلقــد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا الى نفسه فنظر وتدبر .

ولكن أعمال عرابى التى لاينكرها المؤرخون ، حتى المغرضون منهم ، لاتتناقض مع كثير مما جاء فى مذكراته ، وعلى الاقل فى هذا الجانب الذى نتلمس فيه الدليل على ما نحسه من أن عرابيا قد اتجه منذ نشأته اتجاها وطنيا قوميا ، وهذا أمر نراه على جانب عظيم من الاهمية ، ففى هذه النزعة القومية نرى عرابيا الحقيقى . أما عرابى الذى صوره خيال المغرضين من المؤرخين والمدافعين عن الاحتلال من كتاب الانجليز فما أبعده عن هذا ، وهل كان يحلو لهؤلاء الذين اســتغلوا حركة عرابى أقبح استغلال الا أن يصوروه أقبح صورة ، فلا يكون عندهم الا جنديا جاهلا مغرورا ، واتته الظروف فراح يخبط

فى حماقته لا يلوى على شيء ، وما زال فى جنونه يلوح بسيفه حتى اضطر آخر الامر الى أن يسلمه صاغرا الى قائد جيش الاحتلال الانجليزى ...

ما كانت حركة عرابى عسكرية بحتة كما يتصور البعض ، وما كان هو بالاحمق ولا بالمجنون ، وانما كان لابد أن تلتقى الحركة العسكرية ، وهى لا تخلو من الصفة الوطنية ، بالحركة الوطنية العامة ، ولقد تم هذا الالتقاء فى شخص عرابى ، وكان النجاح حليفه فيما طلب باسم الامة يوم عابدين ، ولا لوم عليه بعد ذلك ولا جناح أن تحاك الدسائس وتوقد نار الفتنة تنفيذا لسياسة مرسومة سوف نميط اللثام عنها بكل ما وسعنا من حجة

هذه النزعة الوطنية القومية فى نفس هذا المصرى الفلاح مع ما توافر له من صفات الغيرة والبسالة هى التى جعلت اليه قيادة الحركتين يوم التقتا ، وما نشير اليها الآن هذه الاشارة فى غير موضعها من سيرته الا لنبين هنا أنها نزعة أصيلة فيه جاشت بها نفسه منذ شب ، وكانت الثورة التى نشير اليها هى مظهرها فيما بعد . كتب فى ذلك مستر بلنت وكان من أصدقاء عرابى يقول فى علاقة عرابى بسعيد : « وقد حظى عرابى ، وكان شابا حسن الطلعة ، بعطفه ، حتى لقد اختاره أركان حرب له ورافقه الى المدينة فى السنة التى سبقت وفاته وقد كون عرابى آراءه السياسية الاولى أثناء هذه الصلة القريبة بسعيد ، وهذه الآراء هى المساواة بين طبقات الامة ، وما يجب للفلاح من احترام باعتباره العنصر الغالب فى القومية المصرية ، وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى جعل لعرابى ميزة بين مصلحى ذلك العصر . فقد كانت حركة الازهر ترمى الى اصلاح حال المسلمين عامة بغير تمييز بينما كانت حركة عرابى فى

جوهرها قوامها الجنسية ، وهذا جعلها أوضح فى معنى القومية ومن ثم قدر لها أن تكون أكثر شهرة وذيوعا »

ولقد كان لصلة عرابى بسعيد على هذا النحو أثرها فى حنق عرابى على اسماعيل فلم يكن فى قلب هذا الوالى شيء مما كان فى قلب سلفه من الميل الى المصريين ، بل لعل ميله كان الى الشراكسة ، وقد أدى ذلك منه الى ازدياد كراهية عرابى لهؤلاء واضطغانه عليهم ، اذ يرى أن كل حظوة لهم عند الوالى انما هى على حساب الوطنيين

وقويت فى نفسه النزعة الوطنية ، وزادها قوة اتصاله بتلك الحركة الوليدة التى أخذت تدب فى جسم الامة وقد كرثتها الكوارث من وراء سياسة اسماعيل وديون اسماعيل .

وازدادت كذلك فى نفسه نزعة التمرد والسخط ، وتجلت فى مواقف له كان من أهمها ما كان بينه وبين خسرو باشا الذى ما زال يكيد له ويسعى بالوشاية به عند أولى الامر حتى رفت من الجندية .

وكان خسرو هذا شركسيا ، وقد رقى حتى أصبح فى مرتبة اللواء وصار رئيسا لعرابى الذى كان يومئذ قائمقاما للآلاى السادس، ويذكر عرابى أنه رقى «لا بعلمه ومعارفه ، بل لكونه شركسيا ومن الخارجين على الدولة العلية مع ابراهيم باشا بن محمد على باشا فى تلك الفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الاسلام وكسرت شوكة الدولة العلية الحامية لجميع الموحدين » .

ويعزو عرابى سبب رفته الى أن خسرو قد سار بالوقيعة بينه وبين وزير الجهادية متهما اياه بأنه «صلب الرأى شرس الاخلاق لا ينقاد لاوامره ولا يحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية » ، ثم يقول عرابى معقبا على ذلك : « وما بى والله من شراسة ، ولكنى جبلت على

حب العدل والانصاف وبغض الظلم والاجحاف » .

ويذكر عرابى سببين للخلاف بينه وبين خسرو ، أولهما أنه لم يشايعه فيما ذهب اليه من رغبة فى ترقية أحد الضباط ممن كان عرابى من ممتحنيهم وكان فى نظر عرابى لايستحق الترقية بينما كان خسرو شديد الرغبة فى ترقيته ، هذا فى الوقت الذى أبعد فيه خسرو عن الترقية ضابطا آخر يستحقها ، وأوعز خسرو الى أحد الضباط فدبر مكيدة لعرابى ، فاتهم باساءة استعمال سلطته وحكم عليه بالحبس واحدا وعشرين يوما ، ولكنه رفع ظلامة الى المجلس العسكرى الاعلى فقضى ببراءته.

أما السبب الثانى ، ولعله فيما أحس أقوى السببين، فهو أن خسرو سعى سعيه حتى حرم عرابى من أرض أنعم عليه بها الخديو اسماعيل فيمن أنعم عليهم من رجال الجيش ، وذلك عقب حفلة سر فيها الخديو من حسن نظام الجند .

وما زال خسرو يكيد له حتى رفت من الجندية كما أسلفنا ، ولنا أن نتصور مبلغ ماوقع فى نفسه من السخط والثورة على خسرو وعلى الشراكسة جميعا فى شخص خسرو .

والذى يعنينا مما كان بينه وبين خسرو أنه يصور لنا شدة الخلاف بين عرابى ورؤسائه فى الجيش مهما كانت أسباب ذلك الخلاف .

كذلك يكشف لنا ما علق به عرابى على هذه القصة عن ناحية من نواحى عقله ، فلقد راح يذكر ما حل بمن آذوه من مصائب معددا أسماءهم مبينا ما لحق بكل منهم موردا ذلك على أنه انتقام له من الله ... وفى هذا نوع من السذاجة فى رأى من ينظرون الى مثل هذه العقائد نظرة يقولون انها حرة ، ونوع من الايمان فى نظر

آخرين لايعرفون هذه النظرة التى يصفها أصحابها هذا الوصف ، كما أن فيه دليلا على ما كان للدين من سلطان على عقل عرابى وقلبه .

على أن خصومه قد استغلوا هذه الناحية الدينية من حياته استغلالا مرذولا اذ يحاولون أن يسوقوها دليلا على انه كان رجلا لايختلف كثيرا عن عامة الناس فى جميع أفكاره ونزعاته ، وليتهم يشعرون أنهم بهذا التعميم الذى لا مبرر له انما ينالون من عقولهم ، وأنهم يسيئون الى أنفسهم ولا يسيئون اليه .

كان للدين سلطان على عرابى ما فى ذلك شك ، ولكن تلك كانت نزعة العصر ، على أننا نسأل : ماذا يضيره من ذلك ؟ وكيف يساق هذا على أنه من مساوئه وخليق به أن يعد من حسناته ؟ وهل عاب أحد هذا العيب على كرمول ، وهو جندى مثله ، فى تزمته وتقشفه وصرامته فى دينه ؟ وهب أن عرابيا كان يغلو أحيانا فيخلط بين ما يتصل بالدين وما يتصل بالسياسة فهل مال به ذلك عن منهاجه السياسي أو صرفه عن وجهته التي عمل على بلوغها ؟ وهل يستطيع أحد من خصومه أن يقيم الدليل على انه اتخذ يوما من الدين سلاحا فى غير موضعه ؟ أو أنه استغنى بالدعوة الدينية عن الجهاد والقتال حتى النهاية حين عملت خيانة بني قومه ودسائس أعدائه على انتزاع النصر من بين فكيه ؟

ظل عرابى ثلاث سنوات مبعدا عن وظيفته الى أن عفا عنه الخديو بعد أن ظلت ظلامته لديه هذه السنوات الثلاث مهملة لغير سبب ظاهر ، ولقد تأصل فى نفسه كره الاستبداد فى كافة صوره كما استقر فى قلبه حب الانتقام من هؤلاء الشراكسة الذين يراهم أذى ونقمة على العنصر الوطنى .

وطلب عرابى أن يحال على الاعمال المدنية ليبعد عن دسائس أعدائه كما يقول فى مذكراته ، وانه ليذكر انه بذل فى تلك الاعمال جهدا عظيما ووفر فى أحدها للخزانة مبلغا كبيرا كان لولا نشاطه ذاهبا لا محالة الى خزانة احدى الشركات الاجنبية ، ولكنه رأى غيره يكافأ مكافآت مالية . أما هو فكان جزاؤه كما يقول : « وكوفئت أنا على تلك الاعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى فيالله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ! وما أكثر العجائب فى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »

على أن بلنت يذكر فى كتابه أن تكليف عرابى بتلك الاعمال كان على غير رغبته ، وأن ذلك كان سببا من أسباب نقمته على العهـــد القائم يومئذ ومن دوافع انضمامه الى الساخطين والمتذمرين .

ولم يلبث عرابى أن أعيـــد الى صفوف الجيش ، وكانت الحكومة تستعد للحملة الحبشية فرقت بعض رجال الجيش الى مناصب أعلى مما كانوا فيها ، ولم يرق عرابى وكان قد جعل على ديوان الحربية فى ذلك الوقت الامير حسين كامل بن اسماعيل باشا ، ويقول عرابى فى مذكراته : « وبعد اختيار المختارين للفرقة الثانية من الذين ترقوا بحضرة الامير المشار اليه قال للذين تأخروا عن الترقى : اجتهدوا أيها الضباط فى التعليم والتمرين حتى تدركوا ما وصـــل اليه أخوانكم الذين ترقوا ، والله يشهد وفطاحل الجهادية أن المتأخرين فى الترقى هم أساتذة الذين ترقوا فى العلوم الحربية وهم أرقى أخلاقا وأدبا ... ولكن الغرض يعمى ويصم ... ثم التفت الامير الى وقال بلهجة الأسف : انى طلبت من أفندينا ترقيتك الى رتبة الميرالاى ، فقال : انك من بتوع

سعيد باشا ، فقاطعته الكلام ، وقلت : انى لست بتاع أحد ، بل خادم الحكومة والوطن وبلـدى هرية رزنة بمديرية الشرقية ، ولكن بتاع سعيد باشا هو راتب باشا لانه ملكه ، فقال : لا تفتر همتك فى تأدية واجباتك وانى سأبذل جهدى فى ترقيتك عنـد ترتيب الفرقة الثالثة ، فشكرت له وخرجت وأنا شاعر بأنى لا أنال خيرا فى عهد والده لانى متحقق من أن خسرو باشا ، وراتب باشا ورؤساء الشراكسة يعارضون فى ترقيتى بكل ما فى قدرتهم ، وقد سمعت من أحد أمرائهم وهو رجل معتدل غير متعصب لبنى جنسه على ما فيه من غلظة أنه حضر مجلسا لاولئك الشراكسة حيث تذاكروا فى اختيار الذين يريدون ترقيتهم الى الفرقة الثـالثة فعرض عليهم ترقيتى الى رتبة الاميرالاى مراعاة للحق والانصاف فأبوا عليه ذلك ، فقال لهم ربما ترقى قهرا عنكم يوما ما اذا لم يرتق برضائكم واختيـاركم وأنتم تعلمون أنه أقدم القائمقامات وأعلمهم وفيكم من كان تحت امرته فالاولى بكم الا تعرضوا أنفسكم للانتقاد ، ولكنهم لم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، ولما ترتبت الفرقة الثانية والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجهادية الامير حسين كامل باشـا على الوفاء بوعده لاصرار السردار راتب باشا على رفض ترقيتى ، ومن الغريب أن الآلاى الذى تحت ادارتى ظل خاليا من ضابط من رتبة الاميرالاى مدة ثمانية أعوام ، وكنت أنا القـائم بوظيفة الاميرالاى بأحسن نظام وأكمل تربية وأدق تعليم وأحسن هيئة عسكرية ، فما أوضح هذا الظلم المبين».

هذا كلام عرابى ومهما يكن من أمره فان حرمانه من الترقية سواء أكان مرده الى دسائس الشراكسة أم الى أى سبب آخر كان خليقا أن يحمله على الثورة والسخط ،

وأن يميل به الى اعتناق مبادىء الحركة الوطنية التى أخذت تشيع فى نفوس الساخطين على حكم اسماعيل.

والحق عرابى بالحملة الحبشية ، ولكن عمله فى هذه الحملة لم يكن عمل الجندى المحارب ، فقد كان يعمل فى منصب « مأمور مهمات » بمصوع ، ولقد حنق عرابى على تلك الحملة ، فهو ما يفتأ يندد بها فى مذكراته ويصف ما حل فيها بالجيش من كوارث فى غير موجب ، وقد اتهم لورنج القائد الامريكى الجنس فيها بالخيانة ، اذ كان يتصل عن طريق أحد القساوسة بالاحباش ويطلعهم على كل شىء ...

***

ويقول بلنت فى كتابه : « انه قد عاد من الحملة ساخطا كما سخط العائدون على ماكان فيها من الفوضى ، واليها يرجع اتجاه نفسه نحو السياسة ، وازدياد بغضه وغضبه ، ذلك الغضب الذى كان فى ذلك الحين متجها أكثر ما يتجه الى الخديو » .

وفى شهر فبراير عام ١٨٧٨ وقعت مظاهرة الضباط الخطيرة ، تلك المظاهرة التى نلمح فيها بوادر الثورة العسكرية ، ويتلخص هذا الحادث فى أن عددا من الضباط بزعامة البكباشى لطيف سليم قد توجهوا الى وزارة المالية يطالبون بمرتباتهم المتأخرة ، فلما حضر نوبار باشا رئيس الوزراء وكان معه السير ريفرز ولسن وزير المالية هجم هؤلاء الضباط عليهما وأشبعوا نوبار لطما ولكما وراحوا يجرونه من شاربيه ، وامتدت أيديهم كذلك الى وزير المالية ، وكاد يتفاقم الحادث لولا أن خف الى هناك الخديو بنفسه فى فرقة من حرسه حينما نمى اليه ذلك النبأ ، وأمر الخديو باطلاق النار ارهابا ، فأطلقت رصاصات فى الهواء وفر المتظاهرون .

ولكن تهمة القيام بهذه المظاهرة وتدبيرها قد وجهت الى عرابى واثنين آخرين من الضباط ، وعقد لهم مجلس عسكرى يحاكمهم وأصدر المجلس حكمه بتوبيخهم وفصل كل منهم عن الآيه الى جهة بعيدة ، وكانت الاسكندرية من نصيب عرابى وفيها اتصل بكثير من الاوروبيين .

ويدفع عرابى التهمة عن نفسه مقررا انه لم يكن له يد فيها قط ، اذ كان فى رشيد وقت وقوع الحادث ، ذكر ذلك فى مذكراته وذكره كذلك فى التاريخ الذى كتبه لمستر بلنت بناء على طلبه عام ١٩٠٣ بعد عودته من منفاه ، ولقد أطلع مستر بلنت الشيخ محمد عبده على ما كتب عرابى ، فوافق على براءته من هذا الحادث .

***

ولقد أدى اتهام عرابى على هذا النحو الى ازدياد كراهته لاسماعيل وعهد اسماعيل ، ولسوف يكون ذلك من أهم الدوافع التي توجهه الى الاتصال بالوطنيين بغية معاونتهم والاستعانة بهم على تنفيذ ما كانوا يأملونه من وجوه الاصلاح ، قال عرابى فى ذلك التاريخ الذى كتبه لصديقه بلنت والذى أثبته هذا فى آخر كتابه : « ولكن قبل أن نفترق اجتمعنا فاقترحت أن نتحد ونخلع اسماعيل ، ولو أننا فعلنا ذلك لكان خير حل للقضية ، لانه كان يسر القناصل أن يتخلصوا من اسماعيل على أية صورة ، ثم انه كان يوفر على البلاد ما حدث بعد ذلك من تعقد فى الامور ، كما كان يوفر تلك الملايين الخمسة عشر التى حملها اسماعيل معه عندما خلع ، ولكنه لم يكن هناك يومئذ من يقود هذه الحركة ، ولذلك فان مقترحى لم ينفذ وان حاز القبول ، وقد ألقى خلع اسماعيل بعد ذلك عبئا ثقيلا عن كواهلنا وعم الفرح ، ولكن لو أنا فعلنا ذلك بأنفسنا لكان أفضل اذ أننا كنا

نستطيع أن نتخلص من أسرة محمد على كلها فانه لم يكن فيها حاكم صالح الا سعيد وكنا نستطيع أن نعلن اقامة جمهورية ، وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمد عبده أن يقتل اسماعيل عند كوبرى قصر النيل ووافقه محمد عبده على ذلك » .

***

ومن هـذا الذى ذكره عرابى يتبين مبلغ حنقه على اسماعيل ، ولولا أن سعيدا كان يعطف على المصريين حقا وان اسماعيل لم يكن يبدو منه ما كان يبدو من سعيد من مظاهر هذا العطف ، لجاز أن يتهم عرابى بأنه يحب سعيدا ويبغض اسماعيل متأثرا بدوافع شخصية .

أما عن اتهام عرابى وزميليه فى هذا الحادث ، فان عرابيا يورد له سببا فهو يتهم اسماعيل بأنه كان المحرض على هذه الفتنة ليتخلص من الوزارة الاوروبية ، ولكى ينفى عن نفسه الشبهة ، فانه اتهم هؤلاء الضباط الثلاثة بأنهم مدبرو الحركة .

يقظة ونهوض

أخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى بسط نفوذهما فى مصر منذ حملة بونابرت على هذه البلاد ، ولكنهما وجدتا فى محمد علي رجلا يمد سلطانه ولا يفقد ذلك السلطان ، فاكتفت أولاهما بالعمل على تحطيمه وفرحت الثانية بمصادقته ...

وساقت الاقدار ولاية العهد لاسماعيل قبل موت سعيد ، فاستبشر الناس وارتقبوا الخير فى عهد هذا الامير الذى ذاع من صفاته فيهم ما حببه اليهم ، وكانوا قد علموا انه من ذوى النباهة والحزم وبخاصة فى شؤون المال ، ولم يطل ترقب الناس فقد آل اليه الامر عام ١٧٦٣ .

وراحت مصر تستقبل طورا من أطوار تاريخها ، نحار أشد الحيرة ماذا نسميه وبأى الصفات ننعته... طورا كان غريبا حقا ، تترك غرابته العقول فى دهشة ، وتكلف من يريد الانصاف فى درسه عسراً شديدا .

ما برحت فرنسا وانجلترا تراقبان سير الحوادث فى وادى النيل ، أما فرنسا فكانت لا تنى تعمل على أن تزيد نفوذها فى مصر ذلك النفوذ الذى وضعت أساسه حملتها على هذه البلاد ، والذى ما فتىء يعظم ويتزايد فى عهد محمد على ، وها هو ذا فى عهد اسماعيل قد بلغ مبلغا

عظيما حينما اتصل البحران واستطاع دىلسبس ان يجرى بينهما القناة التى سوف تغير مجرى تاريخ هذا الوادى ... وأما انجلترا فكانت دائبة على سياستها تحول دون ظهور قوة فى مصر ، وقد اســتراحت من محمد على وراحت اليوم تقف فى وجه حفيده وتحرص على أن يظل خاضعا للخليفة ، ولما التقى البحران أصبح همها متجها الى السيطرة على مصر لتسيطر على القناة.

ونصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما على أن تتدخل فى شؤون مصر من طريق المال أولا ثم من طريق السياسة بعد ذلك .

شهدت مصر فى هذا العهد جلائل الاعمال ومظــاهر الاستقلال ، كما شهدت عوامل البلى وعناصر الانحلال، شهدت يد التعمير تبعث الحياة والنشــاط والقوة فى العاصمة وعلى صفحة الوادى ، وشهدت يد التخريب تهوى بمعولها فى غير رحمة أو هوادة فتتزلزل البنيــان وتقوض الاركان ، شــهدت العظمة الشامخة والثروة الباذخة وشهدت الذلة المستخذية والفقر المستكين ، شهدت دوافع الحرية وشــهدت نوازع الاستبداد ، شهدت مواقف البطولة والصدق وشهدت مخازئ الدس والبهتان ... شهدت مصر ذلك كله وشــهدت زيادة عليه ما تشهده الفريسة تجمعت عليها الذئاب وأوهنها طول الدفاع والجلاد ...

أراد اسماعيل أن يسبق عصره فيما يطلب من أوجه الكمال ، فلن يجمل بمصر وهو واليها أن تكون قطعة من أفريقيا ولا أن تكون جزءا من تركيا ، ولن يهدأ له بال حتى تنتسب مصر الى أوربا ، وحتى تحطم الاصــفاد وتطرح عن عنقها نير الاستعباد ...

ولم يمض من عهد هذا الامير الفذ اثنا عشر عاما حتى

غمر مصر فيض من الاصلاح ، وتهيأ لها من أسباب الرقى ما لم يكن يتهيأ مثله فى أقل من قرن اذا سارت الامور سيرها العادى ... ففى تلك الفترة القصيرة وصل بين البحرين وشقت الترع الطويلة تحمل الى أنحاء الوادى من مياه النيل وغرينه ما يدرأ عنه رمال الصحراء ، ومدت سكك الحديد وأسلاك البرق ، ونظم البريد ومهدت السبل ، وأقيمت الجسور ، وأصلحت الموانىء وشيدت المنائر ، وبنيت المصانع ، وافتتحت دور العلم للبنين والبنات على نحو يذكر بالحمد والاعجاب

وفى تلك الفترة تقلص نفوذ السلطان ، وأحاطت بوالى مصر مظاهر السيادة فلقب بالخديو ونظمت ولاية العهد، وسمح للوالى بمنح الالقاب ، وأطلقت يده فأصلح القضاء وادخل على النظام الادارى كثيرا من الاصلاح ...

وفى تلك الفترة سارت القاهرة تستبدل حياة بحياة ، ومظهرا بمظهر ، فتتخلص ما وسعها الجهد من أفريقيا ولا تنى تقترب من أوربا ، وراح الخديو العظيم ينشر فيها من مظاهر همته ماجعل أعماله فى هذا المضمار من عجائب القرن التاسع عشر ، وما برحت القاهرة طول عهده غاصة « بالمونة والاحجار » تلك التى كانت هوية الخديو ومسرة فؤاده ...

ولكن اسماعيل وا أسفاه أنفق فى سبيل ذلك المجد ما زاد على خمسين مليونا من الجنيهات لم يكن لديه منها شيء يذكر ، ولذلك لم يلبث أن رأى مصر التى أراد أن تكون قطعة من أوربا تساق على رغمه لتكون ملكا لاوربا ! فمن أوربا استدانت تلك الملايين ، ولما عجزت عن دفع دينها كانت رهينة لهذا الدين !

ولما أرادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلا سنحت الفرصة لانجلترا فراحت تتنكر لمصر وتتربص بها الدوائر

وكان لابد للمسألة المالية أن تنتهى الى ما انتهت اليه من تغلغل الانجليز والفرنسيين فى صميم شؤون مصر .

على أن هـذا التدخل لم يك شرا كله كما اعتـاد المؤرخون أن يصوروه ، وحسبنا مما انطوى عليه من عناصر الخير أن قد استيقظت على صخبه وضجيجه مصر ، فانبعثت القومية المصرية ومضت مصر تنفض عن كاهلها غبار القرون على صورة أروع وأقوى مما بدا فى ثورتها على نابليون ثم على كليبر ، ومما ظهر من آمالها وروحها ومشيئتها يوم ذهب أبناؤها وعلى رأسهم عمر مكرم والشرقاوى يلبسون محمد على الكرك والقفطان دون أن يرجعوا فى ذلك الى السلطان ...

وتراكمت الديون على مصر حتى أنها لم تك تقل عن تسعين ألف ألف من الجنيهات فى عام ١٨٧٥ ، فمن ديون سائرة كانت فى ذاتها أبلغ ما نال الخديو من معانى الغبن، الى ديون ثابتة فيها أوضح معانى الشره وأقبحها من جانب الدائنين ، الى قروض داخلية لجأ اليها «المفتش» ذلك الذى قام على شؤون مصر المالية فكان فى ذاته عبئا فوق ما أثقلها من عبء ، ومن تلك القروض الدالة على الارتباك والخلل دينا المقابلة والرزنامة ...

عندئذ تحركت انجلترا نحو هدفهـا ، وكانت أولى حركاتها فى هذا المضمار شراء نصيب مصر من أسـهم القناة ، اشتراه دزرائيلى رئيس وزرائها يومئذ بثمن بخس ، ولم يرده عن ذلك عطلة البرلمان فى تلك الاثناء ، وكيف يفوت ذلك الداهية أمر كهذا الأمر يجعل مقـام بلاده فى القناة كمقام فرنسا أو أعظم ، ويصحح خطـأ وقعت فيه انجلترا الا وهو اسـتهانتها بالمشروع أول الامر ظنا منها أنه لن يتم ، ثم تراخيها فى شراء الاسهم بعد ذلك رغبة فى احباطه ؟

ولكن مصر بعد بيع أسهمها لا تزال فى حاجة الى المال لتدفع به بعض ما جره عليها المال من وبال ، وأنى لها المال بعد هذا كله؟ وأية دولة تمد اليها يدها؟ اذا فلتفكر مصر فى الاصلاح ، ولتفكر انجلترا فى اصطياد الفريسة.

طلب الخديوموظفا انجليزيا يدرس لمصر شؤون مالها، ويصلح ما يراه من أوجه الخلل ، فتلكأت انجلترا أول الامر لانها عن دهاء وجشع تحب أن تتدخل ولكنها لا تحب أن تفتح أعين غيرها ...

وجاء الموظف ولكنه كان مزودا من قبل حكومته بأوامر ، فعليه أن يدرس وعليه فوق ذلك أن يحقق ويدقق ثم يرفع الى حكومته تقريرا عما رأى ! وما لهذا أراده اسماعيل فما كان يريد والى مصر الا أن يكون هذا الموظف معينا له على اصلاح مالية البلاد .

ورفع « كيف » التقرير الى حكومته ! وجاد دور دزرائيلى فأعلن فى البرلمان الانجليزى فى غير تردد ولا استحياء انه يرغب عن نشر التقرير لان الخديو رجا منه الا يفعل ، ولعمر الحق ما رجا الخديو منه شيئا ولا أشار الى ذلك من قريب ولا من بعيد ...

ذعر الدائنون وهبطت قيمة أسهم مصر كما يقول رجال المال ، وتلقى الخديو الصدمة العنيفة ممن أمل على أيديهم الاصلاح وقال فى مرارة وغيظ : « لقد احتفروا لى قبرى » وهى كلمة موجعة جامعة ، فبعد هذا التصريح من جانب دزرائيلى سيكون الطوفان...

وما كان فى تقرير «كيف» الا أن مصر « تشكو مما ينتشر فى الشرق من أمراض ، منها الجهل والاسراف والاختلاس والاهمال والتبذير ، وأنها تشكو من كثرة النفقات التى سببتها محاولة ادخال مدنية الغرب والتى تترتب على مشروعات لا تجدى نفعا وعلى مشروعات

نافعة ولكنها تنطوى على الخطأ » بل لقد ذكر «كيف» فى عبارة صريحة : « أن مصر تستطيع أن تدفع ما عليها من الديون اذا أحسنت ادارة البلاد » ولكن للسياسة مطامعها وأغراضها ولها من أجل ذلك أساليبها التى كثيرا ما تسخر مما تواضع عليه أغرار الناس من قواعد الخلق والاستقامة .

لم تستطع مصر أن تفلت من دائنيها فكان لابد من اذعانها لمراقبة مندوبيهم وأقيم فى مصر « صندوق الدين العام » فكان حكومة صغيرة من الاجانب داخل حكومتها ، ثم وافق الخديو مكرها على تعيين مراقبين أجنبيين : أحدهما انجليزى للدخل ، والآخر فرنسى للصرف ، وعين لهذين موظفين من الاجانب بأجور ضخمة ، وعنى الخديو حقا باصلاح الحال يومئذ ولكن يد الغدر كانت من ورائه تبعث الارتباك وتنصب الشباك .

وقبل الخديو فيما قبل على رغمه تأليف لجنة من الاجانب سميت « لجنة التحقيق العامة » جعل على رأسها دى لسبس ومنحت سلطة واسعة غير محدودة ، فما كادت تعمل حتى اصطدمت ، وكان اصطدامها فى بدء عهدها لسوء حظها ، برجل من رجال مصر كان يتحفز ويتحين الفرصة ليثب وكان هذا الرجل هو محمد شريف باشا ...

استدعت اللجنة شريفا ليمثل أمامها لتستفهمه فتعاظمه الامر فأبى ، فأصرت اللجنة وقد خشيت على هيبتها ونفوذها ، ولكنه خشي هو أيضا على كرامته وكرامة منصبه فأصر كما أصرت ... أيمثل شريف أمام لجنة من الاجانب ؟ ولم لا تنتقل اليه اللجنة وهو العزيز بنزاهته واستقامته ، الكبير بشخصه ومنصبه ، العظيم بوطنيته وكرامته ؟ اذن فليطلق شريف المنصب غير

آسف ، وقد كان ما أراد فاستقال ، وهزت البلاد استقالته بما تنطوى عليه يومئذ من المعانى فلقد كانت وثبة منه فى حينها كأنما جاءت على قدر من الايام ، ففى مصر يتوثب مثله رجال وتخفق بالوطنية قلوب وتضيق من تدخل الاجانب صدور ، وقدر لشريف أن يكون فى تاريخ وطنه من أولئك الاماثل الذين توحى مواقفهم البطولة وتخلق الابطال !

كان فى استقالة شريف معنى الغضب ، ولكنه لم يكن غضب فرد لشخصه فحسب والا لما كان له ما كان يومئذ من خطر ، كان غضب رجل لشخصه ولقوميته معاً أمام لجنة من الاجانب تريد أن تظهر بمظهر السيادة ، وتحرص أشد الحرص على ذلك المظهر ، ولذلك كان هذا الغضب ثورة ، وما لبثت تلك الثورة أن بعثت فى كل نفس من نفوس الاحرار ثورة مثلها ، وبذلك تهيأت البلاد لان تثبت للأجانب وجودها ، واغتدى شريف بما فعل أول رجالها وراس أبطالها .

ورب قائل يقول : وماذا كان فى ذلك الموقف من معانى البطولة ؟ هذا رجل اعتزل منصبه فكيف يكون الاعتزال رجولة ؟ ولكن الذين يعلمون مبلغ نفوذ الاجانب ومبلغ ما منى به المصريون يومئذ من خور وماعرف عنهم اذ ذاك من الحرص على المناصب والالقاب يدركون ما ينطوى عليه موقف شريف من عزة وتضحية ، هذا الى ما سبق استقالته من تحد منه للجنة وسلطانها ، ولو أن الخديو آزر شريفا لما ترك منصبه وكان بذلك يدع اللجنة فى أحرج المواقف كلما أمعن فى عصيانه وترفعه ... ولكن الخديو على جلال قدره طلب الى اللجنة فيما يشبه الرجاء أن تكتفى من شريف بأن يرد على أسئلتها كتابة ، ولما رفضت اللجنة ذلك لم يرد الخديو عليها بعمل أو قول يكون فيه

معنى التأييد لرجله والاستنكار لفعل الاجانب ، ومعنى ذلك أنه لم يبق أمام شريف الا أن يتخذ من استقالته مظهرا من مظاهر الاحتجاج على تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، فكان ذلك المظهر أول انذار بالثوره .

أخذت لجنة التحقيق العامة تدرس الحالة ، ولقد جعلت اللجنة هدفها بالضرورة العمل لصالح الدائنين ولذلك لم تأل جهدا فى أن ترجع بكل المساوىء الى الخديو وحكومة الخديو متناسية مافعله الدائنون من مخاطراتهم بأموالهم ابتغاء الربح الوفير وما جره جشعهم على البلاد من دمار ، وما انطوى عليه مكرهم من غدر وبهتان وزور واختلاس .

تعامت اللجنة عما كان يقاسيه الفلاحون يومئذ من شقاء ، ولم تراع فى تقريرها بؤس أولئك الذين اثقلتهم الضرائب وهدهم الجوع ، أولئك المساكين الذين كانوا كثيرا ما يفرون من أرضهم لكثرة ما كان يطلب منهم ، أولئك الذين غمرهم فى سنة من تلك السنين السود سيل جارف لم يكن أقل هولا عليهم من طالبى الضرائب ، ألا وهو فيضان النهر على قراهم وأراضيهم ، أولئك الذين أحاط بهم الربويون والامراض معا ، وباتوا يتمنون الموت من قبل أن يلقوه !

وتغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين كانوا يهربون بضائعهم وينجون بها من الجمارك ثم لايدفعون عنها شيئا داخل البلاد فى ظل تلك الامتيازات المشؤومة التى كانت من أكبر المساوىء فى مصر ، والتى قل أن يجد المؤرخ مثيلا لما كانت تنطوى عليه من جور ، وما كانت تقوم عليه من باطل وبهتان، وكذلك تغافلت اللجنة عن أولئك الاجانب الذين تزايد عددهم فى الحكومة المصرية ، والذين كانوا يتقاضون الاجور العالية جزاء على

ما اتصفوا به من الكسل وقلة المروءة وجمود العاطفة ، بينما كانت مرتبات الوطنيين لا تدفع لهم الا فى مشقة وعناء وهى من القلة بحيث كانت تؤدى بالكثيرين الى الاختلاس والتهاون فى العمل ...

واقترحت اللجنة فى قرار تمهيدى أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة الى وزراء يسألون عن أعمالهم ، أى أن تكون عليهم تبعة ما يعملون ، وأن ينزل عن أملاكه نظير مبلغ معين ، وكذلك تنزل أسرته عن أملاكها ، كل ذلك دون أن تفكر اللجنة فى أن يتنازل الدائنون عن شيء من ديونهم ، وهى تعلم كيف تراكمت تلك الديون وكيف تزايدت أرباحها حتى بلغت ما بلغته .

وقبل الخديو تأليف الوزارة المسئولة فاستدعى نوبار من أوربا وعهد اليه تأليف وزارة يتضامن أعضاؤها فى التبعة وتقوم بالحكم فى البلاد ، ونظر المصريون فاذا وزارة المالية تسند الى رجل انجليزى ، واذا وزارة الاشغال تسند الى رجل فرنسى ، وهكذا يسيطر الاجانب على مصر سيطرة تامة !

ومن غريب أمر هذه الوزارة أنها كانت لا تعبأ بشيء الا بما يرى الاجانب ، فلم يك لمجلس شورى النواب حق اسقاطها ، بل لم يك له حق محاسبتها ، ولم يك للخديو نفسه فى الواقع سلطان عليها ، فكانت الوزارة بهذه الصورة سخرية من سخريات الاجانب هى فى ذاتها من أبلغ نكاياتهم يومئذ بالبلاد وأهل البلاد ...

على أنه سرعان ما دب الخلاف بين الخديو ووزرائه ، أو على الاصح بينه وبين نوبار والوزيرين الاجنبيين ، فلقد كان فى الوزارة رجال غير شريف يدينون بالولاء لحاكم البلاد الاعلى ومن هؤلاء على مبارك ورياض ... وتزايد هذا الخلاف حتى أصبح اسماعيل ولا هم له الا

ان يتخلص من هذه الوزارة التى لم تدع له من السلطة الا اسمها .

وسنحت له الفرصة فى حادث مظاهرة الضباط الذى أشرنا اليه ، فأعلن اسماعيل على أثر الحادث أنه غير مسؤول عن الامن فى البلاد ما دام محروما من السلطان ، ومن ثم رأى نوبار أن لا قبل له بمواجهة الحال بعد ذلك فرفع الى الخديو استقالته ، وبذلك تخلص الخديو وتخلصت البلاد من تلك الوزارة التى اعتاد الناس أن يسموها الوزارة الاوربية .

وكانت تولد بالبلاد يومئذ حركة وطنية قوية ، كان باعثها الاول هذا البلاء الذى كانت تعانيه ، ولسوف تلتقى هذه الحركة فيما بعد بالحركة العسكرية التى هى فى جوهرها غضبة قومية على أجانب من جنس آخر هم الشراكسة ، وتتألف من التيارين تلك الثورة التى كان بطلها أحمد عرابى ، والتى تعمد كثير من المؤرخين تشويهها ، والتى أخطأ فهمها عدد منهم ليس بالقليل من جراء ما هوش وافترى كتاب الاحتلال ...

وكان لهذه الحركة الوليدة مركزان : أولهما المركز الرسمى وهو مجلس شورى النواب ، وثانيهما المركز الاهلى وهو بيت السيد البكرى نقيب الاشراف حيث كان يلتقى الاحرار من العلماء والنواب والاعيان وضباط الجيش الناقمين .

وكان قد هبط مصر السيدجمال الدين الافغانى يبث فيها مبادئه ويحمل اليها قبسه ، وكان جمال ذلك الرجل الذى أطلعه الشرق ليضيفه الى كواكبه الزهر ، يرى أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سليبة الارادة تحكم على رغمها وتسخر لحساب الحاكمين ، ولا مخرج لها الا أن تعود حرة كما كانت من

قبل حرة ، ولن يكون هذا الا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد ، وأن ينسخ نور العلم ما تراكم فى الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربة فى مصر صـــالحة لبذوره فنمت نموا سريعا يحمل على الدهشة ، فما أسرع أن ظهرت فى البلاد حركة حرة كأعظم وأجمل ما تكون الحركات الحرة ، وراح تلاميذ جمال الدين يذيعون فى البلاد مبادئه ، يقول فى ذلك الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه وأحبهم اليه : « وكان طلبة العلم ، طلبة جمال الدين ، ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعـــارف الى بلادهم أيام البطـــالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد وبخاصة فى القاهرة » .

***

وظهرت فى تلك الايام الصحافة العربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات الوطنية وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، فانتعشت أرواحهم وهفت الى الانطلاق من الاسر قلوبهم .

وأدى اتصال المصريين بالاجانب ، وقد كثر مجيئهم الى مصر ، الى تتبع الانباء العالمية فى الحرب والسياسة فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين حال الشعوب الحرة وبين حالهم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة .

وبهـــذه العوامل مجتمعة قام فى مصر رأى عام يعد شيئا جديدا حقا فى تاريخها الحديث ، فقد اشتد الوعى القومى ، وكان من أكبر بواعثه ، ذلك العدوان الذى أسرف فيه الاجانب على مصر فى غير حياء أو مبالاة .

أخذت تشتد الروح الوطنية وتتغلغل فى النفوس ،

وكان شريف باشــــا يرقب حركة الاحرار الذين كانوا يجتمعون فى بيت البكرى، وكان لايفتأ ينصح لهم ويشير عليهم بما يعملون ، وكان يتمنى أن يتخـــذ منهم قوة يناوىء بها الاجانب ويحد من سلطان الخديو ، ولن يتم ذلك فيما يرى الا أن يكون الوزراء مسئولين أمام نواب الامة كما هو الحال فى المجالس الاوربية التى تسير وفق القواعد الدستورية ...

وسقطت الوزارة الاوربية ، ولكنها ألفت ثانية برئاسة الامير توفيق ، فلقد رفض قنصلا انجلترا وفرنسا ان يرأس اسماعيل نفسه الوزارة كما طلب ، ولقد أرادت الدولتان على لسان قنصليهما أن يدخل نوبار الوزارة الجديدة فرفض الخديو وصـــمم على الرفض ، ورأت الدولتان مبلغ حرص اسماعيل على ابعـــاد نوبار ، فاشترطتا لقبول ذلك أن يعطى العضـــوان الاوربيان فى الوزارة حق «الفيتو» على قرارات مجلس الوزراء ورضى اسماعيل بذلك ، فصار للعضوين الاوربيين حق ايقاف اى قرار لمجلس الوزراء لايوافقان عليه ، ومعنى ذلك انهما يحكمان البلاد حكما لا يدع للخديو فى مصر سـلطة أو ظلها ...

وآن لمجلس شورى النواب أن يخطو خطوة ما كان أعظمها من خطوة ، نمى الى المجلس فيما نمى اليه من أنباء الوزارة الاوربية أنها تأتمر بالمجلس وتنوى التخلص منه ، فصمم الاعضاء الا يتفرقوا وأن يظلوا فى أماكنهم للنظر فى شئون البلاد فى تلك الآونة العصيبة... ألسنا نرى فى ذلك صورة مما حدث فى فرنسا فى مستهل عهد ملكها لويس السادس عشر، حين اشتدت الضائقة المالية ورأى نواب الشعب وجوب العمل على وضع حد لسوء الحال ؟ ولسوف تؤدى الظروف الى أن يصـــبح ذلك

المجلس الذى لم يكن له حول ولا قوة ، هيئة تحاسب الوزراء على أعمالهم وتملك افصاءهم عن مناصبهم اذا تهاونوا فى حقوق البلاد ، ولقد كان لشريف باشا الفضل كل الفضـــل فيما ناله المجلس من حقوق حتى ليعـد شريف بذلك مؤسس الحركه الدستورية فى مصر .

وكان المجلس فى وزارة نوبار قد أرسل الى السـير ريفرز وزير المالية يدعوه ليحضر أمامه ليسأله عن بعض الامور فسوف وماطل، ثم لم يحضر او يرسل الى المجلس شيئا مما طلب المجلس ان يطلع عليه من المشروعات ، وضاق المجلس بما فعل وزير المالية ، وفسر عمله بأنه اهانة موجهة الى الامة المصرية فى أشخاص نوابها ...

وفى وزارة الامير توفيق استصدر وزير الداخلية وهو يومئذ رياض باشا أمرا من الخديو الى النواب بأن مدة مجلسهم قد انتهت فعليهم أن ينفضوا ، وذهب رياض يتلو على النواب هذا الامر ، وهنا وقف النواب وقفة جديرة بأن تفخر بها مصر فيما تفخر به من مواقف البطولة ، فلقد رفضوا أن يذعنوا ، وهددوا رياضا بما عسى أن يقع من الحوادث فى البـــلاد بسبب سياسة الوزارة ، وجعلوا تبعة ذلك عليها ، ولكم نرى من أوجه الشبه بين موقف هذا المجلس ومجلس طبقات الامة فى فرنسا ، حين وقف فيه نواب الشعب الفرنسي يتحدون قرار الملك على أثر صيحة ميرابو المدوية التى نقلت تاريخ فرنسا من فصل الى فصل .

ولـكن النواب هنا لم يكونوا فى الحقيقة يتحدون الخديو ، فقـــد كانوا يعلمون أنه يعطف على حركتهم ليتخلص بهم من تدخل الاجانب فى شئون مصر ، ذلك التدخل الذى حرمه كل سـلطة ، وانما كان النواب

يتحدون الوزارة الاوربية ويريدون أن يأخذوا السبيل عليها ...

وكانت مطالب المجلس يومئذ تنحصر فى المسألتين الدستورية والمالية ، أما أولاهما فتتلخص فى أن تكون الوزارة مسئولة امام المجلس بحيث يصبح هيئة لها مكانها الفعلى فى حكومة البلاد ، وأما الثانيه فمؤداها أن يبحث المجلس المسألة المالية دون الاجانب ، وأن يقرر فى أمر الدين والضرائب ما تمليه عليه مصلحة البلاد .

وأصر النواب على ماطلبوا فكانت حركتهم هذه حركة قومية الى أقصى ما يتسع له معنى هذه الكلمة ، وكان يظاهر النواب أحرار البلاد من العلماء والاعيان والتجار، الذين لم تنقطع اجتماعاتهم فى بيت البكرى ، وأخيرا اتفقت كلمتهم جميعا على أن يتوجهوا الى الخديو بما عرف باسم اللائحة الوطنية ، وفيها يعترض النواب على اقتراحات ريفرز ولسن التى كانت ترمى الى اعلان افلاس مصر ويقررون أن ايراد مصر يفي بدفع ديونها ، ويطلبون الى الخديو تقرير مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس ، وتأليف وزارة وطنية تقوم مقام هذه الوزارة الاوربية التى ضاقت بسياستها البلاد .

ولقد وضعت هذه اللائحة لجنة من النواب تحت اشراف شريف ، فكانت هذه اللائحة الخطيرة كبرى حسناته الى هذه البلاد ، كما كانت أهم خطواته السياسية وأبعدها أثرا فى مجرى الحوادث ، ووقع على اللائحة ستون من أعضاء المجلس ، ومثلهم من العلماء وفى مقدمتهم شيخ الازهر كما وقع البطريرك والحاخام، وكذلك وقع عليها عدد كبير من الاعيان والتجار والموظفين والضباط ، ودفعت بعد ذلك الى الخديو فرأى أن قد حان الوقت ليوجه الى النفوذ الاجنبى ضربة قوية ،

فالبلاد من ورائه تشد أزره ولذلك لم يتردد فى الموافقة على اللائحة ، وسرعان ما هزت البلاد فعلته هزة قوية ، هى هزة الفرح بانتصار الحركة الوطنيـــة والامل فى مستقبل تحطم فيه البلاد أغلالها وتنعم بالراحة والرخاء

واســتقالت وزارة توفيق ، فاتجهت الابصـــار الى شريف واتفقت عليه القلوب والاهواء وما لبث أن تضاعف سرور البلاد بأن أسندت اليه رئاسة الوزارة الوطنيــة وأصبح شريف زعيم الحركة الوطنية ورئيس وزارة الامة

وراح الخديو يكيد للأجانب كيدا شديدا ، وظهر كمن يريد أن يثأر لنفسه فلم يكتف باجابة الوطنيين الى ما طلبوا ، بل لقد ذهب الى حد مشاركتهم مظاهر ابتهاجهم بالعهد الجديد حتى لقد حضر بنفسه حفلا أقامه فى داره السيد على البكرى ودعا اليه كبار رجال الحركة الوطنية فكان موقف الخديو فى ذلك موقف الزعيم .

وتلقى الاجانب الضربة ولكنهم لم يطيشوا أو يذهلوا عما يجب عليهم أن يعملوا ازاء موقف الخديو ومن أجل ذلك لقيت وزارة شريف منهم عنتا بالغا ، فتبددت فى ضوضـــائهم كل دعوة الى الحكمة وضرب الحقد على آذانهم وجعل الغضب على أبصارهم غشاوة ...

ولكن شريفا ظهر يومئذ بمظهر جدير بالاعجاب حقا ، فلا هو خشى جانب الاجانب فتخاذل عما هو بسبيله ، ولا هو مال كل الميل فانقلبت سياسته شططا ، وبذلك جمع شريف بين حمية الوطنى الثائر وكياسة السياسى الماهر وروية المجرب البصير ...

احتج الاجانب على ابعاد الوزيرين الاوربيين واستقال كثير منهم من مناصـــبهم ، وراحت انجلترا وفرنسا تتهددان الخديو وحكومتـــه وتنـــددان بهما ، وتوجه الدائنون الى المحاكم المختلطة فرفعوا أمامها القضايا ،

وأعلنت لجنة التحقيق ان الحكومة مفلسة منذ أكثر من عامين ، ولما عرض شريف على هؤلاء الاجانب الصاخبين استعداده لاعادة المراقبة الثنائية وفق ما كانت تقضي به تعهدات الخديو فى حالة ما اذا أخرج الوزيران الاجنبيان أو أحدهما ، رفضوا ذلك الحل مبالغة منهم فى الكيد ، ورغبة فى زيادة الامور حرجا وتعقيدا ؟..

ولكن شريفا لم يلوه حرج الموقف عن وجهته ، وما كانت وجهته الا أن يجعل مرد الامور الى الامة ، ولئن كان يمقت تدخل الاجانب فانه كان كذلك يكره استبداد الخديو بالامر أشد الكراهية ، لذلك جعل محور سياسته أن يكون الوزراء مسئولين أمام مجلس شورى النواب ، وتم له ما أراد فجاء فى كتاب الخديو اليه بتأليف الوزارة عبارات لا تقبل تأويلا فيها يذكر الخديو أنه يرجع بالامور الى الامة ويوافق على مسئولية الوزارة أمام مجلسها .

***

بهذا كان شريف كما ذكرنا أبا الدستور فى مصر فان ذلك المجلس الذى تعهده برعايته منذ نشأته سنة ١٨٦٦ قد تمت له السلطة على بديه سنة ١٨٧٩ فصار الحكم فى مصر دستوريا لا يشوبه شائبة مهما يقل القائلون فى طريقة الانتخاب يومئذ وجهل سواد الناس بأصول الحكم

أجل ان العهد الدستورى فى مصر يرجع الى سنة ١٨٧٩ ، وهذا الدستور انما نالته مصر بجهاد بنيها ، وما كان دستور سنة ١٩٢٣ الا الدستور الثاني للبلاد أو بعبارة أخرى ما كان الا توقدا لتلك الجمرة التي ظلت مطمورة تحت رماد الاحتلال حتى جاء سعد فخلف عرابيا فى قيادة الحركة القومية فأزاح ذلك الرماد ونفخ فى تلك الجمرة فأوقد نارها .

لم تكد البلاد ، وا أسفاه تفرغ من مظاهر فرحها حتى

جاءت الانباء بعزل عاهلها اذ ما زالت انجلترا وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا اقناعه بعزل اسماعيل فخلفه على أريكة مصر ابنه توفيق ، وبخروج اسماعيل من مصر فقدت البلاد الرجل الذى كان يمكن الاعتماد عليه فى مناهضة نفوذ الاجانب .

ورفع شريف استقالته الى الخديو الجديد كما تقضى التقاليد الدستورية ، فطلب اليه الخديو اعادة تأليفها وأشار توفيق صراحة فى أمره وخطابه أمام مجلس الشورى ميله الى العطف على الامانى القومية كما تظهر فى الحركة الدستورية الوطنية ، وسار شريف على نهجه الدستورى يدعم ما بنت يداه ويجتهد فى توطيد أسسه.

ولكن توفيقا ما لبث حين وصل اليه فرمان توليته أن تنكر للحركة الوطنية فما كان فى موقفه الاول الا مدعيا يكتسب الوقت فلما اطمأن الى منصبه بدأ سياسته الجديدة بأن رفض أن يجيب رئيس وزرائه الى ما طلبه بشأن توسيع مجلس الشورى ووضع نظام الحكم على أساس دستورى ثابت ، ورأى شريف فى هذا نية اقصائه عن الحكم فاستقال ، وجاءت استقالته هذه المرة كذلك عاملا قويا من عوامل اذكاء الروح الوطنية واشعال جذوتها

وما كان أحوج الخديو يومئذ الى شريف دون غيره من الرجال ، أجل ما كان أحوجه الى ذلك الرجل الذى كانت تجتمع فيه الرجال ، وتلتقى فى سياسته الآمال.

وما أشبه توفيقا بملك فرنسا لويس السادس عشر، ذلك الملك المسكين الذى قال عنه بعض المؤرخين انه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معا ، فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، وما زالت تنمو وتتزايد ، وما زالت تلك الاقلام الجبارة أقلام فلتير ، وروسو ، وأضرابهما تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهد

ذلك الملك فانفجر البركان وكانت الراجفة التى زلزلت فرنسا زلزالا شديداً .

وأرى توفيقا قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية فى عهد ذلك الخديو المخلوع ، ثم راحت تحدوها وتمهد لها أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فرجفت الراجفة .

وما كانت الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد ، أو عن غفلة ، وان الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ، وانما كانت الثورة العرابية اذا أردنا وصفها فى جملة هى التقاء الحركتين الوطنية ، والعسكرية ، واندماجهما ، فلما ذهب عرابى الى الخديو على رأس جنده فى اليوم التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ ذهب يحمل اليه مطالب الجيش ومطالب الامة معا ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم

ما لبث المصريون كما أسلفنا أن فجعوا فى آمالهم بتدخل الدولتين تدخلا جريئا فى شئونهم أدى الى عزل الخديو وتركهم ذاهلين تتنازع أفئدتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل .

وتولى قيادة السفينة توفيق ، فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ، فها هم أولاء المصريون تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم على الاجانب ، ولن يطيقوا بعد اليوم أى جنوح اليهم ، وها هى ذى انجلترا تتحفز وتتربص ، ثم ها هى ذى فرنسا تتحين الفرص لتتغلب على منافستها ، وهناك تركيا جاءت آخر الامر تطلب أن تعيد سلطانها فى مصر

سيرته الاولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبيها.

والرياض غير عليم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم من ذلك يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلص من شريف وهو أحوج ما يكون اليه ، وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقا أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على تناسى ما لحق بمنصب الخديوية من هوان صغر به فى أعينهم ، ولكن توفيقا غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رآه من اقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة .

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضا يجارى الخديو فى استكثاره الدستور على المصريين فيقنع بما لايقنع به وطنى مكتفيا بمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها مستغنيا عن مجلس شورى النواب الذى يحرص عليه الوطنيون كل الحرص .

وجاء قانون التصفية فى عهد رياض فازداد به الوطنيون آلاما على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى فى الغاء دين المقابلة ، وقد أخذ من جيوبهم ، كما رأوا فيه ما هو أكثر من الغبن الا وهو عدم تنازل الاجانب عن شيء من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض الاموال ومبلغ ما كان يصل مصر منها ، وهم يعلمون كذلك ما كان من مجازفة الاجانب بأموالهم مما يلقى عليهم كثيرا من التبعة ، هذا الى أنهم رأوا مرتبات الموظفين الاجانب فى الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع ، فلم يدر بخلد من وضعوا تلك التصفية أن يراعوا ذلك فى قرارهم فينزلوا بها الى الحد اللائق ...

تلك هى الحركة الوطنية ، أو تلك هى نذر الراجفة ،

وما كانت الحركة العسكرية التى بدأت فى عهد اسماعيل واستفحل أمرها فى عهد توفيق الا بعض هذه الحركة الوطنية العامة ، حتى قدر أن يكون لها القيـادة آخر الامر وأن تسمى بالثورة العرابيـة نسبة الى الجندى الوطنى الثائر أحمد عرابى .

الجندى الثائر

بدأت الثورة العسكرية كما أسلفنا فى عهد اسماعيل ، وكان أول مظهر لها ذلك الحادث الذى اعتدى فيه فريق من الضباط على نوبار أمام وزارة المالية ، وكان ما دفع الضباط الى ذلك الحادث فى الواقع أو ماجعل التحريض أيا كان مصدره ، يحدث أثره فيهم ، ما لحقهم من الضيق بسبب الاستغناء عن عدد كبير منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم ، بينما كان لايلحق بالشراكسة فى الجيش شىء من هذا ...

ويذكر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى » حركة لنفر من الضباط المصريين فى شهر مايو سنة ١٨٨٠ ، وكان من بينهم أحمد عرابى . وخلاصة هذه الحركة كما يصفها بلنت ، أن هؤلاء الضباط قدموا شكوى الى وزارة الجهادية من تأخر مرتباتهم ، ونظرت الوزارة فى الامر ، وكان قنصلا انجلترا وفرنسا قد تدخلا فيه وألفت لجنة لتحقيق المسألة ، وقد أقرت هذه اللجنة مطالب الضباط ، ولكن رياضا ووزيره رأيا فى ذلك العمل القانونى حركة جريئة ، وخروجا على النظام .

ويقول بلنت : ان قنصل فرنسا البارون دى رنج أبدى كثيرا من العطف على هؤلاء الضباط ، وأصبح محبوبا لديهم ، وكان بين هذا القنصل وبين رياض كثير من الحزازات ...

وكان لعرابى كما يذكر بلنت نشاط ملحوظ فى هذه الحركة ، ولكنه كان معتدلا حتى لقد اكتسب باعتداله ثناء القناصل عليه .

ويتهم بلنت الخديو بأنه وجد فى هذه الحركة فرصة للدس والكيد لوزيره رياض ، فاتصل بالضباط وكان رسـوله اليهم على فهمى رئيس الآلاى الاول لحرس الخديو ، وكان على فهمى صديقا لعرابى وان لم يكن له ضلع فى هذه الحركة ولا وجهة معينة فى السياسة ...

ويذهب بلنت الى القول بأن توفيقا أخبر الضباط على لسان على فهمى بأن رياضاً ووزير الجهادية يبيتان لهم الكيد، وانهم أن لم يعملوا على اقصائهما عن منصبيهما حاق بهم السوء ، ولن يبخل الخديو بمعاونتهم لانه يعطف على مطالبهم ...

ولو صح هذا الذى يرويه بلنت لكشف لنا عن جانب من ضعف توفيق ، ذلك الذى يستعين بالضباط على وزيره ، لان يده كانت مغلولة عنه بسلطة الاجانب .

ولكن هذا الذى يذكره بلنت لم يرد ذكره فيما كتبه عرابى فى مذكراته ، ولا فى ذلك الموجز الذى كتبه لبلنت فأثبته فى آخر كتابه ، وما كان عرابى ليسهو عن أمر كهذا لا يخفى ما له من اهمية .

وكذلك لم أقع على ذكر هذا الذى ينسب الى الخديو فيما تناولته من الكتب التى عنيت بتفاصيل الحركة العسكرية ، ولعل بلنت ينفرد بهذه الرواية .

على أن مسلك الخديو لو صحت الواقعة أمر لا يستغرب، فقد استعان اسماعيل نفسه بالضباط على نوبار وزميليه من قبل ، اذ عجز عن مناوأتهم مناوءة علنية خوفا من الاجانب ...

استغنى عن عدد كبير من الجند الوطنيين فى أوائل

عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصرى عما أتفق عليه فى بداية هذا العهد ، وولى وزارة الجهادية فى حكومة رياض عثمان رفقى الشركسى ، وكأنما جعل هذا الوزير أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الكيد ، فلقد راح يذيقهم من كيده ونكاله بقدر ما راح يفيض على الشراكسة من عطفه واحسانه ، ولم يكن ذلك عجيبا من جانبه ، ففى دمه ما فى دم بنى جنسه من بغض قديم للمصريين الذين كانوا فى رأيهم فلاحين لا يصلحون الا ليكونوا عبيداً ...

وكان طبيعيا أن يجعل هذا الوزير الشركسى أكثر الترقيات فى الجيش للشراكسة ، وأخذ عثمان رفقى يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكى يبقى الشراكسة فى الجيش هم العنصر الذى يسود

أما عن كبار الضباط فقد بدأ يعزلهم أو يقصيهم عن مواضعهم ، كما حدث فى أمر أحمد عبد الغفار قائمقام السوارى ، اذ عزله رفقى وعين مكانه أحد الشراكسة وهو شاكر طمازة ، وكما حدث فى نقل عبد العال حلمى الى عمل فى ديوان الوزارة ووضع شركسى مكانه طاعن فى السن لا كفاءة له وهو خورشيد نعمان .

وأما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم فى أعمال لا تمت بصلة الى الجندية كحفر الترع والزراعة فى أرض الخديو وغير ذلك ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن عرابيا عارض معارضة شديدة فى أن يعمل جنوده فى حفر الرياح التوفيقى ، وهذا بلا شك موقف من مواقف شجاعته ، تلك الشجاعة التى يأبى خصومه أبدا الا أن يروها تهورا ، والتى نراها فى أكثر الاحوال على خير ما تكون شجاعة أولى الحمية والاخلاص من الرجال ، وأى مأرب كان لعرابى فى مثل هذا الموقف وفيم تكون معارضته فى أن

يسخر جنده فى مثل تلك الاعمــال اذا لم يكن مبعثها الانصاف والغيره ؟ وما يكون انصافه وغيرته فى موقف كهذا الا بسالة واقداما .

وكان رجال الجيش بوجه عام يحسون قلة عنــاية الوزارة بالامور العسكرية بل كانوا يلمسون اهمالها هذه الامور فى الوقت الذى أولت فيه شيئا من عنايتها غيرها من المسائل ...

ولو أن الوزارة عالجت هذه الحال بما يقتضيه العدل والانصاف لما قدر للحركتين : الوطنية ، والعسكرية أن تمتزجا فيكون منهما تلك الثورة التى اقترنت باسم عرابى.. لكن كان دون علاجها عقبات ، فهناك تعصب رفقى وغطرسته ، وجهل رياض بالشئون الحربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجند، لانه كان يترفع عن الفلاحين جميعا ، ثم هناك دسائس الشراكسة فى الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الـكيد الذى لم يكن يفتر ...

علم عرابى بما أراده عثمان رفقى بكل من أحمد عبد الغفار وعبد العال حلمى قبل أن ينشر ، اذ كان مدعوا الى وليمة بدار أحد الباشوات ، وقد أنبأه هناك أحــد أصدقائه بما اعتزمه رفقى فقال عرابى غاضبا : « أن هذه لقمة كبيرة لايقوى عثمان رفقى على هضمها » كما جاء فى مذكراته ، ويقول عرابى فى تلك المذكرات : «وبعد تناول الطعام جاءنى ضابط وأخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى فتوجهت اليهم فى الحال فوجدت من ضمنهم الاميرالاى عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى السودانى الكائن مركزه فى طره، والبكباشى خضر أفندى من الآلاى المذكور أيضا ، وعلى بك فهمى أميرلاى الحرس الخديوى بقشلاق عابدين والبكباشى محمد أفندى عبيد من الآلاى المذكور، والبكباشى ألفى أفندى يوسف من

الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى ، والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الآلاى السوارى وغيرهم . وكانوا جميعا فى هياج عظيم اذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم ، فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل ، فقلت لهم :

قد سمعت هذا من غيركم فماذا تريدون ؟ قالوا : وليس الامر كذلك فقط ، بل انه قد كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ويلعنون خيرى بك لتسليمه واذمانه للسلطان سليم ، ويقولون انه قدحان الوقت لرد بضاعتهم اليهم ، وأنهم لايغلبون من قلة ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل ، ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الانباء ممن يوثق بخبره. ، فقلت : وماذا تريدون اذن ؟ فقالوا : انما جئناك لنرى رأيك ؟ فقلت : رأيى أن تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر فى مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الثقة ويسمعون قوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم اذا أرادت الحكومة به شرا ، فقالوا كلهم :

انا فوضنا اليك هذا لامر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك . فقلت : كلا ، بل انظروا غيرى وأنا أسمع له وأطيع وانصح له جهدى ، فقالوا : انا لا نبغى غيرك ولا نثق الا بك ، فأبنت لهم أن الامر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له فقالوا : نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا. فقلت لهم : أقسموا لى اذن على ذلك فأقسموا ، وفى الحال كتبت عريضة الى رئيس النظار مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى

من تعصب عثمان رفقي باشا لجنسه واجحافه بحقوق الوطنيين وطلبت فيها أولا : عزل ناظر الجهادية المذكور وتعيين غيره من أبناء الوطن عملا بالقوانين التى بأيدينا ، ثانيا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة تنفيذا للأمر الخديوى الصادر عقب ارتقائه مسند الخديوية ، ثالثا : ابلاغ الجيش العامل الى ١٨٫٠٠٠ تطبيقــا للفرمان السلطانى ، رابعــا : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للعدل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الاجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مســامع الحاضرين فوافقوا عليها ، وأمضيتها بختمى وختم على بك فهمى وعبد العال بك حلمى ، وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء اذا حدث أى حادث من الضباط الشراكسة مع ترتيب ما يلزم لحفظ البنوك وبيوت التجار الاجانب والوطنيين من مطـامع الرعاع ، وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا ، وانتهى الاجتماع على ذلك » .

ويتضح من اجتماع الضباط بمنزل عرابى على هذه الصورة وفيهم من لم ينلهم فى أنفسهم شيء من الاذى أن السخط على رفقى كان من كل قلب ، وأن المسألة فى حقيقتهاكانت شعورا قوميا تجاه تعصبهؤلاء الشراكسة وعلى رأسهمكبيرهم الذى يمكن لهم علىحسابالمصريين أو الفلاحين كما كانوا يسمونهم ، وفى هذا أبلغ رد على الذين تشاء لهم أهواؤهم أو يدفعهم جهلهم الى تشويه ما كان يدفع عرابيا الى التمرد من نبيل الشعور، وذلك بقولهم : انه كانت تحركه دوافع شخصية .

ويجدر أن نبين هنا لماذا انضم اليهم رجل مثل على فهمى وقد كان فى حرس الخديو ، والواقع أنه فعل ذلك

نتيجة لسياسة رفقى كذلك ، فقد وشى به رفقى عند الخديو حتى غيره عليه ، وأحس فهمى أن مكانته عند توفيق لم تعد كما كانت ، فانطوت نفسه على الضغن وصمم على أن ينتقم من رفقى متى سنحت الفرصة ، وما لبث أن أحس مثلما كان يحسبه عرابى من كراهية هؤلاء الشراكسة جميعا ، والتعصب للقومية المصرية ، وهو بلا ريب نتيجة لتأثره بشخص عرابى بعد مصاحبته وتفطنه الى ميوله وأفكاره .

يذكر عرابى فى مذكراته هذه أنه قد جاء فى الشكوى تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش ، ويذكر ذلك أيضا فى التاريخ الموجز الذى كتبه عن نفسه وأثبته بلنت فى آخر كتابه ، ولكنى لم أقع فى مصدر آخر على أن العريضة احتوت المطالبة بتشكيل مجلس نيابى وزيادة عدد الجيش ، ولقد علق بلنت على ذلك قائلا : « أظن أن عرابيا قد وقع هنا فى خطأ فخلط بين ما احتوته العريضة وبين هذين المطلبين اللذين جاءا فيما بعد يوم ٩ سبتمبر ، ولكن عرابيا أصر على أن المطالب الثلاثة جاءت أول ما جاءت فى فبراير وأنها كتبت يومذاك » . وقد عرض بلنت ماكتبه عرابى عن تاريخ حياته على الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٣ فى منزله بعين شمس فاقر أكثره ولكنه وضع ملاحظاته على بعضه ومنه محتويات تلك الشكوى ويؤكد الشيخ محمد عبده أنه لم يكن فى تلك الشكوى أية اشارة الى تشكيل مجلس نواب أو الى زيادة عدد الجيش .

ويقول كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » : « لقد جاء فى العريضة أن وزير الحرب عثمان باشا رفقى عامل الضباط المصريين فى الجيش معاملة غير عادلة فيما يتصل بالترقية ، وقد سلك فى ذلك مسلكا كما لو كان هؤلاء أعداءه أو كما لو أن الله قد أرسله ليصب غضبه على

المصريين ، وقد طرد الضباط من فرقهم بغير تحقيق قانوني وعلى ذلك فقد طلب الشاكون مطلبين : أولهما ، أنه يجب اقصاء وزير الحرب لانه غير كفؤ لهذا المنصب العالى ، وثانيهما ، أنه يجب أن يجرى تحقيق يتناول مبلغ كفاءة الذين ظفروا بالرقى » .

هذا ما ذكره كرومر عن محتويات الشكوى ولو أنه كانت بها اشارة الى ذينك المطلبين اللذين أشار اليهما عرابى ما أغفلهما كرومر لما يكون لمثلهما من خطر فى ذلك التاريخ الذى يكتبه ...

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية » : « ويلوح لنا أن ورود هذه المطالب كلها فى عريضة الضباط أمر مبالغ فيه ومشكوك فى صحته ، فالمستر بلنت ــ وقد قص له عرابى واقعة قصر النيل ــ يقول : أن العريضة كانت مقصورة على عزل عثمان باشا رفقى من منصبه ، والشيخ محمد عبده ينفى رواية عرابى ويقول ان العريضة تتضمن الشكوى من الحيف الذى وقع بالضباط من عثمان رفقى وطلب عزله ، وانه لم يرد بها أية اشارة الى الدستور أو الى زيادة الجيش الى ١٨٫٠٠٠ جندى ، وقال على باشا فهمى فى استجوابه ان العريضة مقصورة على طلب عزل عثمان رفقى ، وذكر البارون دى رنج قنصل فرنسا العام فى مصر فى رسالته عن واقعة قصر النيل أن العريضة مقصورة على اعادة قائمقام الفرسان » ويرى الاستاذ الرافعى أن عرابيا « حين كتب مذكراته بعد وقوع حوادثها بسنين خلط بين مطالب الضباط فى واقعة قصر النيل ومطالبهم بعد انتصارهم فيها » .

وأنا أميل الى ما ذهب اليه الرافعى ، وأحس أن عرابيا لم يعن بالدقة فى بعض تفاصيل هذا الحادث

ومنها ما احتوته العريضة ، فقد ذكر فى ذلك التاريخ الموجز الذى كتبه لبلنت بناء على طلبه أنه علم فى بيت نجم الدين باشا أن عثمان رفقى كان ينوى عزله وعزل عبد العال ، وهذا يخالف ما جاء فى مذكراته ، وكذلك جاء فى ذلك الموجز أن عبد العال اقترح عليه حينما وافاه ومن معه فى منزله الذهاب الى بيت عثمان رفقى والقبض عليه أو قتله ، وانه رد على عبد العال قائلا : «كلا ، بل نشتكى الى رئيس الوزراء ، فان لم يقبل فالى الخديو» ، وهذا أيضا يخالف ما جاء فى المذكرات ، ومنه يحس المرء أن عرابيا كان يكتب من ذاكرته احيانا ولذلك كان يختلط عليه الامر فى بعض المسائل .

ومهما يكن من أمر محتويات العريضة ، فالذى تكاد تتفق عليه الروايات أن الضباط طالبوا بعزل عثمان رفقى من منصبه وليس هذا بالامر الهين ، بل انه لجرأة عظيمة فى عهد كذلك العهد ...

يذكر عرابى فى مذكراته أنه بين للضابطين خطورة الحركة ، ولكنهما أصرا عليها فطلب اليهما أن يقسما أمامه أن يخلصا له النية ، ولنا أن نتساءل هنا ، لم اختير عرابى قائدا لهذه الحركة دون غيره ، وقد كان فهمى فى حرس السراى وله صلات برجال الحاشية ، ولم يكن عبد العال دون عرابى مرتبة وخبرة ؟ لم عقد الضباط اجتماعهم فى داره وأرسلوا يطلبونه وقد نمى اليهم مما يدبر رفقى ما نمى ؟

ان اختيار رجل من الرجال دون غيره لقيادة حركة من الحركات أمر ينطوى لاريب على معنى ، فما ولدت الزعامة فى الغالب الا على هذه الصورة ، ففى ذلك الرجل توجد صفات يتميز بها من سواه فتجتمع عليه القلوب والاهواء فى لحظة لا يكون للتنافس الشخصى فيها مجال ،

وهذا فى رأيى من أفضل مقاييس الزعامة وبخاصة اذا كان من يختار معروفا من قبل لمن يختارونه ، فلا يكون اقبالهم عليه اعجابا وقتيا لا يلبث أن يتبين خطأهم فيه.

ولن يشذ عرابى عن هذه القاعدة ، فانما اختاره الضباط لما عرفوا فيه من صفات الجراة والحماسة والاخلاص ، ولما عهدوا ما عليه من الصدق وحسن الطوية ، هذا الى أنه كان يفوقهم من ناحية لا غنى عنها لزعيم من الزعماء الا وهي فصاحة اللسان ، فلقد كان هذا الرجل الذى جعل الجهل فى مقدمة عيوبه أفصح الضباط لسانا ، ولقد كانت الخطابة احدى مواهبه حتى ليعد من أخطب رجال ذلك العهد ، لا فى الجيش فحسب ، بل بين المواطنين جميعا ...

وامتاز أحمد عرابى بشىء آخر لعله خير ما امتاز به ، وذلك أنه كان أكثر المصريين فى الجيش سخطا على الشراكسة وأشدهم نفورا منهم ، وأعظمهم اعتزازا وشعورا بقوميته ، وهذا لعمرى ما سوف يظل التاريخ يذكره عن هذا الرجل الذى جهله أكثر بنى قومه زمنا طويلا ، وما ستظل الاجيال تزداد منه وثوقا حتى يغدو هذا المصرى الفلاح من أحب زعماء مصر الى قلوب أهل مصر ...

وما كان اضطغان عرابى على الشراكسة لدافع شخصى، فهو مصرى قبل كل اعتبار، وما يلحقه من أذى أو احتقار على أيدى هؤلاء انما يناله رجلا ويناله مصريا فى وقت واحد ، ولم يقف سوء معاملاتهم عنده حتى يقال انه غضب لما لحقه ، وانما كانت سياسة الشراكسة تعصبا لجنسهم على حساب المصريين ، فكان هذا الضابط المصرى أكثر أقرانه من المصريين نخوة وأعزهم نفسا ، وفضلا عن هذا كله فقد حظى عرابى نفسه فى أوائل عهد

توفيق بالرقى الى مرتبة أميرالاى ، وكان ذلك كفيلا أن يزيل ما عسى أن يكون قد بقى فى نفسه مما لحقه من أذى فى عهد اسماعيل .

أعد الضباط عريضة بمطالبهم ووقع عليها عرابى وزميلاه ، وذهب ثلاثتهم فرفعوها الى رياض باشا فى منتصف يناير سنة ١٨٨١ وانهم ليعلمون ما كان ينطوى عليه مثل هذا العمل من جرأة فى ذلك الوقت ، وكان عرابى هو الذى يتكلم باسم زميليه وباسم الضباط جميعا ، كما كان سعد يتكلم حينما ذهب مع زميلين له كذلك فى مستهل الثورة الثانية الى مقر المعتمد البريطانى يرفع مطالب مصر عقب الهدنة التى ختمت بها الحرب العالمية الاولى ...

وكان رياض يكره تقديم العرائض مهما كان من عدالة ما تحتوى من المطالب وكان يلقى فى السجن أو يحكم بالنفى على من يخطون مثل هذه الخطوة ، كما حدث للسيد حسن موسى العقاد فقد نفى الى السودان لانه انتقد الغاء قانون المقابلة على الصورة التى جاءت بها لجنة التصفية ، وكما حدث لكثيرين غيره ممن أخرجوا من مصر بسبب آرائهم الحرة .

وقابل رياض الضباط مغتاظا محنقا وخاطبهم فى كبرياء وغلظة كما يقول عرابى فقال لهم فيما قال : « ان أمر هذه العريضة مهلك وهو أشد خطرا من عريضة أحمد فنى الذى أرسل الى السودان » .

وكان هذا الفتى قد نفى كذلك لانه طلب المساواة فى المعاملة بغيره من موظفى الديوان محتجا على ماكان يجرى من صور المحسوبية ، وقد قضى فى منفاه نحبه .

يقول عرابى : « فأجبته بأننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر ، وانا لنعتبرك أبا للمصريين

فما هذا التلويح والتخويف ؟ فقال ليس فى البلاد من هو أهل لان يكون عضوا فى مجلس النواب ، فقلت له : انك مصرى وباقى النظار مصريون والخديو أيضا مصرى ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا فان فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لان يكون عضوا فى مجلس النواب ، أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟ فانبهر وكأنما كبر لديه ما سمعه منا ، ثم قال : سننظر بدقة فى طلباتكم هذه ، فانصرفنا على ذلك » .

ويتضمن كلام عرابى هذا أنه طالب بمجلس للنواب ، ولكن بلنت يورد الحادث فى كتابه على صورة أخرى قائلا انه يورده كما علمه من عرابى ، قال عرابى فى رواية بلنت ما ترجمته : « ذهبنا بعريضتنا الى وزارة الداخلية وطلبنا أن نقابل رياضا فأدخلنا حجرة خارجية ودخلنا ننتظر حتى قرأ الوزير العريضة فى حجرة داخلية ، ثم ما لبث أن جاء الينا يقول : ان عريضتكم مهلكة ، ماذا تطلبون ؟ أتطلبون تغيير الوزارة ؟ وماذا تضعون مكانها ، ومن تقترحون ليدير شئون الحكومة ؟ وأجبته قائلا : يا سعادة الباشا ، هل مصر امرأة ولدت ثمانية أبناء ثم عقمت ، وقد أردته بهذا والوزراء السبعة تحت امرته».

واشتد غضب رياض لمطالبة الثائرين بعزل عثمان رفقى فقد رأى فى هذا الطلب نوعا من التمرد الجرىء اذ ما دخل الجيش فى سياسة الحكومة حتى يطالب بعزل وزير من الوزراء ، وكانت الحكومة لاريب محقة فى هذا الغضب ، ولكنها لم تسلك ازاء هذه الحركة ما كانت تقتضيه السياسة الرشيدة ، فكان عليها أن تنظر فى

مطالب الجيش فتجيب منها ما يزيل أسباب الشكوى ، ثم تقنعهم بعد ذلك بأن ليس من حقهم المطالبة بعزل رفقى

سكت رياض أسبوعين وهو يحاول اقناع الضباط بسحب العريضة ولكنهم يصرون عليها ، وغضب الخديو أشد الغضب وأشار عليه بعض المحيطين به باتباع العنف نحو الضباط ، ثم نمى الى رياض أن سكوته قد يفسر بأنه ممالأة للجيش وعدم موالاة للخديو ، ويقول بلنت فى كتابه : ان الخديو من ناحيته أراد أن ينتهز هذا الحادث للانتقام من رياض فيوقع العداوة والشحناء بينه وبين رجال الجيش ، وكان من رأى رياض الا يجعل من المسألة قضية تتجه اليها أذهان الناس ، كما أن رفقيا كان يخشى أن تظهر المحاكمة سوء سياسته .

ولما فطن رياض الى ما قد يفسر به سكوته وافق على محاكمة الضباط ، ووقع الخديو على أمر بمحاكمتهم ، ودعى وزير الجهادية الضباط الثلاثة الى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف احدى الاميرات ، فأخذتهم من الدعوة ريبة اذ لم تجر العادة بمثل هذا ، وأخذوا للأمر ما يجب من حيطة ، فاتفقوا مع فرقهم أن تذهب اليهم اذا تأخرت عودتهم عن ساعتين ، ثم ذهبوا الى حيث طلب اليهم أن يحضروا ..

وكان الضباط فى الواقع على علم بما دبر لهم ، فلم يكن من العسير عليهم فى مثل ذلك الموقف أن يدركوا ما عسى أن تبيته لهم الحكومة من كيد ، ولقد قيل أن قنصل فرنسا كان على اتصال بهم فأخبرهم بما عقدت الحكومة النية عليه .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون وزارة الجهادية وكان ذلك أول فبراير سنة ١٨٨١ حتى ألفوا انفسهم بين صفوف مسلحة من الشراكسة فقبض عليهم وانتزعت منهم

سيوفهم وأودعوا السجن وهم يسمعون عبارات السب والشماتة يقذفهم بها هؤلاء الشراكسة الاجلاف وكانت كلمة «فلاح» أكثر ما أطلق به ألسنتهم هؤلاء السفهاء من الشراكسة ، وقد ساء وقعها فى نفوس الضباط الثلاثة وفى نفس كل من علم بها من المصريين . وكان دخولهم السجن توطئة لمحاكمتهم فقد انعقد لهم مجلس عسكرى يحاكمهم برئاسة رفقى نفسه .

وعين رفقى ثلاثة غيرهم على الآياتهم فأحل محمود طاهر محل عرابى ، وخورشيد نعمان محل عبد العال حلمى وخورشيد بسمى محل على فهمى ، وعمل رفقى على تنفيذ هذا الامر ساعة صدوره ...

***

شاع الخبر فى الجند الوطنيين فثارت ثائرتهم ، وكان أكثرهم جرأة واقداما ووفاء الضابط الباسل محمدعبيد بطل التل الكبير فيما بعد ، وكان فى آلاى على فهمى بقشلاق الحرس بعابدين ، فنادى جنده نداءه العسكرى فاحتشدوا ، فأمرهم بالسير الى قصر النيل ، فاعترضه خورشيد بسمى ذلك الذى حل محل فهمى فلم يستمع محمد عبيد اليه ، بل لقد اعتقله فى احدى حجرات القشلاق ، وشهد الخديو تأهب الجند للمسير فأرسل اليهم الفريق راشد باشا حسنى سير ياوره ليصدهم عن سبيلهم فما استمعوا له ، وأرسل توفيق يستدعى عبيدا وبعض اخوانه فرفضوا أن يذهبوا اليه ...

وأحكم عبيد الهجوم على قصر النيل ، ولاذ رفقى بالهرب من احدى النوافذ فى صورة مخزية وهرب أعضاء محكمته، واعتدى الجند على أفلاطون باشا وستون باشا وبعض من صادفهم من الضباط الاجانب ، وما زال عبيد يبحث عن الضباط الثلاثة هو وجنوده وراحوا يحطمون

الابواب والنوافذ حتى عثروا عليهم ففك عبيد قيودهم واطلق سراحهم ...

وتحرك آلاى طرة قاصدا قصر النيل ، واستمر رجاله فى سيرهم على الرغم من انهم علموا أن الضباط الثلاثة قد أخلى سبيلهم ، وعلى الرغم من أن الخديو أرسل لقائدهم خضر أفندى خضر ينهاه عن الحضور ، وتوجه خضر الى عابدين وقد علم أن عرابيا وصاحبيه قد ساروا الى هناك .

ولم يتخلف الا آلاى العباسية وهو آلاى عرابي نفسه ، وقد ندموا بعد ذلك على قعودهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ثم جاءوا عشاء الى عابدين فألقوا معاذيرهم بين يدى عرابى واكدوا له الولاء .

ويحسن أن نورد هنا ما وصف به عرابى موقفه هو وزميليه بعد أن دخلوا السجن قال : « ولما أقفل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار ، ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة فشجعته متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت وكان يظنها لا تفرج

وتمثل عرابى بأبيات أخرى نسبها الى السيدة زينب رضى الله عنها الى أن قال : « فلا والله ما كانت الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى وأحدق رجالهما بديوان الجهادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن ، ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين وقصدوا جميعا الى

سراى عابدين » ...

وانما نورد هنا ما ذكره عرابى لانه من جهة يصور لنا جانبا من شخصيته وناحية من ثقافته ، ويرينا نزعة اتكاله على الله ، تلك النزعة التى سوف لا تنخلع عنه حتى بعد أن تنخلع عنه عزيمته عند انصراف أنصاره عنه عقب مأساة التل الكبير ، ثم لان كلامه من جهة أخرى متفق مع ما يقول الرواة فلا ضير أن نورد القصة على لسانه .

***

ذهب الضباط الثلاثة ومن ورائهم من أخرجوهم من الاسر الى الخديو يسمعونه شكواهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الثائرين ولو أدى الامر الى اطلاق النـــار عليهم وقال البعض انه من العبث أن تلجأ الحكومة الى البطش وليس لديها وسائله ، فالفرق جميعا تؤيد عرابيا ومن معه . والرأى أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفىء بذلك نار الفتنة ، وكان ممن أشاروا بهذا الرأى محمود سامى البارودى الذى سوف يغدو من زعماء العرابيين ...

وتغلبت الحكمة على الطيش ، ووضع اللين فى موضع البطش ، فأوفد الخديو الى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم باجابته مطلبهم الاول فقد عزل رفقى ، وطلب اليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعودوا الى الشكوى فوقع اختيارهم على البارودى ، ووعدهم الخديو أن ينظر فى بقية مطالبهم وأن يعمل على انصافهم بعد أن أعادهم الى مناصــبهم والتمس الضباط الاذن على الخديو فلما مثلوا بين يديه أعربوا له عن امتنانهم وصادق ولائهم لشخصه وعظيم اخلاصهم لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين .

ولقد كان على الخديو أن يتدبر فى الامر منذ بدايته وينظر ما اذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة ان كان لابد من وضع العنف موضع العدل ، فان عدم القوة كان أمامه أن يلجأ الى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ، ولكنه تصرف على نحو ما رأينا فأفضى به تصرفه الى نتائج خطرة وسوف تؤثر أثرها فى مجرى الحوادث ، فظفر الجند بمطالبهم فى عنف . وعجز الحكومة عن مقاومتهم وسلوكها ذلك المسلك الشائن قد وضع الخديو وحكومته فى موضع الضعف وأحل عرابيا وحزبه محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الامل والرجاء ، هذا الى ما تركه هذا الحادث من سخيمة فى نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاهم ، ويسهل أن يلبس فيها كل حق بالباطل ، وما بثه من حذر وريبة فى نفوس الجند بحيث يرون فى كل حركة من حركات الحكومة شبح الغدر ويلبسان كل عمل من أعمالها ثوب الرياء ...

الفلاح الزعيم

أدى حادث قصر النيل وانتصار عرابى وزميلاه على هذه الصورة التى وصفنا الى ذيوع صيت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح قبله فى مصر منذ قرون ، فما يذكر تاريخ مصر منذ أن منيت بالفتح والقهر أن قام من بنيها رجل من أعماق القرى فتمرد على ما يعتقد أنه ظلم يحيق به وببنى جنسه ، كما تمرد واجترأ هذا الفلاح فأبعد من الوزارة شركسيا قوى الشوكة وأملى رغبته على رئيس الحكومة بل وعلى الخديو املاء ونال بغيته غلابا ، ولم يك بالذى يغفل عما كان عسيا أن يؤدى اليه صنيعه هذا من هلاك ...

والحق أن هذا العمل يومذاك كان بالغ الجرأة ، فقد كان المصريون يدينون بالطاعة للخديو ويهابون سلطانه وجاهه ، ويرون فيه سيدا وضعه الخليفة حيث كان ليطاع ولتعنو له الوجوه ، وماكان يتصور أحد أن يذهب الى مقر سلطانه رجل نشأ فى قرية ومن ورائه جند فلاحون مثله فيقولون له : نحن نريد ونحن نطلب ثم يظفرون بما أرادوا وينقلبون لم يمسسهم العذاب الاليم

وسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح الثائر الظافر على كل لسان فى القاهرة وسمع بذلك الاسم من لم يسمع به من قبل من الاجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين ...

ولم يقف الامر عند القاهرة ، فقد رن هذا الاسم فى القرى وتغلغل فى أعماقها فأفاق على رنينه أولئك الاعيان والشيوخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعا مطلقـــا للأتراك والشراكسة الذين كانوا ينظرون الى الفلاحين جميعا مهما يكن من ثراء بعضهم نظرتهم الى دوابهم ، والذين كرههم الفلاحون بقــدر ما خافوهم ، ولـكنهم لم يجدوا من الاذعان لهم من بد ...

عجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو والرؤساء الشراكسة ، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه ، ورغب الكثيرون منهم فى رؤيته ، فقدموا الى القاهرة يحملون اليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم اياه واعجابهم بمبادئه التى كان قوامها انصاف الفلاحين فى الجيش ، وراح عرابى يخطبهم شاكرا اياهم باثا فيهم روح الحرية والاباء .

وليت شعرى ماذا تكون الزعامة اذا لم تكن هــذه زعامة ؟ السنا نرى الآن فى عرابى شخصيتين : شخصية الجندى الذى يسير بمطالب الجند على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها أجيالا طويلة ؟ الا انى لألمس فى تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عرابى أول مؤذن به ، ألمس ذلك الفجر الذى ســوف ينبلج صباحه بعد قليل على صيحة أخرى كانت صدى لهذه الصيحة هتف بها فلاح آخر برز من القرى كما برز عرابى ، وذلك هو سعد ابن مصر العظيم وأحد أبطالها ومفخرة رجالها ...

ولئن كان جمال قد أيقظ الغافين فى المدن ، فان عرابيا قد بعث باقدامه أهل القرى من مراقدهم ، فان عمله هذا أوحى اليهم أنه من الممكن أن يخرج من بينهم من

يتسمخ بأنفه على أولئك الذين طالما استذلوا فى مصر الرقاب ...

ولقى عرابى وقد أصبح فى رأى الناس حامى الامة من المظالم تأييدا من العلماء الذين أعجبوا بجرأته وحميته

ولم يبلغ عرابى هـذه المكانة فى نفوس الناس بعلم اشتهر به او فلسفة عمل على تمكينها فى النفوس ، أو آراء فى الاصلاح والنهوض عمل على اذاعتها فى الناس كما فعل جمال الدين وكما فعل من بعده تلميذه محمد عبده وانما بلغ عرابى ما بلغه من الصيت بحميته وغيرته ثم بصلابة عوده وجرأته ؛ وكانت تلك الخلال هى أخص ما يطلب يومذاك ، حيث كان يحيط بالنـاس البطش والتخويف ويقعد بهم الذل والخوف .

وعلى الذين ينكرون أقدار الرجال أن يتـدبروا فى موقف عرابى هذا ، ثم لينظروا بعد ذلك هل كان صنعه ضئيلا كما يزعمون ، ولـكنا لا نوجه القول الى هؤلاء وأمثالهم ممن يكتمون الحق وهم يعلمون ...

وهل ذاع صيت ميرابو واغتـدى فى قومه زعيما بفلسفته وثقافته وهو المفكر الواسع الافق ، أم كان ذلك بصيحة منه تحدى بها القوة فملأت أسماع قومه ونفذت الى كل قلب فى فرنسا يؤمن بالحرية ، يوم كانت فرنسا فى مفترق الطرق اما الى الحرية ، واما الى العبودية ؟

ولو أن جاندارك كتبت ألف كتاب أو خطبت الناس ألف خطبة ، أكان ذلك يساوى لبسها الدرع واعتلاءها صهوة جواد وسيرها تقود الرجال مؤمنة اما الى القبر ، واما الى النصر ؟

ان الخطوة الاولى فى كل حركة تتطلب اقداما وبسالة كانت وما تزال هى التى تنقل التاريخ من صفحة الى صفحة ، وما يغفل عن قيمة الاقدام وخطره وبعد أثره

الا مكابر جحد به واستيقنته نفسه ...

وما ندعى أن عرابيا قد اتفقت له صفات الزعامة كلها أو أكثرها ، ولكنا منه تلقاء صفة لن تقوم بدونها زعامة ، تلك هي الشجاعة التى يأبى معها الرجل ان يذل ، ويزيد في جلال هذه الشجاعة بروزها فى وقت كذلك الوقت الذى نتحدث عنه ، ذلك الوقت الذى لم يكن يجد فيه الشجاع الا قليلا ممن يتاسى بهم أو يسير على نهجهم ، والذى الف فيه الذل حتى نسي الناس أنهم فى ذل ، والذى لم يكن فيه لذى النخوة عاصم من قانون أو دستور أو رأى عام ، أو ما اليها مما يستعصم به الناس اليوم من جور الطاغين ومكر المستبدين .

***

يقول بلنت فى كتابه . « ىن تاريخ هـذه القلاقل العسكرية فى قصر النيل هو أول فبراير سنة ١٨٨١ ، وقد حدث وكنت لا أزال فى مصر ولكن بعد أن غادرت القاهرة ، ولست أتذكر انى سمعت اسم عرابى يذكر قبل حدوثها ، ولكن الدور الذى لعبه فى ذلك اليوم قد أكسبه شهرة سريعة ، وسرعان ما صار اسمه على كل لسان ، اسم رجل نجح فى تحدى الحكومة والظهور عليها واحداث تغيير فى الوزراء ، وأصبح مقامه فى بضعة أسابيع مقام رجل ذى نفوذ وقوة فى مصر أو على الاقل أصبح يعزى اليه القوة وصارت تتقاطر عليه كما هى العادة فى مصر الظلامات من أناس عانوا الظلم ويطلبون معونته للوصول الى العدالة ، ولقد أذاع صيته خارج القاهرة ظهوره فى ثورته بمظهر الذى يحمى الفلاحين من جور الحكام الشراكسة ، واتصل به كثيرون من الاعيان ومشايخ البلاد ، وكان يرد على كل بما يسعه من رد حسن أو بما يدخل فى طوقه المحدود من عون ، وكان

يؤثر فى الناس تأثيرا حسنا أينما لقوه بحسن محضره وبابتسامته الجذابة وفصاحته فى الحوار ، ولقد اتفق كل الاتفاق لعرابى فى مظهره الشخصى من المواهب ما يهيئه الى ما ندب له من دور يلعبه فى تاريخ مصر ممثلا طبقته ، فهو فلاح كأدق ما تكون صورة الفلاح ، طويل القامة ، ثقيل الساقين ، بطىء الحركة الى حد ما ، وبهذه الصفات تتمثل لنا فيه قوة البدن الممتلىء التى هى من خصائص الفلاح العامل فى دلتا النيل ، ولم يكن له شىء من خفة الجندى وكان فى ملامحه شىء من ذلك السكون الذى أكسبه الوقار والذى يلمحه المرء فى وجوه مشايخ القرى ، وكانت ملامحه مظلمة فى حال سكونه ، وكانت لعينيه نظرة جامدة كنظرة الحالم ، وليس يفطن المرء الا حين يبتسم أو يتكلم الى ما بنفسه من ذكاء عظيم وعطف ، فعندئذ يشرق وجهه كما يشرق المنظر المظلم بنور الشمس ... ويجب أن نذكر أنه فى تاريخ مصر كله لم يبرز فى مدى ثلاثة قرون على الاقل فلاح بسيط الى أن يصبح ذا مكانة سياسية لها خطرها ، أو الى أن يصبح داعية اصلاح أو الى أن يهمس بكلمة تدعو حقا الى الثورة » .

***

والحق أن مجرد غضبة مصرى فى مثل ذلك الوقت لمصريته ودفاعه عن قوميته كان يعد من ضروب الشجاعة التى تبلغ، لما أحاط بها من ملابسات، حد البطولة ، ولن ينكر على عرابى المصرى الفلاح ما فى غضبته من معانى الزعامة والبطولة الا مغرض أو جاهل ، وهو لم يغضب فحسب ولم يعلن غضبه حتى رأى الخوف فنكص وانما طالب رئيس الوزراء بما اعتقد أنه الحق غير هياب ولا متلعثم ، وأخذ يعد العدة بعدها لما عسى أن يدبر له من

كيد ، ولم يرض من الغنيمة بنجاته مما وقع فيه ، وانما ذهب على رأس جنده وحمل الخديو على اجابة مايريده الجيش ، فأبعد من منصبه ذلك الوزير الشركسى الذى كان يبعد المصريين من مناصبهم لا لشيء سوى أنهم مصريون ...

بهذا الذى فعله ذلك الفلاح الثائر حقت له الزعامة على الفلاحين من بنى قومه ولكن الامر لم يقتصر على الفلاحين ، فقد بات يخطب وده رجال الحزب الوطنى كما سنبينه فى موضعه ...

***

وأصبح بيت عرابى مقصد الكثيرين من الاحرار كما كان موئل رجال الجيش ، ولم يجعل منه الوطنيون أداة لتنفيذ اغراضهم كما زين البغى أو الجهل لبعض المؤرخين أن يقولوا ، فلقد كان مؤمنا بمبدأ الشورى كايمانهم به كما كان يكره المستبدين من الشراكسة ومن المصريين أكثر مما كان الوطنيون يكرهونهم ، ولقد تجلى من قبل ميله الى كل من يعطف على المصريين فى علاقته بسعيد باشا وشدة ولائه له ...

وهكذا أصبح عرابى الفلاح ملتقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ؛ ولقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى ما يستطيع أن يخفى تلك الغيرة .

ومما ذكره بلنت فى هذا الصدد قوله : «وكان توفيق كما رأينا رجلا متقلب الاهواء ، فبينما كان لايزال ينوى أن يعتمد على الجيش للتخلص من رياض ، كانت تساوره نوبات من الحقد على عرابى لما يرى من سرعة ذيوع صيته وكان هذا الصيت جد ملحوظ طيلة أشهر الصيف وقد أدى الى اتصاله بعدد كبير من شيوخ القرى

وأعيانها أولئك الذين كانت دعوة تحرير الفلاح ، تلك الدعوة التى تولى قيادها ، شيئا تتوق اليه نفوسهم ، وأخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بقولهم : « الوحيد » وقد استحق هذه التسمية حقا فانه كان فى مدى عدة قرون الرجل الوحيد من صميم عنصر الفلاحين الخالص الذى استطاع أن يقاوم بنجاح طغيان رجال الطبقة الحاكمة من الاتراك والشراكسة » .

***

آن لمصر بعد طول المذلة أن تجد الرجل الذى يترجم عن آمالها ويدافع عن حقوقها وينطق باسمها فاتجهت كما اتجه الجيش الى هذا الفلاح الزعيم .

وعندى أن الحركة التى تعد مكملة لثورة عرابى أو بعثا لها هى ثورة مصر الثانية سنة ١٩١٩ ، وأن الزعيم الذى يلحق جهاده بجهاد أحمد عرابى وتضاف مبادئه الى المبادىء التى دعا اليها أحمد عرابى هو سعد زغلول الفلاح الزعيم الثانى، ولكن فى صورة غير صورة سابقه ، وفى ظروف غير ظروفه ومجال أوسع من مجاله وان اتفقا فى روح مبادئهما وقومية بواعثهما وأغراضهما ، كل من الثورة التى حمل لواءها ...

وما ننسى أن سعدا قد أعطى هذا الزعيم الاول حقه اذ كان يستعرض ذات مرة أطوار الوطنية المصرية فذكر له ما لايمكن أن ينسى له من فضل .

الوطنيون والعسكريون

بينا مبلغ ما أصيب به الاحرار فى آمالهم منذ أن عزل اسماعيل وعين توفيق ، ورأينا ما صدم النفوس من خيبة اذ استكثر توفيق الدستور على مصر، الامر الذى أغضب شريفا فاستقال ، وحل محله رياض ...

لم يكن لرياض مثل ما كان لشريف فى قلوب الوطنيين من محبة ، فقد كان على الرغم مما اشتهر به من براعة واستقامةمتكبرا محافظا يسىء الظن بالوطنيينوحركاتهم ويوجس خوفا منها ، كما كان فى خلقه شىء من الغموض والتحفظ فلم يكن له مثـل صراحة شريف ولا مثـل شجاعته الادبية واقدامه ونزعته الدستورية الحرة ...

وقد استطاع رياض أن يجعل من نفسه الحاكم المطلق الفعلى للبلاد ، وذلك بضمانه رضاء توفيق ، بأن جعل له حق رئاسة مجلس الوزراء متى أراد ، وقد حرص فى الوقت نفسه على السير فى ادارة شئون البلاد وفقا لمبدأ مسئولية الوزارة عن أعمالها ، ذلك المبدأ الذى قرره اسماعيل فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، والذى بمقتضاه لا يتنصل وزير من مسئولية عمـــله برده الى مشيئة الخديو كما كان الحال قبل تقرير هذا المبدأ ...

وكانت تطغى على الرأى العام المصرى روح الاستيـــاء العام ، فكان عهد وزارة رياض كجميع العهود التى تتهيأ

فيها الامم للثورات ، فتكون فى نفس كل امرىء ثورة وان لم تدر على وجه التحديد ما بواعثها .

والحق ان استياء النفوس هو وليد ما بينا من أسباب تعصب المصريين وسخطهم أثناء حكم اسماعيل باشا ، وجاءت وزارة رياض عقب اسـتقالة شريف من أجل تمسكه بالدستور فلم يبق مجال للأمل وخيم اليأس على النفوس ، حتى لم يعد هناك بد من متنفس لهذا الشعور المكبوت .

ولو أن رياضا فطن الى تلك الحال النفسية لأمكنه أن يعمل على تجنب عواقبها ، ولكن رياضا على حد تعبير الشيخ محمد عبده كان « لا يخالج فكره ريبة فى سكون المصريين الى اطاعة كل ما يؤمرون به حملا لهم على سوابقهم وسالف عهدهم فكان فى غاية الطمأنينة من ناحيتهم ولم ير أنه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة فى تنفيذ السلطة أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب » .

أو كما قال عنه انه كان «صادق النية مخلص السريرة فى خدمة البلاد ، ولكن لايبالى فى تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن أن من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته ، وأن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وأن لم تظهر الغاية الصالحة منه»

وزاد الناس نفورا من العهد كله ، ضعف شخصية توفيق فى ذاته وما لحق منصب الخديو من مهانة بسبب خلع اسماعيل ، فقد ألقى فى روع الناس وبخاصة حين رفض الدستور قاعدة للحكم أن مثله لايرجى خير على يديه وأنه بات صنيعة للأجانب يأتمر بأمرهم من وراء ستار بعد ما رآه من عزل أبيه ، وأن رفضه الدستور لم يكن الا مشايعة للأجانب فى نظرتهم الى المصريين ...

ولم تكن فى مصر طبقة راضية عن وزارة رياض أو عن الحال القائمة يومذاك بوجه عام سواء نسببت الى رياض أم لم تنسب اليه ، فخاصـــة المصريين ، الذين كانوا يدركون حال بلادهم حق الادراك ، والذين أثرت فيهم آراء جمال الدين ، كانوا منذ عهد اسماعيل ساخطين على تغلغل نفوذ الاجانب فى مصر ، وعلى السياسة التى جرت على مصر العسر والدين ، ومن هؤلاء سوف يتكون الحزب الوطنى فى عهد رياض كما سنبينه فى هذا الفصل

وكان أعيان البلاد ينقمون على رياض الغاء دين المقابلة ، ويرون أن هذا أقبح الغبن اذ تلغى وزارة مصرية دينا أخذ من المصريين ولا تجرؤ على الغـاء شىء من أموال الاجانب ، تلك الاموال التى شعر الناس جميعا بمبلغ ما كان فيها من مغالطة وسرقة .

وكان رجال الجيش ينقمون على رفقى تعصبه لجنسه ويشركون رياضا معه فى هذا الاثم بالضرورة لانه أقره ولم يكن يشكو الجند من تعصب رفقى فحسب ، بل كان يؤلمهم سوء ما يعاملون به مما يدل على الرغبة فى امتهانهم واذلالهم فكان يكتفى بمجرد التهمة ليفصـــل الجندى من الخدمة ، أو تنزع منه درجته أو ينفى الى مكان سحيق فى السودان ولو لم يثبت شىء عليه ، وكان ذلك خليقا أن يملأ النفوس بالحفيظة ويدفعها الى الرغبة فى الانتقام ، فليس الامر أمر ظلم فحسب ، ولكنه بتحيز الحكومة للشراكسة الذين يحتقرون المصريين كان ظلما على ظلم ...

وزاد السخط فى نفوس العسكريين انقـاص وزارة رياض عدد الجيش الى اثنى عشر ألفا اى الى أقل مما يقضى به الفرمان الذى أرسله السلطان الى توفيق والذى يقضى بجعل الجيش ثمانية عشر ألفا ، وقد أدى هــذا

الى صرف عدد من الضباط والجند الى مواطنهم فأصابهم العسر وكانوا من الســـاخطين ، كل ذلك والشراكسة لايمسسهم شيء بل لا يجدون الا التقلب فى النعمة والتمتع بالرقى .

وكان الناس بوجه عام ، ومنهم الفلاحون ، يشعرون أن لا عدالة ولا قانون يحمى المظلومين من تجبر الظالمين ، الحكام منهم وذوى الجاه والثراء ، فالكرباج والسخرة والنفى الى السودان وامثالها من العقوبات تقع على الناس فى غير رحمة ، بل فى غير حق ، وظل التعذيب والسخرة والاذلال أمورا شـــائعة فى القرى على أيدى المديرين والاغنياء على الرغم من اصدار رياض أوامره بالكف عنها ، ولقد كان نهيه عنها مما يحمد له ولـكن قعوده عن ابطالها كان مما يؤخذ عليه لاريب . ولقد بلغ عدد الذين تقدموا الى شريف باشا يلتمسون منه رفع الظلم عنهم حين ألف وزارته بعـــد يوم عابدين نيفا وتسعمائة كان تقرر ابعادهم الى السودان !

وكان مما يتألم منه الفلاحون اندساس كثيرين من المرابين الاجانب بينهم والعمل بكافة الحيل على ايقاعهم فى الشرك والاستيلاء على أكثر ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم .

كانت الحكمة تقضى أن يأخذ رياض الامور بالرفق علّه يتجنب انبعاث العاصفة ، ولـكنه عمل بسياسته على ثورانها ، ولعل مرد ذلك الى جهله بحقيقة ماكان يحيط به واستبعاده الثورة على المصريين ...

ولعله كذلك خيل اليه أنه قادر بالقمع والعنف على أن يحكم البلاد ، ولذلك رصد عيونه بتعقب الساخطين من الخاصة ، وكان يشتبه فى كل حركة ويخاف من أقل بادرة ...

وانزل العقاب الشديد بمن يعارض سياسته ، ومن ذلك ما حل بالسيد حسن موسى العقاد ، الذى كان كل ذنبه أن دعا الناس الى التوقيع على مظلمة ترفع لولاة الامر مما وقع على الناس من غبن بالغاء دين المقابلة ، وكان جزاؤه على ذلك النفى الى فازوغلى بالسودان ، ومنه أيضا ما لحق الفريق شاهين باشا كنج الوزير السابق فقد جرد من رتبه وألقابه لمجرد اتهامه أنه يتصل بالوطنيين الناقمين ...

***

وتعقب رياض الصحف بالتعطيل الوقتى والانذار والالغاء ، بتهمة اثارة الرأى العام ، ومنها جريدتا : «مصر ، والتجارة» ، وقد جاء فى قرار الوزارة بالغائهما قولها : « حيث سبق صدور الانذارات مرارا عديدة وتنبيهات شفاهية من ادارة المطبوعات الى أصحاب الجرائد الاهلية عموما ، والى صاحب امتياز جريدتى « مصر ، والتجارة » خصوصا بعدم خروجهم عن حدود وظائفهم ولا ينشرون ما يوجد تشويش الافكار ، صدر له آخر انذار بأنه اذا رجع لمثل ذلك ، فتلغى جريدتاه بالكلية ، وحيث أنه بعد هذا الانذار لم يترك مسلكه الاول لما نشره فى جريدة التجارة نمرة ١٢٣ الصريح فى أنه لايرجع عما هو عليه ، وحيث ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه ، اقتضى الحال صدور الحكم بالغائهما مؤبدا » .

وتناول بطش رياض غير هاتين من الصحف فلم تنج فى عهده صحيفة من التعطيل أو الالغاء أو الانذار .

أدت هذه السياسة التى جرى عليها رياض ، الى أن ينشط الناقمون فى العمل على مقاومته والتخلص من حكمه ، وكان هؤلاء الناقمون هم قادة الحركة الوطنية

الذين كانوا يجتمعون منذ أواخر عهد اسماعيل أى قبل ذلك بنحو اربعة أعوام فى بيت نقيب الاشراف السيد البكرى ، ونظرا لما بثه رياض من عيون تحصى عليهم حركاتهم فقد تركوا القاهرة وجعلوا اجتماعاتهم سرا فى حلوان ، ومن ثم تألف حزب أطلق عليه أول الامر جمعية حلوان ثم صار يعرف بالحزب الوطنى ... وكان من أشهر رجال هذا الحزب محمد سلطان وسليمان أباظة وحسن الشريعى ومحمد شريف واسماعيل راغب وعمر لطفى ، وقد نشروا فى أواخر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم وطبعوا منه آلاف النسخ وأذاعوها بين الناس ، ولقد حنق رياض أشد الحنق على ناشرى البيان وبذل جهدا كبيرا ليعرف أسماءهم كى يرسلهم الى السودان ، فلم يهتد الى أحد ...

وأوفد الحزب أديب اسحق الى أوربا ليدافع عن مبادىء الوطنيين فأنشأ فى باريس جريدة القاهرة ، وكان من أشد الساخطين على رياض لانه عطل له جريدتيه : « مصر ، والتجارة » ، ثم ان أديبا كان من تلاميذ جمال الدين وكان من المؤمنين بالدستور والمبادىء الحرة ، ولقد حمل حملة شديدة على رياض فى جريدته الجديدة وندد باستبداده وقسوته ونسب اليه الظلم والجهل والخمق ، وعاب عليه ما رماه به من الخضوع للأجانب والركون اليهم على حساب أمته ، ولم يدع عيبا يستطيع أن يرميه به الا بالغ فيه وأعاده وكرره ولم يترك غميزة فى خلقه أو فعلة الا أبرزها وراح ينوشه بأوجع الهجاء ، وكان رجال الحزب الوطنى يحصلون سرا على نسخ من هذه الجريدة ويوزعونها فى البلاد ، وكان من بينهم اثنان من المديرين هما : سليمان باشا أباظة مدير الشرقية ، وحسن باشا الشريعى مدير المنيا ...

وكان رجال الحزب الوطنى، يطالبون بالدستور قاعدة للحكم ، ويعملون على منع الاجانب من التدخل فى شئون البلاد لا من ناحية السياسة فحسب ، ولكن من ناحية المال كذلك ، وقد أيقنوا أن الحكم الدستورى الذى يرد فيه كل أمر الى الامة هو وحده العلاج الشافى من كل الادواء القائمة ...

ولكن رجال هـــذا الحزب كانوا لايزالون فى المرحلة السرية من جهادهم خوفا من بطش رياض ومن ورائه توفيق ، وخوفا من نفوذ الاجانب ودسائسهم ، وحسب المرء أن يذكر أن الحكم كان يومئذ وفق العرف ليدرك مبلغ ما كان يتمتع به رياض من سلطة ومبلغ ما كان يخشاه الوطنيون من نكال ...

وفى نفس ذلك الوقت الذى كان فيه يتشاور الوطنيون فيما يعملون ، كان السخط قد بلغ أشـــده فى صفوف الجيش ، على رفقى وسياسته ، ومن ثم على رياض ووزارته ، وكان سخط الجند بلا ريب ناحية من ذلك الاستياء العام الذى شمل مصر كلها ، ولذلك فان من ينظر الى الحركة العسكرية يومئذ على أنها حركة منفصلة انما يخطىء خطـأ كبيرا ، وبخاصة اذا تذكر أن مبعث سخط العسكريين فى جوهره كان تحيز رفقى لبنى جنسه، الشراكسة على حســـــاب هؤلاء المصريين الذين كانوا ينعتون بالفلاحين .

اذن فقد كان عرابى يمثل ناحية من الحركة الوطنية القومية حين ذهب الى رياض يشكو اليه رفقى، وماكان الجند مدفوعين بمصالحهم وحدها وانما كان يغضبهم الجور ويدفعهم الى الشكوى، ولو لم يكن هناك شراكسة يظفرون دونهم بالرقى والنعمة لمـا كان لحركتهم هذا

الطابع القومى الذى نعجب كيف يمارى فيه المماررن !
ولن ننسى فى هذا الصدد أن نشير مرة أخرى وقد رأينا مبلغ خوف الناس جميعا من سطوة رياض الى ما كان فى موقف عرابى من جرأة وشجاعة وعزة لن يجحدها الا الظالمون ...

***

وكان مما يقضى به منطق الحوادث أن يلتقى الوطنيون والعسكريون ، فهم أبناء أمة واحدة يجمعهم على كره رياض والاستياء من العهد كله ما كان يحيق بهم جميعا من المظالم ، وما كانوا يستشعرونه جميعا فى أنفسهم من أن مرد ذلك الى الحكم المطلق الذى يسير عليه توفيق ووزيره ومن ورائهما تدخل الاجانب .

ولذلك ما كاد عرابى يخطو خطـوته حتى حقت له الزعامة كما بينا ، فقد اتجهت اليه القلوب ، اذ هزت الناس جرأته وحميته ، وأحس الناس فى دخيلة نفوسهم أن الثورة قد هيىء لها الرجل الذى يقودها .

ولئن زين لبعض الناس أن يقولوا أنه ماكان ليستطيع أن يفعل هذا لو لم يكن يستند الى الجيش فانا نقول لهم ولم لم يضطلع بالقضية رجل غيره من رجال الجيش ، ولم يكن أعلاهم مرتبة ؟ ولقد كان معه زميلان حين وثب وثبته فلم لم تنسب الحركة الا اليه ، ولم لم يجر على الالسنة اسم غير اسمه ؟ ومن أدراه أن الجيش لن يخذله اذا جد الجد ؟ وهل قعد به تفكيره فى ذلك وهو ما دار بخلده بالضرورة حين أقدم على هذا الامر الخطير عن أن يخطو خطوته؟ وهل كان يغنيه ما أخذه على زملائه من المواثيق والايمان اذا خاف الجند جانب الحكومة فقعدوا كما قعد آلايه هو عن التحرك من العباسية الا

بعد العشاء ؟ ألا انها الحمية التى تقوم عليها كل زعامة من الزعامات . . .

وندع للشيخ محمد عبده أن يبين لنا كيف اتجهت النفوس الى عرابى ، قال فى مذكراته عن الثورة العرابية « شاع هذا الخبر بين الناس على حسنب العوائد فى مصر ، وعلم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالى واتحدت وجهتهم فى الغاية وان اختلفت الدواعى والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون فى التغيير أن ينالوا تشكيله ، والمتضجرون من أستبداد بعض المأمورين ، والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفا لكربتهم وأمنا على أنفسهم ، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شىء من وجدهم والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون فى ارضاء شرههم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية وقنصل فرنسا البارون درنج يسعى فى الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه ، والجناب الخديو لايكره أن يتخلى رياض باشا عن رئاسة النظار ، بل تلك أمنية من أمانيه .

فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح فى الطلب وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطلب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأتيه ناظر الحربية لايمكن الصبر عليه

ثم كانت تأتيهم الاخبار بأن الجناب الخديو لا يأبى اجابة طلبهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذى لايريد ذلك . والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الاخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الامر حسب ما طلبوا فى تقريرهم كما قدمنا » .

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجيش من ظفر سريع، بينما قد لحقهم هم الفشل، واستطاع توفيق أواستطاع فى واقع الامر رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والعمل فسرعان ما اهتدوا الى الطريق الذى يوصلهم الى أغراضهم فتقربوا من عرابى وتوددوا اليه ، فأخذ شريف يراسله ويعقد بينه وبينه أواصر المودة ، وحذا حذو شريف زعماء حركة الاصلاح فى الازهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذى كان يمثل الاعيان كذلك لانه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لاقصاء رياض عن موضعه ، وبعث الدستور الموؤود وتحقيق الاصلاح المنشود .

ويقول بلنت عن ذلك فى كتابه : « وفضلا عن أن عرابيا قد رأى أعيان الفلاحين يسعون اليه ، فانه قد رأى المطالبين بالدستور كذلك يجعلون منه حليفا لهم ، وقد كان الكثيرون منهم أعضاء فى الطبقة الحاكمة وكانوا فى قرارة أنفسهم يقاومون حرية الفلاح كما يقاومها رياض نفسه ... وكان شريف رئيس هؤلاء الدستوريين، وقد أدى به مجرى الحوادث فى الصيف الى أن يجد نفسه ذا صلة وثيقة بعرابى وان لم تكن صلة مباشرة ، وذلك كوسيلة لبعث الدستور الذى هو وسيلته لاستئناف سلطته ، ولما كان عرابى على الدوام ميالا الى مبدأ الدستور منعطفا اليه فقد لبى مرحبا بالفكرة ، وزاده اقبالا عليها أن سلطان باشا نفسه أقوى أعيان الفلاحين

يومئذ ، كان من أشد أنصار الدستور وقد اتخذ دور الوسيط فى الصلة بينه وبين شريف » .

والآن نقول : ان الثورة العرابية فى حقيقة أمرها هى التقاء الوطنيين والعسكريين على هـذه الصورة التى بيناها ، ولسنا بحاجة بعد ذلك فيما نعتقد الى كثير ولا الى قليل من القول لنرد على الذين يزعمون أن الثورة العرابية لم تكن الا حركة عسكرية بعثتها دوافع شخصية فأما الذين يزعمون هذا الزعم عن جهل فما نرتاب فى أنهم يرجعون عن زعمهم بعد هذا ، وأما الذين ساءت نيتهم فزعموا هذا الزعم مفرضين فما لنا الى اقناعهم وسيلة ...

ان تجريد الثورة العرابيـــة من صفتها القوميـــة الدستورية هو من صنع كتاب الاحتلال ، ومن ذهب مذهبهم من المخدوعين ومن المبطلين ، وماذا كان يصنع الاحتلال غير هذا ليبرر وجوده ؟ لقد شـوه القضيـة وحصرها فى فتنة عسكرية حمقاء هوجاء ، وبذل غاية جهده واستعان بجاهه ليصرف الاذهان عن أى معنى من المعانى السامية فى ثورة عرابى الذى ألقى به وبالابطال من زملائه فى منفى بعيد بدعوى أنهم من العصاة المفسدين فى الارض ، ثم دأب كتاب الاحتلال وصنائعه على تضليل ابناء الجيل الذى أعقب الثورة ، وجاراهم فى ذلك من الكتاب المصريين وا أسفاه الجهلاء الذين انخدعوا بما عمل الاحتلال على اقراره فى الاذهان ، والضعفاء الذين راعوا جانب توفيق ثم جانب ابنه من بعده . ذلك الذى ماكان يستطيع أحد أن يجهر بالثناء على عرابى فى عهده ، وملئت كتب المدارس بالاغاليط والاباطيل ، حتى مايذكر الذاكرون اسم عرابى وثورته الا قرنوها بمعانى الطيش والسفه والاحتلال ...

ولكن الحق ان أخفى عن الناس ردحا من الزمن ، لا يستطاع اخفاؤه عنهم الى الابد ، والا ما كان حقــا ، فجوهر الحق فى انه لابد منتصر مهما طال عليه الامد ومهما استعدى عليه الباطل من الوان الخداع والبهتان.

وان مصر اليوم لتعطف على عرابى وثورة عرابى ، وقد آن لها أن تنصف هذا المصرى الفلاح وأن تحدد له مكانه بين قواد حركتها القومية ...

وليس بعجيب أن يموه كتاب الاحتلال وصنائعهم وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموا الحق وهم يعلمون ، نقول ليس ذلك بعجيب ونحن نجد وا أسفاه رجلا من خيرة رجالنا ومن مفاخر أبطالنا يكتب عن عرابى صــاحبه فى الجهاد وزميله فيما كان يطمح اليه من آمال ، فينكر عليه زعامته ويقدح فيه قدحا كم تألمنا لصدوره عنه بالذات ، وله فى نفوسنا ما له من الاجلال والاكبــار ، ذلك هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ...

وانا اذ نحرك القلم لننقل هنا ما كتبه ذلك الشيخ الجليل عن عرابى لنحس بكثير من الخجل والاسف ، فما كنا نحب الا أن يتنزه الامام الكبير عما وقع فيه غيره وما نريد بنقل ما كتبه الاستاذ الامام عن عرابى وبيان ما أحاط به من ملابسات أن نسىء الى ذلك الشــيخ فتوقيرنا اياه واجلالنا له فوق كل شك وانما قصدنا أن نبين كيف تبعد أحيانا بالمرء على رغمه عوامل وظروف عما يجب من انصاف ، ويهمنا بوجه خاص حدوث ذلك من الشيخ محمد عبده بالذات ، فقد هان بعده كل اتهام يوجه الى عرابى وصغر كل ادعاء من ادعاءات المغرضين، واذا كان الشيخ محمد عبده يكتب عن عرابى هذا الذى نورده وهو العليم به الخبير بأحداث عصره ، وهو فوق

ذلك الامام الزعيم ، فكيف بالظالمين الغاصبين من أنصار الاحتلال وأبواقه ؟

وكأنى بالقارىء يقول فى نفسه : ولم لايكون حقا ما قاله الاستاذ الامام عن عرابى وللقارىء أن يتساءل هذا التساؤل ، ولكنه لن يلبث حتى يعلم اليقين ...

كتب الاستاذ الامام محمد عبده مذكراته عن عرابى بطلب من الخديو عباس حلمى ، وهذه دعوى لا تحتاج الى دليل فقد جاء فى مقدمتها قوله : « هذا مقام الذاكر لنعمتك ، العارف بقدر منتك ، العاجز عن الايفاء بحق شكرك ، التالى فى سره وجهره لآيات حمدك ، طوقتنى احسانا لم أكن أتأمله ، اذ أمرتنى أمرا ماكنت أتخيله ، أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت وما علمت وما اعتقدت فى الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها » الى أن يقول : « مولاى : أرفع الى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقنى به غيرى ، اللهم الا بعض الاوامر الرسمية أو شىء من المخابرات السياسية التى تضطرنى فى بيان الواقع الى الاشارة اليها اذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها » . اذا كان هذا شأن هذه المذكرات فليس مما يتوقعه المرء أن يمتدح محمد عبده عرابيا ويظهره على حقيقتــه زعيما وطنيا مجاهدا مطالبا بالدستور الذى أنكره توفيق ، فيسىء بذلك الى عباس بن توفيق ...

ولقد كانت صلة الامام بالخديو أول الامر طيبة فلما دب بينهما دبيب الخلاف فيما بعد أمسك الاستاذ عن اتمام تاريخ الثورة العرابية ، ولو أن محمدا عبده كتب هذا التاريخ بغير طلب الخديو أو لو أنه كتبه بعد الخلاف بينه وبينه لما ذكر عن عرابى ما ذكره مما سيأتى بيانه ، ولقد كان محمد عبده فيما كتبه عن توفيق مترفقا به

كل الترفق يتلمس له المعاذير فى كل أمر وفى هذا وحده ما يكفي لبيان ما كان يحيط به من عوامل بعدت به عن الإنصاف .

يضاف الى ما تقدم أن الاستاذ الامام ، وان كان من دعاة الشورى والحكم الدستورى كأستاذه جمال الدين الا أنه كان يرى أن مصر لم تكن تهيأت يومئذ لهذا الحكم وكان يميل الى حكم رياض ويحسب أنه يجد فيه المستبد العادل الذى ينهض به الشرق ، ولذلك نقم الاستاذ على عرابى ونفرت نفسه من الحركة العسكرية ؛ نجد الدليل على ذلك فى قول الشيخ رشيد رضا تلميذه وكاتب تاريخ حياته : « ان الاستاذ كان مؤيدا لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذى يرجى أن ينهض بالامة فى مدى خمس عشرة سنة كما بين ذلك فى مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء فى الجزء الثانى من هذا التاريخ ، وكان يفضلها على انشاء حكومة نيابية قبل استعداد الامة لها » .

نورد بعد ذلك ما كتبه الاستاذ عن عرابى ، فنقول انه استبعد أن يكون عرابى من طلاب الدستور لذاته فكأنه ما طالب بالدستور الا محافظة على نفسه بعدما كان من فعلته التى أدت الى حادث قصر النيل • يقول الاستاذ : « هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى الا سيوفا مسلولة أو حبالا منصوبة ولا يسمع من هواجس نفسه الا صيحة واحدة الخلاص ، الخلاص ، الهرب ، الهرب ، ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب

على الصورة التى قدرها له فى نفسه » .

وقال فى موضع آخر : « استحثه الحرص على ادراك المطلب أن يفضى به الى ضباط الجيش وأن يثير فى أحلامهم الضعيفة تماثيل الامانى من العزة والسلطان والصعود الى أعلا مراقى الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لاينال الا بمجلس النواب » .

وقال فى موضع ثالث : « أما عرابى فلم يكن يخطر بباله ولا يهتف به فى منامه أن يطلب اصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الشراكسة والمنافرة من عثمان باشا » .

هـذه آراء أقل ما يقال فيها بعد ما أشرنا اليه من ملابسات كتابتها أنه كتبها « غير ناظر فى كتاب ولا راجع الى مقال سبقه به غيره » كما ذكر فى مقدمة مذكراته التى كتبها للخديو عباس ، أعنى أنها آراء يعوزها الدليل من الحوادث أو الشواهد ، على أننا اذا أخذناها على علاتها فماذا نخرج به منها الا أن عرابيا رأى الظلم محيطا به فأراد أن يعتصم بالعدل فى صورة مجلس نيابى ؟ ولم لا تكون مصر كلها ممثلة فى شخص عرابى فكانت تحيط بها المظالم وتخشى الطغيان ولم يكن لها من عاصم الا حكم الدستور ؟ ولقد بينا مبلغ ما كانت تعانيه مصر منذ حكم اسماعيل ، واذا دفع الانسـان الخوف من الظلم الى مقاومة الظلم فهل يكون ذلك دليلا على جبنه ورغبته فى الهرب أم يكون دليلا على شجاعته وتحديه المخاوف ؟

ان الذى يعنينى من هذا الذى ذكره الاستاذ الامام هو أن أبين ما لحق عرابيا من الظلم ، حتى من أقرب الناس اليه عسى أن يحذر القارىء مما قد يجده من غير

الامام من هذا القبيل وعسى أن يطرح من ذهنه ما قد يكون قد علق به ، وما أحسب أن فى تاريخ الزعماء من تجمعت عليه المظالم كما تجمعت على عرابى فى حياته وبعد موته كذلك لست أذكر حركة جردت من معانيها السامية حتى تركت فارغة شوهاء تنكرها النفوس كهذه الحركة القومية التى بخسها المبطلون حقها هذا البخس الشنيع .

كانت الثورة العرابية ثورة قومية جمعت بين المدنيين والعسكريين من أبناء أمة واحدة أيقظتها المظالم واذا كان العسكريون أو زعيمهم عرابى قد طالبوا بالدستور خوفا على أنفسهم كما يذكر الشيخ محمد عبده ، فلماذا طلبه المدنيون ؟ أن كانوا طلبوه خوفا على أنفسهم كذلك من مغبة معارضتهم الخديو ووزيره وكان ذلك معناه عند الشيخ الجبن فانه لا قومية ولا وطنية هناك ، ويكون شأن الوطنيين فى هذا ومنهم الشيخ محمد عبده شأن عرابى وأعوانه ...

أن الوطنيين والعسكريين قد أحاطت بهم المخاوف من كل جانب فطلبوا الدستور وطلبه عرابى فيمن طلبوا وقد استعان به الوطنيون ، ولست أفهم لماذا يفرق الشيخ محمد عبده بين الباعث لعرابى على طلبه وبين باعث الوطنيين ؟ لقد كان يجوز أن تعلق بكلامه بعض الوجاهة لو لم يثبت أن الوطنيين اتصلوا بعرابى وطلبوا عونه أى لو أن عرابى وحده قد التجأ الى الاعتصام بطلب الدستور كفكرة طارئة أملاها عليه الخوف وليس فى البلد حركة دستورية ، أما أن تكون المطالبة بالدستور حركة عامة سابقة لشكوى عرابى وزميليه ويكون هو قد شايعها بوجدانه متضامنا مع زعمائها لايمانه بمبدأ الشورى ولما كان ينصب على الجميع من مظالم بيناها فى

موضعها ، ثم يصور لنا طلبه كما صوره الامام فذلك ما لا نستطيع أن نحمل عقلنا على قبوله ، ولو أن عرابيا كان من طبعه الخوف والهرب لما أثارتلك الحرب على الشراكسة ولما أقدم على رفع الشكوى الى رياض ولا على تدبير حادث قصر النيـــل ولا على الذهاب الى عابدين بعد اخراجه من السجن ، أجل ما كان ليفعل شيئا من هذا جبان خائف فهى أفعال لن ينهض بها الا مقدام ، قال الشيخ محمد عبده فيما علق به سنة ١٩٠٣ على ما كتبه عرابى من تاريخه لبلنت حين أطلعه عليه (١) : « كانت الاشهر السبعة بين حادث قصر النيـــل ومظاهرة ٩ سبتمبر أشهر نشاط سياسى عظيم شمل جميع الطبقات، واكسبت عرابيا فعلته كثيرا من ذيوع الصيت ووصلت بينه وبين المدنيين من أعضاء الحزب الوطنى مثل سلطان باشا وسليمان أباظة وحسن الشريعى وشخصى ، وكنا نحن الذين أبرزنا فكرة تجديد المطالبة بالدستور، وكانت وجهة نظره يومئذ أن ذلك يهيىء له ما يعصمه ويعصم زملاءه العسكريين من انتقام الخديو ووزرائه ، وقــد أخبرنى بذلك مرارا أثناء الصيف ، وبنــاء على ذلك أعددنا ملتمسات للمطالبة بالدستور وشفعنا ذلك بحملة فى الصحف ، وقد لقى عرابى سلطانا فى الصيف مرات كثيرة وقد أهتم به سلطان وقــد كان عظيم الثراء ، اهتماما شديدا وأرسل اليه كثيرا من الهدايا كالمنتجات الزراعية والخيل وما اليها ، وذلك كى يثير حماسته ، ولكى يظفر بمعونته فى الحركة الدستورية ولقد دبرت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان » .

وخلاصة ما يستخرج من هــذه الفقرة أن الوطنيين

---

(1) The Secret History of The British Occupation of Egypt. P. 490.

والعسكريين اتفقوا على المطالبة بالدستور وأن الوطنيين أرادوا أن يستعينوا بقوة العسكريين ، وان الباعث للعسكريين كان رغبتهم فى ايجاد ما يعصمهم من انتقام الخديو ، وأى عيب فى هذا الباعث ، وهل كان غيره منذ نشأت الحركات الدستورية باعثا للأمم على المطالبة بالحكم الدستورى ؟ ان كل منصف لايسعه الا أن يرى فيما وصف به الشيخ محمد عبده عرابيا من صفات الفزع والخوف والهرب تزيدا لا مبرر له ولا ينهض من الحوادث دليل عليه ، بل ان الحوادث جميعا تنقضه فالامر هين بين ينحصر فى أن عرابيا واخوانه رأوا فى الحكم الدستورى عاصما لهم من الجور كما رأى ذلك الوطنيون ، ومنهم الشيخ محمد عبده ...

***

التقى الوطنيون والعسكريون فكان من التقائهما واتجاههما وجهة واحدة ، حركة قومية غايتها الدستور والحرية . ولقد نجحت تلك الحركة نجاحا باهرا يدعو الى أكبر الاعجاب وبلغت غايتها دون أقل مكدر يوم عابدين، ولولا ما كان من موقف توفيق بعد ذلك ومن كانوا يتربصون بالبلاد من الثعالب وبنات آوى لسارت مصر قدما فى طريق الحرية والنهوض ...

وما يشين هذه الحركة مشاركة العسكريين فيها ، فليست فى ذلك بدعا من الحركات ، فما خلت حركة قومية من عنصر الجند اما متطوعين أو من الجيش القائم، وهل يعيب حركة استقلال المستعمرات الامريكية مثلا أن وشنطون الجندى كان زعيمها ؟ وهل يشين الثائرين من الاحرار على استبداد الملك شارل الاول فى انجلترا استعانتهم بكرمول وجنوده؟ وهل كان فى انضمام

الجيش فى فرنسا الى أكثر الحركات الثورية مما يذهب بجلال هذه الثورات ؟ ذلك ما لايقوله منصف ...

حق لمصر أن تفخر بأنها ثارت ثورة قومية حرة فى القرن التاسع عشر عصر القوميات والثورات وتلك هى الثورة العرابية التى مهدت لها عوامل واسباب تجعلها أشبه ما تكون بأجل الحركات القومية فى أوربا ...

وسيخنق الاحتلال هذه الحركة القومية ويطفىء شعلتها ولكن جمرتها تبقى تحت الرماد الى أن ينفخ فيها سعد من روحه فتشتعل وتتوهج حتى ما يستطيع مستبد ولا طاغية بعد ذلك أن يخمد نارها أو يطفىء نورها ...

دسائس ومخاوف

كانت سياسة توفيق ان كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل أهم العوامل فى تطور الحوادث على النحو الذى سوف نراه ، فلقد أجاب الضبـــاط الى مطالبهم وفى نيته أن يغدر بهم متى حانت الفرصة...

وأدرك الضباط لاريب أنه أجابهم الى ما طلبوا لانه لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك أحسوا أنه لابد متربص بهم فتربصوا هم كذلك به ...

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضا ويعمل على التخلص منه ، لذلك وضع نفسه فى موضع عجيب حقا ، فبينما هو يسخط على الضباط ويمقت حركتهم اذا به يتخذ منهم كما سنرى أداة للكيد لوزيره بغية اقصائه عن منصبه .

وهكذا تشاء الظروف النكدة أن يكون رجل كتوفيق هو الذى يحرك دفة الامور فى مثل ذلك الزمن العاصف.

لم يكن أمام توفيق كما أسلفنا الا أن يتخذ سبيله الى قلوب الوطنيين فيجعل من نواب الامة سندا له كما فعل أبوه فى أواخر أيامه ...

ولـكن توفيقا لم يلجأ الى ذلك الحل ، وما نشك فى أنه كان يفطن اليه ، ولـكنه كان يقتضيه أن ينزل عن سلطانه الى نواب الامة وهو ما نشك كل الشك فى أنه

كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدقت به وبمصر الاخطار ، فى وقت نشطت فيه دسائس الاجانب الذين أحكموا شباكهم لاقتناص الفريسة الغالية فى تلك الايام الكدرة .

وقع حادث قصر النيل فى فبراير سنة ١٨٨١ ، وفى أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها فى كثرة ما حيك فيها من الدسائس على قصر أمدها ...

أمر الخديو فأقيم حفل بعد حادث قصر النيل دعى اليه كبار رجال الجيش ، وخطب الخديو فأعلن عفوه عما حدث وأنه لا يضمر لأحد سوءا وحث الجند على الطاعة والنظام وأكد لهم أن الحكومة تهتم بأمرهم كل الاهتمام .

وقابل الضباط خطاب الخديو بالابتهاج والشكر ، وهتفوا به معبرين عن ولائهم له معلنين بين يديه أنه لن يرى منهم الا الطاعة والولاء .

ونظر البارودى وزير الجهادية الجديد فى مطالب الجيش فأجابهم الى أكثرها وكانت تدور حول زيادة المرتبات واصلاح قانون الترقية وقانون الاجازات والعناية بمأكل الجيش وملبسه ، كما طلب الضباط اعادة أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى الى الخدمة وتم لهم ما أرادوا فعاد هذا الضابط الى حيث كان قبل أن يعزله رفقى .

وأقام البارودى حفلا للضباط بعد اصلاح حالهم ، شهده الوزراء ، وخطب البارودى كما خطب رياض ، وأثنى رياض على الجند وحثهم على النظام وسألهم أن يقابلوا ما لقوا من اصلاح بالطاعة وأداء الواجب ، وخطب عرابى فأثنى على الخديو وأعرب عن ولاء الجيش لسموه

سمع الضباط أول ما سمعوا أن أعوان الخديو يغرون بالمال والمناصب بعض رجال الآلايات ليكونوا فى الوقت الموعود الى جانب الخديو ، ونمى اليهم فيما نمى أن رياضا يفكر فى طرف اجرامية للفتك بهم ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابيا أو من يحضر من زميليه ...

وحدث فى آلاى طره وهو الآلاى السودانى الذى كان يرأسه عبد العال حلمى ، أن كتب ثمانية من صف الضباط السودانيين يتنصلون من حادث قصر النيل ويعلنون ولاءهم للخديو ويبدون اعتذارهم ويتهمون رؤساءهم ، وأمر عبد العال باجراء تحقيق ثبت منه أن باشجاويشا شركسيا هو الذى حرضهم على ذلك وأن الذى حرض هذا الباشجاويش هو يوسف كمال باشا ناظر دائرة الخديو الذى دفع لكل من هؤلاء الثمانية ، جنيهات ثمانية ، وغضب عبد العال واشتكى الى رياض ورفع رياض الامر الى الخديو ونصح بعزل يوسف كمال باشا تهدئة للخواطر وقتلا للفتنة فى مهدها واجابه الخديو الى ما طلب ، وعاقب عبد العال ذلك الشركسى المحرض بالحبس ستة أشهر... وكشف عبد العال دسيسة أخرى كان يدبرها سودانى فى الاستيداع هو الاميرالاى فرج بك الزينى وكان مسكنه على مقربة من مقر آلاى طره واثبت التحقيق أنه كان على صلة بيوسف كمال باشا ، وقد ضبطه عبد العال بنفسه فى حقل قمح يحرض بعض الجند على كتابة المطاعن فى رؤسائهم ، وقد أبعد الزينى الى السودان ، ويقول عرابى فى مذكراته : « ان دسيسة فرج بك الزينى كانت أيضا من يوسف كمال باشا ، وان الخديو أراد أن يعوضه عما فاته فى مصر من رعايته ، فلما نفى الى السودان أرسل الى رؤوف باشا

حكمدار السودان وقتئذ ليلحقه بخدمة الحكومة السودانية ومنحه رتبة لواء ، فصار يعرف بفرج باشا الزينى » .

واتهم تسعة عشر ضابطا أحد رؤسائهم بأمور نسبوها اليه أثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم ، فبادر الخديو باعادتهم ، الامر الذى حنق له زعماء الجيش ، اذ رأوا فيه أن الخديو انما يعضد حركة التمرد فى صفوف صغار الضباط ويستميلهم اليه ضد رؤسائهم .

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الآلاى السودانى بقيادة عبد العال بك الى السودان ، بحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام ، فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة الى تشتيتهم للقضاء عليهم متفرقين ....

وترامي اليهم أن الخديو يمرن حرسه فى الاسكندرية على اطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه وينثر الذهب على الجند متظاهرا بمكافأة المجيدين فى اصابة المرمى ، ولا يفسر مثل هذا العمل فى ظروف كهذه الا بأنه استعداد من جانب الخديو لما كان مقبلا عليه من قمع وبطش...

وارادت الحكومة أن تسخر الجند فى حفر الرياح التوفيقي ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم الى مخازن الجهادية قبل ذهابهم الى ذلك العمل ، ورفض عرابى أن يوافق على ذلك وأيده فى رفضه البارودى ...

وحدث فى الاسكندرية أن دهمت عربة أحد التجار وكان سائقها أجنبيا أحد الجنود فنقل الى المستشفى حيث قضى نحبه ، واستشاط تسعة من الجند غضبا ، وأملت عليهم سذاجتهم أن يحملوا زميلهم القتيل الى سراى رأس التين فيقتحموا أبوابها على الرغم من مقاومة

الحرس ويتصايحوا داخل السراى شاكين من الاجانب ، راجين أن يتدخل الخديو بنفسه لمعاقبة هـذا السائق الاجنبى . وسمع الخديو هـذا الصخب فنهر الجند بنفسه وصرفهم من حديقة قصره ، ويدل هذا الحادث فضلا عن سذاجة الجند على مبلغ ماكان يتصوره الناس من عظم نفوذ الاجانب ، فما يجرؤ أن ينالهم بالعقـاب أحد الا الخديو نفسه ، ولهؤلاء الجند بعض العذر فيما تخيلوا وان كان ذلك لايبرر اقتحامهم القصر على هـذه الصورة ...

ولكن العقاب الذى عوقبوا به على فعلتهم كان بالغ الصرامة والقسوة . فقد عوقب الجندى الذى حرضهم على ذلك بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة ، وعوقب الثمانية الباقون بالحبس فى ليمان الخرطوم ثلاث سنوات مع الاشغال الشاقة كذلك ...

ولمـا ذاع النبأ فى الجيش استاء الضباط والجنود أعظم الاستياء من فداحة الحكم ، وكتب عبد العال تقريرا للبارودى يتظلم منه ويقارن بين هذا الحكم وبين ماعومل به الضباط التسعة عشر المتمردون ، وأظهر البارودى ميلا إلى قول عبد العال ، ونمى ذلك الى الخديو فغضب أشد الغضب على البارودى ، وقد كان يكرهه ويظهر السخط منه منذ أن أشار بأخذ الجند بالرفق واجابة ملتمسهم عقب حادث قصر النيل ومنذ أن اختاره الجند وزيرا للجهادية ، فقد داخلَ توفيقا الشك فيه ، ثم أصبح يعتقد أنه من رؤوس الفتنة وأنه هو الذى يثير الجند لاغراض يسعى لتحقيقها ...

واستدعى الخديو وزراءه الى الاسكندرية وصارحهم بأن وجود البارودى فى الوزارة هو سبب ما فى الجيش من فوضى ، ولم يسع البارودى الا الاستقالة وقد كان

الخلاف كذلك شديدا بينه وبين رياض تم أبلغ البارودى ان عليه أن يرحل فورا فيقيم بضيعة من ضياعه كيلا يتصل بأحد من الجند أو يتصل به أحد .

وعين داود يكن باشا صهر الخديو وزيرا للجهادية ، وهو شركسى لا يقل فظاظة وحمقا عن عثمان رفقى ، وعزل الخديو محافظ القاهرة احمد باشا الدرمللى لاتهامه بالعطف على الجند وأحل محله عبد القادر حلمى باشا ..

ولقدكان البارودى فى الوزارة علىصلة برجال الجيش فعلا ، وكان ينبئهم بكل ما تريد الحكومة بهم ؛ وقد أتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر

وما لبث أن اتبع داود يكن منتهى الصرامة فى معاملة رجال الجيش ، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك مراكزهم ليلا أونهارا ، أوالتحدث فىالسياسة، وانذرهم بأشد العقاب ان همخالفوا أمره ، ومع انعرابيا وأنصاره قد هنأوه بمنصبه وطلبوا اليه ان يعملعلىاجابة مطالب الجيش التى كان يسعى البارودى فى اجابتها ، فانه اكتفى بالوعود ولم بفعل شيئا ... قال عرابى معلقا على أمر وزير الجهادية الجديد : « ولماكانت تلك الاوامر مخالفة للقوانين العسكرية ومهينة للشرف العسكرى فقد ردت اليه من طرف أمراء الآلايات » .

ولا يقل رد هذه الاوامر الى الوزير مغزى عن حادث قصر النيل ، ان لم يكن أشد منه خطرا فمعنى ذلك ان الجند يعصون ما يلقى اليهم من أمر لايقرونه وفى ذلك الثورة أبلغ ما تكون الثورة ...

وبث حكمدار القاهرة الجديد عيونه وأرصاده على الضباط ، وكان داود يكن يطوف بنفسه على مراكزهم ليوقع الخوف فى نفوسهم .

واحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس، وجرت الشائعات بالنذر فملأ القاهرة نبأ عجيب مؤداه أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الاسلام بقتل عرابى، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة .

***

وطلب مجهول الاذن على عرابى فى منزله فلم يؤذن له ، وشوهد أنه عاد عقب ذلك الى أحد مخافر الشرطة، وذهب عرابى الى منزل زميله عبد العال فعلم أنه حدث هناك مثل ماحدث عنده ، فأيقنا أن حياتهما يتهددها الخطر ، ومما يذكره عرابى فى مذكراته أن أحد الغلمان الشراكسة فى منزل عبد العال ، وهو ابن زوج حرمه المتوفى قد دس له السم فى اللبن بايعاز غلام آخر شركسى من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبهت الخادم لذهب عبد العال ضحية هذا الغدر الاثيم ...

وكان للخديو فى تلك الظروف مسلك عجيب ، لولا أن قام عليه الدليل ما استطاع المرء أن يصدقه ، وذلك هو محاولة الاتصال بعرابى وزملائه ليستعين بهم على اخراج البارودى من الوزارة ، وكان رسوله الى عرابى هو على فهمى ثالث الثلاثة فى حادث قصر النيل ، ولقد أظهر له الخديو مودته منذ أن عاد الى آلاى حرسه لكى يستعين به اذا لزم الامر فى تحقيق مآربه ...

أرسل الخديو من الاسكندرية قبل استقالة البارودى أو اقالته على الاصح على فهمى بك رئيس الحرس الى زميليه فى القاهرة ، كما يقول عرابى فى مذكراته ، ليقول لهما أن الخديو يرغب فى عزل البارودى لما رأى من ذبذبته وسوء سياسته ، وان الخديو يعطف على مطالبهم «فهم ثلاثة وهو رابعهم » وان سموه يطلب الا يعلم أحد بايفاد

على بك اليهم ...

وترجع صلة الخديو بالضباط الى ما قبل ذلك ، فانه كان يريد الاستناد اليهم ليحرج رياضا الذى كان يستند الى الاجانب ، وقد ذكر عرابى أمر هذه الصلة سنة ١٩٠٤ بعد عودته من المنفى لبلنت فى حوار بينهما اذ سأله بلنت عن مبدأ صلة الخديو بهم ، فقرر أنها بدأت قبل حادث قصر النيل وقد ظن عرابى يومذاك أن على فهمى يتجسس عليه ولم يطمئن الى اخلاصه الا حين انضم اليه فى الشكوى الى رياض ، وقد سأل بلنت الشيخ محمد عبده عن ذلك فأيده . قال الشيخ محمد عبده : « ان ما ذكره عرابى عن رسالة الخديو التى ذكر للضباط أنهم ثلاثة وهو رابعهم صحيح وهو يصور أدق تصوير الحال بينه وبينهم يومئذ » .

ولا يخفى ما فى مسلك الخديو من خطورة فأقل ما يوصف به أنه جعل الضباط يشعرون أن الجو كله جو دسائس ومخاوف ، وأنه لايمكن بأية حال الاطمئنان الى موقف الخديو تجاه أحد .

***

هذه هى الحال فى الاشهر السبعة التى أعقبت حادث قصر النيل ، دسائس ومخاوف تحيط برجال الجيش وتوقع للانتقام فى كل وقت ...

أما عن الوطنيين فقد أسلفنا القول أن صلتهم بعرابى لم تنقطع طول الصيف ، وكان أكثرهم نشاطا فى الاتصال به سلطان باشا ، وكذلك كان يعمل شريف على توثيق أواصر المودة بينه وبينه ، وأيقن الجميع وطنيون وعسكريون ان لا منجاة لمصر من سوء الحال الا بازاحة رياض عدو الدستور عن الحكم واجبار توفيق على أن

يسلم بالحكم الدستورى الذى أظهر استعداده لقبوله عند توليته ثم ما لبث أن تنكر له ...

ولا سبيل لازاحة رياض واجبار توفيق الا الاستعانة بالجيش أو بعبارة أخرى بزعماء الجيش ، وما كان زعماء الجيش الا نفر من المصريين يحسون ما يحسه أبناء مصر جميعامن مبادىء العهد• يقول عرابى فى مذكراته : « ولما كثرت دسائس الحكومة وبان ختلها وعزمها علىاغتيالنا ، أخذنا حذرنا منها وسهرنا على احباط تلك الدسائس المنكرة ، وكان السير مالت قنصل انجلترا بمصر كثير التردد على الخديو ليلا ونهارا دون غيره من وكلاء الدول الاوربية ، فأوجسنا من ذلك خيفة على مصير بلادنا وخشينا من مطامع انجلترا التى كانت ترمى الى التهام وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس حتى يتم التوازن الذى تدعيه أوربا ، فعرضنا مخاوفنا علىجلالة أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا فى مصر ولكيلا يتورط فى تصديق ما قد يصل اليه من دسائس أعداء البلاد ، وذيلنا العريضة المذكورة بامضائى وامضاءات اخوانى على بك فهمى وعبد العال بك حلمى وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش ، وأحمد بك ابومصطفى وأحمد بك الصباحى وعثمان باشا فوزى وغيرهم من وجهاء الامة بالنيابة عن جميع المصريين » .

***

ونقل مؤلف كتاب المسألة المصرية عن كتاب بلنت العبارة الآتية (١) « ثم ان الامة بأسرها وبعبارة أدق ان طبقاتها المستنيرة الدستورية النزعة قد تبينت فجأة أنها ليست من الضعف بحيث ظنت نفسها ، وأن لها فى الجيش

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الاستاذين العبادى وبدران.

قوة كبيرة متجمعة لا يستهان بها ، فاذا ما استطاعت أن تضمه الى جانبها فى قضية الاصلاح الدستورى فانه لابد قاض على ماحاق بالامة من شــدة وهوان طال عهدهما وسرعان ما أصبح عـرابى وأصحابه بجرأتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الامة وموضــع اعجابها واستحال فى نظر الوطنيين ما كان يقصد به أن يكون مجرد احتجاج عسكرى الى فعلة مدنية وطنية وأصبح عرابى رجل مصر المشار اليه بالبنان ولقب بالرجل الوحيــد وما هو الا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر الزعماء السياسيين فى ذلك الزمن » .

وقال مؤلف ذلك الكتاب أيضا : « كان فى وسع كل انسان اذ ذاك أن يخبر بأن الجيش ان سنحت أو عند ما تسنح له فرصة للظهور فى ميدان العمل مرة أخرى فان ذلك لن يكون من أجل مصالح أفراده أو وظيفته ، ولــكن من أجل مصالح الامة السياسية العامة » .

***

أعد احمد عرابى بيانا أرسله الى أعيان البلاد ، يبين فيه أخطــاء الحكومة واستبدادها ويدعو النــاس الى معاونته لانتشــال البلاد مما هى فيه ، وقــد جاء فى مذكراته وصف استعداده لهذا العمل قال : « ثم أخذت فى نشر أفكارى بين علماء الامة وأعيانها وعمــد البــلاد ومشايخ العربان طالبا منهم مســاعدتى فى حفظ الامن والراحة العمومية حتى نتفرغ للنظر فى مصالح البــلاد ونتوفر على انتشالها من وهدة الاضمحلال » ... الى أن قال : « وسيلى ذلك اسقاط الوزارة الحاضرة التى لا تريد بالبلاد خيرا ، وتشكيل مجلس نواب يعهد اليه فى الوصول بنا الى الحرية المنشودة ، وختمت المنشور بطلب مساعدة أبناء البلاد وتأييدهم ، وبنــاء على ذلك

وفدت علينا الوفود من جميع أنحاء القطر ، وسلمتنا عرائض النيابة عنها ، وفوضت الينا العمل لما فيه سعادة البلاد وخلاصها من براثن رجال الاستبداد معلنة تضامنها معنا فى كل ما نقوم به من أعمال الاصلاح وما ينتج عنها من النتائج » .

هذا ما أعده عرابى لوثبته الثانية فى سبيل حرية وطنه، أو هذا ما يعتزمه من اقدام الرجل الذى وصفه خصومه فيما وصفوه به بالجبن والخوف والرغبة فى الخلاص والهرب ... ألا ليت كل شجاعة تكون كهذا الجبن الذى يصفون ، وليت كل شجاع مستطيع أن ينهض لما نهض له أحمد عرابى ...

يوم عابدين

هذا هو اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١، أعظم يوم فى تاريخ القومية المصرية ، ذلك التاريخ الذى افتتح فى شهر مايو سنة ١٨٠٥ حين سار السيد عمر مكرم والشيخ عبـد الله الشرقاوى على رأس جمهور المصريين الى منزل محمد على فألبسوه شارة الحكم دون أن يستأذنوا السلطان ...

وأخلق بهذا اليـوم المشـهود أن يكون له فى نفوس المصريين مثل ما لليوم الرابع عشر من شهر يوليو فى نفوس الفرنسيين... وعلى الذين يعنون بتاريخ الحركة القومية فى مصر أن يعلموا أبناء هـذا الشعب أن اليوم الذى نتحدث عنه هو بدء حياتهم أمة لها كرامة ...

اخـذ عرابى للأمر عدته على خير ما يستعد الرجل اليقظ الى عواقب الامور، فكتب الى وزير الحربية يطلب اليه أن يبلغ الخديو بأن آلايات الجيش جميعا ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٩ سبتمبر « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البـلاد وضمان مستقبلها » .

وارسل عرابى الى قناصل الدول يقطع عليهم سبيل الدس والتقول فأنبأهم أن لاخوف على أحد من الاجانب فانها سوف تكون مظاهرة سلمية تقتصر على أحوال البلد الداخلية ...

قال بلنت : « كان للمظاهرة كل ما يرجح أنها كانت سلمية ، فلكى يقلل عرابى من خطر ما قد يكون من سوء الفهم، كتب الى الخديو ينبئه بما أعتزم هو وزملاؤه من خطة، ويقولون ان الدليل على أنهم لايبغون بها عداء لشخصه أنهم لم يذهبوا اليه فى قصره بحى الاسماعيلية وأنهم قصدوا مقره الرسمى فى عابدين وتوسلوا اليه أن يلقاهم هناك ليستمع الى شكواهم »

ذعر الخديو وذعر رياض وقد دعاه اليه كما دعا ستون باشا رئيس أركان حرب الجيش وأحمد خيرى باشا رئيس ديوانه ليشاورهم فى الامر .

ورأوا أن يحاولوا اقناع عرابى بالاقلاع عن هذه المظاهرة ، فأوفد الخديو اليه ياوره طه باشا لطفى ، ورفض عرابى أن يعدل عما صمم عليه واخبره بانه لايريد أكثر من « أن يعمل مظاهرة عادلة لابد منها لضمان حرية الامة وسعادتها » .

وفى هذا الذى صنع الخديو ومن معه أبلغ دليل على ما وصلوا اليه من ضعف وقلة حيلة .

وكان الخديو فى قصر الاسماعيلية فأرسل يستدعى السير أوكلندكلفن المراقب المالى الانجليزى ، ولما حضر سأله ماذا عسى أن يفعل فى هذا الموقف ؟ قال كلفن يشير الى ذلك : « فنصحت اليه أن يقاوم (١) ؟ فقد أخبرنى رياض باشا أن فى القاهرة فرقتين مواليتين ، لذلك أثرت على الخديو أن يدعوهما الى عابدين مع ما يمكن الاعتماد عليه من الحرس الحربى، وأن يضع نفسه على رأسهما. فاذا ما وصل عرابى قبض عليه بشخصه . فأجابنى أن لدى عرابى بك المدفعية والفرسان ، وربما أطلقوا النار

---

(١) يذكر بلنت فى كتابه انكلفن نصح توفيقا ان يطلق النار على عرابى بيده ..

فأجبت انهم لن يجرؤوا على ذلك ، ومتى توفرت له الشجاعة للمقاومة وعرض نفسه شخصيا ، فانه يتسنى له أن يقضى على المتمردين ، والا فانه ضائع » (١)

هذا ما أشار به كلفن وما نراه يحمل كما يقول كرومر: « قسطا من تلك الروح التى تحيى جنسه الامبراطورى» الا على المعنى الذى نفهمه نحن ، وذلك انه يلقى الزيت والحطب على النار حتى لا تبقى ولا تذر، وبعدها تقتنص الفريسة ، مصر المسكينة ، بدعوى انقاذ البلاد من نار الفتنة . وما أظن ذلك القول محتاجا الى دليل ، فهذا الذى يدعو اليه كلفن لو وقع لن يكون الا حربا أهليـة شرها مستطير وهولها خطير ...

توجه الخديو الى عابدين قبل حضور الفرق بزمن ليس بالقصير ، ومعه كلفن ورياض وستون فاستدعى على بك فهمى رئيس الحرس ، وأشار عليه بالدخول الى القصر بفرقته والتحصن بالنوافذ العليا وقد نصح للجند بقوله : « أنتم أولادى وحرسى الخصـوصى فلا تتبعوا التعصب الذميم ، ولا تقتدوا بأعمال الآلايات الاخرى »

فأطاع الجند وأخذوا يتأهبون ...

وسـار الخديو بعد ذلك الى القلعة يحاول أن يثنى آلايها بنفسه عما اعتزم ، ولكنه لم يجد منه شيئا مما وجد من حرسه من ولاء ، فسار الى العباسية حيث كان آلاى عرابى ، ولكنه علم هناك أن عرابيا سار منذ ساعة على رأس جنـده ومعهم المدافع بطريق الحسينية الى عابدين فقفل أدراجه اليها ...

وفى عصر ذلك اليوم المشهود التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ تحرك الجيش يقصـد عابدين ، فخطت الثورة

(١) Modern Egypt-Cromer, P. 144

الوليدة أجرا خطواتها وأبعدها اثرا فى تطور حوادث ذلك العهد ...

وتلاقى عرابى فى ميدان عابدين بالآلايات الاخرى بقيادة أحمد بك عبد الغفار وعبدالعال بك حلمى وابراهيم بك فوزى وفوده أفندى حسن وغيرهم من أنصاره وكان عدد الجند المحتشدين نحو أربعة آلاف ومعهم المدفعية ، وأرسل عرابى يستدعى على بك فهمى من داخل القصر فعاتبه فرد بقوله : «ان السياسة خداع» ثم ذهب فعاد بفرقته ، وانضم الى الجيش فأصبح القصر خاليا من كل عناصر المقاومة ، وكان فيما صنع على بك فهمى كثير من الخير لانه الجهة الوحيدة التى كان يخشى منها خطر الحرب الاهلية ...

وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة الذين أخذتهم الدهشة لهذا المنظر لاريب ، واشرأبت اعناق الشعب التى طالما ألفت الذلة ، وتطلع من فوق أكتاف الجند ، ومن خلال صفوف الفرسان لينظر ماذا يكون فى هذا الموقف الرهيب ، واسم عرابى يجرى على الالسن فى حين تدور الابصار باحثة عن موضعه وهو على ظهر جواده أمام جنده يتأهب لمقدم الخديو ليسمعه كلمة مصر ، كلمة الشعب الذى ألبس جده بالامس الكرك والقفطان شارتى الحكم دون رجوع الى السلطان ، وما أعظم كلمة مصر ينطق بها فلاح من أعماق الوادى نبت ونما على ثراه ...

ووصل الخديو الى عابدين بعد أن فشلت سياسة طوافه على الآلايات ، تلك السياسة التى تدل فى ذاتها على منتهى الضعف ، والتى لايشفع له فى اتباعها سوى أنها كانت آخر سهم فى جعبته ان كان هذا شفيع . والحق ان الخديو قد لاقى فى ذلك الطواف ما تنخلع منه

افندة اقوى من فؤاده ، وحسبك أن فرقة القلعة ثارت فى وجههحينما أمسك بنفسه بتلابيب قائدها فودة حسن حتى لقد وضع العساكر الاسنة فى بنادقهم بأمر من هذا القائد وتجمهروا حول الخديو حتى صاح بالقائد «أفسح لنا الطريق يا بكباشي » .

ودخل الخديو السراى من الباب الخلفى، باب باريز. ويقول كلفن انه قفز من العربة وأشار على الخديو أن يسير من فوره الى الميدان ففعل توفيق ذلك ، وسار الى حيث اجتمع الجند ، ووراءه ستون باشا وأربعة أو خمسة من الضباط الوطنيين وواحد أو اثنان من الضباط الاوربيين ، ويذكر عرابى أنه كان معه كذلك كوكسن قنصل انجلترا بالاسكندرية والجنرال جولدسمث مراقب الدائرة السنية .

وتقدم الخديو ثابت الخطى، فأشار عليه كلفن أن يأمر عرابيا بتسليم سيفه متى دنا منه ، وأن يأمره بالانصراف ثم يطوف بعد ذلك على الفرق فيأمرها بمثل هذا الامر.

وسار عرابى على ظهر جواده حتى اذا اقترب من الخديو ، صاح به الخديو قائلا : «انزل» فوثب عرابى من فوق جواده ، ومشى نحو الخديو ومن حوله نحو خمسين ضابطا ، فأدى التحية العسكرية ، وأشار الخديو اشارة ذات معنى الى سيفه فأسرع عرابى باغماده

الموقف رهيب بالغ الرهبة ! ففى هذا الجانب حيث يقف الجند نرى مصر التى أيقظتها المحن والفواجع تتمثل فى هذا الجندى الفلاح تجرى على لسانه كلمتها فى غير التواء أو تلعثم ، وفى الجانب الآخر صاحب السلطان الموروث تغضبه هذه اليقظة وتذهله ، مع انه رآها منذ بدايتها ، ورأى أباه على جلالة قدره يوسع لها صدره ويخفض لها جناحه فيزداد بذلك رفعة ...

هنا الحرية الوليدة والديموقراطية الجديدة ، وهناك التقاليد العتيدة والاوتوقراطية العنيدة ، ومن وراء ذلك الثعالب وبنات‌آوى تتمسكن لتتمكن، وتتربص لتنقض!

والتاريخ شاهد يثبت للقومية المصرية موقفا من‌أروع مواقفها ، ومظهرا من أجل مظاهرها ، ويضيف بذلك الى صفحات الحرية فى سجل الامم صفحة جديدة لن تبلى الايام جدتها ، أو تبخس أغراض المبطلين قيمتها.

همس كلفن فى أذن الخديو : « هذه هى ساعتك » فأجاب الخديو :« نحن بين أربع نيران » فقال كلفن : «كن شجاعا ، فتهامس الخديو وأحد الضباط الوطنيين ثم التفت الى كلفن قائلا : « ماذا عسى أن أفعل ؟ نحن بين أربع نيران ... انهم يقتلوننا » (١) .

ويحسن أن نورد ما حدث بعد ذلك على لسان‌عرابى وهو لايخرج عن روايات هذا الحادث على كثرتها قال : « ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى مكانكم . فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله : «ما أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ » فأجبته بقولى : « جئنا ياмولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة كلها طلبات عادلة .. فقال : « وما هى هذه الطلبات ؟ » . فقلت : «هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل‌مجلس نواب على‌النسق الاوربى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق‌على القوانين‌العسكرية التى أمرتم بوضعها » فقال : «كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن‌آبائى وأجدادى،

---

(1) Modern Egypt-Cromer.

وما أنتم الا عبيد احساناتنا » . فقلت : « لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » (١).

تلفت الخديو بعد ذلك الى كلفن قائلا : « أسمعت ما يقول ؟ » فأشار عليه هذا بالعودة الى القصر اذ لا يجمل أن يزيد الامر بينه وبين عرابى عن هذا الحد ، فانصرف الخديو وبقى الجيش فى مكانه لا يتزحزح .

واقبل كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية ، وكان ينوب عن القنصل العام السير ادوارد مالت لغيابه ، أقبل هذا ومعه ترجمان يناقش عرابيا فى غلظة مقصودة ، وكان هذا الانجليزى كرجال الاستعمار جميعا من بنى جلدته ممن يحسنون دس أنوفهم فى كل شىء ، ومما وجهه الى عرابى قوله : أن لاحق له فى أن يطالب بالمجلس النيابى واسقاط الوزارة فذلك من شأن الامة ، أما عن زيادة الجيش فمالية البلاد لا تساعد على ذلك ...

وأجاب عرابى بقوله : ان الامة أنابت الجيش عنها ، ثم وجه نظر محدثه الى الجموع المتراصة خلف الجند قائلا : هذه هى الامة وما الجيش الا جزء منها ، ويحسن أن نورد عبارته بنصها . قال : « اعلم ياحضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لانهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم وأولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة ، وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الاهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل

---

(١) فى رواية عرابى لمستر بلنت ان الخديو قال ايضا « انا خديو البلد واعمل زى ما انا عاوز » وقد أورد بلنت هذه العبارة كما هى بحروف افرنجية .

عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ » .
قال القنصل : « علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها » ....
قال عرابى : «كيف يكون ذلك؟ ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا » ...
قال القنصل : « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟»
قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى » .
وسأل كوكسن عرابيا بعد هذا سؤالا يتجلى فيه خبثه وقد ظن أنه أحكم الرمية فقال : « وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟ » .
فانظر الى رد هذا الجندى فى هذا الموقف الذى تخف فى مثله أحلام الرجال ، والذى تزدهى القوة فيه القلوب فتسلب ذوى العقول اتزان عقولهم ، انظر الى عرابى فى موقف الثورة يقول له : « أقول كلمة أخرى » فقال القنصل : « وما هى ؟ » قال عرابى « لا أقولها الا عند اليأس والقنوط ! ؟ » .
وأخذ كوكسن يروح ويغدو بين عرابى والخديو ، حتى جاءه آخر الامر ينبئه بقبول الخديو اسقاط الوزارة القائمة وأن سموه سينظر فى بقية المطالب فلا بد فى بعضها من مشاورة السلطان . وعرض الخديو على الجيش اسم حيدر باشا لرئاسة الوزارة القادمة ولكنهم رفضوه ، وجرى على الالسن اسم شريف بطل الدستور ونصيره ، فعاد كوكسن بعد حين يعلن الى عرابى قبول الخديو تعيين شريف فقوبل ذلك بالهتاف بحياة الخديو

والتمس عرابى ونفر من زملائه الاذن على الخديو ، فلما مثلوا بين يديه أخذ عرابى يعبر له عن ولائه وولاء الجيش. وذكر له الخديو : « أنه وافق على تلك الطلبات بنية صافية » ، تم انصرف الجيش بعد ذلك فى هدوء كل فرقة الى مقرها ...

***

هذا هو يوم عابدين الذى عده خصوم عرابى من أكبر سيئاته والذى نعده فى غير مغالاة أكبر حسناته ، وكيف يستطيع هؤلاء مهما بلغ من اضطغانهم على عرابى ورغبتهم فى الاساءة اليه أن ينكروا ما ينطوى عليه هذا الموقف من معان ؟ ! الا انهم ليتغافلون ليطعنوا الرجل فى أجمل مواقفه وأعظم خطواته ، وهم انما ينالون بذلك من أنفسهم دون أن ينالوا منه شيئا ...

طالب عرابى بالدستور فكان فى طلبه هذا زعيم ثورة تقوم على أجل المبادىء التى شاعت فى أوربا فى القرن التاسع عشر والتى عدها المؤرخون والناس من أعظم خطوات البشرية صوب الرقى والكمال ، فكيف يكون مع ذلك داعية فوضى واضطراب ؟ ولقد كثرت فى أوربا المواقف التى يشبهها فى معناها ومرماها هذا الموقف فسجلتها الشعوب فى ثبت مفاخرها وعدتها من أيامها المشهودة التى تمجد كل عام ذكراها .

وتم لعرابى وانصاره ما أرادوا ، فى غير عنف يشوه حركتهم أو ينقص من جلالها كما يحدث فى أشباهها من الحركات ...

لقد كان القصر أمام الجيش خلوا من أية قوة ، فروعيت حرمته أحسن مراعاة وروعى كذلك مقام الخديو ، فلم يخرج أمامه هذا الجندى الثائر عن طوره ، بل لقد تمالك نفسه فترجل وأدى التحية العسكرية وأغمد

سيفه ، ثم ذهب بعد ذلك فأعرب له عن ولائه وشكره باسم الامة اذ اجابها الى ما طلبت على لسانه ...

ألا انا لنعجب بذلك ونفخر به اذ نكتبه ، وما نجد من الادلة التى نسوقها على رجولة عرابى وشهامته وبعده عما يرميه به خصومه أقوى أو أجمل من هـذا الذى نشير اليه ...

***

فاذا أضفت الى ذلك ماكان يدبر فى خبث من الدسائس فى ذلك الموقف الرهيب ، وذكرت كيف أحبطها عرابى بمزيج من الصبر والبسالة يدعو الى الاعجاب حقـا ، ازددت لاريب اكبارا لموقفه فى ذلك اليوم ، ولقد كانت أية كلمة نابية أو أية اشارة يساء فهمها كفيلة بأن تسيل الدماء فى تلك الساحة ، قال عرابى : « لو حاول الخديو قتلى لاطلقت النار عليه » (١) .

وينبغى ألا ننسى ما اتخذه عرابى من الحيطة قبـل ذهابه ، وذلك باتصاله بالقناصل وبالخديو ، فقد كان بذلك حكيما موفقا ، لايدع مسلكه محلا لغميزة أو يهيىء سببا للملامة ...

نجحت حركة عرابى أتم نجاح وأجمله وتهيأت البلاد لان تستقبل عهدا يسود فيه الاصلاح والنظام فلقد كان قبول الخديو مطالب عرابى التى أشرنا اليها ينطوى على معنى عظيم ، الا وهو موافقة حاكم البلاد على التخلص من الحكم الاستـبدادى الرجعى ، والعودة الى حكم الحرية الدستورية الذى سبق أن وافق عليه يوم تبوأ عرشه ثم عاد فتنكر له حين اطمأن فى مصر الى كرسيه.

وراحت مصر تستقبل فى تاريخها حقبـة من أسعد الحقب فلقد نالت أمانيها دون أن تراق نقطـة دم ، وخرجت سالمة آمنة من ثورة جديرة بأن توضع الى جانب

---

(١) تاريخ عرابى الذى كتبه بقلمه لمستر بلنت سنة ١٩٠٣ .

اهم الثورات التى قصد بها الحرية فى تاريخ الانسانية ، ثورة جديرة بأن توضع الى جانب ثورة سنة ١٦٨٨ فى انجلترا والى جانب الثورة الامريكية والثورة الفرنسية الـكبرى. ...

***

ولولا ما كتبه عنها المغرضون المبطلون من الاجانب ، وما ضربه الاحتـــلال على الآذان والقلوب فحال بين المصريين وبين تاريخ قوميتهم الحقيقى لكان لتاريخ هذه الثورة شأن غير هذا الشان فى هذا البلد المسكين ...

وصف بلنت تلك الايام السعيدة بقوله (١) : « ان ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث لهى من الوجهة السياسية أسعد الايام التىشهدتها مصر، ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ماجرى فيها بعينى راسى ، فلم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها . انى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث واخشى الا أرى مثلها فى المســـتقبل . ان كل الاحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لا فرق فى ذلك كما يظهر بين الخديو والامة ، وسرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفـــلة طلوع الفجر اثر ليلة مخيفة حالـكة الظلام » ...

ولم يقتصر أمر هذه الفرحة الوطنية على القاهرة ، وانما حملتها الصحف الى المستنيرين فى الاقاليم تبشر الناس بعهد جديد يشرق على البلاد فجره ، تجد ذلك فى

(١) العبارة من ترجمةالاستاذين العبادى وبدوان .

قول بلنت : « وقد أذاعت الصحف هذه الانباء فى سرعة وقد تحررت من كثير من قيودها تحت رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة تحررا لم تصل الى مثاله من قبل، واستطاع الناس آخر الامر أن يلتقوا ويتحادثوا غير خائفين فى كل جهة من جهات الاقاليم لايخشون من الجواسيس ولا من تدخل الشرطة ، وسرت هذه الروح السعيدة الى كل الطبقات من المسلمين والمسيحيين واليهود وشملت رجالا من كل دين ومن كل جنس ومن هؤلاء عدد غير قليل من الاوربيين الذين اشتدت صلتهم بالحياة المصرية ، حتى القناصل أنفسهم لم يسعهم الا أن يعترفوا أن العهد الجديد كان خيرا من القديم وأن رياضا ارتكب أخطاء وان عرابيا ان لم يكن مصيبا فى كل شيء فهو على الاقل لم يكن مخطئا فى كل شيء » .

رجل أمة

اغتـدى اسم عرابى على كل لسان فى مصر ، فعلى يديه تم الانقلاب المنشود ، واليه نسب كل فضـل ، واصبح الناس فى القاهرة وفى القرى يتحدثون فى اعجاب عظيم عن الفلاح ابن الفلاح الذى أسمع الخديو كلمة مصر فى اباء وعزة وأجبره على أن يجيب الامة الى ماطلبت..

ومن السهل على المرء أن يتصور وقع هذه الانباء فى الناس فى عصر كذلك العصر فقد تناقل الناس كلمـات عرابى للخديو وهم لايكادون يصدقونها ، ومن السهل كذلك أن يدرك المرء كيف اغتدى بحق عرابى فى مصر رجل أمة ، فقد اجتمع فيه رجالها ، واضحت تتفاخر به لانه من صميم فلاحيها ، ولانها باتت تحتمى به وتحس احساسا واضحا أن الرجل الذى كانت تتطلع الى ظهوره كما تتطلع كل أمة فى مثل موقفها ، قد تهيأ لها فى شخصه آخر الامر ...

ولقد نبه اسم عرابى وحقت له الزعامة عقب حادث قصر النيل ، فلما كان يوم عابدين ، وثق النـاس من بطولته وركنوا الى زعامته ، واسـتمدوا حميتهم من حميته وباتوا يربطون مصيرهم بما يفعل أو يقول ...

عارض شريف أول الامر فى قبـول الوزارة ، وكانت حجته فى ذلك أنه بقبوله الحكم من غير قيد ولا شرط

انما يضع نفسه تحت سلطة الحزب العسكرى ، الامر الذى لا يطيق أن يحمل نفسه على قبوله ، ولذلك دارت بينه وبين عرابى وزملائه مفاوضات استمرت بضعة أيام تحرجت الامور فيها حتى أوشك شريف أن يتنحى عن قبول الوزارة ...

ولكن بوارق الامل ما لبثت أن لاحت ، وكان جميلا أن تلوح من جانب ذلك الرجل الذى لايزال نفر من المصريين حتى وقتنا هذا يرمونه بالفوضى ويردون أسباب ما لحق مصر من ويلات اليه ، فيقيمون الدليل بذلك على انفسهم أنهم اما ذوو أغراض أو أولو جهل بحقائق الامور معيب ...

كان جميلا أن يبرق الامل من جانب عرابى فيخفض جناحه لشريف ويذعن لما اشترط من شروط فى صدق اخلاص وعن طيب خاطر ...

دعا عرابى رجال الحزب الوطنى وأعضاء مجلس شورى النواب المعطل ، وعرض عليهم الامر ، وكان على رأسهم سلطان باشا ، وذهب وفد من هؤلاء الى شريف يرجون منه قبول الحكم ، فعرفوا إنه يشترط الا يتدخل الجند فى شىء ، وأن يرحل عرابى وعبد العال بفرقتيهما الى مكانين يختاران لهما ، وأن يترك حرا فى اختيار وزرائه لان عرابيا كان يطلب اليه اعادة البارودى وادخال مصطفى فهمى باشا فى الوزارة ، وكان شريف يرفض ذلك لانهما لم يثبتا على عهدهما فدخلا وزارة رياض عقب اقالة وزارته ...

وتعهد سلطان ووفده أنهم يضمنون لشريف خضوع عرابى والحزب العسكرى وكان بين الوفد نفر من ذوى المنزلة فى البلاد كأباظة والشريعى والمنشاوى والمويلحى والشمسى والوكيل ، وهم أهل نفوذ وجاه يعرف شريف

قيمة انضمامهم اليه ...

نسمع عرابى ما عرضه سلطان ومن معه فذهب بنفسه الى شريف يستحثه على سرعة تأليف الوزارة ويظهر له ما يخشاه من الابطاء ، قال عرابى : «وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى وقلت انه لايمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض فقلت له : ان لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك ففيها بعون الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز ... فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يحر جوابا ، ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوى عاشور وكيل زراعته وقال ان الباشا قبل ما عرضته عليه » .

وألف شريف وزارته الثالثة ، وكانت هذه أولى ثمار الثورة ، وقد قبل الوزيرين اللذين أشار بهما عرابى ، كما قبل رجاء الحزب العسكرى وهو النظر فى القوانين الخاصة بالجيش وذلك فى مقابل أن يخضعوا لحكمه ويبتعدوا عن كل تدخل فى شئونه .

ودعا وزير الحربية عرابيا ، فأفهمه رغبة الحكومة فى أن يسافر بفرقته الى رأس الوادى ، وأن يسافر عبد العال الى دمياط ، فقبل عرابى ذلك ، ولكنه اشترط أن يصدر أمر الخديو بالانتخاب لمجلس شورى النواب قبل السفر ، ولاريب أن هذا الشرط من جانب عرابى خروج منه على ما أخذه على نفسه من عدم التدخل فى شئون الحكومة ، وهو أمر لايسعنا الا أن نحسبه عليه ، بل نلومه عليه مهما كان ما ينطوى عليه طلبه من خير للبلاد ، ومهما كان فى هذا الطلب من معانى حرصه على الدستور والحياة النيابية ، وبخاصة لان على رأس الحكومة رجلا مثل شريف ...

أما عن امتثـــاله لامر الحكومة بقبول السفر ، فهو فى ذاته على الرغم مما أحيط به من اشتراط يعد من محامد عرابى ، اذ يدل على مرونة وكياسة ورغبة فى التفـــاهم شتان بينها وبين ما يعزوه اليه خصومه وجاهلو أمره من حماقة ونزق وعنف فى كل ما يطوف بهم من سيرته ، كما انه يقدم بطاعته دليلا على نبل غرضه وحسن طويته فيما سعى اليه ...

وخرج عرابى فى اليوم الثامن من شهر اكتوبر بقصـــد السفر بفرقته الى رأس الوادى ، وذلك بعد مرور أربعة أيام على موافقة الخديو على دعوة مجلس شورى النواب وكان قد سبقه عبد العال فى السفر الى دمياط ...

سار عرابى بطريق الحسينية حتى بلغ مسجد الحسين رضوان الله عليه « فوقف الآلاى مقابلا للمسجد تعظيما واجلالا لسبط الرسول عليه الصلاة والسلام » ، ودخل عرابى المقـــام الحسينى مع الضبـــاط ، « وأمر بيرق الآلاى على الضريح الشريف » ...

وسار بعد ذلك الى المحطة فما كاد يتوسط المدينة حتى ألفى الشوارع مكتظة بالناس ، وانهم ليهتفون باسمه فى حماسة ويحيونه تحية الزعيم المنقذ ، ويلقون فى طريقه الزهر والرياحين .

وفى المحطة وجد عرابى جميع ضباط الجيش المصرى وجمهورا عظيما من الاعيان وذوى المكانة وعددا هائلا من عامة الناس فاحتفوا بمقدمه ، وكانت توزع الحلوى وتنثر الزهور فى فناء المحطة ، وكان يتسابق الخطباء والشعراء فى تمجيد ذلك الذى جرى اسمه على كل لسان فى مصر ، ووقف عرابى فى هذا الجمع خطيبا فقال : « ســـادتى واخوانى : بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنا غرس الاستبداد ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها ،

وما قصدنا بشعبنا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا بتنا فى اذلال واستعباد ولايتمتع فى بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة ، وقد ساعدتنا العناية الالهيـــة ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية ، وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الامة فى شئونها وتعرف حقوقها كباقى الامم المتمدنة فى العالم ، ومن قرأ التاريخ يعلم أن الدول الاوربية ما نالت الحرية الا بالثورة واراقة الدماء وهتك الاعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلبا ، أو نضيع حقا أو نخدش شرفا ، وما وصلنــا الى هـذه الدرجة القصوى الا بالاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد».

وهتف عرابى بحياة الخديو واهب الحرية وحياة الجيش، وحياة الحرية ، ثم امتدح الوزارة ورئيسهــا ووصف البارودى بقوله : « رئيسنا الوطنى الحر القائم بخدمة الوطن وأهله » . وحذر اخوانه فى الجهادية من الوشــاة والحساد ، وحثهم على الاتحاد قائلا : « البلاد محتاجة الينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه » .

ولنا الى هذه الفقرة من خطبته عودة. كما أن لنا عودة الى فقرة غيرها نكتفى الآن بالاشارة اليها وهى قوله : « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر الراحة » .

واختتم خطابه بعبارات ذات مغزى مثل قوله : « ان الطمانينة عادت كما كانت وعدنا الى ما نشأنا عليه من

طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام ، فلا تأخذكم الأراجيف واشاعات أعداء الوطن وثقوا بسعى أميرنا ورجاله » ومثل قوله : « ان قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق » وقوله : « وبيننا من الاعداء من يسعى فى تفريق كلمتنا واضرام نار الفتنة بيننا » .

***

واستقبل عرابى بحفاوة كبيرة فى المحطات التى وقف بها القطار وكان يخطب الناس مرافقه فى الرحلة السيد عبد الله نديم كما حدث فى الزقازيق حيث كان على رأس مستقبليه فيها أمين بك الشمسي ووقف عرابى يخطب الناس هناك فكان مما قاله : « أنا أخوكم فى الوطنية واسمى أحمد عرابى ، ولدت فى بلدة هرية رزنة من بلاد الشرقية هذه فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وها أنذا واقف بين الاهل والخلان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ، وبعناية الله سبحانه منحنا مولانا الخديو هذه الامنية فنحن لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان ، وانما سرت بالجيش ووقفت بين يدى الخديو وقفة الطالب الراجى كرم مولاه ، فلا تعولوا على الاراجيف واشاعات أهل الفساد ، واعلموا أن البلاد محتاجة الى الخدمة بالقوة والفكر والعمل ، فأما القوة فنحن رجالها ، ولاننثنى عن عزمنا وفى الجسم نفس ، وأما الفكر فهو منوط بأميرنا العظيم ووزرائه الكرام ، وأما العمل فهو منوط بكم فان القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة ، وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الامور منوطة بأهلها ، والحقوق محفوظة لذويها » .

وقال عرابى فى خطبة أخرى بالزقازيق ألقاها فى وليمة أعدها له أمين بك الشمسي رئيس تجار الزقازيق : « سادتى واخوانى الاعزاء ، أحلى أسماعكم باسم مولانا

وأميرنا الخديو الســـاعى فى عمـــار الوطن وقطع عروق الاستبداد منه ، وأذكركم بمدة حجبت عنا فيهـا أنوار الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم ولايرحمنا احد ، وأصبحت أموالنا وأرزاقنا معرضة للنهب والسلب تتخطفها أيدى المستبدين قد تمكنت القسوة من قلوبهم ، وألفوا الظلم وكرهوا العدل والانصاف حتى كانت عاقبة امرهم أن أصبح الناس قيد الفقر وذل الفاقة ، والقطر معرضا للأخطار مهيأ لامتداد أيدى الطامعين اليه فعز على اخوانكم واولادكم الجهادية حماة البلاد ، وتحركت فينا الحمية العربية الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء ، وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام مولانا الخديو ، حفظه الله ، وقد اشتدت شوكة جيش البغى وقويت معارضته .. وأنقذناكم من يد من لم يعرف لكم حرمة ولا يعترف بحق ، ولايرى أنكم مثله من نوع الانسان ، وشكرنا مولانا وأميرنا الخديو على حسن عنايته بنا وبالامة وعلى ما تفضل به من مجلس الشورى ، وأنتم الآن مهيئون للانتخاب فلا تميلكم الاهواء والاغراض لانتخاب ذوى الغايات ، بل عولوا على الاذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والانصاف فى بلادنا » .

***

وفى الزقازيق دعى عرابى لوضـــع أســـاس المدرســـة الاميرية فذهب ووضع الحجر الاساسى باسم الخديو قال « وتلوت على الحاضرين خطبـــة ذكرت لهم فيها فوائد التعليم ومنافعه وفضل العالم على الجاهل والبصير على الاعمى ، وحرضتهم على الاهتمـــام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم فى المستقبل » .

وأولمت لعرابى عدة ولائم فى دور بعض وجهاء مديرية

الشرقية ، سافر بعدها الى رأس الوادى • وليس يخفى ما ينطوى عليه من معان تكريم هذا الفلاح الذى نشأ فى بيت متواضع ، على أيدى هؤلاء السادة والكبراء ففى ذلك أول مظاهر الديموقراطية الوليدة فى هذا الوادى الذى خضع قبل ذلك زمنا طويلا لمظاهر السيادة والارستوقراطية .

توفيق والثورة

لندع عرابيا فى رأس الوادى ولننظر ماذا كان من امر شريف ووزارة شريف . وهنا نبادر الى القول بأن هذه المرحلة من تاريخ مصر الحديث كانت أهم المراحل جميعا منذ الحملة الفرنسية ، وأدقها وأبعدها أثرا فيما هى مقبلة عليه بعد من مراحل ...

ظن الناس أن قد انجلت الفاشية على نحو ما صور بلنت ولكنهم لم يكونوا يعلمون، أو لم يكن يعلم الا القليلون منهم أن وراء هذا الصفو كدرا ، وأن سماء السياسة كانت يومئذ كسماء الطبيعة تصفو هنيهة لتتلبد بعدها بالسحب المركومة ، ولتتلاقى فى جوانبها أبابيل سود من الغربان الناعبة فتكون حلكتها بعد الصفو أقبح ما تكون منظرا ، واشد ما تكون ايلاما للنفوس وازعاجا للخواطر

وكيف كان يرجى دوام الصفاء وقد كانت الشباك منصوبة ، وقد أخذ الصائدون يدفعون الفريسة اليها دفعا بعد أن أعياهم الامر فلم يستطيعوا أن يأخذوها بالحيلة ، أو أن يعصبوا عينيها كما كانوا من قبل يفعلون

كيف كان يرجى الصفاء ، وقد كان الخديو يضمر عكس ما يظهر كأن لم يكفه ما أصاب البلاد من جراء سياسته وتنكره للحركة الوطنية وايجاده بما فعل الثغرة التى كانت تنفذ منها الثعالب وبنات آوى الى صميم حركتها وقلب نهضتها ...

وما أشبه توفيقا فى ذلك الموقف بل فى أكثر مواقفه كما أسلفنا بملك فرنسا لويس السادس عشر ، ذلك الملك الذى كان يدفع الثورة فى بلاده دفعا ، والذى يعزى الى سياسته الملتوية المذبذبة أن تنكبت تلك الثــورة منهاجها السلمى العاقل واندفعت فى سبيل جرت فيها الدماء وتجمعت على جانبيها الاشلاء

ظهر ذلك الملك للنواب أول الامر فى جلد الاسد ، ثم ما لبث أن استخزى بعد وثبة ميرابو ، ولكن الشائعات طافت بأهل باريس أن الملك أخذ يستعد ويجمع حوله الجند ، فما لبث أن جرت الدماء فى باريس ودك الناس الباستيل رمز العبودية والجبروت ، ثم رأى أهل باريس بين الدهشة من الملك والزرايه عليه والتهزؤ به أنه يركب فى جماعة من النواب كان فى مقــدمتهم ميرابو فيزور باريس ويطوف بأنحائها ، ويمر بخرائب الباستيل مظهرا عطفه على الثورة والثوار ، ولكنه يعود بعد ذلك فيأتى من معانى التحدى والنزق ما يجعل الشــعب يذهب فيقتحم عليه غرف قصره فى فرساى ويعود به الى باريس ليكون رهينة فيها ، ويتم الدستور فيرفع اليه فيوافق عليه . ولكن ريثما يعد العدة للهرب ، ثم يضبط المسكين وقد أوشك أن يجتاز الحدود فيقضى عليه هذا العمل ، وتمضى الثورة فى طريقها مجنونة لا تلوى على شىء حتى تأكل آخر الامر نفسها .

ولقد كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من ورائه الانجليز فلما لجأ اليهم توفيق كما هرب لويس لم يقض هذا العمل عليه وانما قضى على مصر ...

تخلص توفيق من رياض وقد كان يسعى الى التخلص

منه . فكيف كان يريد أن يسلك مع شريف مسلكه مع رياض ولقــــد كان الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الديمقراطية والاستبداد ؟

عادت الظروف من جديد تبين للخديو بأجلى وضوح ان الطريق الوحيـــد هو الانضمام الى الحركه الوطنيه ومشايعتها فى صدق واخلاص ، ففى ذلك منجاته من تطرف هذه الحركة وجموحها ، وفى ذلك منجاة البلاد من تدخل الاجانب باسم المحافظة على عرش الخديو ، ثم من احتلال البلاد باسم القضاء على الفتن والقلاقل . .

ولـكن الخديو تنكب هذا الطريق فدفع تيار الثورة بمسلكه هذا ليعج عجاجه ، وليس فى نفسه الآن الا أن يتخلص من هذه الحركة الوطنية التى وضعت السلطة موضعها الطبيعى فى يد الامة ...

ومن أعجب الامور ، بل من أقبح المظالم أنه لما انتهت الثورة الى ما انتهت اليه فيما بعـد من عنف وجموح حمل زعماؤها كل أوزارها وخرج عرابى المسكين بالنصيب الاوفى من هذه الاوزار ، وهى لو عرضت على حقيقتها وردت فيها الامور الى أصولها .لرد ما يعزى الى عرابى أو أكثره الى الخديو دون أن يكون فى ذلك أقل تجن على هذا ولا أدنى تحيز لذاك ...

لقد ألقى الخديو بنفسه فى أحضـان الانجليز منـذ استعان بكلفن يوم عابدين ومنذ أن جعل كوكسن رسوله الى عرابى وهو على رأس جنده أمام القصر ، فلقد ظهر هذان بمظهر من يعطف على توفيق ومن يستنكر على عرابى ما فعل ، وقر فى نفس توفيق أنهما ولياه وأن بنى مصر أعداؤه ...

منذ ذلك الحين صار الانجليز فى ظاهر الامر أسنـاد الخديو وفى حقيقته ثعالب تحتال على اصطياد الفريسة

وسيظل هذا شأن توفيق حتى يدخل عاصمة مصر بعد هزيمة الجيش المصرى ، فى حراسة الانجليز وحمايتهم، فيصطف عساكرهم من المحطة الى قصره وتحيط بعربته كتيبة منهم وتستقبله على أبواب القصر كتيبة بالنشيد الملكي البريطانى .. بل اننا نستطيع أن نقول ان ركون توفيق الى الانجليز برجع الى يوم خلع أبيه ، فقد رأى اباه يخلع بنفوذ هؤلاء الانجليز لدى السلطان ، فآثر ان يركن الى الاقوياء علهم يرضون عنه ! ونكرر القول ان منجاته ومنجاة مصر كانت فى ركونه الى الحركة الوطنية ولكن كيف كان يركن الى من ينتزعون منه السلطة ليردوها الى الامة صاحبتها الحقيقية ولايركن الى من يتظاهرون لديه أنهم يظاهرونه ليزيدوا سلطانه ويقضوا على مناوئيه ؟

سار شريف على نهج حكيم فأرضى الاجانب أو عمل على ارضائهم بقبوله المراقبة الثنائية ، وأرضى الوطنيين بتحقيق الآمال الوطنية ، ولكنه ما لبث أن رأى هؤلاء الاجانب لا يدعون وسيلة لضم الخديو اليهم الا اتبعوها، حتى لقد ترك شريف بعد أمد قصير يعمل وحده ، وكأنما وضع الخديو نفسه بنفسه فى عزلة ...

ولو أنها كانت عزلة عن الوطنيين دون اتصال الاجانب وبخاصة الانجليز لهان أمرها ، ولكن توفيقا سوف يخلق أول الامر بعزلته ريبة ومخاوف فى قلوب المصريين ، ثم تنقلب الحال الى كراهة وتؤدى الكراهة الى المقاومة من جديد ، ولقد كان أمام توفيق فى الواقع هيئتان : الوطنيون بزعامة شريف ، والعسكريون بزعامة عرابى ، وكان يستطيع بشىء من حسن السياسة الا يدع مجالا لتدخل العسكريين من جديد ، ولقد رأى بنفسه ما كان من أمر هذا التدخل بالامس القريب ...

افتتح مجلس شورى النواب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ ، وقد جاء فى خطاب توفيق فى حفلة الافتتاح ما يأتى : « أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لاجل أن ينوبوا عن الاهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع انى من وقتما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة ، فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالى على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا متشوق لحصوله ، وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم » .

***

هذا هو كلام الخديو فهل كانت هذه نياته ؟ تلك هى المسألة ... ونرى أن خير ما نجيب به هو أن ننظر فى الحوادث التى تلت ذلك ومنها يستبين الى أى حد كان الخديو ينوى أن يعمل كما يقول .

دأب الذين كانوا يعملون من وراء ستار ، أو دأبت الثعالب وبنات آوى على تخويف الخديو من ناحيتين : ناحية الحركة الوطنية ، وناحية تركيا ، موحين اليه فى الاولى أن حكم الدستور معناه ضياع سلطة الخديو ، وفى الثانية أن تركيا لا ترتاح الى توفيق وأنها تبيت له ما لا يحب ، وغرض هؤلاء الذين يعملون فى الظلام واضح ، وهو أن يركن الخديو اليهم ليخلص من هذا كله .

أما عن حكم الدستور فكان ذلك يقتضى حقا أن يتنازل الخديو عن جانب كبير من السلطان المطلق الى نواب الامة ، وتلك هى المشكلة ، وما كانت مشكلة مصر وحدها ،

بل لقد كان لها مثيلات فى جميع ما شـــهد العالم من حركات دستورية ، فما نجم الخلاف بين الملكية والشعب فى فرنسا ابان ثورتها الكبرى الا من هذه الناحية ، وما استمرت القلاقل قرونا بين الملكية والشعب فى انجلترا الا بسبب ذلك ، وما استقرت الامور فى الدولتين الا حينما أثبت الشعبان قوتهما .

واذن فكان لابد أن يتفاقم الخلاف بين الشعب والخديو فى مصر حتى يثبت الشعب قوته أو يتنازل الخديو عن مبدأ الحكم المطلق ، ومن هذا الخلاف أتيحت الفرصة للثعالب ...

***

وأما عن تركيا فقد كان توفيق يستريب ويخاف من سياستها ... فكر السلطان أولا أن يرسل جيش احتلال الى مصر ليعيد فيها نفوذ الخلافة سيرته الاولى قبل عهد محمد على ، ولكن انجلترا وفرنسا ما زالتـــا به حتى استطاعتا بالسياسة حينا وبالتهديد بعد ذلك حينا حتى أقلع عن هذه الفكرة ، ولقد أفادتا من ذلك فائدتين : بقاء الوضع فى مصر على ما هو عليه بحيث يسمح لهما بالتدخل فى شئونها ، والتـــأثير على الخديو أنهما هما الملاذ والسند ...

ولقد كان الامير عبد الحليم بن محمدعلى فى الآستانة يدس الدسائس ويسعى سعيا متصلا لخلع توفيق وتولى حكم مصر بدلا منه ، وكانت سيرة ذلك النشاط تزعج توفيقا وتقلق مضجعه ...

وأخيرا أوفد السلطان وفدا الى مصر برئاســـة على نظامى باشا وقد فعل السـلطان ذلك دون علم الدول الاوربية ولم تعلم بذلك الحكومة المصرية الا عند قيام الوفد ...

وكان عرابى قد كتب الى السلطان قبل يوم عابدين ، ولعل السلطان أوجس خيفة من الحركة القائمة فى مصر وظن أنها حركة تنطوى فيما تنطوى عليه على فكرة انفصالية ترمى الى خلع سيادة الاتراك ...

وكان عبد الحميد يومئذ يقاوم الحرية فى بلاده ويبطش بالداعين اليها ، ومكث الوفد أياما بمصر ، ثم رحل فقرر عند السلطان نيابة عن الخديو أن البلاد هادئة ليس فيها ما يخيف ، وجاء على لسان رئيس الوفد أن رجال العسكرية والزعماء جميعا يؤكدون ولاءهم للسلطان ، وانه لذلك يثنى عليهم ولا يخالجه شك فى حركتهم ...

***

وقامت انجلترا وفرنسا بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية اذ أحضرت كل منهما بارجة الى الميناء ، فلما سألتهما الحكومة المصرية عن سبب ذلك أجابتا ان سفينتيهما تغادران الاسكندرية فى اليوم الذى يسافر فيه الوفد العثمانى عائدا الى الاستانة ، وقد تم ذلك فعلا حينما غادر الوفد البلاد ، ومعنى ذلك ان الدولتين لن تسمحا للسلطان حتى بمجرد النظر فى أحوال مصر ، ومعنى ذلك أيضا أن يلقيا فى روع الخديو أن يلجأ اليهما اذا لزم الحال حتى ضد السلطان نفسه ...

ورب قائل يقول : ان فى مسلك تركيا ودسائس عبد الحليم ما يدع للخديو العذر فى الاعتماد على الدولتين ، ولكن هذا زعم باطل ، فرجال مصر جميعا وان لم يكونوا فى تلك الايام يفكرون فى الخروج على السلطان ، الا أنهم كانوا لايسمحون له أن يتعدى الفرمانات المقررة ، وهب أن للخديو العذر فى أن يخاف جانب السلطان فهل كانت الدولتان تحميانه الا لغرض ؟ وهل كان هذا الغرض الا رغبة كل منهما أن تحل محل السلطان ؟

ان الحوادث جميعا كانت تشير للخديو الى الطريق الوحيد الذى كان عليه أن يسلكه ، ولكنه اختار الانحياز الى انجلترا منذ حادث عابدين كما أسلفنا القول مع تظاهره بأنه يعطف على أمانى البلاد ، وفى ذلك الخطر كل الخطر وفيه مسئولية الخديو عن اتجاه الحوادث بعد ذلك الى تلك السبيل التى أفضت بالبلاد الى كارثة الاحتلال ، ومع هذا فان بعض المصريين كانوا الى عهد قريب ولعل منهم من لايزال حتى اليوم يقرن الاحتلال باسم عرابى كلما ذكر هذا الاسم ، فاذا قلت لهم : ان عرابيا هو الذى جرد سيفه وقاد جيشا من المصريين ليصد الاحتلال ، وبذل من الجهود وحمل من الاعباء ما لا يبذل أو يحمل مثله الا أولو العزم من الرجال ، وأنه لولا ما أحاط به من خيانة لم يحط مثلها بقائد قبله لكان النصر حليفه لا محالة ، حملوا كلامك هذا على المبالغة وصعب عليهم أن يصدقوه وقد أضلهم كتاب الاحتلال وصنائع الاحتلال ...

بين عرابي وبلنت

نعود الى عرابى ، فنقول ان الحكومة استدعته من مقره فى رأس الوادى وأسندت اليه منصب وكيل وزارة الحربية وصــدر الامر العالى بذلك فى اليوم الرابع من شهر يناير سنة ١٨٨٢ وهو يعزو ذلك الى ما بلغ الحكومة على السنة جواسيسها أنه يجول فى بلاد مديرية الشرقية فيتصل بالوجهاء وشـيوخ العرب محرضا داعيا الى مبادئه وأغراضه ...

ويذكر عرابى أنه فوتح فى أن ينعم عليه يومئذ برتبة اللواء فيصبح أحمد عرابى باشا ، ولكنه رفضها مخافة أن يتهم أنه يعمل لشخصه ، ولئن صح هــذا وهو ما لا نستبعده ، لكان لنا فيه حسنة نضيفها الى كبريات حسنات هذا الرجل ، فان التهافت على الرتب والالقاب لم يزل حتى اليوم فى بلادنا المسكينة داء عياء يتغلغل فى نفوس سادتنا وكبرائنا ...

ونقول لئن صح ذلك لان الخبر من جانب عرابى فهو فى مرتبة الدعوى ... ونقول انا لا نستبعده مستندين فى ذلك الى شاهد قوى فهذا الرجل كان بطل الانقلاب ، وعلى يده وصلت الى ما وصلت اليه ، ولكنه لم يصب مغنما ما ، ولو كانت فى نفسه اطماع وقتئذ لرأيناه يصل الى مرتبة الوزير ، فقــد كان فى موقف تحكم فيه فى

الخديو وفرض عليه الشخص الذى يؤلف الوزارة وهو موقف يوحى الى النفس بالغرور، فلو خالج نفس عرابى يومئذ طمع فى جاه أو منصب لما وقف دونه الى ما يبتغى حائل ...

وأقام عرابى بالقاهرة فى منصبه الجديد ، وكانت داره تمتلىء كل يوم بالناس من كل نمـــط : الوطنيـــين ، والاوربيين ، ورجال الصحافة من الاجانب والمصريين ، ورجال السياسة الذين كانوا يسألونه عن مرمى حركته ، وعما يطمح اليه ، ويستكتبونه البيـــانات عن آماله ، فازدادت شخصيتـــه بذلك خطرا وذاع فى الاوربيين صيته ، وكانت زعامته تزداد رسوخا فى قلوب مواطنيه حتى لقبوا بيته باسم « بيت الامة » (١) وبات يقصـــده كل متظلم يطلب معونته حتى فى أتفه الامور ...

وكان ممن اتصلوا بعرابى يومئذ مستربلنت فتعارفا ، وجرى بينهما حديث أثبته كل منهما فى مذكراته وفيه أشار عرابى الى ارتياحه لتخلص مصر من مساوىء حكم اسماعيل ومن دسائس الشراكسة ، ولكنه أبدى مخاوفه من سياسة انجلترا وفرنسا نحو مصر ، وعبر فى كياسة عن أمله فى أن تعطف انجلترا على حركة الحرية فى مصر وهى الدولة التى تعلن دائما أنها نصيرة الحرية والديمقراطية وذكر عرابى أنه يتوقع العطف من انجلترا أكثر مما يتوقعه من فرنسا ولا سيما من جانب جلادستون الذى اشتهر بعطفه على الحرية فى كل مكان ...

وليت شعرى ماذا يطلب الذين يرمون عرابيا بالطمع والجهل والنزق أكثر من هـــذه البراهين التى نسوقها

---

(١) كان فى مكان عمارة تجـــاه وزارة الاوقاف ، وكان الفضـــاء حوله متسعا من كل ناحية بحيث يطل من الشرق على قصر عابدين ومن الغرب على قصر النيل

على انه كان بريئا من هذا كله ؟ ألم يأن لهؤلاء أن يقرءوا سيرة هذا الرجل فى غير تحامل عليه حتى يعرفوا لهذا المصرى المجاهد قدره وأثره فى نهضتهم القومية ؟ وهل يوجد فى المعايب القومية عيب أشد قبحا من جهل قوم برجالهم فى الوقت الذى يرون فيـــه غيرهم من الامم يمجدون ذكرى الرجال فيوحون الى الاجيـــال القادمة معانى البطولة بما يقدمون لهم من الامثلة ؟..

لقد أعجب بلنت بعرابى ووقعت عباراته من نفســـه موقعا حسنا ، قال بلنت يصف كيف تعرف الى عرابى وكيف كان وقع لقائه فى نفسه « كان عرابى يومذاك فى قمة صيته ، يتحدث عنه الناس فى طول مصر وعرضها بقولهم « الوحيد » أعنى انه الرجل الوحيد ، وكان القوم من جميع أنحاء القاهرة يتزاحمون على داره حيث يدعون ظلاماتهم بين يديه ، وكانت حجرته الخارجيـــة تمتلىء كل يوم بالمتوسلين وكذلك كان مدخل داره من الشارع ...

وكان قد سمع عنى أنى ممن يعطفون على قضية عنصر الفلاحين وانى من أصدقائهم ، ولقينى بكل ما فى وسعه من حفاوة ، وبخاصة ، كما قال لى : لما نمى الى علمه من صلة أسرتى ببيرون ذلك الذى كانت له فى نفســـه مكانة عالية وان لم يعرف شيئا عن شعره ، لما كان من عمله من أجل حرية اليونان ... وهـــذا أمر جدير بالملاحظة لما فيه من دلالة خاصـــة على منحى عرابى بالنسبة للانسانية كلها بغير تفرقة من جنس أو عقيدة . فلم يكن فيه شىء من التعصب اذا كان التعصب معنـــاه الكراهية الدينية ، وكان على أهبة أبدا لان يتعاون من أجل قضية الحرية مع اليهود والنصارى أو مع الكفرة على الرغم من تقواه التى لا التواء فيها بأية حال ...

ولقد كلمته طويلا وفى غير تحفظ ودار الحديث حول المسائل التى كانت تشغل الاذهان يومئـــذ ، ووجدته يصارحنى كما أصارحه ويتكلم فى يسر ، وقد عبر عن ولائه التام للخديو طالما انه يحافظ على وعوده ولا تظهر اية محاولة من جانبه ليسلب المصريين حريتهم الموعودة ، ولكن كان من الامور البينة انه كان لايثق فيه كل الثقة ، وعد من واجبه أن يراقبه فى حـــذر مخافة أن يتنكب الطريق ...

وفى كتاب ارسلته الى جلادستون بعد ذلك بقليل أى فى ٢٠ ديسمبر بعد أن تمت مقابلات ومناقشات أخرى بينى وبين عرابى ، قلت عن عرابى : ان الآراء التى يفصح عنها ليست تكرارا للعبارات المتداولة فى أوربا الحديثة ، ولكنها تقوم على أساس من معرفته بالتاريخ والتقاليـد الحرة للفكر العربى تلك التقاليد الموروثة من عهد حرية الاسلام وهو ينكر كما أعتقد كل مطمع شخصى ، وليس هناك شك فى اخلاص الجيش والامة له ... وقد تحدث عن مكانه فى تواضع قائلا : انى أمثل الجيش لان الظروف جعلت الجيش يثق بى ، ولكن الجيش نفسه أن هو الا ممثل الشعب وحاميـــه حتى يأتى الوقت الذى لا يحتـــاج فيه اليه ، ونحن فى الوقت الحاضر القوة القومية الوحيدة التى تقوم بين مصر وبين حكامها الاتراك ، الذين لا يتورعون فى اية لحظة اذا أخلى ســـبيلهم أن يجددوا مساوىء عهد اسماعيل .

وتحول المراقبة الاوربية دون ذلك ولـكن فى صورة جزئية فحسب ، ولا تتخذ شيئا من الحيـــطة بتعليم الشعب حكم نفسه ارتقابا لليوم الذى تتخلى فيه عن مهمتها المالية ، وهذا أمر علينا أن ننظر فيه ، لقدكسبنا للشعب حق التكلم فى مجلس يضم الاعيان وانا لنعمل على

الا يطردوا أو يخوفوا فيخرجوا منه ، وانا فى هذا لانعمل لانفسنا بل لاعقابنا وللذين وضعوا ثقتهم فينا... ونحن الجند الآن فى وضع كالذى كان فيه أولئك العرب الذين اجابوا الخليفة عمر حين سألهم فى شيخوخته عما اذا كانوا راضين عن حكمه وعما اذا كان فيه قد استقام على طريق العدالة ، قالوا : يا ابن الخطاب انك استقمت على الطريق حقا ولهذا أحببناك ، ولكنك لست تعلم أننا كنا قريبين منك وكنا على أهبة لو أنك سلكت سبيلا معوجة لنردك الى الطريق السوى بسيوفنا... وانى على ثقة من أنه لن تكون بنا حاجة الى العنف ، فنحن معشر المصريين لا نحب الدماء ونأمل الا نسفك شيئا منها ومتى تعلم برلماننا الكلام فسينتهى واجبنا ، ولكنا نعتزم الى أن نصل الى ذلك الوقت أن ندافع عن حقوق الشعب مهما كلفنا ذلك من ثمن ولن نخاف بمعونة الله أن نثبت أهليتنا لرعاية تلك الحقوق اذا لزم الامر ضد كل من يعمل على اسكاتها ...

وقد أثر فى تأثيرا جد عميق هذا النمط من الكلام الذى يختلف كثيرا عما يستعمله السياسيون الشرقيون فى أحاديثهم مع الاوربيين ، وقد كشفت لى عن فارق عقلى كبير بين عرابى وبين زعيم آخر من زعماء الحرية قابلته فى دمشق وحادثته وهو مدحت باشا ، فلم يكن فى حديث عرابى شىء من ذلك اللغو حول السكك الحديدية والترع والترام كمشروعات للاصلاح يعمر بها الشرق ، ولكن كان فيه كلمات تنفذ الى أعماق الاشياء ، وتحدد تبعة الحكومة الصالحة بحيث تلقيها على الكواهل التى تستطيع وحدها أن تحملها ، وأحسست ان مثل هذه الكلمات خليقة بأن يصغى اليها فى مجلس العموم اذا قدر لها أن تسمع هناك ...

وأما عن السلطان وعلاقة مصر بتركيا ، فقد كان كلام عرابى كذلك مبينا ، لقد أخبرنى انه لايحب الاتراك الذين أساءوا حكم مصر عدة قرون ، ولا يحب أن يسمع عن تدخل من القسطنطينية فى شئون مصر الداخلية ، ولكنه يجعل فرقا بين الحكومة العثمانية وبين السلطة الدينية للسلطان ، وذلك انه كأميرللمؤمنين تحت طاعته والاجلال له اذا عدل ، وكذلك يوحى اليه عمل فرنسا فى تونس بعد أن انتزعتها من الامبراطورية واستولت عليهـــا ، ضرورة المحافظة على الصلة برأس العالم الاسلامى ، قال عرابى : نحن جميعا أبنـــاء السلطان ونعيش معا كما تعيش أسرة فى بيت ، ولكن كما هو الحال فى الاسر لكل منا نحن أهالى الاقطار الاسلامية ، حجرة مستقلة يترك لنا أمر تنظيمها حسب ارادتنا ولا يسمح حتى للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك ولقد اكتسبت مصر هذا الوضع بمقتضى ما منحته الفرمانات ، وسنحرص على أن نحتفظ به ، ونحن اذا طالبنـــا بأكثر من ذلك فانا نركب متن الشطط وربما فقدنا حريتنا فقدانا تاما ...

وسألته فى شيء من الثقل عما اذا كان ذا صلة شخصية بالقسطنطينية كما تؤكد الاشاعات ، ولاحظت عليه شيئا من التحفظ فى الاجابة ، فمما لاشك فيه أن حديثه مع احمـــد راتب ذلك الحديث الذى لم يكن لى به علم وقتذاك ، كان يجول بخاطره وسبب هذا التردد ولكنه لم يشر اليه ...

وأخيرا تكلمنا عن علاقة مصر بالمراقبـــة الثنائية ، مراقبة انجلترا وفرنسا ، فأقر عرابى ما تم من خير فى عهدهما كتحرير البلاد من اسماعيل ، وتنظيم الشئون المالية ، ولكنهما يجدر بهما ألا يقفا فى سـبيل الحركة القومية بتعضيدهما سلطة الخديو المطلقة ومن حوله من

الباشوات الشراكسة ، وقال انه ينظر الى انجلترا أكثر مما ينظر الى فرنسا لنصرة الحرية الوليدة فى مصر ، وبخاصة جلادستون الذى هو من أنصار الحرية ، وشكا من مالت وتصرفاته ، وعملت على أن أدخل الطمأنينة عليه من هذه الناحية بقدر ما استطعت ، ثم افترقنا

وقد أثر فى نفسى أثرا حسنا هذا اللقاء الاول مع هذا القائمقام الفلاح ، حتى لقد ذهبت من فورى الى صديقى الشيخ محمد عبده لأعبر له عن تأثرى ، واقترحت عليه أن يكتب برنامج الحركة الوطنية بالمعنى الذى ذكره عرابى كى أرسله الى جلادستون ، فانى أعتقد أن برنامجا كهذا لو أبلغ اليه من جهة يثق فيها جدير بأن يحدث فى نفسه أثرا طيبا لصاحبهم ، وحدثت مالت كذلك بهذا الاقتراح فذكر أنه يعتقد أنه يحدث ذلك الاثر الطيب ، وعلى ذلك وضعت بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده وبعض زعماء الوطنيين ، وكان يعاوننا صابونجى ، برنامجا يتضمن آراء الحزب الوطنى ، وعرضنا ذلك على البارودى فأقره ، وعرضناه كذلك على عرابى ،

وبعد أن تم ذلك أرسلته الى جلادستون قائلا انه وضع على علم من مالت وباقرار منه لما جاء فيه وشرحت له الموقف كله ورجوت منه أن يعطف على حركة هى قريبة من المبادىء التى يعتنقها » .

هذا هو كلام بلنت عن عرابى نقلناه عن كتابه ، فماذا يرى فيه خصوم عرابى ممن جهلوا حقيقة أمره ، ومن المتقولين عليه ؟

أيبقون على اصرارهم فلا يرون فيه الا جاهلا غرا لا دراية له بالسياسة وشؤونها ؟ الا يزال ينكر هؤلاء أنه كان مؤمنا برسالة يطمع أن يؤديها الى بنى وطنه ، رسالة الحرية والكرامة القومية ؟

حسب المرء أن يذكر مبلغ ذلك العصر من العلم ومن اليقظة القومية ، ومبلغ ما كان فيه من الرجال اذا قورن بالعصر الذى نحن فيه ، ليرى كيف بلغ عرابى بحميته واخلاصه وصادق حبه لوطنه مبلغا من الزعامة خليقا بأن يسلكه فى عداد الافذاذ من رجالنا فى تاريخنا كله

وان الذى يخطو الخطوة الاولى فى كل ما يتطلب جرأة ليعظم فضله ويعلو اسمه على كل من يخلفه حتى ولو كان فى هؤلاء الخلف من هو أكثر جرأة وأجل أثرا وأعظم خطرا وأكبر عقلا ، وذلك لان الفضل للبـادىء . ولن يوجد فى الخلف من يكون أعظم فضلا ولا أخلد مجدا .

وان الرجل الذى يقتدى بمن سبقه من الابطال من بنى قومه ، أو الذى يلقى معانى البطولة فى نفسه كثرة الابطال من حوله ليحمد على بطولته ، فكيف بمن ينشأ على غير سابقة وينهض مدفوعا بما فى فطرته من معانى الاباء والانفة كهذا الفلاح الذى كبر عليه أول الامر أن يستذله ويستذل اخوانه المصريين رفقى وأصحاب رفقى فما تعاظمه أن يعمل على عزل رفقى وما زال به حتى عزله ، والذى تفتحت نفسه للدستور فوضع يده فى أيدى الوطنيين وما استبعد الشقة أو قعد به ملل حتى ظفر لوطنه بالدستور وأبعد رياضا وأحل محله شريفا ، والذى يحرص بعد ذلك على القومية المصرية ويخشى أن يعصف بها كيد الكائدين فيتربص كما يتربصـون ، ويتأهب كما يتأهبون ...

لقد أعجب بشخصه وبآماله بلنت وحق له أن يعجب به ، ولقد قارن بينه وبين مدحت باشا فرجحت كفته على كفة مدحت ، وذهب من فوره يعلن للشيخ محمـد عبده مبلغ تأثره بهذا الجندى الفلاح أو فى الواقع بهذا الزعيم المصرى الذى انجبته مصر ...

الثعالب وبنات آوى

قدر على شريف أن يلاقى عنتا شـــديدا من مسلك الخديو من أول الامر... وأخذت وزارته تشق طريقها فى حذر شديد بين تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها دسائس الاجانب وتوثبهم فى ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الاجانب انبعاث الروح الوطنية اذ رأوا فيهـــا بوادر القضاء على ما كانوا يمنون به أنفسهم فى مصر..

وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة ، تنكر الخديو لقضية الدستور ، ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وتربص الدولتين بالحركة جميعا ...

كان طبيعيا أن تفيق البلاد على صيحة عرابى ، وأن تنطلق النفوس من عقالها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم اليها عطـاش تتحرق نفوسهم ، فبـــدأ الوطنيون يعبرون عما احتبس فى صـــدورهم منذ عزل اسماعيل ، وعادت الصحف تعبر عن مساوىء التـدخل الاوربى ، وتندد بأســـاليب الدخلاء فى مصر ، أولئك الذين سلبوها أقواتها بالحيلة ، وحالوا بينها وبين أمانيها زمنا بالارهاب والبطش ، والذين كان يحتل الـكثيرون منهم المناصب المصرية الخطيرة ويؤجرون على أعمالهم فيها ان كان ثمة اهم فيها من أعمال أجورا غالية من خزانة مصر الفقيرة ...

وأخذت جريدة « الطيف » وكان يصدرها عبد الله نديم تقاوم البهرج الزائف الذى أخذ يلتمع فى مصر ، فيخطف سرابه أبصار الجاهلين، والذى سماه الاوربيون مدنية ليكون لهم منه سلاح من طراز خاص يضيفونه الى أسلحة الدس والكيد التى سلطوها على البلاد ، وحمل الكرام الكاتبون على المراقص وحانات الخمور ودور المجون ومواخير الدعارة وغيرها من مباءات الفسوق التى كان يذيعها فى مصر أولئك الذين جعلوا من مبررات تدخلهم فى شئون البلاد رغبتهم فى هداية أهلها الى المدنية !..

وأخذ صيت عرابى يطغى على صيت جميع الرجال من حوله حتى البارودى وشريف وكان لهما الحكم والجاه ، والحق أن القلوب قد تعلقت بعرابى تعلقا يستحيل معه أن يعتزل السياسة أو تعتزله السياسة ، بعد أن خطا فى تاريخ قومه تلك الخطوة الجريئة التى كان النجاح حليفها ...

أخذنا على عرابى أنه حينما طلب اليه أن يخرج من القاهرة بفرقته اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، فهل نأخذ عليه انه تدخل فى الاساس الذى يجتمع عليه المجلس ؟ فقد كان يرى شريف أن يكون ذلك وفق لائحة سنة ١٨٦٦ ، اى أول لائحة للمجلس وقد وضعت فى السنة التى أنشىء فيها ، على أن يضع بالتعاون مع مجلس الوزراء لائحة جديدة تجعل منه مجلسا نيابيا يلائم حال البلاد ، وبعد معارضة شديدة وافق عرابى على ذلك ...

وتدخل عرابى فى مسألة اخرى وهى الميزانية المخصصة لابلاغ الجيش ثمانية عشر الفا من الجند ، ولقد ابدت المراقبة المالية عدم موافقتها على المبلغ اللازم كله ، وبعد

اخذ ورد وافق عرابى على ما تيسر دفعه من هذا المبلغ على أن يوفر الباقى من وجوه أخرى

لقد قطع عرابى على نفسه عهدا كما أسلفنا الا يتدخل فى شئون الحكومة القائمة ، وعلى هـذا الاساس قبل شريف رئاسة الوزارة ، لذلك نرى أن تدخل عرابى فى الامور التى ذكرناها يوجب ملامته ، ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ، ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضى آخر الامر ولم يسبب للحكومة عنتا ، فهذه الامور من اختصاص الحكومة وهى لا تمس جوهر قضية البلاد

ووجه اللوم على عرابى انه هيأ لاعداء الحركة القومية فى مصر أن يمعنوا فى تصويرها صـورة عسكرية بحتة سببها تدخل الجند فى شئون الدولة

لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناوأتها فى مصر وفى خارج مصر والى هـذه المناوأة يرجع سبب جموح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الامر من يده ، ولو أنه قدر لمصر فى تلك الايام العصيبة أن سلك الخديو غير ما اختار لنفسه من مسلك فآزر كبير وزرائه ضد ما كان يحاك للبلاد من دسائس لامكن أن يسير شريف بالسفينة الى شـاطىء السلامة ، لـكن الخديو وا أسفاه لم يكتف بعدم المؤازرة ، بل لقد التجأ الى الاجانب ، فكان عمله هذا أقوى مساعد على نجاح سياستهم ...

وكان كلفن العضو الانجليزى فى لجنة المراقبة المالية وادوارد مالت قنصل انجلترا فى مصر هما اللذان يحكمان الشباك حول الخديو ، وكانت لهما سياسة ماهرة غادرة تقوم على أسس أحكم وضعها أولهما وفق ما تعلم فى الهند ، فهما يظهران الولاء للخديو فيدسان له بذلك السم فى الملق ، ثم هما يخوفانه أبدا من تركيا والعرابيين

جميعا فيذران قلبه هواء ، وهما بعد ذلك يضللان الرأى العام فى بلادهما ويرسلان التقارير السرية عما يجب أن يتبع الى وزير الخارجية الانجليزية ...

وكانت وسيلتهما فى تضليـــل ذلك الرأى العام ، السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسليها ، وكان كلفن نفسه مراســلا لاحدى الصحف وكان مراســل التيمس يستقى منه المعلومات ، أما شركتا روتروهافاس فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه فى العام من خزانة مصر ! وقل أن نصادف فى تاريخ السياسة عملا أشــد فجورا من أن تحارب قضية شعب بنقود من خزانته..

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أشنع الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الامر ، الى أن منيت بعد هذه المقدمة بالتدخل الرسمى الفاجر الذى لم يدع فى تاريخ العالم عرفا الا خرج عليه ولا قاعدة الا ســخر منهــا وحطمها تحطيما ...

أخذ محررو الصحف فى انجلترا وفرنســا يندددون بثورة مصر ويسخرون من نهضة مصر ، ولو أنهم كانوا يحترمون المبادىء التى نادت بها بلادهم حقا لمنعهم ذلك مما فعلوه ...

وماذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوربا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر فى أوربا الدماء أنهارا فى سبيل أمثال تلك المبادىء التى كان ينادى بها المصريون ؟ وكيف تكون نغماتها عذبة مشتهاة اذا تغنت بها أوربا ثم تكون ممجوجة مملولة اذا هتف بها الشرقيون؟

هذا شعب ينفض عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوربا ، ثم هو يذب الاجانب عن قوميته ، وقد ثقلوا عليها بامتيازاتهم الاثيمة الظالمة ثقل الحشرات والهوام ، فماذا كانت ترى أوربا فى هــذا من معانى

الفوضى والهمجية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الاجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنت وافساد ؟ الا أنها السياسة والاطماع الاستعمارية تقلب عرف الناس نكرا وتجعل المبادىء التى ينادى بها دعاة الانسانية فى نظر الساسة أحلاما لا تجد لها مستقرا الا فى رؤوس الحمقى من الفلاسفة ورؤوس الاغرار من مصدقيهم ... أما الساسة فقد كانوا لايتوانون عن الكيد ، ولا يفتر لهم سعى فى تلمس السبيل التى يستولون بها على الفريسة ، وكان موقف انجلترا وفرنسا من مصر ينطوى على كثير مما يبعث الالم والضحك معا ! وكم من المآسى ما تضحك منه النفوس ضحكات لن يبلغ الدمع مبلغها !

كان موقف الدولتين كموقف رجلين يطمعان فى استلاب شىء ، وكلاهما يريده لنفسه دون الآخر ولكنه يموه على صاحبه ، ويفهم كلاهما حق الفهم ان الآخر يدرك حقيقة موقفه منه ، ولكنهما على الرغم من ذلك يتغابيان ويضللان !

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة فى تلك الايام ، ولكم شهد المتفرجون يومئذ من الاساليب الميكيافيلية وأوضاعها ، ولكم شهدوا من أساليب غيرها لو قورنت هذه بها لكانت منها كالحسنات ، ثم يسدل الستار والمتفرجون من أهل مصر لايملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا ، بل لقد فرض الاحتلال عليهم أن ينظموا أناشيد المدح والا عد سكوتهم جحودا وعنادا . وأى شىء أنكى وأوجع من أن يرغم شعب على تقبيل الايدى التى استلبته حقوقه والأغلال التى دارت حول عنقه ؟

ويظهر أول شاهد على السياسة الانجليزية فى تقرير

كتبه كلفن بعد يوم عابدين بعشرة أيام جاء فيه : « أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها الا هدنة ، وان ما وصلنا اليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها » (١) .

وليس فى هذه العبـــارة أول شاهد على السياسة الانجليزية فحسب ، بل ان فيها خلاصة هذه السياسة ، فستتربص انجلترا بالحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا ...

وكان شريف يقظـــا يفطن الى دقة الموقف ، ويدرك مرامى السياســـة الانجليزية وأســـاليبها ، ولذلك كان لايفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتبـــاع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم وأقوالهم ما تسيىء أوربا تأويله فتسوء بذلك العاقبة ...

وأخذ فريق من رجال الحركة الوطنية يعاونون شريفا على تثبيت قواعد سياسته وكان من أثر ذلك أن تنازل عرابى عن رأيه فى الموقفين السالف ذكرهما ، وكان من أثر ذلك أن خففت الصحف من لهجتها وكفكفت من غلوائها ، ولقد كان للشيخ محمد عبده فضل كبير فى توجيه العناصر الوطنية نحو هـــذا المسلك فآثرت مصر أن تركن الى الحكمة وان نفوس بنيها لتضطرم بالثورة ...

ولكن الافق ما لبث أن تجمعت فى حواشيه الغيوم ، وأحست السفينة بوادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفد لها صبر الربان أو كاد ، وتلك هى أزمة الميزانية الشهيرة ، وهل كانت الثعالب تعجز عن خلق ما تشتهى من أزمات ؟

فرغ شريف من اعداد لائحة المجلس ثم عرضها على

(١) المسألة المصرية لروثستين : تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

النواب ، وشد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريفا يقرر فيها الا يكون من اختصاص المجلس عند النظر فى الميزانية البحث فى جزية الباب العالى والدين العام وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزانة من نفقات ...

وهال النواب وأغضبهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين ، فرفضوا ذلك وأصروا على أن ينظروا الميزانية كاملة ، وعدوا ذلك من الحقوق التى لا تقبل مساومة مهما يكن الامر ...

وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية ، فلم يشايع النواب فى نظرياتهم ، وأخذ يطلب اليهم الاناة والحذر ، ويريهم عواقب التطرف والتعجل ، ولكنهم لم يلتفتوا اليه ، وظهرت فى الوزارة نفسها بوادر التفكك ، فلقد كان البارودى يطمع فى الحكم بعد شريف فكان لذلك يؤيد الوطنيين فى موقفهم سرا .

وكان سلطان باشا رئيس المجلس ينقم على شريف أن لم يسلكه فى سلك وزارته فوجد فى الخلاف القائم فرصة ينال بها من شريف فسرعان ما اتهم شريف بالاعتدال ، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف . ثم بلغ الامر حد اتهامه بالخيانة ...

ووقف شريف يواجه العاصفة فى صبر وجلد ، وهو يؤمل أن يجنح النواب الى السلام والاعتدال واقترح عليهم تأجيل النظر فى هذه المسألة حينا ، ونشط الشيخ محمد عبده فى معاونة شريف ، وكان مما ذكره فى هذا الصدد قوله : « لقد ظللنا ننتظر حريتنا مئات السنين افيصعب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى ؟ » .

ثم بدا على الافق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الغمة ، فلقد أخذ النواب يتدبرون فى عاقبة هذا التشدد وبدأ العقل يتغلب شيئا فشيئا على العاطفة .

وخيل لشريف أن الازمة بسبيل أن تحل ، ولو أنه اطلع على الغيب لعلم أنها كانت تتضاعف ويشتد خطرها لتتخذ فى النهاية الوضع الذى سوف يغير تاريخ هـذه البلاد !

لمح الصائدون فى هذه العاصفة الفرصة المرتقبة !.. وهيهات أن يضيع هؤلاء فرصة طال بهم انتظارها ، ان الخلاف قائم بين الوزارة والمجلس فليعملوا على زيادة هذا الخلاف وليدفعوا بالخديو ليخطو أول خطوة بعد يوم عابدين ضد الحركة الوطنية فيخسر بذلك الوطنيين والعسكريين جميعا ، ويفقدوا هم الثقة فيه كل الفقد فيقرب بذلك من الاجانب أو على الاصح يزداد قربا منهم

ولن يعدم الانجليز وحلفاؤهم أن يخلقوا ألف مبرر لما يفعلون ، ومن أيسر الامور عليهم أن يعلنوا أن البـلاد تشيع فيها الفوضى ، وان الاجانب ومصالحهم تكتنفهم الاخطار من كل صوب ، وان الخديو بات يخشى على عرشه ولا مخرج له مما هو فيه ، بل ولا مخرج لمصر مما هى فيه من خلل وارتباك الا أن يضرب على أيدى الثائرين المفسدين فى الارض ...

ومن غريب أمر هؤلاء الانجليز أنهم بينهم وبين أنفسهم غيرهم بينهم وبين الشعوب الشرقية ، فهم لايقبلون من هذه الشعوب ما يعدونه عندهم من مفاخر الانسانية ، وانهم ليرمون أهل هذه الشعوب بأشنع التهم وأقساها ، فالتألم من المظالم التى تنصب على رؤوسهم تمرد ، والسعى الى الحرية فوضى وهمجية ، والدفاع عن البلاد وذب الدخيل عنها وحشية وأجرام !.. على ان هـذه سنة الحياة بين القوى والضـعيف منذ كان الانسان يتخذ سلاحه من الحجر وينحت مأواه فى الجبل ...

ولقد كانت الدولتان تعملان على الكيد للحركة الوطنية

فى مصر قبل انعقاد المجلس ، وكانت بينهما مراسلات فى هذا الصدد ، وكانت فرنسا هى المحرضة هذه المرة ! فرنسا التى كانت سياستها منذ فشل الحملة الفرنسية تدور على مناوأة النفوذ الانجليزى فى مصر !..

ولى المسيوليون جمبتا أمر وزارة الخارجية فى فرنسا فى شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ فسرعان ما اتصل بوزير خارجية انجلترا اللورد جرانفل محدثا اياه فى شأن مصر مبينا له وجوب تضامن الدولتين فى العمل ازاء ما يجرى هناك من أمور .

وحار جرانفل أول الامر ماذا يجيب به على هـــذه الدعوة ؟ فهو ان قبلها أصبح مقيدا بالعمل مع فرنسا ، وان هو رفضها قطع على دولته الطريق وجعل لفرنسا المكان الاول فى شؤون مصر ...

وتلقى جرانفل من مصر أنبـــاء فاجرة مالت به الى الطريق التى اختارها ...

كانت مشكلة ميزانية الجيش لا تزال قائمة بين عرابى والمراقبين ، فأرجف المرجفون أن عرابيا يعتزم أن يأتى بثورة جديدة لاسقاط وزارة شريف وتنصيب البارودى مكانه ...

وكتب السير ادوارد مالت وهو رجل مسؤول ، الى اللورد جرانفل يشكو من تدخل عرابى ويتساءل فى لهجة ساخطة برمة : كيف يستطيع شريف أن يقوم على رأس الحكومة مع وجود عرابى صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد؟ وهكذا يسمح هذا الرجل لنفسه أن يكذب فيرمى عرابيا بما هو برىء منه اذ يصوره فى صورة المتعسف الذى تدفعه المآرب الشخصية ، ولايستحى بعد ذلك أن يكتب الى رئيسه ينبئه بخضوع عرابى لرأى المراقبين !..

ولكن جرانفل كان قد خطا نحو فرنسا خطوة لا يمكنه النكوص بعدها ...

وكتب كلفن كذلك الى جرانفل يقول : « والحقيقة أن الادارة المصرية شركة ثلاثية ، فاذا لم تكن الدول على استعداد لتعديل نصيبها فعليها أن تحافظ عليه وتقويه فى هذا الوقت الذى أصبح فيه المصريون فى حال تطور وانتقال » (١) هذا عدا ما ذكره فى تقريره عما يتوقعه من خطر اذا زيدت سلطة المجلس وثبتت قواعد الدستور المصرى ...

وكان مستر بلنت قد أرسل برنامج الحركة الى جريدة التيمس ، وفيه أقوى حجة على براءة هذه الحركة من عناصر الثورة أو المساس بحقوق الاجانب المالية ، وكان يأمل بلنت وأصدقاؤه من الوطنيين أن يكون لنشر هذا البرنامج أثره الحسن فى نفس جرانفل، ولكنه نشر فى أول يناير سنة ١٨٨٢ بعد أن قضى الامر، فلقد وافقت انجلترا على وجهة نظر فرنسا فى يوم ٣١ ديسمبر أى عقب اجتماع المجلس بخمسة أيام ...

وخطا شريف باشا فى تلك الاثناء خطوة حكيمة فأعلن بيانا (٢) يشير فيه الى منهاج حكومته ، فذكر أنها تقوم على أساس الاعتراف بحقوق السلطان والامتيازات التى حصلت عليها مصر والاعتراف بالخديو حاكما دستوريا والتسليم بقاعدة المراقبة الثنائية ، ثم انكار كل اتجاه ثورى ، ومنح الحرية الدينية والسياسية لجميع سكان البلاد والسير على قاعدة الحكومة المسؤولة أمام مجلس نيابى ...

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

(٢) The Trencit ot Egypt by P.G. Elgood

ولم يكن فى الامكان يومئذ السير على منهاج أفضل من هذا المنهاج الحكيم ، الذى كان خليقا ان يبعث الطمانينة فى نفوس الساسه من الدولتين ، وكذلك لم يكن هناك برهان على حسن نيات الوطنيين أقوى مما نشرته التيمس لمستر بلنت وهو شاهد عدل من الانجليز للمصريين...

ولكن المسألة لم تكن مسألة اقتناع ، وانما كانت نية مبيتة ، وهيهات أن تجرى الامور فى السياسة على الاقناع والاقتناع ، فدوافع الاقوياء الى العمل فى ذلك المضمار أطماعهم ، وبرهانهم أسلحتهم ، وما يكون الكلام الا تعلة الضعيف ، وما أشبه كلام الضعفاء فى مثل هذه المواقف بصراخ الفريسة قبل تمزيقها ...

ويذكر بلنت سببا لانحياز انجلترا الى فرنسا فيقول ان انجلترا كانت تسعى الى عقد معاهدة تجارية مع فرنسا فيها فائدة كبيرة للتجارة الانجليزية ، ومن أجل ذلك هاودت انجلترا فرنسا وطاوعتها فيما تقترح فى شؤون مصر فباعت انجلترا بذلك مصر الى فرنسا ...

وما نظن أن انجلترا كانت من الغفلة بحيث تتنازل عن أغراضها فى مصر من أجل مثل هاتيك المعاهدة التجارية ، وانما الذى نفهمه أن انجلترا كانت تراوغ فرنسا لتفوز بهذه المعاهدة ثم تقف من فرنسا بعد ذلك فيما يتعلق بمصر موقف الاتفاق فى الظاهر ، بينما تعمل فى الباطن وفق ما تمليه عليه أطماعها ، ومما يؤيد ما نقول التحفظ الذى أبدته انجلترا وأقرته فرنسا ومؤداه « ان الحكومة الانجليزية يجب ألا تعد مقيدة بسبب هذه المذكرة بسلوك خطة خاصة اذا ما بدا لها أن العمل ضرورى » ولسوف نرى من سياسة انجلترا فى مصر ما يؤيد ما نقول

تم الاتفاق بين الدولتين ، وكان المجلس فى مصر كما تقدم يخالف الوزارة فى مسألة الميزانية ، وكان بعض

الوطنيين يعملون على الخروج من المأزق بالحسنى ، ولاحت فى أفق السياسة بوادر انكشاف الغمة ...

وما أشد ما نحسه من ألم ومن غيظ أن نذكر أن البلاد ما لبثت أن تلقت من الدولتين فى اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ تلك الصيحة المشؤومة التى سميت بالمذكرة المشتركة ، والتى قل أن نجد فى التاريخ السياسى ولا فيما يحكى للأطفال من خرافات مثالا أوضح منها لتحكم القوى فى الضعيف واستهتاره به فى غير حياء أو تحرج.. وحسبك أن تقرأ هذا الكلام الذى بعثت به انجلترا وفرنسا زعيمتا الحرية والديموقراطية ! جاء فى المذكرة (١) « ان الحكومتين الانجليزية والفرنسية تريان أن بقاء سمو الخديو على العرش بالشروط التى قررتها الفرمانات السلطانية واعترفت بها الحكومتان رسميا هو الضمانة الوحيدة فى الحاضر والمستقبل لاستتباب النظام فى مصر واطراد رخائها ، وهما الامران اللذان تهتم بهما فرنسا وبريطانيا العظمى ، وان الحكومتين اللتين اتفقتا اتفاقا تاما فى عزمهما على أن تمنعا كل أسباب الارتباك الداخلية والخارجية التى يمكن أن تهدد النظام القائم بمصر ، لايداخلهما ريب فى أن جهرهما بما عزمتا عليه رسميا فى هذا الامر سيحول دون الاخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو والتى لابد أن تقاومها فرنسا وانجلترا معا ، وان الحكومتين لتثقان بأن سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شؤون بلده وشعبه » .

وأى كلام يمكن أن يعبر عما تنطوى عليه هذه المذكرة من لؤم وفجور ؟ ما معنى الاشارة الى بقاء سمو الخديو

---

(١) المسألة المصرية لروثستين .

على العرش ؟ وما شأن الدولتين حتى تهتمان بهذا الامر؟ وبأى حق تضطلعان بمنع أسباب الارتباكات الداخليـة والخارجية ؟ وعلى أى أساس يقوم ادعاؤهما وجود هذه الارتباكات ؟ وكيف يجوز أن يعتمد الخديو عليهما ، ويستمد الثقة منهما مع وجود السلطان ؟

هـــذه هى المذكرة المشتركة التى أشار اليها بلنت بقوله : «هذه المذكرة المشؤومة التى اليها يرد كلما وقع من المصاعب أثناء ذلك العام والتى أفقدت مصر حريتها كما أفقدت جلادستون شرفه وكما أفقدت فرنسا نفوذها فى وادى النيل » .

ولا تسل عما أحدثته هذه المذكرة الحمقاء من سوء الاثر فى مصر ، لقد بلغ من اثارتها الشـعور واحراجها الصدور أن نقم عليها مالت وكلفن وتمنيا لو لم تكن ! وقد كانا يريدان ألا تكون بمثل هذه الصراحة الطائشة.

وكانت النتيجة الطبيعية أن انضم المعتدلون من رجال الحركة الوطنيـة الى العسكريين ، وهو على خلاف ما كانت تنتظره الدولتان فى غباء مضحك أو فى غفلة لاندرى كيف وقعا فيها ، الا أن تكونا أرادتا ايقاظ الفتنة وهو خير ما يفسر هذا الذى نحار فيه .

رأى عنصرا الامة ، الرجعية المسلحة.. بل رأوا الغدر الاثيم يتهدد قضيتهم ، وانبعثت الصيحات من كل مكان ان انجلترا القت بنفسها فى أحضان فرنسا ، وان فرنسا تريد أن تصنع بمصر ما صنعته بتونس ، ولذلك يجب الاتجاه الى السلطان والمناداة بمبدأ الجامعة الاسلامية لمقاومة هذه الحركة الاثيمة ...

وعظم سخط المصريين جميعا حين علموا أن الخديو قد قبل هذه المذكرة ، ولم يكتف بهذا القبول المشين ، فكتب الى القنصلين يشكر حكومتيهما على ما تبـديان

من عطف نحوه ، وفى هذا دليل صريح على أن الخديو آثر الانحياز الى جانب الدولتين وسى موضعه من السلطان ولم يعبأ بما يجد فى مصر من الغضب على مسلكه ...

وضاع كل أمل فى تهدئة الخواطر ، فأصر مجلس شورى النواب على موقفه فى وجوب نظر الميزانية ، ورأى شريف فى المجلس اجماعا ضده وحماسة ما رأى مثلها من قبل ، ولقد رغب جرانفل فى ملاينة الاعضاء فى هذه المسألة كأنما يريد أن يعالج بعض خطئه ، ولكن جمبتا رفض ذلك بحجة أنه يسقط هيبة الحكومتين أمام الوطنيين ! وما أعجب أمر هذا الرجل الذى يرى أن الهيبة تكتسب بالحماقة !

على أن جرانفل ما لبث أن شايع جمبتا فى حماقته فلقد كتب اليه مالت يقول (١) ان المجلس باق وسيظل باقيا ما لم يحل بالقوة ، وهذا أمر لا يكون الا بالتدخل الذى هو آخر سهم فى كنانتنا ، والذى لايسوغه أبدا ما قد يكون من خرق قانون التصفية ... انى أعترف أنى أفضل أن يعطى المجلس ما يطلبه من الحق والا نتدخل حتى يسىء استعمال هذا الحق... ويجب الا ننسى أن الامة المصرية قد أخذت تسلك طريق الحكم النيابى خيرا كان ذلك أو شرا ، وان قانون المجلس الاساسى هو صك حريتها » ...

هذا ما ذكره مالت نفسه ولكن جرانفل لم يعبأ به وأرسل الى جمبتا ينبئه بموافقة الحكومة الانجليزية على آرائه ، ونسى جرانفل أو تناسى أنه كتب الى مالت قبل ذلك بنحو شهرين يقول له مشيرا الى حرية المصريين

---

(١) المسألة المصرية لروتستين .

الوليدة : « ان الحكومة الانجليزية اذا ما رغبت فى نقص تلك الحرية أو العبث بتلك النظم التى يرجع وجودها اليها فانها تتبع سنة تخالف تقاليد تاريخها الوطني... ليس من شيء يحملنا على سلوك خطة أخرى غير قيـام حالة فوضوية فى مصر »

فليت شعرى ما الذى حدث فى مصر حتى تخالف انجلترا على هذه الصورة أجمل تقاليد تاريخها الوطنى؟ الا انها السياسة التي لا تتورع عن شيء ولا تستحى من شيء ، وليتدبر فىهذا الموقف من لايزالون فى هذا الشرق يتحدثون عن الضمير البريطانى والشرف البريطانى...

حاول شريف أن يحصل على مذكرة تفسيرية يستعين بها علي تسكين الخواطر ، فرفض جمبتا حتى هـذه المذكرة وعاد جرانفل فشايعه فى هذا مشايعة عمياء على الرغم من نصح الناصحين من الانجليز والوطنيين ...

ولست أدرى كيف كانت ضمائر هؤلاء الساسـة تطاوعهم مع هذا على أن ينعتوا رجال مصر بالفوضى وأن يصوروهم أطفالا فى السياسة لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ؟ ولكن ما لى أعود الي حديث الضمائر والامر أمر السياسة وجشع السياسة ؟

وضاقت بشريف السبل فلم يدر ماذا يفعل ، ووقفت السفينة لا تستطيع حراكا ، والريح من حولها عاصفة وليس فى الجو بارقة أمل ، والنواب لا يفتر اصرارهم ولا تنقطع زمجرتهم ...

وعاد مالت يحذر جرانفل فقال فى صراحة : « ان التدخل المسلح سيصبح أمرا محتوما اذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت عن الميزانية ، ومع ذلك فجميع الحكومات تهتم بمنع ما يوجب هذا التدخل الذى اذا

أقدمت عليه الدولتان وحدهما أدى الى سوء المنقلب فى هذا البلد » .

ولينظر فى كلام مالت أولئك الذين يعودون باللوم على عرابى اذا ذكر الاحتلال والتدخل المسلح فى شؤون مصر ، ومتى يعلم هؤلاء أنه لو لم يوجد عرابى لعمل الانجليز على خلقه ؟

على الرغم من تحذير مالت أبلغت الحكومة المصرية رسميا فى اليوم العشرين من شهر يناير سنة ١٨٨٢ ، أن المجلس لن ينظر فى الميزانية الا اذا أخل بالاوامر العالية التى أنشئت بمقتضاها المراقبة الثنائية ...

وكان المجلس قد جنح الى الاعتدال على الرغم من أنه يرى تدخل الدولتين عملا لاموجب له فتساهل تساهلا لا يدع مجالا لاتهامه بالشطط أو التورط ، فقبل أن يقتصر نظره فى الميزانية على القدر الباقى منها بعد الجزية وقانون تصفية الديون والالتزامات الدولية ...

ولكن الدولتين أبتا عليه حتى هذا وأكدتا لشريف أنهما لن يقبلاه بحال ، وهذا فى الحق هو الشطط ، بل هذه هى الفتنة ، والمسألة لا تحتاج الى بيان فما كانت مسألة الميزانية الا ذريعة للتدخل الفاجر ردا على نجاح الثورة القومية بعد يوم عابدين ، فقد كان هذا النجاح مؤذنا كما يبدو لاول وهلة بانقضاء عهد سيطرة الاجانب على البلاد ... ولئن تظاهر مالت وأمثاله من الانجليز بأنهم لايريدون التدخل فذلك كلام يسبق كل رغبة فى التدخل تأتى من جانب المستعمرين ... والذى يفطن اليه المرء فى غير طول نظر أن مالت كان ينصح بعدم التدخل لانه كان يريد أن يبعد فرنسا فلا يحب أن يكون التدخل مشتركا ، وانما يحب كل الحب أن تكون الفريسة من نصيب انجلترا وحدها

قال بلنت يصف لقاءه كلفن وقت اشتداد الازمة بين شريف والنواب : « كان الخصام بين النواب وشريف فى أشد حالاته ، فسأله عن رأيه فى الموقف فقال انه يراه خطيرا جدا . وكان من الامور الواضحة أن زعماء الحركة القومية قد صمموا على اسقاط شريف ، فاذا نجحوا فى ذلك فانه كما قال يقطع صلته بهم ، ثم أخبرنى بأنه غير آراءه تغييرا تاما فيما يتصل بهؤلاء فانه ظنوهم يجنحون الى التعقل ولكنه يرى ألا سبيل الى تعقلهم ولذلك سيبذل قصارى جهده للقضاء عليهم اذا وصلوا الى الحكم ، فسألته : كيف يتسنى له أن يقترح ذلك ، وكيف يعترض حركة أقرها أخيرا ، وقد خرجت عن طوقه وطوق كل شخص غيره ؟ كيف يتسنى ذلك الا بنفس التدخل الذى كنا نحاول جميعا أن نتجنبه ؟

فقال : انه غير رأيه حول التدخل كذلك وانه يراه الآن ضروريا ويرى انه لا مناص منه وسوف لايألو جهدا فى العمل عليه ، فاعترضته مبينا أن التدخل معناه الحرب والحرب معناها ضم مصر ، فقال : انه يدرك هذا المعنى كل الادراك ... ان ما يحدث فى مصر قد شوهد مثله مرات فى الهند ، وان انجلترا لن تتخلى عما تم لها من النفوذ فى مصر ومن العبث الكلام فى حقوق المصريين وأخطائهم ، فذلك ما لايصح اعتباره ، ثم كرر ماسلف أن قاله عن تحطيم الحركة القومية والحزب الوطنى مضيفا الى ذلك انه لم يعد يجعل آراءه هذه سرا من الاسرار »

وذكر بلنت كذلك كتابين جاءاه من صديقين له فى انجلترا أحدهما من الاحرار ، وهو جون مورلى ، والآخر من المحافظين ، وهو ليتون وكان قد كتب اليهما يسألهما عطفهما على الحركة القومية فى مصر ، فأما أولهما فيقول :

« اني أشك فى أن مشروعاتك تصادف نجاحا فى هـذا الوقت ، ان مصر لسوء حظ أهلها ميـدان للتنافس الاوربى ، وستمنع تسوية شريفة فيما يهم مصالح أهلها لكى يتمشى ذلك مع ما يلائم فرنسا ، وليست لى حيلة فى ذلك ، فانها تلك النقمة التى نزلت بالدنيا الا وهى : السياسة العليا التى ستفسد كل شىء » .

وأما ثانيهما فيقول : « أن هـذه الفئة القليلة من الشعب الانجليزى التى تفكر فى الامور الخارجية ، قد امتلأت أذهانها من قبل واضطربت أفكارها بسبب ذلك الوضع الخاطىء الذى ننساق اليه فى مصر ، ويكادون يخافون أكبر الخوف من الجهر بآرائهم عن الموضوع ، ويظهر لى أن أراءهم واهية ، وفى رأيى أن هذه أولى ثمار تلك السياسة الخاطئة من أساسها التى أدت بنا الى أن نفقد التعاون مع المـانيا والنمسا ووضعتنا فى الواقع تحت رحمة فرنسا ، تلك الدولة التى لايمكننا أن نعقد معها تحالفا على أساس متين يدعو الى الاطمئنان»

وما نظننا بحاجة بعد هذا الذى يذكره بلنت الى الرد على الذين يرون أن تمسك النواب بنظر الميزانيـة هو سبب ما منيت به البلاد من التدخل الاجنبى ...

ولما وجد النواب شريفا يميل الى موافقة الدولتين ، سار وفد منهم الى الخديو فطلبوا عزله ، وتعيين رئيس للوزارة يستطيع أن يسير مع نواب البلاد فى سياستهم .

وسـقطت وزارة شريف فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٨٨٢ ويرى بلنت أن من عوامل سقوطها كذلك تهديد كلفن بالتـدخل العاجل ، وحلت محلها وزارة البارودى بعد ثلاثة أيام وهى الوزارة التى سوف تعرف باسم وزارة الثورة ...

غضبة جديدة

ذكرنا أنه كان من نتائج تلك المذكرة المشؤومة اتحاد الوطنيين والعسكريين ، ونذكر الآن أن عرابيا ما لبث أن اتجهت اليه أنظار الجميع على نحو ماحدث قبل يوم عابدين ، ورأى الوطنيون أنه الرجـــل الذى يجب أن يحرصوا على معونته لا لان الجيش من ورائه ، بل لان الامة المصرية لا تذكر غيره ولا تتجه عنـد الخوف الى سواه ...

وتأهب عرابى ليخطو فى تاريخ هـــذا البلد خطوة جديدة ، وقد تآمرت الثعالب وبنات آوى على اقتناصه هذا التآمر الوضيع ...

ولقد أحس مالت بما كان للمذكرة من أثر فى عودة عرابى الى طليعة الصفوف فأوفد اليه فى مكتبه بوزارة الحربية صديقه بلنت ، وكان يطمع فى أن يكسب عرابيا الى جانبه أو على الاقل كان يتمنى أن يهـدىء خاطره لتفطنه الى ما يكون لصنيعه هذا من عظيم الاثر فى ذلك الموقف العصيب الذى سببته رعونة جمبتا وصاحبه..

يقول بلنت : « ذهبت بناء على ذلك الى قصر النيل ظهر يوم ٩ ، وكان نص المذكرة قد وصـــل يوم ٨ ، ووجدت عرابيا وحده فى مكتبه ، وكان غاضبا وهـذه هى المرة الاولى والمرة الوحيدة التى رأيته فيها كذلك..

وكان وجهه كالسحابة الراعدة وتألقت عينـــاه ببريق خاص ، وكان قد اطلع علي نص المذكرة وان لم تكن قد نشرت بعد ، فانها حتيذلك الوقتكانت أرسلت بالبرق فحسب ، وسألته كيف فهمها ؟ فأجابني قائلا ، بل أخبرني كيف فهمتها أنت ؟ » وعنـــدئذ أفضيت اليه برسالتي فقال : « لابد أن السير ادوارد مالت يظن أننا أطفال لا ندرك معني الكلمات ... انها قبل كل شيء لغة تهديد فليس فيهذه الادارة كاتب يستعمل هذه العبارات لمثل هذا المعنى» والمح الى تلك الاشارة للأعيان التيجاءت فى الفقرة الاولى من المذكرة قائلا : ان هذا تهديد لحريتنا ومضى يقول : اناعلاناتحاد انجلترا وفرنسا فيالسياسة معناه أن انجلترا سوف نغزو مصر كما غزت فرنســا تونس ... ألا فلتدعهم يحضرون ، ان كل رجل وكل طفل فى مصر سوف يحاربهم ... انه مما يتنـــافى مع مبادئنا أن نبدأ بالعدوان فنضرب الضربة الاولى ولكننا نعرف كيف نردها ... ثم قال عما جاء بصدد الدفاع عن العرش : « انالعرش اذا كان ثمة منعرش هو عرش السلطان ، وليس الخديو بحاجة الى حماية أجنبية... انك تستطيع أن تخبرنى بما تشاء ولـكنى أفهم معنى الـكلمات خيرا مما يفهم السير ادوارد مالت ...

وفى الحق ان كلام مالت كان هراء ، وقد أحسست اني أحمق بين يدى عرابى وشعرت بالخجل ان سمحت لنفسي أن أكون حامل هذا اللغو اليه ، ولكني أكدت له انى أديت الرسالة كما حملنيها اليه السير ادوارد وقلت له : انه يطلب اليك أن تصـدقها وانا أطلب اليك أن تصدقه .

وعنـــد انصرافى عاد اليه شيء من الهدوء ، وامسك بذراعى وهو يشيعنى الى أسفل البناء ، وقد دعانى الى

ان أظل على مودته فأزوره فى منزله كما كنت أفعل ، فقلت : انى سوف أحضر حين تكون لدى انباء طيبة لك فحسب ، وكنت أقصد بذلك القول أن ألمح له الى ما كنا نرجوه من تفسير للمذكرة ، أبرق مالت يستأذن فى أن يتقدم به ...

ولما عدت الى مالت وسألنى عما صنعت قلت له انه لا يرجى الصلح الآن فان المذكرة قد ألقت بهم بين ذراعى السلطان » .

هذا كلام بلنت ومنه نتبين مبلغ غضب عرابى من هذه المذكرة ، كما اننا نفهم جانبا مما كان يجيش فى نفس هذا الزعيم الثائر ، فهو لن يجبن ولكنه لن يبدأ بالعدوان ، وهو يلمح نيات انجلترا فى هذه المذكرة ، وما كان عرابى مسرفا فى تصوير نيات الانجليز فلسوف نرى أن جرانفل كان فى ذلك الوقت قد وطد العزم على التدخل بالقوة..

عاد عرابى الى الميدان ، وفى الناس من تبلغ بهم الغفلة الى حد أن يأخذوا عليه هذه العودة ، وفيهم من يذهبون فى اتباع أهوائهم الى أن يجعلوا ذلك من أكبر خطيئاته قائلين فى مثل منطق البلهاء ، ان كان ثمة للبلهاء منطق انه بعودته هذه قد ساق البلاد الى ما سيقت اليه من دمار ، كأن على كل رجل اذا رأى كرامته تداس وشرفه يهان أن يقف مكتوف اليدين والا ساق نفسه اذا غضب الى الدمار . الا أن الرجولة خلاف ذلك ، فالرجل الذى يجد نفسه فى موطن الاهانة لاسبيل له يمسك بها رجولته الا أن يدافع عن نفسه انفة وحفاظا ولو أيقن أنه هالك .

ومن المؤلم المثير حقا أن يقول هؤلاء الناس هذا الكلام ، دون أن ينظروا فى موقف الخديو وموقف الانجليز على نحو ما بينا ، وهم لا يدركون من المسألة كلها الا أن عرابيا كان رجلا ذا أطماع شخصية لايدرى ماذا يفعل ،

وكلما هدأت البلاد لا يفتأ يعمل بنزقه على اثارتها ليصل الى تحقيق أطماعه. الى آخر هذه النغمة الباردة المرذولة التى ألقى بها الاحتلال فى أذهان الاطفال ...

وأحسب الآن بعد الذى رأينا من موقف أعداء البلاد أن هذا الكلام قد أصبح خليقا بأن يخجل منه قائلوه ، وانا لنكاد نقطع منذ الآن انهم بعد أن نفرغ من سيرة هذا الزعيم المفترى عليه على نحو ما نبين من أوجه الحق لن يعودوا الى مثل هذا الكلام ، فسبيلنا كما يرون فى اقناعهم الحجة نستخلصها من الحوادث فى عدالة يفرضها الحق ، وفى عطف يوجبه الانصاف ...

***

تعهد عرابى ألا يتدخل فى شؤون الحكومة ، فكان اذعانه لهذا أمرا لابد منه . ولو أنه رفضه لكان فى ذلك مخطئا اشد الخطأ ، ولكن عرابيا لم يتعهد أن يدع وطنه وشأنه ، لا تهزه بعد يوم عابدين نحوه عاطفة أو يحركه لنجدته ما عسى أن يلم بقضيته من الاحداث ، ولم يكن ليستطيع عرابى أن يتعهد بمثل هذا ، ولن يستطيع ذلك غير عرابى من الناس ، ولو أنه فعل ذلك لأجرم فى حق هذا الوطن جريمة ما كان ليغفرها له التاريخ ...

وكيف يفعل ذلك عرابى أو اى رجل غيره ولا يكون بذلك مجرما مفرطا فى حق وطنه ؟ وأى فرق بين مثل هذا التعهد وبين المروق والخيانة والجمود فى أوضح صورها وأقبحها ؟..

ألا انه للحق كل الحق أن يطلب الى بنى الوطن الا يتدخلوا فى اعمال الحكومة ، ولكن على شرط ألا يكون من تلك الاعمال نفسها ما يحفز الناس الى التدخل أو يوجبه عليهم ... أما أن تفرط الحكومة فى حق الوطن، وأما أن توضع العقبات فى سبيل قضيته ، ثم يطلب الى

الناس بعد ذلك أن يدعوا الحكومة وشـــأنها فهذا هو الباطل فى أرذل صوره واشدها فجورا ، ومن أطاع ذلك من الناس فقد ضل فى حق بلاده ضلالا بعيدا ...

لن يكون لقيام الحكومات من مبرر الا العمـــل لخير المحكومين وصلاح أمرهم ، على هـــذا الاساس ولدت الديمقراطية ، وبهذا المبدا اقترنت الحرية ، ولكم نادى بذلك القادة ودعاة الانسانية فى الغرب منذ هدموا صروح الظلم وحطموا أغلال الماضى وفصموا سلاسل الرجعية والعبودية ...

***

وما لنا نستشهد بالغرب وهـــذه الحكومة الاسلامية الاولى التى ولدت فى الصحراء قد جعلت تلك المبادىء اساس قيامها ، وما أروع وأجمل أن يقول الخليفة الاول للناس : « أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فأعينونى وان صدفت فقومونى» وأن يقول لهم الخليفة الثانى : «من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه» فيرد عليه اعرابى من أوزاع الناس بقوله : « لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » وأبلغ وأروع من قول ابى بكر وعمر قول الرسول الكريم : « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه اوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

قبل عرابى أن يدع الحكومة وشأنها على أن تجرى الامور وفق ما أقرته الثورة من مبادىء ، فكيف لعمر الحق كان يستطيع أن يحمل على السكوت نفسه وقد رأى من الدسائس الاثيمة التى كانت تحاك حول تلك الحرية الوليدة ما اغضب أكثر النـــاس اعتدالا وأقلهم علاقة بالسياسة وشؤونها ؟..

اذن فالفرق كبير بين أن يتدخل عرابى فى شـــؤون

الحكومة وبين أن يغضب لما حل بقضية وطنه ، وفى هذا الغضب دليل وطنيته ووطنية كل غاضب معه ...

لقد كان من أصعب الامور على هذا الرجل أن يدع هذه القضية وشأنها ، بل لقد كان ذلك عليه مستحيلا وانى لارجو من الذين خاصموا هذا الرجل فى غير حق والذين خاصموه مضللين أن يستمعوا الى هـذا الراى الذى أسوقه عنه الا وهو أن الحرية كانت من طبعه ، فطر عليها ولم يتكلفها يوما أو توجهه اليها الحوادث وهو يجهل كنههـا ، كما يقول الذين يريدون الا يدعوا له محمدة الا جعلوها بالباطل مذمة ...

***

كانت الحرية من طبع ذلك الجاويش الذى نقم على الشراكسة فى الجيش استبدادهم فأكثر من الشغب عليهم وكانت الحرية هى التى دفعت هذا الرجل الى أن يقف موقفه المشهود فى ساحة عابدين عصر اليوم التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ولسوف تكون الحرية هى حافزه الى ما يشب بعد المذكرة المشؤومة من وثبات

ولقد استوثق بلنت من ذلك كما أسلفنا حينما اتصلت أسباب المودة بينه وبين عرابى ، وبين كيف ازداد عرابى محبة له اذ علم بالصلة بين أسرته وأسرة اللورد بيرون.

وكيف يمجد هذا الفلاح اللورد بيرون نصير الحرية الا أن يكون هذا تجاوبا بين نفس حرة وأختها ؟ ولقد كان بيرون يدافع عن اليونانيين لا عن المصريين ، فلم يكن حب عرابى اياه اذن مشوبا بعاطفة غير عاطفة حب الحرية أينما كانت وكيفما كانت جنسية الداعين اليها وكيفما كان دينهم ...

ولنعد الى خطبته التى ألقاها فى محطة مصر ، لقد أفصح فيها وهو يرتجلها عن كثير مما كانت تنطوى عليه

نفسه . والخطيب فى مثل ذلك الموقف الحماسى ينسى نفسه فلا يملك التكلف والتصنع ، بل لقـــد يكشف الخطيب عما يريد أن يغطيه اذا نسي نفسه فى رهبة الموقف وحماسته دون أن يملك لذلك دفعـا . قال عرابى : « البــلاد محتاجة الينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضـــاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخاص منه »... وقال : « وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة » .

***

وقد مر بنا رأى بلنت عن حبه للحرية ، ونورد هنا راى جون نينيـــه (١) وهو رجل سويسرى حر عاشره وعرفه معرفة خبرة ووثوق كما عرفه بلنت ، قال : «كان أحمد عرابى رجلا مستقيما وخادما لوطنه ، وشغوفا بالحرية ومؤمنا بالحق، وخطيبا فصيحا ، وكانت شهرته تبلغ شأو غاريبلدى » .

وانا لنرى فى هذه الادلة على حبه للحرية من القوة ما لا تجدى معه مكابرة ، وعلى ذلك نتساءل : ألم يأن للناس أن ينصفوا هذا الرجل وقد قضى عليه أعداؤه ، ثم قضوا بعد ذلك على تاريخه الحق ؟

اننا بلد لا يعد غنيا الغنى المنشود فى الرجال ، وهذه حقيقة نثبتها والالم يرمض جوانحنا ، فكيف نرضى مع ذلك أن نشايع أعداءنا فلا نثبت فى سجل رجالنا هــذا الرجل الذى يحق لنا أن نفخر به ؟

ألم يأن لابناء هذا الوطن أن ينظروا وهم بصدد قضية استقلاله الى هذا الرجل نظرتهم الى زعيم جاهــد فى

---

(١) العبارة من ترجمة الاستاذ محمد لطفى جمعة

الوطن حق جهاده ، وأن يكفوا عن تلك النظرة الظالمة التى تصوره رئيس عصابة من الاوزاع والهمج لايسيرون على نهج ولا يبتغون من وراء سيرهم غاية !

الم يأن لابناء هذا الوطن أن يفطنوا الى أن الاحتلال هو الذى صور عرابيا هذه الصورة المنكرة ليبرر بذلك وجوده ؟ وانهم بمجاراتهم الاحتلال وصنائعه الى يومنا هذا فيما ادعى انما يثبتون على أنفسهم الغفلة ويسيئون الى رجل ما فكر يوما فى الاساءة الى وطنه ؟ رجل ان كثرت أخطاؤه فقد حسنت نياته ، وأن فاته النجاح فقد عظم فى سبيل النجاح بلاؤه ، فى حين قد قل فى المحنة نصراؤه ، وتعدد غداة الروع أعداؤه ...

***

لا جناح على عرابى أن يعود الى ميــدان النضال فى سبيل المبادىء التى اعتنقها المصريون ووطدوا العزم على تحقيقها ، بل ان ذلك لا غيره ما كان ينتظر منه ، وما كان ليقبل منه قعود ، ولو أنه وقف فى جهاده عند وثبته الجريئة يوم عابدين لحق عليه ما نسبه اليه خصومه من النزق والسير على غير هدى ...

ومن أعجب ما يسمعه المرء من أقوال هؤلاء الخصوم قولهم : لقد أجيبت مطالب الجند على نحو ماكان عرابى نفسه يحب فما عودته الى التدخل فيما ليس من شأنه ؟ وأى غفلة أشد من هذه الغفلة ؟ واذا كان مثــل هؤلاء يجهلون حقيقة الثورة العرابية هذا الجهل المعيب فكيف السبيل الى اقناعهم ؟

وها هم أولاء الوطنيون يسقطون شريفا ويتمسكون بحق مجلس الشورى بالنظر فى الميزانية وقد رأوا من أعداء البــلاد غدرهم الاثيم فهل نرمى هؤلاء بالفوضى والشطط ؟ واذا كنا نسمى عملهم تحمسا وغيرة وطنية

فلم نستكثر ذلك على عرابى وقد غضب كما غضبوا وتحمس كما تحمسوا ؟

سيعود عرابى الى الجهاد فيقف فى وجه الدولتين الطامعتين ، وسيسير زعيم الثورة على رأس جيش من ابناء هذا الوادى ليذود عنه فى بسالة جريئة وحفاظ مر وفق ما توجبه الوطنية والرجولة ، وهذا لعمر الحق ما كان يطلب منه فى مثل هاتيك الظروف ، أما الفوز فأمر قد يخرج عن تصريفه ، وسبيله اليه محدود بحدود طبيعته ومقدرته ، ولقد يتوفر للقائد من أسباب الفوز ما يكاد معه يعتقد أنه قبل وقوعه حقيقة لا سبيل الى الريبة فيها ، ثم ينظر فاذا تلك الحقيقة خيال أو دون الخيال ، ولئن اخطأ قائد أبلى مثلما أبلى عرابى فلن تحمل أخطاؤه على معنى آخر كما حملت أخطاء عرابى ظلما وعدوانا على معانى الخيانة والمطامع الشخصية ..

حسب عرابى أن يجاهد وأن يقاتل وأن يثبت للدنيا أن فى مصر من يذود عنها وعن الحق بالسيف، ...

عرابى الوزير

اختير عرابى وزيرا للجهادية فى وزارة البارودى ، وجلس هذا الفلاح على الكرسى الذى كان يجلس عليه بالامس القريب رفقى الشركسى ، وكان صيت عرابى فى البلاد قد بلغ غايته ، وكان بيته كما أشرنا وكما ذكر بلنت مفزع المظلومين ومتجه المعجبين المؤمنين بحرية هذا الوطن ...

وكانت سياسة جمبتا قد صبغت بالصبغة الدينية عند المصريين ، وقر فى أذهان الناس أنه كان مدفوعا فى سياسته بكراهيته للمسلمين ، وخوفه أن ينهضوا وتقوى بينهم أواصر الاخاء فيكونوا بذلك حائلا بين فرنسا وبين أطماعها فى الشرق ، ويفسر بلنت نفسه مسلك جمبتا هذا التفسير ، ويقول أن من نتائج المذكرة أن بات الناس يتجهون نحو السلطان كمنقذ لهم ، وأصبحوا ينظرون الى عرابى أنه عضد السلطان فى مصر والحصن الذى تحتمى فيه الآمال بعد أن يئسوا كل اليأس من توفيق ...

ويظهر أن عرابيا كان يميل من زمن الى أن يجعل من خطته الاعتماد على السلطان ، ولعل بلنت فهم ذلك من أحاديثه معه ، نجد اشارة الى ذلك فى قول بلنت عن أثر المذكرة المشتركة « وجد المصريون أنفسهم لاول مرة

مرتبطين كل الارتباط فان الشيخ محمد عبده ومن معه من المعتدلين من أنصار الاصلاح الازهريين ألقوا بأنفسهم فى زمرة الحزب الذى سبقهم بخطوات ، وشعر الناس جميعا حتى الشراكسة شعور الاشمئزاز من التدخل الاجنبى ، ومن ناحية أخرى فان أشد الناس نفورا من الاتراك من عنصر القوميين ومنهم صديقى الازهرى الشيخ الهجرسى ، أصبحوا يرون أن عرابيا كان على حق فى اعتماده سرا على السلطان ... وبهذا كسب عرابى كسبا عظيما فى ذهاب الصيت والتوقير، ولم أسمع لعدة أيام بعد ذلك من أصدقائى المصريين الا الكلام عن الجامعة الاسلامية » .

وانعم على عرابى برتبة الباشوية ، وهو يقول انه قبلها هذه المرة كارها ، فلولا أن المنصب كان يقتضى قبولها ما قبلها ، وأما عن قبوله المنصب ، فما نظن أنه كان يستطيع أن يبقى بمعزل عن الوزارة وقد صار له فى سياسة البلاد هذا الشأن بعد حادث عابدين ، وانا لنعجب أشد العجب للذين يعيرون رجلا لقبوله منصبا من المناصب ، ويتخذون ذلك القبول دليلا على انه يبتغى الخير لنفسه فحسب ، فهل كانت المناصب عند الناس جميعا وسيلة الى اشباع المطامع وجلب المنافع ؟ وأى شىء يجعل هذا لازمة حتمية للمنصب ؟ وأى شىء يمنع من أن تكون المناصب عند بعض الناس وسيلة لتحقيق غاية جليلة شريفة هى العمل للصالح العام ؟ وأى قرينة تمنع أن نسلك عرابيا فى سلك هؤلاء الداعين الى الخير العام ، الذين يتخذون من المنصب أداة لخدمة المجتمع؟ ان أبسط قواعد العدالة تضع المتهم على قدم المساواة مع البرىء حتى تثبت ادانته ، فأية ادانة يلصقها بعرابى أولئك الذين عابوا عليه دخول الوزارة ؟

انهم اذ يتهمونه بالسعى لصالحه هو لا يعدون بذلك حد التهمة ، فله على أسوأ الفروض موضع البرىء من العدالة حتى تثبت ادانته ، وما أيسر أن تكال التهم لاى فرد من الناس فى غير حساب ، وما أصعب البينة على الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ...

ان الذين يرون فى الحكم مغنما لهم ، انما هم أولئك المفرطون فى حقوق أوطانهم الموالون للدخلاء فيها ، والمستضعفون من الرجال ، والذين فى قلوبهم مرض ، والمغترون بأوهام الحياة والمالئون بطونهم كما تأكل الانعام ، أما أولو النخوة والعزة من الرجال فلن تلهيهم عن دوافع أنفسهم الحياة الدنيا وزينتها ، ولن تطفىء الحمية فى قلوبهم مايحلى به الاغرار صدورهم من أوسمة ، أو تزدهى نفوسهم الكبيرة الالقاب والرتب ، أو يزيغ بريق الذهب أبصارهم عن الحق ، لان هذه جميعا عندهم مظاهر وهم يحتقرون كل مظهر اذ يطلبون الجوهر . ومن كان فى هذه الدنيا كبيرا بنفسه فما به حاجة الى أن يتكبر ، ومن تكبر وهو بنفسه صغير ، فلم يعد أن أضاف الى حقارة نفسه ما هو أحقر .

ولو كان عرابى من ذوى الاطماع الشخصية لرأيناه يتنكب طريق الجهاد ، ولرأينا الضعف يتسرب الى نفسه فتفتر حميته وتبوخ وطنيته . وما ضعف عرابى وما استكان حتى منى بما منى به من محنة يوم التل الكبير لا بأيدى الآثمين الطامعين من الاجانب فحسب بل بأيدى الخوانين المارقين من بنى الوطن ، وظل حتى هزيمته الرجل الذى يخشى جانبه وتتقى غضبته ، ولقد رأينا كيف أرسل اليه مالت يحاول أن يهدىء خاطره عقب المذكرة المشتركة ، ولو أنه كان ممن يشترون بالمال لامكن شراؤه كما اشترى بعد ذلك سلطان مثلا الذى

كان يتظاهر بأنه من أكبر أنصار الحركة القومية ، ولكن عرابيا كان مؤمنا بجهاده مخلصا لقضيتــه فارتضى أن يخوض غمار الموت وأن ينفى بعد ذلك من الوطن وأن يسلب جميع ما ملك .

ورفض عرابى أن يكون وليا لذوى الغايات والاطماع، جاء فى مذكراته عن نوبار باشا قوله : « أرســل الينا أحمــد قبودان البكرى من موظفى بوغاز الاسكندرية ليشكرنا على انقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدين ويعرض علينا أنه مستعد لان يقود حركتنا الوطنيــة بصائب رأيه اذا دعوناه الى رئاســة الحكومة واعتمدنا عليه وسلمنا أمورنا اليه ، فعجبنا لذلك ، وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون مصر للمصريين ، وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الاكرام . وانا لا نجهــل الادوار التى لعبها نوبار باشا فى مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية ، وفى مسألة تشكيل المجالس المختلطة فى مصر، تلك المجالس التى صرف عليها ١٢ مليونا من الجنيهات من أموال المصريين المساكين على يده وبســعيه ، وكان هو أكبر مساعد للمستبدين وله الحظ الاوفر من تلك الغنائم » .

ويذكر كذلك عن البارودى أمرا خطيرا قال : « وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى ناظر الجهادية فأطنب فى الثناء على لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى قيود الاستبداد والاستعباد ، ثم أقسم انه مستعد لان يضحى حيــاته ويجود بآخر نقطة من دمه فى تنفيــذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديويا لمصر اذا رغبت فى ذلك ، فقلت له : مه يامحمود باشا فانى لاأريد الا تحرير بلادى

ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا ، وليس لي مطمع أصلا فى الاستئثار بالمنافع الشخصية ، ولا أريد انتقال الاريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما فى ذلك من الضرر » .

ولقـــد كان عرابى كبير النفس كبير الآمال ، فكان المنصب عنده وسيلة من وسائل الجهـــاد ، وبابا من ابوابه ، فما يعيبه أن يقبل الحكم ، وانما يعيبه أن يعرض عن الحكم وبخاصة فى مثل تلك الشدة التى ساق فيها الطامعون البلاد على غير ارادتها ، والذى يعـــد قبول الحكم فيها تأهبا للذود عن ثورة الحق على الباطل ...

***

على أن الناس ما كانوا ينظرون الى عرابى نظرتهم الى وزير من الوزراء فحسب ، بل لقد كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى الرجل الذى تعلق عليه الآمال فيما كانت البلاد مقبلة عليه ، وكانت تقوم نظرتهم اليه على ما بلوا بانفسهم من اخلاصه ، وما شهدوا من بسالته وحميته وبخاصة فى يوم عابدين المشهود ، وعلى ذلك فما زاده المنصب فى أعين الناس ما يطلبه غيره ليزداد به من مظاهر الجاه ، واى شرف يطمع فيه الرجل أعظم من أن يكون فى بنى قومه معقد الرجاء وموضع الثقة .. ؟

ولقد كان عرابى فى الوزارة اذا أردنا الحق أكثر من وزير ، فكانت الكلمة كلمته وكان الرأى رأيه أراد ذلك أو لم يرده ، ونقول أراده أو لم يرده لانه بات فى الزعماء رجلا ليس لاحدهم مثل ما له فى قلوب الناس من مكانة وسحر ... وهل كان سعد فى كرسى الرئاسة كغيره من رؤساء الوزارات ، ليس لشخصـــه من تأثير فى قلوب الناس الا ما تبعثه هيبة المنصب ورهبته ؟ أم كان سعد فى الناس رجلا غير ما ألفوا ، تحف به هالة من أمجاده

فتخلق له شخصية وسطا بين الملائكة والنـاس ؟ وهل ازداد سعد بالمنصب شيئا فى أعين الناس أم أن المنصب هو الذى ازداد به علوا ومهابة ؟

على هذا القياس صور لنفسك شخصية عرابى بين قومه يومئذ فلقد صار له من المكانة بعد يوم عابدين مثل ماصار لسعد من بعد فى قومه ، فهو الرجل الذى تتمثل فى شخصه ثورة أمة ويجتمع فيه تاريخ حركة ، لذلك فهو بين الناس أكبر من أن يكون أحدهم ، تحيط به هالة من السحر تلقى فى روع محدثه أنه تلقاء تاريخ يحدث اثره لا تلقاء رجل يعيش كما يعيش الناس ...

***

أما الفلاحون وأعيان البلاد ممن كانت تقاس أقدار الرجال عندهم بالالقاب والمناصب ، فقد كبر عرابى فى أعينهم وازداد قدرا فى أنفسهم ، وأصبح هـذا الفلاح الباشا الذى يجلس على كرسى وزارة الجهادية موضع أحاديثهم كلما تذاكروا فيما بينهم أحداث البـلاد فى ذلك الوقت .

ولست أريد بقولى ان الرأى كان رأيه أنه كان يستبد بالامر ، أو كان يأخذ السبيل على البارودى فيما يريد من قول أو عمل ، وانما أريد أن البارودى وغيره من الزعماء ما كانوا يخطون خطوة الا على بينـة مما يكون فيها مما عسى أن يرضى عرابيا أو يغضبه لانه بينهم ، وان لم تكن له الرئاسة الرسمية ، الزعيم الذى تشايعه البلاد ، والذى استقر فى أذهان أهلها وقلوبهم أنه موضع الامل ومناط الرجاء ...

وقد بدأ عرابى باشا عمله فى الوزارة بارسال مكتوب الى جميع وحدات الجيش يعلن اليهم نبأ تعيينه فقال : « حيث أن مسند نظارتى الجهادية والبحرية الجليلتين

قد أحيل الى عهدتنا من طرف الجناب الخديو المعظم ، بارادة سنية موشحة بتاريخ ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ نمرة ١١ فاعتمادى ووثوفى بمســاعدة حضرتكم وعموم حضرات الضباط والصف الضباط والعساكر فى القيام بواجبات هذه النظارة مع الاستمرار فى سيرها على المحور اللائق ، الموافق لنــص أحكام القوانين العسكرية ، قد جرانى على قبول هذا المسند الجليل حالة كونى عالما بما أنتم عليه من وثوق حضرة الجناب الخديوى بنا ، ولهذا لزم تحريره لحضرتكم اخطارا بما ذكر واعلان كافة الضباط والصف وعساكر الآلاى ادارة حضرتكم وفقنا الله جميعا لما فيه النجاح والاصلاح » ...

***

وأخذ عرابى يقوم بتنفيذ القوانين الخاصة باصلاحات العسكرية التى كان يطالب بها رياضا وشريفا من قبل ، وتناول بالترقية كثيرا من المصريين فى الجيش وقد حظى بالباشوية كل من على فهمى وعبد العال حلمى وطلبه عصمت وعلى الروبى وحسن مظهر ويعقوب سامى ...

وقد تألم العنصر الشركسى لهذه الترقيات ، وعدها زعماء الشراكسة صورة من صور الفوضى والتعصب فى الوزارة ، كأن النظام كل النظام أن يرقى الشراكسة ، وأما أن يرقى المصريون الفــلاحون فذلك هو التعصب المذموم وهو الفوضى الجامحة .

ولن يقتصر هؤلاء الشراكسة على الصخب والعيب ، بل سوف يعملون على الانتقـــام ، كأنما كان المصريون يسلبونهم حقا من حقوقهم ، ونسى هؤلاء أو تناسوا ما كان يفعل رفقى من قبل ...

واتجه عرابى الى اصــلاح شأن وزارته فبث فيهــا النشاط والجدة . قال روثستين : «وقد جد عرابى بنوع

خاص فى اصـــلاح نظارته التى كانت فى منتهى الفوضى والخراب ، وذلك ليســـتعد للطوارىء كلها فأظهــر همة فائقة فى اصلاح حصون السواحل ، ونظم احتيــاطى المدفعية ووزعه على تلك الحصون » .

***

وأحسن عرابى فى منصبه الجديد الظهور بمظهر الوزير فى غير صلف أو ادعاء . وصفه بلنت حين زاره بعد أزمة المذكرة يحمل اليه نبأ وساطته لدى جلادستون قال : « قفلت راجعا الى القاهرة فى سرور وقد تسلحت بما علمتــه من حسن نية جلادستون واستطعت أن أخبر عرابيا أننى لم أؤكد له عواطفى نحوه عبثا ، وقد وجدته فى ديوان وزارة الحربية يحيط به أصــدقاؤه ، وكان يتحدث مع بطريرك الاقباط ، ومع طائفة من أهل الملق من الاوربيين وأجناس شرقى البحر الابيض المتوســط ممن جاءوا يحيون هذه الشمس المشرقة ، وقد ظهر فيهم الوزير الجديد فى حســـن سمت وسمو كانا به لائقين ، فلم يلبث بعد ذلك الجندى قائد الفرقة ، ولكنه اضحى رجلا تمتلىء مشاعره بالمسؤولية العامة ، وكان لايزال بعد فلاحا ولا يزال وطنيا ولكن فى صورة الرجل السياسى ، وقد انتحى بى جانبا فأطلعتــــه على كتاب جلادستون وقلبناه بيننا فى سرور وعددناه رسالة ذات فال طيب » ...

وطنية لا نزق

حل البارودى محل شريف وفى البلاد ما فيها من أثر تلك المذكرة التى جاءت فى تلك الظروف التى بينا دليلا على سوء تدبير واضعيها وعلى قصر نظرهم ورعونتهم ، ولكن ما لنا نشير الى قصر نظر الدولتين فيما فعلتبا ونحن لايتداخلنا شك في أنهما كانتا تريان‌عاقبة فعلهما ، وانهما انما أرادتا اثارة الخواطر وزيادة أسباب الخلاف بين الخديو وزعماء البلاد المدنيين منهم والعسكريين ، فبهذا يتيسر لهما الوصول الى الغرض المرسوم ...

وكان طبيعيا أن يسير البارودى على نهج غير الذى سار عليه شريف ، فهو بحكم مركزه بين الزعماء العسكريين ، وبحكم الظروف التى أدت الى استقالة شريف ، لم يكن لبستطيع أن يحمل نفسه على الهوادة والملاينة ، والا ففيم كان احراج شريف ثم اخراجه من الحكم ؟.. والامر قبل كل شىء أمر كرامه الوطن تلقاء تحدى الاجانب وتحرشهم السخيف الآثم بحريته ...

ومن ذلك يتبين لنا أن البارودى لم يكن له منتدح عن السياسة التى جرى عليها ، وأن مردها ى الحق الى مسلك الدولتين وعلى ذلك فمن الظلم أن نرجع باللوم كله على تلك الوزارة فيما أبدت من تطرف ، فان جانبا كبيرا من اللوم ، بل لعل اللوم كله يقع على الذين دفعوا

الوزارة بقبح تدبيرهم وسوء نيتهم فى تلك الطريق التى ما لبثت أن رأت نفسها فيه تخرج من أزمة لتدخل فى أزمة غيرها ...

وهكذا تدفع الدولتان البلاد فى طريق الثورة دفعا ثم تتهمانها مع ذلك بالفوضى وتجعلان من مبررات تدخلهما القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وانها لمن صنعهما.. ولن يكون فى صور الظلم أبلغ وأوجع من أن يضرب مضعوف فوق رأسه فاذا تأوه ونفر من ألم الضرب عد تأوهه جموحا ونفوره ثورة !..

كان على وزارة البارودى من بادىء الامر أن تواجه أزمة الميزانية ، وقد نجمت هذه الازمة كما رأينا من تجنى الدولتين على البلاد ومن غضب نواب الشعب لكرامة بلادهم واستمساكهم بحقهم تلقاء باطل أعدائهم ، وكان من الطبيعى أن تعمل وزارة البارودى ، أحد الزعماء العسكريين ، والتى كان عرابى نفسه أحد وزرائها ، على تحقيق آمال البلاد ، بل لقد كان أمرا حتميا على هذه الوزارة أن تفعل ما كانت مقدمة على فعله ، فعلى هذا الاساس كان قيامها بالحكم ...

وما أسخف كلام المطلين وأرذله تلقاء هذه الحقيقة التى تنهض الحوادث دليلا عليها ! أجل ما أرذل أن ترمى وزارة البارودى بالنزق والعناد والرغبة فى اثارة الفتنة ، كالذى يأخذ على شخص طريقه فى غير مبرر فاذا طلب اليه أن يخلى سبيله انتهره وتوعده ، فاذا خطا خطوة ليتقدم رماه بالشطط والجنون وخوفه عاقبة أمره !..

لقد قامت وزارة البارودى على ارادة الامة ، لامراء فى ذلك ، فان النواب حينما أظهروا لشريف أشفهم أن يكون المجيب لمطالبهم رجلا غيره ، وحينما ذهبوا الى الخديو يشكون اليه حالهم كانوا معبرين فى ذلك عن

مشيئة الامة ، وآية ذلك أن الخديو لما سألهم بأى حق يطلبون اقالة شريف قالوا : هذه ارادة الامة .

ولم يسع الخديو الا أن يذعن ، ولكن على طريقته فى الاذعان ريثما تسنح الفرصة ، فدعا شريفا والقنصلين الاجنبيين وعرض عليهما الامر ، فلم يكن أمام شريف غير الاستقالة ، ثم ان الخديو سأل زعماء النواب عمن يرضون لرئاسة الوزارة ، فبعد أن بينوا له ان ذلك من حقه اختاروا البارودى واشترطوا أن يكون قيام وزارته على أساس اجابة مطالب النواب (١) .

ولقد أضاف الخديو الى أخطائه خطأ جديدا بقبوله هذا الوضع ، فمن حقه وحده اختيار رئيس وزرائه ولكنه خطا حتى هذه الخطوة باشارة القنصلين ، فلقد أوهماه ان فى هذا خيرا له ، فبه يخلو من التبعة ويلقيها على عاتق النواب والزعماء .. ولكنهما كانا فى الواقع يريدان أن يوسعا مسافة الخلاف بين الخديو ونواب البلاد ، ومن السهل عليهما أن يوحيا اليه على لسان أعوانهما بعد ذلك أنه أصبح وليس له من الامر شيء .

على أن مالت وكلفن وأشياعهما ما لبثوا أن راحوا يذيعون المفتريات فى مصر وفى أوربا عن الوزارة ويرمونها بكل أباطيل الاتهام ، فهى وزارة عسكرية لاتعرف سياسة أو تنظر فى عاقبة أمر من الامور ، وانما قوام أعمالها العنف والثورة ، وهى وزارة لا تحسب لاى سلطة غيرها حسابا فليس للخديو وجود فعلى بازائها ، وليس للأجانب على ما لهم من ديون فى مصر حق أو شبه حق الى غير ذلك من اللغو والافك ...

أما عن عرابى فقد خرج بأوفر نصيب من التهم

---

(١) مقدمة كتاب « التاريخ السرى » ترجمة البلاغ ، والمقدمة بقلم الاستاذ عبد القادر حمزة .

الباطلة ، ومن هذه التهم مانسبته اليه جريدة التيمس من أنه تهدد شريفا ، وأنه شهر سيفه فى وجه سلطان وهدده بتيتيم أطفاله فى صدد الخلاف على مسألة لائحة المجلس ، ولقد كان مالت من مروجي هذه الاشاعة ومن المتمسكين بها ، بل لقد ذهب مالت الى أكثر من هذا فأثبت فى يومياته كذلك أن الخديو ما قبل استقالة شريف الا تحت تأثير تهديد لا يقل عن هذا ...

ويذكر بلنت أنه يرجح إن الخديو هو مصدر هذه الفرية لما كان يبدو منه يومئذ من بالغ الحقد على الوزارة ، وقد أصبح لهذه الفرية خطرها حين أرسل مراسل روتر الى أوربا يزعم ضغط العسكريين على شريف

قال بلنت : « ومع ما يبدو من سخف هذه القصة فقد غضب منها سلطان غضبا شديدا ، ولما كنت يومئذ معروفا لدى النواب بانى صديقهم طلب الى سلطان لقاءه وسألنى أن أحمل الى مالت انكاره القصة كلها انكارا تاما ، وعلى ذلك توجهت الى بيت سلطان باشا حيث جمع عددا كبيرا من النواب ومن علية القوم ومن بين هؤلاء المفتى الاكبر العباسى وعبد السلام المويلحى بك وأحمد السيوفى بك وأحمد محمود أفندى وهمام حمادى أفندى وشديد بطرس أحد كبار نواب الاقباط وقد انكر هؤلاء جميعا مع سلطان أنهم عملوا تحت أى اكراه ، وتكلم سلطان فى غضب عن سخف القصة فيما يتصل به قائلا : ان أحمد عرابى بمثابة ابن لى ، وهو يعرف ما هو من حقى وما هو من حقه ، فمكانى فى البرلمان ومكانه فى وزارة الحربية وجدير به أن يطلب نصحى لا أن يجرؤ على أن ينصحنى فيما يعنينى من الامور ، وأما عن شهره السيف فى حضورى فانه لا يفعل ذلك الا تلقاء عدو يهاجمنى ، وهذه قصص لايصدقها من يعرفنا كلينا

وانها لباطلة كل البطلان وتستطيع أن تأخذ على اليقين أن أقل عضو هنا ممن يمثلون الشعب أحسن حكما على مطالبه من أكبر جندى . اننا نحترم عرابيا لاننا نعرفه وطنيا ورجلا ذا فطنة سياسية لا لانه جندى .

وقد أثبت كلمات سلطان باشا هذه فى حينها ، وقد اشتكى الى هذا الشيخ من سياسة مالت وتعضيده مخترعى الاباطيل وطلب منى أن أطلعه على الحقائق وأن أبرقها الى جلادستون وأذيعها فى الصحف الاوربية وقد فعلت ذلك على خير ما يدخل فى وسعى ، فأرسلت نصا كاملا منها الى « التيمس » ومع ذلك فانها على ما أذكر لم تنشره لسبب ما ، وكذلك أرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه الى مستر جلادستون ، ثم كتبت اليه كتابا مطولا أشرح فيه الموقف كله .

وذهبت من فورى الى مالت وناقشته فى شدة ولكنه أصر على صدق قصته التى استقاها كما أخبرنى أول الامر من سلطان نفسه والتى عاد يقول انه استمدها ممن يمكن الاعتماد عليه ، ولما الححت عليه أن أعرف من هو المصدر غضب وقال انه ليس لى من حق أن أستجوبه على هذه الصورة » .

هذا هو كلام بلنت عن هـذه الفرية ، وما أجمل ما وصف به سلطان عرابيا فهو لايحترمه لانه جندى ولكنه يوقره لوطنيته ولمقدرته السياسية ، ومثل هذا الكلام لا يصدر عن مثل سلطان عن خوف أو تملق ، فقد كان أكبر من أن يخاف أو يتملق ، وهو بطبعه شديد الكبر كثير المباهاة بجاهه والاعتزاز بثروته بل ان صدور هذا الكلام عن رجل هذه صفاته انما يزيد فى قيمته ويجعل منه وثيقة خطيرة ندعو الذين يجهلون حقيقة عرابى الى قراءتها فى روية وحسن طوية ...

ويذكر بلنت أن التيمس لم تنشر تكذيبه لسبب ما ، والامر واضح لايحتاج الى طويل شرح ، فالتيمس وأمثالها من الصحف الانجليزية تخدم قضية الاستعمار أبدا ، وهى خير من يدرك نيات الساسة فى بلدها وأول من يطلع على حقائق الامور ، فلم تكن تجهل يومئذ ماكانت تبيته انجلترا لقضية الاحرار فى مصر ، بل وما كانت تنتويه السياسة الانجليزية العليا من الاستيلاء على مصر قبل أن تستولى عليها ، ولذلك فما كانت لتنشر رأيا مثل هذا الرأى يأتى على لسان رجل مثل بلنت فيكون به من الانجليز شاهدا من أنفسهم عليهم ...

***

فى مثل هــذا الجو الذى كدرته دسائس الماكرين والطامعين ، راحت وزارة البارودى تعالج ماكانت تشكو منه البلاد ، ومن ورائها نواب الامة يشدون أزرها وانهم ليعلمون ما كان يحيط بوطنهم من الكيد والاعنات .

وأحس البارودى من أول الامر بتزايد الجفاء بينه وبين الخديو ، فما كان ليسيغ توفيق أن يصبح الامر بينه وبين الوزارة قائما على غير ما ألف من مبادىء السيطرة ونوازع الاستبداد ، ولكن الوزارة استعاضت عن معونة الخديو بمؤازرة البلاد ...

وكان أول ما واجهته الوزارة تلك المشكلة التى خلقها الكائدون وهى مسألة الميزانية ، أو بعبارة أخرى لائحة المجلس التى استقال بسببها شريف أو أجبر فى الحق على الاستقالة ...

ويجمل بنا أن نأتى بالحديث على سرده فى هذه المسألة لنتبين الى اى مدى كان افتيات الدولتين على البلاد ، وليرى الذين رموا حركتها الوطنية ورجلها بمختلف التهم مبلغ ما فى مزاعمهم من جهل أو عدوان ...

جاء فى خطاب شريف باشا الذى تقدم به الى المجلس بعد انعقاده قوله : « فانه لم يحجر عليكم فى شىء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم ، انما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ، ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح ، وتعهـدها بالتزامات ليست خافية عليكم ، بعضها بعقود خصوصيـة ، والبعض بقـانون التصفية ، فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينـا قبل كل شىء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشىء ما ، حتى نصلح خللنا ، وتزداد ثقة العموم بنا ، ونكتسب أمنية الحكومات الاجنبية ، ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مسـاعدتها فنتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه ! »

بهذه الكلمة مهد شريف لخطته فيما يتعلق بلائحة المجلس ، أو ما نسميه دستوره وبخاصة فيما يتصل بالميزانية ثم جاءت اللائحة تحرم على المجلس النظر فى الميزانية ...

ولقد كان المجلس يطمع فى أن ينظر فى الميزانية ما دام هو القيم على حقوق البلاد ولكن الحكمة قضت عليه أن يتواضع فيقبل كما أسلفنا النظر فى نحو نصف الميزانية وهو القدر الباقى بعـد الجزية وما يقتضـيه قانون التصفية ، ففعل ذلك ولكنه لم يفد وا أسفاه من حكمته شيئا ، فقد كبر على الدولتين أن ينظر المجلس حتى فى هذا القدر فرمتاه بالمذكرة المشئومة التى كان من نتائجها ما رأينا من تطرف المعتدلين وثورة المتطرفين والتقاؤهما جميعا ، وتمسكهم بالنظر فى الميزانيـة مهما يكن من

العواقب ، الامر الذى أطاح بوزارة شريف وأحل محلها وزارة البارودى ...

وجاءت وزارة البـــارودي فلم يكن أمامها الا طريق واحد ، هو السير وفق رغبة النواب والرأى الوطنىالعام فىالبلاد ، فخطتهذه الخطوة معتمدة علىحقها مستندة الى مؤازرة الامة اياها ، فكان ما قررته فىمسألة الميزانية ما يأتى : « لايجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بنـــاء على لائحة التصفيـــة أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية»

« وترســل الميزانيــة الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها ، بمراعاة البند السابق ، ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه ، لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية »

ووافق المجلس على اللائحة الجديدة التى تقدمت بها اليه وزارة البارودى ، وكان هــذا الرأى الاخير أعنى تكوين لجنة من أعضاء المجلس مساوية فى العدد لاعضاء مجلس النظار قد عرض كحل من الحلول على وزارة شريف ، فأبت الدولتان قبوله ، فلمـا قضت وزارة البارودى فى الامر حسب مشيئة النواب ، ثارت ثائرة الدولتين اللتين جاءتا لنشر روح المدنيــة والحرية فى الشرق ...

ولقد جعلت الوزارة الامر للأمة فيما اذا وقع خلاف بين المجلس والوزارة ، فنص فى دســتور المجلس أو لائحته الاساسية ما يأتى : « اذا حدث خلاف بينمجلس النواب ومجلس النظار ، وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة

الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ألا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع ، ويجوز لارباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم »

« واذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا »

وقد فرح النواب ، وفرح الناس جميعا من وطنيين وعسكريين لصدور اللائحة أو الدستور ، وأخذت مصر تستقبل عهـــدا دســـتوريا كان يعد بداية طيبة جدا للديمقراطية فى مصر ، بل وفى الشرق كله ...

ويتجلى فرح مصر فى تلك الحفلات التى أقيمت غداة صدور الدستور ، ومنها حفلة جمعية المقاصد الخيرية وكانت بالغة الروعة والجلال وقد شهدها البارودى ، وعرابى ، وجمهور كبير من العلماء والاعيان ، ورجال الجيش ، وتبارى الخطباء وفى مقدمتهم السيد عبد الله نديم فى بيان مزايا الدستور واعلان ابتهاج النفوس به ، والشيخ محمد عبده الذى دعا الى نشر التعليم ليقوم الدستور على أساس سليم قوى .

ومن تلك الحفلات حفلتا نائبى البحيرة الشيخ أحمد محمود وابراهيم أفندى الوكيل ثم حفلة أحمد بك أباظة وحفلة أحمد بك يكن وغيرهم ، وتدل هذه الحفلات دلالة بينـــة على أن روح الحرية والدستور كانت متغلغلة فى نفوس مثقفى الامة ، وأن البلاد كانت تنهض فيها حركة قوميـــــة حرة لو أنها حدثت فى بلد غير مصر لم يرزأ بالاحتلال لكان لها فى سجل الحركات القومية العالمية شأن جليل ، وما يضيرنا اليوم ما فعل الاحتلال بتاريخنا القومى ، وقد خطونا خطوات لن يكون بعدها نكوص...

رأينا الحل الذى عالجت به وزارة البارودى مشكلة

الميزانية ، ذلك الحل الذى من أجله حقت عليها لعنة الدولتين ، وحق عليها عقابهما ، مع أنه لايمكن أن يكون هناك تساهل فى مثل هذا الامر وفى مثل هاتيك الظروف اكثر من هذا التساهل الذى جرت عليه الوزارة ...

هؤلاء نواب شعب يجتمعون باسمه للنظر فى صالحه ، فكيف يتسنى لهم ذلك ان لم يكونوا قوامين على ماليته وهى أساس كل شىء ودعامة كل اصلاح ؟ وكيف يكون الحكم قائما على أساس ديمقراطى اذا حيل بين نواب الامة وبين النظر فى الاموال التى تجبى من أفرادها ؟

واذا كانت لمصر ظروف خاصة ناشئة من ديونها التى لم يكن لاهلها يد فيها ، فأى شىء كان يطمع فيه من نوابها أكثر من أن يتركوا ما يتعلق بالدين دون تدخل فيه ؟..

ولكن الدولتين كانتا تحاربان المجلس فحسب مهما بلغ من اعتداله وحكمته ، كانتا تحاربانه فتحاربان فيه الوطنية المصرية ، لانها ان ازدادت قوة ضاعت الفرصة وخرجت مصرسالمة مماكان يدبر لها ، أنظر الى الاحتجاج الذى كتبه المراقبان الاجنبيان فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ عندما علما بنية النواب فى وزارة شريف قالا (١) « يظهر أن مجلس شورى النواب يتهيأ لان يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا أن نقول : ان اعطاء النواب هذا الحق ولو اقتصر على الادارات والمصالح التى تخصص ايراداتها للدين يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب »

ولا تسل عن مبلغ غضب هؤلاء الطامعين الكائدين لمصر

(١) تعريب الاستاذ عبد القادر حمزة عن كتاب دى فرسنيه « المسألة المصرية »

ـلى وزارة البـارودى حينما حلت المشكلة على النحو المتواضع الذى بيناه ، فلقد انطلقت ألسنة الساسة منهم مع ألسن السفهاء من مراسلى الصحف بكل فاحشـة وجارحة فى الوزارة والنواب جميعا على نحو خليق بأن تخجل منه الانسانية ، فهذا نظام موضوع بأسره تحت سيطرة جيش ثائر كما صوره كلفن فى تقاريره ، وهذه وزارة جامحة تسوق مصر الى الخراب ، وهؤلاء نواب لايعرفون من معانى الوطنية الا التعصب الاعمى فضلا عن جهلهم وضيق عقولهم ...

كتب مالت يصف النواب قائلا (١) « أن ما يتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشمة محل كل سلطة مشروعة » .

وقال كوكسن يصف قانون الانتخاب الذى وضعته الوزارة السامية : « ان الغرض منه فى هـذا البلد أن تكون كل المزايا الانتخابية لمن رشحتهم السلطة الحاكمة الآن وهى سلطة الجيش » .

وليس بعجيب أن يبلغ حنق هؤلاء على الحركة الوطنية القومية هذا المبلغ ، ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكرات متتابعة مرقمة أثبتها فى ورقة لعله كان يجمع فيها عناصر فصل يكتبه وأوردها بنصـها مترجمه الشيخ رشـيد رضا (٢) . قال الاستاذ الامام : « مجلس النواب قرر تعيين لجنتين للتحقيق فى بعض الشكاوى التى رفعت على مصلحة المسـاحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الموظفين الاوربيين ، وتحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض مسيو كاليار

---

(١) المسألة المصرية لروثستين
(٢) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الجزء الاول . ص ٢٤٠

مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض فى أعماله » ...

« وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من احد موظفى الدومين المسمى «روفسل» يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالا فى أن يصلوا بالطفرة الى ما يقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لايحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى يرسل بالتلغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يسأل المدير عن السبب فى الحبس ، وهذا تظاهر من الاهالى بالاحوال الجديدة التى يبنون عليها حريتهم وخلاصهم » ...

واوعز مالت الى وكلائه فى الاقاليم أن يكتبوا تقارير عن مبلغ ما وصلت اليه الحال من سوء فى البلاد ، وارسل هذه التقارير الى حكومته ، وبلغ من الجرأة على الحق ، بل بلغ من صفاقة أحد هؤلاء الطامعين أن كتب يندد بالغاء الكرباج فقال : وما أعجب وما أسخف ماقال (١) « انالحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم إعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية ، ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام ، جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يسمونه له حرية . فى حين أن ما اكتسبته هذه الحركة من قوة جديدة باسلام أزمة الامور الى طائفة من الخياليين النظريين ، جعل أثرها فى السلطة على وجه العموم أثر الماء تصبه على قطعة من السكر » .

هذا ما قاله ذلك الانجليزى الذى تفتخر دولته بأنها سبقت الدول الى الحرية ، والتى ما فتئت منذ عهد

(١) المسألة المصرية لروثستين

كرومر فى مصر تفاخر بأن معتمدها هو الذى أبطل الكرباج فى هذه البلاد !

وانا لنسأل الذين يقرأون هذه المفتريات وأشباهها ، والذين تتبعوا أساليب انجلترا وفرنسا فى الكيد لمصر ، نسأل هؤلاء السادة الذين يعلمون هذا ، ومع ذلك يعيبون على عرابى وزملائه تطرفهم ، أكانوا يفعلون غير ما فعل عرابى وأصحابه اذا كانوا يحبون أوطانهم حقا ، وكانوا يعيشون فى مصر فى تلك الايام ؟

أما الذين كانوا يجهلون هذه الدسائس التى تبثها انجلترا فى مصر ، وحملوا لجهلهم بها على عرابى ماحملوا مجاراة منهم لما أشيع عنه ، فحسبنا أن نريهم حقيقة الامر ونكل المسألة بعد هذا الى فطنتهم وضمائرهم .

وما ندافع عن عرابى الا لاننا نعتقد أنه ظلم ، وان الذين ظلموه هم أعداء البلاد الذين استباحوا ذمارها وألحقوا بها الذل والهوان ...

وما يجدر بمصرى وبلاده فقيرة فقرها هذا فى الابطال أن يشايع الذين حاولوا أن يطمسوا بالباطل تاريخ رجل كانت البطولة فى مقدمة صفاته ، فيصفون وطنيته ووطنية أصحابه بأنها نزق وفوضى ...

ولقد جعل الكائدون لمصر الجيش هدفهم فيما راحوا يشيعونه من مفتريات ، أنظر الى قول مالت فى تقرير له عن « تزايد اختلال الامن فى البلاد لقلة اكتراث الاهالى بأولياء الامور الملكيين ، ويعزى ذلك الى سلوك رجال الحزب العسكرى الذين لا يعاملون زملاءهم الملكيين بالاحترام الضرورى لادارة البلاد ، وقد أخذت الرشوة تعود الى سابق عهدها بين الموظفين ، ومما يساعد على انتشارها كثرة التغيير والتبديل فى كبار الموظفين » .

ثم يقول فى وصف مازعمه من ضيق وقع فيه الفلاحون

فى سبيل الحصول على المال » ويعزو الملاك قلة رؤوس الاموال وما هم فيه من الضيق الى سياســة الحكومة الحاضرة التى لا تبعث على الثقة بها ، ويجهرون بأنهم اذا عجزوا عن دفع الضرائب فالتبعة واقعة على الوزارة »

وليس بعجيب أن يسلك كلفن ومالت واشياعهما هذا المسلك فى الطعن على الوزارة ، وقد أدركا ماكانت تنويه حكومتهما من العمل على تمهيد السبيل للتدخل المسلح بعد هذا التدخل السياسى ...

ولقد كانت تلك المذكرة المشئومة خطوة واسعة نحو هذا الغرض المرسوم ، فكان لابد أن تتفاقم الحوادث بسببها لتصل بالبلاد الى كارثة الاحتلال ...

كتب قنصل فرنسا الى حكومته يوم ٢٩ يناير يقول : « ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب ، فى أن يصير برلمانا ، والخطة القوية التى رأت الدولتان من جانب آخر ، أن تختاراها ، والتى كانت مذكرة ٧ يناير تعبيرا عنها هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فأوجدا الموقف الحالى »

وكتب كذلك يقول : « يمكن أن يقال أن الانقلاب الذى أحدثه مجلس النواب المصرى هو جواب منه على مذكرة ٧ يناير فلقد أعلنا فى هذه المذكرة أننا نحتفظ بالنظام الحالى ضد الجميع ، فأجاب المجلس على ذلك بأن غير هذا النظام تغييرا جوهريا وبذلك وضعنــا أنفسنا فى موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بأن نتدخل أو نعدل سياستنا » .

وهذا الذى ذكره ذلك القنصل يصور الحال تصويرا صادقا ، وما كان موقف الدولتين يخفى على أحد من الوطنيين ، وعلى ذلك يقضى الانصاف على الذين يحكمون على أعمال رجال ذلك العهــد وفى مقدمتهم عرابى أن

يضعوا فى أذهانهم قبل كل شيء أطماع هؤلاء الساسة ، وأن يصوروا تلك الاعمال على هذا الاساس ...

***

مضت الوزارة فى سبيلها غير عابئة بصراخ أعدائها لاتتخاذل من دون غايتها ولا تستبعد الشقة ، وذلك على الرغم من أنها كانت لا تجاوز عقبة الا قامت فى سبيلها عقبات

ولقد قبع الخديو فى زوايا العزلة ، وجعل الخوانون الغدارون بينه وبين وزرائه حجابا من الاباطيـل التى أحكموا نسجها ...

والواقع أن الخديو لم يكن على شيء مما كان يجب أن يتصف به من يضطلع بأعباء الحكم فى مثل هاتيك الظروف فلقد كان مستطار القلب حائر اللب مما يجرى حوله ، فهو لا يسيغ الحركة الوطنية ولايستطيع أن يصالح عليها طبعه ، وهو مستريب فى نيـات الحكومة العثمانية نحوه ونحو عرشه ، وهو فزع مما يشاع من دسائس الامير عبد الحليم ، بل ودسائس أبيه ومساعيه فى مصر والآستانة على يد أعوانه ، ثم هو فصلا عن هذا كله قد بات تحت سيطرة الاجانب وبخاصـة الانجليز منهم فما يقطـع أمرا حتى يوافقوا عليه ، بل لايخطو خطوة حتى يرى رأيهم فيها ...

ومن كان هذا شأنه فى موقف كهذا الموقف الدقيق الذى كانت تفقه مصر من أعدائها يومئذ كان مثله مثل الراعى أحاطت الضوارى بقطيعه فما يرجو أكثر من أن ينجو هو بنفسه ولو هلك القطيع جميعا ...

وكانت الدولتـان كما سـلف القول تراوغ كلتاهما الاخرى ، وتغافلها بغية الظفر بالفريسة وحدها ، وهذه هى حقيقة السياسة الخارجية التى لا تفهم تلك السياسة على وجهها الحق دون الانتباه اليها .

وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد ما كتبه ريناخ أحد أصدقاء جمبتا عن سياسة الدولتين قال (١) « ان الرأى العام فى انجلترا قد وقع تحت تاثير بعض رجال حزب الشورى الذين اعتقدوا أن خير ما يعمل هو استعجال الحوادث جهد الطاقة أملا فى ايجاد فرصة لدخول وادى النيل دون فرنسا »

حسبنا تلك العبارة التى حاول كرومر أن يفندها ، فلم يستطع أن يأتى بدليل أو شبه دليل على صحة رايه وما ملك غير أن ينفى ، وما كان مجرد النفى مما ينهض دليلا يؤخذ به فى أمر من الامور ...

وكان جمبتا من أشد أعداء مصر ، بل من أشد أعداء الاسلام قاطبة ، وكان هـذا اليهودى على صلة برجال المال من الدائنين ، وكان يحيط به فى باريس ريفرزولسون ونوبار يوحيان اليه بما يريان ، وكان بطبعه ممن يميلون الى اللجوء الى القوة فى كل ما يتعلق بالشرف والشرقيين

وكان هـذا الوزير كما بينا يحاول أن يدفع انجلترا لتأخذ بسياسته ، ولكن جرانفل راح يراوغه مظهرا له أن خيرهما فى أن يتفقا ، وفى الوقت نفسه كان يحذره عاقبة التدخل المسلح فى شؤون مصر سواء أكان ذلك من جانب احدى الدولتين أم من جانبيهما معا لان ذلك العمل كان من شأنه أن يجز فى أعقابه كثيرا من المشاكل

ولقد رأينـا مبلغ تشدده فى وجوب ارسال المذكرة المشتركة ، ثم اصراره بعد ذلك على عدم تخفيف وقعها بأى وجه من الوجوه ، ولقـد كانت كل من الدولتـين تحرص على الا تنفرد فتنكشف ، لذلك كانت تجارى احداهما الاخرى وانها لمستكرهة أشد الاستكراه واقبحه

---

(١) Modern Egypt, Cromer.

وكانت انجلترا تأخذ نفسها بالصبر حتى تحين الفرصة فتقتنصها ...

على أن جمبتا لم يلبث فى الحكم طويلا فسقطت وزارته فى أول فبراير سنه ١٨٨٢ أى قبل تأليف وزارة البارودى بخمسة أيام وحل محله فى الوزارة دى فرسنيه ، وكان هـذا من أول الامر يرى فى المسألة المصرية ما لايتفق وسياسة جمبتا ...

ولكن الامور كانت قد تحرجت فى مصر بما فعل جمبتا ، وفقدت العناصر الوطنية فى البلاد كل ثقة فى الدولتين جميعـا حتى أصبح من أصـعب الامور التفـاهم على السياسة العامة ...

***

لقد ارتخص هؤلاء الساسة من دعاة المدنية الناقمين على أهل الشرق ماكانوا فيه من تأخر كل كرامة ابتغاء الوصول الى أغراضهم ، وانقلبت عندهم الاوضاع التى تعارف الناس عليها ، فلقد عز على هؤلاء السادة الذين راحوا يدلون بمدنيتهم ويتطاولون بما فعلوا فى سبيل حرية الانسان أن يروا أهل مصر ينزعون حقا الى الحرية، ويعملون على الرقى بوطنهم جادين غيرمتوانين، يتعاونون على الحق ويتناسـون ما بينهم من دواعى الخـلاف ويطرحون الاثرة ويحرمون على أنفسهم الطيبـات ليتم لهم ما أرادوا ...

وذعر هؤلاء الكائدون لمصر الطامعون فيهـا أن أفاق أهلها على هـذا النحو ، وقد كانوا يظنونهم أمواتا أو كالاموات ، وهالهم أن يروا فريقـا من هؤلاء الفلاحين يستلبون سـلطة الخديو شيئا فشيئا ، ويحاولون أن يضعوا أنفسهم بحيث تكون الامة وهم نائبون عنها مصدر كل سلطان ...

وادركوا أن هذا البعث الذى أفاقت عليه مصر من نومها الطويل هو الصبح الذى يهتك أسدالهم ويبدد آمالهم ، فما ونوا يوما كما بينا عن محاربة مصر وزعماء مصر ورميهم بكل فاحشة ، وفى مقدمة هؤلاء جميعا ذلك الرجل الذى خطا نحو الحرية الخطوة الاولى وصرخ فى وجه الظلم الصرخة الاولى ...

ولم ير هؤلاء لوزارة البارودى حسنة واحدة ، ولكن هذه الوزارة كانت لا تعبأ بما يرجف المبطلون ، فمشت الى غايتها على الشوك وقد عقد أعضاؤها النية على انقاذ بلادهم من طمع الطامعين وكيد الكائدين ، وعلى تعهدها بضروب الاصلاح فى شتى مرافقها حتى تقوى فتعز على كل باغ ظلوم من خصومها ...

وما كان فى الوزارة من عوامل الضعف سوى جهل رئيسها وأعضائها باللغات الاوربية ، الا وزير الخارجية مصطفى فهمى باشا ، وقد ضم الى الوزارة ليكون لسانها فى الصلة بالاوربيين ، ولكنه كان من رجال العهد القديم على حد قول مؤرخى الثورة الفرنسية ، فلم يكن ينظر الى الوطنيين نظرة الاحترام والتوقير ، وانما كان يرى فيهم فريقا من الفلاحين يتطلعون الى ما ليسوا أهلا له ، شأنه فى ذلك شأن الشراكسة وأشباههم من سادات مصر وكبرائها فى ذلك العهد... وعلى ذلك فقد كان وجود هذا الرجل فى وزارة الخارجية عبئا يضاف الى أعباء الوزارة وذلك أمر لم تفطن اليه الا بعد فوات الوقت ...

وفيما عدا ذلك كانت وزارة البارودى وزارة وطنية حقا تعمل صادقة مؤمنة على تحقيق آمال البلاد والنهوض بها على الرغم مما كان يحيط بها من دسائس وما كان يملأ أسماع رجالها من نباح وعواء

انتهى دور انعقاد مجلس النواب فى السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٨٢ فقضى بذلك فى العمل نحو ثلاثة أشهر ، وهى مدة قصيرة كان يشغل الاعضاء فيها ترتيب أعمالهم ، ولكن المجلس على الرغم من ذلك قد قسم أعضاءه الى لجان مختلفة أخذت تتصل بالوزارات وتبحث معها ما يهم البلاد من الشؤون العامة ...

جد المجلس فى دراسة نصوص المعاهدات والتعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها ...

وأخذت الوزارات تعد مشروعات الاصلاح المختلفة لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم ، فكانت تنظر فيما يتطلبه النهوض بالتعليم ، وتفكر فى انشاء مصرف زراعى ينتشل الفلاحين من وهدتهم ، وتعمل على اصلاح المحاكم المختلطة واختصاصاتها ، كما تناولت قانون الانتخاب بالدراسة لتعد قانونا جديدا يجعل للمحكومين الرقابة الفعلية على الحاكمين ... وقد أشرنا الى ما أبدى عرابى من همة فى اصلاح شؤون وزارته وبث روح النهوض فيها ...

ولكن الوزارة كانت كما تقدمت خطوة فى اصلاحها ازدادت لهجة الصحف الاوربية فى العيب عليها والطعن فيها ، واشتدت وطأة الساسة فى نقد أعمالها ، ونشطت دسائسهم من حولها وكان على رأس هؤلاء كلفن ومالت اللذان أدركا الآن — أو على الاصح وجها — الى أن مهمتهما فى مصر أصبحت استعجال الحوادث تمهيدا للتدخل العسكرى ...

***

والحقيقة التى لايمارى فيها الا المغرضون المبطلون أن البلاد كانت تشيع فيها روح الوطنية الصادقة التى

تبرهن على صدقها بالاعمال لا بالاقوال ، ولو أنه قدر للوزارة السامية أن تسير على هـذا النهج لكان أثرها بعيداً فى تاريخ مصر ، بل وفى تاريخ القرن التاسع عشر كله ، فلقد كانت تعد المسألة المصرية من كبريات المسائل فى ذلك القرن ...

وليس أبلغ فى الدلالة على وجود الوطنية العاملة فى مصر مما نهض به أعضاء مجلس الشورى من جليل الاعمال فى تلك المدة القصيرة التى عقد فيها جلساته « فان أعمالهم فى المجلس ومناقشاتهم تدل على مستوى ممتاز فى الكفاية والغيرة الوطنية ، وسداد الرأى ، فقد طرقوا فى مقترحاتهم ومناقشاتهم كل أبواب الاصلاح الذى تحتاج اليه البلاد فى التعليم والقضاء والرى والزراعة والمالية والاقتصاد والادارة والمواصلات ، وكانت خطبهم ومناقشاتهم وجيزة واضحة المعنى ، بعيدة عن التطويل الممل والعبارات الجوفاء ، وكانت لهم نظرات صادقة فى كثير من الشئون وآراء صائبة تدل على سلامة المنطق والالمام بالنظام النيابى وحسن الاحاطة بالشئون الحيوية ، اعتبر لهم ذلك فى مناقشتهم الخاصة بانتخاب الوكيلين والاغلبية المطلقة والاغلبية النسبية ، وبحثهم فى علاج الخلل الذى كان موضع شكوى الجمهور فى مصلحة المساحة ، ومناقشتهم فى علاج غلاء الاسعار وتضخم المعاشات واستعجال اصلاح القضاء ، ومقترحاتهم فى نظام الرى . وتأمل فى الاقتراح الخاص بمشروع خزان أسوان وملاحظاتهم السديدة على مشروع قانون امتيازات العرب ومناقشاتهم فى مشروع تعميم التعليم ، تجد أنهم على قصر المدة التى اجتمع فيها المجلس قد بذلوا أقصى ما أمكنهم من الجهد لاداء واجبهم ، وبدت منهم رغبة صادقة فى أن يتابعوا البحث والدرس فى فترة عطلة

المجلس ، وبرهنوا على أريحيتهم بما تعاهدوا عليه من أن ينشىء كل نائب مدرسه فى بلده على نفقته ، فبرهنوا على روح طيبة فى تقرير العلم والبذل فى سبيل الصالح العام (١) » .

***

وكذلك نستدل على وجود الروح الوطنية فى مصر يومئذ بهاتين العبارتين اللتين نوردهما وندعو القارىء أن يتدبر فيهما .

اما أولاهما فهى ماكتبه دى فريسنيه فى كتابه «المسألة المصرية » حيث يقول معلقـا على مجلس النواب واختصاصاته : « أن كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى أن يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس ، حتى ليخيل الى الذى يقرأ خطـابات بعض الخطباء أن الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقا ، وأن وادى النيل لم يكن يحتوى الا على فلاحين تحنى العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء ، هو أن آباءنا كانوا أقل من هـذا امتهانا للوطنية المصرية فى عهدهم ، وذلك أن نوابنا فى سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى أن يتكلموا فى خطبهم عن الرعاية الواجبة للوطنية المصرية الناشئة . فقد كانت هناك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ ،

ولست فى هذا مبالغا ولا أنا ممن يحبون المبالغة ، ولكن لاريب فى أنه كانت توجد فى قلوب المصريين من أربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن أن تراعى فى حدود معتدلة . تلك حقيقة لا تحتمل جدلا . غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون من المصريين

(١) الثورة العرابية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

غير قوم مدينين ، فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم الا مصلحة واحدة ، هى مصلحة الدائنين الاوربيين التى يجب أن تقدم على ما عداها . وبذلك لم ينتبهوا الى أن مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ، وتدخلهم فى شؤونها تدخلا أدى بحكومتها الى أن تصير فى أيدى الاجانب كانا قد انتهيا على طول الايام بأن يجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حى مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من أجيال »

***

وأما ثانية العبارتين فهى ما كتبه من باريس سنت هيلير الى قنصل فرنسا العام فى مصر فى السابع من اكتوبر سنة ١٨٨١ قال : « ليس من السهل علينا أن نقرر من هنا قوة هذه المطامح الشرعية ولا كيف يمكن ارضاؤها ، ولكن هذه المطامح حقيقية الى أعظم حد ، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها » (١)

ليتدبر القارىء فى هاتين العبارتين ، وليتدبر فيهما كذلك من يريد أن يحكم على رجال ذلك العهد وفى مقدمتهم عرابى ، وليشفق على أنفسهم الذين يرمون عرابيا ورجاله بالفوضى والجهل والانانية ، ليشفق هؤلاء على أنفسهم فلن يجدر بهم أن يظلوا يجهلون تاريخ هذا الرجل فيحملون الذين يعلمون حقيقة هذا التاريخ على الاستخفاف بهم والزراية عليهم ، فليس أدعى الى الاستخفاف بعقل رجل من أن تراه يجهل أمرا من الامور ثم اذا هو يدلى فيه برأى قاطع فى لهجة يتردد فى اتباعها الراسخون فى العلم ...

---

(١) العبارتان من تعريب الاستاذ عبد القادر حمزة ..

ونضيف الى هاتين العبارتين قول كرومر : « ليس هناك ريب فى أن حركة عرابى كانت من بعض الوجوه حركة قومية . وليس من شك كذلك فى أنه لو ترك عرابى وأتباعه فى القيام على الشئون من غير مراقبة ، فان حالة من أشد حالات الاضطراب كانت تنشأ فى مصر ، وان تدخلا أجنبيا مسلحا من نوع ما كان يصبح ضرورة من الضرورات » .

***

وغنى عن البيان ما تكشف عنه عبارته الاخيرة مما يريد به أن يمحو أثر اعترافه بقومية حركة عرابى ، فهذا المؤرخ الانجليزى الذى كان من أكبر أساطين الاحتلال لايستطيع الا أن يمحو بشماله ما أثبته بيمينه ...

ما كان عرابى طائشا ولا داعية فوضى ، ولكن كان زعيما مخلصا يعمل بوحى من وطنيته ويصيب ويخطىء كما يصيب الزعماء غيره ويخطئون كل على قدر ما اجتمع له من الكفاية والمقدرة ! ..

والخطأ والصواب من خصائص البشر ، ومردهما الى العقل وسعته أو ضيقه ، أما الصدق والاخلاص وما اليهما من صفات الزعامة والبطولة فلا تسامح فيها ولا تهاون ، بل لايصح أن تكون هذه أمورا يجوز فيها التفاوت اذا عقدت المقارنة بين زعيم وزعيم وبين بطل وبطل ! وكيف يجوز فى عقل أن يكون هناك صدق ونصف صدق واخلاص ونصف اخلاص ؟ ان هذه أمور جلالها وجمالها بل وجوهرها فى أن تكون غير قابلة لزيادة أو نقص ، وعلى الذين لايزالون يخاصمون عرابيا أن يأتوا بدليل واحد على كذبه أو مروقه ، أما الخطأ والصواب فليقولوا فيهما ما يشاءون ، وليس ما نعنى به خطأ عرابى أو صوابه فليخطىء عرابى أو فليصب ، ولكن

لو أنه كما زعم خصومه كان مدعيا أو مداجيا ولو فى
موقف واحد من مواقف حياته السياسية ما استطعنا
أن نكتب عنه كلمة واحدة ...

ومع ذلك فبيننا وبين خصوم هـذا الرجل حوادث
هذه الثورة الوطنية على قدر ما علمنا من أمرها وهى
كفيلة بأن ترينا مبلغ ما فى مزاعمهم هم من خطأ ...

أماني الصلح

لم يكن جهد احمد عرابى منحصرا فى المطالبة بالدستور، بل كانت تنطوى نفسه على كثير من الامانى التى يتوق الى أن يراها حقائق ماثلة أمامه .

كانت تخالج نفسه منذ صلته بسعيد باشا رغبات فى الاصلاح مبعثها تعصبه لقوميته ذلك التعصب المحمود الذى انبعث فى نفسه مما كان يراه من حرمان بنى قومه فى وطنهم من كل ما يشعرهم بالعزة والكرامة ، بينما يتمتع بالسيادة أجلاف من الشراكسة ، لم تكن لهم من حق فى هذه البلاد الا أنهم بقية هؤلاء المماليك الذين اشتروا أول أمرهم كما تشترى السلع فى الاسواق !

وكان يفطن هذا الجندى الثائر أو هذا الوطنى الصادق العقيدة الى أن الاصلاح المنشود ، ينبغى أن يأتى من الاعماق فيبدأ بهؤلاء الفلاحين الذين هم عصب القومية المصرية ، فمتى صلح حال هؤلاء واستشعروا فى وطنهم الكرامة والعزة ، قامت القومية المصرية على أساس وطيد ، ومضت مصر قدما فى طريق الرقى والمجد ، وعزت على الطامعين والكائدين ...

وكانت أمانى هذا الرجل تظهر فى خطبه التى يلقيها فى شتى المناسبات ، فكان كثير الاشارة الى القضاء على الاستبداد والعناية بالعلم والمعزفة ، ولكن شيئا أشبه

بخطة موضوعة يتبين فى حديث له مع صديقه الانجليزى مستر بلنت ، ونحب أن يتدبر من يحبون عرابيا ، ومن لايزالون يكرهونه فى هـذا الحديث ، ففيه جانب من شخصية هذا الرجل الذى مسخ البهتـان والعدوان شخصيته ، وما كان الانجليز لعمر الحق يرضون أن يكون عرابى داعية اصلاح وزعيم قومية ، ويكونون هم من قضوا عليه تحقيقا لمآربهم الاستعمارية ثم يدعون مع ذلك أنهم جاءوا لاصلاح مصر والقضاء فيها على عوامل الفوضى ... لذلك عملوا على انكار كل معنى من معانى الجد والنهوض فى تاريخه ، وتعمدوا أن ينظروا اليه نظرة الرجل المدل بحكمته وتجربته الى الطفل الـذى يدعى لنفسه ما ليس له ، ومن أدلة ذلك أن الجهـل والغرور فى مقدمة الصفات التى ينعته بها كتاب الاحتلال وانهم ليعلمون بينهم وبين انفسهم أن همة هذا الرجل وجرأته وما كان يبتغى لقومه من ضروب الاصلاح جديرة بأن تجعل منه زعيما أنجبته مصر ، كما تنجب الامم الزعماء ، وأن تلك الصفات فى أحمـد عرابى المصرى الفلاح لن تختلف فى جوهرها عما يعزى من صفات الى أبطال الوطنية والقومية فى غير مصر من أمم الارض .

قال بلنت بعد كلام طويل جاء فى صدد شرائه حديقة الشيخ عبيـد بين المرج والمطرية ، ولنعد الى زيارتى التوديعية لعرابى قبل سفرى . ففى هـذه المناسبة تناولنا بالحديث جميع المسائل التى كانت تدور فيهـا المناقشات وتنتشر بين رجال الحركة القومية والتى كانت تتضمن خططهم فى سبيل الاصلاح وآمالهم ومخاوفهم فى الداخل والخارج .

وان الاسابيع القليلة التى قضاها عرابى فى منصبـه السامى قد اكسبته نضجا وقوت عزيمته ، فتناول معى

الامور بكل ما يمكن من سداد فى الفكر ولغة الحوار .

ولقـــد أكد لى تأكيدا وثيقا أنه وأصحابه الـوزراء يتطلعون أكبر التـــطلع الى تفاهم ودى مع الحكومة الانجليزية على كافة المسائل القائمة بينهم وبين وكلائها فى القاهرة . على انه اشتكى فى شدة من مالت وكلفن فان صنعهما الاخير والدور الذى أخذاه فى معركة تشويه الحركة الوطنية فى الصحف البريطانية يدلان على عداوتهما ... ثم قال عرابى : انه لن يقوم سلام فى القاهرة طالما انه ليس لدينا غير هذين نتعامل واياهما لاننا نعلم انهما يدبران لنا السوء فى السر وان لم يبد ذلك فى العلن ، وسوف نناى بجانبنا عنهما كليهما ، ولكن ليس معنى ذلك أننا لهذا نريد أن نخاصم انجلترا ، فليرسل الينا مستر جلادستون من يشاء غيرهما لنتعامل معه ونحن نتلقاه مرحبين بأذرع مبسوطة .

وتكلم عرابى كلاما طويلا عن الاصلاحات التى كان يفكر فيها محمود سامى والوزراء ، تلك الاصلاحات التى وضع معظمها فى ثبت الحسنات التى أسداها الاحتلال البريطانى الى مصر والتى ادعاها اللورد كرومر لنفسه. ومن أمثلة تلك الاصلاحات ابطال السخرة التى أنزلها الاغنياء من الباشاوات الترك بالفلاحين وابطال احتكار هؤلاء الاغنياء مياه الرى عند زيادة النيل ، ثم حمـاية الفلاحين من زبانية الربا من اليونانيين الذين وضعوهم بين براثنهم معتمدين على عيوب المحاكم المختلطة ، وتناول التفكير فى الاصلاح حتى ذلك العلاج الاخير لهذه النكبة الزراعية ، ذلك العلاج الذى طالما جعله اللورد كرومر من مفاخره بوجه خاص ، الا وهو انشاء مصرف زراعى تحت اشراف الحكومة ...

وتكلم عرابى فيما تكلم فيه من المسائل عن اصـلاح

العدالة التي تطرق اليها الفساد فى صورة مخيفة ، وعن تعليم الرجال ، بل وتعليم النساء كذلك ، وعن طريقة الانتخاب التى تنتقى للبرلمان الجديد ، وعن مشكلة الرق ...

وقد تكلم طويلا عن هذه المشكلة الاخيرة ، وذلك لان الموظفين الاوربيين فى الادارة المختصة بالقضاء على الرق ، قد بدأوا كما بدأ غيرهم من الموظفين الاجانب يبدون مخاوفهم من أن النظام الاقتصادى الجديد للحكومة الوطنية سوف يؤدى الى انقاص رواتبهم ، ولذلك عمدوا الى ادعائهم أن نهضة الاسلام سوف تفضى الى انتعاش تجارة الرقيق ، وأظهر لى عرابى مبلغ ما فى ذلك الكلام من ضعف الحجة قائلا : ان الذين لايزالون يمتلكون الرقيق فى مصر أو الذين يريدون امتلاك الرقيق انما هم أمراء الاسرة الخديوية وأغنياء الباشاوات ، أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وانه حسب مبادىء الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعا منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين ، وان انتعاش تجارة الرقيق لهو آخر شىء يمكن أن يتمشى مع هذه المبادىء ...

وتناول آخر الامر ما يتصل بضرورة الاستعداد الحربى لما يتوقع من حرب ، ذلك الامر الذى كان يعنيه بصفة خاصة لانه جندى ولانه وزير الحرب ، وقد تحدث عن هذا فى بساطة ونشاط ...

قال : ان الحكومة القومية سوف لا تضع السلاح أو تغفل عما يجب من الحذر حتى تتوطد دعائم النظام الدستورى وتعترف به أوربا ، وأعرب عن أمله الا يتجاوز المخصصات الحربية التى اتفق عليها مع كلفن ،

والا يضطر أن يزيد عدد المجندين عن الثمانية عشر الفا الذين تسمح بهم الفرمانات ، فاذا استمر تهديدهم بالتدخل المسلح فانهم سوف يتبعون الاسلوب البروسى القائم على فكرة قصر مدة الخدمة وبهذا يصلون الى ايجاد قوة كبيرة هى بمثابة جيش احتياطى تحت السلاح

وسألنى عرابى رأيى عن مبلغ امكان التصادم ، فقلت فى جلاء انه كما يتبين لى مما تفاخر به كلفن أمامى من نية العمل على وقوعه ، ومن لهجة الصحف التى وجهها لتتمشى مع ذلك ، فان الخطر حقيقى ، وان غرضى من ذهابى الى انجلترا هو أن أقضى على حملة الكذب التى بدأت ، بكل ما فى وسعى ، وسيكون ما أدعو اليه هناك هو السلام وخلوص النيات . ولكننى من جهة أخرى لست أنصح له الا بأن يظل على ثباته وعزمه ، فان خير وسائل السلام أن يستعد المرء للدفاع ، وان كبار أعداء مصر ليسوا بين صفوف رجال الحكومات كما هم بين صفوف رجال المال ، وان هؤلاء سوف يترددون طويلا قبل أن يحرضوا على هجوم مسلح اذا عرفوا أن ذلك يعرض مصالحهم فى مصر لخطر حرب طويلة الامد كثيرة النفقات ، وان أمة مسلحة قد عقدت العزم على الدفاع عن حقوقها لامة يصعب أن يبطش بها . واذكر أنى اقتبست له أبياتا من بيرون تبدأ بقوله : « لا تثق فى طلب الحرية بالفرنجة » وقد وافق على ذلك الكلام موافقة قوية ، وأظن ان ذلك كان آخر ما دار بيننا من كلام ، وقد وعدته أنه اذا وصلت الامور الى أسوأ ما تصل اليه فسوف أعود لآخذ بنصيبى بين صفوفهم فى المعركة من أجل الاستقلال » .

وبعد ، فان نظرة فى هاتيك الامانى التى كانت تتمثل فى خاطر أحمد عرابى ترينا بعد ما بين هذا الرجل فى

صورته الحقيقية وبينه فى صورته التى صورها المغرضون .

ثار هذا الرجل ثورته فاثبت فىسجل القومية المصرية يوما لايمحى هو يوم عابدين المشهود ، بل لقد أضاف أحمد عرابى بما صنع فى ذلك اليوم فصلا الى تاريخ الحرية فى هذا الوجود ...

وظفر أحمدعرابى بالدستور، ثم التفت بعد الدستور الى الاصلاح الاجتماعى فى ظل هذا الدستور ، ثم رأى الانجليز يتربصون به وبمصر فأخذ يعد العدة للمقاومة ، ولسوف يجد الجد فتجتمع فيه آمال أمة وتتمثل فيه بطولة شعب يطلب الكرامة ، ويرى التاريخ لاول مرة مصريين من صميم قرى مصر يخوضونالحرب فى سبيل مبادىء سامية .

فماذا كان يطلب منه أكثر من ذلك ليعترف لهخصومه بالزعامة والبطولة ؟ أكل ذنبه عندهم انه هزم ؟ ألا ما أصدق قول القائل : « ولأم المخطىء الهبل » .

على أن الخيانة والخنوع من جانب فريق منالمصريين كما سنرى من الحوادث هى التى سوف تودى به وبحركته ...

ولو أن عرابيا انتصر يوم التل الكبير ، أو لو أن الخديو كان فى صفه وكان المصريون جميعا من ورائه وواتاه الحظ فظفر برد الانجليز عن مصر ، أكان يجد بنو مصر فى تاريخهم رجلا قبله يستحق أن يقرنوه به ؟

الا انخصوم هذا الرجلانما يخاصمونه لانهم يجهلونه فليقرأوا تاريخه فى غير تحيز وليطرحوا من نفوسهم ما بثه فيها الاحتلال ، ومن أضلهم عن الحق الاحتلال .

مراوغة وتربص

جدير بنا ألا ننسى ما أسلفنا الاشارة اليه فى أكثر من موضع ، ألا وهو موقف الدولتين احداهما من الاخرى موقف المراوغة والمداراة ، ذلك الـــذى كان طرفاه أول الامر جمبتا وجرانفل .

ولقد تغير هذا الموقف تغيرا أساسيا من جهة فرنسا حينما حل دى فرسنيه فى الحكم محل جمبتا ، وذلك أن هذا الرجل قد انتهج فى المسألة المصرية نهجا جديدا ما لبث أن بينه لانجلترا حين ولى الحكم ...

وقد ألقيت الى فرسنيه مقاليد الحكم كما ذكرنا قبل أن يخلف البـارودى شريفا بخمسة أيام ، فكتب الى الحكومة الانجليزية أنه لا يميل الى أى تدخل عسكرى فى مصر سواء أكان هـــذا التدخل من جانب انجلترا وفرنسا مجتمعتين ، أم من جانب كل منهما على حدة ، وانه كذلك يرفض كل الرفض أن يقر أى تدخـــل من جانب الباب العالى .

ولعل جرانفل قد رأى فى سياسة فرسنيه ما يسهل عليه الوصول الى غرضه ، مع ما قد يبدو لاول وهلة من أنها تؤدى الى عكس ذلك ، وذلك لانه يستطيع الآن أن يلزم دى فرسنيه بسياسته التى وضعها بنفسه ، بينما يتلمس هو الاسباب لتتدخل حكومته بمفردها ،

ولن يعدم أن يتخذ من الحوادث مبررا لتدخله فان لم يجد فما أيسر خلق الحوادث واستغلالها ... حتى اذا سنحت الفرصة أفلت من فرنسا وانقض على الفريسة وحده .

واذا بدا لتركيا أن تتدخل فلتستتر انجلترا خلف فرنسا ، لان فرنسا هى التى تعلن أنها تمانع فى تدخل الباب العالى ، وان انجلترا لتمانع أكثر مما تمانع فرنسا حتى لا تعود مصر الى حوزة السلطان فتضيع على انجلترا كل آمالها ولكنها تلقى هذه الممانعة فى مهارة على عاتق فرنسا فتزداد نياتها خفاء ، وتزداد فى نفس الوقت قربا من غايتها .

وكان جمبتا يشير أبدا بالالتجاء الى القوة ضد الوطنيين فى مصر ، ومن هنا جاءت المذكرة المشتركة ، وكان يرى أن تتدخل الدولتان سريعا تدخلا عسكريا فى مصر ، ولكن جرانفل تباطأ وراح يبين له ما تنطوى عليه هذه السياسة من اخطار ، وانه ليخفى فى نفسه مايخفى ، ولقد جاء كلام جرانفل هذا الى جمبتا فى رسالة وصلته قبل سقوط وزارته بيوم واحد ، وجاء فى خاتمة هذه الرسالة قوله : « ان حكومة جلالة الملكة توافق على أن للدولتين مركزا خاصا فى مصر وذلك بناء على الاتفاقات الدولية وعلى الظروف القائمة ، وانها كذلك تعتقد أنه قد تنجم بعض المتاعب من دعوة عدة دول فى مسألة حكومية كهذه ، ولكن حكومة جلالة الملكة تكل الى الحكومة الفرنسية أن تنظر فيما اذا لم يكن الموقف يتطلب الاتصال بالدول الاخرى كخير وسيلة لتناول حالة من الحالات يتبين أنها ذات مساس بالفرمانات السلطانية وعلاقات مصر الدولية » .

وقد كانت السياسة الانجليزية تدور منذ حملة

بونابرت على مقاومة نفوذ فرنسا فى وادى النيل ، ثم الاستيلاء عليها متى امكن ذلك وبخاصة بعد فتح قناة السويس ، دون مراعاة أى شيء فى سبيل الوصول الى هذا الغرض ...

واستفهم فرسنيه الحكومة الانجليزية ماذا أرادته بذلك الاحتياط الذى أبلغته جمبتا بعد موافقتها على المذكرة المشتركة ، فكان الجواب أن الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بتعيين نوع العمل اذا لم يكن من العمل بد ، وفى تقرير وجوب العمل أو عدم وجوبه على وجه العموم ...

ثم اراد جرانفل أن يخفف من وقع هذا الكلام فى نفس فرسنيه فذكر أنه ليس فى مصر مايدعو الى القلق فان الوزارة الجديدة تجهز برغبتها فى المحافظة على تعهدات مصر الدولية ، واذا وقع ما يقتضى التدخل فان الحكومة الانجليزية تجعل أساس ذلك تضامن أوربا مع وجوب اشتراك السلطان فى كل خطوة وفى كل مفاوضة يؤدى اليها هذا التدخل .

وفى تلك الاثناء كان كلفن ومالت يحكمان دسائسهما فى البلاد ويباعدان بين الخديو ووزرائه ، ولا يتوانيان عن خلق الضرورة التى تقضى بالعمل ! ..

وكانت الحكومة الانجليزية التى تقف من فرنسا ذلك الموقف الذى أشرنا اليه تفكر فى ذلك الوقت فى اعداد حملتها على مصر ! . ففى اليوم الخامس عشر من شهر مارس أى بعد استلام البارودى أزمة الحكم بأربعين يوما ، زار مستر بلنت السير جارنت ولسلى الذى سوف يكون عما قريب قائد الحملة على مصر ، فدار بينهما الكلام عن هذا المشروع ، يقول مستر بلنت : « فى اليوم الخامس عشر من شهر مارس ذهبت لمقابلة سير جارنت

ولسلى وجرت بينى وبينه محاورة تستحق أن تذكر فى اهتمام ، فبعد حديث قصير عن قبرص اتجه الكلام الى مصر ، وما عسى أن يكون لدى القوميين من مقاومة إذا وقع تدخل، وسألنى رأيى فى ذلك ، فقلت انهم بالضرورة سيحاربون ، ولن يقتصر الامر على الجند ، بل سيشاركهم الناس جميعا ، وربما لجأوا بعد ذلك الى وسائل أخرى ، فرفض أن يصدق أن الجيش سوف ينهض لحرب ما ، فصممت على عكس ذلك وقلت له :

انهم اذا أرسلوه لقهر مصر فيجب عليه أن يسير فى ستين ألفا على الاقل ، وبهذا قد بالغت فى تصوير المسألة بلا ريب لانى أردت أن أجعلها صعبة ، بحيث أنه يجب على الحكومة أن تفكر مرتين قبل الاقدام عليها ، ثم أخبرنى من تلقاء نفسه أنهم شاوروه مرتين أو ثلاثا أثناء الشتاء فى احتلال عاجل ، وأكد لى مع ذلك أنه لا يحب التدخل

وأن القيام باحتلال مصر عمل لن يقابله الجيش بالاستحسان ، وانه هو نفسه سوف يؤسفه جدا أن يناط به هذا العمل ، وأعرب لى أنه خير لمصر كثيرا أن تسرح جيشها وتعتمد على حماية أوربا ، ولكنى أخبرته بأنى لا أستطيع أن أنصح للمصريين بذلك ، وان الامة التى تنوى الحرب نية صادقة قلما هاجمها عدو، فقال :

انه ليس هناك ما يسمى بالشرف فى الحرب ، وانه اذا كانت المسألة مسألة حرب فيجب الا يثقوا بنا أكثر مما يثقوا بأية أمة أخرى ... ثم تكلم بعد ذلك عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة كطريق بونابرت على الضفة اليسرى للنيل، ثم طريق الصحراء بوجه خاص بين ترعة السويس والدلتا ، ولقد شعرت أنه اذا ما أنزلت جنود انجليزية فى مصر فعلا فانها ستسير فى الطريق الثانى ، ولكنى كنت حريصا ألا أدلى اليه بما يكون فيه أقل فائدة

له من المعلومات ، ولم أبد الا الضحك عندما سألنى بين الجد والمزاح عما اذا كنت أرافقــه لأدله على الطريق اذا ما بلغت الامور حدا ترسل معه حملة » .

ويكفى هذا الحديث وحده للدلالة على ما كانت تبينه انجلترا لمصر وما كانت تراوغ به فرنسا ...

وبينماكانت تدبر الدسائس لمصر فى الداخل والخارج، لم يكن للوزارة المصرية من وســائل الدعاية شىء ما ، فكان اعداؤها يتقولون عليها ما شاءوا وما شاءت لهم أطماعهم ، حتى لقد صور زعيم الحركه الوطنية فى مصر احمد عرابى صورا بلغت أقصى حدود الغرابة ، فهو تارة رئيس عصــابة من المتمردين الخارجين على القــانون والنظام، وهو طورا داعية اسماعيل اشتراه بالمال ليعمل على اعادته الى مصر ، وهو بالاضافة الى هذا عند بعض الانجليز أسبانى أو فرنسى فى زى مصرى ، الى غير ذلك من الاقاويل التى لا ندرى أنقابلها بالالم أم بالسخرية !

وانطلقت الصحف تذيع فى الناس الاراجيف فى غير حياء أو فتور وليس لمصر لسان يدافع عنها الا بلنت ، فلقد سافر هذا الرجل الحر كيما يقابل كل من لهم صلة بالمسألة المصرية ليريهم وجه الحق فى هــذه القضية ، وليصحح ما جاز على عقول بعض الساسة من خداع ، وليكاشــف الذين يدعون أنهم لا يعلمون الحق بما يعلم هو من الحق لعلهم يرجعون اليه .

ولقد قابل جماعة من النواب ومن رجال المال ، ثم ما زال يسعى حتى ظفر بمقابلة جرانفل وزير الخارجية فتحدث اليه عما لديه من المعلومات ودافع عن قضيــة الحرية فى مصر بكل ما فى طوقه من وسائل الدفاع ، ولكن شد ما كانت دهشته وألمه عند ما انطلق جرانفل نفسه يخبره أن لديه من المعلومات ما يؤيد عنــده أن

عرابيا ان هو الا صنيعة اسماعيل وان المسألة من أولها الى آخرها ما هى الا سلسلة من الدسائس لارجاع الخديو السابق الى عرشه ! ..

وعول بلنت بعد ذلك على مقابلة جلادستون ، وقد كانت شهرته قائمة على أسـاس ميله الى الحـرية ، والاخذ بيد الشرقيين جميعا لينهضوا من سـباتهم ، فلما مثل بلنت بين يديه اندفع يتحدث عن الحركة الوطنية فى مصر فى حماسة وطلاقة ، وظل جلادستون صـامتا ينصت اليه كأنه مقبل عليه مؤمن بما يقول يقدره حق قدره ، قال بلنت : « ثم سألنى عن الجيش المصرى ، وسبب ظهوره فى المسائل الوطنية ، فانه خشى عاقبـة ذلك ، فأوضحت له تاريخ الحركة كلها وأكدت له أن ما زعمه البعض عن تدخل الجند أمر مبالغ فيه ، وأن ما أذيع من الانباء عن الجند وتوعدهم النواب ليست الا مفتريات ، وقلت : انه ليس هناك من سبب لما تبديه مصر من الاستعداد الا خوفها من الاعتداء والتدخل ».

ولكن ماذا كان ينتظر بلنت من جرانفل وجلادستون، ولم تكن المسألة مسألة اقناع وحجة ؟ ماذا كان يأمل بلنت ولم تكن المسألة ماذا يجب أن يعمل ، وانما كانت متى ينفذ ما انعقدت النية عليه ؟ ..

وانى لاحس فيما قرأته مما كتبه بلنت عن مقابلتـه لجرانفل وجلادسـتون أنهما كانا ينظران اليه نظرتهما الى غر لا يفهم ما يجب أن يتبعه الانجليزى فى معاملة الشعوب الشرقية ، أو الى ناشىء فى السياسة لا يدرى أن الكلام شىء والخطط المرسومة شىء آخر ...

ولقـد علق كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » على مساعي بلنت فقال : « ومن هؤلاء الذين عطفوا على القضية نرى أبرزهم مستر ولفرد بلنت ، ولقد عاش

مستر بلنت زمنا بين المسلمين ، وكانت له لذة شديدة فى كل شيء يتصل بهم وبدينهم ويظهر انه كان يعتقد فى امكان احياء الاسلام على قواعده الاصلية ، وقد تصادف أنه كان فى مصر فى شتاء سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، فألقى بنفسه بكل ما تبعثه الطبيعة الشاعرية من حماسة فى جانب القضية العرابية وأصبح مرشدها وفيلسوفها ، كما أصبح الصديق لعرابى واتباعه ، ورأى مستر بلنت أنه كان يعنى بحركة هى الى حد معين حركة قومية بلا نزاع ، وفشل فى أن يفهم فهما كافيا تلك الحقيقة ، وهى ان سيادة الحزب العسكرى كان فيها القضاء على العنصر القومى فى الحركة . وكان فى وقت ما يعمل وسيطا بين السير ادوارد مالت والقوميين .

ولكن هذا الاختيار لم يكن موفقا ، لانه يتبين بأجلى وضوح مما ذكره بلنت فى كتابه عن مساعيه انه فيما عدا بعض المعرفة باللغة العربية لم يكن على شيء من الصفات اللازمة لتحقيق النجاح فى مسألة لها ما لهذه المسألة من دقة وصعوبة ، ولقد نصح للقوميين أن يعنوا بالجيش والا غالتهم أوربا وكان يعنى النصيحة بلا ريب ، ولكنها كانت فى غير وقتها كما كانت خبيثة ، فلئن كان ثمة من خطر من جهة الغزو الاوربى فان موطن هذا الخطر كان فى انضمام الحزبين الوطنى ، والعسكرى ، اكثر مما كان فى انفصالهما ، ولقد كان من السهل على السياسى المجرب أن يدرك هذا ، ولم يكن للمستر بلنت تجربة سياسية ذات قيمة وانما كان رجلا متحمسا يحلم بيوتوبيا عربية »

هذا ما يراه كرومر فى بلنت ، وليس عجيبا أن يكون هذا راى كرومر ، وهو من أساطين الاستعمار ، فى رجل مثل بلنت كان بلا مراء من كبار الاحرار ، وانما

نورد راى كرومر هذا لانه يكشف عن جانب من أساليب المستعمرين الانجليز فى محاولة طمس الحقائق فى سبيل الوصول الى ما يطمعون فيه من أغراض، وهو من ناحية أخرى يشف عما كان يمكن أن يقابل به مسعى رجل مثل بلنت فى دوننج ستريت ابان تلك الظروف التى نتحدث عنها ، ظروف مقاومة الوزارة الوطنية فى مصر ...

ولم يكن ينتظر أن يصيب بلنت غير الفشل ، وقد كانت وزارة جلادستون تتعجل الحوادث لتفلت من فرنسا وتنفرد بوضع يدها على مصر حتى تخلص من الموقف الحرج الذى وضعها فيه فرسنيه ؛ فلقد ذهب هذا الوزير فى تجنب العدوان على مصر الى حد أنه كتب الى قنصل فرنسا فى القاهرة يأمره « أن يلزم خطة التحفظ والحذر ، وان كان ذلك لايمنعه من أن يحسن صلته بكل حكومة فى مصر تحترم الاتفاقات الدولية وتحافظ على النظام » .

ولقد زاد فرسنيه على هذا أن استدعى المسيو دى بلنيير العضو الفرنسى فى المراقبة لما كان يعلم من مسلكه نحو الحركة الوطنية فى مصر ، وباستدعاء دى بلنيير خلا الجو لكلفن ومالت فراحا ينفثان سمومهما ويتعجلان الحوادث فى غير اناة ولا استحياء .

ومضت انجلترا تتربص بمصر كما يتربص الوحش بالفريسة ، وبعد شهرين من سحب دى بلنيير وقع فى القاهرة ما عرف بحادث المؤامرة الشركسية .

وسيرى القارىء فيما يلى كيف استغل مالت وكلفن هذا الحادث العادى دون اى وازع من ضمير أو قانون أو عرف ، فلننظر ماذا كان من أمرهما وأمر الخديو فى هذا الحادث الذى لولا أطماع السياسة وتربص القوى بالضعيف ما كان ليثير شيئاً مما أثار من متاعب للوزارة ، وما كان ليلد ما ولد من أحداث ..

إعنات وإحراج

كان الانجليز فى مصر يعملون جهد طاقتهم لحساب دولتهم كما بينا ، حتى اذا حانت ساعة العمل لم يكن بينهم وبين فريستهم حائل .. ولقد ظلوا متربصين بمصر بعد أن نجحت وزارة البارودى فى حل مسألة الميزانية ، ينتظرون أن تواتيهم فرصة فيعملوا على تنفيذ ما بيتوا.

وأخيرا وقع فى مصر حادث مانظن فى تاريخ الاستعمار الاوربى كله أن استغل حادث كما استغل هذا الحادث فى قبح ما بعده قبح ، على بعد ما بينه وبين السياسة العامة للبلاد ، وذلك هو حادث المؤامرة الشركسية المشئوم ...

نمى الى عرابى وزملائه أن فريقا من الضباط الشراكسة يأتمرون به وأصحابه ليقتلوهم ، فكان أن قبضت عليهم الحكومة كما يقضى بذلك واجبها وساقتهم الى المحكمة فقضت فيهم قضاءها ...

وليس فى هذا الحادث ما يتصل بالسياسة العامة للبلاد بسبب من الاسباب ؛ وماكانت أية وزارة تستطيع أن تسلك فيه سبيلا غير ما سلكته وزارة البارودى ...

ولكن الطامعين المفترين ما لبثوا أن عادوا يملؤون الدنيا صياحا وتنديدا ، وتهديدا ووعيدا ، فقد واتتهم فرصة جديدة بعد أن أفلتت من أيديهم أزمة الميزانية .

ونسى هؤلاء كل شيء الا تحقيق أطمــاعهم من وراء هذا الحادث ، فكان من أقــوالهم وأفعالهم ما هـــو خليق بأن يسمهم بميسم الخزي والعار ، بل ما هو خليق بأن ساق بين أقوى الادلة وأنصعها على صحة مبدأ القائلين بأن هذه المدنية المزعومة قد أفسدت بنى الانسان فزادتهم قربا الى الحيوانية ، بقدر ما باعدت بينهم وبين ما يرجى للآدمية من سمو ...

والحق لقد دل مسلك دعاة المدنية الاوربية على مبلغ ما يمكن أن يصل اليه غدر الانسان بالانسان فى عصرنا هذا ، وما برح مثل عملهم هذا يوحى الى ذوى الاحلام من البشر أن الانسان لايزال هو الانسان ، وانه اذا كان ارتقى فى شيء ففى وسائل الكيد والبطش ؛ أما غرائزه الاولى غرائز السيطرة والانانية فما زالت بحيث لم يطرأ عليها أى تهذيب على الرغم مما يحلم به الخياليون من حماة الانسانية ...

وانا لا نجد فى بيان مدى ما بلغه هؤلاء الساسة من انحطاط خيرا من أن نعرض المسألة فى وضعها كما حدثت مكتفين بذلك عن كل تعليق عليها ، فما يمكن أن يبين كلام ما يقوم فى الذهن أو يعتلج فى أطواء النفس ، تلقاء هذا العدوان الشنيع ...

أراد الشراكسة المتذمرون من ســـياسة عـــرابى والمضللون منهم أن يقتلوه هو وأصحابه من كبار رجال الحركة الوطنية ، وقد نمى ذلك الى علم عرابى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الاول ، وهذا علمه من أحد المتآمرين وهو راشد أنور أفندى الذى خالف اخوانه فسارع الى افشاء سرهم ...

وفى اليوم الثانى عشر من شهر ابريل سنة ١٨٨٢ ، قبض على تسعة عشر ضابطا وسيقوا الى مجلس عسكرى

ألف لمحاكمتهم بعـد أن عرض الامر على الوزراء وعلى الخديو ، وقد جعلت رئاسة المجلس للفريق راشد باشا حسنى وهو شركسى ، وقد اختـير كما ذكر عرابى فى مذكراته المخطوطة (١) لنزاهته وتقواه واعتداله ...

وبعـد عشرة أيام بلغ عدد المقبـوض عليهم ثمانية وأربعين ، وكان من بينهم عثمان باشا رفقى نفسه «وقد اعترف أحدهم وهو القائمقام يوسف بك نجاتى بالمؤامرة وأقر بأن راتب باشا هو مدبرها ، وأنه أغرى الضباط الشراكسة بحضور عثمان باشـا رفقى بقتل عرابى ، واعتـرف بعض الضـباط المتهمين بما يؤيد اعتراف نجاتى بك » (٢) .

وقضى المجلس بادانة أربعين رجلا منهم رفقى، فحكم بتجريدهم جميعا من ألقابهم ونفيهم الى أعالى النيـل الابيض فى ربوع السودان .. وعوقب بهذا العقاب اثنان من المدنيين مع حرمانهما من الحقوق المدنية ، وأحيـل خمسة على المحاكم الاهلية ، وعوقب راتب باشا المدبر للمؤامرة كما رأى المجلس بالحرمان من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ومنع من العودة الى مصر واذا عاد فينفى من فوره ... وذكر المجلس أن الخـديو اسـماعيل هو الذى حرك المؤامرة ، واقترح أن ينظر مجلس الوزراء فى مرتباته ...

***

اختلفت الآراء فى بواعث هذه المؤامرة الشركسية ، ومن هذه الآراء ما ذكره بلنت حيث يعزوها الى الخديو

---

(١) تحت يدى نسخة من هذه المذكرات المخطوطة تفضـل بعض أبنائه بامدادى بها ..

(٢) الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعى ، وقـد نقل ذلك عن جريدة الوطن عدد ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢

اسماعيل ، الذى وكل بها رجلا عرف بعداوته القاسية للحركة الوطنية ووجوهها يدعى راتب باشـا ، وكان اسماعيل يطمع أن يصل بهذه المؤامرة الى العودة الى عرشه ابتغاء القضاء على القلاقل والفتن المزعومة التى عجز توفيق عن القضاء عليها كل العجز ، وكان يمنى نفسه بأن توافق انجلترا على ذلك فتقنع به تركيا أو تجبرها عليه ...

ويؤكد بلنت هذا الرأى قائلا : انه عرفه من جملة مصادر منها ابراهيم بك المويلحى سكرتير اسماعيل ، ولقد أيد الشيخ محمد عبده هذا الراى فيما جاء بكتابه الى بلنت بعد سفره الى أوربا عن هذه المؤامرة قال : « أما فيما يتصل بالمؤامرة الشركسية على حياة عرابى باشا فليست بذات خطر حقيقى ، فان الخديو السابق اسماعيل أكبر عدو رأته مصر والرجـل الذى لايزال يحقد على ما بلغناه من سعادة ، لا يفتأ منذ مدة طويلة يضع ألغام مؤامرته ليدمر حكومتنا الخالية ظنا منه أن ذلك يمهد السبيل لعودته ، ولكن الله القادر قد بعثر آماله أدراج الرياح حيث ان كل مصرى يعرف أن عودة اسماعيل معناها خراب مصر » (١) .

ولقد بدأت المؤامرة بتـذمر الضباط الشراكسة فى الجيش مما اتخذه وزير الحربية الجديد أحمـد عرابى باشا من اجراءات الترقية ، زاعمين انها اجراءات ظالمة تنطوى على الكيد لهم والانتقـام منهم ، لا عن جريرة ارتكبوها ولكن لانهم ليسوا مصريين ، ومما غاظهم كما زعموا الحاق بعضهم بالمناصب الخالية بالجيش المصرى فى السودان ...

والذى يقف على أساليب السياسة الانجليزية الماكرة

S, H, of The British Ocupation of Egypt, P. 252 (1)

فى تعكير كل جو ترى مصلحتها فى تعكيره لايستبعد ان يكون لمن كان يقيم بمصر من الانجليز يومئذ أثر كبير فى الايحاء الى هؤلاء الشراكسة بهذه الآراء لكى تشيع فيهم الفتنة ، ثم تجاوزهم الى المصريين فلا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة ...

ومما يميل بنا الى الاعتقاد فى صحة هذا القول الذى نقول ـ فضلا عما أسلفنا بيانه من سوابق السياسة الانجليزية ـ ما رمى به الانجليز الوزارة الوطنية من التهم على ألسنة صحفهم ومندوبيهم فى مصر وبخاصة ما ذكروه من الافك حول الجيش وسيطرته على كل شيء

والواقع انه لم يكن فيما فعل عرابى الا ما يقتضيه تطبيق القوانين العسكرية الجديدة التي وافقت الحكومة السالفة عليها ، فان تلك القوانين تنص على وجوب احالة المرضى والذين بلغوا سنا معينة على الاستيداع ، ولقد دافعت الوزارة بهذا ، ولكن الخراصين المناوئين لم يحملوا هذا العمل الا على الرغبة فى الانتقام ...

ولقد كان ممن نقلوا الى السودان ستة وثمانون من المصريين وتسعة من الشراكسة فحسب وستة من الاتراك فأى معنى للكيد والانتقام فى هذا ؟

ونحن اذا جارينا هؤلاء الكائدين لمصر وحركتها فيما زعموه من أن الوزارة متهمة فلا تصدق فيما تورده دفاعا عن عملها ، فان فيما كتبه الشيخ محمد عبده الى صديقه مستر بلنت فى كتابه المشار اليه أقوى دليل على براءة عرابى والوزارة السامية مما اتهمت به قال : «أما عن ترقية الضباط التى لاتزال تلغط بها الصحف الاوربية فاسمح لى أن أشرح لك الحقائق ، فأول كل شيء ان هذه الترقيات ليست من عمل عرابى باشا وحده ولا كانت رشوة يقصد بها اجتذاب الضباط نحو عرابى،

فانها كانت نتيجة للقوانين العسكرية الجديدة التى تقضى بأن يحال على المعاش من يبلغون سنا معينة ومن يصابون بالمرض أو التقاعد أو العجز ، وقد بدأ تنفيذ هذا القانون من عهد شريف باشا ووضع فى قائمة الاحالة على المعاش ثمانية وخمسون وخمسمائة ضابط ثم أرسل ستة وتسعون الى حدود الحبشة والى زيلع وأماكن أخرى ، وأخرج من الجيش نحو مائة ضابط ألحقوا بالوظائف المدنية ، ويبلغ عدد هؤلاء جميعا أربعة وخمسين وسبعمائة ضابط ، فكان من الطبيعي اذن أن تجرى ترقيات لملء المناصب الخالية . ولا يزال فى الجيش خمسون منصبا يحتفظ بها لخريجى المدرسة الحربية »

هذا ما ذكره الشيخ محمد عبده ومنه يتبين الحق فى هذه المسألة . على أننا لو فرضنا أن عرابيا قد آثر المصريين بالترقيات وتخطى بذلك نفرا من الشراكسة ، فلن يكون فى رأينا مخطئا حتى فى هذا العمل . فحسب هؤلاء الشراكسة ما نالوه من حظوة طوال العهود السابقة وبخاصة فى عهد رفقى ، وذلك على ما كانوا يضمرونه وما كانوا يبدونه من حقد واحتقار لمصر والمصريين ، وحسب المصريين وهم أبناء البلاد الذين تجبى منهم الضرائب ماذاقوا من هوان ومذلة على أيدى هؤلاء السادة الذين استنزفوا دماءهم ، واتخذوا منهم عبيدا واماء ...

وماذا كان ينتظر من عرابى غير أن يطبق القانون ، وهذا أقل ما يفعله رجل هو زعيم ثورة كان هذا القانون ثمرة من ثمارها ؟ ماذا كان ينتظر من ذلك الذى ظل طول عمره ناقما على حرمان المصريين فى الجيش واستئثار الشراكسة فيه بالخير ، فلم يكف عن الشغب على هؤلاء الشراكسة الباغين منذ أن كان جاويشا ليس له من الأمر

شيء ولم يفتر عن مقاومتهم ومصاولتهم فى كل خطوة خطاها فى سلك الجيش حتى انتهت اليه زعامته ؟

أجل ، ماذا كان ينتظر من هـذا الرجل ، وما كان حقده على هؤلاء فى يوم ما صادرا عن صغار أو أنانية ، وانما كان مبعثه ما يحس فى أعماق نفسه من حماسة وطنية وغيرة قومية هما فى مقدمة ما كان يتصف به من صفات ؟ !

ومهما يكن من الامر فما كان عمل عرابى فى أية صورة له ، مما يقابل بالقتل ! ولا كان تقديم المتآمرين الى المجلس العسكرى مما يستأهل كل ذلك السباب الذى راحت تنبح به جوقات الاستعمار ، وهل نسى هؤلاء ان عرابيا وصاحبيه قد قبض عليهم فى صورة مخزية غادرة تبعث على الاشمئزاز والسخرية ، لمجرد أنهم تقدموا ليرفعوا شكواهم الى أولى الامر مما كانوا يحسونه من اجحاف بحقوقهم دون أن يفكروا فى قتل أحد أو العدوان على أحد ؟

وكيف لايستحى دعاة الاستعمار من أن يلوموا هذا الرجل بالامس ويتهموه بالفوضى لمجرد أنه شكا أمره الى رؤسائه ، حتى اذا قبضت الحكومة عليه عد ذلك منها عين الصواب ، ثم يعودون اليوم فيندددون به ويستصرخ بعضهم بعضا عليه لا لشيء الا لانه يقدم الى المحاكمة فريقا ممن يتآمرون على قتله ! الا ما أشد ما تحسه النفس من ضيق وغيظ تلقاء هذه المقارنة بين الموقفين !

واتت الفرصة كلفن ومالت وأشياعهما من الثعالب وبنات آوى ، وهيهات أن تواتى الانجليز فرصة فيضيعوها ، لذلك ما كان أسرعهم الى استغلال الحادث فبدأوا أولا يذكرون التعصب الأعمى ، ثم انتقلوا الى

ذكر الفوضى الحكومية ، وعدوا ترقية الوطنيين مظهرا من مظاهر الرشوة التى أريد بها التأثير فى رجال الجيش كى يكونوا على استعداد عند أول صيحة ، ثم رأوا فى محاكمة الشراكسة مظهرا من مظاهر الظلم والاستبداد الفاشم قائلين فى منـطق عجيب ليس مثـله فى معنى الصفاقة والتبجح : ان المؤامرة وهمية لم توجد الا فى راس عرابى ، وان الفرض منها لم يكن سوى التخلص من الشراكسة بأى وسيلة ، وان المحكمة العسكرية التى فصلت فى الامر كانت جلساتها سرية فكانت تعمل بما يشير به عرابى ، لذلك جاء حكمهـا فى منتهى القســوة بحيث لا يقل عن الاعدام ، ولم يكفهم ذلك حتى يدعوا فى جراة وفى امعان فى القحة أن عرابيـا كان يذهب الى السجن فيعذب هؤلاء الشراكسة أيام المحاكمة ويشفى غليل نفسه بمنظر ذلتهم وخضوعهم ...

ولقد جعل الافاكون الخراصون هـذه المحاكمة من اكبر سوءات ذلك العهد ومن كبائر خطيئات عرابى ، وحذا المؤرخون من الانجليز حذو الساسة فى موقفهم من هذه المسألة ، وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك ، ومن هؤلاء كرومر ، وهو رجل كان بحكم صلته برجال ذلك العهد جميعا يعلم حقيقة الامر ، ومع ذلك طاوعه ضميره على أن يقول فى كتابه « لم يظهر دليـل جدير بالتصديق ولا ظهر دليل على أن تهمـة المؤامرة كانت تهمة حقيقيـة ، وكان حكم المحكمة العسكرية وثيقـة وحشية تحمل طابع المظاهرة السياسية اكثر مما تحمل طابع الحكم القضائى وكان عرابى كثير الظنون شأنه فى ذلك شأن كل جاهل من الرجال ، ولم تعش المؤامرة على قتله الا فى خياله هو فحسب » .

هذا الذى شاء أدب كرومر أو على الاصح شـاءت

سخيمته أن يكتبـه مع علمه باعتراف بعض المتآمرين بالتهمة ...

ولقد أخذ بعض المؤرخين من المصريين هـذا الكلام المرسل على عواهنه وشايعوا الانجليز وا أسفاه فى رأيهم هذا فى عرابى كما شايعوهم فى غير هذا من الآراء ، الامر الذى يؤلم النفوس أكبر الالم ، فليس يعنينـا ما يقول خصوم الوطن وخصوم عرابى ، ولكننا نضيق كل الضيق أن تجوز الاباطيل على المصريين فى رجل منهم ، ومن هنا ضاع تاريخ عرابى. وأنكره بنو قومه ونجح الاحتـلال فى مأربه فساق الجيل الذى خلف جيل عرابى كما يحب ، فأضاف هؤلاء الى عيب خضـوعهم للدخيـل فضيحة مشايعته فيما يسبهم به فى شخص بطل من أبطالهم !..

ويجدر بنا أن نضع أمام عينى القارىء بعض ما كتبه الشيخ محمد عبده تعقيبا على المؤامرة .. قال فى كتابه الى بلنت : « كانت الوزارة يخالجها منـذ زمن طويل شبهات عما عسى أن ينجم من شر ، فمنذ أن عاد راتب أول مرة الى مصر ، طلب البـارودى رئيس الوزراء الحالى وكان يومئذ وزير الحربية ، من شريف باشـا فى حضرة الخديو اخراج راتب ، فقد داخلتـه الريبة بسبب أن راتبا ترك الخديو السابق فجأة فى نابلى ولكن شريفا رفض ذلك على الرغم من أن البارودى حمله تبعة ما عسى أن يقع من الحوادث يوما ما ، وكان ذلك لان راتبا كان صهر شريف ، وربما كان شريف لذلك يرى رأيه فى العمل على اعادة اسماعيل » .

ثم قال الشيخ محمد عبده : «وقد أحدث هذا الحادث شيئا من الهياج بين عامة الناس . ان كل امرىء يعلم أن حياة عرابى معرضة للخطر كل يوم كحياة غيره ، كما أنه لا يتفق لرجل مهما يكن من عظمتـه الا يكون بين

الناس من يريده بالسوء ، ولكننا لا يسعنا الا أن نضحك اذا أعلن أن انجلترا على وشك الفوضى لان أحد المجانين من المدنيين أو من العسكريين حاول قتل ملـكتكم » .

وليت هؤلاء المغرضين قد اقتصر أمرهم على الكذب والاتهام ، فلم يخطوا تلك الخطوة النكراء التى أكدت القطيعة بين الخديو والوزراء وعجلت الكارثة للبـلاد ، وما كانت ادعاءاتهم الا مقدمة بدأوا بها ما كانوا يبيتون من المكر السيىء .. يقول فى ذلك بلنت : « وفى تلك الاثناء بلغت الحوادث فى مصر مبلغا عظيما من الحرج بسبب المؤامرة الشركسية التى وصلت أنباؤها لندن فى الاسبوع الثالث من ابريل ، ولم أعرها أول الامر كثيرا من الاهتمام واخذتها على أنها احدى الشـائعات التى كانت تذاع يومئذ ، ولكن سرعان ما أصبحت ذات خطر كبير لا من حيث هى فى ذاتها ، ولكن بوجه خاص لانها أمدت رجالنا السياسيين بالفرصة التى طالما ترقبوها ، لكى يوقعوا الخلاف الصريح بين الخديو ووزرائه ، وكان مالت يومئذ قد خضع تمام الخضوع لكلفن ، وصـــار منذ ذلك الحين يهتدى فى حركاته حتى النهاية بما يعرض كلفن من آرائه الانجليزية الهندية » .

عرض قرار المحكمة العسكرية على الخديو فأسقط فى يده ، أيوافق على هذا الحكم فيظهر أمام الانجليز أنه يظاهر وزراءه فيخسر الذين يظاهرونه هو ، أم يرفض التصديق عليه فيرضى الانجليز ويقضى على كل أمل فى ارضاء عواطف الوطنيين ؟

وكان مالت قد اشار عليه برفض هذا الحكم الذى ينطوى على القسوة والظلم على حد قوله ، وللقارىء أن يقدر مبلغ ما فى هذا التدخل من تطفل وقحة اذ ما شأن مالت وهـذا الحكم مهما كان ظالما كما يزعم ؟ وانهم

ليعلمون أن جلسات المحاكم العسكرية كانت سرية حتى فى عهد المراقبة ، وان الخديو لايملك رفض أحكامها وكل ما له من حق فى هذا الصدد هو تخفيف تلك الاحكام بعض الشيء بعد التصديق عليها ...

حار توفيق واشتدت حيرته ورأى الامر جد خطير ، وأي شيء أخطر من أن يتحدى وزراءه فى غير حق وفى موقف كهذا تحيط فيه بهم الدسائس من كل جانب ويعترض طريقهم من الصعاب ما يتطلب تذليله جهودا متواصلة .

لذلك وقف الخديو أول الامر موقفا مبهما ، وسرعان ما شاعت الشائعات عنه من ناحية ، وعن الوزارة من ناحية أخرى ، وكلما مر يوم ازدادت ريبة الوطنيين وتعاظم غيظهم وغضبهم ، ووجدت الدسائس الجو الصالح لنجاحها ، فنشطت نشاطا كبيرا ، ولازم مالت الخديو يوحى اليه ويوسوس له .

ولم تطل حيرة توفيق فانه آثر جانب مالت ، وخطا بذلك خطوة أخرى من خطواته التى كانت تعجل سير الحوادث أبدا نحو الغاية التى رسمها الانجليز والتى كان بلوغها من جانبهم معناه التهام مصر وازدراد تلك اللقمة التى طالما منت انجلترا نفسها بازدرادها ...

ولعلنا نذكر من مواقف توفيق السالفة ما كان يدفع به الحوادث فى طريق العنف والثورة دفعا ، فهو الذى أدى الى انضمام الحزبين العسكرى والوطنى وتضافرهما يوم تنكر للدستور وأخرج شريفا من الوزارة ، وهو الذى تقع على عاتقه قبل غيره مسؤولية مظاهرة عابدين ثم هو الذى قبل المذكرة المشتركة فأحبط أعمال شريف للمرة الثانية وصدم الوطنيين صدمة لم تدع لهم بعد رجاء فيه .

وليس بعجيب أن تكون خطى توفيق كلها مفضية الى الاقتراب من الكارثة فهو انما يعمل بوحى من الانجليز وقد عين هؤلاء الهدف الذى يقصدون اليه بسياستهم ، وكان الخديو قد دان بمبدأ نحسب أنه جرى فى نفسه مجرى العقيدة وذلك أن يؤثر جانب الانجليز فى كل شىء لان فى ذلك كما توهم منجاته من الصعاب التى كانت تحيط بعرشه .

رأى الخديو كما أوحى اليه مالت أن حكم المجلس العسكرى على المتآمرين من الشراكسة حكم لا يسعه الموافقة عليه ، ورأت الوزارة من جانبها أنها سلكت فى المسألة منذ بدايتها مسلكا لا غميزة فيه فهى بذلك تتمسك بالحكم الذى أصدره المجلس، هذا الى أن رفض الحكم من شأنه أن يضيع هيبتها وينتقص من نفوذها ، ثم انها الى ذلك ترى التحيز واضحا من جانب الخديو، ذلك الذى كان يتشدد بالامس أعظم التشدد يوم سيق عرابى وصاحباه الى السجن لا لشىء سوى أنهم شكوا الى أولى الامر حالهم ... ومن هنا قامت أمام البلاد مشكلة من أدق المشاكل وأخطرها ...

وكان الذى يغضب الامة والوزارة فى الواقع أشد الغضب وآلمه تدخل الانجليز فى تلك المسألة التى لا صلة لهم بها ولا شبه صلة ، وأحست الوزارة أن غرضهم هو احراجها فحسب ، ومن هنا اتخذت المشكلة مظهرا دقيقا غاية الدقة ، خطيراكل الخطر ، فلقد وجد الوطنيون البلاد تلقاء موقف .. تمتحن فيه الكرامة الوطنية ، والعزة القومية ، ورأوا الظروف تعود من جديد فتظهر للخديو أن لا سبيل له الا سبيل الوطنيين لانه بانحرافه عن هذه السبيل انما يطعن البلاد طعنة نجلاء فى صميم قوميتها .

ولقد فرح المستعمرون لاريب أن تتعقد المشكلة على هذا النحو ، وزاد فرحهم أنها من صنع أيديهم ، لذلك كانوا لا يألون جهدا فى العمل على تفاقمها بكل ماوسعهم من مكر وخبث ، وراحت صــحفهم تزيد نار الخلاف اشتعالا لاتتورع ولاتتوانى ، ومن ورائها رجال السياسة ورجال المال يصـــورون مصر فى اشــنع حالات الفوضى والاضطراب ، فلقد سيطر رجال العســكرية وسيطر زعيمهم عرابى على كل شىء حتى ما يقف فى طريقه حائل من قانون أو التزامات حتمتها الديون والظروف على مصر ...

وكان الخديو فى الواقع نلقاء آخر فرصة يستطيع أن ينقذ بها مصر مما كان يبيت لها ، ولكنه ألفى نفســه سليب الارادة أمام ارادة الانجليز ، بل انه فى الحق قد فرح أن يلطم وزارة البارودى لطمة يتخلص بها منهــا ويتخلص من عرابى الذى بات يغار منه اشد الغــيرة ويمقته أشد المقت حتى ما يطيق أن يسمع اسمه .

وليت توفيقا تحرك من تلقاء نفسـه ، اذن اهان الخطب وخفت وطأة البلوى على النفوس ، فقد كان يمكن أن يقال يومئذ انه ارتأى رأيا ، وأنه ينتوى الخير او ينتوى الشر حسبما يرى ، ولكنه وا أســفاه كان يقوى على الوطنيين بضعفه ، فلم يكن يريد شيئا وانما كان يراد له كل ما يأخذ أو يدع من أمر ...

وبدا لمالت فأوعز الى الخديو أن يتخلص من المأزق بعرض الامر على السلطان ، وحجته ان عثمـــان رفقى يحمل لقب الفريق ، فلا يجوز لاحد غير السلطان أن ينزع منه هذا اللقب ، وسرعان ما فعل توفيق كما أشار به مالت فزاد الامور ارتباكا وتعقيدا .

ولقد اخطأ مالت خطأ كبيرا فيما اشار به ، فانه جرجر

بذلك تركيا الى الدخول فى ذلك النضال ، الامر الذى كانت تحذره الدولتان أعظم الحذر، وان كانت احداهما تخفيه ، بينما الاخرى لا تتحرج من أن تعلنه فى كل مناسبة وتبديه ...

أما الوطنيون فقدغضبوا لذلك أشد الغضب ، ورأوا فيه ضربا جديدا من لؤم مالت ، فأجمعوا أن يمنعوا تدخل تركيا مهماكلفهم ذلك من وجوه الصعاب والمشاق. وبلغ الغضب برئيس الوزراء ان اعلن فى عزم وتصميم : « أنه اذا أرسل الباب العالى أمرا بنقض حكم المجلس العسكرى على الشراكسة السجناء ، فان لن نطيع هذا الامر ، واذا أرسل الباب العالى من قبله مندوبين ، فسوف لا نسمح لهم أن يهبطوا مصر ، وسوف نردهم بالقوة اذا لزم الامر » (١) .

وهذه لاريب ثورة غضب من البارودى نعدها من اخطائه ، فلقد أفضى بهذا التصريح الى مالت ، وهذا أرسله الى حكومته وانه لشديد الاغتباط به اذ يسوقه دليلا على أن الامور قد بلغت غاية الحرج ، ثم انه يسوقه من جهة أخرى دليلا على صحة ماذكره مرارا وهو تسلط زعماء الجيش واستهتارهم بكل سلطة . ولم ينج عرابى من حملات الكائدين له وحمل مسؤولية هذا التصريح كأنما كان هو قائله ، وأرجف المرجفون أن البارودى انما يعمل بوحى من عرابى الذى يعد الحاكم الحقيقى للبلاد ! ..

الحق أن البارودى قد أساء الى القضية اساءة كبيرة بهذا التصريح . فهو فضلا عما ذكرنا ، انما يتحدى السلطان فى ذلك الوقت العصيب فيضيف الى اعدائه عدوا جديدا ، وان الذى يحيط به الاعداء من كل جانب

---

(1) Modern Egypt — Cromer.

لجدير به أن يحتال ليستل السخائم من صدورهم ، أو ليكسب من الاعوان والاصدقاء من يكونون له فى الشدة قوة وسندا .

وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصريح استحكام الازمة بين الوزارة والخديو ، فلقد رأى توفيق أنه أصبح فى الواقع وليس له من الامر شيء ، فاذا كان البارودى يقف هذا الموقف فى وجه السلطان نفسه فكيف اذا جاءت المعارضة من الخديو ؟ وهذا هو المعنى الذى لا يفتأ مالت وأعوانه يوحونه الى الخديو فى تلك الازمة العصيبة .

ولو كانت الوزارة أصرت يومئذ على موقفها من العناد والصرامة لحملت قسطا كبيرا من التبعة عن تعقد الامور وتحرجها ، ولكنها ما لبثت أن خطت خطوة حميدة حقا كانت تنطوى على كثير من الكياسة وبعد النظر ، فانها تقدمت الى الخديو تقترح أن يخفف هو الحكم من تلقاء نفسه دون الرجوع الى تركيا أو غيرها . والوزارة ترضى أن ينفى المحكوم عليهم من مصر الى أى جهة من الجهات دون أن تمس رتبهم أو ألقابهم وانما تستبعد أسماءهم من سجلات الجيش المصرى ...

وهذا المقترح لاريب دليل صادق على حسن نية الوزارة ورغبتها فى أن تنتهى المسألة وتنجو البلاد من كيد الاعداء ، وهى فيما تقدمت به على هذا النحو متساهلة فى الواقع أكبر التساهل ، فما دام المجلس العسكرى قد حكم بادانة هؤلاء فان ابعادهم من البلاد يقتضى ابعادهم من سجلات الجيش ، ولكن الخديو وا أسفاه قد تنمر وتنكر ، فرفض أن يجيبها حتى الى هذا الاقتراح ...

وكان مالت من ورائه لا ينفك يوسوس له ويزين

فعل السوء ، وكان جرانفل قد أنكر من مالت ما أشار به على الخديو من دعوة تركيا الى التدخل ، فكتب اليه أن يسير على وفاق مع ممثل فرنسا ، وفى هذا تلميح الى ما كان فى سياسته من خطأ ، وكان ممثل فرنسا يسير بوحى من فرسنيه ، ولكن عز على مالت أن يتراجع بعد هذه الخطوات فينقض ما نسجه من غزل بيده ، فانظر اليه كيف يخلع النقاب على صورة قل أن يوجد مثيل لها فى سجل السياسة العام فيكتب الى جرانفل قائلا : « اسمحوا لى أن الاحظ أنه عند النظر فى الخطة التى يجب أن يسلكها الخديو بأزاء حكم المجلس العسكرى يجب أن نلقى نظرة عامة على الحال كلها ، وأن نذكر أن الوزارة الحاضرة تسعى لتضييق نطاق الحماية الانجليزية الفرنسية ، وأن نفوذنا آخذ كل يوم فى النقصان ، وقد يستحيل علينا أن نستعيد سلطتنا العليا حتى تخضد شوكة الحكم العسكرى الذى يرزح القطر تحته الآن ، وفى اعتقادى أنه لابد من حدوث ارتباكات شديدة قبل الوصول الى حل مرض للمسألة المصرية ، وأن الحكمة تقضى باستعجال هذه الارتباكات لا بتأجيلها » (١) .

وأى كلام يمكن أن نعلق به على هذا الذى يقول مالت وبخاصة تلك الحكمة التى يشير اليها ؟ أهكذا تطغى المطامع على العقول والقلوب حتى تجعل من الحكمة استعجال الارتباكات ؟ ولكن خرافة الذئب والحمل لن تزال أبدا الاساس الذى يقوم عليه منطق الكلام بين القوى والضعيف فى هذا الوجود !

وأى دليل أبلغ من هذا على صحة ماذكرناه وما يذكره كل منصف عن السياسة الانجليزية تجاه مصر منذ كان لها فى هذا الوادى أطماع ؟ الا انا لنقرر تلقاء هذا فى غير

(١) المسألة المصرية تعريب الاستاذين العيادى وبدران

تردد أن هذه السياسة اللئيمة كانت خليقة بأن تقابل من جانب الوطنيين بكل مقاومة ، بل انها لسياسة كان يغتفر فى مقاومتها يومئذ كل عنف ، ويحب أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول انها سياسة كان لا يغتفر معها الاعتدال ولا تمتدح الحكمة ، ان كان الاعتدال والحكمة معناهما اقرار الذلة ومقابلة الغدر واللؤم بالصفح والمغفرة !

ولكن بعض الناس لايزالون يأخذون على عرابى وحزبه تشددهم وعدم مصانعتهم خصومهم ويعدون اباءهم الوطنى من السيئات التى لا تغتفر ولا تنسى ، وما نظن أن هؤلاء الناس يعلمون ماكانت تبيته السياسة الانجليزية لوطنهم من غدر واذلال ، فمن أصعب الامور أن يتصور المرء قبولهم الذلة على أوطانهم حتى ينكروا على الوزارة ما فعلت ...

ورأى جرانفل أن يشايع فرسنيه فى هذه المسألة ، وكان يرى فرسنيه أن يخفف توفيق الحكم كما ترى الوزارة فتنتهى الازمة ، ولكن كيف يدع مالت الفرصة تمر وهى من صنع يديه ؟ وكيف يطيق أن تخرج الوزارة من الازمة ظافرة فيكون ظفرها فى الواقع هزيمة له ؟ لذلك لم يزل بتوفيق حتى وقع على أوراق الحكم بنفى المتآمرين الى خارج البلاد لا الى السودان مع عدم استبعاد أسمائهم من سجلات الجيش ، ومعنى ذلك أن النفى مؤقت ...

وتلقت الوزارة اللطمة وتلقتها معها البلاد ، وآلم عرابيا وضباط الجيش من انوطنيين هذا الترفق بالمتآمرين ، وقد كان عرابى ومن شايعه على وشك أن يفقدوا رؤوسهم بالامس أو ينفوا الى أقصى السودان لانهم شكوا من سوء ما صنع بهم رفقى ...

وأعلنت الوزارة على لسان رئيسها أن لابد من قرار يلغى هذا القرار حتى تمحى الاهانة التى وجهت الى الوزارة والى البلاد فى شخصها ، ولكن مالت حذر الخديو أن يجيب وزراءه الى ما طلبوا ، ويستطيع القارىء ان يدرك خطورة هذا الموقف ، فلقد تأكدت القطيعة بين الخديو ووزرائه ، وانعدمت الصلة وتفاقم البلاء ...

وصل كل من الطرفين الى الموقف الذى يفسر فيه كل عمل حسب ما يجرى فى اطواء النفوس ، ففى كل حركة ريبة ، وفى كل بادرة اهانة ، وكل نية لن تكون الا نية سوء ، وكل جنوح الى السلم لن يؤخذ الا على أنه ضرب من الهزيمة والتسليم ، وكل كلمة نابية أوشديدة لن تفهم الا على أنها نوع من التحدى يراد به اعنات القلوب واحراج الصدور ...

وفى هذا الموقف راح مالت يجنى ثمار غرسه وانه ليطفر من الفرح كما يطفر الشيطان . كتب الى جرانفل فى اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ، أى بعد قرار الخديو بتسعة أيام يقول : « لقد انقطعت الصلة بين الخديو ووزرائه ووصل الموقف الى أقصى الخطورة » ...

وتقدمت الوزارة لترد على الخديو فخطت خطوة جريئة بالغة الجرأة ، فدعت مجلس النواب من عطلته دون الرجوع الى الخديو لتعرض عليه الامر ، فازدادت الامور حرجا على حرج ، فلقد عد أعداء البلاد هذا العمل من الوزارة بمثابة خروج على الحاكم الشرعى لا يقل فى مغزاه عن خلعه من عرشه ، ونسوا أو تناسوا أن الخديو باتباع مشورتهم هو الذى دفع الوزارة حتى أوقعها فى مأزق ضيق بحيث لم يبق أمامها الا أن تقر

الخديو على خروجه على الدستور ومشايعة أعداء البلاد او تستقيل ، وفى كلا الامرين تفريط منها فى حقوق البلاد فضلا عن كرامه رجالها ...

وانطلقت الشائعات من هنا ومن هناك ، فالبارودى يريد أن يثب الى العرش، والجيش على أهبة لان يتحرك الى عابدين ليرغم توفيقا على قبول مطالب الوطنيين كما أرغمه على مثل ذلك فى اليوم التاسع من شهر سبتمبر من العام الماضى ، والخديو يعد العدة للمقاومة ، الى غير ذلك من الاراجيف التى كان من طبيعة ذلك الموقف أن يخلقها .

ولو كانت الروح العسكرية هى المسيطرة على الحكم يومئذ كما أرجف المرجفون لما وقف دون الجيش حائل الى القصر وليكن بعد ذلك النصر أو الطوفان ، ولكن الوزارة رأت أن تحتكم الى نواب البلاد، ولما كانت واثقة أن الخديو لن يدعو المجلس دعته هى ليفصل فى الامر، ولا عبرة بالشكل فى سبيل تحقيق الجوهر ...

وسئل رئيس الوزراء عن وجهة نظره فى دعوة المجلس دون الرجوع الى الخديو ، فكان جوابه أن الخديو قد نشأ الخلاف بينه وبين وزرائه بحيث لايمكن الاتفاق بينه وبينهم ، ولذلك فقد دعى المجلس دون مراعاة سلطته فى هذا ، ثم قال : « ان شكوانا من سموه هى أنه سلك مسلكا يقضى على استقلال مصر ، وكثيرا ما فعل ذلك دون مشاورة وزرائه » (١) .

والحق أن توفيقا كان يود التخلص من هذه الوزارة بأى ثمن وكان فيها البارودى الطامع فى عرشه ، وعرابى زعيم مصر وقائد حركتها القومية ، الذى يسير بطبيعة حركته فى طريق تعد عند الخديو طريق الضلال والعصيان

---

(1) Mi, Egypt. . .

وتعد كل خطوة فيها ثورة وتكبرا ، وأى شىء هو آلم لنفسه من أن يرى فلاحا من أبناء هؤلاء الذين ماخلقوا فى رأيه الا للفأس والطاعة يتربع على كرسى الوزارة ، ويتكلم اذ يتكلم باسم الامة ، ويقبل ما يقبل أو يرفض ما يرفض باسم الامة ؟ ..

ولقد عاب كثير من الناس على البارودى وعرابى مسلكهما تجاه الخديو فى الازمة ، وحجتهم أن الواجب كان يقضى على البارودى أن يترك الحكم ما دام الخلاف قد استحكم بينه وبين الخديو ، ولقد يبدو هذا الكلام وجيها لمن ينظرون فى النتائج دون تمحيص المقدمات ، أما الذين لا يصدرون حكما الا عن تقص وفهم ، فهم لا يذهبون مذهب هؤلاء ، ولا يقيسون قياسهم .

وليست المسألة دقيقة على الافهام حتى تتشعب فيها وجوه الرأى ، فحسب هؤلاء العائبين على الوزارة مسلكها أن يذكروا أن الخديو كان يعمل بوحى من الانجليز وعلى ذلك فاجابته لن تكون الا تسليما لاعداء البلاد ، الامر الذى لن يقبله وطنى ..

ولو أن الامر كان خلافا بين الخديو ووزرائه ، وكان الخديو يريد وجه الوطن ، فالسبيل واضحة أمامه ، وذلك أن يحتكم الى الامة ممثلة فى مجلسها النيابى ، ويجعل للمجلس عن طيب خاطر القول الفصل فى الخلاف

وهل كان يحمد من الوزارة أن يكون قصارى جهدها الاستقالة من الحكم وانها لفى موقف جهاد ومقاومة لدسائس الدساسين ومطامع الطامعين ، وان الخلاف بينها وبين الخديو فى جوهره لخلاف على السلطة لمن تكون ؟ .. كلا ، بل انا لنرى استقالتها فى مثل تلك الظروف ضربا من الفرار ومثلا من أبلغ أمثلة الضعف ، وبخاصة اذا سلمنا بموقف الخديو من القضية كلها على

النحو الذى نذكره والذى لن نجد دليلا على صحته أبلغ مما ذكره كرومر فى كتابه حيث يقول عن الخديو : « أنه بين للسير ادوارد مالت فى يوم ٦ مايو أنه يؤثر أن تفقد مصر بعض امتيازاتها على يد الباب العالى وتعود اليها السلطة المنظمة على أن تبقى فى مثل تلك الفوضى » ، ومعنى ذلك أنه كان يريد أن تطلق يده فى مصر فيحكمها كما يشاء ولا عبرة فى سبيل الوصول الى هذا الغرض بما تفقد مصر مما حصلت عليه من امتيازات خطت بها خطوات واسعة نحو الاستقلال ...

لم يكن أمام الوزارة الا أن تحتكم الى نواب الامة ، وقد لجأت الى ذلك بدعوة المجلس الى الاجتماع ما دام الخديو لم يدعه ...

ووقفت وزارة البارودى لا تتحول ولا تلين ، فكان موقفها هذا ثورة لا شبهة فيها ، ثورة قومية كأروع وأجمل ما تكون الثورات القومية ، وهو موقف نراه جديرا بالاعجاب والتقدير ، وما نحسبه لو كان فى بلد غير بلدنا الا كان يعد من المواقف المشهودة التى تذكر فى مواطن الفخر والمباهاة ...

وكانت الوزارة قوية بادىء الامر لانها كانت معتزة بالنواب واجماعهم على الاخذ بناصرها ولكنها نظرت فاذا بينهم تغامز وفى صفوفهم اسرار واعلان ! واذا كبيرهم سلطان يدعوهم الى الحكمة والروية ... وكم تحمل على الحكمة والروية أعمال ليست منهما بسبب من الاسباب !

قال سلطان باشا يومئذ للسير ادوارد مالت : « لقد أسقط المجلس شريفا تحت ضغط عرابى ، وان نفس الاعضاء الذين الحوا فى ذلك أكثر من غيرهم يتوقون اليوم الى اسقاط الوزارة وقد استبان اهم أنهم

خدعوا » (١) ولو اطلع عرابى على الغيب يومذاك لرأى ان هذه أخف ضربة من ضربات سلطان هذا الذى بدأ يتنكر للحركة القوميـــة ، تلك الضربات التى ســوف يسددها الى قلب مصر فى ضجيج الجهـاد وسكرات الاستشهاد ...

انحاز سلطان الى توفيق منذ ذلك الوقت وطلب من النواب الحكمة والروية وما نلقى هذا القول على عواهنه فهذا كلامه لمالت الانجليزى عدو مصر اللدود ينبىء عن ذلك اذ أنه يكشف الوزارة أمام الكائدين لها من الانجليز ويجعلهم يستهينون بما تستند اليه من سلطة الامة .

وكتب مالت الى حكومته فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو يصف الحال فى مصر ، أو على الاصح يصف مبلغ ما أصابته من نجاح دسائسه الاجرامية ، قال : « يظهر أن رئيس المجلس والنواب يميلون الى جانب الخديو ولقد سألوا سموه أن يأخذ بالعفو فيصالح وزراءه ، ولكن الخديو رفض ذلك... ويصر سموه على رأيه فلن يصـالح وزارة تحدته صراحة وتهددته هو وأسرته ، واعتدت على القانون بدعوة المجلس الى الانعقاد دون الرجوع اليه ، وفى القاهرة قدر غير قليل من القلق ، وكثير من الناس يغادرونها » (٢) .

ازاء موقف السـلطان وفريق من النواب انخلع عن رئيس الوزراء عزمه ، وتزايل اصراره شيئا فشيئا ، حتى رأت البلاد البارودى يرفع الى الخديو استقالته فيرتكب بذلك اثما نعيبه عليه أشد العيب فقد كان عليه أن يستطلع رأى النواب صراحة فى جلسة يعقدونها ، فاذا ناصروه كان عليه أن يبقى فى مكانه حتى يقال فيحظى

---

(١) M. Egypt

(٢) M. Egypt

بشرف الاقالة أو ينتصر فيكون له فخر الانتصار ...

لقد رفض النواب ان يجتمعوا فى مجلسهم ، اى انهم رفضوا ان يسايعوا الوزارة فى تحديها الخديو، واجتمعوا فى منزل رئيسهم ، ولكن هذا أمر شكلي لايمس جوهر الموضوع ، فالامر الذى كان يهم الوزارة هو معرفة رأى ممثلى البلاد ، وسواء لديها اجتماعهم فى مجلسهم أو فى أى مكان ، فليس ثمة من فرق بين الاجتماعين الا ان هذا رسمى وذاك غير رسمى ، ولم يكن المجال يومئذ مجال شكليات ، وقد جرى الخديو فى مضماره الذى اختاره على الرغم من ارادة البلاد، وهل كان نواب الشعب الفرنسى الذين التقوا فى ملعب التنس فى مستهل ثورتهم الكبرى لا يعبرون عن رأى الشعب لانهم لم يجتمعوا فى قاعة مجلسهم ؟

***

الحق أن البارودى قد هدم ما فعل جميعا باستقالته هذه ، ولو انه نال شرف الاقالة ، لكان منطقه متسقا ولأضاف بذلك الى نفسه والى وزارته معنى من معانى الاباء وحمل الخديو والموحين اليه وزرا جديدا يضاف الى سابق أوزارهم .

وعجز الخديو عن أن يقيم فى مصر وزارة ، فقد أشفق من الحكم الرجال يومئذ وأشفق مصطفى فهمى باشا حين عرضت عليه رئاستها عملا باقتراح ممثلى انجلترا وفرنسا اللذين صار لهما الآن حق اسقاط الوزارة الى من يرضيان عنهم فى مصر .

وصرح الوزراء على الرغم من استقالة رييسهم أنهم لايستقيلون الا اذا كان ذلك بأمر من مجلس النواب .

هنا يعود عرابى فيثب الى مكان الصدارة من حوادث قومه بعد أن تنحى البارودى ، ولقد كان عرابى فى الواقع

فى راى الناس وفى راى الاوربيين فى مكان الصدارة دائما وان كانت رئاسة الحكومة للبارودى ...

عاد عرابى فوثب الى الطليعة ، وقد ضاق البارودي بالامر ذرعا ، فهو الذى أوحى الى الوزراء بما فعلوا وقد عز عليه أن يبعد الوزراء عن مناصبهم بمشيئة غير مشيئة الامة ، وتلك خطوة أخرى نضيفها فى غبطة وفخر الى سابق خطواته ...

***

ووقف عرابى فى مكانه لا يتزعزع وما كان أصلبه وأشد مراسه اذا وقف فى أمر يرى أنه الحق ، ولقد صور المبطلون وقفته هذه أنها عودة الى الثورة المسلحة وانه يوشك أن يفاجىء البلاد بيوم آخر كيوم عابدين ، فما حفل بكلامهم ولا خشى تهديدهم ، وكتبت الحكومات الى ممثليها فى مصر أن « يرسلوا الى عرابى فيبلغوه أنه اذا اصاب النظام خلل فسوف يجد اوربا وتركيا كمايجد انجلترا وفرنسا ضده ، وأنهم يحملونه تبعة ذلك » (١)

وتلقى عرابى هذا الكلام رابط الجاش ، وان كان ليفطن الى خطورة الموقف وأصر ذلك الفلاح الذى لولا ما كان من حميته وانفته منذ حداثته لكان يجيل الفأس يومئذ فى حقل من حقول هرية رزنة ولا يدرى من أمر السياسة والحكم شيئا ...

وظل الرجل على عناده تكشف عن كرم عنصره فيفهم من يريد أن يفهم أن بين أولئك الفلاحين من أمثاله الذين يجيلون فؤوسهم فى صبر وصمت فى حقول هذا الوادى رجالا لاينقصهم الا العلم والحرية ليبهروا العالم ببسالتهم ونبوغهم ...

وصرح سلطان وقد أخذ يكيد للبارودى وعرابى معا

(١) M. Egypt

« أنه ليس من الممكن تغيير الوزارة مادامت القوة الحربية مجتمعة فى يد عرابى باشا » (١)

ولم يكن يدرى سلطان ان وراء تلك القوة الحربية قوة أخرى لولاها ما قام غيرها . لم يكن يدرى سلطان أن هذه القوة الحربية التى يشير اليها كانت قائمة فى مصر من قبل فلم يظهر أثرها وخطرها الا فى يد عرابى دون غيره من الرجال ، ولو أن رجال وطنه جميعا التفوا حوله ما نالت انجلترا منهم شيئا ولسوف يكون سلطان هذا وأمثاله ممن نكبت بهم مصر، من أكبر عوامل الهزيمة يوم التل الكبير .

***

حلت الازمة بأن أشار ممثلا انجلترا وفرنسا على الخديو « بأن يطرح المسائل الشخصية جانبا ، وبما أن سموه لم يستطع أن يقيم وزارة جديدة فانهم يطلبون اليه أن يجدد علاقته بالوزارة القائمة »

وبقيت الوزارة فى كراسيها ، وانتصرت كلمة الامة من جديد على يد ذلك الذى خرج من هرية رزنة ولم يلق الا قسطا من العلم فى الازهر ، والذى درج على الرغم من ذلك فى مدارج الرقى ، فكان نموه كما تنمو الشجرة الطيبة لا كما ينمو العليق الذى لايرتفع الا على غيره...

ولولا ذوو الاطماع من المتربصين بمصر وحرية مصر لجنت البلاد من هذا الانتصار أطيب الثمرات ولعزت بذلك كلمة الامة حتى ما تذل بعدها أبدا ...

ولكن مصر وا أسفاه سوف تجنى من انتصارها هذا العلقم والحنظل

---

(١) M. Egypt

بغى وعدوان

وكيف كانت ترجى لمصر السلامة ، والانجليز وراء الخديو يتربصون ويكيدون ؟ لقد آن لمالت الآن أن يدعو حكومته الى التدخل المسلح فقد حانت الساعة وواتت الفرصة ، ولن يهم انجلترا أن تكون هى المدبرة لكل ما حدث فلن يكون احتجاج الضعفاء الا صرخة ضائعة ولن يكون منطقهم الا ثرثرة ، وشكواهم الا تبجحا .

لم تكن فى البلاد ثورة ولا خاف فيها أجنبى على حياته أو متاعه ، ولكن أعوان السوء صوروها يومئذ صورة منكرة انزعجت منها أوربا أشد الانزعاج ، مع أن هؤلاء كانوا يعلمون حقيقة الامر ويوقنون أن المسألة لا تعدو أن تكون خلافا بين الوزارة والخديو ما كان ليبلغ ما بلغه من الشدة لولا تدخلهم على ذلك النحو الاثيم الذى بينا.

لم تكن البلاد فى مثل تلك الحال من الفوضى التى ذكرها المبطلون ، وحسبنا أن نورد هنا بعض ما جاء فى كتابين أرسلهما عرابى باشا الى مستر بلنت ، وكان ذلك فى أوائل شهر ابريل اى قبل الازمة التى نحن بصددها بنحو شهر ، قال عرابى : « وفيما يتصل بنا فنحن نشكرك على ما أسديت من صنيع يهم مصر وانجلترا معا وانا نأمل أن تكون انجلترا أقوى صديق يعيننا على وضع نظام طيب مؤسس على الحرية وعلى أن نحذو حذو الامم الحرة المتمدنة .

واما عن نصيحتك التى تعطفت فأسديتها الينا ، فانا نشكرك عليها ، ونرجو منك ان تقول عنا اننــــا لا نألو جهدا فى المحافظة على الهدوء والنظام ، لاننا نعد ذلك واجبا من أهم واجباتنا ، وانا لنحاول أن نحظى بالنجاح. ونستطيع أن نؤكد لك أن الهدوء الآن يشمل كل شىء ، والسلام يسود البلادكلها ، ونحن نبذلغاية ما فى وسعنا ومعنا اخواننا الوطنيون للدفاع عن حقوق من يقيمون فى بلادنا ، بصرف النظر عما ينتمون اليه من الامم ، وانا نحترم كافة المعاهدات والاتفاقات الدولية كل الاحترام، ولن نسمح لاحد بالمساس بها ما دامت الدول الاوربيــة تحافظ على علاقاتها الودية بنا ...

أما عما يهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال فى أوربا ، فانا سنحمل ذلك فى ثبات وحكمة ، ففى رأينا أن ذلك الوعيد لن يضر الا انفسهم وانه ليؤذى تلك الدول التى يضللونها .

وان غرضنا الاوحد هو أن تتخلص بلادنا من العبودية والظلم والجهل، وأننرفع بنىمصر الىمستوى يستطيعون معه أن يحولوا دون أى رجعة للاستبداد ، الذى كان يضع مصر فيما سلف من الازمنة فى زوايا الاهمال ...

وان هذا الذى أكتبه اليك هو ما يفكر فيه كل مصرى حر العقل محب لبلاده ...»

هذا ما يقوله عرابى الذى يصوره مالت نزقا جاهلا مستبدا ، والذى ظل فريق من بنى قومه حتى يومنــا هذا لا يجدون له فى خواطرهم من صورة الا ما صــور الاحتلال ، فاذا ذكرت للرجل منهم عرابيا راح يتلو عليك ما لقنه فى المدرسة وا أسفاه من أوصاف هى أبعد ما تكون عن حقيقة هذا الرجل المظلوم ، ومن اغراض شـــتان بينها وبين ما كان يبتغيه لقومه هذا الزعيم المفترى عليه

اجل ! لا زلنا مع بالغ الاسف نسمع حتى اليوم من بعض المصريين ومنهم من له فى الناس مكانته ، قدحا فى عرابى ، فاذا جادلناه لا نجد لديه من علم الا أن عرابيا كان طائشا جاهلا ، لايدرى شيئا من شئون بلاده ، الى أمثال تلك العبارات المحفوظة التى لا تغتفر لصبى فى المدرسة ، واذا كان عذر هؤلاء عن قدحهم انهم يجهلون تاريخ هذا الرجل ، فانا لن نجد لهم عذرا عن هذا الجهل فذلك هو العذر الذى يوصف بأنه أقبح من الذنب ...

لينظر هؤلاء فيما بينا من آمال هـذا المصلح وفيما قدمنا من أدلة بسالته وحميته ، وليتدبروا فى هذا الذى يكتب لصديقه بلنت ، وليسألوا أنفسهم بعد ذلك : ألا يزالون يرون فى هذا الرجل جنديا طائشا مغرورا لايدرى من أمور بلاده شيئا ؟

ان هذا الذى يقوله عرابى لبلنت هو ما كان يرجوه المصريون من انجلترا قبل الاحتلال ، وهو الذى ظلوا يرجونه منها بعد الاحتلال حتى يوم الناس هذا ، وكم تكرر فى مصر من أشباه ونظائر لهذا الموقف ؟ وكم جاء مثل هذا الكلام على ألسن غير لسان عرابى ، ولكنا نحجز القلم عن الاتجاه الى غير ما نحن فيه وقصارانا أن نقول ان السياسة الانجليزية فى مصر هى هى وإن تغير الزمن، واختلفت على موضع الزعامة الرجال ...

وقد اكد عرابى نيـاته فى كتابه الثانى ومما جاء فيه قوله : « اننا نميل أشد الميل الى التفاهم على روابط الصداقة والمصـالح المشتركة بيننـا وبين الدول التى تربطنا بهم علاقات ، فانه بالصداقة وحدها يستطيع من لهم حقوق فى بلادنا أن يجنوا ثمار المعاهدات والعقود التى نجد من واجبنا العمل على احترامها وحمايتها ، فاذا وقع خلاف فانه لايؤثر فينا فحسب ، ولا نكون نحن أكثر

تأثرا بها من غيرنا وانما تتأثر به الدول الاخرى جميعا وبخاصة انجلترا ، ولا يخفى على السياسى الواسع العقل ما يكون من فوائد لانجلترا من وراء مصادقتنا ومعاونتنا فى كفاحنا ..

وفيما يتعلق بالمراقبة فكن على يقين أنه ليس هناك ما يحول بينها وبين اداء واجبها حسب الحقوق التى قررتها الاتفاقات الدولية . ولم يكن فى نيتنا قط ولا فى نية أحد فى هذه البلاد أن يمس حقوق المراقبين أو يعتدى على أية معاهدة دولية ...

ولئن كان ممثلو الدول فى بلادنا مخلصين حقا لواجباتهم ولمصالح دولهم فلن يجدوا خيرا من معاونتنا فى جهودنا القومية الحقة ، وليثبتوا بأعمالهم ما يعدوننا به فى أقوالهم ..

لقد صممنا أن نبذل كل ما فى وسعنا لكى يكون لبلادنا موضع بين الامم المتمدنة ، وذلك بنشر المعرفة فى البلاد ، والمحافظة على الوحدة والنظام ، والقضاء بالعدل بين الجميع ، ولن يردنا شىء عن عزمنا قيد أنملة ، ولن يخيفنا وعيد ولا تهديد أو يلوينا عن قصدنا ، ولن نخضع الا لشعور الصداقة التى نتقبلها ونقرها بكل ما فى وسعنا ..

أما عن هدوء البلاد ، فليس هناك أى قلق ، ونحن نحاول الآن أن نقضى على ما خلفته لنا الحكومات السالفة من مساوىء ...

فلندع الله أن يهدى المفكرين من رجال السياسة فى أوربا الى الصواب ، وعسى أن يعنوا بمعرفة أحوال بلادنا وبذلك يؤدون صنيعا الى بلادهم كما يؤدون الى بلادنا بتقوية روابط المودة ، نسأل الله أن يهيىء لنا جميعا التمتع بنعمة السلام والمودة » ...

ويذكر بلنت تعقيبا على كتاب عرابى أن الشيخ محمد عبده كتب اليه كذلك يؤكد له فى ذلك الوقت قيام النظام والسلام فى مصر ...

لم تكن البلاد اذن فى حالة تدعو الى القلق الا اذا كان الخلاف بين الخديو ووزرائه مشكلة تستدعى حتما تدخل الدول الاوربية لحلها ، فما يتسنى علاجها الا على هذه الصورة .

لم يكن هـذا الخلاف الا الذريعة التى باتت انجلترا تتحينها لتخطو الخطوة التى كانت سياستها طوال القرن التاسع عشر متجهة فى مصر اليها ، وكانت انجلترا قد صممت أن تقطع العقدة اذا لم يتيسر لها حلها ، فبقطع تلك العقدة تصنيب فى الواقع غرضين : السيطرة على مصر وهذا قصارى آمالها فى الشرق ، والتخلص من مشاركة فرنسا اياها فيما هى فيه من شئون مصر وهذا ما كانت مصلحتها توجب الاسراع فى تنفيذه .

والانجليز قوم نبغوا فى أن يأخذوا كل شيء وألا يعطوا شيئا ، وأن يستبطنوا دخيلة كل عدو أو حليف دون أن يكشفوا له عن شيء مما تنطوى عليه نفوسهم ، ولهم فى ذلك أساليب يعد نجاحهم فيها من أكبر أسباب تفوقهم ..

لذلك تقدم هؤلاء ليلعبوا احدى لعباتهم السياسية وقد سهلت عليهم سياسة فرسنيه الامر ، فقد رأى هذا أن تبتعد انجلترا وفرنسا عن التدخل المسلح فى شؤون مصر ، وفاته أنه ان استطاع أن يوجه سياسة بلاده نحو هذا الهدف فما له حيلة فى انجلترا ان استعصت عليه أو غدرت به ...

وتقـدم فرسنيه يعرض على انجلترا مقترحات لحل المشكلة ، فطلب على لسان سفيره فى انجلترا أن ترسل الدولتان سفنا من أسطوليهما الى مياه الاسكندرية وأن

تطلب الحكومتان الى تركيا الا تتدخل فى شؤون مصر فى ذلك الوقت ، ولكن فرنسا لا تعارض اذا حضرت بعثة عثمانية الى مصر بدعوة من الدولتين على أن يكون عملها محدودا وأن تكون تحت مراقبتهما .

ورأى فرسنيه أن تحاط روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا بما تتخذه انجلترا وفرنسا حيال المسألة المصرية ، على أن تكون تعليمات تلك الدول الى سفرائها فى الاستانة عين تعليمات الدولتين ...

أما عن الخديو فقد عدلت فرنسا عن رأيها فى خلعه ، ذلك الرأى الذى كانت ترى قبل ذلك أنه لو اتبع كان تقضى على كثير من الصعاب ...

وكان فرسنيه يريد من المظاهرة البحرية أن يلقى الرعب فى قلوب الوزراء ليقلعوا عن مقاومة الخديو فينتهى ما كان بينه وبينهم ، ولقد وافق جرانفل على مقترحات فرسنيه فى جملتها ورأى أن يبلغ الباب العالى واحتاط للمستقبل بقوله انه قد تعرض عليه فى المستقبل مقترحات أخرى ...

ولكن فرسنيه لم ير هذا الرأى ، لانه لم يكن يرغب فى التقرب الى تركيا ، ولذلك رفضه بادىء الامر على أنه عاد فقبله بعد الحاح جرانفل وكتب الى سفيره بالاستانة أن يبلغ السلطان أنه « ليس من المستبعد أن تقدم اقتراحات أخرى الى تركيا فيما بعد »

وأراد جرانفل أن يبعد عن نفسه وعن حكومته تهمة الرغبة فى التدخل فى شؤون مصر ، فاقترح أن تدعى الدول الاوربية الى ارسال سفن الى الاسكندرية تقف الى جانب السفن الانجليزية والفرنسية، وما كان جرانفل جادا فيما يقول فانه كان على يقين أن اقتراحه هذا سيقابل من فرنسا بالرفض ، ولو كانت لديه شبهة أن

ستقبله فرنسا ما تقدم به ، بل لو أن هذا الاقتراح كان من جانب فرنسا لعارضت فيه انجلترا أشد المعارضة.. ولو أن انجلترا كانت جادة فى مقترحها هذا لبذلت قصارى جهدها لتحمل فرنسا على قبوله ولكنها اكتفت بأن تبلغ فرسنيه على لسان وزيرها أنها تأسف الا تقرها فرنسا على وجهة نظرها وأنها تعد من الخطأ عدم دعوة الدول الى الاشتراك فى تلك المظاهرة ، ولكن بما أن فرنسا قد ذهبت فى الموافقة على السياسة البريطانية الى مثل ما ذهبت اليه فان انجلترا لايسعها الا أن توافق فرنسا على ما ترى ...

وآمن فرسنيه بنزاهة السياسة الانجليزية ، ولو كان غير فرسنيه فى موضعه لآمن بها كما آمن هذا ، فلم يكن يدور بخلد أحد يومئذ أن انجلترا كانت تترقب الفرصة لتنقض على الفريسة وحدها دون فرنسا ولا ظهر من عملها ما يبعث على الريبة ....

ولكن الانجليز خير من انتصح بنصائح مكيافلى فى هذا العالم وخير من حذقها ، ولو قد تأخر الزمن بهذا الرجل لاخذ عنهم مبادئه ولوجد فى أساليبهم وخططهم أبلغ أمثلة كتابه ...

الحق أن هذا المكر كان يدق على فرسنيه وغير فرسنيه من أولى الدهاء والخبرة من الرجال ، وما كان ليفطن الى هذا الا من يسىء الظن بانجلترا فيكون مبعث فطنته بسوء الظن لا حسن الفهم ، ونحن أنما نفطن الى مرامى هذه السياسة بعد أن تكشفت عنها حجب الدهاء وتعاقبت عليها السنون ، ولقد فطن اليها فرسنيه ورجال حكومته وشعبه الاريب ، يوم وقعت الواقعة وانفردت انجلترا بضرب الاسكندرية غير حاسبة لاى شىء من حولها حسابا

وكانت انجلترا تبغى من سياستها هذه أن تصرف

نظر الدول عن مصر ، فان دعوة تلك الدول الى مشاركتها فى المظاهرة البحرية يظهرها بمظهر من لا غرض له الا الصالح العام فى حين أن عملها هى وفرنسا يغضب الدول ويجعلها تميل الى التدخل لتنال حظا من الغنيمة فى مصر أو فى غير مصر يوم يكون الحساب وتوزع الاسلاب .

وفضلا عن ذلك فقد كانت انجلترا تحذر أشد الحذر أن تغضب السلطان فينحاز الى عرابى وحزبه ضد توفيق، فيظهر عرابى بمظهر المحافظ على حقوق السلطان صاحب الحق الشرعى فى مصر ، ضد الخديو ومشايعيه من الطامعين، وعلى ذلك فكل تهمة بالعصيان توجه الى عرابى امام الشعب المصرى انما تذهب أدراج الرياح ...

ولقد فطن مالت الى خطورة هذا الامر وكتب الى حكومته ينذرها ان اغفال تركيا من شانه أن يضم النواب الى العسكريين فيقفوا جميعا صفا واحدا ضد أوربا أو على الاقل انه يقوى جانب عرابى وأشياعه .

وكانت انجلترا فى الواقع تتبع سياسة حاذقة أكبر الحذق ، فهى تشايع فرنسا فى منعها تدخل تركيا ، ولكنها فى الوقت نفسه تحرص على ألا تغضب تركيا فقد تضطر اليها يوما ما ، وفى اغضابها ماقد يثيرها فتتدخل . وتعمل انجلترا فى مصر على يد مالت عملا متصلا لتخويف الخديو ولاذاعة المفتريات عن سوء الحال فى مصر ، وذلك لتمهد السبيل الى غاية يفضى اليها منطق الحوادث كما تزعمه وتلك الغاية هى التدخل المسلح على أى صورة ما محافظة على أموال الاجانب وأرواحهم فى مصر ، وما عليها الا أن تتحين الفرصة لتنفرد بالعمل ، وهى لن تحجم أن تضع فرنسا أمام الامر الواقع كما فعلت بازاء محمد على حين صمم بالمرستون على القضاء عليه... ولكنها الآن تتظاهر بالنزاهة وتحرص على الظهور بمظهر دولى فى سياستها

نحو مصر ، فتقترح اشتراك الدول فى المظاهرة البحرية تارة وتقترح دعوة السلطان الى حل الازمة تارة أخرى.. كل ذلك فى مهارة ودقة ولكنها مع الاسف مهارة من تجرد من الشرف فسهلت عليه غايته ، لا لشيء الا لانه يسلك اليها كل سبيل ولا عبرة عنده اى سبيل يسلك ...

ولما وجدت انجلترا أن فرنسا تصر على استبعاد تركيا والدول جميعا ، كتبت الى الدول قرارا ينفى أية نية من جانبها فى احتلال مصر ، وأكدت أنها لم ترد بالمظاهرة البحرية الا اقرار السلام داخل مصر ، وأنها سوف تترك مصر وشأنها اذا قضى على ما فيها من القلاقل ، واذا لم تنجح تلك الوسائل السلمية فسوف تتفق انجلترا والدول على ما تراه هى وفرنسا خير سياسة تتبع ...

وتحدث اللورد دوفرين سفير انجلترا بالاستانة الى وزير الخارجية العثمانى فى لهجة شديدة قائلا : « انه اذا لم تعمل تركيا ما من شأنه أن يسهل على انجلترا خطتها فسوف تزيد انجلترا عدد القطع فى الاسكندرية وتطيل أمد بقائها جميعا هناك » .

ولكن السلطان آلمه وأغضبه أن توجد السفن الانجليزية والفرنسية أمام الاسكندرية ، فلم يكف عن احتجاجه واعلان سخطه ، مما زاد الموقف حرجا وتعقدا ...

وبينما كانت فرنسا وانجلترا تتبادلان الرأى على النحو الذى نذكر ، كان الحنق فى مصر على الخديو يزداد يوما بعد يوم ، وما زال الناس فى قلق وخوف من موقفه ومشايعته الانجليز على هذه الصورة حتى وصلت السفن الى الاسكندرية ...

ولقد أخذ بعض الناس على الوطنيين أنهم لم يخلعوا الخديو فى ذلك الوقت ويتصلوا بتركيا لتعين على مصر غيره ، والواقع انها مسألة دقيقة ، فمن الناحية الوطنية

كان يرى الوطنيون ضرورة خلعه ، وحجتهم أن السكوت معناه التفريط فى جانب الوطن ، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يرون أن عملهم هذا ينقلب وبالا عليهم فى ظروف كتلك الظروف التى أذاعت فيها أوربا عنهم المزعجات من الشائعات ...

وفى هذه الآونة وقع فى صفوف النواب ما نخجل أشد الخجل من ذكره ، فقد انحاز كبيرهم سلطان الى الانجليز بعد أن تودد الى الخديو كما أسلفنا ، وشايعه عدد من النواب ، ولم يكن للوطنيين من عاصم فى هذه المحنة الا الاتحاد والثبات ، وكأنما تأبى الايام الا أن تجعل من أبناء مصر بعضهم لبعض عدو ، وكأن ذلك لكثرة ما يتكرر منهم ، من باعهم التى فطروا عليها ، ولطالما نكب هذا الشرق المسكين بتخاذله وانقسام أبنائه بعضهم على بعض مع أنهم يرون أبدا أن الظالمين الطامعين فيهم من أهل الغرب فى الكيد لهم بعضهم أولياء بعض ...

وكان انحياز سلطان والمستضعفين من النواب الى انجلترا أولى ثمرات المظاهرة البحرية ، فان سلطانا حينما علم بها من الخديو فكر وتدبر فرأى أن المستقبل للخديو وللانجليز ، فلما حضرت السفن اطمأن الى الانجليز وآثر أن يبادر بالانحياز اليهم لتكون له الحظوة والمكانة عند أولى الجاه والبأس يوم يتخلصون من عرابى على أية صورة ...

وأمثال سلطان هذا انما يعملون لاشخاصهم فحسب ، وعلى ذلك فهم عبيد القوة وان تعاظموا ، وهم أضعف الناس وان تطاولوا ، وهم أحرص الناس على عرض الدنيا وان تظاهروا بالنبل والعفة ، وهم انما يدلون بجاه من يركنون اليهم من الاقوياء ادلال الخادم بسيف سيده ، وسنرى يوم يكافأ سلطان بالذهب لا يحصى له عدا وينفى

عرابى من الارض وتصادر أملاكه التى رزقه الله ، ولايبقى له الانجليز فى مصر صاحبا ولا ولدا ...

ونشط مالت وأعوانه من جديد يذيعون أسوأ الانباء عن مصر وبخاصة عن عرابى وحزبه ، حتى لقد وقف جرانفل فى مجلس اللوردات فى اليوم الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٢ يتوعد مصر ويتهددها، ويصرح فى غير حياء منه مما يكذب به على العالم أن النواب والامة جميعا فى جانب الخديو !

وكانت أكبر دعوى يدعيهـا مالت أن فى ازدياد نفوذ الحزب العسكرى أكبر خطر على حيـاة الاوربيين وأن نفوذ هذا الحزب قد بلغ أقصى ما يصل اليه من زيادة ، والواقع أن مالت لم يكن يهمه ما قد يتعرض له الاوربيون من خطر حسب مزاعمه ، وانما كان يهمه الوصول الى غرضه بأى ثمن ولو ذهبت فى سبيل ذلك بعض الارواح ، تجد الدليل على ذلك فى رده على جرانفل حين سأله قبل ارسال الاسطول هل يكون فى ذلك العمل خطر على الانجليز والفرنسيين فى مصر فقد أجابه قائلا : (١) « يشرفنى أن أبلغ فخامتكم انى أنا وزميلى الفرنسى نرى أن ما فى وصول الاسطول المشترك الى الاسكندرية من الفائدة السياسية كبير جدا ، يفوق فى أهميته الخطر الذى يمكن أن يصيب بسببه من فى القاهرة من الاوربيين » .

ويعلق روثستين على هذا الـرد الذى أخفته الحكومة الانجليزية بقوله : « ان الذى نريد أن نقوله هو أن هذه الرسالة أكبر دليل على سياسة السـير ادوارد مالت وبره بالانسانية . ولا ريب أنه لم يكن يقصد اظهارها ، وان الاذن بنشرها فيما بعد لما يؤخذ مرة أخرى على

(١) المسألة المصرية لروثستين .

مقدرة اللورد جرانفل السياسية ، وأن فيهـا دليـلا واضحا على ان كل ما كانوا يخافونه من الاخطار التى يتعرض لها الاوربيون بسبب السيادة العسكرية كان كله زورا وبهتانا ولا غاية منه الا تهيئة السبيل للتـدخل المسلح . ومهما يكن من شيء فان الامر لايخرج عن احدى اثنتين : فاما ان تكون هذه المخاوف كلها لا أصل لها ، وعندئذ تتبين لنا مقدرة السير ادوارد مالت السياسية، واما أن تكون قائمة على أساس ثابت وعندئذ يتبين لنا مقدار بره بالانسانية . وسواء أكانت هذه أم تلك فان ما قاله السير ادوارد مالت كاف للحكم عليه بأنه من أحط طبقات الساسة الدساسين » .

وكان بلنت لايزال يسعى سعيه فى انجلترا ، فلما أعلن جرانفل تصريحه أبرق بلنت الى عرابى فى اليوم السادس عشر من مايو يقول : « ذكر لورد جرانفل فى البرلمان أن سلطان باشا والنواب قد انحازوا الى الخديو ضدك فان كان هذا غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الى تكذيبا ، اذا تضامنتم فلا خوف عليكم . . . الا يمكنكم اقامة وزارة يرأسها سلطان ؟ على أية حال عليكم بالثبات»

وابرق الى سلطان فى الوقت نفسه يقول : « أعتقد أن كل من يحبون مصر يجب أن يتحدوا ، لا تختلف مع عرابى ، أن الخطر جسيم » .

وكذلك أبرق بلنت الى كل من بطرس باشا وأبويوسف ومحمود باشـا الفلـكى والشيخ محمد عبده والشيخ الهجرسى وعبد الله نديم يقول : « هل الحزب الوطنى فى جانب عرابى الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى غير ذلك . اذا اختلفتم ضمتكم أوربا » .

ورد سلطان على بلنت فقال : « زال الخلاف الذى كان بين الخديو والوزارة ولم يبق له أثر . كلنا متفقون

على المحافظة على الامن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة » .

وتلقى بلنت كذلك برقية من الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر نصها : « من الشيخ الامبابى شيخ الاسلام ، سوى الخلاف بين الوزارة والخديو ، والحزب الوطنى راض عن عرابى ، والجيش والامة متحدان » .

وابرق اليه الشيخ محمد عبده بما لايخرج عما جاء فى برقية الشيخ الامبابى ، كما يشير الى ذلك بلنت فى كتابه ...

ولكن أمل بلنت ما لبث أن خاب ، فان مجىء السفن الى الاسكندرية قد القى فى روع الخديو انه اليوم قادر على أن ينزل بالوطنيين والعسكريين مايشاء من انتقام ، وطالما تمنى توفيق أن تواتيه الفرصة فيشفى غليل نفسه من هؤلاء الذين كانت يده مكفوفة عنهم وانه ليكاد يتميز من الحنق عليهم ...

وأخذ سلطان ومعه فريق من المستضعفين كما ذكرنا يمالئون الخديو ويتنكرون لأمسهم على نحو كم تمنينا لو خلا منه تاريخ القومية المصرية ...

وأدى انقلاب سلطان ومن أخذ مأخذه من أشباه الرجال الى ازدياد حرج الوزارة ، وسهل على أعداء البلاد ماكانوا مقبلين عليه يومئذ من عدوان واثم ...

وود مستر بلنت لو اتحد المصريون فى تلك الآونة التى لم يكن لهم فيها من أمل الا اجتماع كلمتهم ، وأنه ليعلم ما كان يدبر لهم من كيد ، والواقع إنه أن كان الاتحاد قوة فى كل وقت فقد كان ضرورة كذلك فى هذا الوقت. ومن هذا يتبين لنا مبلغ ماجره على البلاد سلطان ومن معه من أمثال هؤلاء الذين لم يخل منهم جيل فى تاريخ هذا البلد المنكود ، أولئك الذين يكونون عدة الغاصب

أبدا ومطيته الى مطامعه ، دون أن يخالج ضمائرهم اى ندم ، أو أن يميل بهم عن نهجهم شعورهم أنهم يقترفون أشنع الآثام ويأتون أقبح ضروب الاجرام .

وضاقت بالوزارة السبل ، بل لقد أخذت كل سبيل عليها ، وحزبها الامر فما تغنى فيه حيلة ، فها هو ذا الخديو أداة فى يد الانجليز ، وها هم أولاء بعض النواب يظهرون بمظهر الانقسام والتخاذل ...

واضطرب الوطنيون ممن يشايعون الوزارة ، وأخذ يتسرب الوهن الى النفوس وتناصرت وساوس اليأس على حجج العقول ، فزين لبعض الوطنيين أن يتخلصوا من الخديو فيأخذوه غيلة سرا أو علانية فما لهم مما هم فيه مخرج غير هذا .

لم يعمل سلطان بما أشار به بلنت فى برقيته ، فانه لم يبق يومئذ على حب بلاده ، وانما غدا من الامعات الطامعة ، ولقد رأى الدنيا مقبلة على الخديو مدبرة عن عرابى ، فآثر أن يكون له على الخديو يد فينال عنده الحظوة فى غد كما أسلفنا ، ولكنه ظل على الرغم من ذلك يتذبذب بين الجانبين شأنه فى ذلك شأن كل امعة ، فبينما نراه يعارض الوزارة فى موقفها من الخديو اذا به يرسل تلك البرقية التى أشرنا اليها فى اليوم السادس عشر من شهر مايو الى بلنت ردا على برقيته .

أما الوزارة فقد رضيت أن تخطو فى ذلك الموقف العصيب خطوة نحمدها لها كل الحمد ، بل انا لا نجد من عبارات الثناء ما يفى بما فعلت فى ظرف كهذا الظرف

لم تهتم الوزارة بما عسى أن يفسر به عملها من ذلة وخوف ، فتوجه الوزراء الى الخديو ، وأعلنوا لديه ولاءهم له وعبروا عن رغبتهم فى الوئام ، فمصلحة الوطن مقدمة على كل اعتبار، واحباط كيد الكائدين هو الواجب

الوطني الذى لايقدم عليه واجب غيره ، ويقال ان سلطان توسط فى ذلك فأخذ دور الشفيع ليتصل بكل من الجانبين بسبب ،· ولعل هذا يفسر رده على برقية بلنت

آثرت الوزارة مصلحة البلاد فقبلت أن توصف بالمذلة من أجل مصر، وكان موقفها موقف القائد الشجاع الذى يفعل ما يعتقد أنه الصواب دون أن يبالى بما عسى أن يقول الناس ، فينسحب ليجمع قواته ويعيد النظر فى خططه غير مكترث بما قد يفسر به الانسحاب فى ذاته .

يقول روثستين فى كتابه « المسألة المصرية » (١) وكان السخط على الخديو آخذا فى الازدياد ولولا الخوف من انتقام الدولتين لخلع توفيق ، ولكن كثيرا من النواب قد عارض فى ذلك الامر وانقسم المجلس على نفسه ، فانحاز رئيسه سلطان باشا الى جانب العدو دفعة واحدة وأخذ يعمل على اسقاط الوزارة ، ورأى غيره من الاعضاء أن يسعوا مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين وتخفيف الازمة بشىء من التساهل . وبينما هم كذلك اذا بالاسطول الفرنسي قد وصل فى ١٥ مايو واذا باللورد جرانفل قد بعث فى اليوم نفسه الى السير ادوارد مالت برقية مضمونها أنه فضلا عن المظاهرة البحرية فانا نحفظ لانفسنا الحرية فى أن نستخدم من الوسائل مانراه ضروريا لاقرار النظام والمحافظة على سلطة الخديو. وقد قرر عرابى ورفاقه أن يعملوا بمشورة القائلين بالسعى مرة أخرى للتوفيق بين الطرفين فذهبوا بأجمعهم الى الخديو وعرضوا عليه خضوعهم التام ، وذهبوا كذلك الى مالت وأكدوا له أنهم سيبذلون غاية جهدهم فى حفظ السكينة العامة . يا أسفا عليهم ! لقد ظهروا فى مظهر مؤلم للنفس

---

(١) اسم الكتاب الحقيقى The Ruin of Egypt. : تخريب مصر .

وقد يكون غير مشرف لهم ثم هم لم يجنوا من ورائه شيئا على الاطلاق » ...

على أن موقف الوزارة لم يخل على أية حال من فائدة ، فقد أراد الوزراء بما فعلوا أن يبطلوا حجة القائلين بوجوب التدخل لتفاقم الخلاف بين الخديو ووزرائه ، وهم ان لم ينجحوا وأصر الخديو على انحيازه الى أعداء البلاد ، أظهروه بمظهر المتجنى الذى لايريد أن يغفر لهم حتى فى مثل هـذا الموقف ما زعم أنه كان من دواعى الخلاف ، وهذا أسلوب سياسي جدير بكل اعجاب...

ولا يصح أن يقول قائل انه كان أولى بالوزارة ألا تغضب الخديو من أول الامر . لايصح أن يقال ذلك بعد الذى بيناه من مكر السياسة الانجليزية ، فالنية مبيتة من قبل على التهام مصر ، ونعود فنكرر ما قلناه انه لو لم يوجد عرابى لعمل الانجليز على خلقه ...

وكأن الذين ينكرون على الوزارة اغضابها الخديو من أول الامر يريدون أن يقولوا انه كان على الوزارة أن ترضى بالحكم المطلق ووأد الدستور ، وتسلط الشراكسة ، واذلال مصر بالقضاء على حركتها القومية الناشئة حتى لايغضب الخديو، أعنى أنه اذا خير الوطنيون بين التمسك بالدستور واغضاب الخديو، وبين وأد الدستور وارضاء الخديو ، كان عليهم أن يقبلوا الوضع الثانى والا كانوا طائشين مفسدين فى الارض . وهذا كلام لايستحق أن يوضع موضع المناقشة ...

لقد سلكت الوزارة المسلك الوطني الذى يتفق وهذه الحركة الوطنية الدستورية التي بدأت فى مصر منذ عهد اسماعيل فكانت حركة طبيعية اقتضاها تطور الاحوال وعملت على وجودها عوامل كالتى عملت فى كافة الامم التي سبقت مصر الى الدستور والحرية ، ولقد بينا

اتجاه الوزارة وقدمنا الادلة على صدق وطنيتها وعلى ما كانت تتوخاه من ضروب الاصلاح ...

وما كان التجاؤها الى الخديو تنازلا منها عن مبادئها فهذا ما لايتصوره عقل والا كانت الحركة من بدايتها الى نهايتهـا لعب لاعب ، وانما أرادت الوزارة الوئام والصفاء وازالة ماتركه حادث المؤامرة الشركسية فى نفس الخديو من غضب ، فهو نوع من الاعتذار والتودد تقتضيه مصلحة الوطن اتقاء لخطر محدق بالبلاد .. أما الدستور وسلطة الامة وما يتصل بها من مبادىء الحرية والقومية فدون التنازل عنها ، بل دون التساهل فيها بذل الرقاب

وكان توفيق خليقا ألا يميل الى المعتدين من غير دينه ، ولقد كان لهذا الاعتبار الدينى شأنه العظيم فى النفوس يومئذ ، وكان كذلك خليقاً أن يدرك أن عدوانهم على مصر هو فى ذاته عدوان على السلطان صـاحب الحق الشرعى وصاحب الولاية عليه ...

ولكن توفيقا لم يعد يبالى بالسلطان فلقد اطمأن الى قوة الدولتين وبخاصة انجلترا ، وكان الى جانبه مالت يوحى اليه ما يشاء ويزين له ما يريد ويقوى عزمه كلما آنس منه تخاذلا عما كان يدفعه اليه ، ولاريب أن موقف الخديو كان يزداد بذلك حرجا أمام البلاد وأمام السلطان مهما سندته الدولتان ...

وأوحى مالت الى الخديو الا يثق بما يقول وزراؤه ، وما كان توفيق فى حاجة الى هذا الذى يوحى به مالت ، فهو يتطلع الى الساعة التى يلطم الوزارة فيها لطمـة تشفى ما بنفسه من غل ...

ولم يطل ترقبه تلك الساعة ، ففى اليوم التاسع عشر من شهر مايو أوعزت الحكومتان الى ممثليهما أن يشيرا على الخديو بأن يغتنم فرصة وصول السفن الى الاسكندرية

فيطيح بالوزارة ، ويعهد بتأليف وزارة جديدة الى شريف باشا أو الى سواه ممن تتوفر فيهم مثل ثقتهما فى شريف

ورد المثلان بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يصنع الخديو ذلك ، فلن تقوم فى البلاد وزارة غير الوزارة القائمة ما دام للحزب العسكرى ما له فيها من نفوذ وسلطة ...

واقترح مالت أن يشير على عرابى وثلاثة من اشهر رجاله بمغادرة مصر ، وبدأ فعلا يسعى الى ذلك فاختار أحد موظفى القنصلية الفرنسية ليفاوض عرابيا لان هذا كان يعرف العربية ، ولكنه رفض أن يلعب هذا الدور، ففوتح سلطان فقبل فى غير خجل ، وذهب يشير بذلك على عرابى فعظمت دهشة الوزير ! ورفض أن يسمع بقية الحديث ، وأعلن اصراره على عدم ترك مصر مهما يكن من الامر ، وأكد أنه لن يترك منصبه فضـلا عن موطنه فى تلك الظروف .

ووصل هذا الحديث الى الضباط فقابلوه بالاستياء حتى لقد صرح أحدهم على مسمع من أحد رجال القنصلية الفرنسية أن الجيش يمزق عرابيا اذا هو أعتزلهم يومئذ

واخذت الوزارة تتأهب لملاقاة ما كان ينذر به الموقف من جسيمات الحوادث ، وصمم الوزراء الا يقروا أى تدخل لانجلترا وفرنسا وأن تكون اجابتهم على أى انذار رسمى أنهم لايعترفون بسيادة غير سيادة السلطان .

وتزايد انحياز الرأى العام الى عرابى بقدر ما تزايد سخطه على الخديو والاجانب ، ومن انحاز اليهما من الامعات والمستضعفين ، وعاد بعض الذين أشفقوا من الحزب الوطنى ينضمون اليه فى تلك الساعة الرهيبـة وشاعت فى البلاد دعوى المحافظة على حقوق السلطان أمير المؤمنين وحامى حمى المسلمين ...

وهنا نسأل الذين يستريبون فى شجاعة عرابى وزعامته : أيرون دليل جبنه فى أصراره هذا على البقاء فى مكانه مخلصا لواجبه ؟ لقد كان من اليسير عليه أن يسافر الى القسطنطينية أو الى أوربا متحيزا الى السلطان أو الى انجلترا وكانت انجلترا ترحب بذلك كل الترحيب وتطرب له أشد الطرب ، ولكن ما هكذا يفعل الرجال ...

لقد صمم عرابى على البقاء حيث هو كما صمم سعد زغلول على البقاء فى مكانه مخلصا لواجبه حين طلب اليه فى موقف من مواقف جهاده أن يذهب الى عزبته ليقيم بها تحت مراقبة مدير الاقليم ، وآثر عرابى أن يواجه المحنة والبلاء كما آثر سعد أن ينفى من مصر ، ولكن الامة التى وضعت على رأس سعد من أجل ذلك أكاليل الغار ، لايزال فريق من أبنائها ينسبون الى عرابى البطل أسباب الهزيمة والعار !..

وصمم عرابى على امتشاق الحسام ليجاهد فى سبيل مصر أشق الجهاد وأعظمه وليكن بعد ذلك ما يكون فاما نصر ، واما فناء ، أما مغادرة مصر فى ساعة العسرة ، فذلك هو الهرب الذى لا يفعله الا الجبناء ...

ولما فشل مالت فى طريقته الشخصية اتفق وزميله الفرنسى فأرسلا الى حكومتيهما يطلبان أن تطلق يديهما كى يتقدما الى الحكومة المصرية رسميا بمذكرة تنص على ابعاد عرابى من مصر هو وكبار العسكريين على أن تؤيد المذكرة بعمل ايجابى فى حالة ما اذا رفضت ، ومما ذكره مالت قوله : « ان الموقف الحالى قد سببه الوزراء ، والناس يعتقدون أن انجلترا وفرنسا لن ترسلا جنودا ، وأن معارضة فرنسا تجعل تدخل الترك مستحيلا» (١)

---

(١) M. Egypt

وأرسل عرابى كتابا الى بلنت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مايو ، ومما جاء فيه قوله : « ان جميع الاهالى ليطوف بهم الحزن لمجىء السفن الانجليزية والفرنسية وهم يرون فى هذا العمل ما يبيت من سوء للبلاد كما أنهم يرون فيه عدوانا لامبرر له ولا ضرورة تدعو اليه. على أن المصريين قد صمموا على ألا يسلموا للدولة التى تريد أن تتدخل فى شؤونهم وفى ادارة البلاد الداخلية ، وهم كذلك قد جمعوا عزمهم على الاحتفاظ بالامتيازات التى ثبتتها المعاهدات ، ولن يسمحوا لاحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق ، وهم فى الوقت نفسه حريصون على المحافظة على مصالح الاوربيين وحياتهم وممتلكاتهم ماداموا لايتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين ، ونحن جميعا نبذل ما فى وسعنا فى أداء واجبنا ، وعلى الله اتكالنا فى الدفاع عن حقوقنا وبمعونته سننال غايتنا ، وتنحصر غايتنا فى اسعاد الوطن ونشر الامن والسلام بين سكانه ، ولا زلنا نأمل فى عدالة أوربا ألا تتعدى علينا ، بل انا على خلاف ذلك نرجو أن يحسنوا سلوكهم معنا لان فى هذا مصلحتهم وهو يؤدى الى تحقيق رغباتهم ، وجدير بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا فانهم قوم لهم مآرب خفية شخصية يبتغون تحقيقها، ونرى أن نجاحهم فى تحقيق مآربهم يعود بالضرر على بلادهم وعلى حكومتهم ، وفى هذا القدر ما يكفى الآن وسيأتيك الغد بما يجد من الانباء » (١)

ولكن ماذا كان عسيا أن يفعل بلنت وقد نشط مالت فى اذاعة أسوأ الاخبار عن مصر واحباط كل سعى يؤدى الى نجاتها ؟

يقول بلنت فى كتابه مشيرا الى برقياته وما جاءه عنها

(1) S. H. Blunt. P,

من ردود : « ولكن جاء الصباح فذهبت آمالى أدراج الرياح وانقلب فوزى هزيمة ، فقد كنت قضيت الليل بمنزلى بلندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت فى طلب الصحف فوجدت فيها جميعا برقية لشركة روتر وفيها نص البرقية التى أرسلتها الى أعضاء المجلس فى مصر، وقلت لهم فيها ان أوربا ستضم مصر ، وفيها أن شيخ الاسلام تبرأ من الرد الذى جاءنى باسمه ، ووجدت فى صحيفة ذى ستاندارد برقية من مراسلها بالقاهرة ، مؤداها ان سلطان باشا صرح له أن يكذب البرقية التى أرسلتها والتى نشرت بالتيمس ، وان برقية سلطان هذه انما كتبت تحت تاثير الارهاب العسكرى » ...

وعلى أى حال فما كان يغنى عن بلنت صدقه وحسن مسعاه ، وقد رسمت السياسة الانجليزية الخطة التى تنتهجها ولقد كانت الحكومة الانجليزية على علم بكل شىء ولذلك فما كانت بها حاجة الى دفاع بلنت وأنبائه

وهل كانت انجلترا تتحرى فى المسألة وجه الصواب حتى تسير على هدى ما تعلم؟ حسب الانجليز أن يحققوا أطماعهم التى طال بهم العمل على تحقيقها فى مصر ، ذلك هو الواقع الذى لا يغيره جدال مهما طال ، وليجر بعد ذلك بلنت فى مضماره ماشاء ، وليطلق هذا الشاعر الذى يعطف على حرية المصريين وآمالهم العنان لخياله حسبما يريد ، فلن يؤثر ذلك فى مجرى الحوادث ، ولن يغير شيئا مما عقد النية جلادستون وجرانفل عليه ..

والسياسة على أى حال شىء ، والشعر والاحلام شىء آخر ، وكثيرا ما سخر الساسة من أمانى دعاة الانسانية وضحكوا ملء أفواههم من هؤلاء الذين يحلمون فيتخيلون أحلامهم حقائق راهنة كما يتخيل الاطفال !

تلقت الحكومة المصرية ، وتلقى الخديو فى اليوم الخامس

والعشرين من شهر مايو المذكرة المشتركة الثانية وفيها تطلب الدولتان : « أن يخرج عرابى باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه ورواتبه ، وان يبتعد كل من عبد العال باشا وعلى فهمى باشا الى داخل القطر مع احتفاظهما كذلك بلقبيهما وراتبيهما وأن تستقيل الوزارة الحالية من الحكم » ...

ومن أعجب الامور أن ممثلى الدولتين قد عزيا هذا الطلب الى ما نصح به سلطان باشا لرئيس الوزارة ، فقد جاء نصه كما يأتى : « ان ممثلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب وكذا رغبته فى تأييد سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى باشا رئيس مجلس النظار اذ رأى أنها الواسطة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر » ... ثم أوردا بعد ذلك الشروط أو الانذار ... ولقد أنكر الوزراء وساطة سلطان باشا كما أن سلطان تنصل منها ...

قال الشيخ محمد عبده (١) «حصلت مذاكرة فى المذكرة التى قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال : هل يمكن لنا أن نجمع المجلس ؟ فأجاب سلطان : أظن ان ذلك لايكون الا بأمر الخديو فنسأله فى ذلك ولاريب أنه يوافق عليه ، فقال له أحد النظار : الخديو الذى كنت تطلب خلعه ان لم يكن قتله قبل أيام؟

قبل هذا جاء كلام فى الخديو فى جلسة فطاب سلطان باشا قتله وأبى عرابى وكان سلطان يقول : اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهبين الذين باعونا للأجانب ... هذا هو سلطان الذى كان رئيس الحزب الوطنى وهو لايريد

(١) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده صفحة ٢٤٢

الآن الا مجاملة الخديو ، ذلك الخديو الذى لايبغى الا بيع البلاد للأجانب (۱)

اجتماع مجلس النواب حق للشعب ، ونحن نوابه ولا بد لنا أن نطلب النواب الى القاهرة حتى لو أراد عرابى أن يوافق ماطلب من ابعاده ارضاء للسياسة الاجنبية فليفعل ، أما نحن فلا نخضع لمثل هـذه المطالب مهما ادى اليه الخلاف ...

سلطان رجع عن رأيه الى رأى الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو والقنصلين وفيما اضطر اليه من موافقة الثائرين » ...

قررت الوزارة فى غير تردد رفض هـذه المـذكرة المشتركة الثانية وأبلغ هذا الرفض الى ممثلى الدولتين ومما جاء فيه قول الوزارة : « ان سعادة سلطان باشا صرح أمام الوزراء عند انعقاد مجلسهم بأن أعاد على رئيس مجلس الوزراء ذكر محادثةجرت بينه وبين قنصل جنرال فرنسا ، وانه لم يبدأ بذكر مقترحات أو اشارات لايعنيه أن يقدمها ولا يبديها باسمه الشخصى، ولا بصفة كونه رئيس مجلس النواب فان هذا المجلس غير ملتئم الآن ، أما الطلبات المدونة فى اللائحة التى قدمها قنصلا انجلترا وفرنسا فتتعلق بمسائل داخلية تختص بالامور الادارية التى اعترفت الدول الـكبرى دائما بأن حرية العمل فيها من خصـائص الحكومة المصرية ، ولايمكن لحكومة الجناب الخديوى أن تولج فى باب المنـاظرات والمباحثات فى هذه القضايا بدون التعدى على الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية التى حددت مقـام مصر الخصوصى وبدون نقض القوانين الشورية لهذه البلاد

(۱) يعلق الشيخ رشيد على هذه العبارة بقوله « أى بحسب رأيه » أعنى رأى سلطان .

التى هى أعظم كفالة تتكفل ببقاء الحال على ما هو عليه »

وأصر الوزراء وفى مقدمتهم عرابى على موقفهم ، هذا الموقف الوطنى الجليل ، وأيدهم كبار الضباط واعلنوا انهم معهم ولو أدى الامر الى القتال ...

ولكن ماذا عسى أن يغنى عن الوزارة جلال موقفها فى هذه الازمة العصيبة ، ولم يمض يوم واحد حتى قبل توفيق مذكرة الدولتين ، وأعلن ذلك فى غير تحرج من هذا الفعل على شناعته البالغة ؟

ولم يجد البارودى بعد ذلك مناصا من الاستقالة ، فكتب استقالة الوزارة على النحو التالى :

« القاهرة فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ :

ان جنابكم العالى قد بلغنا عند وصول الدونتمتين : الانجليزية ، والفرنسية بأنكم حررتم الى الآستانة بطلب التعليمات ، ولما كنا منتظرين ورود خطاب من الباب العالى واذا بقنصلى فرنسا وبريطانيا الكبرى قدما لحضرة رئيس مجلس نظاركم لائحتهما بتاريخ ٢٥ مايو ، وبناء على أوامر جنابكم العالى اجتمعنا والتأم مجلسنا وقرر هذا الخطاب المرفق مع هذا ، وعندما توجهنا الى جنابكم العالى لاستشارتكم أخبرتمونا بأنكم قبلتم لائحة وكيلى فرنسا وبريطانيا العظمى ، وهذا القبول مباين لما أجمع عليه رأى كل النظار اجماعا كليا ، فان قبول تدخل الدول الاجنبية فى هـذه القضية يمس بحقوق الحضرة السلطانية ، وبناء على ذلك نتشرف بأن نقدم لجنابكم استعفاءنا جميعا » ...

ولم يتردد الخديو ، وكان وراءه مالت ، فى قبول استقالة الوزارة قائلا انه يقبلها لان هذه هى ارادة الامة ، وفيما عدا ذلك فانها أمور بينه وبين السلطان الذى يحترم حقوقه دائما . وتنفس الخديو الصعداء ، ظانا أن الامر

انتهى الى غايته ، ولم يعلم أن صنيعه هذا كان معجلا بالكارثة ، بل لقد كان هذا الصنيع فى ذاته هو الكارثة ، فلولا ما كان من ركونه على هذه الصورة الى الاجانب ، ما أقدمت انجلترا على تنفيذ ما بيتته طويلا من غدر بالبلاد ...

ومع ذلك فان كارثة الاحتلال لازالت على ألسنة بعض المصريين تنسب الى عرابى ، ذلك الرجل الذى تلفتت القلوب اليه وقد اشتدت الازمة وازفت الآزفة تأمل على يديه النجاة من الخطر المحدق ...

ان القضيــة كلها يمكن تلخيصهــا وقد قرب دوى العاصفة فى كلمة قصيرة ، هى أن خلافا داخليا وقع فى مصر بين الخديو المتمسك بالحكم المطلق وبين زعمــاء الشعب المتمسكين بالحكم الدستورى ، فانتهز الانجليز هذه الفرصة لتحقيق نياتهم المبيتة من قبل هذا الخلاف ولم يشأ الخديو أن يتنازل عن مبدأ الاستبداد فركن الى الاجانب ليتخلص من الوطنيين ، وعمل هؤلاء الثعالب على زيادة الخلاف وعلى رأسهم مالت كبير شياطينهم ، حتى كانت المذكرة المشتركة الثانية وهى الضربة التى تصيب الحركة القومية فى مقتل ، فلم يجد عرابى وأعوانه بدا من دفع هذا العدوان الفاجر عن البلاد انفة وحفاظا ولو ذهبت أرواحهم فى سبيل ذلك ...

فليت شعرى كيف كان ينتظر منهم أن يفعلوا غير ذلك فى موقف كهذا الموقف ؟ ألا فليحتــرموا عقولهم أولئك الذين يردون ســبب الاحتــلال الى عرابى ، أن كانوا يرجون لانفسهم ولوطنهم وقارا ...

عرابى ملاذ البلاد

كان لقبول استقالة البارودى أسوأ وقع فى البلاد جميعا ، واحس الناس فيها نذر الخوف وبوادر العاصفة وقر فى نفس كل وطنى أن الخديو اليوم فى قبضة الاجانب وبخاصة الانجليز وان مالت هو الذى يحركه ويوحى اليه ما يريد ...

ولم يعد خافيا على أقل الناس دراية مغزى قبول الخديو المذكرة الثانيه ومغزى قبول استقالة الوزارة .

وأظهر توفيق صرامة لم يألفها الناس منه ، فأصر على قبول استقالة الوزارة على الرغم من احجام شريف ومصطفى فهمى وغيرهما عن تاليف وزارة جديدة ...

وبادر توفيق بارسال أمر منه الى المديرين قال فيه : « بما أن هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول استعفائها فليكن معلوما ذلك لديكم لتصرفوا جهودكم وقدرتكم فى المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الموكلة لادارتهم والدقة والانتباه لحسن سير الاشغال والمصالح المتعلقة بكم ، كما أنه من حيث أن السفن الحربية الاجنبية التى حضرت الى الاسكندرية لم يكن حضورها الا بوجه سلمى فقط ، ولم يكن هناك شىء آخر خلاف ذلك ، فليس هناك لزوم لارسال أحد من عساكر الامدادية الذين صار طلبهم أخيرا بمعرفة

الجهادية ، بل ان الموجود منهم تحت الحضور لهـذا الطرف يصير اعادته لبلده ، والذى تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضوره ، واعلان المراكز والاقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء لجمع عسـاكر ، وانتبـاه لل لأشغاله وزراعته بدون اشتغاله فى غير ذلك ، هـذا وان الامور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظـارة الداخلية يجب ان يعرض عنها من الآن لمعيتنا الى أن تشكل هيئة نظاره جديده كما هو مطلوبنا » .

وهذه أوامر من الخديو تعد بالغة الخطورة ، فهو يهون من حضور السفن الاجنبية ، ثم يريد أن يحبط الدفاع الوطنى وذلك بمنع ارسال الجنود التى كانت وزاره البارودى قد استدعتهم من الجيش الاحتياطى قبل استقالتها ، وهو يحث النـاس على الاشـتغال بالزراعة دون غيرها أعنى الا يلبوا اذا دعا داعى الجهاد وفوق ذلك جميعه فهو يستبد بالامر كى يلقى فى روع الناس أنه السيد الوحيد الذى يجب طاعته فى البلاد.

وأى رضاء بالاحتلال والتمهيد له يكون أصرح مما يفعل توفيق بأوامره هذه فى وقت كذلك الوقت الذى يحدق فيه الخطر بالبلاد ؟

انما يريد توفيق أن يعترض طريق ثورة مشروعة فى مصر مبعثها تدخل الاجانب فى شئونها الداخلية توطئة لالتهامها ، وأن يظهر عرابيا ومن معه بمظهر العصـاة المتمردين ، الذين يعمل هو ومن يعضده من الاجانب على قمعهم والقضاء عليهم وليس أكثر من هذا الذى يفعل ممالأة للعدو واندماجا فى سياسته ..

ولـكن ما لبث توفيق ومؤيدوه أن تبينوا أن الامر ليس من السهولة كما تصوروا ، وان أمامهم من الصعاب

ما ينوء من حمله أقدر الرجال ...

وكان مالت قد تصور الامر هينا كما تصوره توفيق، فقد أبرق الى جرانفل فى اليوم التالى لسقوط الوزارة يقول : « رأى الوزراء أنهم اذا رفضوا الشروط التى قبلها توفيق فانهم بذلك يبيتون فى ثورة مكشوفة بدلا من ثورتهم المستترة وهذا موقف اشفقوا منه ، وعلى ذلك فان سقوط الوزارة يرجع الى المسلك الحاسم الذى سلكه سموه » (١) .

واطمانت كذلك الحكومة الفرنسية وظنت أن مصر قد ماتت فيها روح المقاومة بسقوط الوزارة السامية وكانت انجلترا قد عادت الى مراوغتها فىاليوم الرابع والعشرين من مايو أى قبل سقوط الوزارة بيومين فاقترحت على فرنسا أن تحاط الدول علما بما تراه انجلترا من علاج للحال وهو أن يكون جيش تركى على أهبة الاستعداد للذهاب الى مصر ، فكتب ممثل فرنسا فى لندن الى جرانفل قبل سقوط البارودى بيوم يقول : « أبرق الى مسيو دى فرسنيه أن مجلس الوزراء الذى عرض عليه مقترحكم قد أجمع رايه على أنه ليس فى الموقف الحالى ما يبرر الالتجاء الى قوة تركية ، فقد وصلتنا مذكرة من قنصلنا العام بمصر فى اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر وفيها أن الوزارة فى سبيلها الى الاستقالة وأن عناصر المقاومة فى طريقها كما يتضح الى الانحلال ، وعلى ذلك فلدينا كل ما يدعو الى انتظار ما عسى أن تصير اليه الحوادث » (٢) .

ولكن مالت ما لبث أن ابرق الى حكومته أنه قد طلب الى شريف باشا أن يؤلف وزارة فرفض ذلك مصرحا

---

(١) ، (٢) M. E. Cromer.

بانه لايمكن اقامة حكومة فى مصر طالما يقيم بها العسكريون، ثم قال مالت : « ولكن الخديو يحاول الآن اقامة وزارة ولو أن أمله ضعيف فى أن يوفق الى وزارة ذات كفاية ان كان ثمة من أمل فى امكان قيام وزارة ما » (١) .

وعاد مالت يقترح أن يستعان بالسلطان ليعيد النظام فى مصر وذلك بأن يرسل ضابطا من لدنه فى أقرب وقت « وكذلك يرى توفيق أن مبعوثا تركيا يمكنه أن يسمع العسكريين صوته وأن يعيد الى مصر الهدوء » .

والحق ان سقوط الوزارة السامية قد هز البلاد من أعماقها ، وبات الناس يتوقعون الاعتداء فى كل لحظة ، ولم تبق فى البلاد هيئة أو طبقة الا أسخطها مسلك الخديو . قال عرابى فى مذكراته (٢) : « وما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو للائحة انجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب فى جميع بلاد القطر مبلغا عظيما واخذ القلق من النفوس مأخذا جسيما ، فكثر اللغط وزادت بواعث الايجاس والخوف ثم حضر الى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة وقدموا لنا مئات العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديو هذا وطالبين أحد أمرين : اما رفض اللائحة المشتركة المذكورة ، واما عزل الخديو الذى قبل تدخل الاجانب فى أحوال البلاد الداخلية » .

ويتبين لنا مبلغ ما لقى توفيق من عسر فى الاجتماعين اللذين عقدهما فى الصباح وفى المساء برئاسته بسراى الاسماعيلية فى اليوم التالى لسقوط الوزارة ، ففى اجتماع الصباح حيث شهده النواب وكبار العلماء والاعيان وكبار الموظفين ، عرض الخديو الوزارة على

---

(١) M. E. Cromer.

(٢) من نسخة من مذكراته المخطوطة تحت يدى ص ٢ الجزء الثانى .

شريف باشا فاعتذر وأصر على اعتذاره ، وحضر أثناء الاجتماع قنصل فرنسا العام ينبىء الخديو بأن برقيـة وردت عليه من حكومته تأمل فيها فرنسا أن يقبل شريف باشا الوزارة وستعضده الحكومة الفرنسية بكل جهودها ولكن شريفا ظل على احجامه وخوفه ... ثم اشترط أن يقبل وزارة الحربية معه عمر باشا لطفى محـافظ الاسكندرية فرفض ذلك عمر باشـا ، وعرض الخديو رئاسة الوزارة على عمر فأشفق منها ...

وفى اجتماع المساء صارح الخديو المجتمعين بأنه سوف يشكل الوزارة برئاسته وستكون له وزارة الجهادية ثم عاد يبين للمجتمعين ماحدا به الى قبول مذكرة الدولتين، وهدد الخديو وتوعد وقال انه مع عفوه عما مضى لن يسمح بعصيان أو مخالفة فى المسـتقبل ، ثم أراد أن يخفف من وقع البوارج الحربية فعاد يؤكد أنها ماجاءت الا لاغراض سلمية ...

وكل ذلك يدل على مبلغ ما أحاط بتوفيق من حيرة كما يشير الى شدة شعوره بما يجد فى نفسه من حرج مما فعل ، وان تظاهر أنه لا يبالى بشىء ...

وتكلم طلبه باشا عصمت أحد الزعماء العسكريين ، فقال يرد على تهديد الخديو : « اننا مطيعون جميعـا للجناب السلطانى الشاهانى وللجناب الخديو ، ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحـد رئيسا للجهادية خلاف رئيسنا أحمد عرابى باشا » (١)

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة : وقد أورد كرومر هذه الحادثة فى كتابه وزاد عليها أن طلبة قال ان السلطان هو السلطة الوطنية التى يقرونها .

وفى هذا الكلام تحد صريح للخديو يدل على مبلغ ما كان فى نفوس العرابيين من استياء منه ، ومن حماسة وطنية أوقد جذوتها مسلكه بانحيازه الى الاجانب .

وزاد الموقف خطورة أن ورد على الخديو برقية من كبار رجال الجيش والشرطة بالاسكندرية يقولون فيها انهم لايطمئنون لغير عرابى ناظرا للجهادية وانه اذا مضت اثنتا عشرة ساعة ولم يعد عرابى الى منصبه فهم غير مسئولين عما تفضى اليه الحوادث ...

وكان مالت لاريب فرحا لوقوع توفيق فى مأزق كهذا ، فان ظاهر الامر يؤيد قوله ان تسلط الجيش هو سبب كل خوف ، وان كانت حقيقة الامر تقطع بأنه هو وكلفن كما بينا أصل كل المصائب ...

ويذكر كرومر فى كتابه « أن سلطان باشا وبعض النواب أخبروا الخديو فى حضور القنصلين الفرنسى والانجليزى انه ما لم يوافق على اعادة عرابى وزيرا للجهادية فان حياته يحف بها الخطر » .

وعلى الرغم من ذلك ، كما ذكر كرومر أيضا ، فان الخديو أصر على رفضه كما جاء فى تقرير مالت ...

وفى نفس اليوم الذى عقد فيه الخديو اجتماعيه عقد اجتماع شعبى فى دار سلطان باشا وقد شهده كبار العلماء والنواب ، كتب عرابى يصف هذا الاجتماع فقال : « فى ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ دعيت الى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، فذهبت اليه ومعى اخوتى على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى ومحمد بك عبيد ، وغيرهم من الاخوان ، فلما وصلنا المنزل المذكور وجدناه غاصا بأعضاء مجلس النواب ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ والشيخ عبد الهادى الابيارى امام المعية ، وحصل

الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون وان الخديو يرفض اللائحة الثنائيـــة ويأمر برجوعى الى نظارة الجهـــادية والبحرية ، أو يعزل عزلا ، وفى أثناء ذلك حضر بحديقة المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملـكية وغيرهم وصـــاحوا بقولهم : اعزلوا الخديو الذى دعا الاجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم ...

ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا الى منزل محمود باشـــا سامى فوجـــدنا كثيرا من الذوات هناك ينتظرون ماعسى أن يحدث من مخبآت الدهر فقابلنـــا عبد الله باشا فكرى الذى كان أستاذا أو مربيا للخديو فى صفره وقال لنا : ان قتلتموه ؟ فقلت له : من تعنى؟ فقال : أعنى الخديو ، ألم يقتل ؟ فقلت له : اننا لا نقتل أحدا بغير حكم شرعى فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام ثم توجه كل منا الى منزله »

وفى اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أبرق الصدر الاعظم الى الخديو ينبئه بأن « مبعوثا من لدن السلطان يرسل الى مصر اذا تلقى السلطان طلبا رسميا بذلك» (١) وكان ذلك ردا على ما أرسله توفيق الى الآستانة فى اليوم التالى ليوم استقالة الوزارة من أنباء مؤداها أن الجند غير راضين عن اسقاط الوزارة وان الوزارة احتجت فى استقالتها على تدخل الدولتـــين ... واشترطت تركيا هذا الشرط لايفاد المبعوث خوفا من انجلترا وفرنسا ان تغضبا اذا هى تدخلت من تلقاء نفسها ...

وســـأل توفيق القنصلين ماذا يصنع فيما جاءه من الصدر الاعظم ؟ وابرق مالت الى حكومته تقول : « لقد ذكرت للخديو انه اذا كانت حياته معرضة للخطر، فلست أستطيع أن أنصح بشىء يخالف الخطوة التى يقترحها

M. E. Cromer. (1)

اذا ظهر أنها هى فرصة الخلاص الوحيدة ، واقتصر مسيو سينكويكس على قوله انه سيطلب رأى حكومته ، ثم تركنا الخديو بدون أن نفضى اليه بأكثر من هذا ، مع أن الخديو كان يلح علينا بضرورة ارسال رد عاجل الى الصدر الاعظم »

ووصف مالت موقف توفيق فى ذلك الظرف بقوله : « ان موقف الخديو موقف مؤلم أعظم الالم ، فهو مهدد بالقتل ، ثم اننا صرفناه عن الذهاب الى الاسكندرية حيث كان فى الوقت متسع لهذا ، وكذلك لم نخل بينه وبين الالتجاء الى الجهة التى يأتيه منها تأييد ذو أثر ، ولذلك فهو والحال كما أذكر خليق بأن يشعر شعور المرارة تلقاء ما يبدو له الآن من عواقب اتباعه نصحنا واعتماده على تأييدنا »

وهكذا نرى مالت يضغط ضغطا شديدا على حكومته لتعجل بالتدخل المسلح المنشود ، وكان من أثر ذلك أن كتب جرانفل دون أن ينتظر مشورة الحكومة الفرنسية الى اللورد دوفرين فى الآستانة يقول : « انحكومة جلالة الملكة ترى الضرورة ملحة بألا يضيع السلطان شيئا من الوقت دون أن يرسل أمرا به يؤيد الخديو ، ويرفض الاتهام الذى عزته الوزارة الساقطة الى سموه ، ويأمر كبار العسكريين الثلاثة ، وكذلك رئيس الوزارة السابق اذا دعا الحال ، بأن يحضروا ليشرحوا مسلكهم فى القسطنطينية »

ويتضح من ذلك ان الحكومة الانجليزية تخطو خطوة سريعة نحو الانفراد بالعمل وتنفيذ خطتها فى التهام مصر ولا نجد فى تفسير سياستها خيرا من قول كرومر فى هذا الظرف تعليقا على الموقف « ان النتيجة على أى حال لم تكن بعيدة ، فانه كان يتضح يوما بعد يوم أن عرابى لن

يخضع الا بالقوة ، فاذا لم تتبع القوة المطلوبة اى جهة أخرى فان هذا العمل يلقى بالضرورة على عاتق انجلترا»

هذا هو الذى كانت ترمى اليه السياسة الانجليزية من جميع مراوغاتها واقتراحاتها ، ولسوف تنفرد عما قريب بضرب الاسكندرية ، وحجتها فى ذلك تأييد سلطة الخديو تجاه عرابى الثائر الذى تحركه الاطماع والمآرب الشخصية !

واشتد خوف الاجانب فى مصر حين فهموا ان الخديو عاجز عن تأليف وزارة ، فذهب وفد من القناصل الى عرابى فى الثامن والعشرين من مايو ، وقد أشار عرابى الى ذلك فى قوله : «ولما تعاظم الخوف حضر لمنزلى جميع قناصل الدول ماعدا قنصلى انجلترا وفرنسا يطلبون منى التأمين على رعاياهم فأجبتهم بانى قد استعفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية العظيمة ، فقالوا ان الجيش لايخالف ارادتك ، وأنت رئيس الحركة الوطنية فلا نأمن على رعايانا وأنفسنا الا باعطائك لنا كلمة الشرف بحفظ رعايانا ، فلأجل طمأنينتهم وتسكين روعهم كتبت تلغرافا الى جميع مراكز العسكرية بصفة انى رئيس الحزب الوطنى أرغب اليهم فيه ان يلتزموا الهدوء والسكينة وأن يحافظوا على راحة العموم ، وخصوصا رعايا الدول الاجنبية ، وأن يعاملوا الجميع بحسن المعاملة وكمال المجاملة »

وقابل هؤلاء القناصل الخديو ورجوا منه أن يعيد عرابى الى الجهادية حفظا للأمن فى مصر وتفاديا للأخطار

أما الوطنيون فقد اشتد قلقهم وقد مضى يومان والخديو عاجز عن اقامة وزارة ، ونشط سلطان باشا ، وأكثر من مقابلة الخديو ، وفى نفس اليوم الذى قابله فيه القناصل ، ذهب سلطان الى سراى الاسماعيلية

وتحدث مع الخديو طويلا ، ولكنه وجد منه تصميما على موقفه ...

واجتمع بمنزل سلطان باشا عدد كبير من النواب والعلماء والاعيان وكبار ضباط الجيش ، واتفقوا على أن يذهب وفد منهم الى الخديو يرجو منه أن يعيد عرابى وزيرا للحربية ، ففى ذلك ضمان الامن والسلامة

وذهب وفد مؤلف من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى وسليمان أباظة الى سراى الاسماعيلية وقابلوا الخديو وعرضوا عليه ملتمسهم أن يعيد عرابى الى الوزارة فرفض الخديو وأصر على رفضه ، وبعد طول توسلهم وتوسط سلطان باشا أجابهم الخديو الى طلبهم قائلا : « بما أنكم أتيتم طالبين تقليد نظارة الجهادية لسعادة عرابى باشا حيث أنكم تظنون أن هذا التعيين يساعد على حفظ النظام فلا مانع من اجابتكم » ...

وان اتفاق هذا العدد الكبير من رجالات الامة على اعادة عرابى حتى يطمئن الناس ويتحقق الهدوء لدليل لا شبهة فيه على أن الرجل فضلا عما تحقق له من الزعامة قد أصبح بحق ملاذ البلاد ، أما الخديو فلم يعد فى رأى الناس الا أداة طيعة فى يد مالت يصرفه كيف شاء ...

أشار الى ذلك روثستين فى كتابه بعد أن أشار الى احتجاج ضباط الجيش ورؤساء الشرطة فى الاسكندرية على الخديو بقوله : «وسرعان ماوصل نبأ هذا الاحتجاج الى أهل القاهرة فقام الى الخديو وفد مؤلف من رؤساء الاديان المختلفة ، علماء الاسلام ، وبطريرك الاقباط ، وحاخام اليهود ، وطلب اعادة عرابى وزملاءه ، فكان ذلك مظهرا من مظاهر ارادة الامة غير متوقع بالمرة ... وعندما قدم سلطان باشا على الخديو مهرولا يكاد يقتله الخوف ، وتوسل اليه أن يرجع النظار الى مناصبهم

والا كانت حياته فى خطر ، نقول عند ذلك أذعن توفيق وأصحابه البررة ، وأعيدت الوزارة ، وأرسلت الاوامر الى الاقاليم بالغاء أوامر التسريح السابقة ... ولم تدم هذه المأساة الهزلية أكثر من ثلاثة أيام ، ولكنها كانت كافية فى اظهار شعور الامة الحقيقى . وان فى السرعة التى أرسلت بها الاوامر الى الاقاليم لوقف جميع وسائل الدفاع لبيانا لسبب كره الدبلوماسيين البريطانيين عرابى ورفاقه ، فقد رأوا أنه ما دام هؤلاء قابضين على أزمة الامور فلا يحتمل أن تقع مصر غنيمة باردة فى أيدى المعتدين » .

ولكن مالت لم يروقه هذا المظهر فكان مما افتراه فيما أبرق به الى حكومته ماجاء فى قوله : « فى هذا المساء توجه رؤساء رجال الدين وفيهم البطريرك ، والحاخام ، كما توجه النواب جميعا والعلماء وغيرهم الى الخديو وسألوه أن يعيد عرابى وزيرا للجهادية ، فرفض الخديو ، ولكنهم توسلوا اليه قائلين : لئن كان الخديو مستعدا ليضحى بحياته فينبغى ألا يضحى بحياتهم هم ، وان عرابى يهددهم جميعا بالموت ان لم يحصلوا له على موافقة الخديو ، وان حرس القصر قد ضوعف ، وان أوامر صدرت اليهم بأن يمنعوا مغادرته القصرطلبا لرياضته المعتادة ، وأن يطلقوا النار اذا حاول أن يشق طريقه بالقوة ... ولم يجد الخديو أمام هذه الظروف الا الاذعان لا لينجى نفسه بل لينقذ المدينة من سفك الدماء »

الى هذا الحد يبلغ افتراء مالت فيصور توفيقا سجينا فى قصره ويجعله عرضة لان يطلق حرسه النار عليه ، وهذه رواية لم يوردها غير مالت بين جميع من كانت لهم صلة بهذا الموقف من القناصل ومن المؤرخين . ومن

الامور البديهية أنه لم يحجم عن أن ينقل مثل هذه الشائعات المفزعة الى توفيق نفسه ليملأ قلبه رعبا ، ويوحى اليه أن يطلب النجدة ...

وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من مايو ، أصدر الخديو أمرا الى عرابى باشا باعادته الى وزارة الجهادية والبحرية هذا نصه : « ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت ، ولكن مراعاة لحفظ الراحة والامن رأينا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكفيلة لحفظ الامن العام على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا »

يقول عرابى فى مذكراته : « حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسين باشا الشريعى وسليمان باشا أباظة وسلمونى أمر الخديو القاضى برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ، وأخبرونى بأنهم لما وفدوا على الخديو وجدوا جميع القناصل فى حضرته ما عدا قنصلى فرنسا وانجلترا وأنهم طلبوا من الخديو صدور أمره برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية لاجل اطمئنان العموم ، فكان القناصل مع النواب على راى واحد ، وحينذاك فرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين وسروا بذلك سرورا عظيما ...

وبعد ذلك توالى اجتماع قنصلى انجلترا وفرنسا الجنرالين بالخديو ليلا ونهارا ، ثم انى أصدرت منشورا الى قناصل الدول ، وتكفلت لهم فيه بتأييد الامن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين وأجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من الخديو لزوم جمع العساكر لاستكمال الآلايات على مقتضى القدر المقرر فى الفرمانات السلطانية فأجابنى بالموافقة على ذلك ، وصدر أمر

الجهادية بجمع عساكر الامدادية نمرة ٢ ، ونمرة ٣ ، استعدادا لما عسى أن يطرأ من الحوادث »

وأخذت الطمأنينة تحل محل القلق فى نفوس الناس، الا من كانوا يفطنون الى حقيقة الموقف ، فليست المسألة مسألة الخلاف بين توفيق وعرابى ، وانما المسألة هى نوايا السياسة الانجليزية ! ولذلك ما كانت أية تسوية داخلية لتجدى فتيلا والانجليز متربصون ، ومالت يسعى جهده لتعكير الماء كى يسهل عليه الغدر ...

والواقع أن تعلق الناس بعرابى الى هذا الحد واطمئنان الوطنيين والاجانب اليه ، أقوى رد يدفع به باطل مالت وأشياعه ممن خوفوا أوربا من نفوذ الحزب العسكرى وأنذروها بالويل والثبور ، فها هم أولاء الناس من وطنيين وأجانب لا يجدون لهم ملاذا غير عرابى ليطمئنوا على حياتهم وأمنهم ...

وكان عجز الخدبو كذلك عن اقامة وزارة أبلغ فشل لسياسة مالت ، فان طوائف الامة تؤيد الجيش ما عدا سلطان ونفرا من النواب ، وما تلتف الامة حول الجيش ورئيسه عرابى الا لانه اليوم فى نظر الجميع أكثر مما كان من قبل أمل البلاد فى انقاذها من التدخل الاجنبى ، وهل يقول أحد ان الامة كانت فى صف توفيق بعد قبوله المذكرة المشتركة الثانية ؟

اذن فالقضية تزداد وضوحا يوما عن يوم فهذه أمة تطلب الحرية ، ولكن انجلترا وعلى رأسها جلادستون زعيم الحرية تتهمها بالتمرد والفوضى ، كى تتقدم لالتهامها ، كما اتهم الذئب الحمل فى تلك الخرافة التى يقصونها على الاطفال بأنه يعكر عليه الماء ، والذئب فى رأس المنحدر ، والحمل فى أسفله ؟ !

وما أرذل موقف مالت بعد التفاف الامة حول عرابى

على هـذه الصورة ، وما أكثر ما يكشـفه الموقف من صفاقته ولؤم طبعه ... يقول روثستين : « لاشك أن السير ادوارد مالت قد ساءه الاخفاق الذى لقيه وهو يحاول التخلص من وزارة سامى ، ولو أنه كان على شىء من الشعور بكرامة النفس لاستعفى وقتئـذ من عمله . ولكن الرجل لم يكن يريد المحافظـة على كرامة نفسه ، وانما كان يريد أحداث تدخل مسلح ، فاذا لم تؤده الى ذلك طريق سياسة سلكها ، فلا بأس بأن يعيد الكرة ويسلك طريقا أخرى تكون أقصد وأهدى الى وجه النجاح . لذلك لم يكن الاخفاق الذى لقيه الا ليزيده اقبالا على العمل ومضيـا فيه ، فقـد كتب عن رجوع الوزارة (١) الى رئيسـه فى ٣٠ مايو يقول : أن القوم يعدونه ايذانا باخراج المسـيحيين من مصر ورجـوع الارض التى يمتلكها الاوربيون أو يرتهنونها ، كما يعدونه ايذانا بالغاء الدين العام » ...

وكيف كان يطيق مالت أن يضمن عرابى الامن فى مصر؟ وكيف كان يطيق أن ينجح عرابى فيما تعهد به ؟ أن معناه بطلان كل حجة له ، بل بطلان حجته الوحيدة التى لا يفتأ يرددها الا وهى اختلال الامن فى البـلاد وقلق الاجانب على أموالهم بسبب تسلط العسكريين ...

لذلك يبالغ مالت فى وصف ما يدعى من سوء الحال فى مصر ولا يكتفى بما ذكره فيما أورده روثستين ، بل انه يبرق الى حكومته فى نهاية شهر مايو قائلا : « ربما وقع تصادم فى أى وقت بين المسلمين والمسيحيين (٢) » ولنا عودة الى هـذه البرقية الخبيثة عند كلامنا على مأساة الاسكندرية ...

(١) يقصد رجوع عرابى الى الوزارة .
(٢) M. E. Cromer.

ويذكر مالت فيما يذكره لحكومته أن البلاد فى حالة ذعر ، وان الاوربيين يغادرون القاهرة أفواجا ، وان الوزارات جميعا ما عدا وزارة الجهادية تكاد تكون معطلة الاعمال ، الى غير ذلك من المفتريات الفاجرة ...

ويشايع مالت انجليزى آخر ، هو كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية الذى رأيناه يلعب دور الشيطان يوم عابدين ، فقد أبرق قبل اليوم الاخير من مايو يقول : (١) « ان كل يوم نتأخره يزيد روح العسكريين الخطرة كما يزيد تحديهم المتواصل للنظام » ...

ويقول كذلك وما أبعد ما يقول عن الحق : «ان ضباط الجيش يحصلون بالقوة على توقيعات من الناس على عريضة بطلب عزل الخديو . وان رئيس مجلس النواب طلب الى الاعضاء أن يستقروا فى بيوتهم لكى يخلصهم من ارغام الجند اياهم على التوقيع » (٢) ..

وللقارىء أن يتدبر فى قول كوكسن : « ان كل يوم نتأخره » ومعنى ذلك أنه كان كصاحبه مالت يستعجل دولته بالعدوان الغادر على البلاد ...

---

(١) (٢) M. E. Cromer.

بين عرابى والسلطان

ذكرنا أن الحكومة العثمانية اجابت الخديو بأنها مستعدة لارسال مندوب الى مصر اذا جاءها من مصر طلب رسمى بذلك ، ويقول كرومر فى كتابه : ان هذا الطلب الرسمى أرسل فعلا الى الآستانة ، ومهما يكن من الامر فان السلطان فى اليوم الثانى من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا مندوبا عثمانيا ساميا وأمره بالسفر الى مصر رئيسا لوفد يعالج الحال فيها، ولعل السلطان كان يرى أن هذا الوفد أو هذه البعثة التىاشتهرت باسم بعثة درويش باشا كانتكفيلة بوضع الامور فى موضعها الصحيح ، وازالة أسباب الشكوى من جميع الجوانب على أساس الاستفادة من الخلاف بين الفريقين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر ...

ووصل درويش باشا ووفده الى الاسكندرية فىاليوم السابع من يونيو ، وقد أقلهم اليها اليخت السلطانى « عز الدين » ، وكان من أهم أعضاء الوفد الشيخ احمد أسعد أحد ذوى الحظوة والمكانة عند السلطان عبد الحميد ، وبلغ عدد أعضاء البعثة ورجال حاشيتها ثمانية وخمسين ...

ويجدر بنا قبل الكلام على بعثة درويش أن نأتى على تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان منذ بدأت بينهما ،

لما لذلك التاريخ من اهميـــة لعلاقتـــه بما كان من أمر درويش ومسلــكه نحو الخديو ونحو عرابى ...

كانت أولى خطوات عرابى نحو الاتصال بالآســتانة تقابله مصادفة فى اليوم السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٨٤ بأحمد راتب باشا ، أى بعد يوم عابدين بشهرين وبضعة أيام، وقد ذكرعرابى نبأ هذه المقابلة فىموضعين : الاول فى مذكراته ، والثانى فى حديثه مع مستر بلنت بالشيخ عبيد فى اليوم الثانى من شهر يناير سنة ١٩٠٤ أى بعد عودته من منفاه بأكثر من عامين وقد أثبت بلنت هذا الحديث فى آخر كتابه ...

قال عرابى فى مذكراته : « وفى ١٦ أكتوبر تقابلت مع أحمد راتب باشا أحد رجال الوفد العثمانى ، وأحـــد رجال المابين المقربين من جلالة السلطان الاعظم فى محطة الزقازيق ، وكان قاصدا بندر السويس ليبحر منه الى الحجاز لمأمورية فوق العادة ، فركبت معه فىعربة واحدة وعرفته بنفسى ، ثم اخبرته بكل ما أجريناه منأول الامر الى آخره ، واننا لم نشـــق عصـــا الطـــاعة كما يدعى الاوربيون ، بل طلبنا الاصلاح باسم الذات الشاهانية ، وبذلك علم الصغير والكبير بأن لنا سلطانا شرعيا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية وان الخديو هو نائب عن جلالته فقط ، من بعد أن كانوا لايعرفون لهم حاكما شرعيا غير الخديو . ولما وصلنـــا الى رأس الوادى حضر الضباط والصف ضباط ، واصطفوا صفا واحدا تعظيما واجلالا للذات المشـــار اليها ، وهتفوا بقولهم : يعيش السلطان ، ثم ودعناه والتمسنـــا منه عرض اخلاصنا وطاعتنا علىالحضرة السلطـــانية حين عودته الى الآستانة العلية ، وقام به القطار بين أصوات المودعين والدعاء له وللذات الشاهانية »

وقال فى حديثه مع بلنت : « ولما جاء على باشا نظامى الى القاهرة ومعه أحمد راتب باشا من قبل السلطان ، انزعج الخديو مخافة أن يحدث تحقيق ، ولما كان محمود سامى قد عاد الى نظارة الجهادية فقد أمرنا أن نغادر القاهرة ، فذهبت الى رأس الوادى وذهب عبد العال الى دمياط ، وبقى على فهمى فى القاهرة ، ولم أر على نظامى ولا كانت لى صلة به ، ولكن حدث أن كنت فى الزقازيق ذات يوم فى زيارة صديقين لى هما : أحمد افندى الشمسى ، وسليمان أباظة باشا ، وبينما كنت راجعا بالقطار الى رأس الوادى ، تصادف أن كان أحمد باشا راتب فى طريقه الى السويس ليبحر منها فى رحلة الى مكة ، ووجدت نفسى فى العربة التى كان يجلس بها ، وتبادلنا التحية كشخصين يجهل كلاهما الآخر وسألته عن اسمه ، وسألنى عن اسمى وحدثنى عن رحلته وعن أشياء أخرى ، ولكنه لم يشر الى بعثته للخديو، وكذلك لم أسأله عنها . ولكنى أخبرته عن ولائى للسلطان بصفته رئيسا لديننا وقصصت عليه جميع ماحدث فقال خيرا ما فعلتم ، وتركته عند رأس الوادى ، وقد أرسل الى مصحفا من جدة ولما عاد الى استانبول كتب الى يخبرنى انه ذكرنى بخير عند السلطان ، وبعد ذلك تلقيت كتابا أملاه السلطان على الشيخ محمد ضفر يخبرنى فيه (١) بما تعلم » .

أما عن بعثة على نظامى فان عرابى لم يكن له بها صلة لولا ما كان من لقائه أحمد راتب باشا على الصورة التى ذكرناها ، وكانت بعثة نظامى هذه هى الوفد العثمانى الاول وقد وصلت مصر فى اليوم السادس من أكتوبر

---

(١) حرف بلنت هذا الاسم وحقيقته محمد ظافر كما جاء فى مذكرات عرابى الخطية .

سنة ١٨٨١ ، وسميت بعثة درويش بعد ذلك بالوفد العثماني الثاني ...

نزل أعضاء الوفد الاول بقصر النزهة ضيوفا على الحكومة ، واستقبلهم الخديو فى اليوم التالى مرحبا بهم فى قصر الاسماعيلية ، وأبلغوه تحيات السلطان ، وثناءه على ما يبذل الخديو من همة فى تحسين أحوال البلاد ، وأفهموه أن الغرض من مجيئهم هو تأييده وتثبيت حكمه فىمصر ... وعبر الخديو أمامهم عن عظيم شكره للسلطان وولائه له ، ورد لهم الزيارة فى قصر النزهة ...

وزار على نظامى باشا ديوان الحربية فى مقرها بقصر النيل ، وكانت مقر الآلاى الثانى واستقبله البارودى بالحفاوة ، وألقى نظامى باشا خطابا بالتركية على الضباط والجند حثهم فيه على طاعة الخديو وترجمه لهم البارودى ، وأجاب طلبه عصمت بقوله : « ان العساكر المصرية جموعا وأفرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه ، فان كلا منا يعلم ان أول واجب على الجند هو اطاعة ولى الامر والاذعان لما يأمر به ، وما منا الا محب للجناب الخديوى ميال بكليته الى الامتثال لاشارته »

وصافح نظامى باشا الضباط جميعا وأثنى على ما يظهرون من ولاء وحسن نظام .

وزار نظامى باشا شيخ الجامع الازهر ونقيب الاشراف وبعض كبار العلماء فلقى منهم جميعا ثناء على الجيش وشهدوا بحسن نياته وولائه للسلطان وللخديو ، وكان زعيم الجند أحمد عرابى أثناء ذلك فى رأس الوادى فلم يره نظامى .

ويبدو عجيبا أن نظامى لم يحاول أن يتصل بعرابى، ولعل مرد هذا الى أن السلطان لم يكن يؤيد يومئذ الحركة الدستورية فى مصر ، فقد حارب عبد الحميد مثل هذه الحركة فى بلاده وذلك بتعطيل القانون الاساسى العثمانى واغلاق مجلس النواب وتشتيت أنصار الدستور والحرية ...

وكانت بعثة نظامى فى الواقع مظاهرة سياسية ، أراد بها الباب العالى أن يستعيد نفوذه ويثبت سلطانه فى مصر ، وقد قوبلت كما أسلفنا بمظاهرة سياسية مثلها من قبل الدولتين ...

أما خطوة عرابى الثانية نحو الصلة بالآستانة فتتلخص فيما جرى من مكاتبات بين بعض رجال السلطان وبين عرابى ...

وقد أشار بلنت فى كتابه الى هذه المكاتبات بقوله بعد أن ذكر ما كان من لقاء بين راتب وعرابى « وقد أدى ذلك الى مكاتبات بينهما ، وتحت يدى أصل وثيقتين هامتين وقعت عليهما ضمن اضبارة كبيرة من الاوراق أثناء محاكمة عرابى وهما كتابان أرسلا الى عرابى بعد تأليف وزارة سامى بنحو ثلاثة أسابيع اى فى فبرايرسنة ١٨٨٢ وهى الوزارة التى كان عرابى فيها وزيرا للجهادية ، أما أولهما فمن أحمد راتب ، وأما الثانى فمن الشيخ احمد ظافر أحد كبار شيوخ الدين بالقسطنطينية الذى كان فى ذلك الوقت يقوم على شئون المكاتبات السرية للسلطان ، وقد كتبت هاتان الرسالتان بأمر السلطان شخصيا » . ثم أورد بلنت بعد هذا نص الرسالتين .

ويذكر عرابى فى مذكراته أن الاصل التركى للرسالتين ضبط بعد موقعة التل الكبير وترجمتا الى اللغة الانجليزية ثم أورد عرابى تعريبهما عن الانجليزية ...

أما عن قصة هاتين الرسالتين فيقول عرابى : « ولما رأينا كثرة تردد السير مالت قنصل انجلترا الجنرال على الخديو ليلا ونهارا واستسلام الخديو لما يوحى به اليه علمنا أن انجلترا طامعة للاستيلاء على وادى النيل الخصيب عملا بقاعدة التوازن الدولى لتضارع بعملها هذا عمل فرنسا فى استيلائها على ولاية تونس الخضراء ، فكتبنا بذلك للحضرة السلطانية ، وحيث لم يكن لنا واسطة فى الآستانة تبلغ عنا مقاصدنا للسدة الشاهانية اتخذنا الشهم المقدام الصادق الامين على راغب قبودان أحد شبان ضباط البحرية المصرية رسولا ، وكلفناه بابلاغ عريضتنا الى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية فصدع بالامر وأوصل الرسالة الى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ أحمد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية الى دار السعادة .

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف ، وكذلك فعل أحمد راتب باشا ، وكان الحامل لهذين الخطابين السيد أحمد أسعد أفندى وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذى حضر أخيرا بمعية درويش باشا ، وهاك ترجمتهما عن اللغة الانجليزية من تاريخ المستر برودلى وتاريخ المستر بلنت لان أصلهما التركى ضبط بعد واقعة التل الكبير وترجم الى اللغة الانجليزية » .

وأشار عرابى الى المكاتبات بينه وبين السلطان فى موطن آخر ، وذلك أثناء سجنه فى مقر الدائرة السنية قبيل محاكمته ، فقد كتب وهو فى السجن ملخصا لقضيته كلها ليستعين به محاميه مستر برودلى فى الدفاع عنه ، ولقد أثنى برودلى على حضور ذهنه وترتيبه

الحوادث ترتيبا منطقيا حسن السياق على الرغم مما كان يحيط به . قال عرابى فى هذا الملخص (١) وقد تكلم عن بعثة درويش ما نعربه كما يأتى : « أشعر الآن أن من واجبى نحو مصر ونحو نفسى أن أذكر فى وضوح عند هذه النقطة اتصالى بصاحب الجلالة السلطان أثناء الحوادث الاخيرة فى هذا البلد . لقد بدأت على هذه الصورة : أرسل طلعت باشا الشركسى فى نوفمبر سنة ١٨٨١ فى رسالة الى القسطنطينية من جانب الخديو . وقد كلف أن يصور للوزراء الاتراك وللسلطان أن مصر فى حالة ثورة ، وان هناك اقتراحا لانشاء أمبراطورية عربية وان أحمد عرابى والحكومة البريطانية قد اتفقا فيما بينهما على هذا الامر ... وقد أحدثت هذه الاشاعات التى نشرها طلعت أثرها فى الآستانة ، ولم يكن لنا وكيل هناك يدفع هذه الاباطيل ، فاضطررت ازاء ذلك الى الاتصال بالعالم الورع الشيخ محمد ظافر كاتم سر السلطان ومشيره الدينى ، ذلك الذى عرفته بشهرته ولم أقابله شخصيا قط . فكتبت اليه وحمل رسالتى اليه على راغب مفندا جميع المزاعم التى عزيت الينا ، وطلبت اليه أن يشرح للسلطان صادق ولائى ، وشدة تعلقى بالمبادىء الاساسية لديننا المقدس ، تلك التى تجعل من واجبنا أن نطيع أمير المؤمنين .

ولقد رد علينا هذا الشيخ فى سرور فحمل على راغب السالف ذكره كتابا باللغة التركية ، قال فيه انه ألقى بين يدى السلطان ما تضمنه كتابى ، وان السلطان اظهر اقتناعه بولائى ، وانه يأمرنى أن أظل على طاعتى ، وأضاف الشيخ ان جلالة السلطان يطلب الى أن أدافع عن بلدى بكل ثمن ضد الاحتلال ، والا كان نصيبه نصيب

(1) How we Defended Arabi, By A.M. Broadley.

تونس ، وانه لايعنيه اسماعيل أو حليم أو توفيق ، وما يعنيه الا الرجل الذى ينفذ ما يأمر به ، وكتب الى بمثل هذا احمد راتب باشا الذى قابلته مقابلة شخصية طويلة عندما كان بمصر ، والذى جاء كتابه الى مع كتاب ظافر»

هذه قصة الرسالتين الخطيرتين بين عرابى وبلاط السلطان ، أو تاريخ الصلة بين عرابى والسلطان قبل بعثة درويش ، ولقد راجعت الرسالتين كما أثبتهما عرابى فيما بين يدى من مذكراته المخطوطة على الترجمة الانجليزية التى أثبتها بلنت فى كتابه عن الاصل التركى فوجدت التشابه بينهما تاما ، ولذلك آثرت أن أوردهما للقارىء فى عبارة عرابى فيما يلى :

ولنبدأ بكتاب الشيخ محمد ظافر ، قال : « ناظر الحربية المصرية، سعادتلو أفندم... قد قدمت الخطابين الكريمين الواردين منكم الى جلالة السلطان وجلالته علم من فحواهما جميع عواطفكم الوطنية وتيقظكم وخصوصا وعودكم بمساعيكم لحفظ مصالح جلالته بكل اخلاص وأمانة ، فانها وقعت لدى جلالته موقعا حسنا ، حتى ان جلالته أمرنى أن أبين لكم سروره ورضاه واكتب لكم كالآتى :

حيث أن حفظ الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منا ، فيجب على كل مصرى السعى بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتنا لمنع خروج مصر ووقوعها فى قبضة الاجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس فى أيدى الفرنسيين فنحن وضعنا ثقتنا فيكم ياولدى لاستعمال قوتكم وعمل كل ما فى الامكان لمنع حدوث شىء مثل ذلك . فكن على حذر دائما ولا تغض النظر طرفة عين عن هذه النقطة المهمة ، ولا تتركوا أية طريقة أو وسيلة من وسائل الاحتياطات والطرق المتخذة فى عصرنا هذا ، واضعا

نصب عينيكم دائما الغرض الذى ترمى اليه ، ألا وهو الدفاع عن ملتكم وبلادكم ، وخصوصا يجب عليكم أن تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التى تربطكم بنا.

تلك البلاد هى بلاد مصر التى لها أهمية عظمى لدى انجلترا وفرنسا وخصوصا لدى الاولى . ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن فى الآستانة يمالئون هاتين الدولتين ويشتغلون من زمن بعيد بمشروعاتهم الفاسدة التى تؤدى الى الخراب وسوء المصير . ومذ رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن فى مصر ، وجهوا عنايتهم الى ذلك بنشاط وغيرة فرغبة جلالته الخاصة هى أن تحذروا من أولئك الخونة الاشرار ومكائدهم ، وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة لا تنام !

وبناء على التلغرافات والاخبار المرسلة من الخديو توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية المومأ اليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضا أن كل تلغراف من تلغرافاته لايؤيد الآخر بل جميعها على طرفى نقيض. وأزيدكم معرفة بأن على نظامى باشا وعلى فؤاد بك قد أثنيا عليك ثناء جميلا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا فقد قص على جلالته موضوع الحديث الذى دار بينكما فى عربة السكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة ، وبما أن جلالته يضع عظيم ثقته فى أحمد باشا راتب ، فقد كلفنى بهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم واخبركم بأنه حيث ان جلالته يعتبركم رجلا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شىء منع وقوع مصر فى قبضة الاجانب وألا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التدخل فى شئون مصر ...

هذا وان التعليمات التى ستصدر الى راتب باشا فى هذا الشأن ستكتب لكم على حدتها ...

وقد كتب خطابى هذا وخطاب أحمد راتب باشا بأمر جلالته بمعرفة احد كتاب جلالته الخصوصيين وبعد أن وقعنا عليهما بأختامنا فى حضرته العلية ختمنا على الظرفين

هذا واعلمكم بصفة خاصة وسرية أن جلالة السلطان لايعول على اسماعيل ولا حليم ولا توفيق بل يعول على الرجل الذى يفكر فى مستقبل مصر ويثبت الروابط التى تربطه بالخلافة ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير ويؤيد سلطته المستقلة فى الآستانة وخلافها ولا يعطى رشــوة لاولئك الموظفين الخائنين ولا يحيد قيد شعرة عن طريق واجباته ويكون له دراية تامة بدسائس أعدائنا الاوربيين وأعمالهم التى يقصد منها ايقاع الفتن والمشــاغبات ، ويكون واقفا لهم بالمرصاد ، ويحافظ على بلاده وملته من أن يمسها سوء فمن يفعل ذلك يرض جلالة متبوعنا الاعظم ويكن مقبولا لدى جلالته .

وانى أرجوكم الا تؤاخذونى فى عدم كتابة تفصيلات اخرى بخطابى هذا ، حيث أن أحمد راتب باشا حضر منذ ثلاثة أيام فقط ، ومع ذلك ففى المدة القصيرة نظرا للأقوال التى صرح بها عن حســن مقاصــدكم الشريفة واخلاصكم لجلالته أظهر عظيم ثقته فيكم . هــذا وقد وصلنى بالامس الخطاب الذى أرسلته لى وأتعشم بامكان ارسال خطابه لكم فى بريد الاسبوع الآتى متضمنا تفصيلات أكثر . وعلى كل حال فاحذروا من وقوع أى خطاب من الخطابات التى ترسلونها فى أيدى الغير واجتهــدوا فى الحصول على مراسل خاص بيننا تثقون به ، وأما فى هذه المرة فالاوفق هو تسليم رد هذا الخطاب ليد حامله

٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ محمد ظافر

ونورد بعد ذلك كتاب أحمد راتب باشا ونصه كما

اثبته عرابى كما يأتى :

الى ناظر الحربية المصرية أحمد عرابى بك (١) : قد بلغت جلالة السلطان الاعظم المحادثة التى حصلت بيننا بالسكة الحديدية ما بين محطتى الزقازيق والمحسمة عند عودتى من الآستانة ، وقد أحدثت تلك المحادثة سرورا عظيما عند جلالته وامرنى أن أبلغكم محظوظيته الملوكانية وانى بلغت جلالته المعاملة الحسنة التى عوملت بها ، والاكرام الذى رأته عيناى مدة وجودى بالمحروسة ، وجلالته أظهر عظيم محظوظيته حتى أن الرضا الذى حصل عنده أقنع جلالته بحسن ولائكم وعبوديتكم أضعافا مضاعفة ...

هذا وقد سعى أناس فى جعل جلالته يفتكر أنكم كنتم تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم ولا أدرى كيف ذلك ، ونجحوا فى تغيير فكرة جلالته نحوكم . وأما الآن بعد أن أوضحت لجلالته حقيقة المسألة أقسم لكم أن جلالته متأسف جدا لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلفة التى بلغته عنكم ، والذى يثبت لكم ذلك هو أن جلالته أمر بأن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية :

لا أهمية فيمن يكون خديو مصر ، ويجب أن تكون أفكار والى مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة ، وفى الوقت نفسه يجب عليه أن يظهر الغيرة التامة والاخلاص فى تأييد حقوق البلاد ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من يتربع من الولاة على الاريكة الخديوية.

اسماعيل باشا وأسلافه أولئك رشوا غالى باشا

---

(١) كذا « احمد عرابى بك » فى مذكرات عرابى وفى كتاب بلنت .

وفؤاد باشا ومدحت باشا ونائبيهم الخائنين فى الباب العالى ، وبعد أن أغمضوا عيون أولئك الموظفين المذكورين اجترأوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة ، وزيادة على ذلك فانهم تداينوا ديونا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنـــون تحت نير العبودية . واليوم حالتهم فى نظر الدنيا تستدعى رأفتنا الخاصة بهم ، فالمركز بأكمله فى غاية من الضعف ويحتاج الى البحث الدقيق وراء الدواء الشافى العاجل ، وعليه يهمكم قبل كل شىء منع ماعساه أن يؤدى الى التدخل الاجنبى وألا تحيدوا عن الطريق الحق القويم ولا تصغوا الى الخلافات التى تسبب الخدعة ، بل يجب عليكم فى كل الاحوال منع حدوث المؤامرات الاجنبية التى يقصد منها اثارة الفتن بكل يقظة وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى ...

وبما أننا سنكاتب بعضنا فى المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطاباتنا فى أيدى الغير، واسهل طريقة وآمنها يمكنكم اتخاذها الآن هى أن تعطوا رسائلكم الى الرجل الصادق الامين الذى يحمل هذا ، وآخر من الشيخ محمدظافر ، وأزيد على ذلك انه من الضرورى ارسال ضابط سرا يكون عالما بأحوال مصر ويكون بين أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم ليقـدم الى أعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد، هذا وأرجوكم رد هذا بمعرفة الرجل الذى يحمل هذا الخطاب ... فى ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ ، ياور جلالة السلطان أحمد راتب » ...

من هذا يتبين لنا أن الصلة كانت وثيقة بين عرابى والسلطان قبل مجىء بعثة درويش، وهو أمر له خطورته

البالغة ، فقد كان عرابى فى نظر من يعلمون هذه الصلة من شيعته المدافع عن حرية المصريين وعن حقوق السلطان ضد انجلترا وفرنسا ، فى حين ظهر الخديو بمظهر الناقم على المصريين ما يطلبونه من حرية والممالىء لسياسة الدولتين المعتديتين وخاصة انجلترا ... ولسوف تكون هذه الصلة أهم ما يدفع به محاميه عنه تهمة التمرد والعصيان يوم يساق هذا المجاهد السيىء الحظ الى المحاكمة ...

ولقد أشار عرابى الى أهمية هذه الصلة فى تقريره الذى كتبه فى السجن قبيل المحاكمة فقال بعد أن أتم تاريخ هذه الصلة الى ما بعد بعثة درويش : « لم يستنكر السلطان أبدا ما فعلنا ، لا فى أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا ، بل ان السلطان أيد أفعالنا بالقول وبالعمل ، فكيف أكون مع ذلك متمردا ؟ ! أليس يعد السلطان فى نظر الامة الانجليزية صاحب السيادة على مصر ؟ !

وانا لا نجد فى بيان أهمية هذه الصلة خيرا مما كتبه بلنت فى صددها قال : « ان هاتين الرسالتين وثيقتان لهما من عظيم الاهمية التاريخية أنه اذا قدر لمذكراتى أن تطبع يوما فيجب أن تلصقا بها بنصهما وحروفهما ، وانهما لتفسران كثيرا مما سيحدث بعد ذلك فى يونيو أثناء بعثة درويش ، وكذلك تقيمان الدليل على أنه اذا كان عرابى أخذ على عاتقه وقتئذ وأثناء شهور الحرب مسئولية حكم مصر حكما ديكتاتوريا فان ذلك لم يكن بغير مبرر قوى من وجهة النظر الاسلامية ، وهذا المبرر هو أوامر الخليفة امام دينه فى أن يدافع عن القطر فى وجه الدول الاوربية . وترينا الوثيقتان كذلك لماذا لم يكن عبد الحميد ميالا فى شهر أغسطس الى أن يطلق على

عرابى لفظ المتمرد ، وكيف بلغ من السخف نعته بذلك عند المحاكمة ...

وعلى اى حال فينبغى الا يؤخذ من ذلك أن عرابى قد جعل من نفسه أداة للسلطان فى أى شىء يتصل بالادارة الداخلية المستقلة لوطنه ، ان موقفه فى هذه المسألة كان ثابتا لايتزعزع ، فقد كان يكره الترك وكان على وجه اليقين يرد بقوة السلاح أى تدخل حربى من جانب القسطنطينية ، وان كتاب الشيخ محمدعبده لدليل قوى على صحة هذا الذى أقول (١) ، وهو يشاكل جميع ما أفضى به الى عرابى نفسه ... لهذا كان موقفه من بلاط الخليفة موقفا متقلبا عرضة للتغيير ، ولقد كان له صديقان هناك فى شخص أحمد راتب ومحمد ظافر ، ولكن كان له كذلك أعداء أشداء »

نعود بعد ذلك الى بعثة درويش لنبين مبلغ ما كان فيها مما نحن بصدده من صلة بين عرابى والسلطان ثم لننظر فى الغرض منها وأثرها فى مجرى الحوادث بوجه عام ...

لخص عرابى علاقته وعلاقة أشياعه بدرويش فى هذه الفقرة التى جاءت ضمن تقريره الذى كتبه فى سجنه قال : « وكان أن وصل درويش باشا عند ذلك الوقت ، وبعد أن أجرى تحرياته عن مسلك الجيش أعلن أنه يرى أن الجيش كان مطيعا دائما وأنه حافظ على النظام العام وأنه لا ملامة توجه اليه وبناء على ذلك فقد طلب من السلطان نحو مائتى وسام للضباط وللمدنيين ، وطلب لى الوسام المجيدى من الطبقة الاولى »

---

(١) يقصد الكتاب الذى ارسله اليه الشيخ محمد عبده بتاريخ ٢٥ ابريل يقص عليه فيه حادث المؤامرة الشركسية ، وفيه أظهر الشيخ مبلغ كراهية المصريين للاتراك .

وقد أنعم فعلا على عرابى بهذا الوسام الجليل الشأن أبرق مستر كارتريت وكيل قنصل الاسكندرية الى اللورد جرانفل فى اليوم الخامس والعشرين من يونيو يقول (١) : « سيدى اللورد ... أخبر الخديو السير أوكلند كلفن أن السلطان منح سموه منحة من الجواهر علامة على الرعاية وحسن النظرة الى مقامه ، وأضاف سموه أن السلطان مع الاسف قد أنعم على عرابى بالوسام المجيدى الاكبر ، وانه أنعم على سلطان باشا بوسام روميلى بيلربى

ولكن الخديو يقرر أن جميع جهود درويش باشا فى تسكين ثائرة عرابى باشا بالملاينة أو بالقوة قد منيت بالفشل التام ، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهوا وهزرا ، ويتمسك عرابى الآن بأن ما يتضمنه هذا الانعام الاخير عليه من الرضا والعفو لايدع ثمة ضرورة لان يتخذ خطوات أخرى يبرر بها سلوكه، ويبدو من درويش باشا أنه يتراجع عن أن يبذل أية محاولات أخرى للتأثير عليه»

ويتضح من هذه البرقية مبلغ ما وصل اليه توفيق من الحقد على عرابى والخوف من نفوذه ، وأنه ينظر الى المسألة كلها نظرة شخصية

ولاريب أن توفيقا على الرغم مما أنعم به عليه ، يفطن الى معنى الانعام على عرابى ، فهو تأنيب عملى لتوفيق على صلته بالدولتين ، وهو فى الوقت نفسه دليل على أن السلطان يريد أن يقول انه يرى فى عرابى المدافع عن حقوقه فى مصر ...

وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان فى اليوم الرابع من يوليو وسلمهما الخديو بيده لعرابى ، معبرا

---

(١) مجموعة الكتاب الازرق الانجليزى الخاصة بمصر وهى تحت يدى وقد وردت هذه البرقية فى Egypt No. 17, «1882» P. II

له عن رضائه عنه وثنائه عليه لاخلاصه فى أداء خدماته وانتباهه الى واجبه ، وشكره عرابى شكرا حارا على هذا العطف ، كما أبرق عرابي الى الآستانة يرفع شكره الى السلطان ، وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثناءه على حسن سلوكه واخلاصه لواجبه ...

وقد أظهر عرابى كياسة ولباقة فى استلام الوسام ، وذلك انه أبى أن يتسلمه الا من الخديو حتى لا يكون فى تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدى للخديو(١)

ولم يستشر توفيق فى الانعامات جميعا ، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان (٢)

ظن السلطان أنه يستطيع أن يستعيد نفوذه فى مصر بالتفرقة بين الفريقين المتنازعين فيها : توفيق ومن يشايعه ، وعرابى وأعوانه ...

لهذا جعل رئاسة الوفد لدرويش المعروف بالقوة وبكراهية العناصر الحرة ، وجعل فيه أسعد مشيره فى شئون من يتكلم العربية من رعاياه ومرجعه فى دعوة الوحدة الاسلامية ، واتفق الباب العالى وأسعد على « شفرة » خاصة للمكاتبات لايعرفها درويش ، وأفهم أسعد أن يلاين عرابى ويلقى فى روعه أن السلطان راض عنه وعن حزبه كل الرضاء ، فلا بأس عليه مما عسى أن يجد من غلظة من جانب درويش ، وطلب كذلك الى أسعد أن يطلع السلطان على حقيقة شعور المصريين وخاصة علماء الازهر ، فكان أسعد فى الواقع رقيبا على درويش الذى لا يأمن السلطان أن تصله هدايا توفيق..

ويذكر جون نينيه فيما كتبه عن مذبحة الاسكندرية وقد مهد لها بالكلام عن بعثه درويش أن درويشا كانت

---

(١) محضر التحقيق مع عرابى اثناء محاكمته

(٢) Blue Books E. No. 17 — P. 48

لديه اوامر سرية بأن يعمل على خلع توفيق اذا أمكنه ذلك توطئة لتعيين حليم ...

وأرسل الخديو مندوبا يستقبل الوفد فى الميناء وهو ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابى رسولا بصفته المهيمن يومئذ على الحكومة اذ كان وصول الوفد بعد سقوط البارودى بعشرة أيام ، وقد أحسن درويش لقاء المندوبين جميعا ، الامر الذى أسخط الخديو أشد السخط ...

وخرج درويش من الميناء يقصد سراى رأس التين ، فاذا بالشوارع التى مر بها هو ووفده ملأى بالمصريين وقد جاءوا يحيون الوفد ، وترجمت لدرويش بعض الهتافات مثل قول المنادين (١) : « اللايحة اللايحة » ، ورد الباقين : « مرفوضة مرفوضة » .. ومثل قول المتظاهرين : « أبعدوا السفن الاجنبية » ..

ووقعت فى نفس درويش ووفده موقعا مهيبا هذه المظاهرة القوية ووجدوا أنفسهم أمام دليل قوى باهر على قوة الحركة الوطنية فى مصر ...

وكان عبد الله نديم قد سافر الى الاسكندرية قبيل وصول الوفد فخطب فى الناس خطبا حماسية ، كانت عظيمة الاثر فى اذكاء الروح الوطنية واثارة شعور الوطنيين على المذكرة المشتركة والسفن الاجنبية ...

وزار الوفد ضريح السيد البدوى بطنطا وهو فى طريقه الى القاهرة . وقد سافر اليها فى اليوم التالى بقطار خاص ، وفى القاهرة نزل الوفد بسراى الجزيرة ...

ومما يذكره جون نينيه عن هذا السفر قوله : أن اعوان الخديو أرادوا ان يحولوا بين مندوب عرابى وبين الركوب صحبة درويش فى عربته ، فأخذه درويش

---

(١) يقصدون المذكرة المشتركة .

بذراعه وأدخله معه فى العربة ، وكذلك يذكر نينيه أن جماعات من المصريين حيت الوفد فى كل من دمنهور ، وكفر الزيات وطنطا ...

وتلقاهم الخديو بسراى الاسماعيلية مرحبا مظهرا عظيم الحفاوة بهم ، ثم رد الزيارة لدرويش باشا بسراى الجزيرة وهناك أظهر له استياءه من حسن لقائه مندوب عرابى ، ومن جفاء لهجته فى مخاطبته اياه فى سراى الاسماعيلية فطيب درويش خاطره مظهرا أنه ما جاء الا لتثبيت سلطة الخديو ...

واظهر درويش فى القاهرة عظيم دهشته وشديد نفوره مما رأى من تحمس الناس وجرأتهم وخاصة علماء الازهر الذين أظهروا عطفهم الشديد على عرابى ومبادئه ولم يستثن منهم الا الشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر والشيخ العباسي والشيخ البحراوى والشيخ السادات(١) الذين آثروا الانحياز الى الخديو ...

وذهب وفد كبير من العلماء الى درويش باشا ، يحملون مكتوبا موقعا عليه منهم ومن عدد عظيم من الناس يطلبون فيه رفض الانذار الاجنبى وخاصة ماجاء فيه عن ابعاد عرابى ...

وأغلظ درويش فى مخاطبة الشيخ الذى تكلم باسم العلماء وهو الشيخ محمدخضير وانتهره قائلا: « أمسك لسانك فما جئت هنا لاستمع الى النصائح من أحد ، وانما جئت لآمر أوامرى» ، ثم صرفهم فى جفاء وخشونة وفى الوقت نفسه أعطى الحلة العثمانية لشيخ الاسلام ولبعض العلماء ...

وحسب درويش أنه بذلك أخاف العلماء ، ولكن ما لبث أن تبين له خطأه ... فقد اجتمع طلاب الازهر فى

---

(1) S.H Blunt P. 307

اليوم التالي بسبب ما علموا من اهانة علمائهم ، وتعددت الاجتماعات فى جهات من المدينة ، وبدأ الناس يظهرون خوفهم وسخطهم على الوفد التركى ، وخاصة ان عددا كبيرا من الاعيان أرسلوا اليه يحتجون على مسلكه نحو رجال الدين ...

ورأى درويش أن عليه أن يصلح ما أفسد ، وأيقن ان لهجة الامر والنهى لم تعد تجد فى مصر جوا ملائما لها ، وفطن الى أنه تلقاء أمة جادة ، خلعت منذ يوم عابدين عن أعناقها أغلال العبودية ومضت قدما فى سبيل الكرامة القومية ...

وكان الرجل غافلا يظن أنه كفيل - وهو مندوب السلطان - أن يلقى الرعب فى قلب كل امرىء مهما علا مقامه ، وفاته أن مصر اليوم غيرها بالامس ، لان فيها حركة وطنية تغلغلت فى أقاليمها وشملت جميع طبقاتها ..

وفى يوم السبت الموافق اليوم العاشر من يونيو ، أرسل درويش فى طلب عرابى ومحمود سامى ، وكان حتى ذلك الوقت يظهر أنه لا يحب أن يراهما ...

وقد أورد جون نينيه حديث هذا اللقاء وأخذه عنه بلنت قائلا انه يثق فى صحته كل الثقة ، أما نينيه فيذكر أنه أخذه عن عرابى (١) ، وأنه سمع مثله من البارودى على أن الشيخ محمد عبده قد ذكر عن هذا اللقاء ما لا يختلف فى جوهره عن حديث جون نينيه .

قال جون نينيه : « أظهر درويش المودة لعرابى ولسامى وأجلسهما بجانبه تكريما لهما ثم قال : نحن هنا جميعا أشبه باخوة ونحن أبناء السلطان ، وأنا بلحيتى هذه البيضاء أقوم منكم مقام الاب ، وهدفنا

---

(١) اهمل عرابى الحديث عن بعثة درويش اهمالا ملحوظا فلم يشر اليها الا فى عبارة مقتضبة فى مذكراته المخطوطة

جميعا واحد وهو مقاومة الدخيل والعمل على رحيل الاساطيل ، التى هى اهانة للسلطان وتهديد لمصر ، ثم ذكر أنه يجب عليهم أن يعملوا جميعا لهذه الغاية وخاصة عرابى والوزارة ليظهروا حماستهم نحو مولاهم وان خير ما يفعل فى ذلك هو اعتزالهم مناصب الجندية ولو فى ظاهر الامر فقط ، ولكى يرضى عرابى السلطان ينبغى أن يسافر الى الآستانة ليقيم هناك بعض الوقت وأجاب عرابى على ذلك بقوله : انه مستعد لان يعتزل ولكن الظرف دقيق ولما كان قد أخذ على عاتقه تبعة عظمى هى حفظ النظام والامن فانه لايرضى بأنصاف الحلول ، وأنه اذا اعتزل فانما يعتزل حقا ، ولكنه لن يفعل ذلك الا اذا أخلى كتابة من كل تبعة ، لانه لا يقبل أن يكون مسئولا عن أشياء لم تكن له يد فيها ، لقد اتهم باساءة التصرف والاستبداد والارهاب وغير ذلك ، ولذلك فهو لا يدع منصبه الا اذا أبرئت ذمته كتابة من جميع هذه التهم ، وسوف يذهب الى القسطنطينية بعد هدوء الحال فردا عاديا ليقدم ولاءه للسلطان ... ولم يكن درويش يتوقع هذه الاجابة ولذلك فقد كرهها ، وتغير وجهه ، ولكنه قال : دعنا نعد المسألة منتهية ولتبرق فى الحال الى محافظة الاسكندرية وقائد حاميتها أنك اعتزلت ما أنت مكلف به ووضعته فى يدى وانك وكيلى منذ اليوم ، وعندما يجتمع القناصل والخديو يوم الاثنين فى عابدين سأعطيك ما يعفيك من كل تبعة ...

ورفض عرابى رفضا باتا أن يجيبه الى ذلك قائلا : انه ما لم يصل اليه هذا الاخلاء فانه محتفظ بمنصبه وبمسئوليته ...

ولم تقدم فى هذا الاجتماع قهوة أو سجائر ، وقد أكد لى محمود سامى بعد ذلك هذا الذى أورده عن الاجتماع » ...

نجد فى هـذا الحديث شواهد جديدة على بسالة عرابى وصراحته فى القول ، وعدم فراره من المسئولية، وحضـور ذهنه وحسن تخلصه ، وفطنته الى ما يدور حوله ، وما أبعد ذلك عما يرميه به الجاهلون والمبطلون من سذاجة وجهل وتهور وعدم دراية بالامور ...

ولقد شك الخديو فى نيات درويش وأوجس فى نفسه خيفة منه ، فمنحه خمسين ألفا من الجنيهات فضلا عن جواهر تساوى نصف هذه القيمة ، وقد أيدت كثير من المصادر نبأ هذه الرشوة ، وما كان أغنى توفيقا عنهـا فان درويش لم يكن فى وسعه أن يصنع بالخديو شيئا ولم يستطع أن يزحزح عرابى من مكانه ...

وقد ارسل صابونجى (١) رسالة من القاهرة بتاريخ اليوم الحادى عشر من يونيو الى بلنت فى انجلترا ، وجاء فى هذه الرسالة أنباء لها أهميتها عن الحال يومئذ بوجه عام ...

فمن ذلك الذى ذكره صابونجى ، ان الشيخ عليش أحد علماء الازهر أفتى بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباعه ما يشير به القنصلان ، ولذلك وجب عزله ، وان مصر تؤيد عرابى، الأقباط والمسلمون على السواء ، وليس يخرج على عرابى من المديرين وعددهم أربعة عشر الا ثلاثة ، وان الشيخ الامبابى شيخ الاسلام ، تمارض كيلا يحرج فى حضور درويش بين الخديو والحزب الوطنى ... وكذلك ذكر صابونجى أن عرابى يصمم على الجهاد والمقاومة الى آخر رمق من حياته قائلا : « اننا اذا متنا جميعا فسوف

---

(١) هو القس لويس صابونجى ، كان سكرتيرا وصديقا لبلنت ، وكان يعرف الانجليزية وقد رافقه الى انجلترا ثم ارسله الى مصر قبل يوم سفر درويش الى القاهرة .

يدخلون بلدا خربة وسوف يكون لنا مجد الاستشهاد فى سبيل وطننا » .

***

ويشير صابونجى الى موقف سلطان فيقول انه اعتزل عرابى وانحاز الى توفيق منذ مجىء السفن ، وليس مع سلطان من النواب الا تسعة وهم جميعا ومعهم الخديو يتهمون بالخيانة ويطلق عليهم اسم الخونة ...

والازهر علماؤه وطلابه ما عدا أربعة من شيوخه فى جانب عرابى والحركة القومية ، ويخطب فيهم نديم خطبا حماسية مستشهدا بالقرآن والحديث وأحداث التاريخ

والناس جميعا يستنكرون المذكرة المشتركة حتى ان الصبية فى الازقة والنساء فى نوافذ المنازل يرددون الهتاف الذى بات مألوفا وهو : « اللايحة .. اللايحة .. مرفوضة .. مرفوضة » ...

ولندع الكلام الآن عن درويش ، فسوف تتبين لنا مقاصده ونواياه فيما يأتى من الحوادث حتى يرحل هو ووفده من مصر فى اليوم التاسع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ثمانية أيام من الاعتداء الغادر على البلاد ...

مأساة الاسكندرية

بدأت هذه المأساة فى يوم الاحد الموافق الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢ فى صورة مشاجرة بين أحد الوطنيين واسمه السيد العجان وبين مالطى من ساكنى الثغر ، هو من رعايا الانجليز ...

كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى وقتا طويلا متنقلا من مقهى الى مقهى حتى انتهى به المطاف فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر فى حانة قريبة من « قهوة القزاز » على بعد خطوات من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » ، وظهر منه أنه لاينوى دفع أجرة ركوبه ، فلما طالبه صاحب الحمار ، لم يدفع له الا قرشا واحدا فاختلفا على الاجر واستل المالطى سكينا وطعن به صاحب الحمار عدة طعنات فأرداه قتيلا ...

وخف رفاق القتيل ليمسكوا بالقاتل ولكنه هرب الى بيت قريب ، وسرعان ما رأى الوطنيون الذين تجمعوا عقب الحادث ، طلقات الرصاص تتهاوى عليهم من بعض النوافذ والابواب القريبة ، فسقط بعضهم بين قتيل وجريح ، واجتمع الوطنيون للانتقام ، فأخذوا ما اتفق لهم من العصى والحجارة والكراسى وانهالوا على كل من يصادفهم من الاجانب ضربا لايخشون أى عاقبة ...

واستمرت المعركة حتى الساعة الخامسة مساء ،

وكان الوطنيون يستنفرون اخوانهم للقتال صائحين :
« جاى يا مسلمين ! جاى ! بيقتلوا اخواننا » (١)

ونهبت بعض الدكاكين ، وامتدت الفتنة الى الشارع الابراهيمى والى شارع الهماميل وشارع المحمودية والى جهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية (٢) وسقط فى هذه الشوارع جرحى وقتلى من الاجانب والوطنيين .

وقد ذكر جون نينيه ، الذى شهد المعركة بنفسه ، أن عدد القتلى بلغ ٢٣٨ ، منهم ٧٥ من الوطنيين و ١٦٣ من الاجانب ...

كان لهذه المأساة خطر أى خطر فى الظروف القائمة حينذاك ، وقد حاول كل حزب أن يتهم الآخر بتدبيرها ، فالانجليز والخديو يعزونها الى الوطنيين ، وهؤلاء يعزونها الى الانجليز والى عمر لطفى محافظ المدينة ومن ورائه توفيق ...

وظل الحال كذلك حتى قدم عرابى للمحاكمة بعد التل الكبير فما استطاع خصومه أن يثبتوها عليه وهم أصحاب الجاه والنفوذ ..

ورمى محاميه مستر برودلى بالتهمة خصوم عرابى من المصريين وألح فى ذلك ولعله انما أراد به أن يبعد الشبهة عن بنى جنسه من الانجليز ...

وفى سنة ١٨٨٣ ، تجددت قضية هذه المأساة فى مجلس العموم البريطانى ، اذ تقدم اللورد راندلف تشرشل يحمل حملة عنيفة على وزارة جلادستون ، فاتهم الخديو ومحافظ الاسكندرية عمر لطفى بأنهما المدبران للمأساة ، وقد جمعت أدلة اتهامه فى كراسة من كراسات الكتاب الازرق الانجليزى هى الكراسة « مصر

(١) أثبت هذه العبارة جون نينيه فى كتابه بنطقها الغربى
(٢) رأس التين .

رقم ٤ سنة ١٨٨٤ » .

ويجدر بنا أن نتبين وجه الحق فى هذه المأساة ، لما كان لها من عظيم الخطر فى مجرى الحوادث ، فننظر هل كانت مبيتة ؟ واذا كان الامر كذلك فمن بيتها ؟ وماذا كان غرضه من هذا الفعل الاثيم ؟ ..

كان اجماع الانجليز عقب المأساة على أنها مبيتة ، وذلك لانهم أرادوا أن يلصقوها بالحزب الوطنى ، فلما عجزوا عن ذلك راح كتابهم ومؤرخوهم ومنهم كرومر يقولون ان الحادث من الحوادث التى تقع فى المدن كل يوم وانه ابن وقته فلا تبييت هناك ولا غدر من أحد ...

أما ان هذا الحادث فى ذاته ابن وقته فذلك ما يقبله العقل فى غير صعوبة بل ما يرجحه على الفرض الثانى ، وأما ان الفتنة على الصورة التى ذكرناها كانت كذلك بنت وقتها ، فذلك ما يصعب تصوره ، على أن المسألة ليست مسألة تصور ، انما هى مسألة حقائق ، فلننظر فيما يحيط بها مما يصح أن يساق مساق الحقائق أو مساق الادلة الصحيحة ...

قرر مستر جويس المهندس الانجليزى ، أن أحد باعة الخضر قال له صباح السبت : اشتر وكل فان النصارى سيذبحون غدا ، ويقول هذا المهندس أن مثل هذه العبارات قيلت لغيره من الاجانب ...

وقال انجليزى آخر يدعى هيوارت : « أعتقد كل الاعتقاد بناء على ما لدى من معلومات استقيتها من عدة مصادر أن مذبحة ١١ يونية كانت نتيجة لخطة مدبرة » .

وقال ثالث يدعى ألكسندرفيس : « بناء على معلومات تلقيتها تباعا ، كونت رأيا قاطعا هو أن المسألة قد دبرت من قبل وقد بدأت فى عدة أماكن فى وقت واحد تقريبا .

وقال مستر جورج بلافاتشى : « ان معركة يوم الاحد

مع المالطيين تلك المعركة التي دبرها من قبل أعوان البوليس قد أدت الى تلك المناظر العنيفة المرعبة منـــاظر الفتك والقتل التى كنا نحن شهودها وضحيتها ، وان هـــذه الحقيقة الا وهى انبعاث الاضـــطرابات من ثلاثة أمكنة مختلفة لدليل على أنها كانت مدبرة من قبل » ...

ويقول فيلبوليس : « كنت فى السوق يوم ٨ يونية الساعة الثالثة بعد الظهر فشاهدت كثيرا من البـــدو يحملون بنادق ، وكانوا يضعونها فى مخازن لتحفظ فيها كما يبدو ، وفى اليوم التالى بينما كنت جالسا فى مقهى اقترب منى أحد العرب وهو صديق لى وطلب الى أن آخذ حذرى ، لان العرب كانوا سيقتلون الاجانب اما فى ذلك اليوم أو فى اليوم الذى يليه » .

وكتب لورد جرانفل الى نائب قنصـــل الاسكندرية مستر كارتريت يقول : « أنبأنى مسيو سينادينو أحد أعضاء مصرف يونانى بالاسكندرية ان كل ما لديه من المعلومات يميل به الى الاعتقاد بأن الاضطرابات الاخيرة بالاسكندرية كانت من قبل مدبرة » ...

وكتب اليه بعد ذلك يشير الى هذه الرسالة مضيفا اليها قوله : « لقد ذكر أن رسالة أرسلت الى كل قنصل من الاجانب كي يحضر الى بيت المحافظ ، وانهم بناء على ذلك اخترقوا المدينة فى وقت الاضطرابات ، وقد تبين من البحث بعد ذلك أن رسالة كهذه لم يرسلهـــا محافظ الاسكندرية »

ويقول دكتورجويس : « انى أرى ان هـــذه المذبحة دبرت من قبل ، وليس هذا شأنها فحسب ، بل لقد نفذت فى مهارة ، وان الذين خاضـــوا غمارها كانوا فى الوقت نفسه يبحثون عن أسلاب ، ولقد جمعوا فى الواقع بين العملين فى وقت واحد »

ويقول مستر ستونتون : « عنـد نزولى الى البر ومرورى فى عربة بشوارع المدينة رأيت الناس فى الطرقات المؤدية الى الحديقة العامة هادئين جدا لا يبدو عليهم شيء من الشر ، ولما بلغتنا أنباء الاضطرابات بعد ذلك بثلاث ساعات وشهدت مئات من الوطنيين مسلحين جميعـا بالعصى والمدى ، استقر رأيى على أن الفتنة مدبرة ».

وقرر مستر جروسجيان ، ذلك الذى اختاره اللورد جرانفل ليجمع أدلة تفضى الى ادانة عرابى باشا ، أنه وصل الى أن الحوادث مدبرة ولكنه لم يصل الى شيء يلصقها بعرابى (١) ...

نورد بعد ذلك بعض ما قاله جون نينيه ، وهو رجل سويسرى أقام بمصر أكثر من أربعين سنة منذ أن قدم فى عهد محمد على فى عمل يتصل بزراعة القطن ، وقد خالط أهل مصر من جميع الطبقـات وعرف أحوالها معرفة وثوق كأنه من أهلها ، وقد شهد مأساة الاسكندرية وكان يتنقل فى أركان شوارعها أثناء القتال متباعدا حذر الفيلة ، قال بعد أن وصف ما أحدثه مجىء السفن من هياج : « لقد نظر الاوربيون الى ذلك كأول عمل من أعمال الحرب وأصبح سلوكهم نحو الوطنيين ينطوى على التهديد... وقد أزعج الهياج الاوربيين وخاصة الانجليز والمالطيين فاتصلوا بقناصلهم يسألونهم عن الوسيلة التى يحمون بها أنفسهم اذا وقع الاضطراب ؟ وقد أخبرهم مستر كوكسن بأن عليهم أن يحموا أنفسهم ، وقد علم فى أواخر مايو أو فى أوائل يونيو أن أسلحة أرسلت من اليونانيين فى الاسكندرية » . وقال جون نينيه يصف

---

(١) وردت هذه الاقوال جميعا فى كراسات الكتاب الازرق الانجليزى وقد ذكرها اللورد تشرشل أثناء اتهامه الخديو وعمر لطفى مستخرجا اياها من مجموعة الكتب الزرق الخاصة بمصر .

القتال : « ولكن على بعد نحو مائتى بارده كان الدهماء يتحركون كالبحر ورأيت طلقات نارية تنبعث من بعض النوافذ، واتجه القتال سريعا الى حيث كنا نقف ، ولذلك تراجعنا حتى اذا كنا على مقربة من مدرسة لازارست ، رأيت امام احد المقاهي عددا من اليونانيين مسلحين بالغدارات وقد اخذوا يطلقونها على الناس فى غير تمييز عقب مرورنا بهم مباشرة ... وعند ذلك رأيت عربة فى داخلها أحد رجال المستحفظين جريحا أو ميتا ، ولعله هو الذى طاف بالنذير . ذلك لانى رأيت فى أثره عددا من المسلمين وبعضهم من السود والبدو قادمين من عدة جهات يحملون عصيهم ... ثم اتسع نطاق القتال واطلاق النار واتخذت طريقى الى بيتى »

ويقول احمد رفعت بك ، وهو من كبار الموظفين وقد كان السكرتير العام لمجلس الوزراء فى وزارة البارودى : « ان هناك شيئا واحدا يحمل على اليقين وذلك أن هذا الحادث كان مدبرا من قبل ، فقد قام الدليل على أن عددا من «النبابيت» قد وزع على الدهماء قبل يوم ١١ يونية بأيدى بعض العناصر الخفية ، وأن هذه النبابيت ظهرت فى وقت واحد فى عدة أماكن فى المدينة فى نفس اللحظة التى قتل فيها أحد المالطيين حمارا لسبب تافه (١) » ويقول الشيخ محمد عبده : « فى هذه الحالة رؤى مستر كوكسن نازلا من بيت أحد المالطيين بلباس ملكى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عندما أراد أن يركب » (١)

يضاف الى ما سلف برقية مالت فى أواخر مايو التى

(١) أثبت لورد تشرشل تقرير أحمد بك رفعت فى اتهامه ، وقد أكد رفعت كلامه فى محضر استجوابه عند محاكمته .

(٢) ذكر ذلك جون نينيه كما ذكره بلنت ..

سبق أن أشرنا اليها وهى قوله : ان تصادما سوف يقع قريبا بين المسلمين والمسيحيين (٢) ، ولقد أشار الشيخ محمد عبده الى هذه البرقية فى تلك الورقة التى كان يدون بها بعض ملاحظاته بقوله : « مسألة تسلح الاجانب وايهام مستر كوكسن أن حوادث ستحدث » ...

هذه كلها أدلة نقطع معها أن هذه المأساة كانت مبيتة قبل وقوعها ، وانه لو لم يكن حادث السيد العجان ، والمالطى ، لوقعت المأساة عقب أى حادث من نوعه أو من أى نوع آخر ...

واذا كانت المأساة مدبرة على هذه الصورة فجدير بنا أن ننظر من دبرها ، وسبيلنا فى ذلك أيضا أن نورد الحقائق التى تنهض أدلة على ما نذهب اليه ...

ولما كان عمر لطفى باشا هو محافظ المدينة وقت وقوع المأساة فخليق بنا أن نبدأ به فنستعرض ما كان من مسلكه أثناء ذلك الحادث ، فمن هذا يتبين لنا مبلغ ما يقع على كاهله من تبعة ، ان كان الامر فيما يتصل به أمر خطأ أو تقصير ، ومبلغ نصيبه من الجريمة ان كان أمر اجرام وتدبير ...

وان أول ما نذكره عن عمر لطفى أنه كان بصفته محافظ المدينة المسئول عن الامن والنظام فيها كما نذكر أنه منذ استقالة الوزارة لم يكن لاحد عليه من سلطان الا الخديو، وذلك حسب الامر الذى أصدره الخديو عقب استقالة الوزارة بعرض ما كان من اختصاص وزارة الداخليـة على القصر ...

ونذكر بعد ذلك أن عمر كان من أنصار الحزب الوطنى حتى منتصف شهر مايو ، ثم انحاز الى الخديو فيمن انحازوا اليه بعد ذلك ، والدليل على ذلك أن الخديو

---

(1) Blue Book. Egyrt, No. 8; P. 60

عرض عليه منصب وزير الجهادية بعد سقوط وزارة البارودى .. على أنه ظل الى ما بعد سقوط الوزارة يتظاهر بالولاء للحزب الوطنى فيحضر حفلات هذا الحزب بالاسكندرية ويحرص على الصلة بكبار رجاله ...

وتذكر بعض المصادر الهامة نبأ برقية من الخديو الى عمر لطفى على أعظم جانب من الخطورة نعربها فيما يأتى « لقد ضمن عرابى الامن العام ونشر ذلك فى الجرائد ، وقد تحمل مسئولية ذلك أمام القناصل ، فاذا نجح فى ضمانه ، فان الدول سوف تثق به وسوف نفقد بذلك اعتبارنا ، يضاف الى ذلك ان أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وان عقول الناس فى هياج وان الحرب قريبة الوقوع بين الاجانب وغيرهم ... والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابى فى ضمانه أم هل تخدمنا » (١) .

وكان عرابى فعلا قد اخذ على عاتقه مسئولية الامن بعد اعادته الى وزارة الجهادية وأعلن ذلك رسميا فى الصحف بعد الاتفاق عليه مع الخديو ...

ويذكر عرابى باشا فى تقرير كتبه لبلنت قوله : «قبل كل شيء أرسل الخديو الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية ليحضر الى القاهرة بقطار خاص يوم ٩ يونية ، وقد تحدث معه الخديو عقب وصوله مدة طويلة ، وأعطاه ما يلزمه من التنبيهات لاحداث فتنة فى الاسكندرية» .

وكانت شرطة المدينة تحت رئاسة عمر لطفى ، وقد اشترك هؤلاء فى الجرائم بدل أن يعملوا على القضاء عليها

(١) أكد أحمد رفعت هذه البرقية وقد ذكرها رندلف تشرشل فى اتهامه ، كما أكدها بلنت فى كتابه ، وذكرها الشيخ محمد عبده ويذكر برودلى فى رد منه على كتاب من تشرشل أن اثنين من المسجونين السياسيين أثناء المحاكمة ذكرا له هذه الصلة وأن أحدهما عرفها من أحد موظفى التلغراف بالقصر نفسه ..

كما يقضي بذلك أول واجب عليهم ، واشتراك الشرطة في المأساه ثابت من تقارير أشخاص لهم خطرهم ومن هؤلاء مستر جروسجيان السالف ذكره ، وقد كانت مهمته كما اختاره مالت باشارة من جرانفل أن يجمع الادلةعلىاشتراكعرابى فىالجريمة، وقد قالجروسجيان ان الشرطة اشترت قبل الحادث بأيام قليلة عددا كبيرا من النبابيت وانها وزعتها على عدد من سفلة البدو ، وكان توزيعها من بيت قريب من مقر الضبطية ، ولم تتخذ اجراءات ضد موزعى تلك النبابيت...كما يذكر جروسجيان أن عشرة من الاطبـاء الاجانب قرروا أن جراح المصابين جميعا كانت اما من النبابيت ، واما من الحراب ، وكانت هذه هي أسلحة الشرطة ...

وقرر مستر جويس المهندس بالاسطول الانجليزى : « ان المستحفظين أو الخفراء قد أخذوا بنصيب فعال فى الفتنة ، فكانوا يقتلون المسيحيين حين لا يفعلالوطنيون ذلك ، وينظرون فى سكون فى حالة اعتداء الوطنيين » .

وذكر مسترهيوارت وهو من رجال المـال وقد أقام سبعة عشر عاما فى الاسكندرية : « ان الشرطة بدلا من أن تقضي على الفتنة عملت على زيادتها ، وان معظم الجراح كانت من أيديها ، وانها كانت توزع النبابيتعلى العرب وان بعض الأوربيين كانوا يلجأون الى الضبطية ، فكانوا يذبحون على مقربة منها أو بداخلها ، وانه لولا حضور الجيش فى النهاية لتفاقم الخطب وان الاجانب يدينون بأرواحهم لرجال الجيش ...

ولقد وقف عمر لطفى موقفا سلبيا من هذه الاحداث يتضح ذلك فى قول جون نينيه : « تصادف أن قابلت عمر لطفى فى الساعة الثالثة ، وكان يمشى بملابس عادية ومعه بعض رجال الشرطة فسألته : لماذا لم تفعل شيئا

لايقاف الفتنة ؟ فقال : انه كان مع القنصل الانجليزى وقد اعتدى عليه ، ففلت : ولماذا لم تذهب بملابسك الرسمية وتستصحب نحو خمسين رجلا من رجال الشرطه الفرسان لتقضي على الفتنة ؟ فأجاب بأنه ام يعثر على قنديل رئيس الشرطة ، فسألته : ولماذا لم يفعل الجند شيئا؟ فقال : انهم لم يتلقوا أوامر فلايستطيعون التحرك فسألته : وماذا فعل القناصل ؟ فقال : انهم عقدوا اجتماعا ، فقلت : ولماذا لم تبرق بما حدث الى الخديو والى عرابى باشا ؟ فأجابنى فى خشونة قائلا : « وما شأنك والمسألة عن هذا ؟ » .

ويقول روثستين : « ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر واستمرت حتى الساعة الخامسة.. حدث هذا كله ورجال البوليس كانوا تارة لايفعلون شيئا وتارة يشتركون فى الفتك والقتال ، أما عمر لطفى فكان فى أثناء ذلك قد استحوذ على مكتب التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ، ولم يخبر سليمان سامى قائد الحامية بشيء عن الفتنة الا بعد مضي الساعة الرابعة . وحتى فى هذه الساعة قد أمر بأن يقود الجنود عزلا من السلاح على أن الرجل تولي الامر بنفسه فبرز فى الساعة الخامسة وأخمد ثورة المذبحة »

ويقول عرابى : « ان عمر باشا وهو المحافظ لم يرسل الى نبأ عن الحادث مع أنه يعلم انى أخذت على عاتقى حفظ الامن والنظام فى البلد كله » .

وفى الوقت نفسه كانت الصلة بين عمر لطفى وتوفيق مستمرة أثناء الحوادث كما يشهد بذلك احمد رفعت بناء على ما وصل الى علمه من موظفى التلغراف بالقصر ولقد كتب وهو فى السجن انه يستطيع أن يثبت ذلك ولكنه بالضرورة لم يتمكن من شيء ...

وقرر كذلك جون نينيه أن مصلحتي التلغراف فى الاسكندرية والقاهرة قد شغلتا طوال الوقت بالاتصال بين الخديو وعمر لطفى .

ويقول الشيخ محمد عبده فى تقرير له كتبه فى منفاه بسوريا : « حقا ان أكثر من اتهموا ومن قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يصيحون بقولهم : « لا لوم علينا فان سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق » (١)

وجاء كذلك فى تلك الورقة المرقمة التى كان يثبت بها ملاحظاته قول الاستاذ : «وعلى القرب من زيزينيا رؤى عمر لطفى فسأله سائل : كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟ فقال : لست بقائد وهذا لايعنينى... فسأله : ولماذا لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك شاهرا سيفك فى حراسة خمسين من عساكر المحافظين وبذلك كان ينتهى الامر ؟ فأجابه : انصرف ليس هذا من شأنك وهل أنت محافظ البلد ؟ » ..

وجاء فيها أيضا قوله : « لم يصل الخبر عرابى الا الساعة الرابعة والربع بعد الظهر مع ان القليل من موظفى التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا فى تلغرافات المحافظ ، حتى ان رسالتين هامتين من أحد الميرالايات فى الاسكندرية لم تقبلا لاشتغال الكثرة بتلغرافات المحافظ »

وقوله : « ذهب نينيه عند قنصل روسيا وحدثه بما رآه من المحافظ فتعجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل ، وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابى ، وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر »

---

(١) عرشنا هذه العبارة من كلام الشيخ عن تقرير تشرشل الذى احتواه الكتاب الازرق رقم ٤ سنة ١٨٨٤ مصر .

وقوله : « سليمان سامى كان مستعدا لارسال العساكر اذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب احد بذلك الى النظارة لان الامر بيد المحافظ » .
وقوله : « عمر لطفى باشا طلب انزال جند انجليز لعجز عرابى عن حفظ الامن » .
وقال أحمد رفعت : « ولما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثنى عشر يوما سمعت الناس يقولون فى صوت واحد : ان المحافظ عمر لطفى هو الذى أدى بتفاقم الامر الى هذا الحد لانه كان حاضرا ولم يصدر اى أمر لايقافه »

هذا ما يتصل بموقفه السلبى من الاحداث ، ذلك الموقف الذى ينطوى على أشد الريبة ، وانه ليصعب على المرء أن يتصور أن محافظا فى مدينة ما يرى القتال بين الناس ثم يقف منه مكتوف اليد كما وقف عمر لطفى من حوادث الاسكندرية ، ثم لا يتهم بأنه ان لم يكن مدبر الجريمة ، فهو على الاقل راض عنها لانها جاءت وفق ما يريد ...

على ان جون نينيه يذكر نبأ عظيم الخطورة عن هذا المحافظ ويقول انه سمعه من سكرتير سيمور أدميرال الاسطول ومؤداه ان عمر لطفى ذهب الى ذلك الادميرال فى قارب بعد المأساة بأربعة أيام وطلب اليه أن ينزل جنودا بالاسكندرية لان عرابى لن يقوى على حفظ الامن

وقد رأينا أن الشيخ محمد عبده يشير الى شىء مثل هذا فى مذكرته ، كما ان أحمد رفعت بك يذكر مثل هذا النبأ فيقول : ان الخديو وقت الحادث أبرق الى لطفى أن يستعين بجنود من الاسطول لا بفرق من الجيش المصرى ، كأنما يستعجل توفيق الاحتلال ويخشى أن تفلت الفرصة من يده .

ومن أخطر ما يتصل بموقف عمر لطفى أنه كان يعلم قبل المأساة ان الاجانب يسلحون أنفسهم ، ثم لم يتخذ أى اجراء احتياطى لما عسى أن يؤدى اليه هذا التسليح، ولا هو أبلغ عرابى بشيء من هذا أو أبلغ الخديو ليتصل بعرابى ، وكان علمه بهذا التسلح حقيقة ثابتة ، فقد ذكر كوكسن فى رسالة منه الى مالت فى اليوم السادس من يونية أنه يعد العدة للتسلح ، ثم قال : « ويصح أن أذكر أن محافظ المدينـــة زارنى منـــذ أيام وكان معى بعض زملائى وأبلغنى أنه علم ان الاجانب يسلحون انفسهم» (١)

ولننظر بعد ذلك فى موقف الخديو من هذه المأساة ، ولنبين ماعسى أن يكون من صلة بينه وبين عمر لطفى ، وما عسى أن يكون من مغزى لهذه الصلة بينهما ...

ذكر اللورد راندلف تشرشل فى قرار اتهامه الذى أثاره فى مجلس العموم البريطانى فى سنة ١٨٨٣ ، ان الخديو توفيق ، اتصل ببعض البدو فى مديرية البحيرة وخاصة قبيلة أولاد على ، وذلك عن طريق مدير الاقليم ابراهيم توفيق ، وكان الخديو يرمى الى غرضين : اتخاذ هؤلاء البدو قوة له يقاوم بها قوة الجيش ، ثم الاعتماد عليهم فى احداث فتن وقلاقل تظهر الوزارة بمظهر العجز أمام دول أوربا ، وقد أنفق الخديو على ذلك نحو عشرين ألفا من الجنيهات وزعت على مشايخ هؤلاء البدو، واستقبل توفيق هؤلاء الشيوخ فى مقره وأكرم مثواهم واتفق معهم على أن يدخلوا عددا من أتباعهم القاهرة عن طريق الجيزة وكان يريد أن تقع الفتنة فى القاهرة ، ولكن هؤلاء البدو تخاذلوا عن القاهرة لما رأوا من يقظة الحكومة ، على أن عمر لطفى قد استعان ببعض هؤلاء البـــدو فى مأســـاة

---

(١١) مصر رقم ١١ ٠ ص ٥٢٠

الاسكندرية (١) ...

وذكر بلنت فى كتابه هذه المؤامرة وأكدها ، وكذلك ذكر أحمد رفعت بك فى تقرير كتبه فى سجنه ...

ويقول روثستين : « فى هذا اليوم وقعت بالاسكندرية مذبحة الاجانب التى دبرها الخديو ومحافظ المدينة عمر باشا لطفى ، وقام بها رجال البوليس وجماعة من الفتاك المستأجرين ، وهى مثل صحيح لما يقع فى زمننا هذا من مذابح اليهود المدبرة ...

لقد كان الخديو يعلم حق العلم أن هيجة صغيرة تقع بمصر انما هى ضالة السياسة البريطانية التى ما برحت تنذر بأشد الويل للاجانب اذا لم يقض على «الفوضى» التى يؤيدها حزب سامى وعرابى بنفوذه «العسكرى». وفى ٣١ مايو ، وليس قبل ، أنهى السير ادوار مالت الى اللورد جرانفل أن المسلمين والمسيحيين قد يصطدم بعضهم ببعض وقتا ما ، وقــد رأينــا أن ذلك ادى الى تعزيــز الاسطولين ...

ومع هذا فان الخديو باطلاع مستشاريه الاجانب ، أو بغير اطلاعهم قد عقد العزم على أن يتعجل تلك الفتنة المنشودة بشىء من الكياسة ولطف الحيلة اذا كان سير الحوادث الطبيعى لا يعجل وقوعها . ولكن ترى أين تقع هذه الفتنة ؟ انها اذا وقعت فى القاهرة فلا تؤمن عاقبتها على الاطلاق . ففى القاهرة عرابى ورفاقه ، وفى القاهرة الجيش الذى يستطيع أن يقطع دابر الفتنة فى طرفة عين ، أما اذا وقعت فى الاسكندرية فانها يكون لها شأن آخر . فمحافظ المدينة هو عمر باشا لطفى الذى كان

---

(١) الكتاب الازرق . مصر رقم ٤ ــ ١٨٨٤ ص ٢ ، وجاءت الادلة على استعانة الخديو بالبدو فى رقم ٧ ص ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ .

وطنى الميل زمنا ما ، والذى رشحه الخديو لنظـارة الحربية فى فترة اليوم التى أعقبت استقالة وزارة سامى فأصبح من مصلحته أن يعمل على سقوط عرابى » .

وقال اللورد تشرشل بعد أن أشار الى برقية توفيق الخطيرة الى عمر لطفى : « ان لدى أدلة على انه أثنـاء الاسبوع التالى ، أرسل حيدر باشا ابن عم الخديو مرتين الى الاسكندرية ، وكان يلقاه الخديو عقب عودته تحت ستار الليل ، وقد ثبت أن حيدر هذا نفسه كان حاضرا بالاسكندرية يوم الفتنة ومنها سافر الى القاهرة عقب الحادث مباشرة »

وأورد أحمد رفعت بك مثل هذه الرواية عن حيدر باشا وزاد عليها أنه صحب الخديو بعد ذلك عند سفره الى الاسكندرية ...

ولا يفوتنا ونحن فى صدد الكلام عن صـلة توفيق بالمأساة أن نشير الى برقيته الخطيرة الى عمر لطفى ، التى طلب اليه فيها أن يختار لنفسه ، هل يكون معه ، أم يكون مع عرابى ...

كذا لا يفوتنا ان نشير هنا الى ميله لانجلترا وقبـوله المذكرة المشتركة الثانية والى رغبتـه فى التخلص من عرابى وحزبه بأى ثمن ...

وقد ذكر أحمد رفعت بك فيما ذكره عن المأساة بعد نفيه من مصر : « فى يوم الاحد الموافق ١١ يونية كان المندوب العثمانى درويش باشا ، الذى وصل الى مصر قبل ذلك بثلاثة أيام ، يقطع فى عربته الطريق بين قصر الجزيرة وجسر قصر النيل وكان قد لقى فى مقره عرابى باشا والوزراء المستقيلين لقاء طويلا ، وكان متجها الى قصر الاسماعيلية حيث كان يقيم الخديو ليفضى اليه باتفاق كان يؤدى كما قيل الى صلح بين الخديو والوزراء

وعلى مقربة من الجسر قابله طلعت باشا سكرتير الخديو ، وقد أرسله سيده ليبلغه بأن فتنة وقعت فى الاسكندرية وأنها استمرت ثلاث ساعات وان الأوربين والمسيحيين كانوا يقتلون أينما وجدوا ، وقد أدى طلعت الرسالة فى مظهر المنتصر وظهر عليه سرور شديد ، وكأنما كان يريد أن يقول ان عرابى الذى عمل من أجله ما عمل كان سبب ما حدث ...

وأرسل درويش باشا أحد الضباط المرافقين له فى العربة ليعود من فوره الى عرابى ولما كنت حاضرا فقد افسحت لرسول درويش مكانا فى عربتى وأخذته الى بيت محمود سامى حيث كان عرابى حاضرا فى ذلك الوقت . وشاعت الانباء سريعا فى المدينة ، وقد انزعج لها الناس جميعا ، وأستولى الحزن على عرابى وصحبه أما فى قصر الخديو وحده فكان الفرح واضح المعالم »

وقدجاء فى تقريره وهو بالسجن ما لايخرج عن هذا ، وقد ذكر فى نهايته انه يستطيع أن يثبت ما يقول بشهادة شهود لا يمكن أن تحوم حولهم شبهة ...

***

ومما هو جدير بالاعتبار أن الخديو عين عمر لطفى باشا على الرغم من سلوكه أثناء الفتنة رئيسا للجنة التحقيق التى كلفت بالبحث عن المسئولين ، وكان أول شىء يجب أن يعمل لو سارت الامور سيرا بريئا أن ينحى عمر لطفى لكى يستطاع سؤاله عن أسباب تقصيره ، ذلك التقصير الذى لا يستطيع أن يمارى فيه أحد ...

وكان الفرض من لجنة التحقيق الصاق تهمة المذابح بعرابى وحزبه ، فلما لم يتيسر ذلك بأى وجه انسحب الانجليز كما سنرى من لجنة التحقيق ، ونصح الخديو

لعمر لطفى أن يطلب اجازة بحجة السفر الى خارج القطر للراحة

وبقى عمر لطفى بمصر حتى أعلنت الحرب ، ولما عزل عرابى فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو عينه الخديو وزيرا للحربية مكانه

ومما يذكر فى صدد هذا أن حيدر باشا كذلك قد ظفر بمقعد بين الوزراء ...

***

ننظر بعد ذلك فيما كان من أمر عرابى وحزبه تلقاء هذه الفتنة ، ولنبدأ بما ذكره روثستين فى هذا الصدد قال : « وأعجب ما يتصل بهذا الحادث وأغربه أنهم حاولوا فيما بعد أن يجعلوا لعرابى يدا فيه مع أنه قاسى من جرائه ما لم يقاسه غيره : فزعموا أنه ناسج برد المؤامرة لحمته وسداه ، والآمن بالمذبحة ، والناهى رجال الحامية عن التعرض لها . ولكن التهمة تطايرت بشكل يرثى له عندما أدركوا أن اللجاج فى الامر قد يزيح الستار عمن قاموا حقيقة بتلك الفظيعة المنقطعة النظير . ثم ظهرت الحقيقة على الرغم من ذلك كله ، وكان الفضل فى ظهورها راجعا الى جهود المستر بلنت . وفى سنة ١٨٨٣ بسط اللورد رندلف تشرشل لاعضاء البرلمان الامر بأجمعه » .

ونحسب أن المسألة واضحة كل الوضوح فى بعد عرابى وحزبه عن هذه المأساة فمما لاريب فيه أنها موجهة ضدهم ، فقد ضمن عرابى الامن ولايمكن أن يطعن نفسه بنفسه فيأتى بما يهدم كل ما يدعى ، كذلك ما كان من الممكن أن يقف سليمان سامى قائدحامية المدينة مكتوف اليدين من المأساة لو أنه أحيط علما بها وقد علم أن تبعة الامن ملقاة على عاتق عرابى ...

وقد أرسل كوكسن برقية الى مالت عقب اعادة عرابى الى الوزارة يصف الاسكندرية فقال : « كل شيء هنا هادىء ، والسلطات المحلية تؤكد لى أنه لا خوف من وقوع اضطراب ، وقد تلقت فرق الجيش ردا من القاهرة اتفقت بناء عليه أن تظل ساكنة فى الوقت الحالى »

ولم يكن لعرابى من سلطان على عمر لطفى اذ كان هذا بعد استقالة البارودى يتلقى الامر من الخديو مباشرة ، وقد ثبت أنه لم يتصل بعرابى عند وقوع المأساة حتى يمكن أن يقال ان عرابى تراخى فى الاشارة عليه بما يجب أن يعمل

هذا وقد أعاد الجيش الامن الى المدينة بأمر من عرابى بمجرد ان علم بالنبأ ، ومما هو جدير بالنظر أنه لم يحدث بعد ذلك في المدينة حتى وقعت الحرب أى شغب منذ أن تدخل الجيش وفطن الحزب الوطنى الى الدسيسة

ولقد كان وقع النبأ أليما فى نفس عرابى ونفوس أصحابه ، حتى ان عرابى ظل صامتا مكتئبا بضغط بيده على قلبه ويتنهد تنهدات طويلة (١)

واهتم عرابى بالتحقيق اهتماما كبيرا يتضح ذلك فيما أرسله الى سليمان سامى اذ يقول : « لست تجهل أهمية مركزك فى الوقت الحالى فيما يتصل بلجنة التحقيق ، وذلك لان أعضاء اللجنة ليسوا كما تعلم مساوين فى العدد لاولئك الذين يهمهم شرف الجيش والامة ، وهذا يجعل من الضرورى أن تتخذ كل الحذر أثناء التحقيق وأن تعمل على كشف الدافع الحقيقى الى هذه الفتنة »

والامر كما نذكر لايحتاج الى كثير من القول ولا الى

---

(١) مما كتبه صابونجى الى بلنت عقب الحادث ٠٠ (٢)

قليل لبيان موقف عرابى وحزبه ، فاذا أراد المرء أن يبحث عمن ارتكب جريمة ما فلينظر من له مصلحة فى اقترافها ، ولقد كان فى هذه المـأساة الضرر كل الضرر على عرابى وعلى قضية الحزب الوطنى

***

يأتى بعد ذلك الكلام عن موقف الانجليز من المأساة ، وأول ما نذكره أن ذلك المالطى الذى قتل السيد العجان كان أخا لخادم مستركوكسن ، وقد يكون ذلك من قبيل المصادفات ، ولكنه لايمنع من القول بأنه تجرأ على الطعن لما كان يعلمه من نية مبيتة بينه وبين أشباهه من المالطيين

وكذلك نذكر أنه كان بين القتلى رجل يدعى ستراكت وكان يعمـل خادما للسير بوشمب سـيمور أدميرال الاسطول وقد أقسم هـذا الأدميرال العظيم الذى جاء لضرب الأسكندرية أن يثأر من أهل المدينة لمصرع خادمه(١)

على أن هناك من الشبهات والقرائن ما هو أهم وأقوى من هاتين القرينتين ، وحسب المرء أن يقلب صفحات الكتاب الازرق ليرى أنه تلقاء يقين لا يخالطه شك ...

ولقـد أشرنا الى بعض ما كان يدبره مالت وكوكسن وأشياعهما ، ونكرر هنا الاشارة الى برقيـة كوكسن الخبيثة بأن تصادما سوف يقع بين المسـيحيين وبين المسلمين ، وكذلك نعيد الاشارة الى ما أرسله مالت الى جرانفل فى اليوم السابع من مايو ومؤداه أنه لابد من حدوث ارتباكات قبل تسوية المسألة المصرية وان الاصوب استعجال هذه الارتباكات لا تأجيلها (٢) .

ونعود بالقارىء الى ما سقناه من أدلة على ان المأساة

(١) S. H. Blunt, P. 317
(٢) Blue Book, Egypt, No. 7; P. 107

مدبرة ، وخاصة تسليح الاجـــانب أنفسهم ، ولنبسط القول بعض البسط فى هذه المسألة ، فنقول ان كوكسن كان دائب السعى فى تسليح الاجانب وخاصة الانجليز كما هو ثابت صراحة فى الكتاب الازرق ، وقد اتصـــل بالسيرسيمور أكثر من مرة كما اتصل بالسـير ادوارد مالت مرات ، وكان يقول لمالت كل مرة انه يحرص على سرية هذا التسليح مخافة أن يحدث ذعرا اذا عرف ، والواقع ان الغرض منه كان تبييت الغدر حتى تحين الساعة المقصودة ...

وليس يخفى ماينطوى عليه هذا التسليح من تحريض على الفتنة بطريق الايحاء ، ولعل ذلك ما دعا مالت الى شىء من التحفظ ليفلت من التبعة ويتضح هذا التحفظ فى برقية منه الى اللورد جرنفل يوم الفتنـــة بالذات اذ يقول : « لى الشرف أن أذكر لفخامتكم أن قنصل السويد العام وصل اليوم من الاسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع العام عن الاجانب ورغب فى موافقة ممثلى الدول عليه ، وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة آلاف او أربعة آلاف تمهيدا لهذا الدفاع عمل بالغ الخطورة ، وانه بجانب ذلك عمل فى ذاته يفضى الى التصادم فى أى وقت ، وعلى ذلك فقد أتصلوا بقناصلهم كيلا يشاركوا فى شىء من هذا ، وبناء على ذلك أبرقت الى مستركوكسن الا يشارك بعد الآن فى شىء منه ، وفى حال ما اذا خيف الخطر على البريطانيين فعليه أن يعتمـد على مساعدة الادميرال وأن يعمل حسبما يشير به من نصائح ، ولما وجدت الامر يقضى أن تبقى تعليماتى سرية اذ أنها تتصل بالرجوع فجأة عن خطة بانت معلومة الى حد ما ، فقد أشرت على مستركوكسن بأن يجعل ما سلف من الامور السرية وفى الوقت نفسه عليه أن يحاول أن يقضى على

المخاوف بأن يذيع أنه ليس ثمة نزاع بين الوطنيين والاجانب ، وان المفاوضات في الوقت الحالي في يد درويش باشا المندوب العثماني الذي يعمل باسم السلطان . وطلبت الى مستر كوكسن أن يطلع على هذه التوجيهات الادميرال السير . ب . سيمور » .

وأدعى من هذا التسليح الى اثارة الشبهة موقف الانجليز من التحقيق الذي أزمعت وزارة راغب باشا اجراءه عقب تأليفها ...

أراد الانجليز أن يعزوا هذه المأساة الي عرابى ، ولم يعنوا بالبحث عن الحقيقة في ذاتها ، وقبلت ضمائرهم أن يتجهوا هذا الاتجاه وهم الذين طالما عابوا على الشرقيين انحطاطهم وتفاخروا عليهم بمدنيتهم ، أرسل جرنفل الى مالت يقول له : « أطلب اليك أن تتخذ الخطوات التى تؤيد هذا الدليل وخاصة ما يتصل منه بمسلك نديم ووكلاء عرابى وعلاقة قنديل بعرابى »

ثم تلقى كارتريت نائب قنصل الاسكندرية من جرنفل برقية بتاريخ ٢٤ يونية وفيها يقول : « لقد ذكر فى الصحف العامة أن راغب باشا أمر باجراء تحقيق فى الاضطرابات التى وقعت بالاسكندرية يوم ١١ الحالى ، واذا كان الامر كذلك فان حكومة جلالة الملكة ترغب منك أن تقف بمنأى عن هذا التحقيق، وعليك أن تخبر قنصل جلالتها بما تلقيت من توجيهات فى هذه المسألة »

ونفذ كارتريت ما أمر به وأغرى زميله القنصل الفرنسي بأن يسلك مسلكه وكان سبب انسحاب هذين من لجنة التحقيق أن اللجنة أرادت أن تفتش منازل الاجانب والوطنيين على السواء ، وكان أولى بهما لو أرادا انصافا أن يزدادا اطمئنانا الى عدالة اللجنة بهذا القرار وأن يجعلاه سببا لانضمامهما اليها لا لابتعادهما عنها ...

وعرض راغب باشـــا على الاجانب أن يؤلفوا لجنة جديدة يحدد عملها فرفض كارتريت هذا العرض وأيده جرنفل فى رفضه • وفى الوقت نفسه طلب الى كارتريت أن يجمع المعلومات لحسابه هـو وخاصة ما يتصـــل منها بمسلك وزارة الجهادية تجاه الحادث وبما حصل من تأخر فى ارسال الجنود الى أمكنة الاضطرابات (١)

علق اللورد رندلف تشرشل على ذلك بقوله : «وهكذا نرى ان الاضطغان المتعمق فى نفس اللورد جرنفل على الحزب الوطنى ، وان الاعتقاد القائم على غير أساس منه ومن السير ادوارد مالت بأن المذابح كانت من صـــنع الحزب العسكرى ، وبأن عرابى وأصـــحابه أرادوا أن يطمسوا الحق بأى ثمن – وقد كانوا فى الواقع يعملون على ابرازه – •• نرى ان ذلك كان سببا فى صـــد التحقيق عن وجهه ، ذلك التحقيق الذى أجرى عقب الفتنة مباشرة وكان صنيعا فذا من عرابى باشا ، وفضلا عن ذلك فانه كان من الاهميـــة بمكان عظيم أن يعقب التحقيق الفتنة مباشرة لا ابتغاء الوصـــول الى معرفة مدبرى الفتنة فحسب ولكن لمنع ما قد يعقبها من ظلم ، وكان التحقيق عقب الحادث هو الوسيلة فى ذلك الوقت فقط التى بها يمكن الوصول الى أدلة يوثق بها ، وليس من ريب فى أنه بناء على تعطيل التحقيق على يد اللورد جرنفل قد عوقب كثير من الابرياء ومن سيئى الحظ بالموت والنفى والسجن » .

وثمة حقيقة أخرى جديرة بكل اعتبار فى صدد الكلام عن سياسة الانجليز فى المأساة وهى خليقة بأن تثير أكبر الشبهات ، وذلك انه ما من برقية أو رسالة بين الخديو

---

(١) Egypt No. 17 P. 61

ومالت أو بين مالت وسيمور أو بين عمر لطفى والخديو، عما كان يحدث أثناء الفتنة ، ما من شيء من ذلك اثبت فى مجموعة الكتاب الازرق ، ولا يعقل بأية حال أن المخابرات انقطعت بين هذه الجهات أثناء وقوع الاضطرابات

وحقيقة أخرى جديرة بالنظر ، وقد سبق الاشارة اليها فى موضع آخر وتلك هى اطلاق النار من النوافذ على الوطنيين بمجرد مقتل السيد العجان على يد ذلك المالطى الذى هو شقيق خادم كوكسن ، فكأن الاجانب أعدوا هذا الحادث ايذانا ببدء ما سبق به الاتفاق ...

ويتصل بذلك ماذكره جون نينيه فى قوله : « وفى طريقى قابلت مستر كوكسن فى عربة وأخبرنى أحد الواقفين بجانبى انه كان فى بيت أحد المالطيين أثناء اطلاق النار ، وانه اعتدى عليه عند خروجه من ذلك البيت لان الدهماء عدوه مسئولا عن اطلاق النار » .

ولا يفوتنا كذلك أن نشير الى مساعى مالت وكوكسن بوجه عام ضد وزارة البارودى وضد عرابى منذ قامت هذه الوزارة ، ومزاعمهما عن تسلط الحزب العسكرى ، ورغبتهما الملحة فى اسقاط تلك الوزارة التى اعلنت الدستور وقضت على نفوذ الرقيبين الاجنبيين ، والتى زادت روح الوطنية تأصلا فى نفوس المصريين بحيث بات يخشى الاجانب استعصاءها على المقاومة لو تركت وشأنها ولقد ازداد غضب مالت وكوكسن بصفة خاصة منذ عودة عرابى الى الوزارة بعد سقوطها والتجاء الاجانب والوطنيين اليه لحفظ الامن ، واعلانه أنه يأخذ ذلك على عاتقه ، وواضح أن نجاحه فيما تعهد به اسقاط لحجتهما من أساسها ، وقضاء على محاولتهما الشيطانية لتنفيذ السياسة المرسومة ، سياسة احتلال مصر ... .

والآن بعد أن أثبتنا أن المأساة مدبرة ، وبعد الذى

عرضناه من مسلك عمر لطفى ومن ورائه الخديو ، ومسلك الانجليز قبل المأساة وبعدها ، يمكننا القول فى غير أدنى شعور بالحرج أن المأساة كانت من تدبير مالت وكوكسن وقبيلهما من شياطين الاستعمار ، وأن عمر لطفى كان شريكا لهما فيما دبرا ، ان لم يكن بالتواطؤ الصريح فبالموافقة الضمنية ، كمن يعلم سلفا أن نارا سيشعلها بعض الجناة فيظل يرتقبها لأن له مصلحة فى اشعالها ، حتى اذا اندلعت السنتها تركها تأكل كل شىء ، ويزيد فى تبعته أنه كان بحكم منصبه المسئول الاول عن الامن فى المدينة .

والحق عندى ان كوكسن ولطفى كانا فى الشر سواء ، ولا يقل احدهما تبعة عن صاحبه فى تدبير هذه المأساة

ولايستطيع منصف أن يبرىء عمر لطفى الا اذا استطاع أن يبرىء كوكسن ومالت ، ولن يبرأ هذان الا اذا أدين عرابى وأصحابه ، وهو ما لم يستطع أعداء عرابى بكل ما وسعهم من جهد أن يصلوا اليه ...

قال الشيخ محمد عبده : « وفى يوم هذه الحادثة توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الامن العام ، ومن المعلوم أن موظفى السراى لا يقولون الا ما يسر الخديو ، فاذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا والا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم (١) .

وبعد اثنى عشر يوما من هذا التاريخ كنت فى الاسكندرية فسمعت الناس جميعا يقولون ان المحافظ عمر لطفى سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقيما فى

(١) ذكر أحمد رفعت بك شيئا كهذا عن موظفى السراى .

البلد ولم يصدر أمرا بتوقيفها ، ولم يذهب الى مكان الفتنة الا بعد مضي وقت ، ولم يطلب مساعدة العسكر النظامى مع انهم كانوا على مقربة منه ، وأجمع الناس على أن عمله هذا موعز به من الخديو ، وعلمنا أيضا انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتجول من مكان الى آخر واذا بأجنبى فى شباك وفى يده مسدس فقال أحد البدو : أارمى هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له : ارمه ، فأطلق البدوى عليه الرصاص فقتله ، وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه فى ذلك اليوم الاسود .. وقد سمعت أيضا آنه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى البوليس ألا يتدخل قائلا : دعوا أبناء الكلاب يموتون .

ولم تسأل اللجنة التى تألفت للنظر فى أسباب هذه الفتنة عمر لطفى عن شىء مما حدث مطلقا بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستقيل بحجة المرض .

كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة ، وقد أهمل أمر القيام بحفظ الامن العام على انه هو الشخص الوحيد المسئول عنه . هذا اذا لم نقل انه هو المحرض عليها ، فاذا كان فعل ما فعل اطاعة لامر عرابى كما ادعى ، مع ان وظيفته تابعة رأسا الى الخديو — لان الخديو أصدر أمرا خاصا صرح فيه انه بعد استقالة وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشئونها الى السراى — فكيف نعلل تعيينه وزيرا للحربية جزاء لطاعة عرابى وعصيانه لسيده الخديو ؟ واذا كان الامر اهمالا منه فكيف يصح مع اهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيرا للحربية ؟ ولماذا لم يسأل سؤالا واحدا عما جرى مع انه كان يجب أن يكون أول من يسأل ؟

لاريب فى أن استقراء بسير الحوادث، يظهر اتم الظهور

ان الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كانا سبب هـذه الفتنة ، أى مذبحة الاسكندرية » (١) .

ويعتقد برودلى اعتقادا جازما بادانة عمر لطفى، فقد كتب اليه اللورد تشرشل يسأله رأيه عقب عودته من مصر ليقدم هذا الرأى الى جلادستون ، فكتب برودلى اليه ، بأنه سأل فى السجن اثنين من كبار السياسيين النابهين لا ترقى اليهما شبهة ولا تخفى عنهما حادثة (٢) فتوافقت روايتاهما بما يدين عمر لطفى وكانا كل فى معزل عن صاحبه فى السجن بحيث لايمكن التقاؤهما..

اما كوكسن فقد لعب فى هذه الفتنة دور الشيطان ، ويقينى انه لو سـار التحقيق كما أراد عرابى لاخـذ بجريمته ، ولكن توفيق بادر بتعيين عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولم يعارض عرابى فى هذا رغبة منه فى المحافظة على المودة بينه وبين الخديو ، وقد أقسم كل منهما قبل ذلك بأيام على أن يحمى الآخر كما يحمى نفسه ، ثم أحبط الانجليز عمـل اللجنـة بانسـحاب مندوبهم منها فنجا كوكسن من الاتهام ...

أما الغرض من تدبير هذه المأساة فيتبين لنا فى تتبع سير الحوادث صوب الهدف المقصود، وحسبنا أن نذكر الآن انها كانت من أقوى الضربات التى نزلت بالحركة الوطنية القومية وكانت فاتحة المآسى التى سوف يأتى بعضها فى اثر بعض حتى تقع المأساة الكبرى يوم التل الكبير

---

(١) تعرب ما ذكره الشيخ للمستر برودلى المحامى أثناء المحاكمة حسب ما أورده الشيخ رشيد رضا وهو يطابق الاصل الانجليزى .

(٢) كان يقصد الشيخ محمد عبده وأحمد [illegible] رفعت وقد حذف اللورد اسميهما واقتنذ خوفا عليهما .

تم الجزء الاول

فهرس

العدد القادم :

الجزء الثانى والأخير

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

«أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه» هو كتاب من أهم الكتب التى صدرت فى المكتبة العربية الحديثة ، وقد صدر هذا الكتاب فى طبعته الاولى المحدودة قبل الثورة ، واثار غضب الملك فاروق والسلطة الحاكمة آنذاك ، فقد اثارهم أن مؤلف الكتاب : الشاعر والمؤرخ والناقد المرحوم محمود الخفيف دافع فيه دفاعا علميا وعاطفيا مجيدا عن أحمد عرابى حيث جعل شعار كتابه « أما آن للتاريخ أن ينصف هذا الزعيـــــم الفلاح ؟ » ، ولذلك اتجهت السلطات الحاكمة فى ذلك الحين الى تشريد مؤلف الكتاب محمود الخفيف، وكان موظفا كبيرا فى وزارة المعارف ، فصدرت قرارات عديدة بنقله من مكان الى مكان بقصد ازعاجه وارباك حياته ، كما كان معروفا لدى الجميع انه من « المغضوب عليهم » من السلطات مما جعله يعيش فى ظروف معنوية ومادية صعبة . ولقد كان محمود الخفيف كاتبا لامعا ، ولعله أبرز كتاب التراجم التاريخية والادبية فى مكتبتنا المعاصرة كلها ، فقد كتب عن « تولستوى » و « ملتن » و « لينكولن » وكتب هذا الكتاب الرائع الذى نقدم اليوم الى القراء العرب فى كل مكان القسم الاول منه على أن نقدم القسم الثانى فى الشهر القادم . ولكن محمود الخفيف لم ياخذ حقه الادبى الكامل بسبب الحرب التى واجهته فى حياته وبسبب انصرافه الكامل للعمل الفـــكرى والثقافى وانصرافه عن الحياة الاجتماعية والعلاقات العامة . وكتابات محمود الخفيف - كما سوف يظهر للقارىء بوضوح من خلال هذا الكتاب الهام - تتميز بالثقافة الواسعة وبالاسلوب الممتع فقد كان الى جانب ثقافته العلمية والتاريخية شاعرا ، كما يتضح لنا أيضا من هذا الكتاب بالذات : يقظة ضميره القومى بصورة رائعة ، ففى هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الدفاع عن عرابى بل لعلها الوثيقة الوحيدة فى المكتبة العربية ، وعرابى زعيم ظلمه الكثيرون ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى .. فجاء كتاب محمود الخفيف لينصفه بالحق والعلم ، وليقدم نموذجا رائعا للـــكتابة التاريخية ... كيف يمكن أن تصبح هذه الكتابة علما راقيا وادبا رفيعا فى نفس الوقت .

١٥ قرشـــا

